اللمسة الإنسانية

لمحات فى فن التعامل مع الأبناء

تأليف
د. محمد محمد بدري

دار الصفوة

حقوق الطبع والصف محفوظة

الطبعة الثالثة

(١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)

رقم الإيداع

(٢٠٦٢٤/ ٢٠٠٤)

الترقيم الدولي

I.S.B.N.

977 – 5959 – 61 – 6

دار الصفوة

للنشر والتوزيع

٤٢ ش جزيرة بدران روض الفرج شبرا ت وفاكس ٥٧٧٤٩٢١

E-mail. darelsafwah@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إهــــــــداء

إلى والديّ.. اللذيّن أدعو لهما

« ربّ ارحمهما كما ربّياني صغيراً »

إلى أبنائيّ..

الذين كانت تجربة تربيتهم هي مادة هذا الكتاب

إلى كل الآباء والمربين..

الذين يحاولون صناعة الإنسان الصالح ..

محمد محمد بدري

مقدمة الطبعة الثالثة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله..

أما بعد:

فقد طلب بعض الأحبة إعادة طباعة هذا الكتاب، فتأملت أفكاره، وتواصلت مع بعض من قرءوا طبعتيه الأولى والثانية من الآباء والمربين، فكنت أسمع تعليقات كلها تدور حول معنى واحد «هذه الأخطاء التربوية هي بالفعل ما يحدث منا جميعًا»!! ثم يعبر الجميع عن رغبتهم في معرفة «كيف» يُقلعون عن هذه الأخطاء، أو على الأقل يقللون منها؟!

وحين تأملت هذه التعليقات؛ أدركت أن واقعنا التربوي قد تحوّل إلى ما يشبه مياه المحيط، والتي كلما تعمّق فيها المرء،كلما ازدادت ظلامًا، وازداد ضغطها على جسمه وعقله، حتى أنه ـ ربما ـ فقد القدرة على فهم ما يحدث فيه، أو حتى تفهمه ..!!

وقد دفعتني هذه الحقيقة إلى شعورٍ بأن ما كتبته لا يُبرز منهج التربية الإسلامية بما يستحق من تقدير، إذ أني رأيت كثيرًا من أساليب هذا المنهج لم تأخذ حقها من الكتابة بشكل وافٍ.

ولكني ـ في المقابل ـ كنت أشعر بالرضا عن بعض الأساليب التي وفقني الله إلى توضيحها، وهذا ما جعلني أقدم على إعادة طباعة الكتاب..

وأود أن أتناول في هذه المقدمة الإشارة إلى أن الكثيرين من الآباء والمربين قد يوافقون على أفكار هذا الكتاب «نظريًّا» ولكنهم في الواقع يكونون من أكبر معوقيها؛ ربما بسبب ما يحملونه من أفكار تربوية لا تقبل ـ عندهم ـ التغيير. ولذلك تراهم يقبلون ما يحويه الكتاب من أفكار، لكنهم في ذات الوقت لا يحاولون ـ مجرد المحاولة ـ التغيير من السلوكيات التي تعودوا عليها في تربية أبنائهم!!

فهل يدرك هؤلاء الآباء والمربون، أنه لكي يساعدك الآخر، لا بد أن تمد يدك؟!! فالبداية دائمًا تحتاج إلى الخطوة الأولى.. ونقطة النهاية لن تتحدد دون تحديد نقطة البداية.. والبداية هي منا نحن الآباء والمربين..

البداية هي أن نعلم أن الأبناء هم منحة الله لنا كآباء، وأن رعايتهم بـ«حب» وعدم التصرف معهم كجلادين أو قضاة، هو الشكر الواجب لهذه النعمة الإلهية..

إن من أوجب واجباتنا ألا ننظر إلى أبنائنا بمنظار أسود.. وألا نضخم سيئاتهم ونلغي حسناتهم.. بل نلتمس لهم الأعذار، ونستنبط لهم سبعين عذرًا، فإن لم تقبلها قلوبنا رددنا اللوم على أنفسنا، وقلنا لقلوبنا: ما أقساك..!!

إن عالم الأبناء عالم غريب، والتأثير فيه يتطلب أن نتمكن من الدخول إليه، وليس هناك من طريق يوصِّل إليه إلا الحب والرحمة.. فالمربي الحكيم يجب أن يكون مرشدًا وليس حكمًا.. قدوة، وليس ناقدًا.. جزءًا من الحل، وليس جزءًا من المشكلة... لا يدخل إلى إرشاد أبنائه من باب اللوم والاتهامات.. وإنما من باب الحب والإرشاد برفق، يقودهم قيادة القلوب، لا قيادة الأبدان.. قيادة الرضا لا قيادة الضغط.. قيادة الحب، لا قيادة الإرهاب..

إن هذه القيادة هي القادرة ـ بإذن الله ـ على إخراج الابن من عبادة العباد إلى عبادة الله، ليكون عبدًا ربانيًّا.. ودفعه إلى الاستقامة على السلوك الحضاري، ليكون

مثالاً إنسانيًا.. وتدريبه على مواجهة تحديات الحياة، ليكون إنسانًا ناجحًا..

وكل هذا هو ما يمكن أن نطلق عليه أنه نجاح للتربية في «صناعة الإنسان الصالح»..

ختامًا نؤكد..

إن المنهج الإسلامي في التفكير والنظر منهج واقعي، وجاد..

ومن هنا فهو لا يسمح لأصحابه أن يبذلوا جهودهم لمجرد البحث والدراسة والثقافة، وإنما هم يبذلونها لتصبح واقعًا حيًّا ومتحركًا، تراه العيون، وتلمسه الأيدي، وتلحظ آثاره العقول..

ومن هنا.. فهذه الدراسة ليست مجرد كلمات قيلت لمناسبة أو غير مناسبة، وإنما هي محاولة لصناعة الإنسان الصالح من خلال بذل الجهد التربوي.. وهي محاولة أشعر معها شعورًا عابرًا بالسعادة لأني أتممتها.. ولكني في ذات الوقت، أشعر شعورًا آخر بأرق فكري، لأني لم أستطع أن أحيط بما أردت.. ذلك أن كل ما نبشته، أو خضت فيه بقدر ما، يدعو إلى المزيد من البحث والدراسة..!!

أقول ذلك استثارة وتحفيزًا لأهل العلم، ليتفضلوا بسد هذه الثغرات في مكتبتنا.. وكلي أمل أن أجد في وعيهم ووعي القراء الفكر الناقد الذي يواجه أفكار الكتاب بروح «ناقدة» تهدف إلى إثرائها، وتعميق معالجتها، وتدقيق طرحها..

وآخر دعوانا، أن الحمد لله رب العالمين.

محمد محمد بدري

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أمّا بعد:

فلا شك أن التربية الإسلامية فن يجب على الآباء والمربين إتقانه..

ولا شك أن هذا الإتقان يستلزم الإحاطة بأهداف التربية ، ووسائلها ، والبيئة المحيطة بالمربين ، والنواحي النفسية والعقلية للمتربين..

ولا يعنى ذلك أن يدرس الآباء والمربّون كل هذه العلوم، وإنما القصد الإحاطة بالوسائل التربوية الصحيحة التى تمكّن من معرفة المدخل الصحيح لكل ابن، والمفتاح الذى يفتح الله به قلبه للتنشئة الإسلامية .

ولا شك أن المكتبة الإسلامية تزخر بالكتب والمقالات والدراسات النظرية التى تبرز بوضوح الآداب الإسلامية التى ينبغي أن يتربى عليها الأبناء، ولكنها تفتقر افتقارًا شديدًا للجانب العملي المتعلق بالممارسات التطبيقية التى تبين كيف يتوصل المربّون إلى تربية أبنائهم على تلك الآداب ؟!

وحتى لا تبقى التربية الإسلامية شعارًا يتردد على الألسنة وفى الكتب دون تطبيق أو ممارسة واقعية ..

وللخروج من مأزق التأليف المكتبي، إلى الكتابة من خلال تحويل التجارب العملية إلى مناهج تربوية ..

فقد حاولت كتابة هذا البحث من خلال تجربة تربية أبنائي ، حتى لا تكون أحكامي التربوية هى أحكام " مكتبية " .. نتيجة القراءة ، بل تكون أحكامًا واقعية نتيجة مواجهات حقيقية مع مشكلات الحياة .. فالكتب تميل غالبًا إلى ما " ينبغي " أن يكون .. أمّا واقع الحياة ، فيعطينا " كيف " يكون؟ .. وبين ما " يجب " أن يكون، و" كيف " يكون مساحة لا بد أن يملأها المربي بما يمكن أن نطلق عليه " فن الممكن فى واقع مستحيل " !!

إن العمومات التربوية التى تحويها الأبحاث التربوية - وإن كانت مفيدة - إلا أنها تكون قليلة الفائدة حين نحتاج كآباء إلى نصيحة مباشرة نتعلم من خلالها ما يمكن قوله حواريًا لأبنائنا فى المواقف المختلفة ، وما هي العبارات والكلمات التى تؤدي إلى تفاهم أفضل مع أبنائنا ؟ ، وما هي كيفية التعامل معهم التى تؤدي إلى العيش فى احترام وتكريم متبادلين ؟

وهذا ما حاولته من خلال هذا البحث.. إبراز الجانب العملي التطبيقي ، وصياغة الأساليب التربوية التطبيقية التى تكون دليلًا عمليًا يعرّف المربين كيف ينزلون القيم الإسلامية على واقع حياتهم وحياة أبنائهم من خلال وسائل متجددة فى التربية الإسلامية ، تخرجنا من العجز عن الإعتبار بالماضى ونقل خبراته ، إلى القدرة على إصلاح الحاضر وإبصار المستقبل .

إن الكثيرين منا مازالوا يعكفون على الوسائل القديمة فى التربية دون أدنى مواكبة لمتغيرات هذه الوسائل ، وهم فى ذلك كمن يطرق الحديد البارد ، أو يحاول طحن الماء .

وحتى لا ننشغل فى تربية أبنائنا بالأبواب التى أغلقت عن الأبواب التى فتحت ؛ فنحن فى أمس الحاجة إلى مراجعة وسائلنا التى فقدت جدواها ، وقبول بعض وسائل الآخر التى هى فى حقيقتها تجارب بشرية تمثل الحكمة التى هى ضالة

المؤمن أينما وجدها فهو أولى الناس بها .[١]

ومن هنا فقد استفدت فى الجانب العملي لهذا البحث من بعض الدراسات العربية ، وكثير من الدراسات الغربية المترجمة، حيث احتوت هذه الدراسات على الكثير من الأساليب التربوية التى يمكن أن تمارس فى عملية التربية دون أدنى تعارض مع المفاهيم الإسلامية .[٢] فكانت هذه اللمحات فى فن التعامل مع الأبناء هى نتاج البحث والإستقراء لكتب التربية ، كما هى فى ذات الوقت استرجاع لما تحفظه الذاكرة من حوادث التربية لأبنائى ..

وقد أسميت البحث " اللمسة الإنسانية " لإحساسي أننا فى أمس الحاجة إلى أن نضفى على تعاملنا مع أبنائنا لمسة إنسانية حانية .. تلك اللمسة التى تؤكد وجهًا من أهم وجوه السمو الإنساني للتربية الإسلامية .. والتى تتحول التربية فى غيابها إلى سوط يلهب الظهور ، لكنه لا يزكّي القلوب ..

وقد أجملت هذه اللمسة الإنسانية فى عشرة أبواب تجمعها حروف كلمة **Human touch** الإنجليزية [٣]

١- الباب الأول : إستمع إليه	**H= Hear him**
٢- الباب الثاني : إحترم مشاعره	**U=Understand his feelings**
٣- الباب الثالث :حرّك رغبته	**M=Motivate his desire**
٤- الباب الرابع : قدّر جهوده	**A= Appreciate his efforts**
٥- الباب الخامس : مُدّه بالأخبار	**N= News him**

---

(١) قال ﷺ: " الحكمة ضالة المؤمن ، أينما وجدها فهو أحق الناس بها " رواه الترمذي وابن ماجه.

(٢) إننا لا نستقي الأصول من أي مكان فى الأرض إلا من كتاب الله وسنة رسوله ، أما التطبيقات.. فقد نجد عند غيرنا الكثير مما ينفع فلا بأس من أخذه من هناك.

(٣) تضمنت إحدى الدراسات الحديثة قواعد الاتصال الناجح ، و أدرجتها تحت الكلمة الإنجليزية " **Human Touch** " أي اللمسة الإنسانية . وقد استخدمت هذه الأحرف كعناوين – فقط – لهذه الدراسة .

٦- الباب السادس : درّبه	T=Train him
٧- الباب السابع : أرشده	O=Open his eyes
٨- الباب الثامن : تفهّم تفرده	U=Understand his uniqueness
٩- الباب التاسع : إتصل به	C=Contact him
١٠- الباب العاشر : أكرمه	H=honour him

وقد قمت بالتقديم لهذه الأبواب بـ " تمهيد " بعنوان " تربية الأبناء فى الزمن الصعب " ، حاولت فيه الإجابة على ثلاثة أسئلة : ما هو هدفنا فى التربية ؟ .. وما هي وسائلنا إلى هذا الهدف ؟ .. وما هى صفات الواقع الذى نحاول تربية أبنائنا فيه؟ ..

أيها الآباء .. أيها المربون :

إن هدفنا هو "صناعة الإنسان الصالح " ، وكلمة " صناعة الإنسان " جميلة، ولكن ثقلها أعظم من الجبال .. وإمكانية الحماس لها سهلة ،أما تطوير الإمكانيات من أجلها فهو الأمر الذى دونه خرط الجبال كما يقولون !!

فلا بد من بذل الجهود فى سبيل هذه " الصناعة " ، فهي صناعة المستقبل .. واليقين أن تلك الجهود لن تذهب سدى مهما كان فساد الواقع ، وأنها إن ذهبت مع الريح اليوم — كما قد يتوهم البعض — فإنها ستذهب غدًا بأوتاد الفساد التى تقف فى وجه الإسلام .

وختامًا ..

فقد حاولت أن أقدم الوسائل والأدوات التى " ربما " .. وأؤكد على "ربما " تكون السبيل الصحيح لتربية أفضل لأبنائنا فى هذا الزمن الصعب .. فى محاولة للتعبير عن حبي لهذا الجيل من الآباء والأبناء ، وثقتي فى أننا قادرون ـ بإذن الله ـ على تخطي مشاكل واقعنا الصعب وتربية أبنائنا على أفضل ما يكون .

وهي محاولة لا تتجاوز فتح الباب ، ووضع سهم لتحديد الإتجاه صوب هذا الموضوع الهام .. وخطوة فى طريق التطبيق العملي لمنهج التربية الإسلامية تتبعها خطوات – إن شاء الله – لوضع النماذج التربوية المتكاملة للمربين .

أسأل الله أن يكون فى هذا البحث ما يفيد ، وأن يجعله الله خالصًا لوجهه الكريم. وأن يرزقني سبحانه من وعي القراء ما يساعد على نقده وترشيده ، وتهذيبه والإضافة إليه بما يثرى إيجابياته ، ويلفظ سلبياته ، ويقرّب من جدوى ثماره.

محمد محمد بدري

تمهيد
تربية الأبناء في الزمن الصعب

لاشك أن من الأهمية بمكان، أن ندرك بوضوح ما هي صفات الجيل الذي نريد؟

كما أنه من الواجب أيضًا، أن ندرك بنفس الوضوح، ماذا نمتلك من وسائل الوصول إلى هذا الهدف؟ ..

ولكن هذا وذاك لن يكون موصلًا إلى تربية إسلامية جيدة، حتى ندرك أين نعيش؟ فتصبح معطيات عصرنا الذي نعيشه بين أيدينا ..

فإذا امتلكنا هذا" العلم" ، فقد تمهّد طريقنا للقيام بالمهمة الشاقة .. مهمة "تربية الأبناء في الزمن الصعب " ..

أولًا : الهدف .. ماذا نريد ؟ :

لكل عمل هدف وغاية تكون هى الحافز على دوام العمل وبذل الجهد، فتحديد الهدف يدعونا إلى البحث عن الإمكانات .. وكما يقال : «الوظيفة توجد العضو»، وكلما وضح الهدف، ازداد التصوّر وضوحًا، ووضوح التصور يؤدى إلى وضوح الطريق ..

ووضوح الهدف الذي نسعى إليه من خلال تربيتنا لأبنائنا، وحضور هذا الهدف فى ممارساتنا التربوية اليومية، وإدراكنا فى ذات الوقت للأقوال والأعمال التى تساعدنا على الاقتراب من هدفنا ..كل ذلك يجب أن يكون فى وضوح النجم القطبى للمسافر نحو الشمال .. فمهما تواصل سيره وتغيرت وسيلة سفره فهو يراه هاديًا لطريقه ..

فهل تربيتنا اليوم تدرك هدفها بوضوح ذلك النجم؟

إن التربية السائدة اليوم قد يعوزها وضوح الأهداف التربوية . فهناك تربية إسلامية تعد الفرد للحياة الإسلامية الحاضرة وإبقاء ما فيها من ضعف في العلاقات الإنسانية، وتخلف في الحياة العلمية والعملية. وهناك تربية إسلامية تحاول اقتباس نظم غربية وفلسفة تربوية غربية مع إضافة شيء من علوم الدين والحضارة الإسلامية ولكنها لم تفلح .. وهناك .. وهناك ...

فما هو هدف تربيتنا ، والجيل الذي نريد؟

يعرّف البعض التربية بأنها " الجهد الذى يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التى يؤمنون بها " [(١)]

و" تتفق المناهج الأرضية التربوية شرقية كانت أم غربية على هدف واحد فى مناهجها ، وهو إعداد " المواطن الصالح " وذلك على اختلاف هذه المناهج فى صيغة هذا المواطن وصبغته .

فقد يكون هو الإنسان الذى يقدس العمل والإنتاج وتقاس قيمته ومواطنيته بقدر ما يعمل ، فإذا توقف عن العمل أصبح كالآلة المخرَّبة ، إمّا أن تعود لتنتج وإمّا أن تسقط من عداد عوامل الإنتاج فى المجتمع ..

وقد يكون هو الإنسان الذى يكفر بربه ويؤمن ويقدس حزبه . فإذا صار إلى عكس ذلك أصبح إنسانًا مجرمًا لا يستحق صفة المواطنيه الصالحة .

وقد يكون هو الإنسان الذى يتعصب لجنسه وأصله فيرى غيره واطيًا دنيًا لا يستحق سوى الخدمة والعبودية .

وهكذا تتنوع المواطنية الصالحة حسب رغبة وأهواء تلك العقول المربية

---

١) *sir percy nann* أحد رواد التربية الغربية فى مقال لدائرة المعارف البريطانية.

لمربيها، وتبعًا لهذه المفاهيم المحدودة للمواطن يتحدد صلاحه من عدمه ، وعلى ذلك فالذى يقوم بالفتك بالآخرين واتباع كل سبل الإجرام والظلم والطغيان على غيره من الأفراد أو الجماعات أو حتى الشعوب يعتبر مواطنًا صالحًا فى نظر دولته مادام يحقق بذلك نفعًا وصلاحًا لتلك الدولة، ولا ينظر البتة إلى غير ذلك ، وقس على هذا أمم الأرض اليوم ، فكلها تشترك فى هذا الهدف .

.. أمّا الإسلام فهو يختلف عن هذه المناهج اختلافًا عميقًا من حيث النظرة الأولية والهدف .

فمن حيث النظرة الأولى فإنه لا يحصر نفسه فى حدود تلك النظرة الضيقة لهؤلاء المربِّين ، فلا يسعى ابتداء لإعداد " المواطن الصالح " وإنما يسعى ابتداء وانتهاء إلى هدف أسمى وأكبر وأشمل ألا وهو إعداد " الإنسان الصالح " لأن رسالته رسالة إنسانية لا مواطنية ، رسالة تتجاوب مع إنسانية الإنسان لا مواطنيته ... بل إن التربية الإسلامية تتعدى هذا الهدف إلى هدف أسمى ألا وهو إعداد "الإنسان المصلح " الذى ينقل صلاحه إلى الأجيال التالية .. (١)

فالمسلم ليس ذلك الإنسان الساكن الذي قد يكون صالحًا فى نفسه .. شاهرًا سيفه فى وجه الشيطان ، ولكنه متقوقع على نفسه ، لا يتفاعل مع بيئته ومجتمعه بحيوية ليحدث التغيير المطلوب ..!!

بل المسلم هو ذلك " الإنسان الصالح و المصلح " بمواصفات " هذا "الإنسان " التي تضمنها كتاب منزّل من عند الله ، وسنن سنّها رسول الله ﷺ، كما تضمنها واقع تاريخي ضخم شهدته هذه الأرض التى نحيا عليها ، وظل قائمًا فى الأرض قرونًا طويلة ...

و الإنسان الصالح هو الإنسان العابد لله، على المفهوم الشامل للعبادة الذى يشمل

(١) طريق البناء التربوى الإسلامى – د.عجيل جاسم النشمي – ص ١١٤ ، ١١٥.

كل الحياة، وهو كذلك الإنسان الذى تتمثل فيه أخلاقيات لا إله إلا الله..."[١].

الإنسان الصالح هو: "العبد الرباني" الذي يعبد الله وحده لا شريك له ..
و" المثال الإنساني" الذي يحقق القدوة الإسلامية ..
و" الإنسان الكادح " الذي يبذل أقصى الطاقة فى مواجهة التحديات ..
يبذلها وهو يؤمن أن " العمل فى واقع الحياة هو العبادة الدائمة التى يقوم بها المسلم ، والتى يتزود – من أجل القيام بها – بذلك الزاد الروحي العميق الذي تمنحه إياه الشعائر التعبدية ، حين يقوم بها على صورتها الحقة من الخلوص إلى الله والتجرد إليه ، والخشوع والخشية والإخبات "[٢].

الإنسان الصالح هو ذلك الإنسان المتوازن فى فرديته وفى ميله إلى الجماعة وتعاونه معها ، والذى ينشأ منه ومن غيره مجتمعًا يكون فيه أفراده أشخاصًا حقيقيين، لا أصفارًا ولا نكرات. أشخاصًا لهم وجود حقيقي، و متساندين فى الوقت ذاته ..

إن التربية هي «إعداد الإنسان للحياة» ليعيش عيشة هنيئة في الحاضر، ويقدر على الإعداد لمستقبل زاهر.

والحياة معاناة واقع يمكن أن يكون مليئًا بالمشكلات التى يحتاج الإنسان إلى مواجهتها ، وإلا تراكمت عليه فأحالت حياته إلى واقع غير محتمل أو غير معقول ، بل غير ممكن على الإطلاق ..

ومن هنا فإن التربية الإسلامية لا بد أن تكون تربية حياة وأفعال أكثر منها تربية تحفيظ وأقوال .. ذلك أن الأبناء الذين لا نعدهم تربويًا للعيش بكفاءة فى

---

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ص ٣٣٣-٣٣٦ بتصرف يسير.

(٢) مفاهيم ينبغي أن تصحح – محمد قطب – ص ٢٠٤

واقعنا المعاصر، يعيشون غالبًا على هامش المجتمع ، لأننا جعلنا منهم مخلوقين لديهم " القابلية للاستغلال " من قبل الآخر أسوأ ما يكون الاستغلال ...

فإذا سلكنا مع أبنائنا أساليب التربية الصحيحة ، وعرفنا نوعية الإهتمامات التى يجب أن نثيرها فى نفوسهم، ونوعية الأنماط السلوكية التى يتحتّم علينا توجيههم إليها ؛ فإنا – إن شاء الله – قادرون على إخراج الجيل المسلم الجديد ..

ذلك الجيل الذي يشعر وطأة القيود وبؤس العبودية ، فلا يرضي الخضوع والتبعية الذليلة للبشر ..

و يصقل عقله بالدراسة والمعرفة .. و لا يقبل العبودية الذليلة لغير الله مهما ارتدت من أزياء وألوان .

ذلك الجيل الذي يملك فهمًا ناقدًا ، ورأيًا بصيرًا .. فلا يكتفي بمجرد النظر إلى مواطىء الأقدام دون التفات إلى ما أمامه وما وراءه ، ومن دون أن يتذكّر وقائع ماضي أمته ليسترشد بها فى الحكم على المستقبل وسبر الحاضر ..

ذلك الجيل الذي لا يقدر الطغاة أن يسلبوه حرية العمل والكلام ، فضلًا عن أن يسلبوه حرية الفكر ؟؟!!

ثانيًا: الوسيلة .. ماذا نمتلك؟

حتى لا نبقى نتطلع إلى «هدف » إخراج الجيل المسلم الجديد كما يتطلع الحالمون إلى أحلامهم من بعيد ، دون أن يملكوا الوسيلة إلى تحويلها إلى "واقع" ثابت ..

لا بد ألا تختلط لدينا "الأمنيات" بـ "الإمكانيات" ، فندرك ماذا نمتلك من وسائل إلى أهدافنا ؟

فلا نبتعد عن التربية الإسلامية "وسيلة" ونحن نتجه إليها "هدفًا" ..

و نجمع إلى " إخلاصنا " فى تربية أبنائنا " صواب " الممارسة التربوية ، فتثمر

جهودنا فى الدنيا ، ويقبلها الله فى الآخرة .." [1].

فما هي الوسائل التى نملكها للوصول إلى أهدافنا التربوية ؟

(أ) الحب وحده لا يكفي :

لا شك أننا جميعًا كآباء ومربّين نتمنى لأبنائنا السعادة والنجاح ،و نريد لهم الشعور بالرضا عن أنفسهم ، و نريدهم حَسني السلوك مع غيرهم ، ويتمتعون باستقلالية فى الرأي و صواب فى السلوك ..

نريدهم أكفاء لحمل رسالة أمتهم إلى كل العالم ، قادرين على ما يتطلبه ذلك من جهاد ومجاهدة ...

نريد كل ذلك لهم .. فماذا نمتلك لتحقيق هذه الأهداف؟

إننا نحبهم !!! فهل يكفى هذا الحب وسيلة إلى تلك الأهداف ؟

إن الحب ضرورة أساسية فى تربية الأبناء، ولكنه لا بد أن يعني القدرة على الرعاية ، وإلا فإنه لن يضمن – وحده – الوصول إلى ما نريده لأبنائنا من حسن التصوّر وجودة السلوك .

إن الكثيرين من الآباء يفشلون فى تربية أبنائهم .. ولا يرجع ذلك إلى أنهم لا يحبونهم بالطبع ، أو لأنهم لا يتمنون لهم كل الخير ... وإنما لأن هؤلاء الآباء لا يحيطون علمًا بأهداف التربية ووسائلها والبيئة المحيطة بالأبناء والنواحي النفسية والعقلية لهم..ومن ثم فهم يجهلون السبل التربوية الصحيحة التى تمكنهم من معرفة المدخل الصحيح لكل ابن، والمفتاح الذى يفتح الله به قلبه للتنشئة الإسلامية .

فأكثر الآباء – المحبّين لأبنائهم – يحذرون ولا يتابعون .. أو ينفذ صبرهم ويعاقبون وهم غاضبون !! .. وهم إمّا سلبيون يرضخون لرغبات أبنائهم حتى لا

---

(١) الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة – للمؤلف – ص ٩ .

يواجهون المشاكل .. وإمّا منفعلون غاضبون .. يزيدون بسلوكهم هذا من سوء سلوكيات أبنائهم..

إن الحب والدفء والود من الأشياء الأساسية والجوهرية فى أمر التربية - بل فى كل أمور حياتنا - لكن المعرفة والعلم تظل أمرًا فى غاية الأهمية ..

خذ مثالًا :

لنفترض أنك فى حاجة إلى عملية جراحية ، وبينما تتجهز لها ، يهمس الطبيب فى أذنيك قائلًا : أريدك أن تعرف أننى لست جراحًا ولست طبيبًا بالمرة، ولكن لا تقلق ، فأنا أحب مرضاي كثيرًا وأرغب فى نفعهم ، وأتمنى بصدق شفاءهم ..!!

هل ستدع هذا الشخص يشق جسدك بمشرطه ؟

بالطبع لا .. لأنه يفتقد " المعرفة " التى توصّله إلى ما يتمنّاه – بصدق – من شفاء مرضاه ..

وكذلك نحن ـ كآباء ومربّين ـ فى حاجة ماسة إلى تعلم مفاهيم التربية ، والتدريب على وسائلها حتى نستطيع السير فى طريق صحيحة فى تربية أبنائنا..

إن أبناءنا يحتاجون أبًا وأمًا " متمرسين "، كحاجتهم إلى أب وأم" محبين" ، ذلك أن هذا التمرس على فنون التربية هو ما يعطينا صواب الوسائل بعد أن إتضحت لنا الأهداف .

فإذا افتقدنا هذا التمرس التربوى فقد نعطى الإهتمام الأكبر لصغائر الأمور بينما نترك الأمور العظيمة بلا أدنى اهتمام .. لنكتشف فى نهاية عملية التربية أننا نسير عكس الهدف، فيكون حالنا كحال من يصعد إلى نهاية السلم .. ثم يكتشف أن السلم مسنود إلى الحائط الخطأ. !!!!

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ، أولئك الأباء الحريصون جدًا على أبنائهم .. مثل هؤلاء الآباء يكون لديهم النية الحسنة فى التخفيف عن أبنائهم

ومحاولة إسعادهم ، ولكنهم بلا وعي يكبتون النمو الطبيعي لأبنائهم ، ويحرمونهم من تطور الشخصية ومواجهة الحياة ..

إن التعامل مع الأبناء موهبة وعلم وفن .. موهبة تجعل أحدنا أقدر على التربية من غيره .. وعلم وخبرة نتعلمها من الكتب ، ومن تجارب الآخرين .. وفن نطبق به ما تعلمناه بصورة تناسب الحالة التى نقابلها فى أبنائنا .

ومهما أحببنا أبناءنا إلى أبعد مدى ، فإن هذا الحب سيبقى – وحده – لا يكفي لإخراج أبناء صالحين ..

(ب) القدوة .. لا الانتقاد :

يدرك الأبناء الدنيا من خلال عيونهم أكثر من إدراكهم لها من خلال عقولهم .ويتأثرون بما يشاهدون أكثر من تأثرهم بما يسمعون .. و يراقبون آباءهم ومربيهم ، ويكونون أكثر رغبة فى تقليد أفعالهم منهم فى طاعة أقوالهم .

نعم .. هم يتعلمون عن طريق التقليد ،و قدرتهم على ذلك من الصفات الرائعة والمفيدة تربويًا !!

بل إن سنة وقانون تأثير الآباء فى الأبناء هي " أن يعمل الآباء بما علموا ، لينتفع أبناؤهم بما يقولون " ..

ومن أوضح الأدلة على سنة القدوة ما كان من أمر النبي ﷺ للصحابة أن يحلقوا ، فلم يفعلوا .. فلما حلق ﷺ ؛ تقاتلوا فى السبق إلى الحلق ..!!

" ولنستمع إلى ابن عباس يحكى لنا موقفًا تأسى فيه برسول الله ﷺ ، وكان ابن عباس آنذاك غلامًا ، فيقول : " بت عند خالتي فقام النبي ﷺ يصلي من الليل فقمت أصلي معه ، فقمت عن يساره، فأخذ برأسي فأقامني عن يمينه " (أخرجه البخاري برقم ٦٦٧) .

ومن مواقف القدوة فى حياة سلفنا الصالح ما روي عن معاوية بن قرة قال : كنت مع مغفل المزني رضي الله عنه فى بعض الطرقات فمررنا بأذى فأماطه أو نحّاه عن الطريق ، فرأيت مثله فنحيته ، فأخذ بيدي وقال يا ابن أخي ما حملك على ما صنعت ، قلت : يا عم رأيتك صنعت شيئًا فصنعت مثله، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من اماط أذى عن طريق المسلمين كتب له حسنة ، ومن تقبلت منه حسنة دخل الجنة " رواه البخاري برقم ١٤٦/ ٣٩٥ .

" إن العلماء يشيرون أن التربية هى عملية تشكيل وفقًا لنموذج يحتذى به الطفل . فكما يتعلم الأطفال الكلام عن طريق التقليد والاستماع والملاحظة ، فهم أيضًا يكتسبون ميولهم فى الحياة ويكتسبون القيم والعادات عن طريق المحاكاة ..

وبما أن الأطفال يقلدون سلوك من هم حولهم ، فلا بد وأن يكون لنا كآباء ومربِّين الأثر الأكبر على تعليمهم وأن نفكّر مليًا فى سلوكياتنا ، وما نقوله وما نفعله .. فنحن بالنسبة لهم القدوة ..[1] " وهذه القدوة من أهم وسائل التربية – إن لم تكن هي أهمها على الإطلاق – فالأطفال يتأثرون بالقدوة أكثر من الوعظ أو التعليم بأنواعه ، وهم " يتأثرون بنا ويقلدوننا فى طريقتنا فى التعامل ،.. وعلاقتنا بالجار ، وحديثنا مع زملائنا ، كل ذلك دون أن نشعر نحن غالبًا بهذا الأمر ، فاتجاهاتنا النفسية تصبح كلها هي نفس اتجاهاتهم النفسية ..

وإذا افتقد الأبناء قدوتهم فى آبائهم ومربيهم ، فالتلقين لا يثمر معهم بحال من الأحوال .. وعبثًا نحاول أن نربي جيلًا صالحًا من أولئك الأبناء الذين يرون أن أقوالنا فى جانب ، وحياتنا العملية فى جانب آخر !!!

وقد تنبه السلف الصالح رضوان الله عليهم إلى هذا الأمر وإلى أهمية تربية الآباء وأثرها الكبير فى تربية الأبناء ، فهذا عمرو بن عتبة ينبه معلم ولده لهذا الأمر

(١) كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د. سال سيفير – ص ٢٣.

، فيقول : " ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت" [(١)] والقيم لا تفرض على الأبناء فرضًا .. إنما تجذبهم إليها القدوة الحسنة والمثل الطيب ..

وأمّا الحديث عنها فينبغي أن يكون آخر وسيلة نستخدمها لترسيخها فى نفوسهم، فالكلام الكثير عن القيم قليل النفع ، ويجب ألا نلجأ إليه إلا عند وجود مناسبة وفرصة ملائمة ، والأصل أن يتشرب الأبناء القيم لا عن طريق النصح والتوضيح ؛ ولكن عن طريق المعايشة والاحتكاك بالآباء والمربّين ..

إن بإمكانك أيها الأب والمربي أن توجّه الكثير من النصائح لأبنائك ، وأن تلفت نظرهم إلى كثير من الأمور ، لكن المحك النهائي فى استجابتهم إلى ذلك يعتمد على ما تنطق به شخصيتك وأوضاعك ؛ فأبناؤك أذكى مما تظن ، وهم يلاحظون أشياء كثيرة تحسبهم عنها غافلين ..

و أكبر المشكلات التى تواجهها فى تربيتك لهم هى تلك المساحات الفاصلة بين أقوالك وأفعالك ..

فهم " يتعلمون من كل شيء تفعله ، فإذا كذبت أمامهم لأي سبب ، فأنت تعلمهم أن الكذب لا بأس به ومقبول ، وإذا كذبت الأم فى مكالمة تليفونية وادَّعت أن الأب غير موجود بالمنزل ، فهذا أيضًا يعلّم الطفل أن الكذب مقبول .. وإذا تناولت أغذية قليلة القيمة الغذائية تباع فى الشوارع ، فأنت تعلمه شراء مثل هذه الأغذية ، وإذا استخدمت الصياح والمناقشة الحادة، ومناداة الآخرين بألفاظ نابية ، فهم يتعلمون كل هذه الأشياء من خلالك ..

وعلى العكس عندما تتكلم بصوت هادىء بدلًا من الصوت الغاضب ، فأنت تعلمهم الثبات والهدوء عندما يتم استثارتهم من قبل أناس آخرين .. وعند

---

(١) مسؤولية الأب المسلم فى تربية الولد فى مرحلة الطفولة – عدنان حسن باحارث – ص٦٦- ٦٨ بتصرف يسير

اعتذارك عن خطأ وقعت فيه؛ فهم يتعلمون تحمّل مسؤولية أخطائهم .. وعند استعمالك للغة مؤدبة فى الحديث؛ فهم يتعلمون المشاركة مع غيرهم ، وعندما تكون لطيفًا ودودًا مع الآخرين؛ فأنت تكسبهم اللطف مع الآخرين ، وعندما تتفانى فى عمل ما؛ فهم يتعلمون أن يكونوا جادّين فى عملهم ، وعندما يرونك تقرأ كتابًا فأنت تكسبهم ميولًا خاصة بالقراءة .. وعندما تتصرف بشكل مسؤول فأنت تعلمهم التصرف بشكل ينمُّ عن تحمل المسؤولية...

... ولأن الأبناء يكتسبون سلوكهم منك على هذه الطريقة ، فإن من أوجب الواجبات أن تراعي الدقة فى سلوكك ، وليكن منك على ذكر دائمًا .. أن الأبناء الذين يعيشون مع آباء ملتزمين ، يصبحون ملتزمين ، ويكونون فيما بعد آباء ملتزمين" [(١)] .

وعلى العكس، الآبـاء غير الملتزمين لا يربّون إلا أبنـاء مثلهم ، فالأب الذي يؤكد على أبنائه وجوب وضع الأشياء فى مكانها ومراعاة عدم الفوضى .. ثم يكون معهم فى محل البقالة مثلًا ، فيأخذ سلعة ثم يغيّر رأيه فلا يشتريها ، فإذا به يعيدها إلى غير مكانها .. أو يجد مالًا فى الطريق فيحتفظ به بدلًا من أن يبحث عن صاحبه ... أو يكون فى مطعم من المطاعم ، فيخطىء من يحاسبه فيأخذ أقل من الحساب فيعلق " هذه مشكلته ، وليست مشكلتي !!! " أو يؤجل أعماله حتى اللحظة الأخيرة ، بينما يطالبهم دائمًا ألا يؤجلوا عمل اليوم إلى الغد .

هذا الأب بالطبع يمثل فى الواقع جزءًا من مشكلة أبنائه التربوية.. وليس جزءًا من حلها !!

إن الأبناء فى كل تلك الأحوال " يستغربون ما يرونه من تصدع بين الأقوال والأفعال فى سلوكيات أبيهم ، و يقفون فى البداية موقف الحائر المتردد العاجز عن فهم مواقفه أو تأويلها ، ولكنهم مع مرور الزمن يدركون أنه ليس على المرء أن

---

(١) كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د. سال سيفير – ص ٢٥ ، ٢٦

يحمل كل ما يقال على محمل الجد ، وأن التطابق بين الأقوال والأفعال غير موجود غالبًا .. ومن خلال الصراع الدائر فى نفوسهم بين ما يقال وما يفعل تتشكل داخلهم مجموعة كبيرة من المشاعر السلبية المزعجة التي تضعف فى النهاية من صلابة شخصياتهم ونقاء نفوسهم !! "(١).

بل إننا لا نبالغ إن قلنا أن كل مشكلة تربوية للأبناء هي فى حقيقتها مشكلة أبوين قد يشكون من تصرفات أبنائهم ويصفونهم بأنهم " لا يقدرون الآخرين .. لا مبالين .. غير منتبهين .. " ويكون السبب الحقيقي أن الزوج أو الزوجة تتصرف بنفس الطريقة ، فمثلًا : ينزعج الرجل من عدم قدرة زوجته على القيام بإصلاح الأعطال البسيطة فى المنزل ، فيصرخ فى ابنته عندما تتصرف بنفس الطريقة ، وهو فى الحقيقة غاضب من زوجته .. أو تشعر الزوجة أن زوجها يهمل ترتيب ما يحدثه من فوضى ، فتصرخ فى أولادها : " هلا نظفتم هذه الفوضى التى أحدثتموها يا أولاد ؟ كم مرة أخبركم بهذا !! " هي فى الحقيقة تصرخ فى زوجها كي يساعدها قليلًا فى أعمال المنزل .

وتصل الأمور إلى قمة الخطأ التربوي حين يصبح تصرف الطفل أسلوبًا خفيًا للوم أحد الزوجين للآخر " هل رأيت ما فعل ، لقد أخبرتك مرات عديدة أنك لين أكثر من اللازم- أو قاس أكثر من اللازم – أنظر ماذا كانت نتيجة تربيتك ؟!! "(٢)

و يشكو الآباء والأمهات أن أبناءهم غير مطيعين وغير مهتمين بالدراسة و..غيرها من النقائص والمشكلات ، فإذا بحثنا عن الأسباب وجدنا أن السبب الرئيس لهذه النقائص والمشكلات هم الآباء ..!!

فبينما يشكو الأب من ابنه الذى «لا يهتم بترتيب خزانة ملابسه ، ويلقي بفردة حذاء هنا وفردة هناك ويظل كل صباح يلاحق الزمن من أجل البحث عن

(١) بناء الأجيال – د/ عبد الكريم بكار – ص ٥٩ بتصرف.

(٢) كيف تقولها لأطفالك – د. بول كولمان – ص ٣٩٢ بتصرف .

فردة حذاء ضائعة !!..» نجد الأب يلاحق الزمن من أجل أن يجد المفاتيح أو حافظة النقود ، فهو يلقي بأى شيء فى أى مكان ، ثم يبذل الجهد الكبير فى محاولة أن يجد أشياءه الضائعة ..!!

إن أعمالنا رسائل مستترة نوجهها لأبنائنا .. فإذا كانت هذه الرسائل كلها سلبية ؛ فماذا نتوقع منها غير تأثيرات سلبية فى سلوك أبنائنا ..!!!

إننا نحن الآباء والمربّين فى حاجة إلى أن نطالع فى المرآة لندقق النظر فى أوضاعنا ، ولنكتشف وجوه التقصير فى حياتنا ، وإذا فعلنا ذلك فإن كل واحد سيجد أنه بحاجة إلى أن يعيد تأهيل نفسه فى أكثر من جانب من جوانب شخصيته ، وأن يغيّر العديد من أوضاعه وأحواله فى سبيل القيام بالدور التربوي المطلوب منه على الوجه الصحيح .

و إذا أردنا لسلوك أبنائنا أن يتغير ، فلننظر إلى سلوكنا أمامهم ، و لا نحاول الدفاع عن أخطائنا ، بل نحوّل أخطاءنا إلى فرصة لتعليمهم تحمّل مسؤولية الأخطاء ، والخروج منها إلى ممارسة الصواب .

فهذا الأب الذى ذكرنا خصاله ، إذا قام بتغيير هذه الخصال إلى أخرى فصار منظمًا مرتبًا يضع كل شيء فى مكانه المحدد .. سلسلة المفاتيح فى لوحة المفاتيح ، والكتب فى المكتبة ، وأعمال اليوم لها برنامج واضح ومحدد .. هل يبقى الابن كما هو؟ .

إن الابن يقلّد ما يقوم به الأب ، وما دام الأب يعدّل فى أخطائه ويصحح طموحه ويعيد ترتيب حياته بمرونة ، فالابن أيضًا يتقبل إعادة النظر فى الأخطاء ويتعلم فن تصحيح الطموح ويعيد ترتيب حياته بنفس المرونة .

ولا يجدى بالطبع أن نتظاهر أمام أبنائنا بالسلوكيات الحسنة ، لأن هؤلاء الأبناء يدركون فى الحقيقة ما وراء المظاهر ربما أكثر مما يدركها الكبار ..

إننا قد نتزين لأبنائنا لنبدو أمامهم أحسن منا فى الواقع ، ونحاول تربيتهم على أحسن ما يكون الفكر والسلوك والأخلاق ، فنتظاهر أمامهم بامتثالها والتحلى بها .. وتلك خدعة لا تنطلى عليهم ، ومن ظن أنهم بهذه السذاجة فهو واهم .. إنهم يدركون كل ما نحاول كتمانه عنهم ، ويعرفون ما ندين به ونمارسه مهما حاولنا إخفاءه ، ولا سبيل إلى تربيتهم على الاستقامة إلا استقامتنا نحن الحقيقية ..

فلنواجه أنفسنا فى صراحة وشجاعة ، إن كنا حقًا جادّين فى محاولة صناعة الإنسان الصالح .. فما أخسر المجاملة فى هذا الشأن .. نضحك على أنفسنا فلا نصنع شيئًا على الحقيقة ، ثم نوهم أنفسنا أننا بذلنا غاية الجهد فى المحاولة .. !!

إننا فى كثير من أحوالنا مع أبنائنا نبذر بإحدى يدينا فى عقولهم بذور الاخلاص ، ونحن فى ذات الوقت بممارستنا ننقش بيدنا الأخرى فى قلوبهم صور النفاق والرياء .

إن النفوس مجبولة على عدم الإنتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه.. ولأجل هذا قال شعيب "وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه"، " وقال بعض السلف : إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهي ، فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له ، والمؤتمرين به . وإذا نهيت عن شيء فكن أول المنتهين عنه"[1]

بل إن التربية النظرية التى تصحبها تطبيقات عملية نتنة ، أو مخالفة ، تنتهي بالمتربي إلى عدم تصديق الدعاوى الصادقة المنادية بالقيّم الخيرة والأعمال الإيمانية الصالحة .. ولعل هذه هى الحكمة فى تخصيص الله سبحانه وتعالى مقته الأكبر للذين يقولون ما لا يفعلون ..!!

وتأمل معي أخى الأب و المربي هذا الدعاء القرآني الذى يحمل فى سياقه

---

(١) مدارج السالكين – ابن القيم – ج ١ ص ٤٨٠ .

معنى عميقًا ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٥] .. تأمل هذا المعنى العميق ، فقبل أن يطلب الإنسان من الله أن يصلح ذريته يطلب أن يعمل هو صالحًا يرضى الله عنه .. وما ذلك إلا لما لصلاح الأب من أثر عظيم فى صلاح الأبناء والذرية .

أخى الأب والمربي:

إن البداية الصحيحة هى تغيير سلوكى وسلوكك ، وإعادة تشكيل هذه السلوكيات؛ لأن سلوك أبنائنا إنعكاس لسلوكنا نحن ..

فليكن منا على ذكر أن الأفعال أبلغ من الأقوال .

وأنه حين تتناقض الرسالة اللفظية " التلقين " مع الرسالة غير اللفظية "العمل" فإن الأبناء يميلون إلى تصديق الرسالة غير اللفظية ، لأن ما نفعله يتكلم بصوت عال ، لدرجة أن أبناءنا لا يستطيعون سماع ما نقوله .

إن ما نقوله قد يكون مهمًا ، ولكنه فى كل الأحوال لا يساوي ما نفعله .

وإن من الأفضل أن نركز على ما يجب علينا نحن بدلًا من تركيزنا على أخطاء أبنائنا..

إن مصدر قوتنا فى تربية أبنائنا ليس رفع الصوت أو التهديد بالضرب .. وإنما التصرف بشكل صحيح وفق ما نريد أن يستقيم عليه أبناؤنا من قيم .. فالقيم تزرع ولا تفرض ..

ازرع فكرة تحصد فعلًا ..

ازرع عادة تحصد شخصية ..

ازرع شخصية تحصد مصيرًا ..

فمتى ندرك أن الطريق الصحيح إلى إلتزام أبنائنا هو إلتزامنا نحن ، وأن

أبناءنا هم آباء المستقبل ، ونحن عبر تربيتهم نصنع هذا المستقبل بـ " القدوة .. لا الإنتقاد " ؟

(ج) ابنك يعيد تربيتك مرة أخرى :

قد يقول القارىء عند هذه النقطة : «يبدو أننا نحن الذين سنتربى ، وأن أبناءنا يعيدون تربيتنا مرة أخرى ..!! ».

وأنا أصدقكم جميعًا .. هذه حقيقة !!! فالتربية التى نقصدها من هذا البحث تعنى بسلوك الآباء كما تعنى بسلوك الأبناء ، ذلك أن سلوك الآباء التربوي يمثل جزءًا كبيرًا من مشاكل الأبناء التربوية .. والآباء الناجحين فى تربية أبنائهم هم آباء يكتسبون خبراتهم التربوية من أبنائهم !!

نعم يكتسبونها من أبنائهم عبر تطوير ردود أفعالهم التى تتسم بكبح غضبهم فى مواجهة السلوكيات السيئة للأبناء ، وامتلاك القدرة على ترشيدها برفق .

خذ مثالًا لما نقول :

_ يلعب الأبناء بضوضاء ..

_ يطلب منهم والدهم اللعب بهدوء

_ لا يبالون بكلامه

_ يصرخ الأب : إلعبوا بهدوء وإلا ستذهبون إلى غرفات نومكم ..

_ الأبناء يظهرون موافقتهم" حاضر .. سوف نلعب بهدوء " .. ولكنهم يبقون على نفس الطريقة فى اللعب!!

_ يغضب الأب : إذا لم تهدأوا ، اكسّر رؤوسكم ؟!

.... يهدأ الأبناء !!!!

ماذا تعلم الأبناء ؟ .. تعلموا أن أباهم لا يكون جادًا إلا حين يهدد بالضرب .

ماذا تعلم الأب ؟

تعلّم .. أن هؤلاء الأبناء لا ينصتون للنصيحة ، ولا يصلحهم إلا الضرب!!

.. كلاهما .. الآباء ، والأبناء تعلّم أمرًا خاطئًا ..

خذ مثالًا آخر :

فى كل مرة يذهب فيها " خالد " البالغ من العمر خمس سنوات مع أبيه إلى البقالة ، يطلب كيسًا من الحلوى ، ويرفض الأب ، فيبدأ " خالد " فى الإلحاح فى طلب الحلوى ، ويبقى الأب رافضًا " لا يا خالد لن أشترى لك أية حلوى " .. ويبدأ الطفل فى ثورة غضب ويضرب رجله فى الأرض ويحمّر وجه من البكاء ... يهدده أبوه أنه سيضربه إذا لم يكف عن هذا الغضب والبكاء .. ويزيد بكاء خالد وتشنجاته ، ويبدأ كل من فى المحل ينظر إلى خالد وأبيه .. ويخضع الأب فى النهاية ويشترى له ما أراده من الحلوى !!!

ماذا تعلّم " خالد " من هذا الموقف ؟ ..

لقد تعلّم " خالد " أن كلمة " لا " لا تعني شيئًا .. فقد قالها أبوه أكثر من مرة، ثم اشترى له ما أراد ..

وتعلّم أنه إذا أراد الوصول إلى شيء ، فعليه بالإلحاح والتشنج والبكاء وضرب الأرض برجليه .. فإن هذه السلوكيات هى التى تدفع الأب إلى الرضوخ وتنفيذ ما يطلبه ..!!

وماذا تعلّم أبوه ؟

لقد تعلّم أن وسيلة الحصول على هدوء خالد ، وعدم التورط فى مواقف مربكة هي أن يشتري له ما يطلبه ، سواء كيس الحلوى أو أى شيء آخر ..

وهكذا هم أكثر الآباء ، يعتقدون أن الإذعان والخضوع لطلبات الأبناء هو الوسيلة الوحيدة لإيقاف غضبهم وصراخهم .. ولا شك أن هذا خطأ فادح ، ذلك أننا حين نقابل غضب الأبناء وإلحاحهم بالمكافأة، فنحن نعلمهم أن يزيدوا من غضبهم فى المستقبل ، وبالتالي تزيد سلوكياتهم السيئة ...

وهذا مثال ثالث :

«عبد الرحمن» .. طفل كثير الحركة والنشاط ، يلعب محدثًا ضوضاء كثيرة ، فيطالبه والده بأن يلعب فى هدوء .. ويواجه عبد الرحمن طلب والده بالإهمال وعدم المبالاة ..!!

ويتكرر الأمر بعد قليل ، حيث يعلو صوت الأب : " إلتزم الهدوء » وإلا سأجعلك تذهب إلى حجرتك " ويرد الابن : " وهو كذلك يا أبي " ولا يقوم بأي شيء مما طلبه الأب ..

ويتملك الأب الغضب ويبدأ فى الصياح : «إذا لم تهدأ الآن فسأضربك» ويهدأ عبد الرحمن لفترة .!!!

ماذا تعلّم الأب والابن؟

تعلّم الابن أنه غير ملزم بفعل ما يطلبه منه الأب للمرة الأولى ، وليس ملزمًا أيضًا بطاعة أبيه وإن علا صوته للمرة الأولى .. وإنما فقط يبدأ التفكير فى الطاعة عند التهديد بالعصا ..!!

وتعلّم الأب : أن ابنه عبد الرحمن لا ينصت إلى طلباته حتى يخوّفه بالضرب!!

وكما يتعلم الآباء من الأبناء التصورات والمفاهيم التى قد تكون خاطئة، كذلك يتعلم الأبناء ..

" فإن كان الوالد كثير المعارك مع الأم ، أو كان يفتعل دائمًا تحقيرها ، فإن الابن يعتبر أن ذلك " الاحتقار " هو أسلوب التعامل العاطفي مع المرأة .. والبنت التى ترى أن أمها كثيرة التعالي على الأب وأنها تسيء معاملته يستقر فى سلوكها أن التعامل مع الرجل مفتاحه التعالي وإساءة المعاملة "

" وعندما يصرخ الأب قائلًا إنه يتعب كثيرًا وأنه لا ينال أى شيء مقابل تعبه وإنه مظلوم ، فإن هذا الصراخ ينقلب فى ذهن الطفل إلى أن الرجل هو ضحية المرأة، وأنه من الأفضل جدًا عدم الزواج حتى يستمتع الإنسان بناتج عمله ..

وعندما تصرخ الأم بالقول إن الرجل هو الكائن المستمتع الوحيد بالحياة ، وهو المستغل لكل جهد المرأة ، وإن المرأة هى التى تتعب وترهق نفسها وتعيش أسيرة للرجل فإن هذا اللون من الصراخ ينقلب فى وجدان الفتاة الصغيرة إلى كراهية للرجل وإلى عدم تقدير له ، ولذلك نجدها تتهرب من الزواج عندما تكبر"[١] .

وإذا كان الأب " يقوم من على المائدة ولا يساعد فى رفع الأطباق ، ولا يفكر إلا فى توجيه الأمر بطلب كوب الشاي ، فتسرع الأم لتضع الشاي على النار ، وتلهث وراء الأطباق من على المائدة ، ثم تلهث لغسل الأطباق ، ثم تلهث لتراقب غليان الماء على النار ، ثم تلهث لتنظيف مائدة الطعام ، ثم تلهث لوضع بعض الشاي فى الماء الذى يغلي ، ثم تحضر الشاي للزوج الذى يقرأ الجريدة بكسل وينظر للشاي الغامق اللون ليقول ما هذا ؟ متى ستعرفين نوع الشاي الذى أحبه ؟ "[٢] .

لا شك أن الابن سيتعلّم من ذلك أن يتصرف كامبراطور كسول يطلب من كل من حوله أن يخدموه فى رضوخ وذل !!

خذ هذا المثال الأخير :

يعود الأب فى السادسة مساء بعد عمل شاق .. تقول زوجته : «أعتذر عن تأخر الغداء اليوم لمدة ربع الساعة» .. فيرد «يتأخر .. يتأخر .. مرة أخرى ... ألا يمكننى أن أتناول الغداء فى موعده ولو مرة واحدة فى الشهر ؟!!!»

ثم يأتي الغداء ، وأثناء الطعام تقول ابنته أنها حصلت على درجة ضعيفة فى مادة العلوم ، فيصيح ويصرخ : «لو أنك ذاكرت أكثر لحصلت على درجة عالية ، ولكنك إنسانة كسولة .. وغبية ؟!!»

ثم يستطرد قائلًا : «لا أحد فى هذا البيت يؤدى واجبه وما هو مطلوب منه

---

(١) تربية الأبناء – د . سبوك – ص ٤٩ .

(٢) المصدر السابق – ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

بشكل صحيح .. لقد أصابني الصداع منكم» .. ويقوم مندفعًا من على مائدة الطعام...

ماذا نتوقع أن يكون رد فعل أبنائه على طريقته هذه فى التعامل مع مشكلاته ؟

إن أبناءه لا شك سيقلدونه فى الطريقة التى يواجه بها مشكلاته..

وهكذا نحن .. إذا كنا سريعي الغضب والانفعال ، يائسين من إيجاد حلول لمشكلاتنا ، أو إذا بدا علينا أننا نرى أن المشكلات تحل نفسها بنفسها أو تختفي تلقائيًا .. فإن طريقة أبنائنا فى مواجهة مشكلاتهم ستكون صورة من طريقتنا ..

كل هذه الأمثلة تظهر بوضوح أن الآباء والأبناء كلاهما يتبادل التعلّم من الآخر ..

وأن من واجبنا كآباء أن نكون على حذر من أن تعلمنا أفعال أبنائنا خبرات تربوية خاطئة ..

ولا بد أن نكون على يقين أيضًا أن حاجتنا – نحن الآباء – إلى التربيةِ ليست بأقلَّ من حاجةِ أطفالنا..

بل يجب أن تسبق تربيتُنا تربيتَهم .. ومن أسفٍ أنّنا لا نتعلم من براءتهم فنصلح.. وقد نُعلّمهم من أخطائِنا فيَفسُدون !.

وإذا كنا – نحن الآباء – نرعى أبناءنا بكل قوانا، فإنّهم بالمقابل يرعون عواطفنا الأبوية بكلّ ضعفهم ..

وسعادتنا عندما نعطيهم، ليست بأقل من سعادتهم حين يأخذون !.. وإذا كنّا نهديهم الأشياء في الدنيا، فإنّهم يهدوننا الدّعواتِ الباقيات الصالحات إذا صِرنا تحت الثرى..

إنّ أطفالنا سيغدون – بإذن الله – ألسنة صدقٍ تشفع لنا يوم الحساب، بشرطٍ واحد هو :

أنْ نحسنَ تربيتهم، كما أحسنّا تغذيتهم..
فإلى متى نستمرُّ في عقوقِ الأبناء ؟!..
وإلى متى لا نتركهم يعيدون تربيتنا مرة أخرى ؟؟!!

ثالثًا : واقعنا .. أين نعيش ؟ :

نحن نربي أبناءنا بالطريقة التى نشأنا بها ، ونؤدبهم بالطريقة التى أدبنا بها آباؤنا .. فهل كل الخبرات التربوية التى تعلمناها من آبائنا ذات فائدة ؟

الحقيقة أن بعضها ليس نافعًا على الإطلاق ، وأنه يجب علينا أن ننتقي ونختار منها ما يصلح لتربية هذا الجيل ، فى واقعنا الذي نعيش فى زمانه الصعب ..

سيرد الكثيرون منّا :

ولم لا تسير عملية تربيتنا لأبنائنا فى ذات الطريق التى سار فيها آباؤنا ؟ أليست طريقتهم فى التربية هى التى أخرجت جيلنا ؟ ما عيب هذا الجيل ؟

لا عيب فى أغلب هذا الجيل .. ولكن هناك الكثير " من التغيرات التى طرأت على حياتنا و كان لها الأثر الأكبر ، بل الهائل على أبنائنا ، ومن ثم يجب أن يكون لها الأثر أيضًا على أدوارنا كآباء .. كذلك فإن حالتنا الإقتصادية خلّفت نوعًا من التوتر المالي داخل الأسر ، فالآباء يعودون للمنزل تضغط عليهم وطأة الإجهاد، ومن ثم ينتابهم الغضب سريعًا ..ولا شك أن هذا يؤثر فى تربية الأبناء ..

كما أن التغيّر الذى حدث فى مجتمعاتنا غيّر سلم الأولويات والاهتمامات فى الأسرة ، فصار أهم شىء فى حياة الوالدين أن يريا أبناءهم يصلون إلى أعلى الدرجات فى التعليم ، ويدخلون أكبر الجامعات ، حتى أصبح ذلك لونًا من " الهوس " الذى يسيطر على عقل الآباء والأمهات .. ذلك الهوس الذى يجعلهم فى توتر مستمر .. وهذا أيضًا يؤثر فى تربية أبنائهم ..

بل إننا لا نبالغ حين نقول .. إنه من عشرين عامًا مضت كانت طرق تربيتنا صالحة لأنها كانت عبارة عن حلول بسيطة لمشاكل بسيطة ، ولكن مشاكل اليوم أكثر تعقيدًا ، ومن ثم فهي تتطلب حلولًا منتقاة لأن أطفالنا يعيشون بعقولهم فى المستقبل وليس فى الحاضر..

ومن هنا فإذا أردنا حقًا أن نكون آباء ناجحين فى تربية أبنائنا فلا بد أن نعرف الطريقة التى يجب أن يتربى بها أطفال الحاضر .. "[1] و لا بد أن ندرك أن صعوبة الأبوة تزداد بصعوبة البنوة ـ إن صح التعبير ـ .

إن مهمة التربية قد تكون أكثر سهولة إذا كنا نحن الآباء نمتلك كل أوراق تلك المهمة ، ولكن الحقيقة والواقع أن جزءًا غير قليل من أوراق تلك المهمة بيد أصدقاء أبنائنا ورفقاء الدراسة ، والشارع.. بل ـ والتلفاز ـ مثلًا ..فنحن لسنا وحدنا الذين نربي أولادنا .. ومن أقوى الأدلة على ذلك ما نلاحظه فى كل رمضان من ترديد الأطفال لكلمات أغانى مقدمة الفوازير مثلًا .. ولا أنسى أبدًا ترديد كثير من الأبناء للحوار غير الأخلاقي بين الطلبة والمُدَرِّسة والناظر فى مسرحية مدرسة المشاغبين ، ذلك الحوار الذى يهدم تمامًا قيمة إحترام الصغير للكبير فضلًا عن المعلم والمربي .. وغيرها كثير من الشواهد على أننا لا نقوم بتربية أبنائنا وحدنا ..

إننا كآباء ومربّين لا نتعامل مع أبنائنا بمعزل عن المجتمع الذي يعيشون فيه ، ويتأثرون به ، ويصيبهم منه ما يصيبهم ، بل ويصيبنا نحن كآباء أيضًا ..!!

إن أبناءنا نفوس بشرية ، وليست آلات نضغط أزرارها فتنضبط بلا تأثر بمن يضغط تلك الأزرار ، والسلوكيات التى يحملها .. إنهم يتأثرون بمن حولهم ويتقلبون بين القدوات المختلفة و يجب أن لا نتجاهل تشوقهم للعيش فى عصرهم ، فى إطار الثوابت التى أرساها المنهج الرباني للشخصية الفاضلة.. فما يعد رزيلة فى

---

(١) كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د . سال سيفير ص ١٢ .

عصر أو مكان ، لن يكون فضيلة بحال من الأحوال فى أى عصر أو مكان ..

" .. فأما الإختلاف بين الأجيال فأمر تنبه إليه عمر رضي الله عنه فى وقت مبكر جدًا من التاريخ الإسلامي ، حين قال : " أحسنوا تربية أولادكم فقد خلقوا لجيل غير جيلكم " وكان يلمّح بهذا إلى ما يحدث فى حياة البشر من التغيير فى الصورة السياسية والصورة الاجتماعية والصورة الاقتصادية ، فيقول: " أحسنوا تربية أولادكم " أي اضبطوهم بالقيم الثابتة لكي لا يجرفهم التغير فيحيدوا عن سواء السبيل .

وذلك حجر الزاوية فى الحياة الإسلامية الصحيحة المحكومة بمنهج الله.

إن صور الحياة تتغير ، ولا بد لها أن تتغير .. ولكن ينبغي أن تظل – فى تغيرها– محكومة بمنهج الله ، المنزّل أصلًا لكي يواكب نمو الحياة الدائم ، ويضبط منطلقه فلا يضل عن الطريق .

تتغير صور الحياة ، ولكن يظل الله هو المعبود .

تتغير صور الحياة ، ولكن تظل شريعة الله هي الحاكمة .

تتغير صور الحياة ، ولكن تظل أخلاقيات لا إله إلا الله هي التى تنظم علائق البشر ..

... يستطيع راكب الجمل أن يركب السيارة أو الطائرة أو الصاروخ .. ولكن شيئًا من ذلك كله لا يجعله " يطغى " ويستكبر عن عبادة الله ... ويستطيع الإقتصاد الرعوي أو الزراعي أن " يتطور " إلى اقتصاد صناعي ، ولكن هذا لا يلجئه إلى استخدام الربا لأنه حرام .... وتستطيع الفتاة أن تتعلم، وأن تحذق كثيرًا من العلوم ، وتحصل على كثير من الدرجات العلمية حتى أعلاها ، ولكن هذا لا يحتم عليها أن تتبرج ، ولا أن تفقد أخلاقها .... نعم تتغير صورة الحياة من الجمل إلى السيارة إلى الصاروخ ، ومن الاقتصاد الرعوي إلى الاقتصاد الصناعي ، ومن الفتاة التى تكتفي " بفك الخط " أو بما دونه إلى الفتاة الجامعية المثقفة .. ولكن يلتقي راكب الجمل وراكب السيارة وراكب الصاروخ ، والراعي والفلاح والعامل الصناعي ، والفتاة التى تفك الخط أو لا تفكه والفتاة الجامعية المثقفة ... يلتقون

كلهم على كلمة مبدئية يقولونها : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وعلى الإقرار بشريعة الله وأنها هي التى تحكم الحياة . "(١)

إن هذا الواقع الذى نعيشه يجرى بأبنائنا فى بحر لجي من الفساد جري السفن مدت شرعها ؛ ولا بد أن يدفعنا ذلك إلى طلب مرساة نوقف بها جريانها ، ولا سبيل لذلك إلا أن نلتمس ذلك فى التربية البيتية ، والرجوع بها إلى الأصول الشرعية .

فهل من المكن أن نتّبع نفس الوسائل التى كان آباؤنا يتبعونها معنا منذ عشرين أو ثلاثين عامًا ؟

إن هذا أمر شبه مستحيل .. لقد تغير كل شيء فى الواقع الذى نعيشه ، فأصبح من الضرورى أن تتغير وسائلنا فى تربية أبنائنا ..

إن الوسائل القديمة فى التربية كانت حلولًا بسيطة لمشاكل بسيطة .. ومشاكل حاضرنا أكثر صعوبة ، ومن ثم فهى تحتاج إلى حلول منتقاة ، بل تحتاج إلى إبداع طرق ووسائل تربوية تساعدنا على إيصال ما نريده إلى أطفالنا بشكل يناسب روح العصر ومنطقه ولغته .

فهل نحن نتقن هذه اللغة وذلك المنطق؟

إن أكثر محاضننا التربوية لا يعرف لغة التربية المناسبة لعصرنا ، ومن ثم لا يمارس تربية صحيحة!! بل إن حالها يؤكد ما قاله الدكتور محمد إقبال حين رأى مواضع الضعف الكثيرة ، وجوانب النقص العظيمة فى نظام التعليم ، فتناولها بالانتقاد في صراحة وشجاعة ولفت إليها أنظار القائمين عليها، وذكر في جنايات هذا النظام على هذا الجيل شيئًا كثيرًا تفيض به دواوين شعره، يقول في بيت من أشعاره " لقد خرجت من المدرسة و(الزاوية) حزينًا، لم أجد فيها الحياة، ولا الحب، ولا الحكمة ولا البصيرة ويقول في بيت آخر: " أما رجال المدرسة ففاقدو البصر، وميتو الذوق، وأما شيوخ

---

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ص ٣٢٤ – ٣٢٥ بتصرف.

الزاوية فقاصرو الهمة، ضعيفو الطلب، قليلو البضاعة"[١].

وما ذكره " محمد إقبال " واقع ومشاهد فبيئتنا التربوية متخلفة قوامها «قيادة الفرد الواحد» فى جميع مناحي الحياة . فى المدارس والحكومات والجيش والأحزاب السياسية .. إستحوذ هذا النظام على جميع مؤسساتنا فأحالها أشبه بمؤسسات للرقيق تخضع لسيد واحد ..

فوجدنا نموذج " القائد الفرد " هو المسيطر على أكثرها .. ذلك القائد الذي يراه الأتباع " عالمًا بكل شيء وقادرًا على كل عمل !! فيولونه القيادة مدى الحياة ، وترتبط حركة حياتهم بتوجيهاته ارتباطًا مصيريًا مهما كانت تلك التوجيهات ؟!! بل إنه حتى إذا غاب عنهم بالسفر أو بأي سبب آخر ، ظل يوجههم عبر ما يمكن أن نطلق عليه الإستشعار عن بعد ..

وحين يكون اللقاء به فهو الذي يتحدث ، وهو الذي يحدد فيم يتحدث، وهو الذي يحدد المدة التى يتحدث فيها !! وحتى إذا ارتجل الحديث فإن الجميع يظهرون الاحترام والتقدير والتوقير لكل ما يقول ، بغض النظر عن أولويات الحديث والأمور الأهم .. !!

وفى عقل كل الأتباع الاعتقاد بأنهم لا يساوون شيئًا أمام " القائد " وهذا "الخضوع" – ولا نقول التواضع – أصبح شرطًا من شروط البقاء داخل هذه المؤسسات ..!! بل إن أكثر هذه المؤسسات لا يربي أفراده على حرّية الرأي ، ولا يدرّبهم على ممارسة الشورى .. فضلًا عن تدريبهم على مساءلة القائد .. وهذه الحال تشابه إلى حد كبير الشعار الباطل الذي قد يرفضه أفراد تلك المؤسسات، وهو "المريد أمام شيخه كالميت بين يدي مغسّله" ... أو "النصيحة" الشيطانية للبقاء داخل المؤسسة ، وهي "وافق أو نافق أو فارق" !!

فالقائد من حقه محاسبة الجميع .. أمّا هو فلا يجرؤ على محاسبته أحد ..

---

(١) قد ينظر البعض إلى هذه المدارس على أنها منارات النشأة الجيدة لأبنائنا ، وهذه نظرة تنطوي على شيء من السذاجة ، ولكنها فى ذات الوقت تخفف من إحباطه أو شعوره بالعجز!!

هكذا . وكأن الأمر فى القيادة " على ما يرام " دائمًا ..!! "[١].

والداهية الكبرى هنا ، و التى يجب أن نتنبه لها كآباء ومربين " أن المجتمعات المعاصرة تريد عبر هذه المبادىء أن تحمي واقعها الخاطىء إجتماعيًا واقتصاديًا وإداريًا وسياسيًا وغيرها ... فيجعلون الطاعة منقطعة عن أصلها لتصبح طاعة عمياء محدودة مبتذلة تعني التملق والمحسوبية وتنمي فى الفرد الذل والخذلان والانكسار ، وتقتل همة الترقي ، وتصبح التضحية تضحية لتعميق الواقع الآثم ، وكذلك تجهز العدالة على بقية العدالة لأنها ستضفي على الباطل أصباغ ومساحيق العدالة الزائفة وهكذا ستصبح العزة نذالة وذلًا ومهانة لأنها ستكون عزة بمقدار القرب من القائمين على هذا الواقع الخاطىء"[٢].

لعل البعض قد قال الآن – فى نفسه على الأقل – إن وضعنا الحالي هو أسوأ ما يمكن أن نصل إليه ، ولا يمكن أن نعمل على تربية أبنائنا تربية إسلامية فى ظل هذا الواقع الصعب ؟! .. وإذن فعلينا أن ننتظر وجود بيئة أفضل وأكثر قابلية لما نريد من تربية !! ..

ونحن نزعم أن الواقع الذي نعيشه اليوم قد يكون أفضل ما هو متاح، وأن واجبنا أن نحاول عمل ما يمكن أن نعمله لمنع كارثة تربوية محققة..!![٣]

وأنه " ليس شرطًا أن يكون المناخ الإجتماعي سليمًا لا عوج فيه حتى نربي أبناءنا وفق المفاهيم والتصورات الإسلامية .. بل المطلوب أن نحاول أن تعمل هذه المفاهيم عملها فى نفوسنا ، ومن ثم فى نفوس أبنائنا ، ولو كان المجتمع فاسدًا إلى أقصى درجات الفساد ، فإن هذه المفاهيم ستأخذ طريقها ضد التيار وستلوى عنقه

(١) دليل التدريب القيادي – د . هشام الطالب – ص ٢٩ بتصرف يسير

(٢) طريق البناء التربوي الإسلامي – د.عجيل جاسم النشمي – ص ١١١ بتصرف يسير .

(٣) يحكي البعض دعابة تقول أن أحد المتفائلين سقط من الطابق العاشر ، وحينما مر بالطابق السابع سأله أحدهم من النافذة : كيف حالك ؟ ، فأجاب : بخير حتى الآن ..!!!

ليًا فى نهاية المطاف كي يتمشى وسمت تلك المفاهيم، لأنها مفاهيم ومبادىء غالبة لا محالة . فالظلم لا يقوى على العدل ، والغش لا يقاوم طويلًا الإخلاص ، والأنانية لا تقاوم التضحية ، والذل لا يصرع العزة...[1].

ولقد يبدو لأول وهلة أن ضخامة الواقع الذى نعيشه ويعيشه أبناؤنا ، وضخامة الأسس التصورية الفاسدة التى يستند إليها ، وضخامة الواقع الحي المتحرك بهذه الأسس وتلك التصورات .. قد يبدو لأول وهلة أن هذا كله من شأنه أن يجعل محاولة التربية الصحيحة لأبنائنا عبثًا ضائعًا ، أو شيئًا أشبه بمحاولة طلاء سفينة آخذة فى طريقها نحو القاع !! والجهد الهائل الذى سنبذله فى سبيل ذلك إسرافًا لا مبرر له !

ولكن هذا فى حقيقته ليس إلا وهمًا ..

فليس مستحيلًا أن نربي أبناءنا مهما كانت الظروف المحدقة بنا قاسية ..

وهذه القصة من تاريخنا تؤكد ما نقول ، وتشهد لما نريد من محاولة ..

فقد كانت غرناطة آخر المعاقل التي سقطت في الأندلس ، وقبل رحيل آخر ملوكها عقد معاهدة مع ملك إسبانيا على أن يترك للمسلمين حريتهم في دينهم ولغتهم ، ولكن الإسبان نكثوا عهودهم ومارسوا سياسة البطش لتحويل المسلمين إلى النصرانية. يقول العالم محمد بن عبد الرفيع الذي حضر هذه المأساة وأنجاه الله منها: " أطلعني الله على دين الإسلام بواسطة والدى - رحمة الله عليه - وأنا ابن ستة أعوام وأقل، مع أنى كنت إذ ذاك أروح إلى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ثم أرجع إلى بيتي فيعلمني والدي دين الإسلام ، فكنت أتعلم فيهما معًا، وسني حين حملت إلى مكتبهم أربعة أعوام. فأخذ والدي لوحًا من عود الجوز كأني أنظر الآن إليه مملّسًا من غير طَفَل ولا غيره ، فكتب لي فيه حروف الهجاء في كرّتين. فلما فرغ من الكرة الأولى أوصاني أن أكتم ذلك حتى عن والدتي وعمي وأخي وجميع

(١) طريق البناء التربوى الإسلامي - د.عجيل جاسم النشمي ص ١١٠ بتصرف.

قرابتنا، وأمرني أن لا أخبر أحدًا من الخلق ثم شدد عليَّ الوصية ، وصار يرسل والدتي إليَّ فتسألني ما الذي يعلمك والدك فأقول لها: لا شيء فتقول أخبرني بذلك ولا تخف لأني عندي الخبر بما يعلمك : فأقول لها: أبدًا ما هو يعلمني شيئًا. وكذلك كان يفعل معي خالي وأنا أنكر أشد الإنكار. ثم أروح إلى مكتب النصارى، وآتي الدار فيعلمني والدي إلى أن مضت مدة فأرسل إليَّ من إخوانه في الله الأصدقاء فلم أقر لأحد قط بشيء، مع أنه -رحمه الله تعالى- قد ألقى نفسه للهلاك لإمكان أن أخبر بذلك عنه فيحرق لا محالة. لكن أيدنا الله سبحانه وتعالى بتأييده وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته بين أظهر أعداء الدين".

قلت (شكيب أرسلان) فهمنا من هنا أن هؤلاء الجماعة كانوا أُجبروا على النصرانية طرًا، وإنما كانوا باقين في الغالب على الإسلام سرًا ، وكانوا مضطرين أن يرسلوا أطفالهم حتى من سن أربع سنوات إلى مكاتب النصارى، ولم يكن يباح لهم أن يعلموا أولادهم شيئًا عن الإسلام ، ومن كان يقدم على ذلك وكانت الحكومة تعلم به كان يحرق بالنار. وبرغم هذا كله كان بعضهم حريصًا على تعليم أولاده عقيدته الإسلامية ولغته العربية، فكان يعلمهم ذلك مع أشد الاحتياط والامتحان خشية أن السلطة تأخذ سر الأمر من الأولاد فتحرق أولئك الوالدين بالنار كما هو قرار ديوان التفتيش الكاثوليكي.

ويتابع ابن عبد الرفيع :

" وقد كان والدى – رحمه الله تعالى – يعلمني حينئذ ما كنت أقوله عند رؤيتي للأصنام ، وذلك أنه قال لي : إذا أتيت إلى كنائسهم ورأيت الأصنام فاقرأ فى نفسك سرًا قوله تعالى : ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب﴾ ... و ﴿قل يا أيها الكافرون ﴾ .. إلى آخرها ، وغير ذلك من الآيات الكريمة .. وقوله تعالى : ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا ، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع

الظن ، وما قتلوه يقينًا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزًا حكيمًا ﴾.

فلما تحقق والدي -رحمه الله تعالى- أني أكتم أمور دين الإسلام عن الأقارب فضلًا عن الأجانب أمرني أن أتكلّم بإفشائه والدتي وعمي وبعض أصحابه الأصدقاء فقط. وكانوا يأتون إلى بيتنا فيتحدثون في أمر الدين وأنا أسمع ، فلما رأى حزمي مع صغر سني فرح غاية الفرح وعرفني بأصدقائه وأحبائه وإخوانه في دين الإسلام فاجتمعت بهم واحدًا واحدًا"[(١)].

هذه هي القصة .. فهل لنا فيها عبرة ؟

إن الباطل إن لم تذيبه ، فإنه يذيبك .. وهناك دائمًا ما يمكن عمله من أجل ذلك .. وثواب المحاولة هو الجنة .

إن مهمتنا التربوية فى مثل واقعنا الذى نعيشه " ليست سهلة ، ولكننا "مطالبون بـ " المحاولة " وبذل الـ " جهد " لأننا بغير المحاولة لا نصل إلى شيء . ولأننا بـ " المحاولة " نحدث على أقل تقدير قدرًا من التغيير فى الحاضر ينبني عليه التغيير المرجو فى المستقبل . ولأن الله يأجرنا على الجهد المبذول – حين يكون جهد الطاقة – بما تهفوا له كل نفس مؤمنة فى الأرض : رضاه والجنة "[(٢)].

فليؤلف أعداؤنا ما شاءوا من المناهج ، وليقيموا ما شاءوا من المدارس، وليضعوا ما شاءوا من خطط لتعبيد أبنائنا ، وليرسموا مقاصدهم على رمال الوهم ، فنحن بفضل الله قادرون ـ بعون الله، ثم بتربيتنا القويمة ـ على محو كل آثارهم كما يمحو مد البحر ما نقشته أيدى الأطفال على رمال الشواطىء المبللة..

إن البحر يقول فى مده: إنى أعود إلى ما تركت من مكاني ..

ونحن سنقول بتربيتنا القويمة : إنا نسترد ما اغتصبتم من حقوقنا .

---

(١) مجلة البيان – العدد ٣٩ – ذو القعدة ١٤١١ هـ نقلًا عن حاضر العالم الإسلامي – تعليق/ شكيب أرسلان .

(٢) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ص ٣١٨ .

أخي المربي ـ أبا وأما ـ :

رحم الله من عرف زمانه ، واستقامت طريقته ..

إن مشوار التربية طويل، والبداية الصحيحة تختصره، وتضفي عليه طعمًا مختلفًا ..

اطلب العون من الله و استعن به ولا تعجز و لا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، و لكن جدد وواصل العمل وقل: قدر الله و ما شاء فعل. ثم ابذل السبب فى محاولة " تربية أبنائنا فى الزمن الصعب " .

❁❁❁

الباب الأول

استمع إليه

H = Hear him

و يشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : المهارة الصامتة

الفصل الثاني : السحر الأبيض

الفصل الثالث : السير فوق الخيط الرفيع

الفصل الأول

المهارة الصامتة

بينما أنت فى حجرتك تكتب فى بعض شؤونك .. هبت نسمات قوية بعثرت أوراقك فى أنحاء الغرفة ، فبدأت تركض فى أنحاء الغرفة محاولًا بيأس جمع تلك الأوراق ، وفى النهاية انتبهت ، أن من الأفضل أخذ عشر ثوان من وقتك لكي تغلق النافذة ..

هذه هى فكرة الإنصات .. إن الساعات التى تقضيها فى الإنصات لأبنائك تختصر سنوات من سوء الفهم الناتج عن سوء الإستماع والإنصات ..

بل إن التأثير النفسي فى الأبناء بالسماع والإنصات لا يعدله أى تأثير آخر .. فقد قيل – بحق – إن كثيرًا من الناس يستدعون الطبيب لا ليفحصهم ، وإنما ليستمع إليهم!! .

وهذه الكلمات محاولة للتركيز على كيفية توظيف الإنصات فى ترشيد أفهام أبنائنا وتغيير سلوكياتهم ..

- السماع الكامل :

يعد الإستماع أهم وسيلة اتصال بالأبناء ، فحتى تفهم أبناءك لا بد أن تستمع إليهم ، تستمع إستماعًا حقيقيًا وكاملًا . أمّا أن تستمع وأنت تجهز الرد عليهم أو تحاول إدارة دفة الحديث، فهذا لا يسمى استماعًا على الإطلاق..

إن معرفتنا الشديدة بأبنائنا قد تحرمنا من معرفة الأسباب الحقيقية لمشكلاتهم ، ذلك أننا حين نعتقد أننا نعرفهم تمامًا ، نظن أننا نعرف ما هو أفضل شيء بالنسبة إليهم حتى دون أن نسمعهم !!

بينما فى الحقيقة نحن لا نعرف دون أن نسمع سماعًا كاملًا .. وهنا تكمن المشكلة.

وحين يشكو الأب أن علاقته بإبنه ليست على ما يرام ، وأن هذا الابن لا يفهمه ، ولا يريد أن يستمع إليه !!

فلا بد لنا أن نسائل الأب ، وكيف فهمته أنت دون أن تستمع إليه ؟

إن هذا الأب نموذج صغير للكثير من الآباء، الذين يرددون في أنفسهم أو أمام الآخرين : إنني لا أفهم إبني ، إنه لا يستمع إليّ ، ولا يعيرني أُذنًا صاغية!! بينما لم يسأل نفسه مرة ، متى أعار هو لابنه أذنًا صاغية ؟ ، ومتى كان بكل كيانه يستمع إليه؟

نعم يستمع إليه .. لأن هذا " الإستماع " هو أسهل وسيلة إلى امتلاك قلبه؟!

وللتأكيد على ما أقول أدعو كل أب إلى النظر فى ذاته وفى نفسه .. فعندما تشعر بالضيق من أمر ما أو تكاد تطير فرحًا .. إلى من تتجه؟ بالتأكيد إلى من يحسن الإنصات إليك ، حتى وإن اختلف الفارق السني أو الفكري أو العمري مع من يحسن الإنصات فإنك ستفضله على غيره .. تذكّر أي تجربة أليمة أو سعيدة جدًا .. هل تذكر أنك احتجت وقتًا طويلا لمعرفة من تقولها له؟ بالتأكيد لا .. فهو صديقك الذي " تحبه " . أليس كذلك ؟

ما الذي يميّز هذا الصديق الذى " تحبه " ؟ .. إنه – غالبًا – يحسن الإنصات إليك .

إننا جميعًا " نحب " من ينصت إلينا ، ونشعر فى كنفه بالاحتضان والتقدير ، ولا نرى أجمل من أذن تصغي إلينا بهدوء ووقار، فتخرجنا من حزننا وغضبنا وإحباطنا..

إن الإنسان – أى إنسان – حين يستمع إليه الآخر فإنه يحب هذا الآخر ، بينما

عدم سماعه يؤدى به إلى الإحباط .. فكلما أنصتّ لابنك زاد قربه منك وحبه لك .

فإذا أردت – أيها الأب – أن تتسلل إلى قلب إبنك وتملك قلبه فأنت تحتاج بالضرورة " أن تتسلل إلى عقل ذلك الابن لتكتشف ما يريده .. وأنت فى ذلك لست بحاجة لأن تكون طبيبًا أو عالمًا نفسيًا ، كما أنك لست بحاجة لتلك الدرجة المعرفية المتقدمة لتكون قادرًا على الفهم والتنبؤ والسيطرة على سلوكيات أبنائك ، واكتشاف رغباتهم الداخلية .. فقط إستمع لحديث الابن بشكل جيد ، وستجد أنك تتعرف على ما يريده ، ربما بشكل أفضل من الذى يمكن أن يعبر به هو نفسه عن تلك الرغبات والأمنيات .. "[1] وأن استماعك له حوّله إلى قلب منقاد لك بالحب والرحمة .

فإذا أراد الابن الحديث إليك بينما كنت فى غاية الإنشغال ، فلا تتظاهر بسماعه ، وإنما كن صادقًا معه واطلب منه أن يعود إليك لتسمعه سماعًا حقيقيًا..

.. أذكر أن أبنائي كانوا يريدون الحديث معي بينما كنت مستغرقًا فى تأليف هذا الكتاب .. فكنت أطلب منهم الانتظار " إنني منغمس فى منتصف فكرة هامة ، هل يمكنك يا " أحمد " أن تعود إلي بعد ثلاث دقائق ؟! .. سأكون فى غاية السعادة وقتها بالإستماع إليك ..».

وأنت – أيتها الأم – إن أبناءك " يختارون الفرص التى لا تتوقعينها مثل الوقت الذى تعدّين فيه طعام العشاء ، أو الذى تقومين فيه بتنظيف المطبخ .. فيتحدثون إليك .. يتحدثون عندما يكون ذلك مناسبًا لهم ، وليس عندما يكون مناسبًا لك ، ونصيحتي لك إنه مهما كانت مشاغلك ، ومهما كانت مسؤولياتك ، توقفي عن كل ذلك واشغلي نفسك بأكبر عمل وأصعب مهمة وهى تربية الطفل عبر الإستماع إليه

(١) ٢١ يومًا للحصول على القوة والسلطة فى تعاملك مع الآخرين – جيمس ك . فانفليت – ص ١١٠ بتصرف

باهتمام .. " [١] .

إننا كلنا – آباء وأمهات ومربّين – نريد تواصلًا جيدًا مع أبنائنا ، والبداية الصحيحة لهذا التواصل هو فهم الجهة التى تنحدر منها سلوكياتهم ، وما هى الأمور التي تستحوذ على اهتماماتهم .. وهذا يقتضي عدم تفسير تصرفهم على هوانا، وإنما السماع بإنصات ، لا لتحديد من على خطأ ، ومن على صواب .. وإنما لتقوية التواصل مع الأبناء وتحسين العلاقة بهم .

سيقول بعض الآباء والأمهات : ومن الذى عنده صبر لهذا التفاهم والتواصل والإستماع والتفهم؟ !!

ونحن نؤكد لكل الآباء والأمهات أن الصبر يجب أن يكون هو المادة الأساسية التى نغزل منها تربية أبنائنا ، وأن علينا أن نتدرب عليه ، و نحاول التحلي به، وإرغام النفس على ذلك كما أمر النبي ﷺ: " إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتحرّ الخير يعطه ، ومن يتوقّ الشر يوقه" [٢] .. وقال ﷺ: " إنه من يستعفف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ولن تعطوا عطاء خير وأوسع من الصبر " [٣] .

وتأمل معي صبر النبي ﷺ وهو يستمع إلى عتبة بن ربيعة وهو يقول له : يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة والمكانة في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفّهت أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها، قال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد، أسمَع. قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا، جمعنا لك من أموالنا حتى

---

(١) حاول أن تروضني – راى ليفي – ص ١٠٤ ، ١٠٥ بتصرف
(٢) حسنه الألباني فى الصحيحة برقم ٣٤٢.
(٣) رواه البخاري ج٤ ص ١٨٦.

تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا، سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الأطباء ، وبذلنا فيها أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربها غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .. ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله -ﷺ- يستمع منه، قال: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم ، قال رسول الله -ﷺ-: فاستمع مني. قال: أفعل. فأخذ الرسول ﷺ يتلو عليه من سورة فصلت حتى انتهى إلى الآية ٣٧ سجد ثم قال لعتبة : قد سمعت يا أبا الوليد ، فأنت وذاك ..

فانظر ـ رحمك الله ـ إلى النبي ﷺ كيف يستمع إلى عتبة وهو يعرض عليه هذه الخواطر التي تثير الاشمئزاز مقارنة بها يشغل النبـي من عظائم الأمور، ومع ذلك يتلقاها النبي حليمًا، ويستمع إليه دون مقاطعة عتبة ويردد في نهايتها: أفرغت يا أبا الوليد؟. فيقول: نعم، فيقول الرسول الكريم: فاستمع مني، بل لا يبدأ النبي ﷺ كلامه حتى يقول له عتبة: أفعل.. فيبدأ النبي ﷺ في تلاوة قول ربه في ثقة وطمأنينة!!(١).

إن تدبّر ما يقوله الأبناء لا يتأتى إلا مع استماع ما يقولون حتى دبره : أي آخره ، وعدم الطمع في الكلام بدلًا منهم ، لأن هذا الطمع يزهدنا فيها يقولون، كما أن السماع الكامل لهم يُشْعرهم باهتمامنا بما يقولون ، وجديتنا فى التحاور معهم ، وثقتنا فى الوقت ذاته فيما عندنا من أفكار (٢).

إن السماع الكامل لأبنائنا ، وإعطاءهم الفرصة حتى يُتموا كلامهم ، مع استوضاح أي غموض فيها يعرضوه من أفكار.. إن كل ذلك لا بد أن يكون هو السمة المميزة لكل تحاور بيننا وبينهم ، فإذا تبين لنا خطأ الابن ، فإن السماع الكامل له وعدم مقاطعته هو المقدمة الصحيحة لرجوعه عن الخطأ مهما كان عناده ؛ فإن

---

(١) السيرة النبوية – ابن هشام – جـ١ ص٣١٤.
(٢) راجع إن شئت " لمحات فى فن الحوار – مقالات للمؤلف – مجلة البيان الأعداد ٨٧ ، ٨٨،٨٩ .

أشد الناس جفافًا في الطبع وغلظة في القول لا يملك إلا أن يلين وأن يتأثر إزاء مستمع صبور عطوف يلوذ بالصمت إذا أخذ محدثه الغضب"[1].

إن من الأهمية بمكان أن تكون – أيها الأب – مستمعًا جيدًا أكثر من أن تكون متحدثًا دقيقًا ، ولا بد لك أن تعلم أن المستمع الجيد يتميز بالصبر وضبط النفس للتوافق مع احتياجات المتحدث العاطفية ..

إن السماع الكامل للابن قد يأخذ بعض الوقت ، ولكنه فى الحقيقة قد يوفر جهد سنوات من سوء الفهم وانقطاع التواصل ..

والقاعدة هنا هى وصية أبى الدرداء : " أنصف أذنيك من فيك ، فإنما جعل لك أذنان اثنتان وفم واحد لتسمع أكثر مما تقول ".

إن كل ابن من أبنائنا أثناء كلامه يكون بداخله رسالة مجهولة وغير منطوقة، وليس للمربى سبيل إلى استيعاب هذه الرسالة إلا بالسماع الجيد .. و كلما استمع المربي أكثر ، أحس الأبناء بالأمان ، فانفتحوا له أكثر ..

أيها المربى .. إستمع للابن إستماعًا كاملًا .. إستمع إلى كل شىء .. إستمع إلى الغث والثمين .. لا تقاطع .. استمع بأذن عطاء بن أبى رباح الذى ينصت إلى حديث شاب كأنه يسمعه لأول مرة .. ثم يخبر الحاضرين بعد انصراف الشاب أنه يعلم الذى قاله قبل أن يولد !!!

فإذا نجحت فى ممارسة هذه المهارة ؛ فإن النتيجة المباشرة والقريبة هى تعبير أبنائك عن أحاسيسهم بالكلام الذى يخفف من صراعاتهم ويشبع عواطفهم واحتياجاتهم .. كما أن ممارستك لهذه المهارة يعلم أبناءك الاستماع الجيد.

" إن أفضل طريقة لإقناع الابن بفكرتك أن تدعه يطرح أفكاره ، لا تقاطعه،

(١) كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس – ديل كارنيجي – ص٩٢ بتصرف.

وأعطه الفرصة لأن يتكلم ، ويفصح عما يجيش فى صدره ، حتى ينهي حديثه ، بهذا تتمكن من التعرف على وجهة نظره ، وتستكشف نقاط ضعفه . بعد ذلك تمسك زمام المبادرة لتوجيه ما تراه مناسبًا فى تصحيح الأخطاء التى وقع فيها بأسلوب هادىء ومقنع وبحقائق دافعة تخاطب عقله وتمس وجدانه » بعدها سيصبح أكثر تقبلًا لأفكارك ، ويكون لديه الاستعداد لقبول وجهة نظرك .. "[1] .

وحتى تستطيع – أخي المربي – أن تستمع لأبنائك من أجل الفهم ، وليس من أجل تجهيز الرد ، فأنت فى حاجة ماسة لتعلّم مهارة السماع الكامل ..

فكيف تكتسب هذه المهارة؟

إن الاستماع للأبناء ليس مجرد عدم مقاطعتهم ، وإنما أيضًا الإستماع برضا حتى نهاية الحديث دون الاحساس بالرغبة الملحة فى الرد .. وكأننا فى سباق مع الابن المتحدث ..!!

راقب نفسك أيها الأب .. هل تقاطع ابنك وهو يتكلم؟ هل تستطيع التحلى بمزيد من الصبر لتسمعه سماعًا كاملًا ؟ .. فإذا لم تجد لديك هذه المهارة فابدأ من الآن فى محاولة ممارستها عبر :

١- أن تستمع بكل كيانك :

عندما تستمع إلى أبنائك فلا بد أن تستمع بكل كيانك ، أترك اهتماماتك جانبًا ، أترك متعتك وأعمالك الخاصة – على الأقل فى الوقت الذى تكون فيه معهم وهم يتحدثون – .. فى هذه اللحظات القليلة معهم .. أترك كل هذا واستمع بشكل عميق وبوعي وتركيز .. لا تبتعد عن ابنك وهو يحادثك .. أنظر إليه بعينين ملؤها التأمل فيما يقول .. ولا تطلب منه أن يسرع فى إنهاء الموضوع ..

---

(١) التميز فى فهم النفسيات – أكرم عثمان – ص ٨٦ .

٢- أن تسمح للابن أن يكون فى دائرة الضوء :

يهتم معظمنا أن يكون فى دائرة الضوء .. أن يكون المركز الذى يدور حوله الآخرون .. ولكي تصبح مستمعًا جيدًا أنت تحتاج أول ما تحتاج أن تسمح لهذا الضوء فى الدائرة أن يسقط على أبنائك ولو لفترة إنصاتك لهم ..لا تفكر وقتها من أنت ؟ وما هى مكانتك .. وماذا تريد من أبنائك .. وإنما عوضًا عن ذلك، فكر أكثر فيما يريدون إخبارك به .. إن كل ما تحتاج إليه ألا تفكر فى ذاتك لفترة تكفى لسماعهم .

٣ – أن تتعلم الصبر :

إذا كنت فى عجلة من أمرك ، فهل يمكنك الإستماع ؟.. لا أظن – وخاصة إذا كان ابنك يريد أن يخبرك بتفاصيل كل ما يحكيه لك – إنك فى الأغلب ستشعر أنك تريد أن تسحب من فمه الكلمات بسرعة حتى تنهى الحديث بسرعة .. وهذا يعنى أنك مستمع غير جيد ..

إذا أردت أن تكون مستمعًا جيدًا ، فلا بد لك من تعلم الصبر حتى ينهى من يحدثك كل ما يريد أن يقوله لك .. وأنت فى خلال حديثه لا تنقد ما يقول ولا تصدر حكمًا من خلال نصف حكاية .. إن ذلك الحكم المتسرع قد يدمر ذات من أمامك أو كرامته أو احترامه ..

إن عليك الصبر والانتظار والاستماع إلى أن يصل من يحدثك من أبنائك إلى تفريغ كل ما يريد قوله .. فهذه هى الطريقة الصحيحة لمواجهة مشكلته وحلها الحل الصحيح بإذن الله .

٤ – الاهتمام الحقيقي بالأبناء :

لا فائدة من الإستماع للابن .. وجعله فى بؤرة الضوء والاهتمام ، وتعلم الصبر على حديثه كله .. لا فائدة من كل هذا إلا أن يكون هناك اهتمام حقيقي بالابن وما

يريده ، وما يعانيه .. ذلك أن الاهتمام الحقيقي هو أساس كل العلاقات البشرية الباقية ، والصداقات والمحبة القوية .

أخي المربي ..

إنك من خلال السماع التام لأبنائك تبعث برسالة لهم مفادها " أنتم جديرون حقًا بالاستماع إليكم».. كما أنك بهذا تزيد احترامهم لذواتهم لشعورهم بأهمية ما يقولون ..

فإذا جاءك الابن محدثًا فى أمر، أو باثًا لشكوى، أو مشاورًا فى أمر مما يخصه ؛ فعليك بالسماح له بالجلوس إليك ، وتوفير الراحة النفسية له بكل السبل .. ثم البدء فى الاستماع إليه .. أطلب منه أن يحكى لك كل ما يريد من البداية إلى النهاية .. إستمع إلى ما يقول دون مقاطعه بأى كلمة ، واعلم أن هذا ما يحتاجه الابن على الحقيقة .. إنه فى حاجة إلى من يستمع إليه ، فى حاجة إلى من يمنحه أذنًا صاغية لكل ما يشكو منه ...

وجزء أساسي من الاستماع الجيد هو الانتباه لتفاصيل ما يقوله الابن وعدم التعجل بافتراض الفهم المسبق لما سيسرده الابن، بل الاستماع الجيد والكامل ، فإذا انتهى الابن من حكايته ؛ فأخبره أنك متفهم لما يشعر به ، فتهدأ نفسه .. فإذا هدأ تمامًا ، فتكلم معه عما يمكن القيام به للخروج من هذه المشكلة التى حكاها لك .. أو كيف يمكن تحقيق الطلبات التى طلبها منك .. فإذا أخبرك بما يجب أن تساعده فيه ، فابدأ على الفور بمد يد عونك له ..

" إننا من خلال الإستماع إلى الابن نقويّ شعوره نحو الانتماء لأسرته ، لذا يجب أن نسمع إلى ما يقول الابن أولًا ـ قبل أن نخبره بما يجب عليه أن يفعل ـ .. كما يجب أن نشجعه على الحديث معنا بحرية وبدون مقاطعة منا سواء كانت هذه

المقاطعة لتصحيح كلمة أو معلومة خاطئة ، ولندعه يكمل سرده إلى نهايته مع الاهتمام بأن تكون ملامح الإعجاب بادية فى وجهنا أو فى بعض الأصوات الصادرة عنا مثل (أم أم ..) أو (هيه ..) أو بعض الكلمات السريعة مثل (عظيم) (رائع) (جميل) (أحسنت) .. أو عبارات قصيرة مثل (هذا فعل طيب ..) وهكذا .

وعدم مقاطعته لا تعني ألا نجيبه على أسئلته أثناء حديثه ، بل إن هذه الإجابات تؤكد له أننا نصغي إليه باهتمام وانتباه ، وتوحي إليه بأن أفكاره ذات قيمة .. وأنه شخص محترم . الأمر الذي يمنح الطفل الإحساس بأهميته ، وبالتالي يجعله هذا الإحساس يشعر بالانتماء لأسرته ويتجاوب بطريقة إيجابية معنا "(١)

إن الطبيب الموفق هو من يستمع للمريض بعمق وانتباه ، ومن ثم يتفهم ما به .. بينما الفاشل لا يجيد فن الاستماع والإنصات فيقول له : أنت تتدلل ، أو تدعي المرض ، أو لا علة فيك ..

فإذا أهملت حديث الابن فلم تستمع له فإنك غالبًا ترفضه .. والرفض مؤلم .. وأما إذا استمعت إليه ، فأنت تقبله .. والقبول يداوى الألم .. فالسماع الكامل هو الداء والدواء ..!!

- **الصمت الواعي :**

إذا كان السماع الكامل للأبناء من أهم وسائل الاتصال بهم ، فإن الصمت الواعي هو وسيلة هذا السماع التي تحقق منه الفائدة القصوى.. والصمت الواعي يستلزم قدرات خاصة لاستيعاب ما يقوله الابن وتخزينه في الذاكرة بصورة منظمة لاسترجاعه في الوقت المناسب للحوار..

وهذا يعني أن نعرف أثناء صمتنا.. حتى متى يجب أن نسمع؟ ومتى يجب أن نتكلم؟ وماذا نقول إذا تكلمنا؟.. فليس كل ما يعرف يقال، وليس كل ما يقال يقال

(١) سياسات تربوية خاطئة – محمد ديماس – ص ٧٣ ، ٧٤ .

في كل وقت، وليس كل ما يقال في كل وقت يقال لأي أحد.. ففي بعض الأمور يكون الصمت هو الواجب، وفي أمور أخرى يكون الكلام هو الواجب.. ولابد أن نعرف فن التوفيق بين واجب الصمت وواجب الكلام..

إن للصمت وظائف تربوية ضخمة ، وبخاصة حين يحسن استخدامه ، أمّا حين يُساء استخدام الصمت، فيلتزمه الأب دائمًا وفي كل الأحوال، فإنه يعطي الابن إحساسًا بعدم التجاوب معه!! بل ربما ظن أنك تستخف بما يحدثك فيه ، وهذا يدفعه إلى التردد ألف مرة قبل أن يحدّثك فى أموره ..!!

تقول مجلة ريدرز دايجست : " إن كثيرًا من الناس يستدعون الطبيب لا ليفحصهم ، بل ليستمع إليهم "[1] .

وهذا الذى قالته المجلة حق ، فالمريض فى كثير من الأحوال لا يذهب للطبيب للعلاج ، وإنما ليسمع شكواه ،.. فإذا تميّز الطبيب بالإنصات الواعي ، فإنه يحس به ويعبر عن مشاعره وأفكاره بقوله : أنا أحس بك وأشعر بشعورك .. ما الذي تشتكي منه ، حينها يشعر بالاطمئنان ويعبر عمّا يعاني منه ..

ونفس الأمر ينطبق على أبنائنا ، فخير مساندة لهم حين يشعرون بالتعب والارهاق أن نتعرف على مشكلاتهم والأسباب التى تدعوهم إلى الحزن والهم؛ فيشعرون بالإرتياح لفهمنا لهم ، ووقوفنا إلى جانبهم ..

ومن هنا يجب علينا كآباء محاولة اكتساب القدرة على الصمت الواعي الذي يحقـق الوسطية بين رد الفعل السريع الذي لا يُنْتِج إلا الخسائر التربوية ، وبين رد الفعل المتأخر الذي يبدد الوقت والجهد دون فائدة "[2]

(١) قواعد وفنون التعامل مع الآخرين . د. على الحمادى .
(٢) راجع إن شئت " أساليب الحوار " – مقال للمؤلف – مجلة البيان / العدد ٨٨ بتصرف .

فكيف يحقق المربي ذلك الصمت الواعي ؟

أن تحقق الصمت الواعي ليس معناه أن تنصت بأذنيك فقط ، وإنما بعينيك أيضًا !!

هذه ليست دعابة ، فقد أثبتت دراسات عديدة أن تتبع المنصتين لأعين المتحدثين يزيد الفئة الأولى تركيزًا ومتابعة ويزيد الثانية راحة أكثر في الحديث .

كما يجب أن نراعي: ألا نقاطع أبناءنا حتى ينتهوا من حديثهم فذاك يعوّدهم على الحديث إلينا بارتياح ..كما يجب أن نراعي ألا نرد مباشرة على ما يقولون ، ولا نصدر أحكامًا مبكرة – ولو بيننا وبين أنفسنا – حتى ينتهوا من كلامهم ، فإذا انتهوا فحبذا لو نستهل ردنا عليهم باختصار ما قالوا عبر قولنا : ما فهمته من كلامكم كذا وكذا ..

ومع عدم المقاطعة ، لا بد أن يشعر الأبناء بتفاعلنا معهم ومع ما يقولون فذلك يشعرهم بالقبول والمتابعة ، ويشجعهم على الكلام وبث الشكوى ، ولا نتصنع الإهتمام فلديهم الفطنة والذكاء الذي يؤهلهم للتعرف على رائحة هذا التصنّع .. ومن ثم عدم الكلام معنا بصدق ..!!

إن أغلب الآباء لا يستمعون بنية الفهم ، بل يستمعون حتى يردّوا على أبنائهم ، فنجدهم إمّا يتكلمون ويقاطعون أبناءهم ، أو يتهيئون للكلام ، وهذا بالطبع لا يجعلهم يستوعبون ما يقوله أبناؤهم ، لأن كل همهم يكون انصياع الأبناء لما يقولون، وتحويلهم إلى نسخ طبق الأصل عنهم ، بل ربما طالبوهم بالقناعة بما يملونه عليهم دون تمحيص أو برهان !!!

ولهؤلاء الآباء ننصح ثلاث نصائح :

.. فأما النصيحة الأولى فهى " لا تتسرع فى إبداء رأيك .. تحكّم فى رد فعلك لكى تحتفظ برأيك وتختار أفضل الأوقات لتعريف الابن به "

و أما النصيحة الثانية فهى " كن منفتحًا لتلقى الأفكار الجديدة والإقتراحات الجديدة وحاول التفكير بعقلية الابن .. حاول الخروج من الحيز الشخصى فى التفكير ".

و أما النصيحة الثالثة فهي " تعقل كل الأمور ، وحاول رؤية الأمر بصورة كلية وتعلّم مما تسمع من إبنك .. وفى كل الأحوال حاول أن تنظر إلى ما وراء رغباتك واحتياجاتك "

أخي المربي:

توقف عن التفكير فيما تريده من أبنائك ، وركّز اهتمامك على ما يمكنك تقديمه لهم ..و دعهم يكتشفون أثر الصمت الواعي فى حديثك المتروي ، وهدوئك الحريص .. وعلّمهم بفعلك أن المنصت لا يقل أهمية من المتحدث بأي حال !!

أخي المربي:

" هل تريد أن تكتشف ماذا يريد أبناؤك ؟ أنصت إليهم بعقل متفتح .

هل تريد أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لإرضائك ؟ إسمح لهم بالتحدث إليك عن مشاكلهم الشخصية ، وشكاواهم ، ومخاوفهم ، وقلقهم .

هل تريد منهم أن يحدثوك بأمانة وأن يخبروك بكل الحقيقة ؟ إنتبه إليهم وأنت تنصت إليهم وإلى كل ما يقولونه .. فالإنصات باحترام واهتمام هى أهم مدح وتقدير يمكن أن تقدمه لأبنائك "[(1)] وهو يولّد إحترامهم الأشد لك .

قل لهم : " إننى أحب الإنصات إلى ما تفكرون فيه "

" إننى أثق فى أفكاركم بشأن هذا الموضوع "

---

(١) ٢١ يومًا للحصول على القوة والسلطة فى تعاملك مع الآخرين – جيمس ك . فانفليت – ص ٢٠٣ بتصرف يسير .

«ربما لا أتفق معك فى ذلك ولكنى أحب سماع رأيك» ..

وهكذا .. أنصت جيدًا ولا تنشغل بالمؤثرات الخارجية – الهاتف أو المقاطعات الأخرى –

أنصت إليهم وانظر إليهم ، وأشعرهم بأهمية ما يتحدثون فيه مهما كان ..

أنصت إليهم بلا لوم أو إبداء أحكام ، وحاول دائمًا أن تسألهم وتستوضح منهم الأمر ..

وافتح لهم الطريق للإستمرار فى الحديث والتعبير عن مشكلاتهم ومشاعرهم ..

ثم عبر الأسئلة الإرشادية يمكنك تعليمهم كيف يفكّرون فى حل مشكلاتهم؟.. مثل أن تسأل الابن : ماذا فعلت ؟ ، ماذا تنوى أن تفعل بعد ذلك ؟ ، هل كان هذا القرار صحيحًا ؟ ، ماذا ستفعل فى المرة القادمة ؟ ..

واحرص ألا تحمل أسئلتك لومًا لأحد .. «ماذا حدث؟» .. وليس «من فعل؟»..

كرر بعض الأسئلة : هل هناك سبب آخر ؟ .. هل تريد أن تضيف شيئًا ؟ وأكد على أنك مهتم بوجهة نظره ، واتركه يتحدث كثيرًا .. وحاول خلال ذلك أن توجهه لاكتشاف نقاط الضعف بنفسه .. وتأكد أن هذه الطريقة تجعله أكثر قبولًا لرأيك ..

وإذا وجدت أن " ما تسمعه من ابنك مملًا أو مكرورًا أو قليل الفائدة ، أو حتى مستفزًا ، فاحرص ألا يدفعك ذلك إلى الإعراض التام عنه ، بل على العكس حاول أن تسأل نفسك : كيف يمكننى الاستفادة من حديثه ؟ واعلم أنه من خلال هذا الحديث يمكنك التعرف على نمط تفكير الابن ، كما يمكنك التعرف على القيم الاجتماعية التى صارت سائدة فى المجتمع ، ومن خلال كل ذلك يمكنك

استخلاص مغزى مفيد أو إخرج فكرة مفيدة .. *فليس من المستبعد أن تعثر على فكرة عظيمة فى سيل من اللغو* .[1]

وكلما دفعك ما يقوله أبناؤك إلى الحديث والكلام ، فاسأل نفسك : هل ما أقوله سوف يغيّر سلوكياتهم ؟ أم أن كلماتي ليست إلا متنفسًا لمشاعري ، و ما بداخلي من عدم الرضا ؟

فإذا لم تجدها إلا ذلك ، فتأكد أن الصوت المرتفع أو التهديد ليس الوسيلة الصحيحة لتغيير رأى أبنائك إلى ما تريد ، وإنما حاول اكتشاف سبب عدم اتفاقهم معك فى الرأى .. وكرر فى نفسك حقيقة أنك لا تستطيع ذلك إلا أن تعرف ما يدور فى رؤوسهم ، وأن وسيلتك إلى هذا الهدف هي الإنصات إلى حديثهم . واكتشاف نقاط الضعف فيهم ، ومن ثم القدرة على إقناعهم بوجهة نظرك .

- **الإنصـــات الفعّـــال :**

كثيرًا ما نحاول – نحن الآباء والمربّين – علاج أخطاء السلوك عند أبنائنا عبر إلقاء المحاضرات عليهم ، تلك المحاضرات التى تكون فى أغلب الأحيان نوع من أنواع استفراغ مشاعرنا السلبية تجاه أبنائنا ..

ولا شك أن هذه المحاضرات بلا أدنى نفع أو تأثير إيجابي على أبنائنا ، بل إنها قد تشعرهم أنهم استطاعوا السيطرة على مشاعرنا ، وربما دفعهم ذلك إلى مزيد من التمادي فى سلوكياتهم الخاطئة ..!!

إن الطريق إلى علاج تلك السلوكيات السلبية هو ممارسة ما يمكن أن نطلق عليه الإنصات الفعّال ، " وذلك عبر خمس خطوات :

١ – *احترام مشاعر الابن وقبولها* : وذلك عبر الانصات الهادىء ، وقبول

---

(١) عصرنا والعيش فى زمانه الصعب – د. عبد الكريم بكار – ص ١٤٥ بتصرف .

مشاعر الابن ، فإذا أخبرك أنه غضبان ، فلا تصدر حكمًا على غضبه .. ولكن فقط قدره .

٢ - *أظهر للابن أنك تنصت له :* وذلك عبر بعض الإشارات التى تقوم مقام الكلام مثل هز الرأس دلالة على الموافقة والمشاركة والقبول .

٣ - *كرر ما قاله الابن ، وحاول إجمال ما حكاه تفصيلًا :* وذلك عبر إعادة صياغة أفكاره ومشاعره بشكل ملخص .

٤- *أعد تسمية مشاعر ابنك :* راقب انفعالات الابن وأنت تستمع إليه (غضب ، إحباط ، استياء..) وحاول تسمية إنفعالاته ، فقل مثلًا لابنتك التى عمرها تسعة أعوام : يبدو أنك تشعرين بالإحباط .. أو أنت فى غاية الإستياء من معاملة المعلمة .. أليس كذلك ؟

تجاوب مع الابن وقدم له النصيحة : فحين نستمع إلى الابن وهو يفرغ ما فى نفسه من مشاعر وأحاسيس قد يكون أكثرها سلبيًا .. لا بد لنا من أن نتفهم شعوره، ونتجاوب معه ، ونقترب منه

٥- *مشاركين* .. فكل ذلك يصلنا بعقله وقلبه» [1] .

خذ هذا المثال :

«جاءت سارة من المدرسة غاضبة واشتكت لوالدتها سوء معاملة المدرسة لها قائلة لها :

- أكره مدرِّستى، لقد صرختْ فى وجهي لأني نسيت دفتر الحساب .
- سألتها أمها وهى تحاول احتواء غضبها : وهل ضايقك تصرفها كثيرًا؟
- أجابت الابنة : نعم ، لقد نسي أحد زملائي دفتره ، ولم تصرخ فى وجهه

(١) الإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ٩٠ – ٩٣ بتصرف

مثلما معى .

- ردت الأم : وأنت شعرت أن تصرفها غير عادل .. أليس كذلك ؟

- أجابت الابنة فورًا : بالطبع .. كنت أتمنى لو بإمكاني أن ألكمها على وجهها وأرميها فى القمامة .

- أجابت الأم وهى تحاول امتصاص غضب ابنتها : كلامك يدل على أنك غاضبة جدًا منها.

...... عند تلك اللحظة، بدأ غضب سارة يخف حدة.. وبعد لحظات ذهبت إلى الخارج لتلعب مع شقيقها بعد أن نسيت ما وقع من مدرستها .

إذن.. كانت سارة تريد من والدتها أن تفهمها وتعترف بما شعرت به نحو معلمتها ، وقد منحتها أمها ما أرادت .. لم تحاضرها ، وإنما احتوت غضبها بالمهارة الصامتة .. تلك المهارة التى يمكن لأي والدين أن يكتسباها بالمران والصبر . [1]

« إن ردة الفعل التلقائية لأى أم أمام هذا الموقف ستكون على الشكل التالي:

إمّا أنها ستلوم طفلتها على إهمالها وستقول لها إنها تستحق عقاب مدرّستها.. أو أنها ستقف إلى جانب ابنتها ضد المعلمة ، لكن والدة سارة لم تفعل ذلك . وإنما اعترفت بمشاعر ابنتها عندما قالت لها : وأنت شعرت أن تصرفها غير عادل ، أليس كذلك ؟! .. وكذلك عندما قالت لها : كلامك يدل على أنك غاضبة منها جدًا . كما أن الأم لم تحاول أن تحكم على ابنتها أو تحاضرها ، لأن المعلمة قد قامت بمهمة تأديبها فى المدرسة ولا فائدة من أن تعيد نفس تصرفها.

وهكذا وصلت الأم إلى النتيجة الإيجابية ، فقد ذهبت سارة لتلعب مع شقيقها

---

(١) ابنى لا يكفى أن أحبك – سلوى يوسف المؤيد ـ ص ١٨١.

بعد أن حصلت على التأديب المطلوب من مدرستها ، وأفرغت شحنة الغضب المتراكمة فى نفسها أثناء حديثها مع أمها "[١] .

إن أكثرنا يتسرع فى التعليق على خطأ أبنائه ، سواء بتقديم النصيحة أو التعليق على رأى لهم ، أو لإخراج غضبه وإحباطه فى صورة كلمات يتفوه بها..

ونصيحتنا التربوية لكل أب :

كن أقل تسرعًا فى التعليق ، وإذا كانت تعليقاتك ناقدة فلتكن هادئة وليست عدائية .. و فى كل مرة تشعر بالرغبة فى الكلام .. توقف وقفة رقيقة ، لكى تسمح بحكمتك أن تخبرك أن ما ستقوله هو أفضل ما يمكن قوله فى هذا الموقف ..

أنصت جيدًا ، يقل التوتر .. واعلم أن أقل التحسن فى مهارة الإنصات يعطيك رصيدًا ضخمًا فى علاقتك بأبنائك .

فكّر .. هل تنصت حقًا لأبنائك ؟ هل تسمح لهم بإنهاء أفكارهم قبل أن تبدأ أنت فى الكلام ؟ هل تقوم أحيانًا بإكمال عباراتهم ؟ لأنك تفترض معرفتك لما سوف يتفوهون ؛ فتقاطعهم ؟

ولسنا فى حاجة للتأكيد هنا على وجوب تقبّل الأب والمربي لكل ما يقوله الابن مهما كان مخيفًا أو غريبًا ، والإنصات بدون إبداء لوم أو إصدار حكم .. فقط إستوضح الكلام أكثر .. واستفسر عن دقائقه ..

ثم أعد صياغة ما يقوله الابن محاولًا إدراك المعاني والمشاعر الخفية فيما يقوله.

خذ مثالًا :

أحمد : إن عبد الرحمن غبي يا أبي ؟

---

(١) الإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ٩٤.

الأب : " لا تتحدث عن أخيك بهذه الطريقة ، لقد سبق وأخبرتك بهذا ؟ "

(لا شك أن اللهجة التى أجاب بها الأب لهجة ناقدة ، وهذه اللهجة الصارمة تغلق باب الحديث مع أحمد عن أي شيء آخر ، ومن ثم فلن يتحدث أحمد عن مشاكله أو مشاعره ..).

هذا هو المثال الخطأ للإنصات ..

أما المثال الصائب – فيما أرى – فيكون كالتالي :

أحمد : إن عبد الرحمن غبي يا أبي ؟

الأب : هل أنت غاضب من أخيك ؟ (يستوضح الأمر ليجعل الابن يستمر فى التعبير عن مشاعره أو مشكلاته)

أحمد : نعم ؛ لقد أخبرته أنني لن أحضر تدريب اليوم فى النادي لأنني لا أحب مقابلة فلان ، فذهب وأخبره !!

.... إن هذه الطريقة فى الرد تغري أحمد بالاسترسال فى الحديث مع أبيه ، بل إنه يمكننا القول على الجملة أن الردود المنفتحة أفضل من الردود المغلقة !!

نعم .. دع إبنك يتحدث عن نفسه وأنت تنصت فقط ، واحرص على تقبل كل ما يقوله على أنه أمر عادي وليس فيه أدنى غرابة .. وحاول وأن تنصت إليه أن يشعر باقترابك ومحبتك ومودتك، و إحساسك بأهمية ما يقول ، وتفهمك لحديثه ..

ويمكن أن تبرهن على تفهمك بأن تلخص ما يقول فتقول : أنت تقصد بحديثك أن تقول كذا وكذا .. فيشعر الابن أنك متفهم لما يقول ومنصت له تمامًا .. وبذلك يسترسل فى حديثه ..

كما يمكنك استخدام الأسئلة التى تحمله على الاسترسال فى الحديث كأن تقول :

حدثنى أكثر عن هذه الجزئية ، فيسترسل فى الحديث ..

خذ مثالاً :

يقول الابن: " أتعتقد أن الدراسة شىء ممتع "

فيقول الأب : ليس هناك شىء ممتع على طول الخط وليس هناك شىء متعب على طول الخط ، فأنت تعلم أن أية لعبة من لعبك جميلة وممتعة بعض الوقت ، لكنها مملة ومتعبة بعض الوقت .. [1]

هل لاحظت – أخي الأب والمربي – الفرق بين الاستماع ، والإنصات الفعال ؟

إن الإنصات الفعال يعني الإستماع باهتمام وبكل الجوارح ، ومن خلال ملامح الوجه ولغة الجسم والرسائل الإيجابية التي يبعثها المنصت الإيجابي للمتكلم ..

الإنصات الفعال يعني اهتمامًا بما يريد الطفل التعبير عنه.. ويعني إهتمامًا إيجابيًا بالرسائل الخفية للطفل.. وهو طريق لتجاوز الحالات المتوترة بين الوالدين والأبناء.. وكلما مورس الإنصات الفعال كلما عرفت العلاقات الأسرية انحسارًا وتقلصًا للحالات المتشنجة..

و مفتاح الإنصات الفعال يكمن في الرسائل غير اللفظية وفي الاتصال غير الشفوي الذي يرسله الأب لابنه.. من خلال الابتسامة ولغة الجسم وملامح الوجه ونبرات الصوت المعبرة عن الحنان والمحبة والود التي تنبعث بين الفينة والأخرى معبرة عن موافقتك وتفهمك لما يقوله الابن..

ويمكن إتقان ذلك عبر خمسة أشياء :

١ – إربط علاقة تواصل بين عينيك وعيني ابنك ، وتفادى أن تشيح وجهك عن ابنك ، فإن ذلك يوحي بقلة اهتمامك بما يقوله وقلة اعتبارك لشخصه..

---

(١) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د. سبوك – ص ١٢٨

٢- إجعل ثمة علاقة اتصال واحتكاك جسدي مباشر من خلال لمسة الحنان وتشابك الأيدي والعناق ووضع يدك على كتفيه.. فإن ذلك يوطد العلاقات المبنية على المحبة ويسهل لغة التواصل العاطفي وييسر التفاهم ويفتح لدى الطفل أجهزة الاستقبال للرسائل التربوية الصادرة منك..

٣- علق على ما يقوله ابنك دون أن تسحب الكلام منه..مبديًا تفهمك لما يقوله من خلال حركة الرأس أو الوشوشة الميمية بنعم أو ما شاء الله.. مما يوحي لابنك أنك تتابعه باهتمام فتزيد طمأنينته..

٤- إبتسم باستمرار وأبد ملامح الاطمئنان لما يقوله، والانشراح بالإنصات له مع الحذر من إشعار الابن بأنك تتحمل كلامه على مضض أو أنه مضيع لوقتك ولا تنظر للساعة وكأنك تقول له: لا وقت لدي لكلامك..

٥- متى ما وضحت الفكرة وتفهمت الموقف، عبِّر لابنك عن هذا وأعد باختصار وبتعبير أدق ما يود إيصاله لك.. لتعلم ابنك اختصار ما يريد قوله، وفن التعبير عن مشاعره وأحاسيسه..والدقة في التعبير..وتقلل بهذا من احتمالات الملل بينكما..

إن الإنصات الفعال لا يكتمل إلا من خلال الاتصال غير اللفظي الذي يطمئن الابن ويعيد له توازنه النفسي..ويقضي بالتالي على مقاومة الطفل للرسائل التربوية الصادرة عن الآباء..

إن الأبناء عادة ما يعاندون ويبدون مقاومة لرغبات الوالدين..والطريق السليم لامتصاص هذه المقاومة هو تخصيص وقت للإنصات الفعال لهم .. فكلما تحدث الابن ووجد قبولا واهتمامًا كلما ضعفت المقاومة السلبية لديه وقل عناده..

أخي المربي ..

خصص وقتًا أكبر لممارسة الإنصات الفعال ، وجهز نفسك لتلك العملية الهامة ،

وركز انتباهك على كل ما يقوله إبنك ، بمتابعتك وباهتمامك بما يقول من خلال المحافظة على اتصال العينين ، ومن خلال هز الرأس والابتسام ، والانتباه الكامل دون الانشغال بكل ما يمكن أن يبدد انتباهك لكلامه ، مثل الأقلام والمفاتيح فى اليدين ....

لا تقاطع ابنك ، وأعطه الفرصة الكافية لقول كل ما يود التعبير عنه وحلل مضامين ما تسمعه ..

ولا تجعل مشاعرك تؤثر فى آرائك ، ولا تدع عصبيتك تخفض من اهتمامك.. واعلم أن الغضب هو السلاح الفتاك الذى يمنع دخول نصائحك إلى رأس ابنك ، بل هو أشرس السلبيات فى عملية التربية .

وبكلمة ..

لا يستطيع الآباء – ولا ينبغي لهم – حجز أبنائهم عن المدارس وإن احتوت الكثير من المفاسد .. ولا يستطيعوا – ولا يجمل بهم – حجز أبنائهم عن الشارع ، وإن علموا أنه شارع لا يستقيم على ما أمر الله ..

فماذا يفعلون فيما يصيب الأبناء من أدران المدرسة والشارع وأقران السوء من زملاء الدراسة أو غيرها .. ماذا يفعلون لإزالة أدران الغش والنفاق والخداع وتسديد الخانات .. تلك الأدران التى تنتشر فى أغلب طوائف المجتمع الذى يحيا فيه الأبناء ؟!!

لا بديل عن القيام بعملية " غسيل " يوميه لما يصيب الأبناء من تلك الأدران ..

وماذا يعين الآباء على القيام بتلك المهمة الشاقة ؟

إنه العلاقة الجيدة مع الأبناء .. تلك العلاقة التى تجعل من الآباء أحب أناس لأبنائهم ، ومن ثم يفضلون الإقتداء بهم عن الإقتداء بأي أحد ..

ولا شك أن من أفضل الوسائل التى تعينهم على تحسين تلك العلاقة الإنصات إلى الأبناء ، وسماع كل ما يدور فى رؤوسهم ، والتعرف على كل ما قد يكون قد علق بأخلاقهم .. [1]

ولذلك – أخي الأب ، أختي الأم – إذا أتاك ابنك ليحدثك عما جرى معه في المدرسة ، فلا تضرب بها يقول عرض الحائط . فحديثه إليك في تلك اللحظة – بالنسبة له – أهم من كل ما يشغل بالك من أفكار . فهو يريد أن يقول لك ما يشعر به من أحاسيس ، بل وربما يريد أن يعبر لك عن سعادته وفرحه بشهادة التقدير التي نالها في ذلك اليوم .. أعطه اهتمامك إن هو أخبرك أنه نال درجة كاملة في ذلك اليوم في امتحان مادة ما . شجعه على المزيد ، بدلًا من أن يشعر أنك غير مبال بذلك ، ولا مكترث لما يقول .

وإذا جاءك ابنك الصغير يومًا يخبرك بما حدث في المدرسة قائلا : " لقد ضربني فلان في المدرسة " وأجبته أنت : " هل أنت واثق بأنك لم تكن البادئ بضربه ؟ " فاعلم أنك بذلك قد أغلقت باب الحوار مع ابنك ، وتحولت فى نظره من صديق يلجأ إليه إلى محقق أو قاض يملك الثواب والعقاب !!

فإذا تكلم الابن أولا إلى والديه ،فعلى الوالدين إبداء الانتباه ، ومواصلة الإنصات ، و مقاومة أي ميل إلى الانتقاد أو اللامبالاة بما يقوله الابن .. فهذا الإنصات هو العتبة الأولى فى سلم النجاح فى تلك المهمة ، مهمة " الغسيل " لأدران المدرسة والرفقاء والشارع ، وهو يتطلب صبرًا وضبطًا للنفس مما يفتح لنا نافذة على تفكير أبنائنا وفهم مشكلاتهم ، وبالتالي يصبحون أكثر استعدادًا لقبول أفكارنا ، وسماع نصائحنا .

فإذا واجه أبناؤك المشكلات ، ولجأوا إليك لتساعدهم ، فأشعرهم بالأمان،

---

(١) راجع ان شئت " منهج التربية الاسلامية – محمد قطب – الجزء الثاني.

وأظهر لهم ما تحمله لهم من قبول ، وما تكن فى قلبك من ثقة بهم ..

" أحمد " إني أحب الاستماع لما تفكّر فيه .. إني أثق فى أفكارك بشأن كذا .. ربما لا أتفق معك ، ولكن لا بأس أن يستمع كل منا للآخر .. ربما لم أستمع إليك جيدًا فى المرة الأخيرة .. أحب أن أنصت إليك الآن

.. وهكذا عبر هذه الرسائل .. تتفهم الابن ، وتتعامل مع مشاعره ، وتشجعه على التعبير عن هذه المشاعر من خلال أذن صاغية، تسمع أكثر مما تتكلم ، وتنصت ولا تقاطع ، وتمنح الابن الفرصة للتعبير عما بداخله ولو كان باطلًا، وترفع شعار : لا تغضب ، وتدرك أن الطريق إلى إدخال النصائح إلى رؤوس الأبناء، لا يكون عبر سهولة الكلام والمحاضرات ، وإنما عبر مجاهدة صعوبة " المهارة الصامتة " ..

الفصل الثاني
السحر الأبيض

تحاور ساعة خير من تكرار شهر ..هذه حقيقة تؤكدها التجربة ، ويشهد لها الواقع ..

ومن هنا تأتى أهمية تحاور الآباء مع أبنائهم .. فالتحاور يحترم الذات الإنسانية للأبناء فلا يفرض عليها أفكار وتجارب وخبرات الآباء فرضًا ، وإنما يترك تلك الخبرات تنمو معهم عن طريق اكتسابها ذاتيًا عبر المناقشة .

كما أنه يدفع الابن إلى التفكير العميق والملاحظة والاستنتاج ، بعيدًا عن التلقي والحفظ والترديد ..

ومن ثم ، يزيد من ثقته بنفسه عند طرح الأفكار أو الرد عليها ..

ولذلك يجب علينا ألا نبقى كآباء نهوى النقاش ونحب الجدال ، صناعتنا الكلام ، ولا نعرف فن الحوار ؟

وأن نحاول إتقان " فن الحوار " .. هذا الفن الذي يتطلب القليل من التروي ، والكثير من التدريب ؟!!

- **طـــرق الحوار :**

للحوار طرق كثيرة منها التعليم ، والمشاركة الوجدانية ، والتفاوض، والأوامر والنواهي ، والتشجيع ..

فهل نحن كآباء ومربين نستخدم كل هذه الطرق مع أبنائنا ؟

ربما يعتقد الكثير من الآباء والمربين أنه يستخدم كل طرق الحوار مع أبنائه بلا فائدة !! ولكن هذا ليس هو الواقع الذى نحياه مع أبنائنا .

إننا كآباء ومربّين تحت ضغط الظروف المعيشية نميل إلى استخدام نوع معين من الحوار مثل الإكثار من الانتقادات أو إصدار الأوامر ، .. " أسرع فى ارتداء ملابسك " .. " قميصك متسخ ، اذهب وارتد غيره " .. " إجلس بطريقة صحيحة" .. " إذهب وامشط شعرك المنكوش " .. " إبدأ فى واجباتك المدرسية " .. " إنهض لتستحم " .. " إذهب للنوم " .. !!

وهكذا أغلب حديثنا لأبنائنا عبارة عن أوامر ..

وحتى حين يمارس أحدنا الطرق الأخرى للحوار مع الأبناء ، فقد يطغى لديه الجانب السلبي لتلك الطرق على الجانب الإيجابي ..

فمثلًا .. طريقة الحوار للتعليم ، تتحول لدينا إلى نوع من المحاضرات ، فتفقد مضمونها وهدفها لتصبح لونًا من ألوان " الإزعاج التربوي " إن صح التعبير .

كما أننا فى كثير من الأحيان نخلط إحدى طرق الحوار بطريقة أخرى ، كأن نخلط – مثلًا – بين طريقة " الأوامر والنواهي " و طريقة " التعليم " .. فنطلب من الابن ارتداء المعطف لأن الجو بارد .. بينما ينبغي فى أسلوب الأوامر والنواهي إرساء القواعد وليس تعليلها ..!!

ومن هنا تكتسب معرفتنا بطرق الحوار قدرًا كبيرًا من الأهمية ، ويحتاج تعلمنا لها حديثًا عنها بشيء من التفصيل ..فنقول :-

١ - طريقة التعليم:

" من النادر أن يمر يوم لا يقوم فيه الآباء بتعليم أبنائهم شيئًا ما ، ويجب أن يكون التعليم تجربة حانية ودافئة ، توثّق الروابط بين الآباء وأبنائهم ، كأن يعلّم الأب ابنه كيف يضع الطعم بصنارة صيد ، أو القيام بجمع الكرات من الفناء ، أو إجابات من الأب على تساؤلات الابن حول الكون والحياة ..

ومن هنا تكون العبارات التى ينصح باستعمالها .. " دعنى أشرح لك "..

"راقب كيف أقوم بذلك ثم حاول أن تفعل مثلي" [(١)]" دعنا نرى كيف يمكن أن نحل ذلك معًا " .. " لست متأكدًا من الإجابة الصحيحة ، دعنا نبحث عن ذلك".. " لا بأس ، الوقوع فى الخطأ هو وسيلة تعلم الصواب"...

وبالطبع ، تعد نغمة الصوت عاملًا أساسيًا ، فعندما تقول لابنك – مثلًا – " إفعل ذلك بهذه الطريقة " بنغمة خشنة وغاضبة ، فسيفهم الابن ذلك على أنه انتقاد له ، وبالتالي يزيد توتره ، وربما دفعه ذلك إلى عدم اللجوء إليك لطلب مساعدتك فى المستقبل ..[(٢)] .

٢ – *طريقة المشاركة الوجدانية :*

وهى من الأساليب الهامة فى التعامل مع الأبناء ، وبخاصة عندما يشعرون بخيبة أمل أو ضيق مما حولهم من أوضاع وظروف .. فى هذه الأحوال لا يحتاج الأبناء إلى حل مشاكلهم بقدر احتياجهم إلى مداواة جراحهم ، والعثور على شخص يتفهم حقيقة آلامهم ..!!

على سبيل المثال ..

عندما عادت " سمية " إلى المنزل حزينة لأن زميلتها فضلت اللعب مع أخرى ، أرادت أمها أن تخرجها من حزنها فقالت : " سوف تعود أختك إلى المنزل حالًا ، ويمكنك اللعب معها " .. ولكن هذه الكلمات التى تحل المشكلة لا تعطي الابنة ما أرادت من مشاركة أمها لها وجدانيًا ..!!

والأصوب فى مثل هذه الحالات أن ترد الأم قائلة : «لا بد أنك تشعرين بالحزن من أجل تصرف زميلتك ، أليس كذلك ؟ " .. فإدراك " سمية " أن والدتها تشاركها مشاعرها ، ولا تتجاهلها ، يخفف من حزنها ، ويدفعها فى ذات الوقت إلى

---

(١) أخرج أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بغلام بسلخ شاة وما يحسن، فقال له رسول الله ﷺ: " تنح حتى أريك " فأدخل يده بين الجلد والدم فدحس بها حتى دخلت إلى الإبط ..

(٢) [illegible] – ص ٧ ، ٨ بتصرف يسير .

التحدث للأم عن مشاعرها قائلة : " إن هذا يحدث كثيرًا من زميلتي هذه " .. ومن خلال حديث الابنة تدرك الأم مخاوفها وما يجب الإهتمام به من مشاعرها ..

ومن هنا تكون العبارات الأنسب فى طريقة المشاركة الوجدانية أن نقول مثلًا:

" إنك حزين لأجل ما حدث ، أليس كذلك ؟ "

" أعرف أنك تشعر بالخوف من ... " ... " إن الطريقة التى أنهيت بها مكالمتك الهاتفية أشعرتني أنك غاضب من شيء ما " ... " نعم إنه شيء محبط أن تتدرب لهذه المباراة ثم تمرض ولا تشارك فيها .. ولكن ما المرض ؟ "..." أعرف أنك مشغول لأن غدًا بداية الإمتحانات ... "

وكما ترى - أخي المربي - ، لا تحتوي كل هذه العبارات على حل لمشكلة ما بقدر احتوائها على معاني التفهم للمشكلة ، والمشاركة لمشاعر الابن حيالها.. ولا شك أن هذا يدفع الابن إلى مصارحتك أكثر بمشاعره ، ويكشف عن مخاوفه وأفكاره .. ومن بعدها يمكن التفكير فى الحل ...

٣- *طريقة التفاوض:*

عندما تنصت إلى أبنائك ، وتحاول فهم الأسباب التى تدفعهم لطلب شيء ما، وتتفاوض معهم " أحيانًا " للتوصل إلى اتفاق ما ، فسوف يعود ذلك عليهم بالنفع ..

ولكن لا بد من التنبيه هنا إلى خطأ يمكن أن نقع فيه كآباء ، وهو أن نتفاوض مع أبنائنا من منطلق اليأس أو ما يعرف بـ " الرشوة " ، فربما يخشى الآباء أن يسيء أبناؤهم التصرف فى موقف مهم ، لذلك فهم يتوسلون إليهم أن يحسنوا التصرف مقابل إغرائهم بشراء ما يريدون ، أو مقابل اللعب بما يشتهون ، فنسمع الأم وهي تصرخ : " لا بأس يمكنك أن تمارس لعبة أخرى من ألعاب الكومبيوتر ، ولكن

كف عن الصراخ " !!

وإنما تكون العبارات المستخدمة فى مثل هذه الطريقة .. " أعرف أنك تريد الذهاب إلى صديقك اليوم ولكن الجو بارد جدًا .. هل يمكن الإطمئنان عليه بالهاتف ؟ " ... " قبل أن أفكر فيما تريد أحتاج منك أن تقوم بـ ... " ... " قبل أن تذهب إلى الحفل ، أريد منك القيام بترتيب غرفتك ، فهل تبدأ بترتيب المكتب أم المكتبة ؟ " ... " لا يمكننى الموافقة على طلبك ، فهل هناك ما يمكن أن يحل محله؟"...

وهكذا .. تأكيد على تحمّل المسؤولية .. وتفاوض بلا يأس .. وتوصل إلى حل وسط .. مع التبصير بالعواقب .(١)

٤- *طريقة الأوامر والنواهي:*

لكي نستطيع التفريق بين هذه الطريقة ، وطريقة التعليم نحاول أن نتأمل هذا الحوار الذى دار بين " أحمد " ووالدته :

" الأم : " أحمد .. قم بارتداء معطفك إذا كنت تنوي الخروج حتى لا تصاب بالبرد "

أحمد : " لا تخافي يا أمي فلن أصاب بالبرد "

الأم : " بل ستصاب بالبرد ، ولذلك عليك أن ترتدي معطفك "

أحمد : " ولكني يا أمي .. "

الأم : " لا أود أن تخرج دون ارتداء معطفك "

أحمد : " ولكني أود ذلك !!! "

.... لقد خلطت الأم هنا بين طريقة " الأوامر والنواهي " وبين " طريقة التعليم " ، فإذا كانت تريد فعلًا أن يرتدي " أحمد " معطفه ، فقد كان ينبغي أن تقول ذلك دون إبداء السبب وراء ذلك ، فحين تعرض الأم سبب الأمر ، فهذا

(١) كيف تقولها لأطفالك – د. بول كولمان – ص ١٢ –١٥ بتصرف.

نى تجاهل أمرها بالتحاور حول السبب ...

ثم أن الأم عرضت أمرها أخيرًا فى صورة " لا أود أن تخرج ... " هكذا يبدو لأمر وكأنه تعبير عن رأي فى مسألة .. وهذا بالطبع أعطى الابن إمكانية القول، 'ولكني لا أود " !!!

ومن هنا يكون من الأنسب فى طريقة الأوامر والنواهي أن تكون عباراتنا تحمل لونًا من القواعد التى لا تفاوض حولها ، لأن هذا التفاوض يفقدها معنى لقاعدة من مثل :

" توقفا عن الشجار حالًا " .. " أعرف أنك لا توافق ، ولكن القاعدة فى هذا الأمر .. " ... " من الخطأ أن تضرب أختك " ... " قم بإغلاق الكومبيوتر ، فهذا هو موعد العشاء " ..

ولا شك أن من أهم ملامح هذه العبارات أنها واضحة ومباشرة ..

ونؤكد هنا أيضًا على استخدام كلمة " من فضلك " فهي كلمة السر فى إحكام السيطرة على الابن دون جرح مشاعره .

ونذكر هنا قصة توضح ما نقصد ، وقد حكاها ابن العربي رحمه الله عن شيخه أبوبكر الفهرى ، «فقد كان شيخه يرفع يديه عند الركوع ، فهمَّ بعضُ من يخالفوه المذهب بقتله على فعله خلاف ما يعتقدون من عدم الرفع .. ولما أعلمه ابن العربي بما هم به القوم ضحك وقال : من أين لى أن أُقتل على سنَّة؟ فقال له ابن العربي : ويحل لك هذا؟ فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك ، وربما ذهب دمك . فقال الشيخ أبوبكر له : دع هذا وخذ فى غيره "[1] .

هذه العبارة تعنى أنك حين تدرك أن الحوار مع الأبناء يسير فى اتجاه سلبي تطلب منهم التوقف عن هذا الجدال " دع هذا وخذ فى غيره "

(١) الاعتصام – الإمام الشاطبي – ج ١ – ص ٣٥٨ .

ولا تحسب أن هذا الموقف ضعيفًا ، بل على العكس فإن هذه الجملة تحمل قدرًا كبيرا من القوة والتحديد للابن ، وهى فى ذات الوقت نصيحة طيبة له .

٥ – طريقة التشجيع :

معظم الآباء يقعون فى خطأ الإسراع إلى انتقاد السلوك السيء ، أو الثناء على السلوك الجيد مع إتباعه بنقد الابن .. فمثلًا يقول الأب : لقد كففت عن الشجار مع أخيك أخيرًا بعد ما وبختك وهددتك .. أليس كذلك ؟

ولعلاج هذا الخطأ لا بد أن نتعلم أن الثناء الممزوج بتعبيرات الوجه الحانية هو الطريقة الصحيحة فى التشجيع ..

ومن هنا تكون عبارات من مثل : " كان من الممكن أن تغضب من أختك أو تضربها ، ولكنك لم تفعل ، ما شاء الله تملك سعة صدر تجعلني فخور بك " .. " لقد لا حظت أنك تقاسمت هديتك مع أخيك ، وهذا يدل على عطفك ورقة مشاعرك ، بارك الله فيك " ... " إننى فخور بالطريقة التى تصرفت بها اليوم ، وأدرك أن هذا يحتاج إلى صبر ومثابرة " ...

ولا شك أن أنسب الأوقات لاستخدام هذه الطريقة هى الأوقات التى يقوم فيها الطفل بجهود طيبة وسلوكيات جيدة .

إن لغة المربي وطريقة تخاطبه مع الأبناء ، وأساليبه فى الحوار معهم ، ونوع الكلمات المستخدمة ، كل ذلك له أثر كبير فى رد فعلهم .. قال تعالى : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًا غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].. كما أن المربي يجب أن يكون عف اللسان ، ليس بفاحش ولا لعّان ، فقد كان النبي ﷺ إذا عاتب أحد أصحابه قال له " ماله تربت جبينه " أخرجه البخاري .

أخي الأب .. أختي الأم .. أيها المربون ..

إذا شعرتم أن جهودكم الحوارية لا تأتي بالنتائج المرضية فى تربية أبنائكم، فراجعوا طرقكم فى التحاور فقد تكونوا أفرطتم فى استخدام واحد أو أكثر من طرق الحوار على حساب الباقي منها ..

فإذا وجدتم ذلك فحاولوا مرة أخرى .. حاولوا استخدام طريقة أخرى أو الجمع بين طريقتين ، وسوف تدهشون من النتائج !!

- **هــدوء التحاور :**

إن من أعظم ما ينمي العلاقة بينك وبين أبنائك أن يكون لك جلسات هادئة تتواصل فيها مع أبنائك وتتحاور معهم ، ومن خلال الحوار الهادىء وجلسات الحب تزرع القيم والمبادىء التى لا ينساها الأبناء أبدًا ، ذلك أن المعلومات التى يحصلها الإنسان من خلال التحاور والمشاركة هى أكثر المعلومات ثباتًا ، كما يقول كونفوشيوس " قل وسوف أنسى ، أرنى ولعلي أتذكر، شاركنى وسوف أتذكر " (١)

وحين يتم التحاور " بطريقة جيدة فإنه يقوي من رباط الأسرة أو يداوي كثيرًا من المشاكل ، أمّا إذا لم تؤد تلك المهمة بشكل جيد ، فمن الممكن أن تصاب الحياة الأسرية بالتوتر والاضطراب ، مما يعرّض الابن إلى مخاطر خوض غمار حياته غير مهيأ للتكيّف مع كل ما يصادفه طوال حياته " (٢) .

والقاعدة هنا أنه كلما كانت لهجتنا فى الحوار أكثر حدة وعباراتنا أكثر قسوة ، زاد توترنا وانزعاجنا ، وكلما أمكننا التحدث بهدوء أكثر ، أصبحنا أقل توترًا ..

ومن هنا- أخي الأب والمربي - لا يكن حرصك الأول وأنت تحاورأبنائك

---

(١) أنظر مثلًا كتاب " الأم " للإمام الشافعي ، فقد كان ثمرة محاورات رأسها الشافعي ، وليس تأليفًا على انفراد.

(٢) كيف تقولها لأطفالك – د. برل كولمان – ص ٢.

أن تقنعهم برأيك ؛ فيعدلون عن رأيهم !! وإنما حرصك الأول أن تقوم من خلال حوارك معهم بإضاءة نقطة مظلمة عندهم ، أو توضيح قضية غامضة لديهم لا يرونها على الوجه الصحيح .. وبالتالي سيكون حوارك هادئًا ووديًا لأنك لاتراه سبيلًا لحمل الابن على ما تراه أنت صوابًا ، وإنما أساسًا جيدًا للإختلاف معك ؟! ووسيلة مهمة لإنضاج أفكارك بالإضافة والنقد من خلال أفكار أبنائك التى قد تكون حيوية وجيدة ..

ولأن المطلوب من التحاور مع الأبناء ليس توحيد رأيهم مع رأينا ، وإنما شرح وجهة نظرنا ، وسماع وجهة نظرهم ، فنحن نبدأ بالتحاور مع الابن ، وإن لم يبدأ هو فنقول مثلًا : يبدو أنك لست سعيدًا اليوم .. ماذا يضايقك؟..أو على العكس : تبدو سعيدًا ، لا بد أنك حققت نجاحًا ما ..

فيقول الابن : نعم ، لقد حصلت على الدرجة النهائية فى الرياضيات مثلًا .. فنتابع نحن : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .. فيبدأ بيننا وبينه التواصل ومن ثم الألفة والثقة والحب .. والحب يولد الطاعة ، فمن أحب أطاع من يحب ..

أمّا " إذا جاء الابن من المدرسة فقال مثلًا :

- أحمد صديقي ضربني فى المدرسة .

- فكانت إجابة الأب أو الأم : - هل أنت على ثقة أنك لم تكن البادىء بضربه أو إهانته ؟!

هنا يغلق الأب الباب أمام الحوار .بل و يتحول الأب فى نظر ابنه من صديق يلجأ إليه إلى محقق أو قاض يملك الثواب والعقاب .

بل إنه – فى نظر الابن – محقق ظالم لأنه يبحث عن اتهام الضحية ، ويصر على اكتشاف البراءة للمعتدى .

إن الابن يطلب من الأب والأم الانتباه مع الثقة والصداقة مع تواصل الحوار.

فإذا تكلم الابن أولًا إلى والديه ، فعلى الوالدين أن يقاوما أي ميل إلى الانتقاد

اللامبالاة بما يقوله الابن .." [1] لأن هذه الطريقة فى التحاور تدفع الكثيرين من الأبناء إلى رفض التحاور ، لأنهم يدركون بالفعل ما سيقوله الآباء .. فإذا كان لدى الابن مشكلة فهو يتوقع إن أخبرك بها أن تقول : "لأنك لا تسمع أوامرى" .. يشعر هو من هذه الإجابة أنك غير مهتم بسماعه، فضلًا عن التحاور معه ..

بينما " إذا دخل الابن المنزل بعد يوم دراسي ، وهو يعرف أن والده سيدخل معه فى نقاش حميم مفعم بالتفاهم خال من التهديد ، فإن ذلك الابن سيجري من المدرسة إلى المنزل لأنه يشعر أنه يتمتع بالصداقة مع أفراد أسرته"[2] .

ولا تعنى مبادرتنا إلى التحاور مع الأبناء أن نفرض عليهم التحاور فرضًا ، فقد تقتضي الحكمة التربوية – أحيانًا – ترك الابن مراعاة لظروفه النفسية ، ومحادثته حين يكون خالي الذهن وصافي النفس ومفتوح القلب فإن للقلوب إقبالًا ، وإدبارًا .. وفى بعض الأوقات يكون الابن رافضًا للحوار ..

خذ هذا الحوار مثالًا :

الأب : هل انتهيت من واجبك المنزلي يا " أحمد " ؟

أحمد : نعم يا أبى .

الأب : متى ؟

أحمد : بعد الظهر

الأب : فى أي مادة ؟

أحمد : اللغة الإنجليزية ..!!

.. لا شك أن هذه الإجابات المختصرة من الابن توحي أنه لا يريد التحاور والحديث مع أبيه ..

وهنا يصبح من الحكمة عدم الإلحاح على الابن للكلام ..

---

(١) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د. سبوك – ص ٢٨ .

(٢) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د.سبوك – ص ٢٩ .

وفى كل الأحوال ، سواء بدأنا الابن بالتحاور أو بدأناه نحن ، فإننا نؤكد على أمر فى غاية الأهمية ، وهو أن يكون تحاورنا بهدوء ، وأن نوجز فى الحديث للتركيز على صلب الموضوع ، ونتأنى فى الحديث ، حتى نستطيع ترتيب الأفكار ترتيبًا صحيحًا ..

لقد كانت هذه كلها من صفات حديث رسول الله ﷺ، فهو يخاطب بأسلوب يفهمه العوام ويتذوقه الخواص .. ويعيد الكلمة ثلاثًا لكي تحفظ عنه ؛ فتستقر استقرارًا تامًا فى فكر ونفس المستمع .

" حسن الحديث ﷺ ، واضح الخطاب ، جلي العبارة ، يوجز فى محل الإيجاز ، ويؤكد ويكرر عند الحاجة للتكرار ، ويطنب إذا اقتضى الحال الإطناب .

عن عائشة رضي الله عنها " أن النبي ﷺ كان يحدث حديثًا لو عده العادّ لأحصاه " [(١)] .

وعنها أيضًا رضي الله عنها قالت : " ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام يبينه ، فصل ، يحفظه من جلس إليه " (أخرجه الترمذي) .

... وعن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه كان إذا تكلم الكلمة أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه ، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثًا " [(٢)] .

فهذه الأحاديث تشير إلى عناية الرسول ﷺ بفهم السامع ، واستيعابه ، وحفظه وتجاوبه ، وعدم العجالة عليه ، أو إيقاعه فى اللبس والاضطراب . بل الأولى التأني والوضوح المؤديان إلى تحقيق الهدف المراد ، بخلاف السرد والتتابع اللذان قد يفوتان على المستمع الفائدة كلها أو بعضها وربما زهد فى بضاعة المربي وأعرض عنه" [(٣)] .

(١) أخرجه البخاري ، انظر ابن حجر ، فتح الباري ٦ / ٦٥٥ ، رقم ٣٥٦٧.
(٢) أخرجه البخاري ، انظر ابن حجر ، فتح الباري ١ / ٢٢٧ . رقم ٩٩٥.
(٣) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

وأذكر أيضًا في هدوء التحاور موقف مصعب بن عمير رضي الله عنه ، حينما قدم المدينة داعيًا إلى الله ، وجاءه أسيد بن حضير يخاطبه هو وأسعد بن زرارة : " ما جاء بكما إلى حينا ، تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا ، إذا كنتما لا تريدان الخروج من الحياة " !!!

هكذا يطلب أسيد منهما مغادرة الحي ، وإلا فليس عنده لهم إلا القتل ..

فماذا كان رد مصعب ؟

لقد قال له : " أولا تجلس فتستمع ؟ فإن رضيت أمرنا قبلته .. وإن كرهته كففنا عنك ما تكره .. " هنالك أجابه أسيد قائلًا : " أنصفت " .. وألقى حربته إلى الأرض وجلس يصغى ..

وكما أن من صفات الحوار الناجح أن يكون هادئًا ، فإن من صفاته الهامة أن يكون متسلسلًا بشكل منطقي ، فتقدم الأسباب والحيثيات التى تؤدى إلى نتائجها في غاية اليسر، ويتلطف في تقديم ما فيه غرابة على نفس الابن وعقله فلا يفاجأ به ، بل يقدم بين يديه مقدمات تؤنس به وتدل عليه حتى لا يكون فتنة له؛ كما قال عبد الله بن مسعود: ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة. وقال عروة بن الزبير: ما حدثت أحدًا بشيء من العلم قط لا يبلغه عقله، إلا كان ضلالة عليه.

فليس الأبناء طرازًا واحدًا، والعقول تتفاوت، والأفهام تتباين ، ولا بد من مراعاة هذا التباين وذلك التفاوت.

وتأمل ذكره (عز وجل) قصة زكريا وإخراج الولد منه بعد بلوغه السن الذي لا يولد فيه لمثله في العادة، فذكر قصته بين يدي قصة المسيح وولادته من غير أب، فإن النفوس لما آنست بولد بين شيخين كبيرين لا يولد لهما عادة سهل عليها التصديق بولادة ولد من غير أب [1].

وقد راعى النبي ﷺ أحوال الناس وأفهامهم، فترك بعض الأمور التي لا

---

(١) إعلام الموقعين – ابن القيم – ج ٤ ص ١٦٣

يدركها فهم الناس أو فهم بعضهم، فقال لعائشة رضي الله عنها : يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهدهم ـ قال ابن الزبير: بكفر ـ لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين باب يدخل منه الناس، وباب يخرجون .

وإذن: فإنه لابد للأب والمربي من الاقتصار فيما يقول على قدر فهم الابن، فقد قيل بحق: كِلْ لكل عبد بمعيار عقله، وزنْ له بميزان فهمه، حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار .

ولا شك أن مما يفيد في ذلك، ويسهل الطريق أمام المربي لإفهام أبنائه ، أن يضع نفسه مكانهم ، ويحاول التفكير في القضية المعروضة للحوار بمثل عقليتهم، والنظر فيها من نفس الزاوية التي ينظرون منها.

فإذا فعل ذلك تحقق له ـ بإذن الله ـ الدخول إلى قلوب الأبناء بما يريد من أفكار .. " (١).

تذكّر – أخي المربي – عدم الإسهاب فى المقدمات التى لا فائدة فيها ، والاقتصار فى الألفاظ والكلمات على قدر الحاجة وتوضيح المقصود بأقرب عبارة وأوجز لفظ . كل ذلك فى هدوء .

- **فنيّـــة التساؤل :**

لا شك أن " الأسئلة هي وسيلتنا لأهداف حوارية متعددة، فهي وسيلتنا للوصول إلى معلومة نافعة لترتيب أفكارنا أثناء التحاور ، و هي وسيلتنا لتحويل موضوع الحوار إذا أردنا، وهي وسيلتنا لتنشيط عملية التحاور، أو اختبار صحة بعض المعلومات، وإثارة تفكير الأبناء .. إلى غيرها من الأهداف.

ولأن الأسئلة بهذا القدر من الأهمية في عملية التحاور، فإنه من الضروري جدًا أن نعرف كيف نصوغ الأسئلة؟ ومتى نثيرها؟ وما هي أولوياتها؟ وما هو النوع المناسب منها لما نريده من الحوار؟..

(١) لمحات فى فن الحوار – مقالة للمؤلف – مجلة البيان – العدد ٨٨

فللتساؤل أساليب متنوعة، منها أسلوب الأسئلة المغلقة، ومنها أسلوب الأسئلة المفتوحة، ومنها أسلوب تتابع الأسئلة الذي يبدأ بالأسئلة المفتوحة ليصل إلى الأسئلة المغلقة تمامًا..؟

-*فأما الأسئلة المفتوحة:* فهي الأسئلة التي تسمح للابن بالإجابة عن السؤال من أي زاوية يريدها، وبكمّ المعلومات التي يحب ذكرها، مثل أن نقول: ما رأيك في كذا؟ أو ما هي الوسائل التي تقترحها للإفادة من كذا؟.

ومزايا هذا النوع من الأسئلة أنه يجعل الابن يتكلم ونحن ننصت فقط، فنحصل منه على أكبر قدر من المعلومات ونتعرف على الطريقة التي يفكر بها.. كما أن لهذا النوع من الأسئلة ميزة كبيرة، وهي أن الابن لا يشعر معها بأي رهبة أو صراع [1]، ومن ثم: فإن هذا النوع من الأسئلة هو المناسب لبدء الحوار.. والمربي الجيد هو من يبدأ حواره مع أبنائه بمجموعة من الأسئلة المفتوحة والمحايدة والتي توحي لهم أن درجة قناعته بطرفيها متساوية، وبذلك يحقق هدفي التعرف عليهم ، و تحقيق الانسجام معه بصورة طيبة وتلقائية..

- *وأما الأسئلة المغلقة :* فهي الأسئلة التي تقيد الابن بوضع الإجابة في إطار محدد.. مثل أن نسأل: هل توافق هذا الأمر أو تخالفه؟.. ما دليلك على قولك؟.. من قال بذلك ؟.. إلى غيرها من الأسئلة التي تتميز بسيطرة المربي على الأسئلة والأجوبة معًا، وبطريقة تمكنه من الوصول إلى هدفه من أقرب طريق.

-*وأما الأسئلة المتتابعة من الانفتاح إلى الانغلاق التام:* فهي أسئلة متدرجة يحاول بها المربي الوصول إلى أهداف تتفق مع ما يتبنى من الأفكار عبر الانغلاق المتدرج الذي لا يسمح للابن بالتفصيل في المواضع التي لا يريد فيها المربي إلا الفكرة المجملة!!

(١) مستفاد من كتاب: مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي، د. حسن محمد وجيه.

فإذا كان هدف التحاور مع الابن هو – مثلًا – التعرف على رغباته وحاجاته، والوقوف على أهدافه وأحلامه وطموحاته ، فإن النصيحة التربوية هنا تكون:

١ – ليكن سؤالك ذا نهاية مفتوحة ، مما يدفع الابن إلى البوح لك بكل مشاعره الدفينة ..

٢ – لا تسأل أسئلة ذات نهاية مغلقة ، فإنك بذلك تغلق باب الحوار مع مستمعك ، أي لا تستخدم أداة الاستفهام ، هل ؟ فيكون الجواب : نعم أو لا فقط .

٣ – ضع سؤالك فى صيغة إثبات لا نفي مع استخدام وجهة نظر إيجابية فيه ، مثال: ما الذى تجده جميلًا فى المدرسة ؟ بدلًا من قولك : ما الذى لا تحبه فى المدرسة؟

٤ – ابتعد عن الأسئلة التى تحمل فى طياتها التشكيك والاتهام .

٥ – انتقاء الأسئلة ذات الفائدة التربوية (١).

فمثلًا : إذا قال ابنك " إن المدرسة تعد مكانًا سيئًا "

قل : ومتى لا تكون كذلك ؟ ماذا تطلب لتكون جيدة ؟

ففنية السؤال هنا هى أنه فتح المجال لوجود استثناءات للحكم الصادر بالتعميم ..

وأمّا حين يكون الابن غاضبًا- مثلًا- فإنه يمكن استخدام أسلوب تقصى الحقائق لإطفاء غضبه.. اسأله بعض الأسئلة مستخدمًا كلمات الإستفهام : ماذا ؟ من ؟ متى ؟ لماذا ؟ كيف ؟ حتى يتكشف أمامك السبب الحقيقي وراء غضبه .. فإذا هدأ ؛ فاسأله : ماذا يمكنني عمله لتصحيح الأوضاع الخطأ إن كانت موجودة ؟

وأمّا إذا كان الابن رافضًا لأى لون من ألوان الحوار ، وأردت إغراءه بالحديث فقم بتوجيه " أسئلة لا يمكن الإجابة عليها بكلمة أو كلمتين " مثل : ما الأسئلة التى تضمنها امتحان مادة التاريخ اليوم ؟

وإذا أخبرك طفلك بشيء ما ، فحاول أن ترد بتعليقات تتطلب مزيدًا من المناقشة بدلًا من إغلاق باب الحوار ..

---

(١) التميز فى فهم النفسيات – أكرم عثمان – ص ٥٠ – ٥٤ .

ومن الأمور التى تساعدك أيضًا أن تطلب من طفلك أن يعلمك شيئًا ما تعلم أنه يهتم به ، كأن تقول له " أخبرنى عن التمرين الذى تعلمته فى تدريب الكاراتيه اليوم ".

وحين يطرح الابن فكرة خاطئة يكون من الأنسب ألا نرفضها مباشرة ، "وإنما نقوم بعملية " تنقل من هذه الفكرة إلى أخرى صحيحة ، بمعنى استخدام الفكرة الخاطئة كمطية للفكرة الصحيحة ، وذلك عبر تساؤلات خمسة :

١ - ما الذى تعنيه هذه الفكرة ؟

٢ - إلى ماذا تقودنا هذه الفكرة ؟

٣ - ما هو الشىء المشوق فى هذه الفكرة ؟

٤ - ما هو الشىء المتميز فى هذه الفكرة ؟

ما هو المبدأ الذى تستند إليه هذه الفكرة ؟» [1] .

وهكذا مهما كانت غرابة الفكرة أو السؤال الذى يطرحه الابن ، فإن الواجب على الأب والمربي ألا يقابله بالاستهجان والاستغراب ، وإنما يحاول تهذيب السؤال، وإعادة صياغته ، واستخراج ما فيه من نقاط إيجابية .. فيقول مثلًا : أشعر أنك تقصد بسؤالك كذا وكذا .. جميل أن يسأل الإنسان عما يجهل.. سؤال طيب .. أوافقك على جزئية كذا وكذا .. كل ذلك مع الإشادة بطريقته فى التفكير ..

"فقد كان رسول الله ﷺ يبدأ من سأله بمثل أن يقول : " قد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله له " هكذا ، وكأنه ﷺ يقول : سؤالك فى غاية الأهمية .. ثم يجيبه ﷺ: " تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت"..

ثم يتجه إلى أسلوب الإثارة والتشويق ليكون الخبر أوقع فى نفسه وأبلغ: " ألا أدلك على أبواب الخير عامة ؟ " ثم يقول : " الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل ، ثم تلا قوله تعالى :

---

(١) ٣٠ طريقة لتوليد الأفكار الإبداعية – د.على الحمادي – ص ٥٨ بتصرف .

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [السجدة ١٦] ..

ثم قال : " ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ " .. وفى هذا أيضًا تشويق آخر للشيء الذى يعد ذروة الأمر بعد الذى سمعت ، وهل هناك أعلى مما سمعت ؟ وهنا قد وضع الرسول ﷺ فى رأس المتلقى الخلفية التى تجعله مؤهلًا لسماع المهم . قال : بلى يا رسول الله . قال ﷺ : " رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد " ..

ثم قال ﷺ : " ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ " .. يعنى بعد كل ما سمعت أيضًا هناك ما هو أهم . قال : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه وقال : أمسك عليك هذا " ... رواه الترمذي» [1] .

إن من الضروري في كل تحاور مع أبنائنا أن نسأل ونستوضح قبل أن نصدر حكمًا أو نرفض رأيًا، ولا بأس بتنوع الأسئلة حسب الحاجة حتى يتضح لنا الأمر جليًا..ففى زحام الكلام والتحاور والتواصل .. ربما ضاعت النقاط الجوهرية .. ومن هنا فنحن فى حاجة دائمة للتساؤل لنسمع مزيدًا من إجابات توضح حقيقة ما يعانيه الأبناء .. وجوهر ما يواجهون من مشاكل ..

ويحكون هنا قصة رمزية لبيان أهمية التساؤل عن جوهر المشكلة قبل البدء فى حلها ، فيقولون : أنه كان هناك رجل يدعى " جون حمار " .. وعبثًا حاولت زوجته وكل من عرفوه أن ينبهوه إلى ضرورة تغيير الاسم ..

فهو فى كل مرة لا يستمع إليهم ، ولا يسألهم عما يضايقهم فى الإسم ، وفى يوم من الأيام دخل عليهم ليقول لهم : لقد غيَّرت اسمي بالفعل ، وتطلّع الجميع لسماع الاسم الجديد فإذا هو " ديفيد حمار " .. هكذا وكأن المشكلة فى اسم " جون " !!

إن فوائد التساؤل التربوية لا تقتصر على التواصل مع الأبناء ، ومعرفة ما

---

(١) راجع ان شئت: الطب النفسي والدعوة إلى الله – د.عبدالله الخاطر ص ٤٧ .

بداخلهم ، والوقوف على ما بداخل رؤوسهم ، والوصول إلى جوهر ما يعانون ..بل له فوائد أخرى كثيرة منها:

" إثارة انتباه المتربين ، وتحريك ذكائهم ، ليوصل لهم الفكرة فى قالب الإقناع والمحاجاة ..

ومثال ذلك ما روى الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أتدرون من المسلم ؟

قالوا : الله وسوله أعلم .

قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

قال : أتدرون من المؤمن ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : المؤمن من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم ....

ومثال ذلك أيضًا ما رواه البخاري ومسلم عن أبى هريرة رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : أتدرون من المفلس ؟

قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع .

قال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار .. "[١].

و"انظر إلى هذه الطريقة فى توجيه الأنظار إلى الفضائل فى أسلوب مثير من طرح الأسئلة .

(١) تربية الأولاد فى الإسلام – عبدالله ناصح علوان – ص ٦٧٧ ، ٦٧٨ .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ :

" من أصبح منكم اليوم صائمًا ؟

قال أبو بكر : أنا .

قال : فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟

قال أبو بكر : أنا .

قال : فمن أطعم اليوم منكم مسكينا ؟

قال أبو بكر : أنا .

قال : فمن عاد منكم اليوم مريضًا ؟

قال أبو بكر : أنا .

فقال رسول الله ﷺ: ما اجتمعن فى امرىء إلا دخل الجنة"[1] .

بمثل هذه الأساليب يمكننا أن ننجح فى جعل أولادنا يحبون الشىء الذى نطرحه عليهم .

ولا يغيب عن بالنا ذلك الأسلوب الحافز للعبادة ، يقول ﷺ مستخدمًا أسلوب الحوار :

أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا ما تقولوا ذلك يبقى من درنه ؟

قالوا : لا يبقى من درنه شيئًا .

قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله به الخطايا "[2] .

فهذا ترغيب فى العبادة بأسلوب مشوق يعتبر الصلاة بمثابة غسيل روحي للنفس من خطاياها .. "[3].

---

(١) رواه مسلم برقم ١٠٢٨.

(٢) رواه البخاري برقم ٥٠٥.

(٣) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د .عادل رشاد غنيم – ص ٤٧ ، ٤٨ .

وإذا كانت هذه بعض الفوائد التربوية لتساؤلات الآباء ، فإن تساؤلات الأبناء لا تقل أهمية .. ولا بد لنا كآباء حين يتساءل الأبناء أن نشجعهم على ذلك ، ونقوم بتنمية خبراتهم بالحياة من حولهم " بإجابات وافية ، ونحاول أن نفهمهم إذا عرفنا ، أو نعتذر منهم إذا لم نعرف الإجابة على سؤالهم ، فلا نستهين بقدراتهم ، ولا نستخدم أسلوب اللف والدوران معهم ، فهم يدركون هذا جيدًا ، فعندها سيلجأون إلى غيرنا وخاصة أصدقائهم وزملائهم مما يحدث لهم التشويه والسلبية في أفكارهم "[1] .

ولا يعني ذلك أن نجيبهم على جميع أسئلتهم حتى تلك التى ليس لدينا العلم بها !! فهذه مسألة خطرة وخطيرة بكل ما تعنى هذه الكلمات من معنى ؟ ذلك أن الابن إذا تعود أن مربيه يعرف كل شيء ، وأن بإمكانه تناول إجابة لكل سؤال دون أدنى بحث أو جهد ؛ فإن ذلك يدعوه إلى البلادة وخمول الذهن .. وإنما الأصوب هو إعتراف المربي أن ما يسأله عنه الابن لا يستطيع أن يجيبه عنه حتى يتأمله ، بل ودعوته إلى تأمل الأمر معه .. إن هذا يعلمه أن الوصول إلى الصواب فى الرأى هو ثمرة العمل الجاد والتأمل والبحث ...

وهكذا .. إذا ملكنا الجواب عن أسئلة أبنائنا ، فلتكن إجاباتنا عنها بصدق وحكمة .. حتى تلك الأسئلة التى تتضمن بعض الحرج كأسئلته عن مسائل الجنس " فلتكن الصراحة شعارنا، والأمانة والصدق طريقنا ، وإلا فإن العواقب وخيمة حين يلجأ الابن لأخذ الجواب الذى يروى ظمأه من أقران ، الله وحده يعلم سلوكهم وأخلاقهم ..

أيها الأب .. أيها المربي .. إن ماء النهر قوي ، ومهما كانت قوة السد ، فإن الذى يحصل هو أن يتسرب الماء من شقوق ومنافذ فى أسفل السد ، وهذا ما يحدث لأكثر شبابنا الذين تربوا تربية قاسية ، فهم يعملون فى الخفاء ما يخجلون من

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا – أكرم مصباح عثمان – ص ٤٦ .

التصريح به أمام أهلهم"(١) .

• سحر الحوار :

نحن بحاجة إلى أن نمد جسور الثقة بيننا وبين أبنائنا ، نطلعهم على ما فى نفوسنا ، ويطلعوننا على ما فى نفوسهم ، وسوف نستفيد من ذلك فى اتجاهين :

الأول : هو التأثير فيهم : إذ إن من المعروف أن الإنسان سواء كان صغيرًا أو كبيرًا يتأثر بمن يحبه ويعجب به ، ويختلط معه. ويزداد هذا التأثر كلما قويت الصلة وازدادت الثقة.

الثاني : تصحيح أخطاء الأبناء وتقويم اعوجاجهم .

ومن أهم الأشياء التى تساعدنا على ذلك إحساسهم بالحب لهم ، والتقبل لأشخاصهم ، والتفهم لأخطائهم ، والوقوف إلى جانبهم لتلافيها فى المستقبل ..

ومن هنا فالنصيحة التربوية لكل أب ومرب :

إذا تحدثت إلى الابن " فاجعل عينيك تقابل عينيه واسمح للحب أن يطل من عينيك .. وهنا ينتقل الإحساس الجميل إلى أعماق الابن ، وهنا لن يلجأ الابن إلى الصمت أو الشكوى منك ومن أوامرك أو التوسل إليك حتى تمتنع عن عقابه . .. وإلا فإن الأوامر والتوجيهات والنصائح والتهديد بالعقاب ، تدفع الابن إلى الصمت .. "(٢) والهروب من التحاور معك ..

وإذا أردت أن تقف على أثر ما تقول على نفسه ، فتعرف على لغة جسده.. " فالعين تمنحك واحدًا من أكبر مفاتيح الشخصية التى تدلك بشكل حقيقي على ما يدور فى عقل من أمامك ، فليس المهم ما يقوله بلسانه ، لكن ستعرف من خلال عينيه ما يفكر فيه حقيقة ، فإذا اتسع بؤبؤ العين وبدا للعيان، فإن ذلك دليل على أنه سمع منك توًا شيئًا

---

(١) خفايا المراهقة – معروف زريق – ص ١٢٤ بتصرف

(٢) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د. سبوك – ص ٢٩

أسعده ، أما إذا ضاق بؤبؤ العين ، فإن العكس هو الذى حدث، لقد سمع منك ما لا يحب أن يسمعه ، وإذا ضاقت عيناه ، فإن ذلك ربما يدل على أنك حدثته بشىء لا يصدقه، لذلك فهو يشعر بأن لديه مبررًا لعدم الوثوق بك وبما تقوله " .

... أما الحواجب ، فإنها تمنحنا مفتاحًا آخر لمعرفة فيما يفكر فيه ... فإذا رفع حاجبًا واحدًا فإن ذلك يدل على أنك قلت له شيئًا ، إما أنه لا يصدقه أو أنه يراه مستحيلًا ، أما رفع كلا الحاجبين فإن ذلك يدل على المفاجأة ..

.. الأنف والأذنان يمكنها أيضًا أن تمدنا بمفتاح آخر لفهم ما بداخله ، فإذا حك أنفه أو مرر يديه على أذنيه ساحبًا إياهما بينها يقول لك إنه يفهم ما تريده ، فهذا يعنى أنه متحير بخصوص ما تقوله ومن المحتمل أنه لا يعلم مطلقًا ما تريد منه أن يفعله ..

.. وأما الجبين فيمكن أيضًا أن يعطينا مفتاحًا لفهم أمور أخرى .. فإن قطّب الشخص جبينه وطأطأ رأسه للأرض فى عبوس فإن ذلك يعنى أنه متحير أو مرتبك أو أنه لا يحب سماع ما قلته توًا ، أما إذا قطب جبينه ورفعه لأعلى ؛ فإن ذلك يدل على دهشته لما سمعه منك ..

.. والأكتاف أيضًا يمكن أن تدلنا على ما بداخل الابن ؛ فعندما يهز كتفيه ، فإن ذلك يعنى عادة أنه لا يبالى بما تقوله ، رغم أنه لم يعط أية إشارة أو أية صيحة تدل على رأيه فيما تقوله أو ما يريده ..

كما أن نقر الابن بأصابعه على ذراع المقعد أو على المكتب يشير إما إلى العصبية أو عدم الصبر ..

وعندما يربت بذراعيه على صدره ، فإن ذلك – عادة – ما يعنى أنه يحاول عزل نفسه عن الآخرين أو يدل على أنه خائف بالفعل منك ، فإذا نحينا الناحية العضوية

جانبًا، فإن ذلك يعنى على الأقل من الناحية النفسية ، أنه يحاول أن يحمي نفسه ..

تلك هى إشارات سبع تعطيك فكرة عن لغة الجسد ، وكيف يمكنك استخدامها للتعرف على ما يفكر فيه الأبناء مهما حاولوا إخفاءه .. و من ثم يمكنك أن تكتسب السيطرة والسلطة فى توجيههم " (١) .

فإذا لم يخبرك ابنك عمّا يعكّر صفوه ، أو ما يزعجه ، أو عن بعض ما يفكر فيه .. ولم تسعفك لغة الجسد فى الوقوف على ما تريد ، ، فليس هناك ما يمنع أن تسأله عمّا تريد .. ولكن " حذار من الاستقصاء ومحاولة التحقق من كل صغيرة وكبيرة فى حياته ، إذ ليس هناك أى مصلحة فى أن ينكشف الابن أمامنا على نحو تام ، فذاك مما يجرح كبرياءه ويربك وعيه ، ويلجئه إلى الكذب والجدال بالباطل .

وكما أن علينا ألا نسأل عن كل التفاصيل فإن علينا ألا نفضي إليه بكل ما نلاحظه على سلوكه . وإذا كان لا بد من ذلك فلنجعل ذلك متفرقًا وفى ظروفه المناسبة . وهذا السلوك الرفيع تعلمناه من نبينا ﷺ حيث أن حفصة حين أفشت ما أسره النبي ﷺ إلى عائشة ، وأطلعه الله عليه لم يناقشها فى جميع ما أفشته وإنما فعل كما قال سبحانه : " فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض " قال الحسن : ما استقصى كريم قط ، وقال سفيان الثوري : ما زال التغافل من شيم الكرام" (٢) .

فإذا عاتبت – أخي المربي – ابنك على خطأ وقع فيه ، أو سلوك لا يرضيك ، فسمعت منه تعبيرات من مثل : لقد كنت مخطئًا يا أبي .. سأعود عن هذا الخطأ وأتركه ..فاعلم أنه أصبح مستمعًا لك ، ومستقبلًا للتغيير والاقتناع بوجهة نظرك ،

---

(١) ٢١ يومًا للحصول على القوة والسلطة فى تعاملك مع الآخرين – ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) دليل التربية الأسرية – د. عبد الكريم بكّار – ص ١٤١ ، ١٤٢ .

وهنا يمكنك التدخل وعرض ما تريد من فكرة أو نصيحة ..

- أجلسه بجوارك ، ولا تزجره ، أحبه كما هو بلا شروط . إصبر عليه وأكرمه فإن ذلك هو جواز مرورك للتجوال داخل عقله وتوجيهه .

- استمع إليه بتفهم وتعاطف .

- فكّر قبل أن تتحدث ، وركّز فيما تقول .

- احرص أن يكون كلامك ذا معنى محدد .

مارس كل " طرق الحوار " .. وتفاعل مع أبنائك من خلال " هدوء التحاور" .. و استخدم " فنّية التساؤل " .. و" انظر إلى منطقة ما فى منتصف جبين الابن ، ولا تنظر إلى عينيه مباشرة " .. فإنك إن فعلت ، أتقنت سحر الحوار .. ذلك " السحر الأبيض " ..

❀❀❀

الفصل الثالث

السير فوق الخيط الرفيع

في مثل هدوء البحر وقوته .. وفى مثل تهلل الفجر ووداعته .. يقبل الأب على أبنائه بوجهه، ويعبر عن اهتمامه بهم .. ويؤكد : " إننى أسمعكم » وإننى أريد لكم الخير .. إنى متفهِّم تمامًا لما تشعرون به .. لو كانت عندى نفس أفكاركم لشعرت بنفس الشعور .. فهل تسمعون منى ما أراه ؟ ...

ولا يعني ذلك أنه يتسامح معهم تسامحًا زائدًا عن الحد .. فهذا يفقدهم التوازن المطلوب لمواجهة الحياة بشكل جيد ..

وإنما هو يحاول أن يبتعد عن القسوة المبالغ فيها ، والتى تخرج أبناء ممتلئين خوفًا من هذا العالم ..!!

و لا شك أن التوازن بين هذا وذاك مهارة تحتاج إلى تدريب ، وتحتاج أيضًا إلى إيمان جازم بأننا نربي أبناءنا فى زمان غير زماننا ..

- **توجيه بلا غضب :**

جلسة قريبة هادئة دون تأفف من الابن أو تذمر من فعله ، مع ترك الفرصة الكاملة له للتعبير عن نفسه، والتفريج عن همومه ... فإذا ظهر منه أخطاء حاولنا إصلاحها مع الابتعاد عن الغلظة فى توجيهه .. تلك هي الوصفة الصحيحة لتغيير سلوكيات الأبناء إلى الأفضل ..

تأمل معي هذا المشهد النبوي ..

جاء شاب للرسول ﷺ .. فقال يا رسول الله : ائذن لي بالزنا ، فقام الصحابة وزجروه .. ويأتي تصرف غير متوقع من الرسول الكريم ﷺ معلم الأمة

الخير، فقال له : أدن مني .. وجلس عنده الشاب فبدأ الرسول ﷺ يسأله: أتحب هذا لأمك؟! لأختك؟! لعمتك ؟! وفي كل مرة يجيب الشاب لا والله يا رسول الله، حتي إذا انتهت هذه الأسئلة وضع رسول الله ﷺ يده الشريفة على صدر الشاب ودعا الله : اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه ..

وقال الشاب : ما قمت من تلك الجلسة إلا وكان الزنا أبغض الأشياء إلى قلبي .

فهنا " على الرغم من شذوذ فكرة الشاب ، والتى أثارت الجالسين عند رسول الله ﷺ فحاولوا زجر الشاب وإسكاته ، إلا أن الرسول ﷺ طلب من الشاب أن يقترب منه ، وهنا نفهم دلالة المسافة بين الأشخاص ، فقرب المسافة يمكّن من توفير جو مناسب للحوار، أما المسافة البعيدة فهى لا تصلح إلا لإملاء الأوامر وإصدار التعليمات .

وبدأ النبي ﷺ الحوار الهادىء .. والملفت للنظر أن الرسول ﷺ لم يذكر الشاب بآيات وأحاديث فى تحريم الزنا ، فالشاب لا يجهل حرمته ، ويريد من الرسول ﷺ أن يبيح له حرية ممارسة الجنس !!

وإنما استخدم الرسول ﷺ مع الشاب ما يمكن أن نطلق عليه " المنطق الإجتماعي " القائم على أساس عدم تقبل أى إنسان أن يفرط فى عرض أمه أو أخته أو عمته ..»[(١)] .

وكما أن قرب المسافة، وهدوء المنطق من الأساسيات فى مثل هذه الحوارات «حوارات التوجيه» فإن من الأمور الهامة فيها أيضًا الإعداد النفسي للابن ، و تحيّن الوقت الذى يكون فيه الابن صافي الذهن وهادىء النفس ، فهذا أدعى لإنتفاعه بالتوجيه والتصويب ..

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د/ عادل رشاد غنيم – ص ١١٢ بتصرف .

وتأمل معي أيضًا هذا المشهد النبوي :

فهذا غلام يأكل مع رسول الله ﷺ، وتطيش يده في الصفحة .. أي أنه يأكل من أكثر من مكان في صحن الطعام .. فيوجهه الرسول ﷺ قائلًا : يا غلام .. سمّ الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك .

فالرسول في البداية ناداه " يا غلام " أي بإسم محبب له ، فلم يصغّر اسمه ولم يحقره .. وهو نوع من الإعداد النفسي لقبول التوجيه .. ثم قال " سمّ الله " وذكر الله يلفت السامع إلى شيء مهم ..وهو أيضا إعداد نفسي آخر .. ثم " كل بيمينك ، وكل مما يليك " .. هكذا بلا غضب أو تعنيف ...

وأنت – أخي الأب والمربي – تذكّر أن تعدّ ابنك للتوجيه إعدادًا نفسيًا.." أنت يا بني إنسان طيب ، صاحب خصال خير كثيرة ، ولا شك أنك تحب أن تكون أفضل .." .

نعم– أخي الأب والمربي – " تذكّر دائمًا أن تحدث أبناءك عن أنفسهم ، وعن الأشياء التى يرغبون القيام بها ، وبهذا تحقق حوارًا رائعًا بناءً . والثقة المتبادلة بينك وبينهم وهو أمر في غاية الأهمية ، فبدون هذه الثقة تتقطع الروابط بين الطرفين ، ويتعذر الحوار والتفهم .

بل إن من الضروري أن تعطي أبناءك فرصة الانتصار في الحوار بين الفينة والأخرى ..

واحذر كل الحذر أن تشعر الأبناء بالاستهتار بحديثهم ومناقشاتهم ، مهما كانت بسيطة وسطحية ، فهذا مدعاة إلى الشعور بالامتعاض من قبلهم ...

إن الأفضل أن يكون حوارك معهم حوارًا متفاعلًا ومبهجًا ، يزيح عن كاهلهم القلق والانزعاج من أمور تبدو بالنسبة إليهم تحولًا هامًا في حياتهم . فهم بحاجة إلى المساندة الوجدانية التى تتمثل في مشاركتهم والتعبير عن مشاعرهم ..

فحين يأتى الابن حزينًا بسبب مشكلة فى المدرسة ، فإن الواجب على المربي أن يؤكد : أنا أحس بك ، شعوري كله معك .. لو كنت مكانك لشعرت بها تشعر .. هذا إحساس طبيعي ومن حقك أن تعبر عنه ..

بهذا الأسلوب يشعر الابن بالأمن والطمأنينة ، ويجد فى المنزل من يشاركه همومه ويعطيه الفرصة للحوار الهادىء والتعرف على ما حصل له ، والتفكير فى مشكلته بصوت مسموع للتغلب عليها ، وإيجاد السبل الملائمة لحلها ." [(١)] .

أخوتي الآباء والمربين..

أبناؤنا بشر. والبشر مخلوقات عاطفية تجذبهم الكلمة الطيبة، وينفرهم التوبيخ والتقريع. وفي الحديث: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله» أخرجه الشيخان.. وفي حديث مسلم: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله».

إن قولنا: «هذا خلاف الواقع» يؤدي نفس المعنى الذي يؤديه قولنا: « هذا كذب» لكنه أرفق وألطف.. وقولنا: «ما رأيكم لو عملنا كذا، ألطف من قولنا: «اعملوا كذا، وكفوا عن كذا»..

إن البعد عن الرفق في توجيه أبنائنا هو لون من ألون اختلال التوازن التربوي الذي قد يحدث لأحدنا في بعض المواقف، وعندها يكون التصرف الأمثل هو الرجوع إلى التوجيه برفق وبلا غضب...

ولعل فى ذاكرة كل منا مواقف اختل فيها هذا التوازن مخلفًا وراءه علاقات مفككة ومشاعر محطمة ..؟!

أذكر أنني ذات مرة راعني ولع ابني بهوايته فى إصلاح الأجهزة على حساب مذاكرته فى وقت الإختبارات الحرج ، وانتابني غضب أذهلني عن التفكير فى الأسلوب لمعاجة المشكلة ، فعنفته بشدة بالغة وأرغمته على الجلوس على مكتبه

---

(١) التميز فى فهم النفسيات – أكرم عثمان – ص ٦٢ ، ٦٣ .

ليتابع مذاكرته وجلست أراقبه عن كثب وبالطبع كانت تعبيرات وجهه تكشف عما يعانيه في داخله .

فلما هدأت ، قلت لنفسي معاتبًا : " ماذا لو استخدمت أسلوبًا أرفق مما فعلت؟ إذن لحققت التوازن بين تحقيق السلوك الذى أرجو حصوله وبين الحفاظ على مشاعر ولدي "

حاولت أن أخفف من آثار تصرفي فقلت له مبتسمًا :

- لا أخفي إعجابي بمهارتك فى إصلاح العطب لكنني قلقت عليك ألا تكون قد تهيأت لاختبار الشهر بقدر كاف .

- فقال وقد استنار وجهه بابتسامة : لقد تمكنت من إصلاحها بعد أن اكتشفت سبب عطلها .

- أجبته : هذا رائع ، تستطيع فى نهاية الأسبوع أن تصلح لي قفل الباب الخلفي للسيارة .

- فقال : وماذا عن تكاليف الإصلاح ؟

- قلت : حسبما تقرر يا باشمهندس ..

- وأقبل على الكتاب والبشر يملأ عينيه .

- وشتان بين الموقفين ! "[(١)] .

فعلى سبيل المثال ..

تخيل أن ابنتك أو ابنك قام بإحداث الفوضى فى المطبخ ..

كيف توجهه ؟ تغضب .. تصرخ .. توبخ بقسوة .. أليس كذلك ؟

هل ينتج ذلك أن تقوم الابنة أو الابن بترتيب المطبخ ؟ .. الراجح : لا إلا إذا أرغمتها ، فهى تعمل وترتب وهي تبكى !!!

إذن لماذا لا نفكر فى طريقة أخرى تجعلها ترتب هذه الأشياء باختيارها.؟!

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د.عادل رشاد غنيم – ٨٤ ، ٨٥ .

تقول الأم مثلًا : إننى سعيدة أنك حاولت إعداد غدائك بنفسك ، ولكن هذه الصورة لا تعجبك .. وأنا أعرف أنك تقدرين على ترتيب المطبخ مرة أخرى .. إذا أردت مساعدة فناديني ...

هذه هي الطريقة الأصوب – فيما نرى – فى توجيه الابن أو الابنة ..

ونؤكد هنا على حقيقة أولية بسيطة ، وهى رغم بساطتها تغيب عن أذهان الكثيرين من الآباء والمربين .. تلك الحقيقة هي " إن الطبيعة تكره الفراغ ، وحين نترك عقل الطفل وقلبه خاويين ، فإن غيرنا سوف يملؤهما ، وسوف يتلقى ذلك الطفل بشوق وشغف . الطفل أشبه بالكأس فإذا ملأناها بما نريد قطعنا الطريق على ما لا نريد ." [(١)].

وهذا يعني أن علينا كآباء ومربين أن نغني شخصية أبنائنا بالقيم والمبادىء والمفاهيم والعادات والسلوكيات الصحيحة والنافعة .. قبل أن نكثر من زجرهم وتوبيخهم وإقامة النكير عليهم .. ذلك أن الزجر لا يفيد إلا بعد أن نوضّح للأبناء بشكل دائم وعلى نحو لا لبس فيه الصورة الصحيحة لما نريده من سلوك ..!!

فإذا أخطأوا ، أعطيناهم فرصة لسماع ما لديهم بهدوء وعقلانية ، فربما لا يعرفون الكثير من سلبيات ما وقعوا فيه من خطأ ، ولا يدركون ما فى تركه من إيجابيات ، لأننا لم نخبرهم بذلك من قبل !! وعندها يجب أن نلوم أنفسنا على تقصيرنا ، إن كنا منصفين ؟!

والنصيحة التربوية هنا : لا تركز على إظهار مشاعر السخط أو الضجر، بل ركز على إيضاح التصرف المطلوب منه مستقبلًا في مثل هذا الموقف مع مراعاة أن تكون هادئ وغير منفعل.

خذ مثالًا " *سلوك رفع الصوت* " :

.. نبدأ بتعريف الأبناء على سلبياته ، ونناقشهم فى وقت هدوئهم وارتياحهم

(١) دليل التربية الأسرية – د . عبد الكريم بكار – ص ١٩٣ .

وإقبالهم ، ونبدأ الحوار بالثناء على ما يستحق الثناء من أخلاقهم ، ونطلب منهم أن يكون في سلوك «عدم رفع الصوت» على نفس المستوى العالي لبقية أخلاقياتهم وسلوكياتهم .. ولسنا في حاجة إلى التأكيد هنا على أن سلوكنا كآباء يكون الصوت الهادىء حتى نستطيع أن نطالبهم مستقبلًا بما رأوه من صواب سلوكنا في هذا الأمر . . .

إن خطأ أبنائنا ليس مبررًا كافيًا لخروجنا عن اللين في توجيههم، أو الدخول معهم في مصارعة كلامية، نحاول فيها أن نهزمهم بـ «الكلمة القاضية».. فينفجر الحوار بيننا وبينهم بلا سبب منطقي إلا الكلمات وردها!! وقديمًا قالوا بحق: «إن الكلمة تولد عقيمًا، فإذا رددتها ألقحتها»!!.

- **كيـــف تكســب جـدالًا ؟!:**

هل وصلت يومًا مع طفلك إلى نقطة تكون فيها مرتبكًا لدرجة أنك لا تعرف كيف تفعل حيال سلوكه وتصرفه ؟

لا شك أن إجابتنا جميعًا هي نعم .!!

ولا شك أيضًا أننا جميعًا تمنينا أن يكون لدينا طرقًا لمواجهة تلك السلوكيات..

إليك أخي الأب والمربي أمثلة لتلك السلوكيات والمواقف ، نحاول من خلالها أن نعرض لما نراه الأفضل في مواجهتها :

المثال الأول : الطفل يرفض ترتيب ما سببه من فوضى ..

يلعب أحمد بالكومبيوتر مع أحد أقربائه ، بينما أكوام اللعب متناثرة في جوانب الغرفة ..

يخبره والده أنه يجب عليه ترتيب هذه اللعب ..

أحمد : هذا ليس عدلًا أن أترك لعبي ..

الأب : ربما تكون على حق .

أحمد : لماذا يجب على ترتيب الغرفة وحدى ، بينما " عبدالرحمن " يلعب ، لقد كان سببًا هو أيضًا فى هذه الفوضى .

الأب : ربما تكون على صواب ... إننى أرى كثيرًا من اللعب لو سمحت اجمعها الآن .

أحمد : (يستمر فى اللعب ويتجاهل الأب) : حسنًا .

الأب : يبدو أنك تريد منى أنا القيام بتلك المهمة ، ..لا بأس أكون سعيدًا بذلك .

أحمد : (محاولًا إشعار الأب بالذنب) : لقد قلت أننى سأرتب الغرفة . لماذا تريد دائمًا معاقبتي ؟

الأب : (دون الرد على ما قاله أحمد) : لا توجد مشكلة ، سأحلها أنا ..

النتيجة النهائية : لم يقم أحمد بما هو مطلوب .. ولكن الأب أغلق باب الجدال معه ، ليخرج من حالته الإنفعالية ، وينتقل إلى حالة تفكير .. تمهيدًا لتأديبه فيما بعد وتعريفه بضرورة أن يطيع الأمر حين يطلبه منه أبوه ..

مثال آخر :

" خالد " لا يؤدى واجباته الدراسية ، وإذا أداها لا يؤدها بالطريقة المرضية .. هو لا يحب أن يبذل أى جهد ..

الأب : لماذا لا تؤدى واجباتك يا " خالد " ؟

خالد :هذا ليس شأنكم .. إنها حياتى أنا .. إنه واجبى أنا .. !! لقد كبرت ولا أريد وصاية من أحد .

الأب : لا أظن أنك تستطيع العيش فى مجتمع الكبار بهذه الخصال .. سأساعدك على أن تكون قادرًا على ذلك

خالد : لم أرسب فى العام الماضي .. أليس كذلك ؟ أنا أعرف طريقى وأعرف ما يجب أن أفعله !!

الأب : ربما يكون ذلك صحيحًا .. ولكني مُصِرٌّ أنك تحتاج مساعدتى للقيام بواجبك على الوجه الأمثل ...

خالد : هذا ليس عدلًا .

الأب : أنت ترى الأمر على هذا الشكل .. تلك رؤيتك أنت .

ثم يستدير الأب ، ويخرج من الغرفة تاركًا لخالد فرصة التفكير فى عواقب الحوار ..

هل أدركت– أخي الأب والمربي– ما أريد قوله بهذه الأمثلة ؟

إن أفضل وسيلة لتكسب جدالًا مع أبنائك .. ألا تشترك فيه ..!!

قد تكون هاويًا للنقاش محبًا للجدال .. لا تدع جدالًا مع أبنائك إلا دخلته ، ولا خطأ لهم إلا نبهتهم إليه ، وبحت برأيك فيه .. فإن كنت كذلك فأحسب – والله أعلم – أنك ستكون كثير الخسارة ..!!

فأكثر الأبناء يحبون الجدال ، و يجدون فيه فرصة لإثبات أنهم على الحق ، كما أنهم يحبون ممارسة " سلطة " ومن ثم يرفضون تنفيذ ما يطلب منهم لأنهم يريدون أن يقولوا : لا نقبل أوامر من أحد ..!!

والنصيحة التربوية هنا :

لا تحاول علاج ذلك بـ " فرض " سلطة مضادة ، لأن مجرد إشتراكك فى الصراع يثبت خسارتك ، ذلك أن الصراع على السلطة يكون بين خصمين متكافئين!!

لا تشترك فى مجادلات مطولة مع أبنائك بدعوى الإقناع .. وإنما فقط أصدر أوامرك بوضوح ، وأخبر أبناءك بما تريد .. وبالوقت الذى تراه مناسبًا للقيام به ..

ثم بعد ذلك أتركهم وانصرف ..

خذ مثالًا ..

الأب : لقد حان وقت إغلاق الحاسب ." الكومبيوتر "

الابن : هذه اللعبة فقط يا أبى

الأب : ليس الليلة ، فلابد أن نصحو مبكرين .

الابن : هذه اللعبة فقط

الأب : إفعل ما آمرك به .. أو سأمنعك من اللعب بالكومبيوتر غدًا .

.. كل ذلك بلا غضب ..

لماذا بلا غضب ؟ لأن غضب الأب يمنح الأبناء لونًا من ألوان السلطة ، وهو " سلطة " التحكم فيه .

... وحين يفعل الابن ما طلبته منه فعليك أن تشكره : أشكرك ، أقدرك على ذلك .. أنت نعم الابن المتعاون ..

مثال آخر :

كان أحمد وأخته يتجادلان حول استخدام الكومبيوتر ، وفجأة أنهى أحمد تلك المشادة بمناداة أخته بلفظة : كلبه !!!

قال الأب : كيف تنادى أختك بهذا اللفظ البذىء ؟

رد أحمد : هذا ليس أمرًا خطيرًا يا أبى .. إن كل زملائي ينادون بعضهم بعضًا بهذه اللفظة .. !!

الأب : قد يكون هذا شائعًا بين زملائك ، ولكن هذا لا يعنى أنه أمر مقبول .. هل تسمعنى أو تسمع والدتك نسب أو نشتم هذا السباب ؟

أحمد : نعم يا أبى لم أسمعك تسب أبدًا .. ولكن .. بعض الكلمات من مثل " كلب " .. " غبي " أو غيرها من المفردات الشبيهه هى مجرد ألفاظ نرددها بيننا بغير

قصد الإهانة أو السب ..!!

الأب : أنا أعلم أن بعض الناس يستخدمون هذه الألفاظ ليظهروا بمظهر الظرفاء .. ولكن السباب ليس ظرفًا .. إن هذا السباب مرفوض شرعًا، ومن ثم فإني أرفض أن أسمعه فى بيتنا المسلم ..

مثال ثالث :

الأم : كف عن ضرب أختك يا أحمد .

أحمد : هي ضربتني أولًا .

تصرخ أخته سمية : لا لم أضربه ، بل غضب مني لأني فزت فى اللعبة .

يصرخ أحمد : لا لم أفعل هذا ..

الأم فى هدوء شديد : لا يهمني السبب . أنت تعرف أنه لا يليق أن تضرب أختك.

اذهب إلى حجرتك الآن ..

.. هكذا أمر واضح ، تطلب الأم تنفيذه فى وقت محدد " الآن " .. ولا "تتجادل " مع الأبناء حوله ..

ولا يعني عدم اشتراكنا فى الجدال مع الأبناء أننا نترك لهم الحرية فى عدم القيام بما نريد منهم ، بل لا بد أن يوقن الابن أنه حين يجادل ولا يقوم بعمل نافع ، فإن ذلك يفقده حريته واختياره ، لأننا سنقوم عنه بهذا الفعل أو العمل..

خذ مثالًا ..

يجادلك ابنك للذهاب إلى المحل القريب ليشترى قطعة حلوى قبل وقت الغذاء بعشر دقائق ، وحتى بعد أن رفضت يظل الطفل يجادل ..

رد الفعل الخاطىء «أن تصرخ وتقول : لا ، ألا تفهم معنى كلمة لا ؟».

وأمّا رد الفعل الصحيح فهو «لا تصرخ ، وإنما تعطى الطفل خيارين : إمّا أن

يكف عن الجدال والصراخ .. أو يذهب إلى أى غرفة أخرى ويصرخ أو يبكى كيف يشاء !!!».

إن الطفل يتعلم من ذلك أن سلوكه السيء فى الجدال والصراخ فى غير مكانه، وإذا أراد أن يسلكه فلا بد أن يغادر المكان ولا يبقى معك ..

قد يرد الطفل : إني أكرهك . لن أقوم بعمل الواجب اليوم .. أو لن أذهب إلى المدرسة غدًا ..

قل أنت بصوت حزين (بدون غضب) . إذهب إلى غرفتك الآن ..

... إنك هنا حرمته الإختيار حين أساء استخدامه .. وتعلم هو من ذلك أنه حين يسيء الإختيار يفقده ، لأنك فى هذه الحالة تختار له ..

مثال آخر :

يطلب " أحمد " من أمه أن يذهب معها لزيارة خالته ، فتسأله أمه : هل قمت بعمل الواجب ؟

هنا تبدأ مشكلة كل يوم .. فـ " أحمد " يجادل أمه يوميًا بشأن عمل الواجب ، حتى أمسى ذلك مأساة يومية ..

قالت الأم : لن تذهب معي لأنك لم تقم بعمل واجباتك المدرسية .

قال أحمد : إنك سيئة.. إنك تكرهينني ..

الأم : (دونما إنفعال) خذ حريتك فى التحدث بهذا الشأن فى مكان آخر، أو امكث هنا ولا تتكلم .

أحمد : أنت لا تفعلين أى شيء لأجلي ، بالأمس أخذت " عبد الرحمن " معك حين خرجت إلى عمتى ، ففى أى شيء هو أفضل مني ؟

الأم : خذ حريتك فى الحديث عن هذا فى غرفتك وليس هنا .

هكذا تسحب الأم منه الإختيار ، وتختار هي له لأنه أساء التصرف فى الحرية الممنوحة له ..

ولا بأس هنا من استخدام بعض العبارات والتعليقات التى تدفع الابن إلى

التوقف عن الجدال ..

فإذا استثارك الابن بقوله " هذا ظلم .. إنك تحب أخى أكثر مني " .. فما عليك إلا أن تقول : " إني أتفهم ذلك " لا أكثر ولا أقل ..

وإذا صرخ الابن " فى الأسبوع الماضي فعلت أختى نفس ما فعلته ولم تعاقبها مثل ما عاقبتنى !! " فيمكنك أن تقول : ممكن ..

وإذا كذب الابن فقال أنه لم يتأخر عن موعد المدرسة ، وأن المدرس هو الذى ظنه تلميذًا آخر بنفس الإسم كان متأخرًا ..

فما عليك أيها الأب المربي إلا أن تبتسم وتقول : محاولة جيدة ! .. والرسالة التى تريد أن توصلها له هى : " لم تنجح فى توصيل ما أردت من فكرة».

وإذا رفض الابن إطاعة أوامرك فقال : " سوف أنظف حجرتى عندما أحب" .

فيكون ردك : " ليته ينفع " ..

... ولكن تذكر فى كل العبارات والتعليقات ، أن تقول تلك التعبيرات بحزن وعدم مبالاة بلا غضب أو سخرية.

إن أبناءك سوف يظهرون سلوكيات أفضل إذا بقيت صامتًا بعد تلك العبارات ، ولم تدخل معهم فى جدال.

قد يكون هذا صعبًا، وبخاصة حين تكون عبارات الابن من مثل "أنت تحب أخي أكثر مني " .. " أنت لا تحبنى .. أنت تكرهنى ولا تفعل لى أى شىء .. " إلى آخر تلك العبارات المثيرة ..

ولكن ، تأكد – أيها الأب والمربي – أن صمتك فى مثل هذه المواضع يقطع استرسال الابن فى الجدال ، ومن ثم يقطع سلوكه السىء ، .. وهذه هى الطريقة التى تغير بها سلوكه السىء ، وتكسب بها فى ذات الوقت كل جدال..!!

- **دقيــقة واحـــــدة تكــفي :**

قد ترى من أبنائك سلوكيات سيئة كثيرة .. وتحاول أن تصلحها جميعها فلا تصل إلى نتيجة مرضية ..!! لماذا ؟

لأن أبناءك لديهم طاقة أكثر منك .. !! هذه هي الحقيقة .

ومن هنا فلا سبيل إلى أن تكون أكثر فاعلية تربويًا إلا أن تتخير سلوكًا واحدًا أو مشكلة تربوية واحدة ، وتحاول التركيز عليها فى مرة ، ثم نأتي للأخرى فى مرة لاحقة ؟!

" وأحد الطرق لتنفيذ ذلك هو أن تعد قائمة للسلوك وتختار سلوكًا واحدًا يكون أكثر إزعاجًا لك . لا بد أن تكون محددًا . لا تضع فى القائمة أشياء مثل " غير مطيع " أو " سيء السلوك " فهذه أشياء شديدة الغموض ، وإنما تختار سلوكًا محددًا مثل " لا يقوم بتنظيف أسنانه .. أو لا يذهب إلى النوم حتى أصرخ فيه ..

واعلم أنك كلما كنت محددًا ، كان من السهل متابعة التقدم فى خطة تحسين السلوك السيء ..

ما تحتاجه الآن أن تكون مستعدًا برد فعل مختلف عندما يفعل الطفل السلوك المطلوب تغييره .. فإذا توانى فى تنظيف أسنانه أو الذهاب إلى فراشه ، فقل له بصوت هادىء : " كما تحب ، ولكن اعلم أنك لن تذهب إلى النادى غدًا .. أو أنك لن تلعب بالكومبيوتر كما تفعل كل يوم .. "

إن الابن هنا يتلقى رد فعل مختلف وغير متوقع ، فهو يتوقع أن يكون رد فعلك هو الصياح والصراخ ، وهو قد أصبح محترفًا فى مواجهة هذا .. ولكنه ليس مستعدًا لخسارة هذه المزايا " الذهاب إلى النادى .. أو اللعب بالكومبيوتر " .. وخاصة إذا كان قرارك فى ذلك هادئًا ، ولا يحمل أى نقد لشخص الابن.. "[1] .

إن هذه الطريقة فى معالجة السلوك الخاطىء تعرف بطريقة «الدقيقة الواحدة»[2] .

---

(١) حاول أن تروضني – راى ليفي – ص ١٣٢ – ١٣٦ .

(٢) لحمل الابن على الإذعان لأوامرك يحسن ألا تنظر فى عينيه ، وإنما فوق حاجبيه فى منطقة الجبين .. راجع إن شئت كتاب " ٢١ يوماً للحصول على القوة والسلطة فى تعاملك مع الآخرين – جيمس ك ز فانفليت .

وتعتمد على جعل الأبناء يشعرون بعدم الرضا عن تصرفهم الخاطئ ، ثم تصويب هذا السلوك ، مع إشعار الابن بحب الأب !!، فكيف يتم ذلك في دقيقة واحدة؟

إذا عاد ابنك متأخرا إلى البيت ، وكان قد كرر تأخره خلال الأسبوع ، انظر إلى عينيه مباشرة ، وقل له : " لقد عدت متأخرا ، وكررت ذلك للمرة الثانية هذا الأسبوع " .. " أنا غاضب جدا منك يا بني ، وأنا حزين جدا أنك كررت ذلك مرتين".

وهكذا فى النصف الأول من الدقيقة " أشعرت الابن بكلام مختصر أنك غاضب مما فعل ، وأنه لا يجب أن يفعله .. ومن ثم يشعر الابن ببعض الضيق وعدم الراحة .. وهو أمر مطلوب .. فإذا بدأ الابن فى الدفاع عن نفسه .. هنا ينبغي عليك – أخي المربي – أن تكمل النصف الآخر من الدقيقة ، فهو مفتاح النجاح فى عملية تغيير السلوك التى تقوم بها ؟!

أنظر إلى وجه ابنك بحب واجعله يشعر أنك تقف إلى جانبه ، وليس ضده .. وأكد له أنك تحبه ، لأنه إنسان طيب ، وابن صالح .. ولكنك غير راض عن سلوكه تلك الليلة ، ثم ضمه إلى صدرك بقوة ليعلم أن عتابك له على ما فعل قد انتهى ..

وهكذا .. ففي النصف الأول من الدقيقة قمت بتوبيخ طفلك بأسرع وقت ممكن ، وحددت له ما فعل ، وعبرت عن شعورك بالغضب تجاه ما قام به . أما النصف الآخر من الدقيقة ففيه لحظات هدوء ومحبة ومنح للثقة . تذكر خلالها أنك لا تقبل بسلوك طفلك الحالي ، ولكنه ولد طيب ، وتشعره بأنك تحبه وتحتضنه .

فمثلًا : " إذا تشاجر الابن مع إخوته ، وأخبرتك أمه بما يفعله كان تأديبه حواريًا كالتالي :

١ - *وصف الأمر دون تعليق*: لقد أخبرتني أمك بأنك تتشاجر مع إخوتك .

٢- *صف مشاعرك إزاء هذا الموقف* : لقد تضايقت لأنني أتمنى أن يكون سلوكك مع إخوانك جيدًا ، وسأكون أكثر سعادة إذا ابتعدت عن ضربهم .

٣- *اشرح ما تود أن يفعله بنفسه* : بهذه الأفعال التى تسلكها مع إخوانك لن تستطيع جعل الآخرين يحترمونك أو يثقون بك فى المنزل .

٤- *تعرف على مشاعر ولدك* : أعرف أنك لا تريد أن تحدث أي مشكلة فى المنزل .

٥- *أذكر ما تريد أن تنميه فى ابنك مع إعطاءه الفرصة لحل مشكلته* : أحب أن تكون تصرفاتك أفضل ، أدرك أن لديك القدرة على حل مشاكلك دون تدخل منى.

٦- *قدم القليل من المساعدة* : أستطيع أن أقدم لك مساعدة فى المواقف الصعبة بعدما تحاول حلها وتفشل فيها .

٧- *ثق فى ابنك* : كلي ثقة على أنك تستطيع أن تتجاوز مشاكلك .

٨ - *اشرح دورك فى هذه المشكلة* : لن أستطيع مساعدتك فى حل مشاكلك، عليك أن تتحمل مسؤوليتك جيدًا ... "(١).

.. وأنت فى كل ذلك – أخي المربي – كالطبيب الذى يداوى الجرح باللمس الرقيق وليس بمبضع الجراح .. تحاول أن تجد للابن العذر فى تصرفه .. وتحاول تصويب تصرفه عبر التعليم ، كما فعل النبي ﷺ مع معاوية بن الحكم السلمي عندما تكلم فى صلاته فلم يزجره النبي ولم يعبس فى وجهه ولم يشتمه ، بل قال له : " إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن " ... هكذا فى صورة بسيطة ، ونافعة ، ومحددة قد لا تستغرق الدقيقة الواحدة !!

---

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلاً فذاً – أكرم مصباح عثمان – ص ١٤٠ .

- ***هـل تحاول السير الصعب؟***

لو كان كل شيء في حياتنا سهلًا.. لو كانت خالية من الصخور نتسلقها، ومن العقبات نتجاوزها ونتغلب عليها.. لو أصبحت حياتنا بلا مشكلات عقلية نحلها، وغوامض نفسية نكتشفها.. فأين هي الحياة؟ وأين هو رونقها وجمالها؟!!

فإذا وجدت ـ أخي الأب والمربي ـ أنك لن تخرج من نقاشك مع أبنائك بأمر جديد.. ولن تستطيع تصحيح المفاهيم التي تريد.. أو لن تقدر على تثبيت فكرة ترى أنها لا بد أن تكون واضحة عندهم .. أو لن تقوي به ودًا لهم أو تحسّن به تواصلًا معهم.. فلا تشعر باليأس منهم، ولا تحزن على ما تظنه منك فشلًا.. وإنما:

وطّد علاقتك بابنك: «أنت ابني وأنا أحبك».

حدد هدفك: «ما فعلته في بيت خالك ليس مقبولًا على الإطلاق».

ذكّر الابن بسلوكه الجيد: «لقد كنتَ دائمًا حسن السلوك».

فرّق بين الابن وبين السلوك السيء: قل: «هذا سلوك مرفوض» ولا تقل: «لا يفعل ذلك إلا غبي».

وحاول في كل ذلك أن تكون قادرًا على التوجيه بلا غضب.. والتصويب بلا جدال.. وتغيير السلوك في دقيقة .. مع الحفاظ على مشاعر الأبناء، وتنمية الثقة لديهم..

فإن فعلتَ .. فأنتَ عندها ممن يتقنون مهارة «السير فوق الخيط الرفيع».

❁❁❁

الباب الثاني

احْتَرِم مَشَاعِرَه

U = Understand his feelings

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : أسمع القلب .. تملك العقل

الفصل الثاني : حتى لا يتآكل الحب .

الفصل الثالث : التوبيخ يهتك حجاب الهيبة

الفصل الأول

أَسْمِع القلب.. تملك العقل

إذا دعوت صديقًا تحبه إلى العشاء ، وأثناء تناوله لطعامه إنسكب كوب اللبن من يده .. ماذا ستقول له ؟

لا شك أنك ستقول : " لا عليك .. إن هذه الأمور تحدث كثيرًا ، أمر عادي .. إنتظر، دعني أجففه ، دعني أنظف المكان .. أليس هذا هو رد فعلك مع صديقك؟

فلماذا حين يحدث نفس الأمر مع ابنك تقول : " مرة أخرى تسكب اللبن ، ألم أقل لك مرارًا أن تكون أكثر حرصًا .. يالك من طفل غبي ، لقد أفسدت غطاء المائدة !!

نعم .. لا بد للأبوين من ممارسة عملية النقد تجاه أبنائهما ، فالأمور لن تسير دائمًا على ما يرام ، لكن المشكلة أننا أثناء ممارسة النقد كثيرًا ما نتجاهل كيان الابن ، ونظن أن من المفروض عليه – بحكم رعايتنا له وقيامنا على شؤونه – أن يستمع ويمتثل لكل ما نقوله له . وهذا غير صحيح ، فالابن يمتلك مشاعر كاملة ودرجة من العقلانية منخفضة ، ولذا فحاجته إلى الحب والملاطفة أعظم من حاجة الكبير ..

• التربيـــة بالحـــب :

الأبناء هم منحة الله إلى الآباء .. والقدرة على رعايتهم بـ " حب " هي الشكر الواجب لهذه المنحة الإلهية ..

هذا المفهوم يجب أن يستقر في أذهاننا نحن الآباء والأمهات ..

وهذا المفهوم يعد أسلوبًا تربويًا ، وسلاحًا إنسانيًا عجيبًا ..

فهو يبني ولا يهدم .. وهو يشع الطمأنينة والمتعة والراحة ، وينفي العذاب والقلق والحيرة ..

إن " الحب يقيم الجسور ، بينما الكراهية توجد الشقوق والأخاديد ..

الحب يشع دفئًا بين الآباء والأبناء ، والكراهية تشع برودة شديدة ، فهي تدفع الكاره إلى أن ينكفىء على ذاته ..

إن الذى يبذر الحب فى قلوب أبنائه يحوّلهم إلى جنود يحرسونه ، و عمال يخدمونه ، وإلى مظلاّت تقيه حر الشمس ..

نعم للحب كل هذا " السحر التربوي " ..

... لأن الذى يحب أحدًا يحرص الحرص كله على أن يسعده ، ويكون على استعداد لأن يبذل له كل ما يستطيع .. إن الدنيا كلها تختزل فى شخص المحبوب ، فيصبح إرضاؤه وكأنه إرضاء للدنيا كلها ، وإغضابه ومخاصمته ، وكأنه إغضاب ومخاصمة الدنيا كلها ..!!

ومن هنا فعندما يتعامل -الأب والأم والمربي- مع أبنائه بالحب ، يجد نفسه أمام واجبات لا حصر لها ، كلها تصب فى مصب بناء بشري ، على أقوى ما تكون الأسس ، وعلى أجمل ما تكون الصورة ، ولغاية أنبل ما تكون الغايات.

وهذا كلّه يسهّل عملية التربية ..

لن تكون نصائح الأب و المربي مجرد " كلام " جاف وثقيل ، ينتهي أثره بالإنتهاء من ترديده ، وإنما يصبح وكأنه " رغبات " للأبناء أنفسهم ، تجيء على ألسنة أولياء الأمور ..

ولأن كلّا من الأب والمربي يتحول فى هذا المناخ إلى " محبوب " ، سيحرص الابن دائمًا على أن يفعل ما يسعد محبوبه ، ويبتعد عن كل ما يمكن أن يغضبه .. عندئذ ، لا يحتاج الأب والمربي إلى ضرورة التواجد مع الابن للمراقبة ، لأن كلا منهم سيكون قد

استقر فى قلب الابن ووجدانه ليتحول إلى رقيب وموجه ذاتي.."[١] .

لذلك أخي الأب والمربي .. فى كل توجيهاتك لأبنائك ، بيّن لهم أن حبّك لهم هو الذي يدفعك إلى توجيههم ، وحثهم على فعل الصواب ، وسلوك الأفضل .. "روى معاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخذ بيده وقال : " يا معاذ والله إني لأحبك ، والله إني لأحبك ، فقال أوصيك يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك " (أخرجه أبو داود فى سننه صحيح الجامع برقم ٧٩٦٩) ..

لاحظ فى هذه القصة اللمسات التالية :

- الأخذ باليد
- والتقديم بعبارة (والله إني لأحبك)
- تكرار اسمه أكثر من مرة
- عبارة أوصيك .

وكل ذلك يجعل الشخص يتلقى النصح ويعمله فى كل حال من تلقاء نفسه." [٢] .

وحتى إذا تشبث الأبناء بأفكارهم ، وأصبح من الصعب دفعهم إلى التخلي عنها بمجرد الإقناع العقلي ، فإن مشاعر العطف والتفهّم وإبداء الرغبة فى تخليصهم من الأفكار الخطأ .. كل ذلك يساعد على قبولهم لأفكارنا ، واستقامتهم على ما نريده من سلوكيات .. ولذلك نجد النبي ﷺ فى قضية الشاب الذى جاء يطلب إذنًا بالزنا ، و بعد أن سلّم الشاب بمنطقية الحوار الذى دار بينه وبين النبي ﷺ، وبدا مقتنعا بسخافة مطلبه ، نجده ﷺ يظهر تعاطفه وحنوه نحو الشاب ، فـ " وضع يده عليه . وقال : " اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه . فلم يك شيء أبغض

---

(١) تربية الأبناء علم له أصول – د. سعيد إسماعيل علي – ص ٣٧ .

(٢) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د.عادل رشاد غنيم – ص ٤٦ .

للفتى من الزنا ".

إن الضمان الأول لقبول الابن لما يعلمه مربيه أو يطلبه منه إنما هو الحب .. "فما لم يشعر المتربي أن مربيه يحبه ، ويحب له الخير ، فلن يقبل منه ولو أيقن أن عنده الخير كله . بل لو أيقن أنه لن يجد الخير إلا عنده !! وأي خير يمكن أن يتم بغير حب؟!" (١) .

نعم إن طريقة العطاء مهمة كالعطاء ذاته ، ولا بد دائمًا أن نعطي لأبنائنا ما نريده لهم من فهم ووعي ونصيحة على قاعدة دائمة من الحب ..

إن الابن الذى ينشأ على الحب واحترام المشاعر ، هو إنسان يضع كل شىء فى مكانه الصحيح ، يعرف قيمته ومكانته وينافس بشرف مع الآخرين ؛ فينمو مستقبله بين يديه قويًا ثابتًا ... كل ذلك من ينبوع الحب والإحترام يخرج، فتتحول طاقة حبه إلى تعاون مع أبيه .. وبذلك التعاون يقدرون معًا – الأب والابن – على هزيمة كل المشاكل والآلام ، بدلًا من أن يكون الابن جزءًا من هذه الآلام ، وسببًا فى تلك المشاكل .. !!!

إن الابن الذي يتلقى كلمات الحب والاعتزاز من أبويه على ما يقوم به لهما من مساعدة أو ينفذ لهما من طلب .. هذا الابن هو الذي يفرح بمساعدة أبويه كلما استطاع بمبادرات ذاتية .. تضع رضا الأبوين فوق كل مطالب النفس والذات .. بينما من يحرمه أبواه الحب والاعتزاز ، فإنه غالبًا سيلجأ إلى إزعاجهم لتنبيههم إلى حاجته المنسية من جانبهم إلى أن يكون محبوبًا ، ومحبًا أيضًا ...

سيقول الآباء .. ومن منا لا يحب أبناءه ؟ إنهم أحب شىء لدينا فى هذا الوجود!!

نعم .. إننا – كلنا – نحب أبناءنا .. هذه حقيقة ، ولكن كم منا يخبر أبناءه أنه

---

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج٢ ص ٤٥ .

يحبهم .. كم منا يشعرهم بهذا الحب ؟ ..

نعم نحن نتفانى فى العمل الشاق من أجل أبنائنا ، ولكننا لا بد أن «نخبرهم، ونشعرهم» أننا نحبهم ..

فالتعبير عن مشاعر الحب من الأمور التى تزيده وتنعشه ، ، ولذلك كان من وصايا الرسول ﷺ إلينا : " إذا أحب أحدكم أخاه ، فليخبره أنه يحبه " (رواه أبو داود والترمذي) ..

فلا يترك الأب أبناءه يقرؤون ما بين السطور حتى يعلموا أنه يحبهم .. بل يصرّح لهم بذلك .. فالتصريح بالحب أمر هام كما أخبر النبي ﷺ الرجل الذي قال: أنه يحب فلانًا " هلاّ أخبرته أنك تحبه "

فيقول الأب – مثلًا – : " أحمد .. إني أحبك يا بني .. وإني فخور بك " .. " عبد الرحمن رؤيتك فى الصباح وأنت ذاهب إلى مدرستك هى إشراقة صبحي الحقيقي " ... " سمية .. إن وجودك ابنتي فى هذه الحياة يجعلها تبدو أجمل فى ناظري " أحمد ، عبد الرحمن ، سمية " .. " بارك الله فيكم .. حبي لكم يزيد يومًا بعد يوم "

"وإذا دعي الأب إلى وليمة أو عشاء أو نحو ذلك من المناسبات التى قد يدعى إليها الأب . فليحاول قدر المستطاع أن يلصق ابنه به ، ولا يترك بينهما فرجة لإمكانية جلوس أحد بينهما ، وذلك لقوله ﷺ: " لا يجلس الرجل بين الرجل وابنه فى المجلس" ... ولا بد من ملاطفة الأولاد فى المجلس وعدم تحقيرهم ، أو طردهم من المجلس ، فقد كان بعض الأطفال يحضرون مجلس رسول الله ﷺ ...

وكان رسول الله ﷺ يظهر حبه لهم ولا يخفيه ، فيقول عن أسامة بن زيد والحسن : " اللهم إني أحبهما ، فأحبهما " رواه البخاري ج ٥/ ص٣٢ .

.. ومن أعجب ما يروى عن النبي ﷺ فى هذا الباب عن أبي ليلى قال : " كنت عند النبي ﷺ ، وعلى صدره ، أو بطنه الحسن أو الحسين عليهما السلام ، فبال فرأيت بوله أساريع (أي طرائق) فقمت إليه ، فقال : دعوا ابني لا تفزعوه حتى

يقضي بوله ، ثم أتبعه الماء " وفى رواية " لا تستعجلوه"..

إن تربية الأبناء تتحول إلى متعة حقيقية حين نتفاعل مع أبنائنا على أساس الحب واحترام المشاعر ..

والاحترام والحب يعني " ببساطة أن تصبح مسافة الهواء التى تفصل بين جسد الطفل وجسد والديه مملوءة بالدفء ، والدفء ليس حالة احتضان دائم للطفل ، ولكنه حالة اعتزام نفسي بأن هذا الطفل جدير بحبنا ، وأن أخطاءه قابلة للإصلاح .. "[١].

● *أخي الأب والمربي ..*

أحب أبناءك بغير شروط .. أظهر لكل واحد منهم قيمته عندك ، وقدره فى قلبك ..

عانقه .. شد على يديه ، واربت على كتفه أو ظهره .. أخبره أنك تحب الكثير من الأشياء التى يحبها هو .. وتقدر ما يقوم من أعمال .

تقبل أفعال أبنائك بصدر رحب ، تسامح مع أخطائهم ، ولا تكوّن عنهم فكرة مسبقة وتحاول أن تثبتها من خلال أخطائهم ..

إن تربية الأبناء هى فى حقيقتها لحن حب نعزفه نحن الآباء والأمهات ، وعلينا أن نعزف هذا اللحن بثقة واقتدار ، وأن يكون عزفنا بمنتهى الهدوء لأن اللحن طويل جدًا .. فعمر أبنائنا هو طول اللحن الذي يجب ألا نعزفه بخبراتنا وتجاربنا فقط ..وإنما بأنفاسنا المحبة لأبنائنا ..والتى تردد دائمًا " خذ قلبي ، وأرني ابتسامة سعادتك "

فإذا استطاع كل أب ومربي ، أن يستخلص من عناصر قلبه الرحمة

(١) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د. سبوك – ص ١٣٠ .

والاحترام، واللهفة والصبر ، والعفو عن الزلات .. ثم قام بدمج هذه العناصر فى عنصر واحد ، فقد حصل على أغلى الذرات فى تربية الأبناء .. ذرة الحب ..

• مــرآة المشـــاعر :

من الأخطاء الشائعة الاعتقاد بأن دليل محبة الأولاد هو توفير الحاجيات والملابس والهدايا والمآكل الطيبة وما شابه ذلك ، وما ذلك كله بدليل حقيقي على الحب ، وإنما الحب الحقيقي الذى لا ننتبه إليه هو احترام مشاعر الأبناء وتفهم أحاسيسهم ، وعدم انتقادهم وتوبيخهم فى كل مناسبة صغيرة أو كبيرة..

ولا شك أن هذا النوع من الحب هو الأساس القوي لشعور الأبناء بالأمن والاستقرار ، ونمو عواطفهم ، بل وعقولهم نموًا سليمًا ..

كما أن الطفل الذى يشبع من الحب والحنان يكون أميل إلى الطاعة والتعاون والانضباط .. ومن هنا يصبح من الخطأ البين أن يهدد المربي أبناءه بأنهم إن لم يفعلوا كذا فلن يحبهم !!

ذلك أن الطفل الذى يشعر أن والديه لا يحبانه ربما أساء السلوك ليتمتع برؤية والديه وهم يشعرون بالتعاسة لأنه يسيء السلوك !!!!

نعم .. إن النصيحة التربوية هنا أن نشعر أبناءنا أننا نحبهم فى جميع الظروف ، وأننا نفخر بهم على كل الأحوال .. قد لا نحب منهم تصرفًا أو سلوكًا ما ، ونود لو سلكوا غيره ، ولكننا مع ذلك نحبهم .. نحبهم فى كل الأحوال .

ولا شك أن هذا الأمر يحتاج منا – كآباء وأمهات ومربين – أن نشاركهم ما يدور فى نفوسهم من مشاعر .. من خلال جمل تعبّر عن هذه المشاركة .. ولا تحمل روح الانتقاد أو اللوم .

" فعندما تشعر أن الابن يعاني من مشكلة ، ونرى على وجهه علامات الحزن والكآبة .. لا نواجهه مباشرة بقولنا : لماذا وجهك شاحب ؟ ما الذي حدث لك ؟

بل من الممكن أن نبدأ بتفهم مشاعره ومشاركته ما يحس ويشعر :

" يبدو أنك متعب ومهموم بعض الشيء !!

كأنك تشعر بالضيق من يومك الدراسي !!

فهذا الحوار يدل على المساندة والمشاركة ، وتدعيم للطفل ، بإثارة اهتمامه وتشجيعه للخروج من المشكلة ، بينما التساؤل : لماذا وجهك شاحب ؟ تحمل روح الاستجواب والانتقاد ، مما يجعل الطفل في وضع دفاعي ، لا يمكنه أن ينفتح معنا ويعبّر عما يجيش في صدره . " (١) .

وإذن ، فنحن نهتم بما يقول الابن ، ونتعاطف مع ما يشعر به ، ونؤجل اللهجة الآمرة أو الموجهة ، لنعطي الابن بدلًا منها حبًا يطل من عيوننا ، وينتقل إلى أعماق قلب الابن ، فيتحول الابن إلى صديق حميم يبثنا شكواه ، ويسألنا التوجيه والإرشاد .

ولا شك أن طريقنا إلى معرفة ما يفكر فيه الأبناء ، وما يشعرون به ، هم أبناؤنا أنفسهم .. فهم الذين يعطوننا المفاتيح .. فمشاعرهم تأتي من خلال كلمة ونبرة صوت ، من خلال إيماءة ووقفة . كل ما نحتاج إليه هو أذن تسمع، وعين ترقب ، وقلب يشعر .

خذ مثالًا :

عندما يعود الابن من المدرسة للبيت صامتًا يجرجر نفسه في ثقل وبطء ، يمكننا أن ندرك من خطواته أن شيئًا بائسًا قد حدث له . وطبقًا للشعار الذي نؤمن به ، فلن نبدأ حوارنا بتعليقات انتقادية مثل :

- لماذا هذا الوجه النكد الذي " يقطع الخميرة من البيت " ؟
- ماذا فعلت هذه المرة ؟

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا – أكرم مصباح عثمان – ص ١٠٦ .

- أي مشكلة أتيت بها اليوم ؟

.. طالما أننا مهتمون برد فعل الطفل الداخلي ، فستتجنب التعليقات التى تخلق الاستياء والكراهية فى داخله ..

وبدلًا منها ، يمكن للأبوين أن يظهرا الفهم بقولهما أي عبارة مما يلي :

- لم يكن يومًا طيبًا بالنسبة لك .

- يبدو أنه كان يومًا شاقًا .

- يبدو أن شخصًا ما قد ضايقك .

... نريد أن نؤكد مرة أخرى .. إن الطفل يتعلم مما يعيشه ، وإذا عاش على عدم احترام مشاعره ، فإن هذا يدفعه إلى البحث عن أخطاء الآخرين ، والاستخفاف بمشاعرهم .. بل والارتياب فى نواياهم .. " [1] بينما إذا رأى من أبويه تفهمًا لمشاعره ، دفعه ذلك إلى مزيد من التعاون معهم ، فتنتشر روح الاحترام والحب ، تلك الروح التى تفجّر المواهب وتنمي القدرات .

إن لغتنا اليومية مع أبنائنا تفتقد الكثير من احترام مشاعرهم ، بل من احترام ذواتهم ..

إننا ربما لا نعلم ما هي الكلمات التفاهمية التى يجب أن تسبق توجيهاتنا لهم ..!!

خذ مثالًا :

" أشرف (تسع سنوات) يأتي للبيت غاضبًا ساخطًا . كان المفروض أن يذهب فى رحلة مع المدرسة ، ولكنها ألغيت بسبب المطر ..

الأم " بطريقة خاطئة " : لا فائدة من البكاء ... أمامك رحلات أخرى كثيرة .. وما ذنبي أنا حتى تأتي عندى لتبكي ؟

---

(١) بين الآباء والأبناء – د. ج . جينوت – ص ٧٠ ، ٧١ .

... بينما الطريقة الصحيحة أن تحترم مشاعر الابن إزاء إلغاء الرحلة ، وتقدّر أنه حزين لما أصابه من خيبة أمل .وتعلم أنه إنما يظهر لها غضبه لتشاركه مشاعر خيبة الأمل التى يشعر بها ..

الأم : تبدو حزينًا لما أصابك من خيبة أمل .

أشرف : طبعًا.

الأم : لقد أعددت كل شيء ، ثم جاء المطر فألغى الرحلة ..

أشرف : نعم يا أمي .

الأم : أنا أقدّر ما تشعر به ، ولكن ربما كان ذلك خيرًا .. وستأتي أيام أخرى أفضل إن شاء الله ..

... لقد زال غضب " أشرف " تمامًا .. وأصبح على استعداد للتعاون مع أمه فيما تريد ..

إن الابن حين يكون فى خضم عواطفه الجياشه ، لا يستطيع أن ينصت لأحد.

إنه لا يستطيع أن يقبل النصح أو النقد البناء .

إنه يريد منّا أن نفهمه . إنه يريد منّا أن نفهم ما يعتمل فى داخله فى تلك اللحظة بالذات .

علاوة على أنه يريدنا أن نفهمه ، بدون أن يكشف عما يعانيه . إنها لعبة يفشي فيها القليل فقط مما يحس به ، والباقي يحتاج منا إلى التخمين .

مثال آخر :

عندما يقول الطفل لنا :

- المدرّسة ضربتني

- فلا داعي أن نسأله عن مزيد من التفاصيل . ولا داعي لأن نقول له :

- ماذا فعلت لتضربك ؟ لا بد أنك فعلت شيئًا .

... بل نظهر له أننا أدركنا ألمه ، ونفهم ارتباكه ، وضيقه مما حدث له ..

ننظر إليه و ننصت له ، ونستعمل الكلمات التى يعرف منها الطفل أننا نفهم ما يشعر به ، مثل أن نقول :

- لا بد أن ذلك أثار غضبك .

- لا بد أنك تكره المدرسة الآن !!

- لا بد أن شعورك بما مر بك من موقف شعور مؤلم جدًا

.... إن مشاعر الابن تضعف وتخف حدتها ، وتفقد شدتها وقسوتها عندما نتقبلها بالمواساة والفهم والاحترام .

مثال آخر :

عندما يقول الابن شيئًا عن نفسه ، فليس من المرغوب الاستجابة بالموافقة أو عدم الموافقة ، ولكن بتفاصيل تحمل للابن فهمًا أبعد مما يتوقع ، وشعورًا أبعد مما يظن بمشاعره وأحاسيسه ..

الابن : إننى لست موفقًا فى الرياضيات .

.. فى هذه الحالة لا يفيد أن يقول الأب أو الأم : نعم أنت (خيبة) مع الأرقام.

وإنما من الأفضل أن نقول :

- الرياضيات هذا العام تحتوي بعض المسائل الصعبة .

- أنا على ثقة أنك ستبذل ما فى وسعك لتكون أفضل .

.... إن الآباء والأمهات يجب أن يكونوا مرآة مشاعر الابن ، يعكسون له أحاسيسه بشكل صحيح ، لتكون النتيجة أن يحب الأبناء الوقوف أمام تلك المرآة .. أمّا أن تكون مرآتهم تعكس للابن الصورة بقولها : " ما أقبح شكلك !! .. كلك على بعضك كارثة ..!! لماذا لا تفعل شيئًا لتغيير ذلك ؟!! "

فلا شك أن الابن سيتجنب الوقوف أمامها ..

إن وظيفة المرآة العاطفية هى عكس المشاعر كما هي دون تشويه :

- تبدو غاضبًا اليوم يا " أحمد "
- يظهر أن الوضع كلّه لم يعجبك .

.. فهذه العبارات ، لا تحمل موعظة ولا تقريعًا .. ومن ثم فهي فى غاية الفائدة التربوية للأبناء ، لأنها تظهر بوضوح ما هي مشاعرهم ، ووضوح مشاعرهم أمامهم بهذه الطريقة تتيح لهم الفرصة للمبادرة الذاتية للتجميل والتغيير " (١) .

أيها الأب .. أيتها الأم .. أخي المربي :

إن العظمة الحقيقية فى تربية أبنائنا أن نتعامل معهم ونحن مشبعين بروح التفهم لمشاعرهم ، والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطئهم ، والرغبة الحقيقية فى تصويب أخطائهم مع الحفاظ على مشاعرهم وأحاسيسهم عبرمنحهم العطف على أخطائهم ، والود الحقيقي لهم ، والعناية باهتماماتهم وهمومهم ...

ومن ثم يمنحونا هم - فى مقابل هذا الذي أعطيناهم - حبهم ومودتهم وثقتهم ..لأنهم شعروا بالأمن فى جوارنا ، وبالثقة فى مودتنا ، و بالسعة فى صدورنا لكل ما يقولون أو يفعلون .. وقبل كل ذلك وبعده ، شعروا بتفهمنا لمشاعرهم ، وأننا نعكسها لهم كأفضل ما تكون " مرآة المشاعر " .

• قيـــادة القلـــوب :

لا شك أن كلماتنا من أكثر الأشياء التى تساعدنا على توصيل رسائل الحب إلى الأبناء ..

" فم الانسان إمّا أن يجيء بكلمات تزرع فى قلب السامع لها حديقة مليئة بأزهار العاطفة ، وإما أن ينطق بكلمات جافة كأنها المعاول ، فتهدم الجمال فى أعماق الأبناء ، لأنهم يرون تلك الكلمات الخشنة على شفاهنا ، وكأنها خرائب موحشة

(١) بين الآباء والأبناء - د. ج . جينوت - ص ١٧ - ٣٢ .

مليئة بالخفافيش والغربان ..." [١].

وكلماتنا التي نلقيها على أبنائنا لا تكتسب تأثيرها من ألفاظها التي تصاغ منها بقدر ما تكتسب ذلك التأثير من نسمات الحب التي تهب منها على قلوب الأبناء ..

" أنظر أخي الأب والمربي كيف تقول لابنك " من فضلك " و "أشكرك" .. و" كيف أصبحت ؟ " إلى آخر هذه العبارات ..وتأمل هل تلقيها إلقاء كأنها ألفاظ خاوية جافة تعودها اللسان ، أم أنك تلقيها عليه نابضة ينبوعها القلب ، لتحدث المودة بينك وبينه ؟ !! ...

إن من الآباء من إذا سمعته يقول لابنه "من فضلك" أو "شكرًا لك" أحسست أنه يخاطب نكرة لا يعرفه ، بل ربما أحسست أنه يخاطب جمادًا ، لخلو صوته من أى نبرة تدل على المودة .. وهذا أمر يبعث على الأسف ، فإن هذه الكلمات لو استعملت ، وكان فيها نفحة من الحب ، لأفاضت على حياة أبنائنا البشر والسعادة .. ولدفعتهم – بالحب والرحمة – إلى الانقياد لما نريد .. " [٢] .

ومن هنا ، فإن نصيحتي لك أخي الأب والمربي ..

لا تمنح ابنك النصائح فى شكلها المجرد ..

إجعل هذا "الابن" يدرك أنك تمنحه معها بعضًا من راحتك وجهدك وطاقتك.. وأنك سهرت البارحة إلى ساعة متأخرة من الليل لأجله هو.. فقط.. وأنك أخّرت بعض مشاغلك لأجله هو.. فقط.. وأنك مستعدّ لتكرار ذلك مرة ومرتين وألفًا.. من أجله هو.. فقط..

لابدّ أن يشعر بالحرارة فيها وهو يستلمها منك.. لا بدّ أن يشعر بها نديّـة.. رطبة.. بعَرَق ساعديْك .. ليعلم أنك تعبت وأنت تنتزع له نسخة من أعماق ما

---

(١) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د. مبوك – ص ١١٢ .

(٢) كيف تحل مشكلاتك ببساطة – دونالد نورن – ص ١٤١،١٤٢ بتصرف .

تحمله وتؤمن به..

لا بدّ.. أن يُدرك.. أنك ضحّيت.. وحبّذا لو تجعله يرى بنفسه حجم تضحياتك.. حتى تبقى راسخة في ذاكرته.. وتذكّره على الدوام أن بين يديه أمانة.. تستحق الاحتفاظ..

إن تجارب الأمم ، ومشاهدات الأحداث تثبت " أن البشر كبارًا وصغارًا هم كائنات عاطفية في المقام الأول ، والجانب العقلاني فيهم أضعف مما نظن ، ولذا فإن معظم الناس توجههم عواطفهم في معظم شؤونهم ، ويتصرفون على مقتضى عقولهم ومسلماتهم الفكرية .

والأطفال ـ على وجه الخصوص ـ مشاعرهم كاملة وتجاربهم محدودة، ولهذا السبب فإن المسائل العاطفية تكون شديدة التأثير فيهم .

إن عالم الأطفال عالم غريب والتأثير فيه يتطلب أن نتمكن من الدخول إليه ، *فما هو الطريق الذي يوصلنا إليه ، وما هو الباب الذي يمكننا أن نلج منه؟*

ليس هناك سوى باب واحد هو باب اللطف والرحمة والعطف والحنان والبذل ، من خلال الهدية والخدمة والملاطفة والبسمة والنظرة، فتطفح نفوس الأطفال بالسرور والرضا والبشر والأمن ، وفي تلك اللحظة يصبح الباب مفتوحًا للدخول إلى نفوسهم وعقولهم وزرع القيم والمبادىء والمفاهيم والأفكار فيها . "[1]

إنه لا بد للمربي أن يكون صاحب نفس أكبر من نفس المتربي ، وأن يكون عنده ما يعطيه لمن يربيه ، وأن يتقن فن العطاء بحب ، وأن يقوم بإرشاد من يعلمهم باهتمام ومثابرة ..

إن التربية الجافة المعتمدة على الأوامر والنواهي ، والتي تلجم العواطف وتكبتها ، وتدفع الآباء إلى أن يكونوا دائمي الصراخ في وجوه أبنائهم .. تلك التربية

(١) دليل التربية الأسرية – أ. د / عبد الكريم بكار – ص ١٦٨ .

أمر مرفوض لأنها تقسي مشاعر الأبناء وتجمد ينابيع العطاء فى أعماقهم.

أمّا حين نتعامل معهم بالقدر الكافي من الحب ، والتقدير ، فإنهم يتصرفون طبقًا للإشارة العاطفية التى خرجت من قلوبنا ، وصاحبت لهجتنا ونحن نتكلم معهم، فيكون انقيادهم لنا بالتفاعل لا بالقهر ، وبالتفاهم لا بالقسر ، وبالحب لا باللامبالاة والجفاف العاطفي ..

إن القيادة الحقيقية للأبناء هي قيادة القلوب لا قيادة الأبدان .. قيادة الرضا لا قيادة الضغط .. قيادة الحب لا قيادة الإرهاب .. ولن نحصل على أفضل ما عند أبنائنا حتى نستميل قلوبهم فيحبونا ، فإن أحبونا أطاعونا ..

تسألني لماذا ؟

لأن العقل لا يسمع .. حتى يسمع القلب ..

❊❊❊

الفصـــل الثاني

حتى لا يتـآكل الحـب

يعرف الأبناء الكثير عن تكوينهم المادي بالنظر إلى صورتهم تعكسها المرآة .. و يعرفون الكثير عن تكوينهم العاطفي بسماع أحاسيسهم التى نعكسها لهم ..!!

فإذا عكسنا تلك الأحاسيس دون زيادة موعظة أو إضافة تقريع ، أحب أبناؤنا الوقوف أمامنا كمرآة لمشاعرهم .. وإلا ، تجنبوا مرآتنا إلى مرايا أخرى قد تكون خادعة ..!!

لذا وجب علينا كآباء أن يكون شعارنا فى مواجهة مشاعر الابن هو : دعني أفهم . دعني أظهر أنني أفهم . دعني أظهر وأعبّر عما يدور فى نفسك من مشاعر .. من خلال جمل تعبر عن مشاركتنا مشاعره .. ولا تحمل روح الانتقاد أو اللوم .

• هل تتقن لغة المشاعر ؟! :

حين نراعي مشاعر أبنائنا ، فإن الحب والمودة معهم يزداد يومًا بعد يوم .. أمّا إن أهملناها ؛ فإن هذا بالضرورة يبعدهم عنا !! نعم ، إن حدوث ذلك الإهمال مرة أو مرتين لن يدمر حبهم لنا ، ولكن تراكم هذا الإهمال قد يدمر علاقتنا بهم .

إننى أتذكر جيدًا كيف كان أبي رحمه الله إذا حدثت أمور صغيرة ككسر لشيء أو خدش لأثاث أو غيرها ، كيف كان يقول : " فداءك .. كل شيء يمكن إصلاحه .. أهم شيء أنك بخير " ..

إنني أذكر كم كانت هذه الكلمات تبث الطمأنينة فى داخلي .. إن كلماته كانت تعني أن مشاعري مقدمة عنده على أى شيء آخر.

فإذا كان الابن يحتاج الأب لأى سبب ، فإن أفضل ما يمكن عمله فى هذا الوقت هو أن يكون الأب بجانبه .. فالأولوية دائمًا يجب أن تكون لمشاعر الأبناء .. والتعامل معهم يجب أن يكون عبر "لغة المشاعر" .. تلك اللغة الصامتة التى تشعر أبناءنا بالحنين الدافىء لقلوبنا ، والحرص الواعى لعقولنا، والسمع المنصت لرسائلهم إلينا "أرجوك لا تهمشنى .. أريد من يفهم ما أنا فيه " .. تلك الرسائل من أبنائنا تريد منا فهمًا واعيًا يبحر داخل مشاعر الآخر ليعرف لماذا يتصرف بهذا التصرف ؟ .. فإذا عرفنا الإجابة تبادلنا معهم مشاعر الحب والتقدير والاهتمام الحقيقي ..

خذ مثالًا على ذلك " قصة ثمامة بن آثال ، حينما فهمه سيد البشر ﷺ وقرأ ما بين أسطر مشاعره ، حينما كان مربوطًا فى سارية المسجد ، وهو لا يريد أن يسلم وهو فى الأسر ، بل يريد " حرية الإختيار" قبل " اختيار الحرية " فيفك النبي أسره ، فيسلم ويردد قائلًا " يا محمد ، والله ما كان على وجه الأرض أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي " ..(أخرجه البخاري برقم ٤٣٧٢ ، ومسلم برقم ١٧٦٤) .

إن مما يعين الأب و المربي على التعامل الأصوب مع أبنائه أن يتقن "مهارة قراءة المشاعر " ..

فإذا عرف مشاعره ، واكتشف مشاعر أبنائه ؛ فإن النتيجة البديهية هى إمكانية السيطرة على مشاعره وإدارتها إدارة مفيدة ، وتوجيه مشاعر أبنائه والتعامل معها بحكمة تهتم ببعضها وتهمل الأخرى ؛ .. ومن ثم تؤدى إلى التآلف والاتفاق والطاعة المحبة .

أخي الأب والمربي :

إن كل من حولك من صغير أو مراهق ، كل له أنين داخلي يصرخ "افهمونا يا ناس " ..

ولا بد أن تحسن التعامل مع هذه الأصوات الداخلية ، وأن تعرف جيدًا كيف تميز بين تلك الأصوات .. صوت الصغير .. صوت المراهق .؟. وغيره .. وفى كل الأحوال تحاول إخراج الإنسانية فى كل أحد . عبر تلك اللغة الوحيدة التى تقوي التواصل مع الأبناء ، وتعمق الحب بينك وبينهم ..

إن "الكبار والصغار يشتركون فى حاجتهم للفهم والمشاركة بدل الانتقاد والنصح عندما يخطئون التصرف ، حتى يستفيدوا من تجاربهم فى تطوير شخصياتهم، وبالتالى لا بد من إعطاء وتوفير هذا الحق للطفل إذا أردنا تنشئته بطريقة متزنة .

فإعطاء الطفل حقه وقبول الحق منه ومشاركته يغرس فى نفسه شعورًا إيجابيًا نحو الحياة ، ويتعلم أن الحياة أخذ وعطاء ، ويتدرب على الخضوع للحق لكونه يرى أمامه قدوة صالحة .. ويتعود العدل فى قبول الحق ورضوخه له ، فتتفتح طاقته لترسم طريقها فى التعبير عن نفسه ومطالبته حقوقه ، وعكس هذا يؤدي إلى كبتها وضمورها .

فهذا رسول الله ﷺ يستأذن غلامًا على يمينه لكي يتنازل عن حقه ليعطيه للكبير الذى على يساره ، فإذا بالطفل لا يؤثر سؤر رسول الله ﷺ على نفسه لأحد أبدًا فيعطيه رسول الله ﷺ الإناء ليشرب ويهنأ فى الاستمتاع بحقه .

أخرج البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بشراب فشرب منه ، وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ فقال للغلام : " أتأذن لي أن أعطي هؤلاء ؟ " فقال الغلام : لا والله يا رسول لا أؤثر بنصيبي منك أحدًا ، فتلّه – أى وضعه – رسول الله ﷺ فى يده."[1].

فإذا أردت – أخي المربي – سلطة مطلقة على أبنائك دون جرح مشاعرهم أو

(١) الانصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ٣١-٣٣ .

الحط من كرامتهم ، فيمكنك صياغة أوامرك فى صورة مقترحات .. " تحدد لأبنائك ما يجب عليهم عمله .. والوقت المحدد لذلك " ثم تترك لهم حرية اختيار الوسائل للقيام بهذه الواجبات ..

إن تلك الطريقة - بجانب أنها تحافظ على مشاعرهم - تحقق أمرًا مهمًا هو الرفع من إحساسهم بالمسؤولية ، وفى ذات الوقت زيادة قدراتهم الإبداعية..

أخي المربي .. إن الأفراد لا يستجيبون للأوامر المباشرة إلا فى الخدمة العسكرية ، وكلنا يعلم نوع هذه الإستجابة !!، أمّا إذا أردت الحصول على طاعة أفضل وأعمال أكثر إتقانًا ، فإن السبيل الصحيح إلى ذلك هو الأوامر المخفية فى صورة مقترحات ..

إن أبناءنا بشر لهم مشاعر وأهداف ومنطلقات فى الحياة ، ليسوا آلات نحركها كما نريد ، وهم يحبون أن يفهموا كما يحبون أن يطيعوا .. ولا بد من التعامل معهم على أساس من الإنسانية متمثلين سلوك سيد البشر ﷺ الذى أخبر عن الخدم بقوله: " إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، وإذا كلفتموهم فأعينوهم " (أخرجه البخاري برقم ٣٠ ، ومسلم برقم ١٦٦١) .

" إن تآكل الحب بين الآباء والأبناء قد يحدث لأن أيًا من الأب أو الأم لا يضع مشاعر الابن موضع الاعتبار .. فالطفل فى هذه الأحوال يأكل فى موعد محدد، ولا بد له أن ينفذ ذلك .. والطفل يجب عليه أن يتصرف باتزان ، وإلا فهناك العقاب الصارم .. ومن ثم تتفجر طاقات عدم الاحتمال فى نفوس الأبناء نحو الآباء والأمهات .. فيتمردون على تحويلهم إلى مجرد قوالب نصب فيها ما نريد من مأكل أو أخلاق أو سلوكيات ... "[1] .

(١) تربية الأبناء فى الزمن الصعب - د. سبوك - ص ٨٦ بتصرف يسير .

ومن هنا فإن الوصية التربوية :

اهتم بمشاعر الابن ولا تهملها ، واعلم أن رعاية مشاعر الأبناء فى وقتها هى من أهم الأشياء لهم ، وهي أهم عندهم من المال وكل ما تملكه من أشياء ... فلا تكن سخيًا بالمال ، بخيلًا بالمشاعر والمعنويات .

وإيّاك وجرح مشاعره أو تحقيره ، فالنفس لا تحب أن تظهر ناقصة أمام الآخرين ، وتكره من يحاول أن يظهر عيوبها ،.. وترفض بالتالي ما يقدمه لها من نصائح – ربما – على سبيل العناد ..!!

- **تفهـــّم إحتياجات أبنائك :**

من الأمور التربوية التى يجب مراعاتها بدقة كيفية التعامل مع "احتياجات الأبناء المادية والصحية والنفسية والاجتماعية ، والاهتمام بالبذل والصلة والتفقد لكل ابن ، والتعامل معه بعطف وتعاون .. وهذا من أهم ما يدفع الأبناء إلى التعاون مع الآباء .. فكيف نربى أحدًا دون أن نسد جوعه أو دون أن نزيح العوائق النفسية والمادية التى تعوقه ، وكيف نعدل سلوك أبنائنا دون أن نشعرهم بالنصرة والتأييد والإحترام ... " [١]

ومن الأمثلة على هذه الاحتياجات التى يجب مراعاتها أثناء التعامل مع الأبناء وتربيتهم " أن لا نمنع الابن من النوم عندما يحتاج إليه ، ولا نطالبه فى هذه الحالة بأداء أعماله أو القيام بأنشطته ... ولا نلجأ أبدًا أمام تأخر الأعمال والواجبات المدرسية إلى إلزام الأولاد بالقيام بها وتنفيذها وهم فى حالة الحاجة إلى النوم وعدم القدرة على مقاومته " [٢].

وكذلك إذا واجهنا الأبناء بسلوك لا نرضاه منهم ..فإن من الأهمية بمكان أن نصف رأينا بشأن ما يشعرون ، ونؤكد على أننا نشاركهم أحاسيسهم كأن يقول الأب : « إننى أشعر أنك مضطرب ، هل تريد أن تقول شيئًا ؟».

---

(١) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٢) المصدر السابق – ص ٨٦ .

ويحاول اكتشاف الأسباب التى تقبع وراء سلوكهم السيء ..

خذ مثالًا .. الغضب :

فأكثر الأبناء لا يمتلك القدرة اللازمة للتحكم فى عواطفه أثناء الغضب[1]، بسبب مشكلات معينة ، فإذا وقفنا عليها ، أمكننا تعليمه طرقًا بديلة للتعامل معها بدون غضب ..!!

إن ما يشعر الأبناء بالغضب يكون غالبًا إفتقاد الحب أو فقدان التقدير ..

ومن هنا يكون التعاطف والتعامل مع الأبناء بانفتاح عاطفي هو خير أسلوب لعلاج غضبهم ..

قل لابنك : " إذا كنت غاضبًا ، فلابد أن هناك سببًا وجيهًا لذلك ، أخبرنى ما هو .. ".

" لقد أغلقت الباب بعنف شديد ، وهذا يشعرني بأن هناك ما يحزنك "

.. " لا أستطيع أن أجبرك على التحدث إذا كنت لا ترغب فى ذلك ، ولكني آمل أن تغير رأيك ، لأن التحدث عما يضايقك يخفف عنك .. إني أكره أن أراك حزينًا هكذا ..».

ولا شك أن مما يساعد الابن على الانفتاح الحواري معك ، وبث الشكوى لك أن يسود كلامك معه الحب واحترام المشاعر و حسن التساؤل .. وكل ذلك يمكن أن نجمله فى كلمة واحدة " الذوق " ..

فالذوق " أن تكون قادرًا على أن تقول الكلام المناسب فى الوقت المناسب ودون إساءة لابنك ، وتكون الحاجة أمس لمزيد من المهارة والذوق عند التعامل مع المواقف الحساسة ، ولذلك يجب أن يكون لدينا الحس السريع والدقيق للموقف ، وما هو أفضل ما يقال فيه ....

---

(١) بل وكثير من الآباء أيضًا .

وحتى نتحلى بالذوق لا بد أن نكون على فهم جيد للطبيعة البشرية، كما يجب أن ننظر إلى مشاعر أبنائنا نظرة تعاطف " [(١)] وأن ندخل ما عندنا من حكمة على الابن بهدوء .. فالطريق الضيق " بين جدارين ، و الذى لا يتسع إلا لمرور سيارة واحدة فحسب ، لا تدخلها السيارة إلا برفق من قائدها وحذر وتوق ، بينما لو أقبل بها مسرعًا وأراد المرور من هذا المكان الضيق لاصطدم يمنة ويسرة وتعطلت سيارته ، والطريق لم يزد ولم ينقص ، والسيارة هى هى ، لكن الطريقة هى التى اختلفت ، تلك برفق وهذه بشدة " [(٢)] .

" إننا بشكل عام نلجأ إلى القوة التى نستمدها من وضعنا كآباء فى فرض ما نريد أو منع ما نريد، وقليلًا ما نتذرع بالصبر والتفهم لمساعدة أولادنا على النمو فى الاتجاه الصحيح.

وقد نغلب فى معركة القوة ، ولكن على حساب ضعف العلاقة وضمور الانضباط الذاتي لدى طفلنا .

ومن السهل استغلال القوة والحصول على ما نريد لكن النتيجة المتوقعة تحطيم المشاعر وإعاقة النمو .

إننا نهدف ونحن بصدد معالجة السلوك غير المقبول أن نراعي التوازن بين السلوك الذى نريده وبين مشاعر الابن ، بمعنى أننا إذا أردنا من الطفل أن يمارس الفعل المناسب فينبغي أن نهتم فى الوقت ذاته برعاية ذات الابن ومشاعره " [(٣)] .

فالابن يدرك مشاعرنا تجاهه ويركز عليها ولا يهتم للتوجيه إذا كانت المشاعر تجاهه سلبية – وقت ارتكابه الخطأ – مثل الغضب منه أو الحيرة تجاه سلوكه .

---

(١) ٢١ يومًا للحصول على القوة والسلطة فى تعاملك مع الآخرين – جيمس ك . فانفليت – ص ٣٩ بتصرف يسير .

(٢) لا تحزن – عائض القرني – ص ٤٤٦ .١

(٣) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د.عادل رشاد غنيم – ص ٨٣ ، ٨٤ .

لذا .. أتمنى أن يتقبل الآباء أبناءهم كما هم وأن يتحملوا أخطاءهم ، وأن يراعوا مشاعرهم ، وأن " ينتبهوا جيدًا إلى أخذ الأمور دائمًا فى حجمها الطبيعي ولا يصنعون " من الحبة قبة " ولا يحومون حول الأبناء وكأنهم مجرمون صغار يقومون بالتحضير لجريمة ما " (١).

إن الآباء الواثقين من أنفسهم لا يلحون على أبنائهم ، وإنما يتناقشون معهم بهدوء وتعاون ، ولا يقومون بمطاردتهم على لا شيء وكل شيء ، وإنما يتفاعلون معهم على أساس من إحترام مشاعرهم واستقلالهم وتفردهم.

فإذا أردت أن تكون أبًا ناجحًا ، فعليك أن توقن أنك لست قائدًا حربيًا تشرف إشرافًا دقيقًا على تحركات ابنك ، وإنما كل جهدك هو فى إيجاد رؤية مشتركة بينك وبينه للوصول إلى الإختيار الأفضل ..

قدّر مشاعر أبنائك ولا تلجم عواطفهم أو تكبتها فتصرخ فى الابن " كن رجلًا ولا تبك " أو تمنعه من أن يختبيء داخل جسدك الكبير ، بل احتضنه وأكرمه واعلم أن التربية الجافة تقسي مشاعره وتجمد ينابيع العطاء فى أعماقه .. ونشير هنا – بالمناسبة – إشارة عابرة إلى أن مثل هذا كان السبب فى جفوة عمر رضي الله عنه فى الجاهلية . فقد كان أبوه – الخطاب – شديدًا جافيًا عليه ، نابذا له واجدًا عليه ، فنشأت فيه تلك القسوة والشدة التى كان يشكو منها المسلمون قبل أن يسلم عمر ويتعدّل بناؤه النفسي كله بلمسة الإيمان ." (٢)

أيها الآباء .. أيها المربين ..

لا تحكموا أبدًا على أفعال الابن قبل الوقوف على ما ورائها ..

لا تتصرفوا كجلادين ، ولا تتخذوا القرارات كالقضاة ..

---

(١) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د. سبوك – ص ٩٢ .

(٢) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ص ١١٦ .

تذكروا أن إيمانكم بأبنائكم يساعد على تحسين أفعالهم وتطوير قدراتهم.

إن أى أحمق يسعه أن يلوم ويتهم وينتقد ويوبخ .. بل إن هذا ما يفعله أكثر الحمقى!

وإنما صاحب الحكمة فى التربية يحاول أن يتفهم ويلتمس الأعذار، ويستر ولا يشهّر الزلات، ويرحم ويحتمل ويشفق، وينبه ويعلم برفق..

- **انتقــد السـلوك .. لا الابن :**

يجب الابن أن يشعر بأنه شخص هام .. وأفضل وسيلة لإشعاره بذلك هى المعاملة الحسنة من أبيه، وتقبله له بالحال التى هو عليها، وحبه له بغض النظر عن زلاته [1]، وتأكيد ذلك الحب من خلال القول: " إننى أحبك، ولكن تصرفك فى هذا الأمر لا يعجبني " .

فإذا حصل الابن مثلًا على درجة غير جيدة فى مادة العلوم، فقل: " لا عليك، إن لديك فرصة أخرى لتحسين هذه الدرجة، فقط تحتاج إلى الاستذكار بجد، وإني واثق أنك ستحصل على أعلى الدرجات " هكذا تتحدث معه ـ إذا أخطأ ـ حديث الصديق المحب ..

إن الرسالة الأكثر أهمية التى يريد الأب والمربي هنا أن ينقلها إلى الابن هي أنه يحبه حبًا غير مشروط، ذلك الحب الذي يعني" قبول الابن بمزاياه وعيوبه . فنحن نحب الشخص وليس بالضرورة أن نحب التصرف نفسه. فنحاول أن نفصل الفعل عن الفاعل، وأن نفصل كذلك الأقوال عن الذوات، فعندما يسيء ابنك التصرف فمن الطبيعي أن تستاء من تصرفه ولكن يبقى بإمكانك أيضًا عدم الغضب والمحافظة على الهدوء، وهذا ليس بالأمر السهل؛ بل يحتاج إلى التدريب والمثابرة"[2].

(١) لا يعني ذلك تشجيع زلاته

(٢) مجلة ولدي العدد ١٣ – ص ٥٤ .

ولكن فى كل الأحوال : تفصل الفعل عن الفاعل ..

فلا تقول للابن مثلًا : لماذا أنت غبي هكذا ؟

وإنما تقول : يابني ، عليك المذاكرة بجدية أكثر .

" يقول ربنا عزوجل لرسوله ﷺ فى عشيرته : " فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون " ولم يقل إني برىء منكم مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب ، وإلى هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له : " ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ؟ " فقال : " إنما أبغض عمله وإلا فهو أخي وأخوة الدين أوكد من أخوة القرابة " [(١)].

إن بعض الآباء يحلو له " تهديد الابن بوقف حبه له وعطفه عليه .. " كن مؤدبًا وإلا فإننا سوف لا نحبك" أو"لا أحب الأبناء الذين لا يقومون بما أطلبه منهم" ..

بل على العكس يجب أن يعرف الابن أن الأب يحبه فى جميع الظروف .. وأن الأب يفخر به إذا كان أول فرقته ، ولكن حبه لا ينقص قدر أنملة إذا لم يكن له نفس الترتيب !!! " [(٢)]

وحتى عندما ينتقد بعض سلوكياته ، فهو يقتصر على السلوكيات ، ويحذف كل التعليقات السلبية حول شخصية الابن ..

خذ مثالًا ..

رامى (١٠ سنوات) أراق اللبن عن غير قصد ، فوق مائدة الطعام عند الإفطار .

الأم : لست صغيرًا حتى لا تعرف كيف تمسك بالكوب ! كم مرة قلت لك يجب أن تكون حريصًا !!

---

(١) كيف تنتقد الآخرين – أكرم عثمان – ص ٦٢ .

(٢) سياسات تربوية خاطئة – محمد ديماس – ص ٧١ .

الأب : إنه أخرق .. إنه هكذا دائمًا ، وسيظل هكذا دائمًا .

لقد سكب (رامي) حليبًا لا يساوي الكثير من المال، ولكن السخرية اللاذعة التى تلت الحادث قد تكلف كثيرًا كثيرًا فى مجال فقدان الثقة .

والنصيحة التربوية هنا : عندما تحدث أمور بشكل خاطىء ، فليس الوقت مناسبًا لتعليم المخطىء عن شخصيته .. بل من الأفضل التعامل مع الحدث ، لا مع الشخص .

والتصرف الصحيح فى مثال (رامى) :

الأم : أرى الحليب قد انسكب على المائدة .. لا بأس .. ها هي إسفنجة فلنحاول تنظيف المائدة .

" ينظف رامى المائدة ، وتساعده أمه فى نفس الوقت .. هكذا بدون أية تعليقات جارحة . "[١] .

هكذا .. تركيز الانتقاد " على سلوك الابن ، وليس على شخصه ، لأن هذا يجعله يحاول تغيير أفعاله وتصرفاته ، مع بقاء ذاته وكرامته مصانة ..

فعلى سبيل المثال :

"أعرف يا راشد من علمي بك أنك نادرًا ما تهمل واجباتك الدراسية".

بهذا الأسلوب نتمكن من مساعدته على أن يثق بنفسه ، ونبرز له الأخطاء بصورة تحافظ على كبريائه وشخصيته .. ولا نتعمد أن نؤذيه ونقلل من شأنه .. بمثل قولنا : " راشد أنت لا تنفع فى شىء أبدًا ، ولن تنفع فيه ما حييت " !!

ماذا علينا لو أننا رفعنا من روحه المعنوية ، وأيقظنا همته لكي يتحمل

---

(١) بين الآباء والأبناء – د.ج.جينوت – ص ٤٢ بتصرف يسير .

مسؤولية تصرفاته وأفعاله كقولنا :

" كلي يقين أنك سوف تنجح فى محافظتك على نظافة ملابسك إن ركزت جيدًا فى هذا الشأن " .

وماذا لو غرسنا فى نفسه القدرة على القيام بذلك وتجاوز هذا الإهمال والاتكالية التى يمارسها فى حياته ، علاوة على إبراز جوانب القوة فى شخصيته ومساعدته فى الوصول إلى الحلول المناسبة لمعالجة ما يقع فيه من أخطاء ، كي يرتقي بنفسه وبسلوكه .

فعلى سبيل المثال :

الخطأ : " مريم أنت فتاة كسولة " .

الصواب : " مريم لديك بعض التقصير فى الاعتناء بنفسك ".

الخطأ : " تتصف يا أحمد بالغباء " .

الصواب : " أحمد .. عليك الإهتمام بمذاكرتك وتحسين مستواك الدراسي.."[1] .

وإذا كسر أحد الأبناء شيئًا داخل المنزل . حاول الأب أن يحتفظ باتزانه الانفعالي ، ليبقي على حبه للابن ، رافضًا فى الوقت ذاته سلوكه السيء .. ثم يخاطبه بثقة فى قدرته على التغيير للأفضل : " كلي يقين أنك سوف تنجح فى الحفاظ على حاجات المنزل جيدًا والتعامل مع ما فيه بشكل أفضل .."

وتبقى هذه هى طريقتك – أخي الأب والمربي – فى التعامل مع السلوكيات السيئة ..

" فإذا أرسلت أحد أبنائك – مثلًا – ليشتري شيئًا ، فأخطأ فى عد النقود، أو كسر شيئًا مما اشتراه ، فلا تقل له : " ليتني ما أرسلتك " أو " الحق علي أني وثقت فيك ، واعتمدت عليك " أو " أين عقلك ؟ " .. إلى آخر هذه العبارات التى تسبب

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا – أكرم مصباح عثمان – ١٠٨ ، ١٠٩ .

له إحباطًا شديدًا يترك أثره التربوي السيئ فى نفسه .

وكذلك إذا طلبت من طفلتك أعمالًا فى المطبخ ، فلم تنجح فيها كأن لا تحسن تقطيع الطماطم أو لا تتقن غسل الخضار أو لا تنظف الأطباق جيدًا ، لا تقولي لها : " اذهبي للعبك فما زلت صغيرة .. كان علي أن أفعل هذا بنفسي " .

... بيّن لابنك خطأه بهدوء ، واطلب منه أن يعيد ما كلفته به بصورة صحيحة إن كان هذا ممكنًا ، وأفهمه أننا جميعًا نخطيء فى بدايات تعلمنا ، وأن الخطأ لا يعني العجز أو الفشل "[1].

وإذا رأيته يفعل أشياء لا تحبها ، أو أفعالًا غير مقبولة ، فأفهمه أن العيب ليس فيه كإنسان ، بل إن الخطأ هو في سلوكه .

قل له : " لقد فعلت شيئًا غير حسن " بدلًا من أن تقول له " إنك ولد غير حسن " .

وقل له " لقد كان تصرفك مع أخيك قاسيًا" بدلًا من أن تخبره " إنك ولد قاسي " .

ولا تقل إن الابن "قذر" ولكن قل إنه يبصق على الأرض ، أو يلقي بالفضلات فى الشارع ، باعتبار أن هذه حقائق لا تقبل الخلاف ..فقط.. نَصِف السلوكيات بدقة وبأمانة .. وليس بما نراه نحن تفسيرًا للسلوك ..

وعليك مع ذلك بالرفق فى توجيه النقد ، و تأسى فى ذلك برسول الله ﷺ عند النقد لشخص ما بقوله " ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ".

روى البخاري عن أنس بن مالك قال ، قال رسول الله ﷺ: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى صلاتهم»، فاشتد قوله فى ذلك حتى قال: «لينتهين عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم».

(١) الإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ٨٤ .

فالنقد للسلوك الخطأ .. مع بقاء الحب والثقة ..

والستر وعدم فضح الزلات هو طريقة النقد ..لأن الستر عمل إيجابي يهدف إلى الإصلاح والتعديل وحفظ الكرامة وصيانة السمعة ..

إن احترام كينونة الابن وصون كرامته يجعله دائم التطلع إلى بناء جسر من الثقة والمودة بينه وبين من يقوم على انتقاد بعض تصرفاته وسلوكه ، فإن للكلمات اللطيفة والمهذبة أثرًا مهمًا فى الاحتفاظ بكرامة الشخص وخصوصًا إذا تم التركيز فى النقد على سلوك الفرد لا على شخصيته ، وذلك عندما يرتكب الأخطاء أو الممارسات غير الصائبة ؛ لأن هذا ما يهمنا فى تقويمه وتصحيح أفعاله وتصرفاته ، مما يجعل الأمر قابلًا للتعديل والتحسين .

إن النقد الموجه للأبناء وليس إلى سلوكهم يترتب عليه أمور فى غاية الخطورة، فهو يحد من قدراتهم وإبداعهم وتفوقهم فى العمل ، بل إنه قد يحطم ما لديهم من قيم وقواعد أخلاقية .!!

خذ هاتين العبارتين مثالًا لما نقصد : " أنا أكرهك " أم " أنا أكره هذا السلوك فيك " .. أيتهما أفضل ؟

وهذه هى طريقة الأنبياء مع أقوامهم : " قال إنى لعملكم من القالين " .. الكراهية موجهه للعمل الفاحش ، ومعنى القالين أي الكارهين .

ولذلك لما جيء بشارب الخمر ونال العقوبة على ذنبه فقال بعض القوم له : أخزاك الله ، فقال رسول الله ﷺ: " لا تقولوا هكذا لا تعينوا عليه الشيطان " (رواه البخاري – رقم ٦٧٧٧).

ومثل هذه المواقف علمت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يتصرفون مع من يأتون الخطأ ، فقد مر أبو الدرداء على رجل قد أصاب ذنبًا ، فكان بعض القوم يسبه ، فقال :

"أرأيتم لو وجدتموه فى قليب " حفرة " ألم تكونوا مستخرجيه ؟ قالوا : بلى ، قال : فلا تسبوا أخاكم ، واحمدوا الله الذى عافاكم ! قالوا : أفلا تبغضه ؟ قال : إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخى "(١) (أخرجه أبو نعيم فى الحلية).

- *أخي الأب .. أختي الأم .. أخي المربي :*

أحب أبناءك الحب العملي ، ووضح لهم خطأهم برفق ولين ، اصبر عليهم ، وتغافل عن أخطائهم أحيانًا ، اجعل من نفسك قدوة لهم ، واغرس السلوكيات السليمة فى نفوسهم ، استخدم فى ذلك أنجح الأساليب .. أسلوب الحب ..

واعلم أنه حتى لا يتآكل الحب بيننا وبين أبنائنا فنحن فى حاجة أن نعرف لغة مشاعرهم ، فنحبهم فى كل أحوالهم.. ونصوّب سلوكياتهم دون تحقير ذواتهم .... ونقوم بالتأكيد على جوانب القوة لديهم .. و نقبل جوانب الضعف فيهم .. "نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم" .. ونستمتع بأبوتنا لهم .. كل ذلك فى علاقة حب لا يتآكل ..

❁❁❁

---

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د/ عادل رشاد غنيم – ص ٣٠

الفصـــل الثالث
التوبيخ يهتك حجاب الهيبة

نميل نحن الآباء عند رؤية السلوكيات غير السوّية لأبنائنا ، أن نصيح ونصرخ وربما نضرب غاضبين .!!

وكل تلك التصرفات تشبه إلى حد كبير البنزين الذى لا يزيد النار إلا اشتعالًا ، بينما إذا أردنا لنار السلوكيات السيئة أن تنطفيء ، فإن لذلك سبيل واحد هو التوقف عن التوبيخ والصراخ ، والبداية فى طريقة أخرى للعلاج لا تقوّم الأخطاء عبر التحقير والتشهير والسخرية ...، ولا تعطي محاضرات التوبيخ والغضب ، بل تعطي حزن الأب على سلوكيات الابن ، أو فهمه لدوافع تلك السلوكيات ..!!

- **الستر مطلب شرعي وحق مرعي :**

لا شك أن الستر مطلب شرعي فى حق المسلم الذى يظهر منه الصلاح ، ولم يجاهر بالخطأ .. قال ﷺ: «من ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»(1).

ومن هنا وجب علينا الستر على أبنائنا وعدم التشهير بأخطائهم ، خاصة تلك التى يستترون بها عنا ..

كما أن التجسس وتتبع العورات من الأمور التى نهي عنها شرعًا ، بل المطلوب معاملة الابن بما يظهر منه وإعطائه حقوق المسلم من الستر إنتظارًا لفيئه ورجوعه عن الخطأ .. بل لا بد مع الستر من طلب مؤالفته بالتشجيع والهدية ..

---

(1) متفق عليه ، صحيح البخارى كتاب المظالم الباب (٣) وصحيح مسلم كتاب البر والصلة برقم (٥٨).

فقد كان من هدي النبي ﷺ إذا رأى شيئًا من أصحابه أو بلغه عنهم شيء ، وأراد أن يدلهم على الحق فيه أنه لا يصرح بأسمائهم ، ولكنه يلمِّح فيستر عليهم ويحصل مقصوده من النصح فيقول : "ما بال أقوام قالوا كذا وكذا " .

كما في قصة الثلاثة الذين أتوا بيوت رسول الله ﷺ، وسألوا عن عبادته فكأنهم تقالوها ، فقال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبدًا . وقال الآخر : وأنا أصوم فلا أفطر . وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا .

فقال ﷺ: « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ».

ثم قال : «ولكني أصلي وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» [رواه البخاري ٩ / ٨٩ ، ٩٠ – ومسلم ٩ / ١٧٦] .

إن من طبيعة البشر الخطأ والتقصير ، ولم يجعل الله العصمة لغير الأنبياء والمرسلين ، لذلك ينبغي أن نتوقع الزلل من أبنائنا ، فاذا حدث هذا الزلل وجب علينا الستر وعدم هتك عوراتهم .. فعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة في المدينة ، فبينما نحن نمشي إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه، فلما دنونا منه إذا بباب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط ، فأخذ عمر بيدي وقال : أتدرى ببيت من هذا؟ قلت: لا، فقال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شرب فما ترى؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهانا الله عنه، قال الله تعالى : "ولا تجسسوا " فرجع عمر وتركهم.

وهذا يدل على وجوب الستر وترك تتبع العورات ، وقد قال رسول الله لمعاوية : " إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم " [رواه أبو داود].

وهنا نتعلم نقطة في غاية الأهمية وهي عدم مراقبة الابن والتجسس عليه وفضحه إذا أخطأ ، وفي هذا يقول الإمام الغزالي : " فإن خالف في بعض الأحوال

مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره .. لا سيما إذا ستره الابن ، واجتهد فى إخفائه ؛ فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة ، فعند ذلك إذا خالف ثانيًا فينبغي أن يعاقب سرًا ، ويعظم الأمر فيه " (١)

إن التربية الصحيحة لا تعني أبدًا المحاسبة على كل هفوة ، بل " المربي الحكيم يتغاضى أحيانًا أو كثيرًا ما يتغاضي عن الهفوة وهو كاره لها لأنه يدرك أن استمرار التأديب عليها قد يحدث رد فعل مضاد فى نفس المتربي .. ولكن إهمال التأديب ضار أيضًا .. ومن هنا تظهر حكمة المربي وخبرته فى معرفته الوقت الذى يجب فيه أن يتغاضى ، والوقت الذى لا بد فيه من التأديب .. فالتغاضي شيء ، والغفلة عن النقائص شيء آخر .. فالأول قد يكون مطلوبًا بين الحين والحين ، أما الثاني فعيب فى التربية خطير . " (٢) .

ذلك أن الغفلة عن الأخطاء والتستّر عليها لا يلغيها ، بل على العكس يساعد على نموها وتكرارها .. حتى يكون الانفجار السلوكي الخاطىء الذى يدمّر كل شيء ..!!

يقول أحد جنرالات الحرب : " إن الحرب نفسها لم تكن خطأ ، ولكنها كانت نتيجة لتراكم ثلاثين سنة من الأخطاء " (٣) .

ولكن عدم التستّر على الأخطاء لا يعنى أن المراقبة الدقيقة والمحاسبة الشديدة ، أو التجسس على الابن وتفتيش غرفته – مثلًا – هى أسلوب التربية الأفضل وصورة التعامل الأنفع ، بل على العكس فإن هذه الطريقة تسبب انعدام ثقة الأبناء فى أنفسهم ، وتدفعهم إلى العناد ، والأسوأ من ذلك أن هذا الأسلوب يدفعهم إلى التبرير بكل الوسائل حتى الكذب ... !!!!

---

(١) إحياء علوم الدين – أبو حامد الغزالي – ج ٣ ص ٧٠ .

(٢) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج ٢ ص ٤٧ ، ٤٨ بتصرف .

(٣) مختصر دراسة التاريخ – أرنولد توينبي . ترجمة فؤاد محمد شبل .

فمن أصلحه التلميح لم يحتج معه إلى التصريح .. فتصويب الأخطاء هو فن مواجهتها برفق .. وقدوتنا فى ذلك هو رسول الله ﷺ..

فقد روى أن خوّات بن جبير الأنصارى كان جالسًا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة ، فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال: "يا أبا عبدالله ما لك مع النسوة ؟ " فقال : يفتلن ضفيرًا لجمل لي شرود ، قال: فمضى رسول الله ﷺ لحاجته ، ثم عاد فقال : يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ، قال : فسكت واستحييت ، وكنت بعد ذلك أتفرر منه كلما رأيته حياء منه ، حتى قدمت المدينة ، وبعدما قدمت المدينة رآني فى المسجد يومًا أصلى فجلس إلي ، فطولت ، فقال : " لا تطول فإني منتظرك " فلما سلّمت قال : " يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ " فسكت واستحييت ، فقام ، وكنت بعد ذلك أتفرر منه حتى لحقني يوما وهو على حمار، وقد جعل رجليه فى شق واحد ، فقال : " أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ فقلت : والذى بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت ، فقال : " الله أكبر ، الله أكبر ، اللهم اهد أبا عبد الله " قال : فحسن إسلامه وهداه الله . [رواه الطبراني فى الكبير ورجاله ثقات .]

إن الأبناء – كل الأبناء – لهم هنّات لا يرغبون أن يطّلع عليها آباؤهم .. وهنا يجب التغافل عنها ، وإن كان لا بد من التعرض لها ، فليكن ذلك تلميحًا لا تصريحًا، وبالإجمال دون التفصيل .. وهذا ما تعلمناه من نبينا ﷺ فى قصة خوّات ، وأيضًا من عدم خوضه ﷺ فى التفاصيل كقوله عزوجل : ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحريم:٣] .

" إن تحقير الولد وتعنيفه بشكل مستمر دائم – ولا سيما أمام الحاضرين– هو من أكبر العوامل فى ترسيخ ظاهرة الشعور بالنقص .. ومن أعظم الأسباب فى

انحرافات الولد النفسية والخلقية ... وخير علاج لهذه الظاهرة هو تنبيه الولد على خطئه إذا أخطأ برفق ولين مع تبيان الحجج التى يقتنع بها فى اجتناب الخطأ ؛ وعلى المربي إذا أراد زجر الولد وإرشاده ألا يكون ذلك أمام الحاضرين ، كما يجب أن يسلك معه فى باديء الأمر الأسلوب الحسن فى إصلاحه وتقويم اعوجاجه ؛ وهذه الطريقة هى طريقة رسول الله ﷺ فى التربية ..

فقد روى مسلم فى «صحيحه» عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: «بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت له : يرحمك الله، فرمانى القوم بأبصارهم ، فقلت : واثكل أمياه!! ما شأنكم تنظرون إلي ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يصمتونني سكتّ ، فلما انتهى عليه الصلاة والسلام من صلاته دعاني ، فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه ، فوالله ما قهرني ، ولا ضربني ، ولا شتمني .. لكن قال : إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» [1] .

أخي المربي ..

كن كالطبيب الذى يداوى الجرح باللمس الرقيق وليس بمبضع الجراح.. حاول أن تجد للابن العذر فى تصرفه .. فإن كان جاهلًا فعلمه كما فعل النبي ﷺ مع معاوية بن الحكم السلمي عندما تكلم فى صلاته فلم يزجره النبي ولم يعبس فى وجهه ولم يشتمه ، بل قال له : "إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن " ..

وإياك – أخي المربي – «والتشهير بالابن حين ينحرف أول مرة عن سنن الأخلاق الكريمة ، فإذا كذب مرة فلا تناديه بالكذاب ، وإذا لطم أخاه الصغير مرة واحدة فلا تناديه بالشرير، وإذا احتال على أخته الصغيرة فأخذ منها تفاحة كانت

---

(١) تربية الأولاد فى الإسلام – د. عبد الله ناصح علوان – ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .

بيدها، فلا تناديه بالمحتال، وإذا أخذ من جيبك قلمًا، فلا تناديه بالسارق، وإذا طلبت منه كأس ماء للشرب فأبى، فلا تناديه بالكسول، وهكذا .. فلا تشهّر به أمام إخوته وأهله من الزلة الأولى ...

فكل هذا يجعل الابن ينظر إلى نفسه أنه حقير مهين ، وكأنه من سقط المتاع لا قيمة له ولا اعتبار ، مما يولّد عنده النظر للآخرين بحقد وكراهية ، ويجعله منهزمًا هاربًا من أية تكاليف للحياة .." (١)

واحذر أخي المربي .. أن توبخ ابنك بألفاظ من مثل " أنت طول عمرك خايب " ..أو تناديه بألفاظ فيها تشهير، واعلم أننا جميعًا صغار و كبارًا نقبل أن ينقد الآخرون بعض مواقفنا أو بعض تصرفاتنا أو بعض صفاتنا .. لكننا جميعًا أيضًا نرفض أن نصنف دائمًا في فئة الكذابين أو اللصوص أو الأشرار ...

كما أنه ليس من الحكمة التربوية أن يقول الأب : " ابني فلان مستواه العقلي أقل من باقي إخوته .."

"ابني فلان يئست منه ، ولا فائدة ارتجيها من وراء تربيته " ..أو يقول :" ابني فلان إذا حصل على الابتدائية فذاك كثيرًا " وهكذا ..

"و يحدث هذا على مرأى ومسمع من الابن نفسه ، وهذا مؤذ جدًا ، حيث أن الابن يكوّن صورته عن نفسه من خلال ما نقوله عنه ، بل ربما اتخذ ما نقوله عنه ذريعة للتهاون بالدراسة أو الاستمرار في ارتكاب أخطائه ..

إن على الأبوين أن يحذرا الكلمات القادحة العابرة ، فالابن يلتقطها ، ويعمل فيها خياله ، فتسبب له أرقًا وخوفًا ، والأهل غافلون لا يحسبون أنهم قالوا ما يسوء ....

(١) المرجع السابق – ص ٣١٦ ، ٣١٧ بتصرف .

إن علينا أن نتعامل مع أخطاء الطفل على طريقة " طي الملفات " فإذا وقع فى خطأ كبير أو صغير فى مرحلة من مراحل حياته ، ثم أقلع عنه صار لزامًا علينا أن ننسى ذلك الخطأ ، وأن نساعده على نسيانه ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له... " (١) .

وأن ندرك الفرق الكبير " بين صفة وسلوك سلبي ملازم للابن ، وبين سلوك طارىء نتيجة لظرف ما ، وعندها يجدر الحكم بالقسط ، فقد عذر الرسول ﷺ حاطب بن أبى بلتعة ، حيث رد على عمر رضي الله عنه عندما طالب بضرب عنقه ، فقال ﷺ: " وما يدريك ، لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " (٢)

فإذا وقع الابن فى الخطأ كفلتة عارضة ، فليس من الصواب التشهير به أمام إخوته وزملائه .. بل على العكس ، نحاول حمايته من الاحراج العلني ، لأن ذلك يفقده ثقته بنفسه ، ويربك وعيه .. " أخرج البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنت مع عمر فى حج أو عمرة فإذا نحن براكب ، فقال " " أرى هذا يطلبنا " ، فجاء الرجل فبكى ، وقال : " ما شأنك ؟ " إن كنت غارمًا أعناك ، وإن كنت خائفًا أمناك ، إلا أن تكون قتلت نفسًا فتقتل بها ، وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم " فقال : " إنى شربت الخمر ، وأنا أحد بني تميم ، وإن أبا موسى جلدني وسوّد وجهي ، وطاف بي فى الناس ، وقال : لا تجالسوه ، ولا تواكلوه ، فحدثت نفسي بأحد ثلاث : إما أن أتخذ سيفًا فأضرب به أبا موسى ، وإما أن آتيك فتحولني إلى الشام ، فإنهم لا يعرفوني ، وإما أن ألحق بالعدو فآكل معهم وأشرب " فبكى عمر ، وقال : " ما يسرني أنك فعلت وأن لعمر كذا وكذا ، وإني كنت لأشرب الناس لها فى الجاهلية ، وإنها ليست كالزنا " وكتب إلى أبى موسى : " سلام عليك ،

(١) دليل التربية الأسرية – د. عبد الكريم بكّار – ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) كيف تنتقد الآخرين ، وتستولي على محبتهم واحترامهم – أكرم عثمان – ص ٧٤ .

أما بعد ، فإن بن فلان أخبرني بكذا وكذا ، وأيم الله ، إني إن عدت لأسوّدن وجهك ولأطوفن بك في الناس ، فإن أردت أن تعلم حق ما أقول لك فعد فأمر الناس أن يجالسوه ويواكلوه ، فإن تاب فاقبلوا شهادته " وحمّله وأعطاه مائة درهم . " (١) .

إن من جميل الفعال ، أن نكسو تصويبنا لأخطاء أبنائنا بأحسن الألفاظ ، فلا سباب ولا شتائم ولا سخرية ولا تشهير .. وأن نحذر أن نناديهم بألقاب سيئة كقولنا : يا بليد ، يا كسول ، يا سفيه ، يا متخلف ، يا سمين .. إلى آخر هذه الألفاظ التي يعجز القلم عن كتابتها لقبحها وتأثيرها السلبي على الأبناء .

إن التجريح ، والسخرية من أبنائنا في علانية .. وعدم الستر عليهم إن أخطأوا .. كل ذلك يضعف ثقتهم بأنفسهم ، ويشعرهم بالاحباط والفشل ، بل إن " السخرية تشوه نفسية الأبناء وتعوقهم ، وكثيرًا ما يستمر هذا التشويه إلى الأبد ...

إن أي إنسان حين تسخر منه أو توبخه وبخاصة أمام الآخرين ، لا تكون قد اعتديت على إحساسه وجرحت كبرياءه فحسب ، ولكنك ستكون قد اعتديت على إحساسه باحترام النفس والكرامة وتقدير الذات " (٢).

وأنت بذلك عصيت ربك ، بتركك الستر على مسلم ، وهو مطلب شرعي .

وأنت بذلك أفسدت ابنك ، بإهمالك الستر عليه ، وهو حقه المرعي ..

- **أدع لابنائك .. ولا تدع عليهم :**

يمثل كل ابن من أبنائنا مخطوطة نفسية فريدة ، يحتاج التعامل معها إلى فقه خاص ، وهذا الفقه الخاص تقصر عنه الوصايا والمبادىء التربوية العامة .. فنبدأ معها في الاجتهاد والتأمل ، للوصول إلى التصرف الأحسن ، وفي هذه الأحوال لا

(١) المرجع السابق – ص ٢٠ .
(٢) المرجع السابق – ص ١٩ .

بد من تعلق القلب بالله سبحانه فهو الذى يؤتينا الحكمة لنفعل " ما ينبغي ، على الوجه الذى ينبغى ، فى الوقت الذى ينبغى " [(١)] .

ولابد أيضًا من الدعاء للأبناء بالسداد والفلاح ، حيث تقصر أسبابنا عن بلوغ ما نريد .. " إذ أن دعاء الوالدين مستجاب عند الله تعالى ، فبالدعاء تزداد شحنة العاطفة وقودًا ، وتتمكن الرحمة والرأفة من قلبي الوالدين .. فيتضرعان إلى الله تعالى ويبتهلان إليه فى إصلاح الابن ومستقبله .. وهذه سنة الأنبياء والمرسلين " [(٢)] فقد " كان الأنبياء أكثر الناس دعاء والتجاء إلى الله ، وطلبًا منه إصلاح أولادهم ، فقد سجل القرآن الكريم لبعضهم دعوات وتضرعات عظيمة . فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام يدعو الله سبحانه وتعالى أن يجنبه وذريته عبادة الأصنام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥] ... وهذا نبي الله زكريا عليه السلام يدعو طالبًا الذرية الطيبة : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (آل عمران ٣٨) .. وهكذا الأنبياء كلهم ...

وهكذا يجب أن يكون المربي المسلم يدعو لأبنائه بالصلاح ، ويحذر كل الحذر أن يدعو عليهم بالشر ؛ فقد نقل عن عبدالله بن المبارك أن رجلًا جاءه يشكو إليه عقوق ولده فسأله إن كان قد دعا عليه أم لا ؟ فأجاب بأنه قد دعا عليه ، فقال له حينئذ : " أنت أفسدته " [(٣)] .

" فبدلًا من أن تكون – أخي الأب والمربي – سببًا فى إفساد ابنك بالدعاء عليه .. فلتكن سببًا فى صلاحه فتدعو له كما كان رسول الله ﷺ يفعل ، فيدعو

---

(١) مدارج السالكين – ابن القيم – ج ٢ – ص ٣٥٧ .

(٢) الإنصات الإنعكاسي – محمد دياس – ص ٩٦ .

(٣) مسؤولية الأب المسلم فى تربية الولد – عدنان حسن باحارث – ص ٧٧ ، ٧٨ .

للأطفال بالبركة فى المستقبل والمال والولد .. فقد أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ضمني رسول الله ﷺ إلى صدره وقال : "اللهم علمه الحكمة" .. وفى رواية : " علمه الكتاب " .. وبفضل دعوة النبي ﷺ أصبح ابن عباس فى كبره حبر الأمة وترجمان القرآن .. " [١] .

بل إن رسول الله ﷺ يتبع أسلوب الدعاء للطفل لانقاذه من أن يختار أمه النصرانية على أبيه المسلم .. روى عبد الرزاق فى مصنفه – بسنده – عن عبد الحميد الأنصاري عن أبيه عن جده ، أن جده أسلم وأبت امرأته أن تسلم ، فجاء بابن صغير له لم يبلغ ، قال : فأجلس النبي ﷺ الأب ها هنا ، والأم ها هنا ، ثم خيّره ، وقال : " اللهم اهده " فذهب إلى أبيه " (رواه أحمد والنسائي) " .

إن على الوالدين ألا يغفلا قدر الله ، فهو سبحانه الذى ييسر الخير ويهدي إليه ، وربما اجتهد الأبوان فى التربية ولم ينجحا ، فلا بد أن يتبع هذان الأبوان اتخاذ الأسباب بأن يمدا أيديهما بالدعاء لأبنائهما ، لينشأوا النشأة الصالحة التى ترضي الله تعالى ، ودعاء الوالديْن مستجاب بإذنه تعالى .

فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: " ثلاث دعوات يستجاب لهن ، لا شك فيهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد لولده " – رواه ابن ماجه / الحديث ٣٨٦٢ ... وهذه منزلة وكرامة للأب فى دعائه لأبنائه .." والأب الموفق من يستثمر هذه المنزلة والكرامة من الله فيدعو لأبنائه ، ويرجو من الله صلاحهم وهدايتهم .. وفى المقابل يحذر كل الحذر من الدعاء عليهم

بل إن من الأمور الطيبة أن يجمع الأب أبناءه فى بعض الأوقات فيدعو لهم ، كما كان يفعل أنس بن مالك رضي الله عنه عند ختم القرآن الكريم " [٢].

---

(١) الإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ٩٧ .

(٢) مسؤولية الأب المسلم فى تربية الولد – عدنان حسن باحارث – ص ٧٦ – ٧٨ بتصرف .

لقد نهى رسول الله ﷺ الآباء والأمهات أن يدعوا على أبنائهم ، فقد روى أبو داود عن رسول الله ﷺ قال : " لا تدعوا على أنفسكم .. ولا تدعوا على أولادكم .. ولا تدعوا على خدمكم .. ولا تدعوا على أموالكم .. لا توافقوا من الله ساعة فيها إعطاء فيستجاب لكم " .

ولهذا فالدعاء على الأبناء أمر خطير جدًا ، و مهما قلنا عن خطورته فهو أكثر ، لما فيه من دمار للابن ولمستقبله ، ومن دمار للأبوين كذلك ..!!

● **التوبيخ .. النار الحارقة :**

لا بد من الإهتمام بالطريقة التى ننتقد بها أبناءنا ، فهناك طرقًا صحيحة يكون لها الأثر الأكبر فى تنشئة أبناء يتمتعون بنفس سوية متفائلة بعيدة عن الإكتئاب .. ومن أهم القواعد فى ذلك أن يكون النقد دقيقًا لأن " النقد المبالغ فيه ينتج عنه الإحساس بالذنب والخجل بدرجة أكبر مما ينبغى لعقل الطفل وتغيير سلوكه ، ولكن التوقف عن توجيه أى نوع من اللوم يمحو الإحساس بالمسؤولية ويبطل إرادة التغيير " (١) .

خذ مثالًا ..

ذهبت " سمية " لزيارة خالتها ، وتركت غرفتها بلا ترتيب وفى حالة من الفوضى الشديدة .. قامت الأم بترتيبها على مضض .. وحين رجعت سمية ، كانت الأم فى غاية الضيق .. فكيف يكون الشكل الصحيح فى عتاب الأم لابنتها ، وما هو الشكل الخاطىء ؟

الشكل الصحيح فى النقد :

" يا سمية ، إنك قمت اليوم بفعل أغضبنى بدرجة كبيرة " ، فالأم هنا تصف مشاعرها بدقة .

---

(١) كيف تنشىء طفلًا يتمتع بذكاء عاطفي – لورانس إ . شابيرو – ص ١٤٣ .

" لقد طلبت منك قبل أن تذهبى إلى خالتك أن تقومى بترتيب غرفتك وتنظيفها ، فلماذا تؤجلين ما طلبت منك ؟ " .. الأم هنا تصف ما حدث بدقة وبعبارات سليمة .

" لقد اضطررت بسبب تصرفك إلى القيام بتنظيفها وترتيبها ، وهذا أعاقنى عن أعمال أخرى هامة " .. فالأم هنا تشرح الأثر المترتب على تصرف الابنة ، ومن ثم يكون اللوم فى موضعه الصحيح .

الشكل الخاطىء فى النقد :

تقول الأم : لماذا ينطبق على تصرفاتك اللامبالاة دائمًا ؟ إننى فى غاية الضيق منك !!

فالأم هنا تقول : " دائمًا " وهذا يوحى أن مشكلة الابنة لن تتغير ، وهذا يدفعها لعدم المحاولة !!

تقول الأم : لقد نبهت عليك مليون مرة أن تجعلى غرفتك نظيفة ، ولكنك لا تنصتين لكلامي أبدًا ، ما هى حكايتك بالضبط ؟ !!

فالأم هنا تصف المشكلة بمبالغة " مليون مرة " .. وتؤكد عدم جدوى أن تحاول الابنة حلها " ولكنك لا تنصتين لكلامي أبدًا " !!!!

.. ولا شك أن هذا وذاك يشعر الابنة بالذنب ، كما أن كلام الأم هنا يتضمن أن هناك عيبًا يلازم ابنتها بشكل دائم مرتبط بشخصيتها ..

إن الكلمات لها أثر كبير فى تربية أبنائنا وتوجيههم ، وقد يصعب علينا كآباء أن نتصور أن كلمة هنا أو هناك مع أبنائنا يمكن أن يكون لها عظيم الأثر فى نفوسهم .. ولكن تلك هى الحقيقة ..

إننا حين نقول مثلًا : " إن أحمد لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل أبدًا " .. فإننا نقاوم أية محاولة من التغيير منه .. وحين نقول عن الابن مثلًا : " إنه مثلى تمامًا .. لقد كنت فاشلًا فى هذا العلم " فإننا نمنعه أيضًا من المحاولة ..

بينها يمكن دفعه إلى محاولة التغيير عبر قولنا : " إن أحمد يصعب عليه فعل ذلك إلا بمحاولة عظيمة " .. وقولنا : " إنه يذكرني بنفسي ، لكنه أفضل شيئًا ما ..

إن هذه التعبيرات تفتح له باب المحاولة للتغيير ..

كيف ذلك ؟

هذا المثال توضيح لما نقول :

جلس الأب مع الابن يعلمه كيف يؤدي واجبه الدراسي ، وعندما تكرر فشل الابن فى حل مسائل الباب الذى يشرحه له .. صرخ الأب : لماذا أنت غبي هكذا ؟ .. إنها فى غاية السهولة ، وقد شرحتها لك مرارًا ؟!!

رد الابن فى ضيق وقد شعر بجرح لكبريائه : أنا أحاول يا أبي .. لكنني ما زلت أتعلم ، هل تتوقع مني أن أنجح فى حل جميع المسائل ، ولم أبدأ فى هذا العلم إلا منذ يومين ؟!!

أحس الأب أنه كان قاسيًا ، فبادر بتغيير طريقته مستخدمًا أسلوب المشاركة الوجدانية ومراعاة مشاعر الابن : لقد جرحت إحساسك يا بني ، أليس كذلك ؟

أومأ الابن برأسه .. نعم يا أبي ..

قال الأب : أفهم ماذا تعني .. سأساعدك فى فهم هذه المسائل مرة أخرى ، وأنا على ثقة أنك ستكون قادرًا على إتقان الحل ..

وهكذا .. حتى فى أوقات فشل الابن فى تحصيل علم ، أو استذكار مسألة ، فإن التعامل الصحيح معه يتطلب منّا تجنب اليأس ، وممارسة النقد لما نريده من أحوال الابن بطريقة تؤكد على :

- *فهم مشاعره* .. أدرك أنك حزين لفشلك فى كذا .
- *نقل المسؤولية إليه* .. تستطيع المذاكرة والاهتمام بدراستك حتى تتغلب على مشكلتك.

- *تقديم المساعدة له عند الضرورة* .. أستطيع أن أساعدك في المواقف الصعبة التي لا تجد لها حلًا .

- *تنمية الثقة في نفسه* .. أدرك أن لديك القدرة على تجاوز مشكلتك .

إننا كثيرًا ما نسمع من الأبوين عبارات مثل " فقدت أعصابي ! أو هذا الابن يفقدني صوابي !! أو ابني يثير غضبي !

إن تلك العبارات من شأنها أن تدعم سلوك ابنك الذي يثيرك ، وتجعله يتعلم كيف يسيطر على مشاعرك ؟ .. تلك المشاعر التي تمنحك القوة والطاقة لتحقيق ما تهدف إليه من تصويب سلوك أبنائك .. مع شعورهم في ذات الوقت بثقتك فيهم ، مما يدفعهم إلى توقيرك وحبك وطاعتك .

ومن أجدى الطرق إلى ذلك أن : " يمدح الابن بكل ما يظهر به من خلق جميل وفعل حسن ويكرم عليه . فإن خالف في بعض الأوقات فلا يوبخ عليه ولا يكاشف بأنه أقدم عليه . بل يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه تجاسر على مثله ولا هم به ولا سيما إن ستره الابن واجتهد أن يخفي ما فعله عن الناس . فإن عاد فليوبخ سرًا ، ويعظم عنده ما أتاه ، ويحذر من معاودته ، فإنك إن عودته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة ، وحرضته على معاودة ما كان استقبحه ، وهان عليه سماع الملامة في ركوب قبائح اللذات التي تدعو إليها نفسه وهذه اللذات كثيرة جدًا" [(١)].

وهذا أمر نعلمه من أنفسنا ، ومن واقعنا مع أبنائنا ، فإننا حين نكثر التوبيخ والصراخ في وجه الابن " عند أدنى بادرة للخروج عن السلوك المطلوب ، سنجد أن هذا الابن يكرر للمرة المائة الخروج عن ذاك السلوك المطلوب ، وهنا لابد أن نسأل أنفسنا لماذا لم يمتثل الابن لطاعة أبيه ؟ .. والجواب هو أن كثرة التوبيخ وكثرة

---

(١) تربية الأطفال في رحاب الإسلام – خولة درويش – ص ٢٠٥ ، والقول لابن مسكويه .

الإهانة للطفل وكثرة الصراخ فى وجهه تجعله يسىء الظن بنفسه وبقدراته ، ولذلك فإنه يكرر الخطأ "[١].

فيا أخي الأب المربي ..

لا تكثر الصراخ والتوبيخ .. ولا تفقد الأمل فى إصلاح الابن ..لأن شعوره بأنك لا ترى أملًا فى إصلاحه يسبب له الجروح النفسية الغائرة .. ويهوّن عليه الفشل ، ويسقط قيمة كلماتك من قلبه ، بل ربما أسقط هيبتك من نفسه ..!!

وهذا ما نراه بأعيننا فى كثير من البيوت ، حيث تتطور العلاقة بين الآباء والأبناء فى سياق متوال معروف

- الابن يفعل أو يقول " شيئًا باطلًا ، فيكون رد الفعل من الأب أو الأم التوبيخ والاهانة ، فيجيب الطفل بشىء أسوأ . فيرد الأب أو الأم بتهديدات عنيفة أو بعقاب بدني ..

مثال :

كان هشام (٩ سنوات) يلعب بفنجان شاى فارغ .

الأم : ستكسره . إنك تكسر الأشياء دائمًا

هشام : لا ، أنا لا أكسر شيئًا .

... ويسقط عندئذ الفنجان على الأرض وينكسر .

الأم : قلت لك ، يا غبي ، إنك تكسر كل شىء فى المنزل .

هشام : وأنت غبية أيضًا ، لقد كسرت فنجانًا الأسبوع الماضي !!

الأم : أتقول لأمك غبية ! إنك وقح وغير مؤدب !

هشام : أنت وقحة .. أنت قلت لى يا غبي أولًا .

الأم : ولا كلمة يا سافل ! إذهب إلى حجرتك فورًا !

هشام : هيا أدخليني حجرتي إن استطعت !

---

(١) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د. سبوك – ص ١٥٢ .

وعند هذا التحدي السافر لاحترامها ، تثور الأم غضبًا ، وتمسك بابنها وتبدأ فى ضربه بشدة ..

ويحاول (هشام) الهرب من أمه فيدفع الباب بقوة ، فينكسر الزجاج ، وتجرح يد الأم ..

(من يصدق أن فنجانًا صغيرًا ، يمكن أن يسبب كل هذه الفوضى والمعركة؟؟!!).

... والسؤال هنا : هل كانت هذه المعركة ضرورية ؟ هل هذا الشجار حتمي؟ أم من الممكن معالجة هذه الأحداث بشكل أكثر حكمة ؟

عندما رأت الأم الفنجان مع (هشام) : كان يمكنها إبعاده عن يديه ، وتوجيهه إلى اللعب بشيء آخر ..

وحتى عندما انكسر الفنجان ، كان من الممكن أن تبدأ فى مساعدة الابن فى جمع شظاياه مع تعليق " حتى لا تتأذى من تلك الشظايا ، فهي جارحة " ...

وقد تبعث مثل هذه الجمل الهادئة إلى أن يحاول (هشام) أن يكفّر عن خطئه، ويعتذر عن الحادث المؤسف .. ومع غياب الصراخ والتوبيخ قد يتعلم أن يكون أكثر حرصًا فى تناول الفناجين بعد ذلك " (١) .

ومن هنا تكون الصورة الصحيحة فى النقد وتصويب الأخطاء أن نلفت النظر إلى الخطأ مرة أو مرتين ولا نتعدى ذلك حتى لا يصاب الابن بالإحباط واليأس .. كما أن من الضروري جدًا " ألا ننبش فى أخطاء قد مضت وانتهت ، فننفخ فيها الحياة من جديد .. إن مثل هذه التصرفات لن تساعد أبناءنا على تقديم الأفضل فى الوقت الحالي، بل إن الإحتمال الأكبر أن يكون لهذا الأمر أثرًا عكسيًا تمامًا " (٢) .

---

(١) بين الآباء والأبناء – د.ج.جينوت – ص ٤٢ ، ٤٣ بتصرف يسير .

(٢) كيف تنتقد الآخرين ، وتستولي على محبتهم واحترامهم – أكرم عثمان – ٨٣ بتصرف .

فمثلًا .. بينا يقفز الابن من ألم النار ، وينفخ فى يديه .. يقول الأب : " لقد قلت لك ابتعد عن الفرن ؟!!

وكأنه يكرر للابن الدرس الذي تعلّمه لتوه ، فيرى الابن فى ذلك نوعًا من الاهانة لكرامته ، وربما ترتب على ذلك أن يحاول حفظ ماء وجهه عبر تكرار نفس الفعل ، وكأنه يقول : أنا أستطيع تعلّم الدرس وحدي ، لا أريد إرشادًا من أحد !!!

لا تعجب أيها الأب والمربي ..

إن أبناءنا لا يريدون أن يتعلموا من خبراتنا نحن ، إنهم يريدون أن يكتشفوا بأنفسهم .. وهم إذا غيّروا من سلوكيات إلى أخرى لا يحبون نسبة الفضل فى هذا التغيير لأى أحد .. إنهم يحبون الفخر بذواتهم ، ويحبون أن يروا أنفسهم مسؤولين عن سلوكياتهم ، ومسؤولين عن تغييرها إن كانت غير ملائمة ..ولكل ذلك ؛ فإنهم ليسوا مستعدين ولا راغبين فى أن يروا شخصًا آخر ينال شرف وفضل تعليمهم درسًا مهمًا ، فذلك بالنسبة إليهم مضيعة للكرامة وامتهان للمشاعر .. !!

وهذا قد يفسّر إصابة الابن بالتبلد الانفعالي وعدم الاكتراث بالأوامر والنواهي التي يصدرها الأب .

إن التوبيخ لا يحرّك كاسلًا ، ولا يشفي مريضًا ، بل الصواب البحث عن الأسباب الخفية ومعرفة الثغرة التى ولج منها التصور الخطأ ، فأوقع السلوك الخطأ، أو تسللت منها اللذة الموهومة بهذا الخطأ ، فتكرر !!

فهل ننتبه – كآباء ومربين – إلى نصيحة تربوية غالية من الامام الغزالي بأن " يزجر المربي من يعلمه عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة و يورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار "[١].

---

(١) إحياء علوم الدين – أبو حامد الغزالي .

وهل آن لنا – كآباء ومربين – أن نستر أخطاء أبنائنا ، ولا نشهّر بهم ، وأن نستخدم الرفق معهم ، ونبتعد عن الدعاء عليهم ، لندعوا لهم .. فنجد ثمرة ذلك حبًا وطاعة ..

هل آن لنا قبل ذلك وبعده أن نبتعد عن كثرة اللوم ، وإساءة المعاملة ، والتوبيخ .. تلك النيران التى تحرق الحب والمودة بيننا وبين أبنائنا ، فلا يلبّون لنا طلبًا ، ولا يستجيبون لنا نصيحة ..؟

هل آن لنا أن ندرك أن التوبيخ يدفع إلى العناد ، لأنه يسقط حجاب الهيبة؟!!

❁❁❁

الباب الثالث

حَــرِّكْ رَغْبَــتَــهُ

M=Motivate his desire

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : قلب التحفيز النابض

الفصل الثاني : التحفيز فى رحلة الحياة .

الفصـــل الأول
قلب التحفيز النابض

تمتلئ عينا الأم باليأس، وهى تنظر إلى ابنها المزعج المتمرد غير المطيع وكأنها صارت أمًّا لكائن شرير لا نفع منه ، ولا مستقبل له .

و يحس الابن بمخاوف أمه، ويحس بآلامها النفسية، وينتقل إليه شعور بعدم جدواه بالنسبة لها !! .

وهو لا يطيق أن تنفر منه سيدة هذا العالم بالنسبة إليه ... فيسعى إلى إرضائها ليستعيد عرش قلبها ؟!

فيحاول ، ويحاول .. ولكن أمه بيأسها الظاهر منه تجعله حبيسًا فى قاع بئر جدرانه ملساء !!

إن الابن لا يستطيع بأمنياته وخياله أن يسترد مكانته عندها .. إن عيناها تقولان له : " أنت إنسان لا جدوى منك ، ولا يمكن أن تتحسن سلوكيًا " .. وهذه هى أصعب نبوءة تخرج من قلب الأم ، وهذه أيضًا أقسى رسالة يتلقاها ابن من أمه..!!

ويندفع الابن إلى مزيد من التمرد وعدم الطاعة ، ومزيد من إزعاج الأم بأي وسيلة ممكنة وغير ممكنة ؟!!

وتحاول الأم أن تضع الطفل فى إطار السلوك السليم بالقسوة الممتزجة بالغيظ فتوبّخه وتهينه ..

ويندفع الابن إلى مزيد من التمرد اللاشعوري ..

إنها الدائرة المفرغة التى نصنعها نحن بأنفسنا .. فكرة خاطئة عن الابن تستقر في نفوسنا .. فتتسلل إلى نفس الابن .. وتتحول إلى سلوك ملازم له .. فتستقر

فكرتنا الخاطئة عنه فى نفوسنا أكثر وأكثر .. وهكذا ؟!!

فمتى .. وكيف نخرج من هذه الدائرة النكدة ؟

• ما هي فكرتك عن أبنائك ؟

يسيء الكثير من الآباء والمربين إلى أبنائهم ، و تأخذ الإهانة عدة أشكال منها تشبيه الابن بالمخلوقات الأدنى ، أو اتهامه فى عقله وذكائه .. والمشكلة الحقيقية هنا تكمن فى أنه بعد تكرار نعته بها يبدأ نفسيًّا فى تصديقها ، فيصبح ضعيف الثقة بذاته، يخاف الإقدام على أي أمر لأنه يتوقع الفشل ..!!

وكيف لا وهو يسمع عبارات من مثل : " أنت غبي لا تفهم " .. «أنت حمار » .. " اسكت يا أبله " .. " لقد أصبحت أخجل منك ومن تصرفاتك " .. " لن تفلح فى شيء أبدًا " ... " لا تتصرف كالحيوان " .. " ماذا تقول ؟ .. إن أفكارك دائمًا سخيفة " .. " وماذا فيما قلت ؟ ليس فيه أي جديد !! " .. إلى آخر هذه العبارات القاتلة ، والتى تحول دون تمتع الابن بالتعامل الطبيعي مع من حوله ، والتى تؤكد لدى الابن أنه غير معترف به كإنسان ، وأنه يفتقد أية كفاءة .. ومن ثم ينطوي على نفسه وينكمش ويشعر بعدم الثقة ، بل وبعدم الرضا أيضًا !!!

ذلك أن الابن أو البنت " يتأثران بأقوال وآراء الأبوين فيهما ، ويبنيان الآراء عن أنفسهما وفقًا لما يقوله الأبوان عنهما ، فإذا كان الابن محلًا لثقة أبويه ، ومذكورًا أو معروفًا عندهما بالقدرة والنشاط والمبادرة ، وموكولًا إليه من المهمات والأعمال ما يتطابق مع الرأى فيه ، وإذا كان يلقى من التشجيع والتأييد ومن التوجيه والتكليف ما يمثل إتجاهًا ورأيًا يتناسب مع قدراته وإمكاناته ، فإنه يسعى لتأصيل ذلك فى ذاته، وجعله صفة من صفاته وسمة من سمات شخصيته ما أمكن .. " (١)

إن الأبناء يتصرفون حسب توقعات الآباء لتصرفاتهم ، فإن أخبر الأب ابنه بأنه مزعج ، فسوف يتعايش مع هذا التوقع ، وإن أخبروه بأنه يعرف كيف يلعب

---

(١) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ٢٦٢ .

بشكل هادئ ، فسوف يتعايش مع هذا التوقع !!

خذ مثالًا :

يقول الأب لابنه : " لا أعرف لماذا حجرتك أنت بخاصة تحوى كل هذه الفوضى ؟ ماذا دهاك ؟ ألا تخجل من نفسك ؟ متى رتبت سريرك آخر مرة ؟ إنك لن تتغير أبدًا "

ماذا فهم الابن من هذه الكلمات ؟

إنه لا فائدة فيك .. ستبقى هكذا دائمًا، وهذا ما توقعته منك .. لقد يئست أن يطرأ عليك أي تحسّن !!!

خذ مثالًا آخر :

يقول الأب لابنه وقد رأى حجرته غير مرتبة :

" أنت تعرف يا بني أنك لست الشخص الذى يترك حجرته هكذا ، فأنت كما أعرفك إنسان مرتب ، وأنا واثق أن باستطاعتك ترتيبها جيدًا .. ألا تعتقد ذلك ؟

ماذا فهم الابن من هذه الكلمات ؟

" عندى أمل فيك .. كلي ثقة بك .. أنت قادر على فعل الأمور الجيدة.."

ومن هنا فإن من الأهمية بمكان أن نمارس " الدفع الإيجابي " لأبنائنا .. و"التوقع الايجابي " لسلوكياتهم ، ذلك " أن إبراز المربي للتوقعات الإيجابية تجاه الابن له أثره فى تنمية التقدير الذاتي له ، وتثبت الأبحاث تأثير ذلك فى حفز الابن إلى محاولات جادة لعمل ما توقعه منه ..

.. ومن العبارات التى تعبر عن التوقع الإيجابي أن تخاطب أولادك بمثل هذه العبارات :

- من خلال معرفتى بك ، أنا على يقين من أنك ستقدم أداء رائعًا.
- تستطيع أن تنجز هذه المهمة إذا حاولت .
- إننى واثق من قدراتك .

- إنك تبذل أقصى ما لديك من جهد ، وسيعطى هذا الجهد نتيجة إن شاء الله.
- أرى أنك تبذل جهدًا كبيرًا فى سبيل إنجاز هذه المهمة .
- هذا تحد لك ، ولكني متأكد من انك تستطيع إنجازه .

... وهذا بخلاف التوقع السلبي الذى يثبط العزائم ويوهن الثقة " . (١)

إن إحساس الولد بنفسه يأتي من خلال معاملتك له ، فإن أنت أشعرته أنه " ولد طيب " ، وأحسسته بمحبتك ، فإنه سيكوّن عن نفسه فكرة أنه ولد طيب ، وأنه ذو شأن في هذه الحياة . أما إذا كنت قليل الصبر معه ، تشعره أنه "ولد غير طيب " ، وتنهال عليه دوما باللوم والتوبيخ ، فإنه سينشأ على ذلك ، ويكون فكرة سلبية عن نفسه، وينتهي الأمر به إما بالكآبة والإحباط ، أو بالتمرد والعصيان ..!!

"إن الأطفال يؤمنون إيمانًا راسخًا بما تخبرهم به ، ويتصرفون طبقًا لما تتوقعه منهم ، وإن أطلت التركيز على الصفات الإيجابية ، فسوف تعمل على إيجاد صفات أكثر إيجابية . قم بالثناء على سلوكياتهم وتشجيعهم بحيث يتعلمون تقويم أنفسهم..

فكّر فى هذا القول الذى سمعته من كثير من الأطفال : " عندما أقوم بعمل فوضوي ، يقوم الجميع بالتعليق عليه ، وعندما أقوم بعمل جيد ، لا أجد أحدًا يثني على فعلي " (٢) .

ألا يدفعك هذا القول إلى محاولة الابتعاد عن الانتقاد السلبي لأبنائك ، أو مواجهتهم بأخطائهم مواجهة عنيفة تفتقر إلى الحكمة والاتزان ..

ألا يوجهك هذا القول إلى محاولة الدفع الايجابي لسلوكياتهم الجيدة ..

تأمل هذا الحوار الذي يوضح ما نقصده :

---

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د.عادل رشاد غنيم – ص ١٥٣ .

(٢) كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د . سال سيفير – ٤٩ ، ٥٠ بتصرف يسير .

" الأم : محمد .. إنتبه ، ستسقط العصير .

الابن : لا .. لن أسقطه .

الأم : لقد أسقطه من قبل .. وستسقطه الآن ، أعلم أن ذلك سيحدث لأنك تضع كأسك دائمًا على حافة الطاولة .

بدأ التوتر واضحًا على نبرة محمد وهو يجيب أمه : " آه . ألا تكفّي وتتركيني وحدي ؟ ".

.. وبعد عدة دقائق .. سقط العصير .

صرخت الأم قائلة : ألم أقل لك : إنك ستسقطه ، لماذا تتعمد إثارة أعصابي ؟ حذرتك ألف مرة أن تبعد الكأس عن حافة الطاولة .. لكنك لا تسمع كلامي ، انهض الآن ونظف المكان ....

إذا أردنا أن نحلل هذا الموقف بين الأم وابنها " محمد " ... سنجد أن هذه الأم لم تتعلم كيف تسيطر على تصرفاتها معه .. هى بالطبع لم تقصد إثارته ، ولكن أسلوبها كان يثير أعصابه بالفعل .. فهي عندما تقول لابنها :

- محمد .. انتبه ، ستسكب العصير .

كأنها تدفعه للدفاع عن نفسه بقوله :

- لا .. لن أفعل ذلك .

وعندما تقول له : " أعلم أن ذلك سيحدث .. لأنك تضع كأسك دائمًا على حافة الطاولة " .

فإنها بهذه الجملة الاستفزازية تهاجم اعتزاز ابنها بنفسه .. وهكذا .. كأنه لا يملك القدرة على التصرف الصحيح ..

إذن ، حديث الأم مع ابنها لم يدفعه إلى اصلاح سلوكه بأن يبعد العصير عن حافة الطاولة ، وإنما استفزه ، وأثار غضبه فتذمر محتجًا على أمه بقوله : " آه. ألا تكفي وتتركيني وحدي ؟ ".

ولكن إذا أرادت هذه الأم أن تدفع ابنها إلى تغيير سلوكه ، فإن سبيلها الأفضل إلى ذلك هو " التشجيع ، والدفع الإيجابي للابن " ..

وبالطبع يتطلب ذلك منها أن تتعلم كيف تسيطر على أعصابها ، فلا يكون هدفها هو تنفيس غضبها ، وإنما تفكّر فى ذات الوقت فى شخصية الابن مستقبلًا ، فإن هذا الصراخ والانفعال والعدون كفيل بأن ينبت فى نفس الابن اليوم وغدًا الخنوع أو التمرد ، أو الانهزامية ، أو العدوان ، أو الانطواء ، والسلبية والحقد ... كما إنه كفيل بأن يدفن إلى غير رجعة ميله إلى المغامرة والاكتشاف والمبادرة ، وكثيرًا مما هو أدهى وأمر " [(١)].

أخي المربي – أبًا وأمًا – " لقد وجدت أن أفضل طريقة لإكساب ابن من أبنائنا إحدى الفضائل ، هى أن تنسب هذه الفضيلة وتعزوها إليه ، أشعر ابنك بإمكانية الاعتماد على قدراته ، والثقة فيه ، فإنه لا محالة سيثبت لك أنه جدير بهذه الثقة التى يستحقها " [(٢)].

إن توقعات المربي تؤثر على طريقة الطفل فى الأداء سلبًا أو إيجابًا ..

إن الطفل الذي يؤمن بأن ترتيبه لن يتعدى المرتبة الثالثة بين زملائه ، ليس بإمكانه إنجاز تقدير أعلى ، فسوف يبذل – بوعي أو بدون وعي – قليلًا من الجهد في الاستذكار أيًا كانت قدرته على الاستيعاب ..

.. وحين يشجع الطفل ذات المستوى المتدني دراسيًا مثلًا ، فإن من الملاحظ أن هذا المستوى يرتفع ، فيؤدي إختباراته بطريقة أفضل ، ويحصّل درجات أكبر من السابقة .

بل إننا لا نبالغ إن قلنا أن المربي هو الذى يضع بيديه معايير الإمتياز ، وسلوكيات إتقان العمل فى المتربين ..!!

---

(١) سياسات تربوية خاطئة – محمد ديماس – ص ٢٦ –٢٩ بتصرف .

(٢) ٢٥ طريقة لتجعل من ابنك رجلًا فذًا – أكرم مصباح عثمان – ص ٢٦ والكلمة لـ " ونستون تشرشل ".

وهذا أمر هام جدًا .. بل وخطير أيضًا ..

ذلك أن معرفتك كأب ومربي بخصال أبنائك قد تمثل فى جوهرها مشكلة تربوية كبيرة ..!!

لأن تصنيفك لابنك أنه كسول أو مهمل مثلًا ، سوف يلازم عقلك كأب ومربي ، ومن ثم فإنك إن رأيت هذا الابن يقوم بواجباته مثلًا توقعت له الفشل ، فإذا تأخر فى أداء هذا الواجب واجهته أنت بأنه فاشل ولا يصلح لشيء ..!!

وهكذا تكون مشاعر سلبية للطرفين فى الحقيقة .. طرف الأب والمربي بتوقعه عدم جدية الابن .. وطرف الابن بشعوره أنه لا يصلح لشيء ..وهذه الدائرة المفرغة لا تنتج إلا الإحباط والفشل .

ولا خروج منها – بعد توفيق الله – إلا أن تراجع " أخى الأب والمربي " مسألة غاية فى الأهمية !!

وهي الإجابة عن السؤال : ما هي فكرتك عن أبنائك ؟

- **مهارة اكتشاف الإيجابيات :**

يذهب أحمد إلى والده ليريه الإمتحان الذى حصل فيه على درجة متميزة، فيمسك الأب ورقة الامتحان ويركّز على بعض الأخطاء البسيطة بدلًا من أن يمتدح الجوانب الإيجابية والمضيئة فى تفوق ابنه .. فيرى الابن أنه فاشل لا فائدة منه، وأنه حتى لو حصل على درجات عاليه فإنه ليس من الناجحين ..!!

وهكذا ..لا يحصل الأب من تعداد سلبيات الابن إلا انحسار ذاته ، وارتباك وعيه وخمود نشاطه ..!!

ومن هنا فإن من الأهمية بمكان أن تكتسب – أيها الأب – مهارة استخراج إيجابيات الابن وخمائر الصلاح فيه .. ذلك أن تعداد السلبيات يستطيعه كل أحد ..

"يروى أن عيسى – عليه السلام – مر فى نفر من أصحابه على شاة ميتة ، فقال لهم : صفوها ، فذكروا من كراهة رائحتها وبشاعة منظرها .. فأراد أن يلفت

انتباههم إلى شيء لم يقيموا له وزنًا ، فقال : لم يقل أحد منكم : ما أشد بياض أسنانها"[(١)].

وهذه هى الطريقة الصحيحة فى النظر إلى سلوكيات الأبناء .. التركيز على الايجابيات .. بل ومحاولة اكتشافها من بين كومة السلبيات - إن وجدت - ؟!!

تأمل هذين المثلين :

يأتي " أحمد " إلى أبيه قائلًا : أبي لقد قررت أن أتوقف عن مصادقة " سعد " لأنه ليس صديقًا جيدًا .

- يثني الأب على سلوكه بقوله : لا شك أن هذا القرار قد تطلب منك صبرًا و تفكيرًا وتدبرًا لأمورك .. إنه قرار ناضج وواعي .. أحسنت يا " أحمد"..

... تدخل " سمية " فرحة وهى تقول لأمها : " أمّاه .. إن حجرتي نظيفة الآن .. هلا أتيت لتلقي عليها نظرة " ..

تذهب الأم وتتفحص الحجرة قائلة : " عمل عظيم يا " سمية " .. لك أن تفخري بنفسك ، فإن حجرتك فى غاية النظافة والجمال ..

... فى الحوارين السابقين نرى أن كلًا من والد " أحمد " ووالدة " سمية " يلقون الضوء على السلوكيات الطيبة لأبنائهم ويثنون عليها ويمدحونها ..

وهذه الطريقة فى التشجيع والدفع الإيجابي هى أكثر الوسائل فعالية فى تحسين سلوك الأبناء ، ودفعهم إلى اتخاذ القرارات السليمة بأنفسهم ..

وتعتمد هذه الطريقة على البحث عن سلوك جيد يصدر من الابن أو الابنة ، فيقوم الأب بتقويته وتدعيمه ببعض الكلمات التى تعبّر عن الثناء والتشجيع ، أو بعناق دافئ أو بمنحهم بعض الإمتيازات .

---

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي - د. عبد الكريم بكّار - ص ١٩٦ .

خذ مثالًا :

قرر " أحمد " مشاركة " عبد الرحمن " فى لعبة من ألعابه ..

يقول الأب : هذا تصرف جيد يا " أحمد " .. إننى فخور بك .. لقد نضجت .. طريقتك فى التصرف تدل على عقل وحكمة ..

.. فالأب هنا لا ينظر إلى سلوك الابن الحسن على أنه أمر مسلم به ، وإنما يمنحه اهتمامًا وتشجيعًا عليه ..ومن ثم يزداد هذا السلوك الحسن لدى الابن ..

فالقاعدة التربوية أنه : " كلما زاد انتباهك للسلوك الجيد وأثنيت عليه ، كلما وجدت من أبنائك الكثير منه " .. فالقيم الجيدة تترسخ أكثر عبر بيانها ومدحها ..

وقد علمنا رسول الله ﷺ ذلك فكان يبرز خصائص بعض أصحابه وما يتفردون به من محامد إذ يقول : " إن من أمَنّ الناس عليّ فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته" (رواه البخاري – فتح الباري ج٧ ص ١٢) .

وقال ﷺ عن صلابة عمر وشدته فى الحق : " يا ابن الخطاب – والذى نفسي بيده – ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا قط إلا سلك فجًا غير فجك " (رواه البخاري – فتح الباري ٧/ ٤١).

كما كان " من الوسائل التشجيعية عند رسول الله ﷺ إعطاء الألقاب الحسنة التى تجعل صاحبها يتباهى بها ، ويكون موضع غبطة الآخرين ، وفيها تأكيد للسلوك الطيب . مثلًا " سيف الله المسلول " لخالد بن الوليد ، و " ذو النورين " لعثمان بن عفان . ، و " الفاروق " لعمر بن الخطّاب . و " أمين الأمة " لأبى عبيدة بن الجراح "(١).

ونحن أيضًا لا بد لنا أن نكتشف ما قد يبدو فى أبنائنا من علامات التميّز المختلفة ، وما يتمتعون به من مواهب وسمات خير ، فنركز عليها لتفعيلها وتنشيطها

---

(١) الطب النفسى والدعوة إلى الله – د. عبدالله الخاطر – ص ٥٩ .

.. وذلك عبر التشجيع والدعم للأبناء ، وأيضًا عبر الألقاب الإيجابية التى تناسب تميّز الابن ، وتذكّره بموهبته التى يجب أن يتعهدها بالتزكية والتطوير .. مثل أن نقول : "عبقري" .. "دكتور" .. "مصلح" ... "فهيم" .. "الباشمهندس" ..

وإذا لاحظنا على أبنائنا سلوكيات خاطئة ، فإننا نتوجه إلى نقد الفعل الخاطي والسلوك الشاذ ، وليس نقد الابن وتحطيم شخصيته .. فنقول : هذا الفعل سيء ، وأنت ولد مهذب لا يحسن بك أن تأتي مثل هذا السلوك .. إن وقوعك فى الخطأ لا يعني أنك غير مهذب ، فـ " كل بنى آدم خطّاء " ..

وحتى عند فشل الابن ..!!

نؤكد له أن التعثر فى مرحلة من مراحل الحياة - مهما يكن هذا التعثر أو الاخفاق - لا يدخل ضمن مفهوم الفشل .. فالرسوب فى الامتحانات أو الخسارة المادية فى التجارة مثلًا ، لا يعد نوعًا من أنواع الفشل إلا إذا استقر الفرد عند مستوى تعثره أو إخفاقه ولم يحاول النهوض من جديد ..

نقول له : " إنك لم تفشل فى الحقيقة ، ولكنك ازددت خبرة بهذا الأمر .. " .. " إنك تستطيع الإستمرار فى عملك برغم هذا الفشل العارض ..

وتأمل معى أخى المربي - أبًا أو أمًا - كيف عالج النبي ﷺ الخطأ الذي وقع فيه أبو محذورة ، وكيف رصد النبي فيه حسن صوته برغم خطئه ..

تأمل فى هذا الموقف الذى يحكيه لنا أبو محذوره رضي الله عنه بنفسه لما حدث بينه وبين الرسول ﷺ:

قال : " لما خرج رسول الله ﷺ من حنين ، خرجت عاشر عشرة من أهل مكة نطلبهم فسمعناهم يؤذنون بالصلاة ، فقمنا نؤذن نستهزىء بهم ، فقال رسول الله ﷺ: قد سمعت فى هؤلاء تأذين إنسان حسن الصوت ؟! ، فأرسل إلينا فأذنّا رجل رجل وكنت آخرهم ، فقال حين أذنت : تعال فأجلسني بين يديه فمسح على ناصيتي وبرك عليّ ثلاث مرات ، ثم قال اذهب فأذن عند البيت الحرام ، قلت كيف

يا رسول الله فعلمني كما تؤذّنون الآن به " رواه النسائي برقم ٦٣٣ .

... لقد انتبه رسول الله إلى جانب جيد في سلوك هذا الشاب الذي كان يستهزئ بالأذان ، وهو جمال صوته فعزز فيه النبي هذه الصفة حتى أصبح هذا الشاب مؤذن الرسول في مكة كما كان بلال مؤذنه في المدينة ..

إن ذكر إيجابيات الابن يجعله يبحث فى نفسه عن السلبيات ويحاول تغييرها، وأيضًا فإن هذا التشجيع يدفعه للحرص على الإستزادة من الصفات الطيبة ..

إن " الخير والشر، والتفوق والخمول ، لدى أبنائنا هى أشياء نسبية ، وليست مطلقة ؛ وينبغي أن نكون على وعي بذلك . وعلينا أن نتساءل : ما الذي نجنيه إذا نظرنا إلى أسوأ ما فى أبنائنا ، ومن ثم أوقعناهم فى دوامة اليأس واحتقار الذات ؟! وماذا نستفيد إذا نظرنا إلى نقاط القوة لديهم وأخذنا فى تحفيزهم ، وبث روح الأمل والرجاء فيهم ؟!

إن تشجيع الابن وتذكيره بنقاط القوة لديه ، وما يمكن أن ينجزه ويقوم به يظل آعود عليه بالنفع من إيقاعه فى القنوط ، ووضع العقبات فى طريقه .. فلماذا لا نتخذ من إيجابيات أبنائنا رأس جسر لبناء إيجابيات أكثر وأعظم ؟ " (١)

إن النقد للابن ليس الكشف عن المعائب فحسب ، بل الكشف عن مساحات الخير والجمال أيضًا ..

إنه ليس هناك ابن كله سلبيات و سيئات ..

إن علينا أن ندرب عقولنا على اكتشاف الحسنات و الايجابيات فى الابن .

فإذا اكتشفنا ما هو ايجابي قمنا بتقديره فيه ..

وإذا جمعنا إيجابياته عرفنا فيم يصلح هذا الابن ..

ومن ثم يمكننا توجيه طاقاته وإمكاناته التوجيه السليم .

---

(١) بناء الأجيال – د/ عبد الكريم بكار – ٦٤ ، ٦٥ بتصرف .

- **فقر الدم التربوي :**

المشاعر الإنسانية واحدة عند البشر ، وحاجات البشر النفسية والاجتماعية واحدة أو تكاد ..

ومن هذه الحاجات النفسية الفطرية ، حاجة الانسان إلى التشجيع من الآخرين ..

ومن ثم فإن إشباع حاجة الأبناء إلى التشجيع والمدح هو أمر في غاية الأهمية .

" إن تشجيع الطفل يؤثر في نفسه تأثيرًا طيبًا، ويحثه على بذل قصارى جهده لعمل التصرف المرغوب فيه. وتدل الدراسات أنه كلما كان ضبط سلوك الطفل وتوجيهه قائمًا على أساس الحب والثواب أدى ذلك إلى اكتساب السلوك السوي بطريقة أفضل، ولابد من مساعدة الطفل في تعلم حقه، ماله وما عليه، مايصح عمله وما لا يصح، وذلك بصبر ودأب، مع اشعار الأطفال بكرامتهم ومكانتهم، مقرونًا بحسن الضبط والبعد عن التدليل" (١) .

ولذلك ، فإن من الضرورى إستغلال كل فرصة مع الأبناء لإرسال رسالة إليهم مفادها " نحن نهتم بكم .. نحن نشارككم أفكاركم واهتماماتكم .. نحن نحاول أن نجعل فرحتكم فرحتين .. نحن نبذل جهودنا لنحمل عنكم همومكم ..

المهم هو إعطاء انطباع الإهتمام والعناية بكل ما يمثل نوعًا من التشجيع للابن وتحريك رغبته وجهده .

انظر إلى هذا المثال النبوي :

" عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ: يا أبا المنذر ، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ، قال : قلت الله وسوله أعلم ، قال : يا أبا المنذر أتدري أى

(١) إليك أختي المربية – خولة درويش – ص ٦

آية من كتاب الله معك أعظم ، قال : قلت (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) قال : فضرب فى صدري وقال: «ليهنك العلم أبا المنذر» رواه مسلم - برقم ٨١٠ .

لاحظ :

- أي آية من كتاب الله معك أعظم .... (سؤال مثير للتفكير).
- قلت : " الله لا إله إلا هو الحي القيوم "........ (استجابة).
- فضرب فى صدري ....(تشجيع غير لفظي).
- وقال ليهنك العلم .... (تشجيع لفظي بالثناء).
- أبا المنذر .... (تشجيع لفظي بالكنية) " (١) .

إن الرغبة فى الشعور بالأهمية تنبعث من داخل أعماقنا ، ومن هنا تأتى " قوة الإطراء " ، وقيمة التشجيع والدفع الإيجابي .. فإذا أردت أن يمنحك أبناؤك الاحترام والثقة ، وإذا أردت أن تحصل منهم على طاعة مطلقة ؛ فكل ما تحتاجه منهم هو مدحهم والثناء عليهم ..

إبحث عن شيء تمتدحه فيهم أو ميزة تشعرهم بأهميتهم ..

" أخبرهم فقط بمدى فخرك بشيء فعلوه ، ولتكن كريمًا فى المدح فهو سيعطيك مردودًا من الطاعة والتعاون " (٢)

جرّب مثلًا " إني فخور بك لـ .... " هذه الكلمات الثلاث الثمينة تعطيك النتائج المرجوة ..

هذه الكلمات الثمينة الصغيرة ستصنع المعجزات فى علاقتك بأبنائك .. فإذا قلت لابنك " إني فخور بك " سوف ترى ما يحدث له من تشجيع ومن إتقان لما تريده منه . لماذا ؟

إن الإطراء يطلق الطاقة ويحفز على العمل ، ويزيد من حماس الإنسان ، بل

---

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك - د.عادل رشاد غنيم - ص ٥٥ .

(٢) ٢١ يومًا للحصول على القوة والسلطة فى تعاملك مع الآخرين - جيمس ك . فانفليت - ١٣٥ .

ويخلق بداخله الرغبة فى فعل المزيد فى المرة القادمة ..

وإذا كانت تلك الكلمات أمام الآخرين ، فإن ذلك يكون حافزًا لمزيد من الطاعة والعمل والجد ..

" إنك تقول لابنك مثلًا : إنني فخور بك ، رغم مساوئه ومشاكساته الدائمة، فتجده مستعدًا لتحريك الجبال ، وبذل المستحيل لكسب ودّك ورضاك ، فالمدح حجر بناء الثقة فى النفس ، أما النقد الدائم وغير الهادف ، فإنه فى الحقيقة معول هدم وتدمير .. " (١) .

لذا أخي الأب والمربي ، حاول أن تكتسب " عادة " التشجيع لأبنائك ، حتى فى أقل التحسينات التى تطرأ على سلوكياتهم ، واعلم أن ذلك سوف يستحثهم على مزيد من التطور والتحسن فى سلوكياتهم ... لا تنتظر حتى يقوم الابن بعمل خارق أو عمل عظيم حتى تثنى عليه وتشجعه ، بل أثنى عليه لأقل إنجاز يقوم به .

إن كلمة "أشكرك" يمكن أن تصنع مفعول السحر فى علاقتك بأبنائك عندما تستخدمها على النحو الصحيح .. ويمكنك إضافة قوة دفع هائلة لهذه الكلمة بأن تضيف إليها " شكرًا جزيلًا " أو " ألف شكر " أو " إننى أقدر ما قمت به " .. إنك عبر هذه الكلمات تعطى أبناءك الثقة فى قيامهم بما هو مطلوب منهم على وجه مرض وجيد ، وهذا يدفعهم إلى مزيد من محاولة إتقان ما تطلبه منهم .. وهذا هو ما يريحك فى عملية التربية والتعامل مع الأبناء .

وأنت أخي المربي تملك من هذه الكلمات السحرية الشيء الكثير ..

وهذه أمثلة مما يمكنك قوله :

" تعجبنى الطريقة التى اتخذتها فى تعاملك مع هذا الأمر ".

" لأننى أعرفك جيدًا ، فأنا على يقين بأنك ستتصرف على نحو طيب ".

" أعتقد أن باستطاعتك القيام به ".

---

(١) كيف تنتقد الآخرين ، وتستولي على محبتهم واحترامهم – أكرم عثمان – ص ٤١ .

" إننى على يقين من قدرتك على تقرير هذا بنفسك ، وإن أردت المساعدة فستجدنى بجانبك ".

" أود معرفة رأيك فى .. "

كيف تشير إلى القدرات الشخصية وإلى التحسن :

" لقد بذلت جهدًا كبيرًا فى ... "

" أنظر إلى التقدم الذى أحرزته .. "

" لقد تحسن أداؤك فعلًا فى ... "

كيف تجعل الأطفال يتعلمون من أخطائهم ؟

" لقد أخطأت إذن ، فماذا ستفعل بصدد هذا الأمر ؟ "

" إن لم تكن راضيًا عن نفسك ، ماذا ستفعل "

كيف تشجع على تحمل المسؤولية ؟

" إن الأمر يرجع إليك "

" إذا شئت ذلك "

" يمكنك أن تقرر بنفسك "

" سوف يروق لي قرارك " (١).

إن مدح الابن له أثر فعال فى نفسه ، فهو يحرك مشاعره وأحاسيسه ويجعله يسارع وهو مرتاح بكل جدية إلى تصحيح سلوكه وأعماله، وهذا ما أكده لنا رسول الله ﷺ إذ نبه على ضرورة مدح الابن إن أردنا منه الإستجابة والتطبيق .:. فقد أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان الرجل فى حياة النبي ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ، فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله ﷺ، فرأيت فى النوم كأن ملكين أخذا بى فذهبا بي إلى النار ، فإذا هي مطوية كطي البئر ، وإذا لها قرنان ، وإذا فيها أناس قد عرفتهم فجعلت أقول : أعوذ

(١) كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د . سال سيفير – ص ٤٧ ، ٤٨ .

بالله من النار ، قال: فلقينا ملك آخر ، فقال لي : لم ترع .. فقصصتها على حفصة ، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ، فقال :" نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل ".. فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلًا ..

.... هكذا أثرّ مدح النبي ﷺ وتشجيعه لعبد الله بقوله: " نعم الرجل عبد الله " .. ثم تنبيهه إلى ما غفل عنه بأسلوب محبب ورائع : " لو كان يصلي من الليل" .. أثر فى عبد الله فما ترك قيام الليل حتى توفي ..

وكذلك رأينا الرسول ﷺ يوم الخندق يثنى على الغلام الذى تعلّم العربية والسريانية لخدمته ﷺ، فيقول عليه الصلاة والسلام : " أما إنه نعم الغلام " [(١)] ..

فالنبي ﷺ لم يقل لعبد الله بن عمر : يا عبدالله أنت لا تقوم الليل ، أو لماذا لا تقوم الليل ؟ لا ، بل قال : نعم الرجل عبدالله لو كان يصلي من الليل ! وكأنه ﷺ يقول : إن كل صفات عبدالله طيبة لو أنه أكمل هذه النقطة .. فأبرز الرسول ﷺ هذه الصفة التى كان يتمنى أن تكون فى عبدالله ، وأومأ إلى الخطأ الذى يريد أن يصححه ..

وهكذا يجب أن يكون المربي الناجح ، فهو يجعل الإطراء هو المدخل لنقد أخطاء الابن ..

فهو مثلًا يقول : " أحمد .. إن طباعك رائعة ، فأنت لا تخطيء إلا قليلًا .. والحمد لله عملك مرتب ، وطريقة مذاكرتك طيبة .. ومع ذلك فقد وجدت بعض الأخطاء البسيطة عندك .... ما شاء الله درجاتك ممتازة ، وأنا فخور بك .. ولكن الدرجة التى حصلت عليها فى مادة اللغة الإنجليزية تبدو دون مستواك ، ولكنى أعلم أنك تستطيع تحسينها».

ولا يسلك الطريقة الأخرى ..

مثل أن يقول : أحمد .. ما هذه الدرجات المنخفضة ؟ ما هذا الغباء ؟ يالك

---

(١) الإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ٥٦ ، ٥٧ بتصرف يسير .

من كسول .. أنت لا تصلح للتعليم .. فأنت منذ أول العام لم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ..

إن للمديح أثره العظيم فى نفوس الأبناء .. فلم لا نستبدل نقدنا لأبنائنا بعبارات مدح صادقة ؟.. نبدأ بمدح ما يقوم الابن من منجزات قبل أن نعدد له السلبيات .. نقول مثلًا : إننى فخور بك .. نعم الابن أنت ، لو لا أنك تفعل كذا ..

" إن إشباع روح الإيجابية فى نفس الطفل يمده بالثقة والقوة النفسية .. والمكافأة بحد ذاتها سواء كانت معنوية أو مادية تشجعه وتعطيه الحافز للمزيد من العطاء والاستمرارية فى السلوك الصحيح ، ومن ثم إخراج الإنسان الإيجابي الفعال الذى يتحمل المسؤولية ولا يهرب من واجباته ودوره فى هذه الحياة " [(١)]

فإذا أردت أخي المربي " من ابنك أن يخلص لك الطاعة ، وأن يمنحك تعاونه وثقته؟ .. فكل ما تحتاج إليه هو إضفاء المديح أو الثناء عليه ، ليس فقط مرة واحدة، ولكن طوال الوقت ، مرارًا وتكرارًا .. إمدحه بإخباره بمدى روعة ما يقوم به من أعمال ، وأنك فخور به .. كن كريمًا فى إطرائك ، فالإطراء هو أفضل الطرق لإنجاح من أمامك .. كما أن الانتقاد الدائم هو أسرع الطرق لتدميره " [(٢)].

أيها الآباء .. أيها المربون ..

لا شك أن الأبناء – كل الأبناء – هم فى المقام الأول مخلوقات عاطفية ، تؤثر فيهم المسائل العاطفية أشد التأثير !!

ولذلك فإن طريقنا إلى الدخول إلى عالم الأبناء ، والتأثير فيهم هو الهدية ، والبسمة ، والنظرة المحبة ، ومن قبل ذلك ومن بعده " الكلمة المشجعة "

---

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا – أكرم مصباح عثمان – ص ٣٣ .

(٢) ٢١ يومًا للحصول على القوة والسلطة فى تعاملك مع الآخرين – جيمس ك . فانفليت – ١٣٣، ١٣٤ بتصرف .

هذه الكلمة التى تفتح لنا باب هذا العالم الغريب – عالم الأبناء – فتتمكن من الدخول إلى نفوسهم وعقولهم وزرع القيم والمبادىء والمفاهيم والأفكار فيها ..

جرّبوا الإكثار من التعبير الواضح عن الإعجاب بأبنائكم مع الإقلال من الانتقاد السلبي ، فإن هذا سيغمرهم بالحب و يدفعهم إلى الاتقان و الإبداع ..

إن التقدير والتشجيع هو الماء لشجرة الأعمال الطيبة لتحمل المزيد من الثمار .. وليتذكر الآباء أن الدم الصحى الذى يحتاج إليه الأبناء هو التقدير والتشجيع . لا تحرموهم منه ، فقد يصابون بفقر الدم التربوي

- **الاعتزاز بالذات طريق النجاح :**

قال الأب شاكيًا من سلوكيات ابنه :

إنه لا يعمل شيئًا نافعًا .. ليس من شيء يقوم به إلا اللعب بالكومبيوتر أو بالكرة أو بأي شيء آخر !!

قلت : كيف حاله فى المدرسة ؟

قال : ينجح ، ويمكنه أن يكون أفضل ، ولكنه لا يملك أي حماس لذلك!!

قلت : لماذا يأتى أبناؤنا السلوكيات الجيدة ؟ ما الذى يحمسهم لذلك ؟

قال : لا أدري ماذا تقصد .. ؟

قلت : نحن مثلًا نستيقظ من النوم ونذهب إلى العمل كل يوم لسببين ، لنحصل على الراتب (هذا حافز خارجي) .. ولنحصل على الرضا الشخصي (هذا حافز داخلي) ..

وكذلك الأبناء .. لا بد لهم من حوافز داخلية تدفعهم إلى السلوك الحسن ، ولا بد لهم فى ذات الوقت من حوافز خارجية لذلك السلوك .. فالحوافز الداخلية والخارجية تعمل معًا لخلق شخص مسؤول .

خذ مثالًا :

إنك حين تنجح فى عمل ما ، فيمتدحك رئيسك فى العمل ، فأنت تواصل العمل بجد أكثر ، لأن النجاح ولّد بداخلك باعثًا داخليًا ، ومدح رئيسك أعطاك باعثًا خارجيًا للنجاح ..

وبذات الطريقة يمكنك – أيها الأب والمربي – أن تدفع أبناءك إلى السلوك الحسن عبر إشعارهم بالنجاح ومدح ما يقومون به من سلوكيات حسنة ..

فإذا قام الابن بتنظيف حجرته ، فامتدحه الأب لذلك ، فإن شعور الابن بالنجاح فى تنظيف الغرفة يمده بباعث داخلي يحمّسه للمحافظة على نظافة حجرته..

إن من الجيد أن تقول لابنك : "تعجبني الطريقة التى اتبعتها عندما قمت بذلك " .

ولكن من الأفضل أن تقول : " إنه عمل رائع ، ينبغي أن تفخر بذاتك" .

إن الجملة الثانية تخلق الرغبة الداخلية فى النجاح والتقييم الذاتي عند الأبناء .. وهذه الرغبة الذاتية والباعث الداخلي هو الأهم فى تقويم سلوكياتهم..

ولذلك يجب أن نحرص كآباء ومربّين أن نقرن مكافآتنا الخارجية كزيادة المصروف مثلًا بتعليقات تؤكد الباعث الداخلي عند أبنائنا مثل أن نقول : لقد أبليت بلاء حسنًا فى الإمتحانات .. هذه هى الزيادة التى وعدتك بها فى المصروف .. لا بد أنك تشعر بالفخر لأنك حصلت على هذه الدرجات العالية فى الإمتحان .

والنصيحة التربويه هنا : قم بإلقاء الضوء على نجاحات ابنك ، وقم بتشجيعه ليكون واثقًا من نفسه ، فهذا يساعده على الشعور بالنجاح ، وهذا الشعور يدفعه إلى مزيد من النجاح ..

ونوضح ما نقصد فنقول :

افترض أن طفلك يستغرق أربعين دقيقة ليقوم بعمل ما لا ينبغي أن يستغرق أكثر من عشرة دقائق ..

قم بتشجيع الابن ليحاول القيام به فى ثلاثين دقيقة مثلًا .. فإذا قام به فى هذه المدة فامدحه على هذا التحسن ، وادفعه إلى التحسن في الذى يليها .. محاولة القيام بذات العمل فى عشرة دقائق .. تدريجيًا سيتحقق هدفك ، وينجح الابن فيما تريده أن يصل إليه ..

وهكذا .. قم – أيها المربي – باستخدام التشجيع لتحصل على بداية ناجحة ، وعندما ينجح الابن ، فسوف يزيد ذلك من حماسه ليحسن التصرف فى المستقبل ، وإذا سلك الابن سلوكًا جيدًا فأخبره أن سلوكه هذا جيد ، فسيزيد ذلك مما لديه من حماس ..

مثال :

إذا طلبت من ابنك أن يقوم بتنظيف حجرته ، فقام بتنظيفها على غير الشكل المطلوب ..

فلا تقل له : " يا لك من كسول ، إن طفلًا أصغر منك يمكنه القيام بهذه المهمة أفضل منك بكثير وفى وقت أقل مما أخذته أنت !!!

وإنما قل له : " لقد قمت بنصف المهمة ، فقد نسيت بعض الأشياء بغير ترتيب .. سأقوم أنا بترتيب بعضها لأريك كيفية ذلك .. بعد ذلك يمكنك أنت ترتيب الباقي .. إنني على ثقة أنك سترتبها ، وأنها سوف تبدو فى غاية الجمال " ..

إن قيمة الإنسان تكمن فى ثقته فى قدراته ، وكلما اعتز بذاته ؛ استطاع السيطرة على سلوكه ..

ولذلك ، نرى الأبناء الذين يثقون فى قدراتهم ، ويعتزون بذواتهم ؛ يحسنون التصرف ويصلون إلى النجاح فى حياتهم .

و لا نجد ابنًا قط يظن بنفسه الخير ، ويسيء التصرف فى الوقت ذاته ؛ ذلك أن من يثق بنفسه يتوقع النجاح ، ومن ثم فهو دائم المحاولة للوصول إليه .. أمّا من يتوقع الفشل فإنه يجد أن آمن سبيل للهروب منه هو أن يتحاشى التجربة

والمحاولة..!!!

ومن هنا فلا بد لنا أن نثق فى أبنائنا ، ونبث فيهم الثقة فى قدراتهم .. ، ونؤكد لهم أنهم يستطيعون التصرف بشكل جيد ، بل ونشجعهم على دوام المحاولة .. *والتأكيد على أن المرء الذى يعتمد فى قيمته على غيره ؛ يفقد قيمته بفقد هذا الغير ..* وأن الثقة فى النفس ضرورية لتوسيع طموحات الفرد لخوض التجارب ومواجهة المشكلات ..

وأن " الثقة بالنفس لا تعني الغرور ، وإنما تعني يقين الشخص بأنه قادر على القيام بأمور قد لا يستطيع كل الأقران القيام بها ، كما تعنى إحساسًا قويًا بالقدرة على التقدم ، والتفوق على الذات ، والصمود فى وجه التحديات .

ومن هنا ، فإن خطابنا التشجيعي لأبنائنا يجب أن يركّز على تنمية هذه المعاني، وذكر بعض القصص التاريخية والواقعية التى تقررها وتشير إليها ، فالقصص والحكايات كثيرًا ما تساعد على إزالة الأوهام ، وكثيرًا ما تحوّل الدلالة الرمزية لدى الناشيء ، فتتغير نظرته إلى الأشياء ، ويصبح ما كان يظن أنه مستحيل أو صعب ميسورًا أو ممكنًا " [١] .

.. تكلّم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب ، فأعجب عبد الملك بما سمع من كلامه ، فقال له : ابن من أنت ؟ قال أنا ابن نفسي يا أمير المؤمنين ، التى بها توصلت إليك ..

إن الابن الذى يظن فى نفسه القدرة على النجاح هو ابن يسعى للنجاح ، ويحصل عليه بإذن الله ..

فإذا أردنا لأبنائنا النجاح فى حياتهم ، فلا بد من تشجيعهم حتى يتكون لديهم الاعتزاز بالذات ..

---

(١) بناء الأجيال – د. عبد الكريم بكّار – ص ٨٥ ، ٨٦ .

خذ مثالًا :

يسقط الابن أثناء تعلّمه ركوب الدراجة .. فإذا قال الأب : " ليست هذه هى الطريقة الصحيحة لركوب الدراجة ، لقد وضحتها لك مائة مرة ، ولكن يبدو أنه لا فائدة معك " .

إن هذه الكلمات تقوّض اعتزاز الابن بذاته ..

إليك تعليقًا أنفع : " يا لها من محاولة جيدة ، إن أداءك يتحسن فى كل مرة ، وإننى واثق من أنك تستطيع أن تقوم بذلك على الوجه الصحيح " .

لا شك أن هذه الكلمات تشعر الابن أنك تثق به ، ومن ثم فإنه هو الآخر يثق فى نفسه وفى قدرته على النجاح ..

إن ثقتك - أيها المربي - فى أبنائك هى خير محفز لهم ؛ فقم بتحفيز أبنائك والتأكيد لهم أنهم قادرون على القيام بما هو مطلوب منهم من الأعمال على خير وجه، و إن أصاب الفشل محاولتهم ، فليس بين البشر من لا يصيبه الفشل أحيانًا .. ولكن المهم إذا شعر الإنسان بالإحباط للفشل ، ألا يقعده ذلك عن المحاولة مرة أخرى .. وبذل الجهد والمثابرة " قل له إن حصولك على درجة جيدة ليس بالأمر المستحيل ، ولكنه يتطلب منك العمل الجاد ، وإنى على ثقة أنك تقدر على ذلك ، فقط حاول وسيوفقك الله تعالى " [(١)] .

ومما يعين المربي على ذلك تعليم الأبناء أن كل إنسان له نقاط قوة ونقاط ضعف ، وأن العاقل من ركّز على نقاط قوته وإيجابياته فلم يحبطه الفشل أو يقعده الخوف ..

ومن أكبر ما يعين المربي على تعليم أبنائه هذا الأمر ، أن يعلمهم كيف يجتازون ما يلم بهم من إحباط ، و يؤكد لهم أن الفشل جزء من الحياة ، فلا يوجد بيننا من لا يصيبه فشل فى حياته .. بل ليس هناك فى الحقيقة فشل ، وإنما زيادة فى

(١) كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك - د . سال سيفير - ص ١٠٠ ، ١٠١ بتصرف .

الخبرة . فكل مرة نفشل فيها تعلمنا شيئًا جديدًا ..

إن الأبناء الذين لا يرون إلا نقاط ضعفهم يفتقرون إلى الاعتزاز بالنفس ، ويتوقعون الفشل دائمًا ، ومن ثم فهم يحجمون عن أية محاولة أو مشاركة خوفًا من هذا الفشل .. وأما إن أصابهم الفشل فعلًا فإن خيبة أملهم تكون كبيرة ، فيأخذون في ترديد أنشودة العجز الخالدة : لقد بذلت ما أستطيع ولكن الحظ خانني .. أو ولكن أعدائي تربصوا بمحاولتي فأفشلوها .. بل ربما شعروا وقتها أن حياتهم بلا معنى ..!! ، أو ظنوا بأنفسهم العجز والفشل ، وافتقاد أدنى قدرة على مواجهة الواقع فأخذوا يرددون : " أنا رديء .. أنا لا أحسن عملًا ..".

والقاعدة التربوية هنا :

" إن المؤمن يليق به أن يثق في نفسه ، وأن يحسن الظن بها ، وأنه مؤهل للأعمال الجليلة من خلافة الأرض ، وتقويم كل اعوجاج ، وأمّا خوفه من السقوط فهو رقابة تتولى تنقية نفسه من الشوائب ، لأن المحيط الذي يعيش فيه ملء بالغبار "[١] .

وهذه قصة رمزية توضح ما أردنا من هذا الفصل :

كانت مجموعة من الضفادع تقفز مسافرةً بين الغابات..

وفجأة وقعت ضفدعتان في بئر عميق ..!!

تجمعت جماهير الضفادع حول البئر، و حين شاهدوا مدى عمقه صاح الجمهور بالضفدعتين اللتين في الأسفل أنهما لا محالة ميتتان ؟!!

تجاهلت الضفدعتان تلك الصيحات ، وحاولتا الخروج من ذلك البئر بكل ما أوتيتا من قوة وطاقة ..

.. استمر جمهور الضفادع في الصياح بهما أن تتوقفا عن المحاولة لأنهما ميتتان لا محالة ..!!

---

(١) نحو المعالي – محمد أحمد الراشد – ص ٢١ ، ٢٢ .

أخيرا انصاعت إحدى الضفدعتين لما كان يقوله الجمهور، واعتراها اليأس؛ فسقطت إلى أسفل البئر ميتة .. أما الضفدعة الأخرى فقد دأبت على القفز بكل قوتها.

ومرة أخرى صاحت جماهير الضفادع طالبة منها أن تضع حدا للألم وتستسلم للموت؛ ولكنها أخذت تقفز بشكل أسرع حتى وصلت إلى الحافة ومنها إلى الخارج ..!!

عند ذلك سألتها جماهير الضفادع : أتراك لم تكوني تسمعين صياحنا؟!

لم ترد عليهم الضفدعة ، ولكنهم فهموا منها أنها مصابة بصمم جزئي، لذلك كانت تظن وهي في الأعماق أنهم يشجعونها طوال الوقت على إنجاز المهمة الخطيرة..!!

هل اتضح لك أخي المربي – أبا وأمّا – ما قصدته ؟

● ***إن للكلمة قوة الحياة والموت ..***

-فالكلمة المشجعة لمن فى الأسفل قد ترفعه إلى أعلى ، وتجعله يحقق ما يصبو إليه .

-وأمّا الكلمة المحبطة لمن هو فى أسفل ، فإنها قد تقتله ..؟!

... فانتبه – أخي المربي – لما تقوله ، وامنح الحياة لأبنائك ..

وأمّا أنت – أيها الابن – فاعلم أنه بإمكانك أن تقوم بما أعددت له بشرط واحد " لا تدع كلمات الآخرين تدفعك إلى اعتقاد خاطئ بأنك لا تستطيع ..!!

❀❀❀

الفصـــل الثـــاني

التحفيز فى رحلة الحياة

للتحفيز الإيجابي الأثر الأكبر فى تحسين سلوكيات أبنائنا .. ولكن هذا التحفيز الايجابي ليس هو الأمر المستحب دائمًا ..!!

ذلك أن الحياة لا تسمح لأبنائنا أن يعيشوا ملوكًا متوجّين ، بل لا بد لهم من الكفاح والعمل ..

وفى حياة الكفاح والعمل سيواجه أبناؤنا تحفيزًا إيجابيًا وسلبيًا طوال رحلة الحياة ..!!

فإذا حاولنا تربيتهم مستخدمين الحوافز الإيجابية - فقط - فإننا لا نعدهم للعالم الذى يوجد خارج منازلهم .. وبالطبع فليس هذا أسلوبًا صحيحًا فى التربية .. بل لا بد من إعداد الأبناء بطريقة مناسبة لكي يعيشوا فى عالم الواقع .. فما هي تلك الطريقة ؟

• المدح .. متى ، وكيف ؟

أبناؤنا - بل البشر عمومًا - مخلوقات عاطفية تجذبهم الكلمة الطيبة ، وتنفرهم الإهانة والتوبيخ والتقريع .

قالت أم حكيمة : " يمكنك أن تجذب كثيرًا من النحل بنقطة من العسل ، ولا تستطيع ذلك ببرميل من الخل ..!!

قد يصعب عليك أيها المربي الاعتقاد بأن كلمة هنا، أو كلمة هناك يمكن أن يكون لها عظيم الأثر على أبنائك .. ولكن هذه هى الحقيقة التربوية الثابتة ..

فاهتمام وتشجيع الآباء من أقوى المكافآت التى ينالها الأبناء ، إذا كان هذا الاهتمام إيجابيًا ؟!!

وهل يمكن أن يكون " الاهتمام " سلبيًا ؟

نعم .. يمكن أن يكون سلبيًا .. كيف ؟

عندما تعطي اهتمامًا لابنك لحسن سلوكه فقد أعطيته اهتمامًا إيجابيًا ..

أمّا حين تعطيه هذا الإهتمام لأنه أساء السلوك ، فأنت هنا تعطيه اهتمامًا سلبيًا..

فمثلًا .. حين تغضب من سلوك لابنك ، وتهدده ، وتحقق معه ، وتلقي عليه المحاضرات .. فإنك بكل هذا تكاد تكون قد أثبته على السلوك السيء .. ومن ثم سيزيد الابن من هذا السلوك للفت انتباهك أكثر والحصول على اهتمامك الذى يفتقده حين يكون سلوكه جيدًا !!!

إن بعض الآباء لا يقدم النصيحة لأبنائه إلا بعد وجبة دسمة من اللوم والتوبيخ ، إنهم يحرمونهم من كل إيحاء إيجابي ، ويتخذون مما يستحق الأبناء عليه التشجيع والشكر سبيلًا إلى صد الطفل ووضع الحجب بينهم وبينه ؛ فقد يحدث أن يقول الابن لأبيه : لقد حفظت سورة من القرآن ، فيقول الأب : وهل كتبت واجبك ؟ أو تقول الابنة لأمها : صليت الظهر ، فيقول الأب: وهل ساعدت أمك فى أعمال المنزل؟ .. وهكذا ..

إن أي إنسان يستطيع الإنتباه إلى السلوك السيء للطفل ، أمّا الإنتباه إلى السلوك الجيد فهو أمر يحتاج إلى التدريب والممارسة .. وأول خطوات هذا التدريب أن نتعلم كآباء ألا ننظر للسلوك الحسن على أنه أمر مسلّم به ، بل كلما أحسن الابن السلوك أظهرنا الإهتمام والثناء .. ونحن فى ذات الوقت نتجاهل أساليب جذب الانتباه من أبنائنا والتى تتمثل فى الاستفزاز والالحاح ..

خذ مثالًا :

يجلس أحمد وعبد الرحمن للعب بالكومبيوتر فى هدوء .. كل شيء يمضى فى سلام ..

فجأة ينشب نزاع بينهما " إنه دوري فى اللعب .. بل دوري أنا لقد لعبت أنت كثيرًا "

يدخل الأب الغرفة ويغلق الكومبيوتر ، ويوبخ الطفلين ، ويرسل كلّا منهما إلى غرفته ..

ماذا حدث ؟

لقد أحسن هذان الطفلان السلوك لمدة أكثر من ثلاثين دقيقة ، ولم يعلق الأب على ذلك ، ولم يمدحهما على هدوئهما ومشاركتهما لبعضهما .. ثم فى اللحظة التى نشب بينهما النزاع اندفع على الفور ليظهر اهتمامًا (سلبيًا) بهما ..!!

ماذا تعلم الطفلان من هذا الإهتمام السلبي ؟

لقد تعلما أنهما إذا أرادا أن يستحوذا على اهتمام الأب فما عليهم إلا أن يسلكا سلوكًا سيئًا فى صورة شجار أو مقاطعة أو استفزاز أو شكوى ..!!

ولكي تصحح – أخي المربي – تحفيزك السلبي ليصبح إيجابيًا ..ركّز على السلوك الإيجابي لطفلك وامدحه على الاستمرار فيه .. فإذا كان أبناؤك يلعبون دون شجار فقل : " إننى أقدّر انسجامكم فى اللعب معا ، وأشكركم على ذلك .. إننى فخور بكم " .

"إن التشجيع يعطى أبناءنا المدح ويعطيهم فى ذات الوقت الطمأنينة ، ومن الخطأ التربوي التقليل من الثناء على ما يقوم به الطفل من سلوك حسن والإسراع فى الوقت نفسه إلى انتقاد السلوك السيء ، بل لا يعتبر انتقاد السلوك السيء ذا فائدة إذا لم يقم الوالدان بتوضيح سلوك حسن بديل للطفل .. بالإضافة إلى أن كثيرًا من الآباء يضيعون ما قدموه من ثناء بإتباعه بنقد الطفل مثل " نعم لقد كففت عن الشجار ، ولكن بعد ما وبختك " ..

تأكد أيها الأب أن عبارات الثناء ، والتحكم بمشاعرك وتعبيرات وجهك الحانية سوف تعود بالمكاسب عليك وعلى طفلك ..

وخذ أمثلة لما ينبغي أن تقول :

" إنى سعيد وفخور بالطريقة التى تصرفت اليوم ، وأدرك أن ذلك لم يكن سهلًا " (إتباع الثناء بتعليقات التعاطف)

" عمل رائع ! لقد أعجبنى ذلك ، وخاصة عندما كنت ... " (حاول أن تكون محددًا).

" كان من الممكن أن تغضب من أختك غضبًا شديدًا ، ولكنك لم تفعل ، وهذا يدل على سعة صدرك ، أنا سعيد وفخور بك " (الثناء على السلوك الحسن)

" لقد لاحظت أنك تقاسمت وجبتك مع أخيك ، وهذا يدل على رقة مشاعرك وذوقك العالى " (الثناء على السلوك الحسن)

.... إن الأبناء فى بحاجة ماسة إلى الثناء والتشجيع الأبوي الذى يساعدهم على االتمسك بالسلوك الحسن إذا استخدم بطريقة رشيدة ، وأنسب وقت لتشجيع طفلك والثناء عليه وطمأنته هو أن :

يتم بأسرع ما يمكن ... وكلما أمكن ذلك .. وعندما يقوم طفلك بجهود عظيمة ، وتحكم بمشاعره ، ويسلك سلوكًا طيبًا .. (١)

وإذا أردنا للسلوكيات السيئة أن تندثر ، فالواجب علينا أن ننتبه للسلوك الجيد من أبنائنا ، بل ومحاولة البحث عنه والتعليق عليه بالمدح والثناء والتشجيع والتقرب والعناق ... بالكلمة الطيبة ، والدعاء بصوت رقيق .. كل ذلك مع إعطاء التوجيهات بلا توبيخ حين نرى نقصًا فى جانب من الجوانب ..

إننا حين نفعل ذلك ندفع الابن إلى مزيد من السلوكيات الجيدة للحصول على الإهتمام ..

إن من المفيد النافع استخدام المربي للثناء والمدح للمتربي بما هو حق ، تشجيعًا له ، وتأليفًا لقلبه ، فهذا هو النبي ﷺ يشجع الأنصار على إحسان ضيافة وفد عبد

---

(١) كيف تقولها لأطفالك – د. بول كولمان – ص ٢٠ .

القيس بقوله : " يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم ، فإنهم أشباهكم فى الإسلام ، أشبه شيئًا بكم أشعارًا وأبشارًا ، أسلموا طائعين غير مكرهين ولا موتورين ، إذ أبى قوم أن يسلموا حتى قتلوا .. وقال للأشج فى تكملة الحديث : " إن فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة " (أخرجه أحمد فى المسند ج٣ / ٤٣٢).

إن التحفيز الإيجابي يحفّز الأبناء إلى سلوك الطيب من الفعال ..

ومن هنا وجب على الآباء والمربين عدم تجاهل أى خطوات تحسن ولو صغيرة فى سلوكيات أبنائهم .

على سبيل المثال ..

إذا كان الابن يحصل على أقل الدرجات فى مادة العلوم ..

فقل له : إذا ذاكرت أكثر أو قمت بعمل المزيد من الواجبات فإن بإمكانك أن ترفع مستوى درجاتك ..

ولا تقل : إنك لن تتحسن فى مادة العلوم ، ليس هناك فائدة فيما تحاول !!

وقل له : يمكنك أن تجعل مادة العلوم سهلة عن طريق القراءة فى بعض الكتب التى تشرح هذه المادة ، وكذلك بعض برامج الكومبيوتر التي تعرض هذه المادة بطريقة جذابة ..

ولا تقل له : إن مادة العلوم ثقيلة ، والكتب التى تذاكر فيها فى غاية الصعوبة.

وقل له : رغم حصولك على درجات متدنية فى مادة العلوم ، ولكننى على ثقة أن بإمكانك تعويض ذلك عبر القراءة فى كتب أخرى ..

ولا تقل له : لا فائدة .. لقد حصلت على درجات متدنية ، ورسبت فى المرات السابقة ..

ولا يعنى ذلك مدح الأبناء على طول الخط .. بل لا بد أن نكون حذرين فلا نزيد فى المدح والثناء لأن ذلك يشعر الابن بعدم الأمانة فى تقويم ما يقوم به ، وهذا

يؤدي إلى نتائج عكسية ..

فلا بد لنا فى ذلك من " ضوابط استخدام الثناء .. ومنها :

- أثن على السلوك وليس على الطفل .
- تأكد من عدم إفراطك فى تقديم الثناء وأنه يتفق مع الموقف .
- قدّم مع الثناء السبب الذى يجعل عملًا ما جيدًا .

وبطبيعة الحال لن نقوم بتعزيز الطفل بشكل متواصل ، وإنما نقوم بتقليل التعزيز تدريجيًا ، فبعد أن يكون الطفل قد اكتسب السلوك واستمر فى أدائه نقوم ببرمجة التعزيز ، أي بإعطائه فى مراحل تدريجية . "(١)

و بطريقة صحيحة ، فحين تثنى على ابنك حاول الثناء على الفعل الذى قام به، وليس على شخصه .. " تبدو حجرتك نظيفة وجميلة ، إنها تدل على الجهد الكبير الذى بذل فيها ، لك أن تفخر بأنك قمت بهذا الجهد الرائع "

هذه هى الطريقة الأفضل ..

أمّا أن تقول : " إنك ولد رائع لأنك قمت بتنظيف حجرتك " .. فهذا القول يحمل بين طيّاته رسالتين :

أنه يصبح إنسانًا غير جيد حين لايقوم بذلك .. كما أنه إن كان عملًا عاديًا ، فإننا نكون قد أغدقنا عليه الثناء بلا عمل حقيقي ، وهذا يدفعه للغرور.

كما أنه من الخطأ أن تقول : " أنت أفضل طفل فى هذا العالم !!!

وإنما : لقد كان ما قمت به أمرًا جيدًا ..

هكذا " ينصب المدح على الشيء لا على الشخص ، بحيث نقوم بالثناء على ما يقوم به الطفل ، وليس على شخصه .

فعلى سبيل المثال :

الصواب : الإمتحان الأخير الذى حصلت عليه فى مادة اللغة العربية كان ممتازًا يا أحمد .

---

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د.عادل رشاد غنيم – ص ٥٤ ، ٥٥

الخطأ : أنت طالب مجتهد يا أحمد .

الصواب : لقد كان عملك في تنظيف غرفة النوم رائعًا يا فاطمة .

الخطأ : إنك أفضل البنات يا فاطمة . "(١) .

إننا حين نقوم بمدح الطفل وتشجيعه بصفات المدح دون أن يكون قد أنجز شيئًا بالفعل ، فإن هذا المدح والتشجيع لا يؤدى إلى تحسن فى تصرفاته ، بل على العكس ربما أصابه هذا المدح الجاني بلون من ألوان الغرور الذى لا يؤدى إلا إلى فساد الصورة الحقيقية للطفل فى مخيلته وتغليب الوهم فى حياته على الحقائق الملموسة ...

أمّا حين يكون مدحنا للطفل على عمل قد قام به فعلًا ، ويكون مدحنا لنوع العمل وليس لشخص الطفل ، هنا يكون المدح نافعًا ، بل واجبًا تربويًا ..

خذ مثالًا :

حين يقوم الطفل بإنجاز واجبه بصورة صحيحة ومتقنة .. فيقال له : ما شاءالله لا قوة إلا بالله .. هذا رائع ..

إن هذا المدح يفيده أكثر من قولنا : إنك طفل بالغ الذكاء لأنك قمت بهذا العمل الرائع .

فالمدح يجب ألا يكون إلاعلى عمل مجد .. وهذا توجيه تربوي هام يلتزمه المربي فلا يكثرمن عبارات الاستحسان لئلا تفقد قيمتها وتدخل الغرور إلى نفس الطفل..

والنصيحة التربوية هنا :

لا تخبر ابنك أنه مجتهد ، وهو ليس كذلك .. فاكتساب الثقة بلا واقع حقيقي هو الغرور .

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا – أكرم مصباح عثمان – ١٥٣ ، ١٥٤ .

والقاعدة فى مدح الابن تقوم على:

" اتباع ذكر الميزة بمسؤولية الشخص عنها ، مثلما كان بين الراهب والغلام فى قصة أصحاب الأخدود[1] إذ أن الراهب لما ذكر للغلام ميزته أتبعه بذكر المسؤولية التى تقع عليه باعتبار هذه الميزة . . وفى هذا حماية من الغرور ، لأن الإحساس بالميزات دون الاحساس بتكاليفها يجعل الانسان يعيش فى شعور دائم بمميزاته فينحرف به ذلك الشعور إلى الغرور .

ولهذا لما قال الراهب للغلام : " إنك اليوم أفضل مني ، أتبعها بقوله : "وإنك ستبتلى ، فلا تدل علي " [2] .

أخي المربي ..

تعود أن تفتح فمك بالثناء والمدح على أبنائك ، ولكن دون مبالغة أو إسراف..

إستحسن ما يقولون ويعملون من خير ؛ فإن لهذا أكبر الأثر فى استمرار تلك الأقوال والأعمال ..

إذا قام ابنك بعمل يستحق المديح ، فاجعله يشعر بالسعادة حينما يحسن ، مثلما أنك وبخته حين أساء .

لاحظ أبناءك حينما يحسنون التصرف ، وقل لهم بالتحديد ماذا فعلوا من أمر حسن . أخبرهم بسرورك لما فعلوه ، وتوقف عن الكلام لثوان قصيرة ، فإن صمتك يشعرهم أنهم راضون عن أنفسهم.

واختم مديحك بالاحتضان أو الربت على الكتف بحنان ..

---

(١) فى النفس والدعوة – رفاعي سرور – ص ١٩٨.

(٢) راجع إن شئت القصة بتمامها فى باب " مده بالأخبار ، فصل التربية بالقصة".

واعلم أنه برغم أن مدح أبنائك لا يستغرق أكثر من دقيقة واحدة ، فإن إحساسهم بالرضا عن أنفسهم سيرافقهم طوال حياتهم .

• الانتقاد .. نعم ، ولكن :

ليس هناك أب يستيقظ فى الصباح مخططًا أن يسيم ابنه الذل والشقاء .. أو يحاول عن قصد أن يجعل ابنه خائفًا أو طائشًا أو بذيئًا .. ومع ذلك فإن ذلك كله قد يحدث فى كثير من الأحيان . !!

و لا توجد أم تستيقظ فى الصباح وتخطط لجعل حياة أبنائها تعيسة .. ولكن بالرغم من حسن النوايا ، فغالبًا ما تكون هي وراء هذه التعاسة إن حدثت ؟!!

كيف يحدث كل هذا ؟

يحدث عبر الطريقة الخطأ فى انتقاد السلوكيات غير السوية للأبناء ..

فالانتقاد الذي لا يجد طريقًا إلا الخشونة والسخرية والاستخفاف ، يشعرهم بالمرارة ، ويملأ قلوبهم بردة الفعل الدفاعية أو ربما الإنتقامية ، وهذا يقلل من طاعتهم ، وبالتالي من رغبتهم فى تغيير سلوكياتهم ..!!

بينما الطريقة الصحيحة تقوم على جذب انتباه الابن إلى ما فعل من الخطأ ، ومحاولة إفهامه هذا الخطأ بلغة سهلة ، مع مراعاة الوضوح وعدم الإكثار عليه بالأوامر والنواهي ..

هكذا بلا تحقير له عند انتقاده ، وبتركيز واضح على الخطأ والتقصير ، وعلى ما يجب على الابن القيام به لتفادى هذا الخطأ مستقبلًا ..

ومن ثم تساعده هذه الطريقة فى الانتقاد على تقوية ثقته بذاته ، كما تزيد من رغبته فى تطوير شخصيته ..

" ولنستعرض هنا تجربة " هند " الأم الناجحة مع ابنها " حسن " البالغ عشر سنوات وهي على النحو التالي :

▪ اتصلت مدرسات "حسن" بوالدته يطلبن لقاءها لمناقشة سير دراسة ابنها..

تضايقت " هند " من هذا اللقاء الذى تكرر مرتين هذا العام والشكوى واحدة .. سرحان ابنها فى الصف .. واهماله لواجباته ، واجتماع رأي مدرساته حول مستوى قدراته العقلية وعدم استغلالها لكي يتفوق .

قابلت " هند " مدرسات ابنها .. واتفقت معهن على أن تكون حازمة معه حول ضرورة إنهائه لواجباته الدراسية يوميًا قبل أن يمارس أى نشاط وحده أو مع أصدقائه ، وركزت " هند " فى تطوير أداء ابنها الدراسي حول أهمية إقناعه بأن اهتمامه بدراسته يجب أن يكون نابعًا من نفسه .. لا خوفًا من العقاب ، ولأنه يرغب فى التفوق حبًا فى النجاح ، حتى يتعود على مثل ذلك التفكير وهو يبني مستقبله المهني .

قاوم " حسن " فى البداية حزم والدته .. لكنه استسلم فى النهاية .. لأنه أدرك تصميمها هي ووالده اللذان اتفقا على نفس المبدأ فى معاملة ابنهما .

وتدريجيًا ، لاحظت الأم أن ابنها تطور إلى حد ما فى جميع المواد الدراسية ، إلا أنها اندهشت عندما قابلت مدرساته فى اليوم المفتوح ، عندما وجدت أن مدرسات اللغة العربية والدين والحساب والعلوم ، لاحظن ذلك التحسن رغم أنهن أكدن مرة أخرى أنه قادر على المزيد من التفوق الدراسي لو اجتهد أكثر ، إلا أن مدرسة اللغة الإنجليزية التى شعرت الأم أنها لم تحاول ملاحظة تطور ابنها الدراسي ، لأنها أشارت إلى نسيانه لبعض واجباته قبل أسبوعين وهي تنتقد إهماله لمادتها .

استاءت " هند " أن تركز المدرسة فقط على تلك الفترة التى سبقت لقاءها بمدرساته ، ولا تلاحظ محاولة ابنها فى تحسين أدائه الدراسي خلال الأسبوعين الأخيرين .

وصلت " هند " إلى البيت مرهقة لما تحاوله مع ابنها من جهد و إقناع بأهمية دراسته ، وكانت أيضًا متضايقة جدًا ، لأنه لا يستغل كل قدراته العقلية ليحصل على درجات تتناسب مع ذكائه .

وكان ابنها فى انتظارها ، ليسألها بلهفة عما ذكرته مدرساته عنه ؟

فردت عليه قائلة : مدرسات اللغة العربية والدين والعلوم والحساب لاحظن أنك قد تطورت .. لكنهن أكدن لي أنك تستطيع .. لو بذلت جهدًا أكبر أن تكون من أوائل الطلبة فى الفصل .. لا أدري ماذا تنتظر لكي تستفيد من ذكائك حتى تتفوق ؟!!.

ووجدت الأم نفسها تبكي لا شعوريًا .. لما تشعر به من ضغوط نفسية بسبب عدم تجاوب ابنها الكامل معها . ولم تكن تعلم أن رؤية ابنها لها وهي تبكي سيكون له أفضل تأثير عليه لأنه شعر بمدى حبها وإخلاصها وبأنه راغب أن يسعدها وأن يكسب إعجابها ، لف ذراعيه حولها بلهفة وحب ووعدها قائلًا :

- لا تبكي يا أمي ، والله العظيم أعدك بأني سأحاول أن أتقدم أكثر فى دراستي، وستكونين فخورة بي ، أعدك بذلك .

تأثرت الأم من حنان ابنها ولهفته عليها فقالت له :

- وأنا واثقة أنك ستفي بوعدك ، مثلما تعودت ذلك منك دائمًا .

وبالفعل ازداد اهتمام ابنها بدراسته ، وأصبح يهتم بأداء واجباته المدرسية بنفسه دون دفع منها ، وتقدمت درجاته الدراسية إلا فى مادة اللغة الإنجليزية ، مما أثار دهشتها فسألته :

- لماذا أنت مُصر على إهمال اللغة الإنجليزية ؟

- أجابها فورًا لأني أكره طريقة المدرسة الباردة فى التدريس ، وأكرهها هي كذلك .

سألته أمه فى دهشة : ولماذا تكرهها ؟

- لأنها قالت لي أمام الطلبة بأني أتصرف (كالطفل الصغير) ثم سألتني عما إذا كنت لا أزال أرضع حليبًا من أمي .؟

وأكمل قائلًا : شعرت (بالخجل) كثيرًا من كلامها _ (أنا أكرهها) ـ لقد ضحك كل الطلبة علي ، أنا أحب مدرساتي الباقيات لأنهن طيبات وينصحنني بلطف حتى أهتم بدروسي .

لم تسكت " هند " عن انتقاد هذه المدرسة السلبي الذى تتبعه مع الطلبة ، فذهبت فى اليوم التالي إلى المدرسة للقاء المديرة ، التى تعاونت معها كثيرًا ، باجتماعها مع مدرسة تلك المادة ومواجهتها بما فعلت ، ونصحها لها باتباع أسلوب الانتقاد الإيجابي معه . وتقدمت درجاته الدراسية فى مادة اللغة الانجليزية إلى جانب المواد الأخرى .

ولو قمنا بتحليل ذلك الموقف .. لوجدنا أن الأم كانت إيجابية مع ابنها وهي تحاول مساعدته على التقدم فى دراسته عندما تعاونت مع مدرساته على أن تكون حازمة معه فى مسألة أدائه لواجباته .. إلى جانب محاولتها إقناعه بأن اهتمامه بدراسته يجب أن يكون نابعًا من نفسه لا خوفًا من العقاب، إذ سيكون تفوقه الدراسي طريقًا إلى نجاحه فى المستقبل .. وعندما بكت أمه أمامه لما كانت تشعر من إرهاق وإحباط يسببه لها ابنها ، شعر الطفل بحب والدته واهتمامها به .. فأراد أن يسعدها ويستعيد ثقتها وإعجابها بأن وعدها قائلًا :

– أعدك بأني سأحاول أن أتقدم أكثر فى دراستي .. وستكونين فخورة بي .. أعدك بذلك .

فالأطفال يهمهم أن يكسبوا حب آبائهم وإعجابهم .. ولا يريدون أن يكونوا مصدر ضيق لهم ، وقد أحسنت الأم عندما أشعرت ابنها أن اجتهاده مسؤوليته وحده وأنه سيكون عند حسن ظنها ، عندما قالت له :

وأنا واثقة أنك ستفي بوعدك ، مثلما تعودت ذلك منك دائمًا .

ولأن الطفل يعتز بنفسه ولا يقبل بالتقليل من شأنه أمام الآخرين .. فقد كره «حسن» مدرسة اللغة الإنجليزية لأنها سلبية فى انتقادها ، وأراد أن ينتقم منها بإهمال مادتها ، وعندما غيّرت من معاملتها له وأصبحت تنتقده بأسلوب إيجابي ، اهتم بتلك المادة .

نخلص من ذلك إلى أن الطفل يتجاوب كثيرًا مع الانتقاد الإيجابي الذى يحفظ كرامته ، سواء فى البيت أو المدرسة ، والذى يركّز على الفعل لا على الشخص ، ومن ثم يسعى إلى تطوير ذاته بنفسه ، والعكس صحيح ، فليس هناك أي فائدة تذكر من إهانة الطفل وتجريحه .. " (١)

● *أخي الأب .. أختي الأم ..*

عندما تبدأ درجات ابنك المدرسية فى الانخفاض ، فلا تفترض بداية أنه كسول ، وإنما تأكد أن هذا يشير إلى مشكلة ، سواء كانت هذه المشكلة فى المدرسة أو البيت .. فابحث عن المشاكل الخفية ..

وتساءل مع ابنك " ما هو السبب فى انخفاض درجاتك هذا الشهر ؟ .. لقد أبليت بلاء حسنًا فى الشهر الماضي ..!!

هكذا .. تنقل إلى الابن أن لديه القدرة على بذل الجهد وتحسين مستواه .

---

(١) سياسات تربوية خاطئة – محمد ديماس – ص ١١٣ – ١١٨ .

و عليك أن تمزج انتقادك لأبنائك بالتشجيع ، وزرع الأمل فى وقت اليأس ..

فمثلًا من الأهمية بمكان أن يفهموا أن النتائج السيئة للإمتحانات ليست إخفاقًا ، وليست هزيمة لا نصر بعدها ، وإنما هي مجرد مؤشرات غير جيدة ، ومن ثم فلا بد أن نجتهد للحصول على نتائج أفضل ..

واحذر أن تقول لابنك : ماذا أفعل لك ؟ .. " ألا تريد أن تصبح ناجحًا فى حياتك ؟ "

أو «هل أنت غبي» ؟ .. فهذه التعليقات لا تفيد على الاطلاق ، بل إنها فى حقيقتها " محنة تربوية "

و"الآباء الذين يتقنون التوبيخ ، يفقدون التفاهم المثمر مع أبنائهم .

- كم مرة يجب أن أكرر نفس الشيء ؟ هل أنت أصم ؟ لماذا لا تسمع الكلام؟ .

- إنك وقح جدًا ؟ هل نشأت فى الشوارع ؟

- ما هي حكايتك ؟ هل أنت مجنون أو غبي ؟

... «قد لا يعي هذا الأب أن تعليقاته هذه عبارة عن هجوم يدعو إلى هجوم مضاد، وأن تعبيراته تعوق التفاهم ... » (١) .. ذلك " إن رد الفعل الطبيعي تجاه من تقذف به ليقع على الأرض هو أن يجهز نفسه للدفاع عن ذاته ، والشخص الذى يصبح فى مثل هذه الهيئة الدفاعية لن يكون مستعدًا للتجاوب مع أفكارك " (٢)

ومن هنا يجب عليك – أخي الأب المربي – أن تغيّر تلك الطريقة إلى طريقة أخرى لا تحط من قدر الطفل ومن كرامته سواء أمام الغير ، أو حتى أمام نفسه ..

---

(١) بين الآباء والأبناء – د. ج جينوت – ص ٥٤، ٥٥ بتصرف يسير .

(٢) كيف تنتقد الآخرين ، وتستولي على محبتهم واحترامهم – أكرم عثمان – ص ٤٠ .

" وهذا مثال يوضح النتيجة السلبية التى يمكن أن نصل إليها مع الطفل إذا استخدمنا كلمات مهينة جارحة :

ذهبت الأم إلى غرفة ابنها لكي توقظه ليذهب إلى المدرسة .. إلا أنه أخذ يئن قائلًا : ألبسيني ملابسي ، لا أستطيع أن أرتديها بنفسي .

ردت الأم : أنت قادر بالتأكيد ، لكنك كسول دائمًا هكذا ، انهض بسرعة.

رد الولد مدافعًا عن نفسه : لا أنا غير كسول .

قالت الأم : إذن ماذا أنت ؟ .. لقد بلغت السن التى تستطيع فيها ارتداء ملابسك بنفسك .

احتج الابن قائلًا : أنا لم أصل إلى السادسة بعد ..

أجابته أمه : دع عنك ذلك . أخوك " أحمد " لا يزيد عمره عن خمس سنوات، ومع ذلك يرتدي ملابسه بنفسه ... والآن انهض بسرعة وإلا تأخرنا

قال الابن وهو يتظاهر بعدم المبالاة : من يهتم .. دعيني أتأخر .

ردت الأم بعد أن نفد صبرها ، وهي تضع القميص على رأس ابنها :

كم أنا متعبة منك ، ومن سخافة تصرفاتك !!

رد عليها ابنها غاضبًا : أنت خبيثة ، أنا أكرهك ، إذهبي عني .

ويتكرر مثل هذا الموقف بالنسبة لواجبات يومية أخرى على الأطفال القيام بها خلال يومهم ... مثل تناول الوجبات والاستحمام قبل النوم أو دراسة دروسهم أو غيرها .. ويتروواح حديثنا مع أطفالنا لأداء هذه الواجبات ما بين حوار قصير أو حاد صادر منا لنفاد صبرنا معهم .. وفى النهاية لا يفوز أحد من الآباء أو الأبناء بهذا الأسلوب ، لأننا عندما نجعل أطفالنا يطيعوننا بالإرغام والتهديد والعقاب ، فإنهم يصابون بحالة من اليأس تجعلهم يثيرون مواجهات أخرى بيننا وبينهم ليثبتوا لنا أنهم لا زالوا أقوياء وأننا غير قادرين عليهم .

ولو عدنا إلى الموقف الذى استعرضناه بين الأم وطفلها ، سنجد أن الأم بقولها لطفلها :

- أنت قادر بالتأكيد .. لكنك كسول دائمًا هكذا .. انهض بسرعة.

كأنها توحي له بأنه لا زال صغيرًا وعليه أن يعتمد عليها بكسله الذى يمارسه ... لذلك رد عليها بثورة : لا أنا غير كسول .

انتقاد آخر وجهته الأم لطفلها عندما قالت له :

- إذن ماذا أنت ؟... لقد بلغت السن التى تتمكن فيها من ارتداء ملابسك بنفسك .

... ثم بعد ذلك قارنته بشقيقه الأصغر .. الذى يقوم بهذا العمل وحده ؟؟!!

هنا .. دافع الابن عن نفسه بقوله : من يهتم .. دعيني أتأخر ..

وعندما يئست والدته من ردوده ، وقالت له :

- أنا تعبة منك ومن سخافة تصرفاتك .

رد عليها ابنها مدافعًا عن نفسه بيأس : أنت خبيثة ، أنا أكرهك ، إذهبي عني.!!

وكأن هدف الطفل من هذه الجملة الانتقام من والدته ، لأنها هاجمته لارتداء ملابسه ، أي لم تنجح هذه الأم فى الوصول إلى الهدف الذى تسعى إليه من وراء انتقاد ابنها .. وهو تطوير سلوكه .

إن هدفنا ونحن نربي أبناءنا أن نجعلهم يشعرون بأنهم مسؤولون عن أنفسهم لكي يتعاونوا معنا فى أداء واجباتهم .. لا أن يكونوا كالانسان الآلي ، أو نذكرهم دائمًا بواجباتهم ..

إن الحياة بهذا الأسلوب متعبة جدًا للوالدين ، وتثير النكد والحدة فى

علاقاتهم بأبنائهم .. وبالطبع لا يمكننا أن نتفادى دائمًا الصراع مع أطفالنا ، لأن ما يريد أن يفعله الأبناء يتعارض أحيانًا مع ما يريده منهم الآباء . إذ قد نكون نحن فى عجلة ويريدون هم أن يسيروا ببطء ، وقد نكون مشغولين بأمر هام ، وهم يطلبون منا عدة طلبات لكي نؤديها لهم .

لكننا لو تمعنا بأطفالنا خمس دقائق أكثر خلال يومنا ، فإننا نسير فى الاتجاه الصحيح ، ولا أعتقد أننا قادرون على أن نضبط كل شىء كما نريد ، لكننا نستطيع أن نقلل من مواجهاتنا اليومية العنيفة معهم .

وفى هذا المثال الذى ذكرناه ، لو فكرت الأم فى كلماتها قبل أن توجهها إليه بأن تقترح عليه قائلة :

- سأتركك ترتدي ملابسك .. وإذا تأخرت عن المدرسة ستجد نتيجة ما تفعله عقابًا من المدرسة .. أنت مسؤول عن نفسك لا أنا .

فإنها ستشعره بأنه شخص كبير ومسؤول عن نفسه ، وأنه سيتحمل نتيجة تقصيره وهو عقاب المدرسة .. وستحصل بذلك على النتيجة الإيجابية المطلوبة بدلًا من إهانته وتجريحه والدخول معه فى معركة ..

أخي المربي ..

احذر من نعت طفلك بصفات سلبية عند انتقادك له وتكرار هذا النعت ، وذلك حتى لا تصبح صفة من صفاته الرئيسية وعادة من عاداته .

... إن علينا أن نحترم ذات الطفل إذا أردنا تطوير سلوكه .. وأن نتجنب إهانته من خلال كلمة " أنت .. " التى نبدأ بها حديثنا معه .. وأن نستخدم بدلًا منها كلمة " أنا " التى تعبر عن شعورنا دون تحقيره ..

خذ هذا المثال يوضح ما نقصد :

صرخت الأم فى وجه ابنتها " ليلى " : أنظري إلى الفوضى التى فى غرفتك .. إنها أشبه بحظيرة للبهائم . إنك تزدادين فوضى وقذارة كل يوم ، لماذا لا تعلقين ملابسك ؟ .. لن أشتري لك أي ثياب أخرى ، إذا كنت ستلقينها بإهمال حولك هكذا .

ردت " ليلى " مدافعة عن نفسها قائلة :

– لماذا لا تنتقدين أخي " خالد " ؟ إن غرفته أكثر فوضى من غرفتي ، أنت لا تحبينني .

أغلقت الأم الباب بغضب وهى خارجة من الغرفة .. مهددة ابنتها أنها لن تشتري لها أى ملابس أخرى .

ربما تكون الأم محقة فى غضبها ، لكن مواجهتها للموقف بهذه الثورة العارمة لا تعد طريقة إيجابية تساهم فى تطوير سلوك ابنتها "ليلى" .. فهي أولًا هاجمتها قائلة:

– إن غرفتك أشبه بحظيرة البهائم ، إنك تزدادين فوضى وقذارة كل يوم ..

ثم هددتها بأن قالت لها : أنها لن تشتري لها ثيابًا أخرى .. وانتقل غضبها إلى ابنتها ، فأصبحت هي الأخرى غاضبة ، ولم تسمع الرسالة التى كانت أمها تريد إيصالها لها وهى تنظيف غرفتها .. ولو اختارت والدة "ليلى" جملًا عبّرت من خلالها عن شعورها إزاء غرفة ابنتها غير المرتّبة ؛ لكانت طريقتها أكثر إيجابية فى تحسين سلوكها ، إذ تقول مثلًا :

– أنا متضايقة من ملابسك المنثورة فى أنحاء الغرفة .

وحتى لو لم تضمن الأم تمامًا أن ابنتها ستنهض فورًا لتنظف غرفتها ، إلا أنها لن تدافع عن نفسها قائلة : لماذا لا تنتقدين أخي "خالد" ؟ إن غرفته أكثر فوضى

من غرفتي .

وستفكر بعد خروج أمها فى وضع خطة تمكنها من جعل غرفتها أكثر نظامًا مما يجعلها تتفادى غضب والدتها مرة أخرى .

وإذن فالمطلوب من الآباء .. التعبير عن مشاعرهم نحو تصرفات أبنائهم السيئة وتوضيح ما يريدونه منهم دون أن يواجهوا شخصياتهم .. لأنهم بهذا الأسلوب يشعرون أطفالهم بتعاطفهم معهم وشفقتهم عليهم وعدلهم ، فيدفع ذلك الشعور الأبناء إلى الاقتراب من آبائهم والتعاون معهم فى أداء واجباتهم .. " (١)

خذ مثالًا على ما نقصد :

عندما يقوم الابن بتنظيف حجرته بشكل يفتقر إلى الاتقان ، فلا تقل : " إنك لم تنظف أركان الحجرة بشكل جيد .. يالك من كسول .. طفل أصغر منك يمكنه القيام بذلك فى غاية السهولة واليسر ..».

إن هذا النوع من الانتقاد لا يحفز الابن إلى بذل الجهد فى تصويب طريقته فى التنظيف ..

والطريقة الأصوب لتحفيزه عبر الانتقاد هي :

لقد قمت بنصف المهمة .. فقط لقد نسيت بعض أركان الغرفة بلا تنظيف .. أنت قادر على إتمام مهمة التنظيف .. سوف أساعدك فى ذلك وسترى أنها أفضل .. سيبدو المكان جيلًا إن شاء الله .

القاعدة التربوية فى الانتقاد هي : " أن تثبت للابن قيمته ابتداء ، ثم تذكر له تلك الملاحظة ، حتى لا يأخذ ذكر الملاحظة صورة الهدم لشخصه وذاته ، مثلما قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر : " نعم العبد عبد الله ، لو أنه يقوم من

---

(١) سياسات تربوية خاطئة – محمد ديماس – ص ١١٨ – ١٣٠ بتصرف .

الليل " ... ومن ذلك تربية المولى عزوجل لنبيه ﷺ بقوله سبحانه : " عفا الله عنك لم أذنت لهم " [١] .

• **التحفيز .. بين الإيجابي والسلبي :**

يمارس الرياضيون اليوم جهدًا أقل من الرياضيين السابقين ، ومع ذلك فهم يطلبون مكافآت أكبر وأكثر ..

نعم لم يعد أغلبهم يمارس الرياضة من أجل المتعة كما كان من قبل ، وإنما من أجل الجائزة !!!

ونفس الأمر يمكن أن يحدث فى منزلك حين ترصد جائزة ما (لعبة أو نزهة أو زيادة فى مصروف .. أو غيرها) فى مقابل تحسن سلوك الابن ..!!

إن هذا بمرور الوقت يدفع الأبناء إلى طلب جائزة أكبر للقيام بذات السلوك .. ولن يحسنوا السلوك إلا فى مقابل الجائزة !!!

إن هذا الأسلوب يحمل أمرًا خطيرًا هو تدمير الحافز الداخلي لدى أبنائنا .. حتى تفاجئنا تلك الردود الباردة إذا طلبنا أعمالًا بسيطة فنسمع منهم : " وماذا لي إن أنا قمت بها ؟ " .

نحن هنا لا ننكر أن يحصل أبناؤنا على مكافأة فى مقابل سلوكياتهم الحسنة ..

" فقد كان ﷺ يستخدم الثواب والمكافأة فى إثارة نشاط الأطفال ، لكي يدعم ممارسة هذا النشاط ويعلمهم إياه ، وكان يقول : "من سبق إلي فله كذا" ، فكانوا يتسابقون إليه عليه الصلاة والسلام ، ويقعون على صدره ، فيقبلهم ويلتزمهم بها وعدهم " [١] .

---

(١) فى النفس والدعوة – رفاعي سرور – ص ١٩٩

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذا – أكرم عثمان – ص ٢٧

وقد ثبت رسول الله ﷺ تألف فئة من الناس على الإسلام ، و رغبهم فيه بالمال ، وهم من يسمون " المؤلفة قلوبهم " حيث تدفع لهم الزكاة جذبًا لهم وتأليفًا لقلوبهم على الإسلام .

ووعد الله عباده المؤمنين الغنائم – إلى جانب الحظ الأخروى – إذا ما أقبلوا وجاهدوا فى سبيل الله . قال تعالى : " وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم "

وجعل سبحانه المؤمنين ينطلقون فى دعوتهم وجهادهم – بعد إخلاصهم له – من منطلقين : دنيوى هو النصر والتمكين فى هذه الأرض وأخروي هو الشهادة فى سبيل الله . بحيث ينطلق المؤمن للجهاد وهو رابح على أى الحالين كما قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢] . ..

كل ذلك لا ننكره .. ولا ننكر تشجيع الأبناء " بالمحفزات المادية ، والملموسة كالأطعمة المفضلة لديهم والألعاب ، واسطوانات الكومبيوتر ، والنقود ، وكلمات الشكر والتشجيع المصاحبة لها .. مثل : هاك مكافأتك يا " أحمد " فقد أنجزت ما أسند إليك من أعمال بنجاح ، ولا شك أنك استفدت أيضًا من تلك الأعمال ...

وإنما ننكر فقط " الجوائز الشرطية " .. إن فعلت كذا أخذت كذا .. وإنما إن قام الابن بما هو مطلوب منه من واجبات بشكل جيد كافأته بما ترى من مال أو نزهة أو غيرها .. دون إلتزام مسبق منك .. ذلك أن هذا الإلتزام المسبق يجعله يركز على المكافأة أكثر من تركيزه على العمل الواجب ..

إن التشجيع – الحسي أو المعنوي – خير ، وعنصر ضروري من عناصر التربية لا غنى عنه .. ولكنه يجب أن يكون ضمن حدود معينة وإلى أمد معين ، فإذا تجاوز هذا الأمد وتلك الحدود ؛ فإنه يتحول إلى عنصر مدمر ومفسد للتربية ..

والحد المرفوض تربويًا "أن يتحول التشجيع إلى شرط للقيام بالعمل المطلوب أو الكف عن العمل غير المرغوب . أى أن الطفل يمتنع عن الإتيان بالعمل إذا لم يجد حافزًا عليه ، أو يمتنع عن الكف عن عمل سيء حتى يقبض "الثمن" للكف!!..».

هنا يصبح التشجيع شرًا خالصًا لا خير فيه ، لأنه يعوق الإحساس بـ "الواجب " الذى ينبغى أن يعمل لأنه " واجب فى ذاته " لا لأنه هناك أجر عليه..

نعم .. فى اللحظة التى يتحول فيها التشجيع – الحسي أو المعنوي – إلى شرط للقيام بالعمل أو الكف عنه .. فى هذه اللحظة يجب التوقف عن التشجيع فى الحال ، وإلزام الطفل بأداء العمل أو الكف عنه إلزامًا بغير أجر ... ولا بأس بعد ذلك من العودة إلى التشجيع بعد القيام بالعمل المطلوب ، وبعد أن تزول نهائيًا صورة الشرط سواء كان شرطًا مقدمًا أو مؤخرًا .. المهم هو الفصل الكامل بين أداء العمل الضروري وبين اشتراط الثمن له من أى نوع ..

أما الأعمال التطوعية ، فلا بأس من أن يظل التشجيع عليها قائمًا ولو فى صورة ثمن مشروط .. مع ضرورة التوفية بالشرط المتفق عليه ، لأن الإخلال به يفقد ثقة الطفل بوعود والديه ، ويصدمه صدمة عنيفة لا يزول أثرها من نفسه..[1]

فحين تقول لطفلك ، إذا حصلت على نسبة عالية فى الامتحان فسأشترى لك ساعة أو دراجة أو .. أو ... مما يحبه الطفل ، فليس فى ذلك بأس لأنك لا تملك فى الحقيقة أن تقهره على الحصول على هذه النسبة العالية ، ولا حتى على النجاح ذاته . إنما تملك فقط أن تشجعه ... و لو وصل التشجيع إلى الثمن المشروط ... ثم لا بد أن توفي بما وعدت ..

ولكنك تكون مخطئًا أشد الخطأ – مثلًا – «حين تأمر طفلك أن ينزل إلى السوق ليشتري شيئًا ضروريًا للبيت ، فيمتنع ، فتقول له : اذهب وسأعطيك كذا !

(١) ومن هنا وجب الحرص ألا نعد بأشياء لا نستطيع الوفاء بها

أو يشترط عليك ثمنًا للذهاب فتقبل الشرط ! إنك بهذا تفسده أي مفسدة ! لأنك تقتل في نفسه الإحساس بالواجب وضرورة الإلتزام بأدائه .. " [(١)] بل الواجب عليك عندها أن تحوّل التشجيع إلى إلزام ..

فمثلا:

يجب تعويد الطفل على تنظيم أشيائه وترتيبها .. فإذا لم يمكن تعويده على ذلك إلا بالتشجيع وجب تشجيعه بالوسائل الحسية والمعنوية ، ومن أهمها " إضفاء المديح " له والإشادة بنظافته وترتيبه ونظامه ، فإذا لم يجد ذلك معه فلا بد من أمره ، ومتابعة الأمر حتى التنفيذ

ولا شك أن الحدود بين متى يجب التوقف عن التشجيع ، وإلزام الطفل بعمل المطلوب منه بلا ثمن ؟.. هذا أمر يختلف من مرحلة عمرية إلى أخرى ، ومن طفل إلى آخر ، بل ومن بيئة إلى أخرى .. والذى يحدد هذه الحدود هو المربي نفسه .. فالأمر فى تحديد هذه الحدود الفاصلة بين المراحل إنما يرجع إلى حكمة المربي وخبرته بنفسية طفله واحتياجاته .

ولكن "المهم فى كل الأحوال ، هو الفصل الكامل بين أداء العمل الضروري، وبين اشتراط الثمن له من أى نوع ... فليس من المعقول أن تقبل بدفع مبلغ من المال كرشوة نظير قيام الطفل بشرب الحليب ، وليس من المعقول – ولا المقبول – أن تدع الطفل مثلًا لا يقوم بالضغط على أزرار الهاتف لجدته أو لوالدته إلا إذا قبلت أن تدفع له خمسة دراهم مثلًا .. " [(٢)] .

وهذه أمثلة أخرى:

من فضلك إغسلى الأطباق يا سميه .

لا أرغب فى القيام بذلك الآن .

---

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج٢ ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) سياسات تربوية خاطئة – محمد ديماس – ص ٤٦ .

اغسليها الآن ، وسأعطيك جنيهًا !!

تعرض الأم هنا على طفلتها القيام بما هو مطلوب منه مقابل مكافأة مالية .. فهل يعد ذلك تشجيعًا ؟

فى الحقيقة ، إن هذا لا يعد تشجيعًا ، بل هو فى الحقيقة مكافأة للسلوك السيئ .. لقد رفضت الطفلة غسل الأطباق ، فأصبحت تمتلك جنيهًا .. وهى بالتالي سترفض القيام بالعمل فى كل مرة لتحصل على قيمة المكافأة " الرشوة " .. فهذه الرشوة تدفعها إلى مزيد من السلوك السيئ ..

مثال آخر :

يقول الأب لطفله الذى يصرخ ويتشنج فى محل البقالة .. إذا هدأت سأشتري لك قطعة من الحلوى ..

الأب هنا يظن أنه يكافئ الابن على الهدوء .. ولكنه فى حقيقة الأمر يدفعه فى كل مرة يذهب فيها معه إلى السوق أن يتشنج ويصرخ ليشتري له قطعة الحلوى (الرشوة) ..

وهكذا .. يتسبب الآباء بحسن نية فى تعليم أبنائهم السلوك السيئ عبر المكافأة الخطأ .. (الرشوة) ..

والقاعدة التربوية هنا :

" لا يجوز إثابة الطفل على عمل يجب عليه أداؤه ، لأن ذلك يجعله شخصًا نفعيًا ماديًا لا يؤدي عملًا إلا إذا أخذ المقابل .. ويحول التشجيع أو المكافأة إلى رشوة حقيقية، ندفعها للطفل ، لنضمن بها قيامه بالسلوك الطيب ، أو التوقف عن السلوك المعيب، وبذلك تفقد الأعمال فى نظره قيمتها الذاتية ، وتتحدد قيمتها لديه بمقدار ما يجنيه من ربح بسببها ... ويكون التطور المنطقي لهذه الحالة أن يفقد الطفل ذلك الحماس الدافع إلى الأعمال ، إذا ما توقفت الرشوة، أو تعرضت للتخفيض ... " (١) .

---

(١) سياسات تربوية خاطئة – محمد ديماس – ص ٥٠ ، ٥١ بتصرف

ولا يعني ذلك فى الجانب المقابل أن نحرم أبناءنا التشجيع الذي يستحقون .. بل "هناك أعمال لا بأس أن يظل التشجيع قائمًا عليها، كالأعمال التطوعية، والأعمال التى لا يجوز القهر عليها . فلا يوجد مانع من تدعيم هذه الأعمال بكلمة إطراء ، أو بدعاء جميل ، أو بهدية رمزية ، لكن هذا لا بد أن يحدث مع التيقن التام من أن الطفل قد بذل جهدًا مخلصًا فى العمل الطيب لأنه يعلم أنه عمل طيب ، ويكره أن يأتي غيره .. ويكون عندها الربط واضحًا بين " الامتيازات التى نمنحها لأبنائنا وبين السلوك الجيد ، ولكن بشىء من الحذر والدقة ، فلا نقوم بالتعليق على كل تصرف يصدر منهم .. كما لا ندعهم يعتقدون أننا سنجزل لهم المكافأة لكل فعل حميد يصدر منهم ... بل علينا أن نشعرهم دائمًا أن السلوك الجيد يكون مهمًا لأنه الشيء الجيد الذي يجب القيام به " [(١)].

فمثلا :

حين يحرز الابن مستوى دراسيًا جيدًا .. قد نرى أن مكافأة مالية على أدائه الجيد هى أمر مطلوب !!

ولكنها- وحدها - فى الحقيقة تشمل بعض الأخطار التربوية ..!!

فماذا لو فقد المال إغراءه بالنسبة للابن ؟

أو ماذا لو لزم الطفل كثير من المال لكي يكون متحفزًا ؟

وإذن ، فلا بد أن يصحب المكافأة الربط بما قام به الابن من جهد : " لقد أبليت بلاءً حسنًا عندما صممت على فعل ذلك " أو " لقد أتيت بفعل طيب بهذا التقدير " ..

إن بعض الأحداث فى الحياة تكون غير سارة ، ونحن فى حاجة لتعليم أبنائنا كيف يواجهون تلك الأحداث .. ولا سبيل إلى ذلك إلا أن نشجعهم التشجيع المناسب ، ونكافئهم على السلوك الحسن .. ولا نقدّم لهم الرشوة للقيام بأعمال هي من صميم واجباتهم ، أو من خصال لا بد لهم أن يتحلوا بها.

---

(١) كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د.سال سيفير – ص ٥٣ .

ومما يساعدنا على ذلك أن ننتقل فى تشجيع أبنائنا " درجة درجة مع مراحل النمو العقلي والنفسي للطفل ، حتى ينتهي إلى أعلى درجاته التى هي أعلى درجات المنهج الإسلامي وهي العمل أو الكف عن العمل ابتغاء مرضاة الله ..

إن هذا التشجيع يكون على درجات ، وأول درجاته الحلوى أو اللعبة أو النقود كأداة للتشجيع ، ولا بأس من ذلك فى موعده الطبيعي وفى حدوده المشروعة..

- ثم يرتقي درجة فيصبح : من أجل أن تحبك أمك أو يحبك أبوك .
- ثم يرتقي درجة أخرى فيصبح : من أجل أن تكون ولدًا طيبًا ، أو بنتًا طيبة ويحبك أبوك أو أمك ، ويقول الناس أنك طيب .
- ثم يرتقي درجته العاليه فيصبح : من أجل أن تكون طيبًا ويحبك الله ، ويرضى عنك .

... وعلى هذه الصورة الأخيرة ، ينبغي أن يظل حتى يلقى الله .

وليست هناك حدود حاسمة قاطعة للإنتقال من مرحلة من المراحل إلى أخرى "(١).

كما أن طريقة التشجيع والتحفيز تختلف من ابن إلى آخر .. فبعض الأبناء يمكن تحفيزهم بطريقة إيجابية .. بينما البعض الآخر لا يمكن تحفيزه إلا بالطريقة السلبية ..!!

ولكي أوضح ما أقصد أضرب مثالًا :

" إن الخيل – مثلًا – حيوانات يمكن تحفيزها بطريقة إيجابية . فهى تحب أن تسعد مالكيها ، ولديها استعداد للعمل مقابل بعض المديح أو مكعب من السكر أو أى شكل أخر من الطعام .. فيمكنك مثلًا أن تربط عصا فى رأس الحصان وتعلق عليها جزرة على مسافة قدمان أمام عينيه ؛ فيتحرك الحصان دون توقف نحو الطعام

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج ٢ ص ١٤١ .

دون أن يدرك أنه لن يقترب منه ...

وعلى عكس الحصان يمكن تحفيز الجمل بطريقة سلبية ، فقد يقرر الجمل أثناء عبوره للصحراء أن يرقد على الرمل ويأخذ راحته . ويمكنك أن تركع على ركبتيك أمامه وتقدم له كل أنواع الإغراءات ، ولكن دون جدوى أو طائل .

إن محاولة إقناع الجمل أن الماء موجود أمامه لن تجعله ينهض !! ...

لن يكون الطعام أو الماء محفزًا فعالًا للجمل .. فماذا تفعل ؟

إن راكب الإبل المتدرب يعرف كيف يحفزه للقيام ومواصلة السير .. إنه ببساطة ينزع بعض عيدان الحطب ويقوم بحفر حفرة عند مؤخرة الجمل ، ويضع فيها أعواد الحطب ويشعل فيها النار ..

على الفور يشعر الجمل أن النار تخترق طبقة الجلد القوية الموجودة على أردافه، ويقرر بسرعة أن يفعل شيئًا ليبتعد عن الألم ..!!

إن بعض الأطفال يشبهون الإبل أكثر من الخيل ؛ فعندما يحاول الأب أو المربي الاقتراب منهم بالطريقة التي يقترب بها الفرسان من الخيل – عن طريق محاولة إغرائهم لإتمام عمل معين – فإنهم لا يستجيبون له !!

ذلك أن هؤلاء الأطفال يفضلون ردود الفعل السلبية .. بمعنى أنك حين تريد أن يقوم مثل هذا الصنف من الأطفال بما تريده منه ، فأنت بحاجة إلى أن تشعل النار أسفله مثل الجمل الذي حكينا عنه ؟!!

بالطبع لا أقصد ذلك حرفيًا ، وإنما المقصود أن يعرف الأطفال الآثار السلبية التي ستترتب على عدم إتمامهم للعمل المطلوب ..

وهكذا .. يجب على الأب والمربي أن يخلط خلطًا جيدًا بين الدوافع الإيجابية والتشجيع ، وبين الآثار السلبية والألم .. فيتحرك الأطفال بين الجانبين : الرغبة في

تجنب الألم ، والرغبة فى الإحساس بالسعادة ..

إن دمج التحفيز الإيجابي والسلبي لا يحسن سلوك الأطفال فقط ، وإنما يلعب دورًا هامًا فى تشكيل شخصياتهم حتى تلائم الحياة عندما يكبروا .. فهم سيواجهون محفزات إيجابية وسلبية طوال الوقت أثناء حياتهم الواقعية ، فكثير منا- مثلًا - يعملون من أجل الأجر ، ومن أجل الحصول على إرضاء الذات.الداخلي عن طريق تأديتنا لوظائفنا (حافز إيجابي) .. ويوجد التحفيز السلبي الذى يحفز الناس على العمل لكى يتجنبوا الجوع والتشرد ..

وهكذا كل أحداث الحياة .. لها حوافز إيجابية وسلبية مرتبطة بها ..

فإذا حاولت تربية طفلك مستخدمًا الحوافز الإيجابية فقط فإنك لا تعده للعالم الذى يوجد خارج منزلك، .. وبالطبع فليس هذا أسلوبًا صحيحًا فى التربية.. بل لا بد من إعداد الأطفال بطريقة مناسبة لكي يعيشوا فى عالم الواقع"[١] وذلك عبر الموازنة بين التحفيز الإيجابي والسلبي .. ذلك المزيج من التحفيز فى رحلة الحياة.

❀❀❀

(١) حاول أن تروضني - راى ليفي - ص ٤٢ - ٤٧ بتصرف يسير .

الباب الرابع

قَدِّرْ جهودَه

A= Appreciate his efforts

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : التقدير .. المحفّز الأقوى.

الفصل الثاني : إذا أردت أن تطاع .

الفصـــل الأول
التقدير .. المحفّز الأقوى

يشكو كثير من الآباء : "لقد مدحت أبنائي كثيرًا ، ولكن دون جدوى!!"..

في البداية ، لا بد أن نقرر أن هذا الأمر حقيقة واقعة ؟! وأن المديح فى بعض الأحوال لا يفيد !!

وإذا كان المديح لا يفيد ، فهل من شيء مفيد في الوصول بأبنائنا إلى السلوكيات الصحيحة ؟

إن التصرف التربوي الأنفع في مثل هذه الحالات هو "تقدير" الأبناء، والتعبير عن اهتمامنا بما يقومون به من جهد .. فهذا "التقدير" هو المحفز الذي يمنح الثقة والسكينة لقلوبهم الخائفة .. والرغبة في النجاح لنفوسهم اليائسة، فيخرجون عن الطوق ، ويقومون بحل المشاكل ، ويعملون بلا كلل ..!!

- **المكافأة العظيمة :**

كانت طريقة النبي ﷺ، وهو يخاطب شخصًا ما أن يلتفت بجسمه كلية تجاهه، وكان يشعر الأطفال بأهميتهم، وبمسؤوليتهم، مثلهم فى ذلك مثل البالغين .

وهذه الطريقة هي الأنفع في التعامل مع الأبناء ، فالأبناء – بل كل الناس – يكرهون أن يهملهم أحد أو يتجاهلهم. وكلما وقع التواصل بين الناس فإنهم يتناقلون رسالة صامتة تقول: "فضلًا زكني" ، " فضلًا تقبل وجودي " ، " لا تمر بي غير آبه " ، " أرجوك الاعتراف بكياني "[1] .

وتحكي قصة رمزية: إن كل شخص يولد وعلى جبهته علامة تقول : " من فضلك اجعلني أشعر أني مهم " .

---

(١) دليل التدريب القيادي – د . هشام الطالب – ص ١٨٥ .

إن الرغبة في الشعور بالأهمية تنبعث من داخلنا جميعًا ..

كل منا يريد أن ينصت إليه الآخرون عندما يتحدث لأن لديه رغبة نهمة فى الشعور بأهميته ، وفى تقدير الآخرين له ..

"قد تعتقد أنت أن ذلك الكلام لا ينطبق عليك !! أخبرني الآن ، هل سبق لك أن ذكرت قصة مرحة ، فاقتحم شخص ما حديثك ليغير الموضوع عندما كنت فى منتصف القصة التى ترويها ؟ كيف كان شعورك وقتها ؟ بالطبع كنت تشعر بأنك تريد خنقه ، أليس كذلك ؟ هل تعرف حقًا لماذا كنت تشعر بذلك ؟ الأنه لم يكن مهذبًا لمقاطعة حديثك ؟ لا .. لقد شعرت بذلك لأنه أهان غرورك ، وجعلك تشعر بأنك صغير أو قليل الشأن ، أو غير مهم ، أو ليس لك شأن ، حيث أنه وضع نفسه فى محور الاهتمام ودفع بك إلى خارج دائرة الضوء ..

دعنا نفترض أنك تنظر إلى الصورة الفوتوغرافية التى تضم مجموعة من الأصدقاء معك ، أين ستذهب عيناك أولًا ؟ إلى نفسك بالطبع ، لماذا ؟ لأنك تهتم بنفسك أكثر من أى شخص آخر . هذا ليس انتقادًا ، ولكنه تعبير بسيط عن الحقيقة. إننا جميعًا نشعر بنفس الشيء . "[1] .

بل لا شيء يسعد الإنسان أكبر من شعوره بالتقدير والإعتراف بالفضل من الآخر ..

وكذلك هم أبناؤنا ، فحين يشعر الابن بتقدير والده له ؛ يصبح أكثر سعادة .. ومن ثم يحصل الأب على تعاونه الكامل فيما يريده منه ..

ومن هنا فإنه من المهم أن يشعر أبناؤنا بتقديرنا لهم ، وأن نشكرهم إذا قاموا بما هو مطلوب منهم ، فإن ذلك يقرّبهم منا ويحملهم على طاعتنا والرغبة فى الحصول على المزيد من تقديرنا ...

---

(١) ٢١ يومًا للحصول على القوة والسلطة فى تعاملك مع الآخرين – جيمس ك . فانفليت – ص ١٣١ .

ومن الأشياء التى تشعر الابن أننا نقدر جهده عدم نسف أفكاره ، أو التقليل من قيمة محاولته ، وبدلًا عن ذلك نقوم بترشيد أفكاره ، وتقدير جهده.

فإذا عرض الابن فكرة ما ، وأردت – أخي المربي – ترشيدها ، فتذكّر كلمة "نعم .. و لكن " التى تعني التصويب وليس الإلغاء ..

بل إننا نطالب الآباء والمربّين بشكل أفضل من ذلك وهو " نعم .. و "

وليس " نعم .. ولكن " فهذه الطريقة لا تركّز على السلبيات ، و إنما تطالب بأفكار جديدة أخرى .. ولسان حالنا يقول للابن " نعم أؤيدك فى هذه الفكرة ، وماذا عندك أيضًا من أفكار جديدة ؟! " ...

... " إن بعضنا كآباء وأمهات يعاقب الابن على سلوكه الجيد ..!!

خذ هذا المثال :

رغبت " مريم " فى أن تفاجىء أمها بشىء يسرها ، فعمدت إلى ترتيب غرفتها .. ثم قالت لها : أماه ها قد رتبت غرفتي ، ألا يسرك هذا ؟

قالت الأم : لقد حان الوقت لأن تقومي بعمل كهذا ، .. لماذا لم تنظفي الصحون التى استعملت فى وجبة الأفطار ، هل نسيتي ذلك ؟

.. إن جواب الأم – بلا شك – كان عقوبة للابنة ، وليس إثابة أو تقديرًا.

إنها لم تعترف بالمبادرة الجميلة التى قدمتها ابنتها لها ..

بل لم تكتف الأم بذلك حتى وجهت لها اللوم على تقصيرها فى ترك الصحون بدون تنظيف ..!!!

مثال ثان :

يحمل "سامي" سجل علاماته المدرسية الباهرة إلى والده الذى يقرأ الصحيفة اليومية ..

يتقدم الولد من والده وهو يبتسم قائلًا : إليك يا والدي إنجازاتي المدرسية التى حققتها .. إنها بلا شك ستسرك جدًا .

وبدلًا من أن يقطع الوالد قراءته للصحيفة ، ويبادره بالاستحسان والإثابة ، طلب منه الذهاب إلى والدته ليسألها عن الوقت الذى يكون فيه الطعام جاهزًا...!!!

مثال ثالث :

تتوجه " خلود " نحو أمها تلتمس عندها التقدير قائلة : لقد حصلت على تسع درجات من عشر فى مادة كذا ..

وبدلًا من أن تقدّر مجهودها وتشجعها ، إذا بها تنفجر ساخطة عليها وموبخة لها ، لكونها لم تحصل على العشر درجات كاملة ..!!! " (١)

إن كل الأطفال فى حاجة لأن يظهر لهم آباؤهم الإعجاب والتقدير لما يقومون به ، ويشجعوهم على النهوض بالأعمال المطلوبة منهم .. بل إنهم فى حاجة ماسة لمن يغدق عليهم العناية والاهتمام والتقدير، بدون إلحاح أو انتقاد .. " فطبيعة الإنسان تجعله أكثر استمتاعًا وسعادة حين يسمع إطراء لجانب من جوانب شخصيته لم يكن متنبهًا له ، ولم يكن يتوقع إطراءه . ومن هنا فإننا نظل أصدقاء لأولئك الذين ينتبهون إلى الجوانب التى لا ينتبه لها غيرهم من شخصيتنا ويتناولونها بالمديح والثناء ....

وأحسن الإطراء وأوقعه هو ما يرفع لدينا إحساسًا بقيمتنا الذاتية .." (٢)

خذ مثالًا :

قد تحدث معركة بين الابن ووالديه من أجل تأدية واجباته المدرسية . وقد يقوم الابن بالمجادلة لمدة ساعتين من أجل القيام بواجباته أو يتفنن في ضياع الوقت بأن يبري القلم مرة كل كلمتين، أو يشطب الجملة ويعيد كتابتها مرة أخرى، أو أن يذهب إلى دورة المياه كل ربع ساعة، أو أن يخلق الأعذار بأن يطلب الأكل أكثر من مرة ..... كل هذه محاولات لتضييع الوقت ، ثم يبكي الابن بعد فترة قصيرة لأنه " تعب من الكتابة ..!! ".

---

(١) سياسات تربوية خاطئة – محمد ديماس – ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) كيف تحل مشكلاتك ببساطة – دونالد نوون – ص ١٣٣ .

وبإختصار يفعل كل شيء لكي يهرب من الواجبات المدرسية .

ثم هو في المدرسة لايكمل كتابة الدرس .. فإذا تساءلت عن مستوى ذكائه ، أخبرك المربي أنه غاية فى الذكاء !! .. ولكنه " مهمل !! ".

ووصف هذا الابن بأنه " مهمل " هو وصف خاطىء – كما يؤكد علماء التربية – فهم يرون أن هذا الابن لا يحتاج أكثر من أن يعطيه أبواه الاهتمام والتقدير، والذى يعطيه بدوره ثقة فى النفس ، تدفعه إلى العمل الجاد ، ومحاولة التفوق ..

إن تأثير الوالدين والمربين على إنجازات أبنائهم كبير جدًا .. ولذلك فإن الأبناء الذين يتشككون فى قدراتهم لا يثابرون على أداء الأعمال الصعبة ، ومثلهم فى ذلك أيضا أولئك الذين يحققون إنجازات كبيرة ، ومع ذلك يقلل الآباء والمربُّون من مجهودهم ويحقرون من شأنهم .. !!

ومن هنا نجد بعض الأبناء الذين يتمتعون بذكاء جيد ، يحصلون على درجات منخفضة فى كثير من المواد الدراسية !!

و أكثر البحوث التربوية تشير إلى أن الآباء الذين يتميزون بالحنان والمؤازرة ، والذين يقدرون مجهود أبنائهم ، ويعيرون اهتمامًا كبيرًا لأدائهم الدراسي يدفعون بأبنائهم إلى الجدية والمثابرة .. ونفس الأمر ينطبق على المربين والمدرسين ، فملاحظة الابن أن المدرس " مهتم " .. و " مقدر " لما يقوم به من جهد يدفعه إلى مزيد من العمل الجاد والأداء الأفضل ..

إن أبناءنا يريدون أن يواجهوا التحديات بأفضل ما عندهم من جهد وقدرات ؛ فلماذا نقبل منهم كآباء ومدرسين ما هو أقل من ذلك .. بل لماذا "ندفعهم" لما هو أقل دائمًا ؟؟!!

إن النصيحة التربوية هنا: إذا كنت ترغب فى الحصول على أفضل درجات الطاعة من أبنائك ، فإن السبيل إلى ذلك هو الثناء عليهم والاعتراف بجدارتهم ..

قدّر ابنك ، وأخبره أنه يقوم بما هو مطلوب منه بشكل جيد ..

أعلمه أنك تقدر ما يقوم به من جهد .. وأنك فخور به ..

ولديك فى طريق تقديره أساليب كثيرة .. وكلمات متنوعة .. مثل : " سعدت بسماع صوتك عبر الهاتف " .. «أشكرك على ذهابك حيث طلبت منك» .. وتعبيرات أخرى وإيماءات كلها تؤكد على معنى واحد " أقدّرك .. أنا أهتم بك .. " .. كل هذا يزيد من حب الأبناء للأب ، ومن ثم طاعته ..

إن الرغبة الملحة لدى الأبناء هى الإعتراف بجهودهم وقدراتهم وكفاءتهم .. ومن هنا يكون لتقديرنا لهم فعل السحر فى نفوسهم التى تقبل على عمل ما تطلبه منهم بحب وجد .

إن الابن يشعر أنه ذو مكانة وأنه يسهم بدور حقيقي فى نجاح حياة أسرته .. وهذا يرضي غروره ويدفعه إلى مزيد من الطاعة والعمل .

ولذلك – أخي المربي – كلما وجدت الوقت مناسبًا لإظهار تقديرك لأبنائك فلا تتردد ، وأخبرهم أنهم أبناء رائعون وأنك تقدرهم وتقدّر جهودهم .

قل لابنك : " إننى أقدرك وأقدر مجهودك " ..

" إننى فى الحقيقة فخور بك " .. " من فضلك إفعل كذا " ..

واسأله : " ما هى وجهة نظرك فى ؟ " " ماذا تقترح لـ " .. وغيرها من الأسئلة التى تمنحه الفرصة لتعظيم بعض المعارف التى يقدمها لك ، واعلم أنه سيكون سعيدًا جدًا حين يقوم بذلك ..

إن الابن حين يراك تسأله رأيه فى أمر من الأمور يشعر بسعادة غامرة تدفعه بعد التحدث عما يعرف أن يقبل كل ما تعلمه إياه ، ويعمل كل ما تطلبه منه .[1]

ونؤكد هنا أن يكون المديح والتقدير غير مبالغ فيه .. فمثلًا إن كان " أحمد " يقوم بعمل الواجب بدلًا من التشاجر مع أخته ، فنحن فقط نقول : أشكرك .. لقد

---

(١) ولا شك أن مما يشعر الابن بتفوقه أخذ رأيه فى مشكلة من مشكلات الأسرة ..

لاحظت أنك تكتب واجبك .. لا تزد على ذلك بقولك لقد أصبحت تصرفاتك مثالية !!

فقط ذكرنا حقيقة ما فعل .. وتجنبنا تمامًا أحكام القيمة ..

و المبدأ التربوي هنا :

إن المديح الكريم يحتوى على أحكام لقيمة ما يقوم به الابن من سلوك ويذكر مشاعرنا تجاه ما قام به ، بينما الأفضل أن نصف حقيقة ما يقوم به ونقدر مجهوده دون إظهار أية مشاعر ، وهو ما ما يمكن أن نطلق عليه أسلوب " علّق وانسحب " حيث تقول مثلًا : «لقد لاحظت أنك تلعب مع أختك فى هدوء» هكذا دون أدنى وصف لمشاعرك .. ثم تنسحب من الغرفة التى يلعبان فيها .. ولسنا فى حاجة بالطبع للتأكيد على ألا يعقب ذلك الوصف للفعل الإيجابي تعليق سلبي مثل: لماذا لم تفعل ذلك بالأمس ؟ ...

إن تهميش الابن ، وعدم إعطائه التقدير الذى يستحق ينعكس سلبيًا على سلوكه فيميل إلى العزلة عن الآخرين أو ربما الانحراف والشذوذ لإثبات ذاته !!!

بل إننا لا نبالغ إن قلنا " إن الشخص الذى يسعى لنيل الاهتمام والإعجاب من المحيطين به ، ويفاجأ بأن هذه الجهود قد تتمزق ولن يستطيع الوصول إليها ، سيتحول إلى قنبلة بشرية ، معرضة للانفجار وفقدان السيطرة على عواطفه وسلوكه ضد اللامبالاة والاهمال الذى يتعرض له " (١)

إن أبناءنا حين لا يجدون منّا اهتمامًا بسلوكياتهم الصحيحة ، وتقديرًا لجهودهم الطيبة ؛ يستشعرون أنه لا سبيل لجذب إهتمامنا إلا السلوكيات السلبية ، فيفضلون الإهتمام السلبي عن عدم الإهتمام ، ومن ثم تزيد سلبياتهم التى لا سبب لها إلا نحن !!

(١) التميز فى فهم النفسيات – أكرم عثمان – ص ٢٣ .

خذ مثالًا :

حين لا تلاحظ ابنك وهو يجلس فى هدوء ليؤدي واجبه .. بينما تلاحظه وتلتفت إليه فقط حين يضرب أخته !!

ماذا تتوقع من ردة فعل عند الابن إلا أن يزيد من ضرب أخته حتى يستحوذ على اهتمامك – وإن كان اهتمامًا سلبيًا – لأنه يريد منك الاهتمام والرعاية !! ..

إن أبناءنا يسعون إلى نيل تلك المكافأة العظيمة المسماة " اهتمام و تقدير الآباء" .. فهلا أعطيناها لأبنائنا فى مقابل السلوكيات الحسنة بدلًا من أن يجدوا الطريق الوحيد إليها هو السلوكيات السلبية ؟!

- **مكافأة التغييرات الطفيفة :**

" نحن كآباء نرتكب خطأ عدم ملاحظة الأشياء الصغيرة التى يفعلها الأطفال لكي يتوجهوا إلى الإتجاه الصحيح ، وبدلًا من هذا نميل إلى الانتظار حتى نرى تغييرًا ضخمًا قبل أن نعلق ، .. والحقيقة هى أن التغيرات الكبرى لن تحدث إذا تجاهلنا التغيرات الصغيرة .

إذا كنت تريد أن توجه طفلك نحو السلوك الصحيح ، فلا بد أن تزيد الاهتمام بالدليل المادى المحدد على أن سلوكه يتحسن ، ومهما بدت التحسنات ضئيلة . فعندما تفعل ذلك فإنك سوف تساعده على الانتقال إلى سلوك أفضل وعلى تطوير علاقات أفضل مع الآخرين ..

إن إحدى أهم الطرق التى تمكن من التعود على الامتنان لتحسين سلوك الطفل هى أسلوب نسميه " مكافآت التغيرات الطفيفة " . إنها قوية بطريقة مدهشة ولكنها أقل استخدامًا .

.. إن أبناءنا حين يفرحون بإنجازاتهم الصغيرة ؛ فإنهم يثابرون بدأب ويحولونها إلى أعمال كبيرة وعظيمة.

ومن هنا وجب علينا أن نسمح لهم بالاستمتاع بتلك الإنتصارات الصغيرة إن نحن أردنا منهم الإنجازات الكبيرة ..

خذ مثالًا :

لنفرض أن السلوك الذى تريد تغييره فى ابنك هو أنه " لا يرتدى ملابسه فى الوقت المحدد صباحًا " أو " أنه يضرب أخته الصغرى ".

هنا يجب عليك أن تضع فى ذهنك إجابة هذا السؤال : ما هى أول إشارة تدل على أن الابن بدأ سلوكه يتغير ؟ .. ننصح هنا أن تتوقع أصغر تغيير يمكن أن يحدث، مثل " إرتداء أحد الجوارب .. أو اللعب بهدوء مع أخته لمدة دقيقتين !!

نعم .. هكذا .. أصغر تغيير .. فإذا لاحظت هذا التغيير الطفيف جدًا ، أثنيت عليه " ما شاء الله لقد ارتديت قميصك دون مساعدة أحد .. بارك الله فيك ، إنك تلعب بهدوء مع أختك .. أشكرك» .

نؤكد هنا على أمر فى غاية الأهمية ، وهو ألا يكون مديحنا للابن تهكميًا !!!

إن أطفالنا لا يقفزون من السلوك السىء إلى السلوك الحسن فى يوم واحد .. إنهم يفعلون ذلك خطوة خطوة .." (١).

إن " الموروث الثقافي الشعبي لدينا يركّز على الذكاء بوصفه أداة أساسية للتفوق والتميز !!

والحقيقة أن المثابرة على العمل والاستمرار فى بذل الجهد قد تكون اليوم أهم فى إحراز السبق والتفوق على الآخر من الذكاء الموروث من الأبوين أو الأجداد ؟!

إن من أكبر عيوبنا أننا نؤمن بـ" الطفرة " فى أعمالنا ، ونرجو منها أكثر مما نرجوه من العمل البطىء الهادىء المستمر !!

لقد عالج رسول الله ﷺ هذا المفهوم على مستوى القول وعلى مستوى الفعل، «فقد ورد أنه ﷺ دخل على عائشة وعندها امرأة ، فقال : من هذه ؟ قالت :

(١) مستفاد من " حاول أن تروضني " – راي ليفي – ص ١١٣ – ١١٧ .

هذه فلانة - تذكر من صلاتها - قال ﷺ : مه ! عليكم ما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا . وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه (أخرجه البخاري - كتاب الإيمان).

وقال ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه : " يا عبد الله ! لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل ، فترك قيام الليل (أخرجه البخاري - كتاب التهجد) .

أمّا على المستوى العملي فقد كان ﷺ إذا لم يتمكن من الصلاة فى الليل بسبب وجع أو غيره ، يصلي من النهار إثنتى عشرة ركعة. (أخرجه مسلم - كتاب الصلاة)[١] .

ولكي نصل بأبنائنا إلى هذه الفضيلة .. فضيلة المثابرة ، فإن علينا أن نشيد بأية خطوة للابن فى الاتجاه الصحيح ، بغض النظر عن بساطتها . وأن نتحدث إلى أبنائنا عن مميزات السلوك والتصرف بشكل مسؤول ، ونضيف إلى حديثنا التأكيد على شعورنا بالفخر لسلوك الابن الطيب .. ونحن على يقين أنه " كما تقوي الوجبات الجيدة مع التمرينات الرياضية الجسم ضد الأمراض ، فإن المربين الذين يمدحون أبناءهم ويقدرون ما يقومون به من جهد يقوون من أنفسهم ضد الهزّات النفسية ، وضعف الثقة ..

ولتكن التعبيرات التى نقوم بتشجيع الأبناء عبرها ،على أفضل ما تكون صياغة وكلمات ..

خذ مثالًا :

" الدراسات الإجتماعية مادة صعبة بالنسبة لك يا أحمد ، ومع ذلك تقوم بمذاكرتها بشكل جيد .. إن هذا جهدا طيب منك ..

" إن ما فعلته (أو قلته) آنفًا يدل على صبرك ، وهذا شيء طيب منك ..

.. إن إصرارك على .. إن عدلك فى .. إن طاعتك لأمك فى .. إن مثابرتك على

(١) بناء الأجيال - د. عبد الكريم بكّار - ص ٤٢ .

عملك ..

وهكذا .. نمتدح أي فضيلة ، ونثني على كل جهد .. "[(١)] .

ونتقبل الجهود التى يبذلها الابن ، حتى وإن كان نتاجه لا يصل للمستوى الذى نرغبه ، فالانطباع الجيد عن الابن يعد أكثر أهمية من قيامه – مثلًا – بترتيب فراشه جيدًا .. ومساعدة الابن لأبيه – مثلًا – هو أمر أكثر أهمية من أن يضع كل شيء فى المكان الذى تريد تمامًا ..

وفى كل الأحوال لا بد من إظهار الرضا بالعمل الذى ينجزه الابن .. ولا بد أيضًا من مشاركة الأب مع ابنه فى هذا العمل ، و تشجيع الابن وتقدير ما بذل من جهد ..

فنقول مثلًا :

" لقد لاحظت يا " أحمد " أنك قرأت فصل التاريخ بالكامل حين لم تعرف الإجابة على السؤال .. كما أني لاحظت أنك حين لم تعرف السؤال بعد هذا الجهد بحثت فى كتب أخرى .. إني فى غاية السرور لما تبذله من جهد .. والله سبحانه لا يضيع من أجر من أحسن عملًا ..

.. حبيبي " عبد الرحمن " ، إني معجب بذكائك .. لقد رأيتك حين شعرت بالملل من المذاكرة قمت لتلعب بعض الوقت مع أختك .. هذا رائع منك أن تدرك متى تكون فى حاجة إلى الراحة والترويح ..

وما نحذّر منه هنا أن تكون تعليقاتنا من نوع " لقد علمت أنك بحاجة لتقديم هذا الواجب المدرسي منذ أول الأسبوع ، فلم لم تبدأ به إلا الآن ؟.. لماذا لا تنظّم وقتك وتخرج عن هذه الفوضى التى أنت فيها دائمًا ؟!!

---

(١) كيف تقولها لأطفالك – د.بول كولمان – ص ٣١٩ بتصرف .. و يقول ابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق : " ويمدح الابن بكل ما يظهر فيه من خلق جميل وفعل حسن يكرم عليه" ..

كما أن من المحظور أيضًا أن نعلق على التفاصيل الدقيقة للأخطاء " لقد أخطأت فى تهجي كلمتين من الإمتحان " أو إشعار الطفل أنك محبط منه " لا فائدة .. أنت تسلك دائمًا الاتجاه الخطأ» ..

بل على العكس حاول أن تقر فى عقل الابن قواعد ثابتة ونافعة من مثل " لا بأس إن أخطأت طالما أني قد بذلت ما فى وسعي .. إن والداي يحبانني مهما يحدث .. وذلك عبر أقوال من مثل : " لا تحزن لخطأك .. ارتكاب الأخطاء هو إحدى الطرق التى نتعلم من خلالها أشياء جديدة "

والبعد عن اللغة السيئة من مثل :

" هذا غباء منك " .. " لا عليك سأحلها أنا " .. " إجابة خاطئة ، أنت تكذب وتقول أنك ذاكرت " .. " لم لا تكون مثل أختك ؟ "

... إن استخدام أساليب الإزدراء والتوبيخ والمقارنة بالآخرين يعد أسوأ الطرق لتعليم أبنائك .. "[1] .

إن الكثيرين من الآباء والمربين لا يرون لهم أدنى قدرة على تعديل سلوك أبنائهم إلا عبر طريق واحد هو تعقبهم لأبنائهم كل دقيقة ليتأكدوا أنهم يقومون بواجباتهم دون تكاسل .. ومن وجدوه على غير ما يشتهون قاموا بتوبيخه .. فإذا لم يستمع الأبناء ؛ قاموا بصب جم غضبهم عليهم ..!!!

والحقيقة أن التربية الراشدة ، تقوم بالتركيز على الجوانب الإيجابية من سلوك الأبناء ، وتعمل من خلال التعليم على استبقائها .. وذلك من خلال الجديّة والحزم مع روح دعابة عند الحاجة . .. وتقدير الأبناء على كل الأحوال .. وهذا يتطلب من المربي – أبًا وأمًا – بعض الأمور منها :

" ١ – عدم المباشرة فى توجيه النقد إلى أخطاء الابن ، فإذا سألت عن الخطأ

---

(١) كيف تقولها لأطفالك – د. بول كولمان – ص ٧ .

قلت : ماذا حدث ؟ وليس من فعل ؟ .. إن الأولى تركز على الخطأ .. والثانية تركز على الشخص .. والمطلوب من الإرشاد تصحيح الخطأ ، وليس توبيخ الشخص . .. أنا أبحث عن الطريق إلى الصواب ، وليس الطريق إلى الإمساك بالمجرم الذى فعل .. فحتى حين أجد من فعل ، فإن حدة غضبى تكون أقل بكثير .. كما أن إطمئنان الأبناء لصيغة السؤال سيجعلهم يتحدثون ويخبرون بما حدث .. فإذا أرشدتهم بعد ذلك فإنهم يكونون أكثر طاعة .

٢- اختيار الوقت والمكان المناسب لذلك التنبيه ... فإذا أردنا النصيحة المباشرة للابن فليكن ذلك فى خصوصية كاملة .. فى جلسة هادئة مع الابن تربط فيها على كتفه ، وتمتدح سلوكياته الأخرى .. وتؤكد على ثقتك فى عقله واختياره .

٣- عدم فقد الأعصاب عند تصويب الخطأ .. فإرشاد الابن لا بد أن يكون جلسة " تشاور " وليس حوارًا بين غاضبين .. ذلك أن الغضب سيؤدى إلى زيادة نقدك لـ" شخص " الابن أكثر مما سيؤدى إلى تصويب الخطأ .. بل ربما أدى فقدان أعصابك إلى نسيانك ما هو الهدف من التحاور مع الابن !!!!

٤- البدء دائمًا بالتقدير والمدح الحقيقين .. فى خلال جلسة التحاور مع الابن لإرشاده، لا تقم بتجريحه أو سرد كل عيوبه واحدًا تلو الآخر .. بل على العكس من ذلك ، قم بإخبار الابن أنه نعم الابن وقم بالثناء على سلوكياته الطيبة الكثيرة .. وأن هذا الخطأ الذى تتحدث معه فيه أنت على يقين أنه خطأ عارض فى حياة مليئة بالطيب من القول والفعال . .. إن هذه الكلمات الطيبة تساعد فى خلق جو من الود والرغبة من الابن فى التعاون معك للوصول إلى ما يرضيك ..

٥- إذا تتطلب الخطأ عقوبة ، فلا بد أن تكون متناسبة معه .. ولا بد أن تتذكر دائما الحقيقة الهامة " إن العقوبة هدفها الإصلاح ، وليس الانتقام».

٦- مدح أدنى تحسن لسلوك الابن ... " فمثلًا : إن كان لديك ابن ، وما زال فى السنوات الناعمة فى الصف الإبتدائي . راقب وجهه مباشرة بعد أن يحضر لك تقرير المدرسة ، إفرض أنك نظرت وقلت له : يا بني إن درجتك فى القراءة ليست جيدة ، أليس كذلك ؟ ... راقب رد فعله ، سيتغير وجهه وستكون هناك غالبًا دموع

بعينيه ، لكي يسترد لون وجهه مرة أخرى ، قل له فقط : لكن درجاتك في الحساب مرتفعة وأنا فخور بك " [١].

إن أي عمل مهما كان صغيرًا يكشف للإنسان مكنون ذاته ، وينقل واقعه من النوايا إلى الواقع المحسوس .. ومن هنا " فإن الأمهات العظيمات يدركن دائمًا معنى النمو العملي لدى أبنائهن ؛ فهذه أم سفيان الثوري العَلَم المشهور ، تقول له حين بدأ يطلب العلم : " يا بني إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك . فإن لم تر ذلك فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك " !

إن كل استعدادات الأطفال ومواهبهم وفضائلهم معرّضة للضمور والتلاشي إذا لم تتجسد في سلوكياتهم على قاعدة : أي شيء لا نستخدمه نفقده . فالشجاعة غير المستخدمة تتلاشى ، والتعاطف مع الآخرين الذي لا يتجسد في عمل ما ، يذبل ويختفي ...

ومن هنا فلا بد من تكوين النزعة العملية عند أبنائنا .. ومما يساعدنا على ذلك مناقشة كل المشكلات على أرض الواقع ، وليس من خلال التمثل الذهني ، ومحاولة إيجاد الحلول العملية لها . ويمكن أن ندرّب أبناءنا على إصلاح بعض الأشياء في المنزل ، وإدخال بعض التحسينات على بعض الوسائل " [٢] .

ومن هنا فإن النصيحة التربوية هي :

حاول أيها الأب والمربي أن تدرب نفسك على ملاحظة التغييرات الإيجابية الطفيفة في سلوكيات أبنائك مهما صغرت .. واهتم بها .. و قدّرها تقديرًا مقرونًا بالحث على التفوق ، كأن تقول للابن : إمكانات فلان أقل من إمكاناتك ، وهو حصل على درجات أفضل من درجاتك ؛ وأنت تستحق فوزًا أحسن لو بذلت

(١) ٢١ يومًا للحصول على القوة والسلطة في تعاملك مع الآخرين – جيمس ك . فانفليت – ص ٢٢٦ – ٢٣٧ بتصرف .

(٢) دليل التربية الأسرية – أ. د / عبد الكريم بكار – ص ٦٩ – ٧١ بتصرف .

جهدًا أكبر .. إنني أقدّر ما تقوم من جهد وألاحظ ما تغيّر من أمور جيدة فى سلوكياتك ..

ولا تبخل على أبنائك بكل ما يشعرهم بقيمتهم ، وقدراتهم ، مهما كان ما يقومون به من تغييرات طفيفًا .. فرب كلمة تقدير غيّرت مسار ابن ، أو بعثت فيه طاقة كامنة ، أو داوت جرحًا غائرًا .

- **نفض غبار الفشل :**

هناك حقيقة أوليه بسيطة فى هذه الحياة ، وهى رغم بساطتها – بل بداهتها – منسية من قبل أكثر الآباء والمربين ..

تلك الحقيقة هي أن معظم الناجحين قد تعرضوا لكثير من الفشل ، ولكنهم ثابروا حتى أدركوا النجاح .. أمّا الذين يتوقفون فى مواجهة الصعوبات الحياتية ، فإنهم يعجزون تمامًا عن مواجهة مستقبلهم ..

إن الفشل يدل على وقوع خطأ ما ، ولكن الناجحين لا يخشون الأخطاء ، ويحاولون اكتشاف الخطأ حتى لا يقعون فيه مرة أخرى .. وكم من تجارب فشل ولّدت عقولًا ونفوسًا جديدة نسيت الماضي وانشغلت بالعمل فى المستقبل ..

.. نعم قد نفشل ، ولكن المثابرة بعد الفشل هى طريق النجاح الأكيد .. والعمل الأسطوري الذى قام به " توماس أديسون " كان بعد بحثه للعثور على سلك رفيع يساعد على تشغيل أول مصباح كهربائي ، وكانت نتيجة البحث ألف خطأ قبل أن ينجح فى التوصل إلى ما حققه من نجاح .. وهذا ما دعاه لأن يقول: " العبقري شخص موهوب بنسبة واحد بالمائة ، ومجتهد بنسبة تسعة وتسعين بالمائة"..

لقد كان ابني " أحمد " يتابع مسودات هذا الكتاب ، وكان يتعجب لكمية التصويبات التى كنت أقوم بها للوصول به إلى شكل أقرب إلى المرضي ، وكان هذا مثالًا جيدًا ليرى بنفسه أن أباه لا يصل درجة الكمال .. وأكدت أنا له أن هذه التصويبات الكثيرة التى قمنا بها هى التى يسر الله بها خروج الكتاب فى صورة

مقبولة ، فلا عيب فى أن تخطىء ، ولكن لا تجعل أخطاءك سببًا للمعاناة والألم فقط ، وإنما لا بد أن تستخلص منها العبرة التى تفيدك فيما يأتى من الحياة ..

اعترف – أيها الأب والمربي– لأبنائك بأنك تخطىء أحيانًا ، فإنهم سيتعلمون منك هذه الصفة .. بل إنك حين تعترف بأخطائك ستريهم أن الكبار الراشدين يخطئون هم أيضًا ولا يصلون درجة الكمال السلوكي ، ومن ثم فليست المشكلة فى الخطأ نفسه ، وإنما هل تعلمنا نحن من هذا الخطأ أم لا ..

" قال لي أحد الآباء ذات مرة " إن ابني " أسامة " لا يستطيع أن يفشل. لقد أقنعته منذ صغره أنه لا بد أن يصبح طبيبًا ..

.. وكان الابن قد " فشل " بالفعل فى السنة الإعدادية اللازمة لدراسة الطب..

قلت : *إن فى النفس الإنسانية عنصرًا يقويه الفشل ، و هناك فائدة كبيرة فيما يصيب الإنسان من فشل !!*

قال الأب : هل يمكن أن ينتهي الفشل بفائدة ؟

قلت : نعم .. إذا تعلمنا منه الدروس التى لا يمكن أن نتلقاها إلا منه.!!

قال : وما دوري أنا الآن كمربي ؟

قلت : " إن مهمة المربي هي أن يعلّم أبناءه – إذا فشلوا – كيف يفشلون بذكاء !!. ويعرفهم أنهم لن يستطيعوا المضي خطوة واحدة لحل أية مشكلة قبل أن يصطدموا بنقطة معقدة ..

وأن أهم درس يمكن أن نتعلمه من الفشل ألا نعلق فشلنا على الآخرين...

وأن أعظم الناس هم أولئك الذين يمضون فى طريقهم على الرغم من الصدمات المريرة التى تلحق بهم ، "(١) .

(١) كيف تحل مشكلاتك ببساطة – دونالد نوون – ص ٤٥ – ٥٠ بتصرف.

ويؤكد لأبنائه أن كل فرد لديه نقاط قوة ونقاط ضعف ، والمطلوب من كل إنسان فقط أن يركّز على كل ما هو جيد ليفعله .. فمثلًا : " ليس كل شخص يمكنه أن يكون عظيمًا فى كرة القدم ، فبعض الناس لديهم قوة أكثر من غيرهم . فأنت أيها الابن على سبيل المثال لديك نقاط قوة أخرى .. أنت عطوف جدًا ، وكل من يعرفك يحبك ، لما تتمتع به من روح الدعابة والمرح ، ثم أنك دائمًا تحصل على أفضل الدرجات . لذا عليك ألا تقلل من شأنك ، لعدم تفوقك فى لعب الكرة . لكن عليك أن تبذل وسعك فى الاجتهاد ، واستمتع فى ذات الوقت باللعبة "[1] .

إن من واجب الآباء والمربين بث روح التفاؤل والأمل فى نفوس أبنائهم، وحملهم على الاعتقاد الدائم بأن فى كل جدار بابًا يمكن أن ينفتح ، وأن جميع العقبات والمشاكل إنما هي أمور وقتية ، وأن اليأس ليس من خلق المسلم ، كما أنه ذريعة للكسالى والقاعدين الخاملين . ..

ولا شك أن هذا الأمر يحتاج منك – أخي المربي – إلى تعاطف شديد مع أبنائك ، ورغبة حقيقية فى مساعدتهم على التفوق والنجاح ..

فتقول مثلًا :

" أحمد .. تبدو محبطًا من مادة الرياضيات ، أشعر أنك لا تحبها .. هل تحب أن أساعدك على فهمها ؟. سأكون فى غاية السعادة إذا قمت بمساعدتك فى ذلك.. " ..

وتشجّع الابن وتقدّر ما قام به من جهد ، وإن كان قليلًا .. و تعتقد بأن " النجاح السهل فى المدرسة ليس بالضرورة شيئًا طيبًا ما لم يتعلم الطفل كيف يتعامل مع الفشل ، وليس النجاح المتواضع بالضرورة شيئًا سيئًا إذا أرجع الطفل الفشل إلى قلة الجهد (المذاكرة الجادة ليست كافية ، إلخ ...) .. وهنا لا بد من مدح الجهد

---

(١) كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د.سال سيفير – ص ٣٠٢ .

المبذول من الابن مهما قل ، وعدم التركيز على نتيجة الجهد " [١]والاهتمام بـ "العمل " مهما كان صغيرًا لأنه هو مقدمة التغيير فى النفس وفى الواقع ..

إن النقص من طبيعة البشر ، وليس عيبًا أن يخطىء الابن إذا اجتهد وبذل وسعه " فلا يزهدنك فى ولد ارتضيت سلوكه ، وعرفت بذله لوسعه ، عيب خفي أو ذنب صغير، فإنك لن تجد ما حييت مهذبًا لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب " [٢].

فمن الإنصاف من اغتفر قليل خطأ المرء فى كثير صوابه ..[٣].

.. وهذا يستلزم منك – أخي المربي – أن تنظر إلى جهد الابن وليس النتائج!! وأن تحاول محو أى أثر لخوف الفشل من نفوس أبنائك حتى لا يبقون قابعين تحت غبار الفشل دون أدنى محاولة لنفضه عن أنفسهم ومواصلة الطريق إلى النجاح.

- ***وبكلمـــة ..***

إن الرغبة فى أن يشعر المرء بأهميته تعتبر قوة دافعة توجد داخل كل إنسان .. ولذلك فإن للتقدير والاهتمام أثر فعال فى استنهاض الهمم وفعل المعجزات ، ذلك أن كلمات التقدير ، تقوم بكل الطرق بالإشعاع بالطاقة وإطلاقها ، .. فالتقدير يمنح الثقة والسكينة للقلب الخائف ، والثبات والقوة للأعصاب المحطمة ، .. بل والنجاح والازدهار للمشروع المشرف على الفشل.

إن إحساس الابن أنك تقدّر ما يقوم به ، وما يبذله من مجهود ، يولد لديه الرغبة فى أن يعاونك .. بينما يولد استخفافك به رغبة شديدة لديه فى تجاهل أوامرك..

---

(١) كيف تقولها لأطفالك – د.بول كولمان – ص ٢٥٧ بتصرف .

(٢) أدب الدنيا والدين – على بن محمد الماوردى – ص ١٧٤ بتصرف .

(٣) القواعد – ابن رجب الحنبلي – ص ٣ .

فهل يسأل كل منا نفسه : كم مرة شكرت ابنك على ما قام به من جهد ، أو محاولة جادة لتنفيذ ما طلبته منه

كم مرة قال له : إني أقدّرك وأقدِّر لك جهدك .. إننى فى الحقيقة فخور بك .. من فضلك إفعل .. شكرًا لك ؟

إن الأبناء – أى أبناء – بل ربما أى إنسان يقل أداؤه كلما أحس أن من حوله لا يقدرونه .. فإذا شعر الإهتمام والتقدير ، حاول أن يرتفع إلى مستواهما. وأنت أخي المربي – أبًا وأمًا – إذا أردت تعاونًا كاملًا من أبنائك .. ورغبت فى الفوز بقلوبهم وعقولهم .. وتطلعت إلى أن يصنعوا أقصى ما يستطيعون لأجل إسعادك ..

إذا رغبت فى كل ذلك ولم تعرف من أين تبدأ معهم ، فإن البداية من هنا: من إشعارهم بأهميتهم وتميزهم .. من مكافأتهم على أقل التطورات ، وعلى التعديلات الطفيفة فى سلوكهم .. من الإشادة بأية خطوة لهم فى الاتجاه الصحيح بغض النظر عن بساطتها .. و من قبل هذا ، ومن بعده ..

من تقديرهم .. لأن تقديرهم هو المحفِّز الأقوى ..

❀❀❀

الفصـــل الثاني

إذا أردت أن تطـــاع

حين نحاول تعليم أبنائنا المعارف المختلفة، أو ندفعهم إلى بذل الجهد فيما نكلفهم من أعمال .. حين نحاول هذا وذاك بطريقة طوعية ، فإنهم يتعلمون ما نريده بصورة أسرع ، ويقومون بما نكلفهم بصورة أتقن ..!!

أمّا حين نحاول أيًا من الأمرين عبر التهديد ، فإن أبناءنا لا يبذلون فيما نعلمهم من معارف ، أو نكلفهم من أعمال إلا الجهد الذى يكفي لإتمام " صورة " العمل المطلوب ..

وأمّا حين نكلفهم بعمل فى ظروف تجعله فوق طاقتهم ، فإننا نحكم عليهم ألا يعملوا شيئًا على الاطلاق .. وإن حاولوا رغم ذلك القيام بما نريده منهم ، فإنهم لا يحسنون صنعًا ..!!

- **خـــذ العفـــو :**

لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ، فلكل انسان طاقة وقدرة لا يستطيع تجاوزها ، وإذا طلب منه ما لا يستطيع فهو واقع فى التقصير لا محالة ..

ومن هنا فإن من فطنة المربي أن يتعرف على امكانات أبنائه ، فيطالبهم بما يستطيعون حتى لا يجرئهم على العصيان والمخالفة ..

" ويضع الغزالي رحمه الله بعض الضوابط لمساعدة الآباء على حمل الأبناء على برهم، وعدم عقوقهم، فيقول: "يعينهم على بره ولا يكلفهم من البر فوق طاقتهم، ولا يلح عليهم فى وقت ضجرهم ، ولا يمنعهم من طاعة ربهم ، ولا يمنن عليهم بتربيتهم " ... " بل كان بعض الصالحين لا يأمر ولده بأمر مخافة أن يعصيه فى ذلك فيستوجب النار .. وهذا فقه عظيم من رجال السلف رضوان الله عليهم إذ أن

نظرهم أبعد من حدود هذه الدنيا ، وحبهم لأولادهم وإشفاقهم عليهم يتطلب مساعدتهم وعونهم على النجاة فى الآخرة قبل كل شيء ، فلا يكلفونهم ما لا يطيقون من الأوامر ؛ بل يفكّر أحدهم قبل الأمر : هل سوف يطيق الولد ذلك أم يعجز عنه فأسوقه بنفسي إلى التهلكة ؟ " (١)

وهكذا يجب أن تكون – أخي المربي – تأخذ " العفو " الممكن الذى يقدره الإبن ، فلا تكلفه الشاق مما لا يستطيع ، وتعفو عن خطئه وضعفه ونقصه ..

واعلم أن للمربي مع المتربي ثلاثة أحوال :

" أحدها : أن يأمره وينهاه بما فيه مصلحته .

الثانى : أن يأخذ منه ما يبذله مما عليه من طاعة .

الثالث : قد يطيعه المتربي فيما يأمره أو يعارضه ..

.. فإن عارضه المتربي ولم يطعه ، وجب عليه أن يأخذ منه ما يستطيع من الطاعة ، وما يقدر عليه من الأعمال ، مع قبول الأعذار ، والعفو والمساهلة ، وترك الاستقصاء فى البحث ، والتفتيش عن عوراته .. (٢)

وكنوع من التدريب يجب على المربي إذا طلب من الإبن عملًا يراه معقدًا بعض الشيء ، أن يقوم بتقسيم العمل إلى خطوات ، ثم يترك العمل للإبن وهو لا يتوقع بلوغ الكمال ، وإنما إحراز التقدم فقط ..

لأن " الغالب على النفس البشرية أنها لا تتقن العمل من المحاولة الأولى ، بل يحتاج إلى مرات ومرات للوصول إلى مبتغاه من الإتقان .. ولذلك فإنه لا بأس فى هذه المحاولات من وقوع المتربي أحيانا فى خطأ ما .. فهذا أمر بديهي أن الإنسان الذى يحاول ربما أخطأ .. وهو يخطو إلى الأمام خطوة ، وربما تعثّر أخرى .. ولكن تكرار المحاولة يصل به إلى أقصى درجات النجاح» ..

---

(١) مسؤولية الأب المسلم – عدنان حسن صالح باحارث – ص ٢١١.

(٢) مدارج السالكين – ابن القيم – ج ٢ – ص ٢٢٦ . بتصرف .

و من الأدلة على هذا الأسلوب فى التربية الإسلامية حديث المسىء فى صلاته: فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل المسجد فدخل رجل فصلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال : " إرجع فصل فإنك لم تصل " فصلى ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال : " إرجع فصل فإنك لم تصل " ثلاثًا ..

فقال: والذى بعثك بالحق فما أحسن غيره فعلمنى ... الحديث [أخرجه البخاري ١/ ٢٥٧]...

وهكذا هي التجربة " جعل المتربي يجرب بنفسه القيم والأفكار والحقائق المقدمة إليه ، ذلك أوقع فى نفسه وأقرب إلى إدراك قيمة تلك الحقائق والأفكار " (١).

كما أن مما يقلل من تمرد الابن ويزيد من طاعته ، وينمي الوازع الداخلي عنده، ترك مساحة لإختياره بين ما يكلف به من الأعمال ، وعرض بدائل كثيرة يمكنه أن يأتي منها ما استطاع ..

وتأمل معي هذا الموقف :

عن أبى موسى الأشعري عن أبيه عن جده قال : " قال النبي ﷺ: على كل مسلم صدقة.

قالوا : فإن لم يجد ؟

قال : فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق .

قالوا : فإن لم يستطع أو لم يفعل ؟

قال : فيعين ذا الحاجة الملهوف .

قالوا : فإن لم يفعل ؟

قال : فيأمر بالخير .. أو قال : بالمعروف .

قالوا : فإن لم يفعل ؟

قال : فيمسك عن الشر فإنه له صدقة . [أخرجه البخاري برقم ٦٠٢٢]

(١) جوانب التربية الإسلامية – مقداد يالجن ص ٣٥٣

ومع أننا نؤكد على تعليم الطفل الاعتماد على النفس وتدبير شئونه الخاصة مهما كان ذلك ممكنًا ؛ إلا أن علينا بالمقابل أن نشعره أنه ليس وحده ، وأننا قادرون على التضحية من أجل سعادته وحمايته ..

نشعره بذلك عبر الكلمات التي تقدّر جهده ، كما نشعره به عبر أن نساعده حين تكون الواجبات صعبة ..

فنقول مثلًا:

" لقد لاحظت أنك حاولت حل هذه المسألة .. هذا جهد طيب منك .. دعني أساعدك فى حلها .. سأحل لك الجزء الأول منها ، ثم أترك لك محاولة إكمالها..

حين يكون لديك سؤال آخر يمكنك أن تلجأ إلي فسوف تجدني دائمًا على استعداد لمساعدتك .. فقط حاول قبل أن تسأل .. اتفقنا ؟

وما نحذّر منه هنا أن تقوم بدلًا من طفلك بأداء الواجبات المنزلية .. "سوف أقوم عنك بأداء الواجب هذه المرة ، ولكن فى المرة القادمة لن أساعدك فى شيء منه..!!

أو " لماذا لم تخبرني أن لديك كل هذا الواجب المنزلي .. سأقوم به عنك هذه المرة ... " (١)

وتأمل هذا المثال الآخر:

" ينكب أحمد على واجب الرياضيات المنزلي ويكتب بعصبية لأن أمامه خمس دقائق فقط لينتهي من واجبه وإلا فاته موعد المدرسه ..!!

ينادى أحمد على أمه : أمي .. هلا ساعدتني فى حل هذه المسألة ؟

قالت أمه : لقد أخبرتني أنك انتهيت من واجب الرياضيات الليلة الماضية ..

أحمد : " لقد انتهيت من أغلبه ، فهلا ساعدتيني فى حل هذه المسألة ؟ سوف يفوتني موعد الذهاب إلى المدرسة ..

---

(١) كيف تقولها لأطفالك – د . بول كولمان – ص ٢٩٣ – ٢٩٧ بتصرف

الأم : كلا إنك تستطيع حلها ..

أحمد : من فضلك يا أمي ليس لدي وقت !!

الأم : كان من الواجب أن تفكّر فى ذلك الليلة الماضية عندما ..

أحمد : أمي .. إنك لا تساعدينني أبدًا ..

هذه المشاحنات اليومية حول الواجب المنزلي تكاد أن تصبح أمرًا مألوفًا بيننا هذه الأيام ..

إن الأطفال يحاولون أن يلعبوا أثناء الواجبات المنزلية !! فترى منهم من يشاهد برنامجًا أو حتى يتحدث عبر الهاتف أثناء المذاكرة !!

بالطبع هم يفضلون اللعب على أداء الواجبات .!!

ومن هنا لا بد أن تكون تعليقاتنا على هذا الأمر تعليقات هادئة وتحمل قدرًا كبيرًا من تقدير الجهد ..

" أعرف أنك تفضل ألا تكلف بأي واجبات منزلية ، إني أتذكر الإحساس بذلك يوم أن كنت فى مثل سنك ، ولكني أريدك أن تتعلم أكثر ، فأنا أعلم أن بذل الجهد الآن يعطيك خيارات كثيرة عندما تكبر ..

" لقد أتيت منذ فترة قصيرة من مدرستك ، وذهبت إلى تأدية واجباتك .. هذا ذكاء منك .. كما أنني لا حظت أنك راجعت الدرس عندما فشلت فى حل المسألة التى كانت ضمن واجبك المنزلي ، وكان ذلك تصرف ذكي منك أيضًا ..[1]

ومع هذه التعليقات المشجعة للإبن ، لا بد من تقديم المساعدة له فى القيام بواجبه المدرسي ..

ويمكن أن تتمثل مساعدتك لإبنك فى القيام بواجباته فى تحديد وقت ثابت للقيام بأداء هذه الواجبات .. أو إعادة تنظيم أوقات ممارسة الأنشطة الأخرى كالأنشطة الرياضية والترفيهية .. أو إعطاء الابن نموذجًا للطريقة التى يجب أن

(١) كيف تقولها لأطفالك – د . بول كولمان – ص ٢٩٣ – ٢٩٧ بتصرف .

يسلكها فى القيام بواجباته .. أو تقسيم الواجبات إلى أجزاء يسهل القيام بجزء تلو الآخر منها .. أو مناقشة السؤال أو المشكلة التى تصادفه ومحاولة إرشاده إلى حلها..

كأن تقول له مثلًا : " إنك ستقوم بالثلاث خطوات القادمة بنفسك ، وسأعود لأراجعها معك "

وهكذا تساعده وتشجعه فى كل خطوة .. فقط نؤكد هنا أن دورنا سيكون دور المعاون له ، وأن وظيفتنا تنحصر فى المساعدة ، وليس القيام بالواجب بدلًا من الابن ..!! فهذا خطأ تربوي كبير ..

ربما قال بعض الآباء عند قراءة هذه الكلمات ما قاله لي أحد الآباء عن إبنه ، ومدى المقاومة التى يبديها فى مواجهة القيام بأية واجبات منزلية من أي نوع ..

" الأب : إبني لا يفعل شيئًا إلا مشاهدة التليفزيون واللعب بالكومبيوتر !!

قلت : هل يقوم بالذهاب إلى السوق مثلًا ؟

الأب : أحيانًا .. ولكن بعد كفاح طويل مني ومن أمه ..

قلت : وكيف حاله فى المرسة ؟

الأب : ينجح ، وبمقدوره أن يكون أفضل لو اجتهد ..

قلت : هل تعرف لماذا ؟ .. إنه يفتقد الباعث الداخلي الدافع للعمل .

فكيف السبيل إلى إيجاد هذا الدافع ؟

إن النجاح هو السبيل الأول للباعث الداخلي ، ولا يستطيع الإبن النجاح إلا أن يحاول فى أمر يقدره .. وينتظر منه المربي مجرد أداء المطلوب ، وليس الكمال فيه ..

خذ مثالًا :

إنك تريد مثلًا من الإبن ذى السبع سنوات أن يرتب سريره .. إذن الخطوة الأولى : تعليمه كيف يرتبه .. ثم مطالبته بالمحاولة وأنت على يقين أنه لن يرتبه مثلك بالطبع .. فإذا قام بذلك على قدر طاقته فلا بد من تشجيعه والثناء على نجاحه..

هذا النجاح هو الذى يدفعه لمحاولة تحسين أدائه فى المرة التالية ..

خذ مثالًا آخر:

لقد طلبت من إبنك أن يقوم بتنظيف حجرته فقام بالمهمة بشكل ناقص حيث ترك أركانها بلا تنظيف .. فماذا تقول ؟

إن الصورة الخاطئة هي: " أنت طفل كسول .. لماذا لم تكنس الأركان .. إن طفلًا أصغر منك بسنوات يمكنه القيام بهذه المهمة أفضل منك ...

أما الصورة الصحيحة فهي: " ما شاء الله .. لقد قمت بالجزء الأكبر من المهمة . بقيت الأركان .. سأقوم بكنس ركن لأريك كيفية تنظيفه .. ثم تقوم أنت ببقية الأركان بنفس الطريقة .. سيصبح المكان بعدها نظيفًا وجميلًا ...».

إن هذه العبارات تزيد من حماس الطفل ليكون تصرفه جيدًا فى المستقبل .. وعندما ينجح فى المرة القادمة ؛ سيعطيه ذلك باعثًا داخليًا جديدًا للنجاح أكثر .. [1]

إن شكوى الآباء المتكررة من عدم رغبة أبنائهم فى التعلم ، وولعهم بأفلام الكارتون أو اللعب بالكومبيوتر .. إن هذه الشكوى هى شكوى يعاني منها الكثيرون من الآباء فى بعض الأولاد أو فى كلهم ..!!

إنهم يدفعون أبناءهم إلى القيام بواجباتهم الدراسية دفعًا .. بل ربما هددوهم ، وأوقعوا بهم العقاب والضرب لأجل ذلك ..!!

ولحل هذه المشكلة فإنه من الضروري أن يعي المربي استعدادات الأبناء وقدراتهم .. ذلك أن الوعي بها لا يجعل توقعاتنا أعلى أو أدنى من اللازم ..

لقد أكد القرآن على مبدأ الإستطاعة : " لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها " .. وعلمنا رسول الله ﷺ: " اكلفوا من العمل ما تطيقون ، فإن خير العمل مادام وإن قل " [صحيح الجامع رقم ١٢٢٨] .

" فإذا كلفت– أخي المربي – أبناءك بأعمال ، فينبغي أن تحرص أن تكون تلك

---

(١) مستفاد من " كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د . سال سيفير .

الأعمال ممكنة التنفيذ ، لا تتجاوز قدراتهم ، فتسبب لهم شعورًا بالإحباط فتضعف ثقتهم بأنفسهم ..

وبالطبع لا يعني ذلك فى المقابل أن يكون ما نطالب به أبناءنا من أعمال هى أمور بسيطة ومبتذلة بحيث يشعرون معها بنوع من امتهان قدراتهم ....

بل ندفع الأبناء إلى بذل الجهود بطريقة مرحلية بحيث يؤدي نجاحهم فى مرحلة إلى زيادة الدعم النفسي والتشجيع المعنوي على بذل المزيد من الجهد فى سبيل إنجاز المرحلة التالية .. فالنجاح فى أداء المهمات الصغيرة المتتالية يؤدي بشكل تلقائي إلى النجاح فى أداء المهمة الكبيرة "[(١)].

ولتعلم – أخي المربي – أن من الحكمة فى التعامل مع الابن أن نراعي أمورًا منها :

١ - تدريب الابن على أمر يستطيعه :

فليس من المناسب مثلًا أن نطلب من الطفل حمل شيء ثقيل جدًا .. أو تكليف الابنة بغسيل أطباق تحتاج وقوفًا لمدة ساعتين مثلًا.

٢ - التدرج فى التدريب :

فإذا أردنا تدريب الابن مثلًا على الذهاب للبقال ليشترى بعض الأشياء ، فلا يحسن أن نرسله إلى البقال البعيد فى المرة الأولى .. كما لا يحسن أن نطالبه بشراء شيء مرتفع الثمن فى المرة الأولى ..

٣- عدم تعنيفه إذا أخطأ :

فإذا أرسلته ليشتري شيئًا ، فعاد وقد اشترى غيره أو أخطأ فى عد النقود أو كسر ما اشتراه ؛ فلا تعنفه بقولك : ليتنى ما أرسلتك .. الحق علي أني وثقت فيك واعتمدت عليك .. أين عقلك ؟ ... إلى آخر هذه العبارات التى تسبب له إحباطًا شديدًا يترك أثره التربوي السيء فى نفسه ... وإنما حاول أن تبين لطفلك خطأه بهدوء ، واطلب منه أن يعيد ما كلفته به بصورة صحيحة إن كان هذا ممكنًا ، وأفهمه

(١) التربية النفسية للطفل – عكاشة عبد المنان الطيبي – ص ٤٠ بتصرف يسير .

أننا جميعًا نخطىء فى بدايات تعلمنا ، وأن الخطأ لا يعنى العجز أو الفشل ..

٤- عدم تكليفه بعمل فى وقت غير مناسب :

فإذا كان يلعب مع أصدقائه منسجمًا فلا تقطع عليه سعادته بتكليفه بعمل يحرمه من لعبه ..

٥- شجعه إن أصاب :

يجب علينا تشجيع أبنائنا باستمرار ، بشكرهم إن قاموا بها كلفناهم به فنقول مثلًا : بارك الله فيك .. أحسنت العمل .. [1]

أخى المربي – أبًا وأمًا – .. حاول أن تعرف مدى قدرات ابنك على فعل ما تأمره به .. وأن تقبل منه ما يستطيع القيام به من عمل ، فليس من الضروري – مثلًا – أن يرتب الطفل حجرته كل يوم ، فقد تكفى مرة كل أسبوع فى بعض الحالات ..

" لا أطالبك تنظيف حجرتك يوميًا ، ولكن ليس أقل من كونها مرتبة لا يتعثر السائر فى الأشياء الملقاة على أرضها "

اترك له الخيار فى أن ينظفها الآن ، أو بعد الغذاء .. أترك له الخيار بين تنظيفها بمكنسة الكهرباء أو العادية .. وهكذا ..

واحذر أخى المربي الصراخ .. لا تصرخ قائلًا : " لآخر مرة أقول لك نظف حجرتك " ، فهذا الصراخ يعوّد الإبن ألا يمتثل أوامرك إلا فى حالة صراخك ..

بل عوّد نفسك دائمًا ، أن يكون منك على ذكر هذا المبدأ فى التعامل مع أبنائك، ألا وهو " خذ العفو " .

ومع هذا المبدأ تكون النصيحة التربوية ..

- **توقع الأخطاء الصغيرة :**

" الإنسان فى التصور الإسلامي هو هذا الإنسان الذى نعهده . هذا الإنسان

---

(١) الإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ٨٤ – ٨٦ – بتصرف .

بقوته وضعفه . بنوازعه وأشواقه . بلحمه ودمه وأعصابه ، بجسمه وعقله وروحه .. إنه ليس الإنسان كما يريده خيال جامح ، أو كما يتمناه حلم سابح "[١] .. ذلك أن النفس تتجاذبها أمور كثيرة :

" فالشيطان يدعوها إلى الكبر والحسد والعلو والبغي والشر والأذى والفساد والغش .. والشهوة تدعوها إلى أخلاق الحيوان .. والملك يدعوها إلى الإحسان والنصح والبر والعلم والطاعة .."[٢] .

ولذلك فإن النقص يبقى من طبيعة البشر ، وليس عيبًا أن يخطىء الإبن إذا اجتهد وبذل وسعه " فلا يزهدنك فى ولد ارتضيت سلوكه ، وعرفت بذله لوسعه ، عيب خفي أو ذنب صغير ، فإنك لن تجد ما حييت مهذبًا لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب "[٣] .

فمن الإنصاف أن نغتفر قليل خطأ الابن فى كثير صوابه .. ومن الحكمة التربوية للمربي الإغضاء عن بعض عيوب المتربي ، وترك استقصائه ، والتغافل عن عثراته ، و التعامل معه وكأنه لا يعلم له عثرة ..!!

بل ربما تعلّم المربي من إبنه الذى يعانى بعض انحراف فى السلوك حسن الخلق !! كما روى عن بعض السلف أنه كان له مملوك سيء الخلق ، فظ غليظ .. فسئل لماذا تبقي عليه ؟ فقال : أدرس عليه مكارم الأخلاق ."[٤] .

وإذن – أخي المربي – لا بد أن تتوقع حدوث الأخطاء الصغيرة من أبنائك.

فهذا التوقع يقلل توترك ، ويصرف عنك الكثير من المشاكل اليومية ، ذلك إن هذه المشكلات اليومية حين تحدث تبقى نظرتك أنت لها على أنها " مراحل من مراحل الحياة المتعاقبة " الذى يخرج الإنسان من أحدها ليدخل فيما يليها .. وهكذا

(١) خصائص التصور الإسلامي – سيد قطب – ص ١٨٢.
(٢) مدارج السالكين – إبن القيم – ج ٢ – ص ٢٦٢ .
(٣) أدب الدنيا والدين – على بن محمد الماوردى –ص ١٧٤ بتصرف .
(٤) مدارج السالكين – إبن القيم – ج ٢ – ص ٢٦٣ . بتصرف

.. طبيعة الحياة ، فهى مليئة بالإختبارات المتتالية ، والمطالب والرغبات المتعاقبة ..

وصورة الإنسان الذاتية هى محصلة مواقفه وفق قدراته الحقيقية ونجاحاته الواقعية ، وليس أوهام النجاح أو أكاذيب القدرات ..

وهذا ما كان يميّز جيل القدوة من الصحابة رضي الله عنهم ، فهذا «حسان بن ثابت» تطلب منه إحدى الصحابيات أن يقتل مشركًا يقترب منهم فى إحدى الغزوات فيعتذر بعدم الاستطاعة . . . فتقوم إحداهن وتفعل ما طُلب منه .. وهو من أهل بدر . .. فى هذا الموقف أقوى دلالات الكيان الإنسانى الصحيح وأقوى هذه الدلالات هو أن يعرف كل إنسان قدر نفسه .

ويساوى هذه الدلالة . . . خطوات أبو دجانة مختالًا فى المعركة . . .

كلاهما يعرف قدر نفسه ، و هذه دلالة الصحة . . لا القوة ولا الضعف ولكن إدراك القوة والضعف .

لا وقت للانسياق وراء الإحساس بالبطولة والشجاعة والزعامة بين الإنسان و نفسه.

لا وقت للاطمئنان الوهمى إلى صواب الإنسان بينه وبين نفسه .

لا وقت . . . حتى ولا طرفة عين . . . ولهذا يستعيذ النبى ﷺ بالله أن يوكله الله إلى نفسه طرفة عين فيقول :-

" اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين فأكن من الخاسرين " .[1]

وأنت – أخي المربي – لا تدعي المعرفة الكاملة بذاتك ، وبالآخرين ، فأنت بشر لا يحيط عقلك بكل شىء ، وأبناءك قد يعلمون شيئًا لا تعلمه ، مهما كانوا صغارًا .. ويجب أن تتقبل التعلم من الابن ، وخاصة إذا كان الإبن متميزًا فى جانب معين .. فلا بد لنا عندها من سؤاله الرأى فيما يمكن القيام به ونصيحته فى طريقة عمله !!!

---

(١) فى النفس والدعوة – رفاعي سرور – ص ٣ .

" رأى الإمام أبو حنيفة طفلًا يلعب بالطين ، فقال له : إياك والسقوط فى الطين ، فقال الغلام الصغير : إياك أنت من السقوط ، لأن سقوط العالم سقوط العالم ، فما كان من أبى حنيفة إلا أن اهتزت نفسه لهذه المقولة ، فكان لا يخرج فتوى بعد سماعه هذه المقولة إلا بعد مدارستها شهرًا كاملًا مع تلامذته "[1] .. هكذا طفل يعلم إمامًا .

لقد دخل على عمر بن عبدالعزيز فى أول ولايته وفود المهنئين من كل جهة ، فتقدم من وفد الحجازيين للكلام غلام صغير لم يبلغ إحدى عشرة سنة فقال له عمر: ارجع أنت وليتقدم من هو أكبر منك سنًا ، فقال الغلام : أيد الله أمير المؤمنين " المرء بأصغريه قلبه ولسانه " فإذا منح الله العبد لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا ، فقد استحق الكلام . ولو كان الأمر بالسن يا أمير المؤمنين لكان فى الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا !!

فتعجب عمر من كلامه وأنشد :

تعلم فليس المرء يولد عالمًا ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم ولا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل

ولكي تكون – أخي المربي – جادًا فى أخذك بمبدأ " خذ العفو " ، و" توقع الأخطاء الصغيرة " لا بد أن يكون شعارك فى مواجهة تقصير أبنائك هو.

• ابحث عن السبب :

" السلوك الإنساني لغز كبير ، وتفسيره على وجه صحيح ليس من الأمور السهلة دائمًا . ومعرفة الدوافع والخلفيات لموقف أو سلوك ما ، من الأمور الشاقة فى أكثر الأحيان ، ولكن حين نستطيع التوصل إلى معرفة حقيقية لجذور المشكلات التى يعيشها بعض أبنائنا فإننا سنوفر على أنفسنا وعليهم الكثير من الجهد والكثير

(١) الإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ٣٤ .

من المتاعب أيضًا .. "(١) .

فإذا تفاجأ الأب أن الابن – مثلًا – لا يكمل واجباته ، ولا يقوم بها فى الموعد المحدد ، أو أن إجاباته تفتقد الدقة والتنظيم ..

وحار الأب كيف يعالج تلك المشكلة ؟

فإن الحقيقة التى لا بد من معرفتها أن كثيرًا من أبنائنا لا يعرفون كيف يدرسون ، ولذلك فهم فى حاجة لمن يعلمهم العادات الصحيحة للتعلم والاستيعاب والفهم ..!!

ومما يساعدك على تعليم الإبن العادات الدراسية الصحيحة ، إرشاده إلى تنظيم وقته وعدم تأجيل عمله (لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد) .. لا تقل (أفعل فيما بعد) وإنما قل (أفعل الآن) ..

ويمكن تدريبه على ذلك عبر إرشاده إلى استخدام المنبه للاستيقاظ بمفرده فى الصباح ..

كما أن ربط العمل زمنيًا بأوقات الصلوات .. فنقول مثلًا .. من الظهر إلى العصر نقوم بكذا .. ومن المغرب إلى العشاء نقوم بعمل هذا الأمر ..

إن ربط الأمر بتلك الأوقات له دلالته وقيمته الكبيرة فى التزام الإبن بالقيام بما هو مطلوب منه ..

كما يمكن تعليم الإبن بعض المهارات التحصيلية والدراسية مثل أن نعلمه أن يقوم أولًا بقراءة الموضوع قراءة سريعة للتعرف على عناصره الرئيسة .. ثم يحوّل العناوين الرئيسة والعناصر إلى أسئلة .. ثم يبدأ فى القراءة المركزة لتقديم الإجابات للأسئلة .. وأخيرًا يراجع الموضوعات الأساسية ليتمكن من استيعابها .

وهكذا كلما خالف الابن ما نطلبه منه من أعمال ، فإن هذا غالبًا يرجع إلى عدم معرفته بالطريقة التى تنفذ بها هذه الأعمال .. فإذا علم ؛ وبقي مع ذلك لا

---

(١) دليل التربية الأسرية – د . عبد الكريم بكار – ص ١٥٤ .

يقوم بها نطلبه منه ، فربما يكون السبب هو أننا لم نشجعه حين فعل ما ينبغي من جهد فى سبيل إتمامها .. فإذا علم وشجعناه على ما قام به من جهد ، وبقي مع ذلك لا يقوم بما نطلب ، فربما احتاج إلى تنبيهه للعواقب التى يمكن أن يجنيها من وراء إهماله لتلك الأعمال ..!!

إن أحد العوائق الرئيسة لعلاقة حميمة مع أبنائنا هو «الحكم المسبق» الذى يحاسب الإبن على فعل لم يقم به ، ويعاقبه على ما نظن لا ما نرى ..

وإذا قام إبنك بأداء واجباته بسرعة ، فلماذا لا تتوقع أنها قد تكون - مع سرعة الأداء - متقنة ودقيقة .؟!

وإذا تأخر ابنك فيما أرسلته ليأتى به من المحل المجاور للمنزل ، فلماذا يكون أول استنتاجاتك أنه ذهب للعب ، وأهمل ما طلبت ؟ ألا يمكن أن يكون له عذرًا قد أخّره ؟

خذ هذا المثال :

" يذكر ستيفن كوفى أنه فى صبيحة أحد الأيام وفى أحد أنفاق نيويورك ، كان الناس يجلسون بهدوء ، بعضهم يقرأ صحيفة ، وبعضهم سارح بأفكاره ، والبعض الآخر يستريح ، مغمض العينين ، كان منظرًا هادئًا ومسالمًا ، ثم فجأة ، دخل رجل مع أولاده النفق ، وكان الأولاد على درجة من الفوضى والمشاكسة ، بحيث تغيّر الجو كله على الفور ، جلس الرجل وأغلق عينيه متجاهلًا كل ما يحدث ، وكان الأطفال يركضون جيئة وذهابًا ، ويقذفون الأشياء ، ويختطفون حتى الصحف من أيدى الناس ، وكان الأمر فى غاية الإزعاج ، كان من الصعب ألا يشعر المرء بالتوتر، ولم يصدق أن يكون هذا الشخص عديم الاحساس بحيث يترك أولاده يتصرفون على هواهم دون أن يفعل شيئًا ، أو يتحمل أية مسؤولية ، وكان من السهل أن ترى التوتر وقد سيطر على كل شخص فى النفق ... وفى النهاية التفت إليه بعد صبر وكبت غير عادي .. " سيدى إن أولادك يزعجون العديد من الناس فعلًا ،

وأتساءل إن كان بإمكانك ضبطهم قليلًا ؟ " ...

فتح الرجل حدقتيه كأنه يعي الموقف لأول مرة ، وقال بنعومة : " آه ، أنت على حق ، أعتقد أن علي أن أفعل شيئًا ، لقد عدنا لتونا من المستشفى حيث توفيت أمهم قبل حوالي ساعة ، ولا أعرف ما أفعل ، وأعتقد أنهم لا يعرفون كيف يتقبلون الأمر "

..... يقول كوفي : " ولم أعد أفكر فى السيطرة على موقفي أو تصرفي وامتلأ قلبى بألم الرجل ، وتدفقت مشاعر التعاطف والاشفاق .

قلت : توفيت زوجتك للتو !! أنا آسف ، هل تستطيع أن تخبرنى عما حدث؟ ماذا أستطيع أن أفعل لمساعدتك ؟ كل شيء تغير فى لحظة " [1].

إن من واجباتنا كآباء أن ننظر إلى ما يصدر من أبنائنا من تصرفات خاطئة على أنها نتيجة عدم نضجهم ، وعدم فهمهم لقوانين الحياة ، فهذه النظرة تمنحنا سعة فى الصدر ، وتزودنا بطاقة كبيرة على التحمل ..

وإذا تحملنا أبناءنا ، وعذرناهم ، وابتعدنا عن الأحكام المسبقة على أفعالهم .. وتريثنا فى الحكم عليها حتى نعرف السبب ، فإن ذلك هو المقدمة الصحيحة والفعلية إلى علاقة تفاعلية قوية ومتعاونة بيننا وبينهم ..

أخي المربي – أبًا وأمًا –

لا تنظر لأبنائك بمنظار أسود .. لا تضخم سيئاتهم وتلغى حسناتهم .. عليك بالتأكيد على جوانب القوة لدى أبنائك، وعليك بتقبّل جوانب ضعفهم.

التمس لهم الأعذار .. استنبط لهم سبعين عذرًا ، فإن لم يقبلها قلبك فردّ اللوم على نفسك ، وقل لقلبك : ما أقساك .. و ابحث عن السبب ..

---

(١) العادات السبع للقادة الإداريين – ستيفين كوفي – ص ٢٤ .

• إذا أردت أن تطاع :

تعد الواجبات المنزلية واحدة من أعظم مصادر الصراع بين الأبناء والآباء، حيث يتهرب الأبناء من القيام بواجباتهم ، ويماطلون فى أدائها حتى اللحظة الأخيرة، ثم يؤدونها بسرعة شديدة .. أو لا يؤدونها على الإطلاق

و" تمثل مشكلات التعلم همومًا يومية للكثير من الآباء والأمهات ، وتؤثر هذه المشكلات على العلاقة بين الأولاد وأبويهم حيث تصطبغ بالتوتر المستمر ، والمطاردة الدائمة .

... ويحار الأبوان كيف يجعلان أولادهما يقبلون باهتمام على دراستهم وكيف يحرصون من تلقاء أنفسهم على إحراز التقدم فى تحصيلهم . فمن المؤلم أن بعض الأولاد لا ينجز عمله إلا بحضور يقظ من أحد الكبار ، وفى أغلب الحالات يطلبون مساعدات تعفيهم من بذل أية محاولات جادة " [(١)].

فإذا كنت أخي المربي تعاني من تلك المشكلة ، فتأكد قبل البدء فى علاجها أنك جزء من الحل ، ولست جزءًا من المشكلة ..!! كيف ؟

إن من المشهور أن الأمنيات التى فشل الآباء فى تحقيقها يحرصون – فى الأغلب – أن يحققوها فى أبنائهم .. ولا بأس فى ذلك ، ولكن المشكلة تنشأ عندما لا نراعي الإستعدادات لدى أبنائنا ، والميول التى تميل إليها نفوسهم ..

" أعرف أبًا كان ابنه قد اختار تخصص الأدبي لأنه يميل إلى كثير من علومه ، هاربًا من العلمي الذى كان لا يطيق كثيرًا من علومه ، وكان الأب نفسه قد تخصص فى (الأدبي) حيث التحق بعد ذلك بكلية الحقوق وتخرّج فيها ، لكنه أخذ يضغط على إبنه حتى يتحول إلى (العلمي) لأن هذه كانت رغبته (هو) وقت أن كان طالبًا!!! إلا أن أباه قد أجبره على ما سار عليه ..!!

فالأب هنا يريد أن يكرر ما حدث معه ، مع فارق هام هو أن الابن قد رسب

---

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك . د.عادل رشاد غنيم – ص ١٧٧.

رسوبًا فاحشًا " [١].

ومثل هذه القصة كثير .. " يستطيع القارىء أن يجد منها العشرات ، سواء فى حياته الشخصية أو فيما سمع ، أو فيما قرأ ، أو فيما شاهد ، فمازال منهج التفكير لدى الكثير من الآباء أنه يريد الابن كما يحب هو لا كما يستطيع الابن أن يكون !!

وتكون النتيجة هى الشعور بعدم الرضا ، ومن ثم سوء التوافق ، وضعف التكيف ومحاولات الثورة والتمرد . " [٢] من الابن ..

ويشعر الأب وكأنه يصارع ما لا يقهر ، فيقع فى خرافة أنه لا شيء يصلح مع هذا الابن !! أو أنه لا يمكن إصلاحه ؟!! بينما الحقيقة الثابتة أن كل الأبناء يمكن تغييرهم وإصلاحهم وتقويمهم .. هم فقط يحتاجون إلى تفهّم قدراتهم ، والوقوف على أمنياتهم واهتماماتهم ، ثم محاولة تعليمهم من خلالها .. وعندها سنجد أنهم يتعلمون بصورة أسرع لأنهم يدركون أن المهمة التى عليهم أداؤها ترتبط بحياتهم ، وما يحبون فى هذه الحياة .. [٣]

ولذلك فإن مما يعينك على الوصول بالابن إلى النجاح والتفوق استخدام اهتمامه ..

خذ مثالًا :

إنك تحاول تحسين مهارة القراءة عند إبنك ، وأنت تعلم أنه يحب القراءة عن الديناصورات ، فلا شك أن ما تقرأه معه إن كان عن الديناصورات ، فإن ذلك سيكون حافزًا له على القراءة ومحاولة اتقانها لأنها أصبحت بالنسبة له أمرًا ممتعًا ..

وكما نؤكد على أن يكون تعليمنا لأبنائنا من خلال اهتماماتهم الحياتية ، فإننا نؤكد أيضًا أن يكون ما نطلبه منهم متوافقًا مع أعمارهم فمثلًا :

" من ٣ – ٤ سنوات ..غسل الأسنان .. وضع الملابس المتسخة فى المغسلة ..

---

(١) تربية الأبناء علم له أصول – د. سعيد إسماعيل علي – ص ٤٢

(٢) المصدر السابق ص ٤٣ .

(٣) تأمل مثلًا كيف يتذكر الأبناء تواريخ الفوز أو التعادل أو الهزيمة لفرقهم الكروية !!! بينما لا يذكر واحد منهم تاريخ انتصار أمته فى معركة من المعارك !!!

وضع الملابس النظيفة فى مكانها بمساعدة الأم ..

من ٤ – ٥ سنولت .. المساعدة فى ترتيب مائدة الطعام بوضع الأشياء غير القابلة للكسر عليها .. تنظيف وتجفيف الأطباق البلاستيكية .. المساعدة فى وضع الأطباق فى حوض الغسيل ..

من ٦ – ٨ سنوات .. تنظيف الحجرة الخاصة بالطفل .. ترتيب الأسرة .. إعداد وتنظيف المائدة .. غسل وتجفيف الأطباق (باستثناء الأدوات الحادة) .. جمع القمامة ونقلها إلى خارج المنزل ...

من ٩ – ١٢ .. الاعتناء بكافة الأمور الشخصية المرتبطة بالصحة .. تلميع الأثاث .. إعداد بعض أصناف الطعام .. المساعدة فى شراء متطلبات المنزل من المحل المجاور ..

من ١٣ – ١٥ .. تنظيم الميزانية الخاصة بالابن بنفسه .. شراء الملابس الخاصة .. القيام بكي الملابس .. إعداد الوجبات .. القيام ببعض الإصلاحات البسيطة فى المنزل .. "[١].

وهكذا ، لا ندفع أبناءنا إلى عمل قبل امتلاك القدرة على القيام به ..

فإذا امتلكوا هذه القدرة ، تركناهم يمارسون تجربة القيام بعمل بمفردهم ..وإن لم تكن نتيجة العمل مرضية ، أو وقعوا فى بعض الأخطاء .. فهذه الأخطاء هي التى تولّد النجاح ..

- *قصة رمزية:*

حين لا يستطيع التعبير العادي تبليغ معنى من المعاني بالوضوح الكافي ، فإن الرمز يصبح من وسائل التعبير الضرورية ..

بل إن ضرورته تكون أشد حين يدخل حديث ما فى ضباب يوشك معه فحواه أن يتبخر .. حيث يأتي المثال أو القصة الرمزية لتعيد الحديث إلى مجراه ، وتمسك معناه فى اللحظة التى كاد يفلت فيه ..

(١) كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د . سال سيفير – ص ٢٧٢ – ٢٧٤ بتصرف يسير .

وهذه القصة الرمزية توضح ما قصدناه من هذا الفصل ..

تحكي القصة أنه " كانت عشيرة من العشائر على أهبة الرحيل ، تطوي البيوت وتضع المتاع على جمالها . وأناخ جمل من الجمال ، فأثقلوه بمتاعهم حتى لم يستطع الحراك .

ثم انتبه القوم إلى دفتي رحى مما يستعملون فى طحن الحبوب ، فقام رجل منهم يضع الرحى على ظهر ذلك الجمل ، والتفتت عجوز من العشيرة فقالت عطفًا على الجمل :

-لا تضعوا الرحى عليه بل ضعوها على ظهر جمل غيره .

لكن الجمل التفت إليها وقال :

-بل ضعوها على ظهري . لا ضرر فى ذلك إنني لن أستطيع القيام على كل حال .

.. هذه هي عبرة القصة ..

إن كل من يضع عمل إبنه فى ظروف تجعله فوق طاقته ، يحكم عليه ألا يعمل شيئًا ..

وإن حاول الابن رغم ذلك القيام بشيء فسوف لا يحسن صنعًا .." (١) .

فإن كنت – أخي المربي – قد تعبت مع أبنائك فيما تكلفهم به من عمل ، وأرهقك الصراخ فيهم للقيام بواجباتهم المنزلية ، فإن نصيحتي التربوية لك" إذا أردت أن تطاع ، فأمر بما يستطاع " .

❀❀❀

(١) بين الرشاد والتيه – مالك بن نبي – ص ٧٩ – ٨٢ بتصرف .

الباب الخامس

مُدّه بالأخبار

N = new him

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : مدرسة الحياة ..

الفصل الثاني : راوي قصص لا مصدر أوامر

الفصـــل الأول

مدرسة الحيـاة

حتى لا يكون يوم أبنائنا كأمسنا، وغدهم كيومنا ، ينبغي ألا يتلاشى رصيد خبراتنا بانتهاء ما نمر به من مواقف ، وما يمر بنا من أحداث ، بل لا بد أن نحاول أن يتراكم هذا الرصيد لدى أبنائنا ، وذلك عبر تعليمهم كل ما نمر به من خبرات ..

ربما يستوعبون بعضها ولا يستوعبون البعض الآخر .. ولكنهم على كل حال سيكونون أفضل مما كنا نحن .. ويكون يومهم أفضل من أمسنا ، ويخططون أيضًا ليصبح غدهم أفضل من يومهم ..

فإذا كانت نتيجة ما نحكيه لأبنائنا من خبرات حياتية ، هي اكتشاف أبنائنا لطريقة أفضل فى مواجهة المشكلات من طريقتنا ، فلا يضيرنا اكتشافهم لقصورنا ، بل نرى فيه شرفًا لنا ، فنحن الذين ربيناهم وعلمناهم طرق التفكير الصحيحة ..

• الوعي العام بالحياة :

تفيد المواقف السابقة أى فرد فى تعديل سلوكه وتغيير ردة فعله حسب ما تعلمه من تلك المواقف ، سواء حدثت له أو سمع عنها من غيره ..

ومن هنا تأتى أهمية أن يحكي الأب أو المربي للابن بعض أخباره ، ومشاكله التى مرت فى حياته ، ومواقفه حيال تلك المشاكل، ليحدث لونًا هامًا من ألوان التربية، وهو التربية بأحداث الحياة ، وخبراتها المكتسبة من تجارب الأب الشخصية، وملاحظاته عن الحياة ، ونظراته الثاقبة فى المجتمع الذي يعيش فيه ..

ذلك أن هذه الخبرات تجعل الأبناء أكثر قدرة على مواجهة مواقف الحياة المختلفة إذا تعرضوا لها فى المستقبل .

الفصـــل الأول

مدرسـة الحيـاة

حتى لا يكون يوم أبنائنا كأمسنا، وغدهم كيومنا ، ينبغي ألا يتلاشى رصيد خبراتنا بانتهاء ما نمر به من مواقف ، وما يمر بنا من أحداث ، بل لا بد أن نحاول أن يتراكم هذا الرصيد لدى أبنائنا ، وذلك عبر تعليمهم كل ما نمر به من خبرات ..

ربما يستوعبون بعضها ولا يستوعبون البعض الآخر .. ولكنهم على كل حال سيكونون أفضل مما كنا نحن .. ويكون يومهم أفضل من أمسنا ، ويخططون أيضًا ليصبح غدهم أفضل من يومهم ..

فإذا كانت نتيجة ما نحكيه لأبنائنا من خبرات حياتية ، هي اكتشاف أبنائنا لطريقة أفضل فى مواجهة المشكلات من طريقتنا ، فلا يضيرنا اكتشافهم لقصورنا ، بل نرى فيه شرفًا لنا ، فنحن الذين ربيناهم وعلمناهم طرق التفكير الصحيحة ..

• الوعي العام بالحياة :

تفيد المواقف السابقة أى فرد فى تعديل سلوكه وتغيير ردة فعله حسب ما تعلمه من تلك المواقف ، سواء حدثت له أو سمع عنها من غيره ..

ومن هنا تأتى أهمية أن يحكي الأب أو المربي للابن بعض أخباره ، ومشاكله التى مرت فى حياته ، ومواقفه حيال تلك المشاكل، ليحدث لونًا هامًا من ألوان التربية، وهو التربية بأحداث الحياة ، وخبراتها المكتسبة من تجارب الأب الشخصية، وملاحظاته عن الحياة ، ونظراته الثاقبة فى المجتمع الذي يعيش فيه ..

ذلك أن هذه الخبرات تجعل الأبناء أكثر قدرة على مواجهة مواقف الحياة المختلفة إذا تعرضوا لها فى المستقبل .

فيذكر الأب – مثلًا – بعض مواقفه التى تعرض لها طوال اليوم سواء مع رئيسه فى العمل أو جاره أو حتى البائع .. و لا يخفي مشاعره نحو هذه المواقف سواء كانت مشاعر غضب أو رضى أو استياء أو استحسان .. ثم يذكر بعد ذلك كيف قام بحل تلك المشكلات أو إدارة ذلك الحوار .. وكيف وفقه الله فى حل المشكلة أو إدخال النافع المفيد على الطرف الآخر بهدوء ؟.

وهكذا.. يعيد الأب والمربي حكاية مشكلات حياته الواقعية أمام أبنائه ، تاركًا أحداثها تخبر أبناءه بلغتها دون رقابة أو تزيين .. لتعطيهم كل كلمة من كلماتها، و كل خاطرة مرت بها .. تعطيهم ما تكتمه من أسرار تمنع من التفاؤل الذى يفقد الرؤية وتفصلهم عن الواقع .. أو التشاؤم الذى يبلغ مبلغ الإحباط الذى تنطفىء معه كل مشاعل الأمل ..

كما يمكن للأب أن يتحدث عن قصته حين كان شابًا والمواقف التى مرّ بها فى حياته ... كل ذلك فى صورة تؤكد أن مشاكل الحياة وقتية ، وأنه يمكن التغلب عليها ببذل الجهد ، والمثابرة التي تجعل الانسان مستحقًا للنجاح .. فيقول الأب مثلًا :

وأنتم – يا أبنائي – تذكرون " عندما فصلت من عملي ، كيف مررنا بوقت عصيب فى دفع الفواتير ؟ لأن وظيفتي الجديدة كانت لا تمنحني كثيرًا من المال كسابقتها ، وكيف تعودنا على أن ننفق القليل وتمكنا من حل المشكلة .. وهكذا كل مشكلاتنا قابلة للحل ـ إن شاء الله ـ إن نحن اتبعنا معها طريقة منهجية وشرعية .

إن مثل هذه الحكايات عن أحداث الحياة تشجع الأبناء على التفاؤل ، والعمل على مواجهة ما يقابلهم من مشكلات الحياة بقوة وجدية ..

وتعلمهم – فى ذات الوقت – قيمة المال ، وأنه يأتي نتاجًا للعمل والكدح ، وليس عن طريق السحر من خلال ماكينة صرف النقود البنكية ..[1].

(١) لسنا في حاجة هنا للتأكيد على أن المقصود معرفة قيمة المال، وليس تقديسه .

والطريقة المثلى لصياغة مثل هذه المواقف أن نخبر الأبناء أننا سنحكي لهم عن موقف قد حدث معنا .. ثم نحكي الخبر .. " وفى خلال حديثنا نكرر بعض العبارات بين الفينة والأخرى ، وعلى فترات متباعدة ، وبأساليب مختلفة ، ومن غير تكلف، فقد أثبتت بعض الدراسات أن الفكرة إذا ذكرت مرة واحدة للمستمع، فإنه فى نهاية الشهر يتذكر ١٠ فى المائة منها، ولكن إذا ذكرت ٦ مرات على فترات مختلفة، فإنه في نهاية الشهر يتذكر ٩٠ في المائة منها" (١).

ثم نخبرهم أننا قد انتهينا من الحكاية .. ونتساءل معهم : ماذا أفدنا من هذا الخبر ؟

ويمكن بالطبع أن تكون الحكاية التي نخبر بها الأبناء قد حدثت لنا، أو لغيرنا .. قريب أو صديق ..

فمثلًا .. نحكي فنقول :

" في أحد السنين كانت هناك أزمة في عمل المدرسين .. بمعنى أن المدرسين الذين يتخرجون لا يجدون عملًا في الحكومة ..

وهنا كان أصحاب المدارس الخاصة يستغلون ذلك في فرض الشروط المجحفة على المدرسين الذين يعملون لديهم .. " وكان من هذه الشروط حرمان المدرسين من مرتباتهم كلية في أشهر الصيف .. وكان لنا قريب تعرفونه – فلان – ذو عيال، ولذلك كان مهمومًا : ماذا يصنع بعياله في أشهر الصيف، وهو لا يستطيع أن يوفر شيئًا من مرتبه الضئيل في أثناء العام ...

ومرة كان يتململ وهو يعرض سبب اكتئابه لرجل ريفي ساذج من بلدهم . وإذا هذا الرجل الريفي يسأل في استنكار وفي سذاجة كذلك : وهو ربنا يا أخي كان مات ؟

وساد كليهما الصمت .. صمت عميق .. صمت أو معنى لا تعبر عنه الكلمات ..!!

(١) فنون الحوار والإقناع – محمد ديماس – ص ١٩٤ .

.... نعم إنه لا بد للإنسان من سند في الحياة .. سند لا يتزعزع .. قوة أكبر من كل قوى الأرض .. وليس هناك سند واحد لا يتزعزع .. وليس هناك قوة واحدة لا تهون .. إلا قوة واحدة ..

إنها قوة الله ... إنها العقيدة في الله "(١) .

وكذلك يكون من توفيق الله للمربي ، أن ينتهز حادثة ما أو مرور موقف بأبنائه ، فيعطيهم التصرف السليم فى مواجهته ، فيكون لذلك الأثر الطيب فى نفوسهم ، والنافع فى ردود أفعالهم الحياتية .. مقتديًا فى ذلك برسول الله ﷺ حين كان يربي أصحابه تربية عظيمة " يقص أحيانًا ويسأل أحيانًا ، ويستعين بالأحداث الجارية الحية أحيانًا ، أو يرسم ويخطط أحيانًا ، وهكذا ... كانت دروس الرسول ﷺ وحلقه ميدانًا حيًا وجذابًا لا يمل منه المتعلم لتنوعه وفعاليته ولقوة شده ولفته للنظر "(٢) .

فقد روى مسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق بجدي أسك (أى صغير الأذنين) ميت ، فتناوله بأذنه ثم قال : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ قالوا : ما نحب أنه بشيء أو ما نصنع به ؟ قال : أتحبون أنه لكم؟ قالوا : والله لو كان حيًا كان هذا السك عيبًا فكيف وهو ميت ؟ فقال : فوالله، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم . !! (رواه مسلم).

وروى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم رسول الله بسبي فإذا امرأة من السبي قد تحلّب ثديها إذ وجدت صبيًا فى السبي ، فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ: " أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟ – وهى تقدر على أن لا تطرحه – قلنا: لا والله ، قال : " فالله أرحم بعباده من هذه بولدها " .

(١) دراسات إسلامية – سيد قطب – ١٤٦ .

(٢) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ١٢٣ .

إن المواقف تستثير مشاعر جياشة في النفس، فحين يستثمر- المربي - هذا الموقف يقع التعليم موقعه المناسب، ويبقى الحدث وما صاحبه من توجيه وتعليم صورة منقوشة في الذاكرة، تستعصي على النسيان.

والمواقف متنوعة فقد يكون الموقف موقف حزن وخوف فيستخدم في الوعظ، كما في وعظه ﷺ أصحابه عند القبر.

عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله صلى اللهم عليه وسلم وجلسنا حوله كأنما على رءوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا... ثم ذكر الحديث الطويل في وصف عذاب القبر وفتنته. [رواه ابو داوود (٤٧٥٣)].

.. وقد يكون موقف مصيبة أو أمر حل بالإنسان، فيستثمر ذلك في ربطه بالله تبارك وتعالى.

عن زيد بن أرقم قال أصابني رمد فعادني النبي ﷺ، قال فلما برأت خرجت، قال فقال لي رسول الله ﷺ: « أرأيت لو كانت عيناك لما بهما ما كنت صانعًا؟» قال: قلت: لو كانتا عيناي لما بهما صبرت واحتسبت، قال:«لو كانت عيناك لما بهما ثم صبرت واحتسبت للقيت الله عز وجل ولا ذنب لك» [رواه أحمد].

بل إن النبي ﷺ استخدم مثل هذا الموقف لتقرير قضية مهمة لها شأنها وأثرها كما فعل حين دعائه للمريض بهذا الدعاء، عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال:«إذا جاء الرجل يعود مريضا قال: *اللهم اشف عبدك ينكأ لك عدوا ويمشي لك إلى الصلاة*» [رواه أحمد (٦٥٦٤)].

.. وقد يكون الموقف ظاهرة كونية مجردة، لكنه ﷺ يستثمره ليربطه بهذا المعنى عن جرير بن عبدالله -رضي الله عنه- قال كنا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة يعني البدر فقال:«إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في

رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب} [رواه البخاري (٥٥٤) ومسلم].

كما أن من المفيد أن يسمع الابن كلامًا عن مشكلة معينة فى شكل حوار لا يظهر منه أنه المقصود بالحديث ..

فيخاطب المربي غيره وهو يسمع مقتديًا فى ذلك بما رواه سليمان بن صرد قال استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس وأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه فقال النبي صلى الله عليه وسلم:« إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد. لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: إني لست بمجنون " [رواه البخاري (٦١١٥) ومسلم (٢٦١٠)].

وهكذا فى كل موقف من مواقف الحياة ، وعند مرور أي حدث أو مناسبة لا يترك المربي هذه المواقف ، وتلك الأحداث تذهب سدى بدون عبرة وبغير توجيه، وإنما يستغلها لتربية النفوس وصقلها ، وغرس المفاهيم الإيمانية فى أعماقها.. طرقًا لمشاعر الأبناء على " الساخن " لأن التوجيهات التى تأتي فى هذه الحالة تكون فى أعقاب حدث يهز النفس كلها هزًا ؛ فتكون أكثر قابلية للتأثر ، ويكون التوجيه أفعل وأعمق وأطول أمدًا فى التأثير من التوجيهات العابرة التى تأتي " على البارد" بغير انفعال ..

ولسنا فى حاجة هنا للتأكيد على أن الأبناء يتعلمون منا نحن الآباء التمييز بين الأحداث التى هي مجرد أمور صغيرة مزعجة ، وتلك التى تعد من المآسي المفجعة .. فليس كسر بيضة مثلًا ككسر ساق .. و فقدان الابن منديله لا يعني أن يفقد الأب أعصابه وكأنها نكبة أو فاجعة ..!!

وحتى لو كانت هذه المواقف والأحداث هي عثرات الأبناء ، فإنها أيضًا

فرصة لا بد من استثمارها فى تربيتهم التربية الصحيحة الصالحة ..!!

" لقد بذل النبي ﷺ جهدًا جهيدًا فى تربية هذه الأمة ، ولقد بذل صحابته رضي الله عنهم جهدًا ضخمًا فى محاولة الإستقامة على القمة السامقة التي يدعون إليها ..

فهل خلا هذا الجهد من عثرات فى الطريق وكبوات ؟

لا .. لقد عثروا رضي الله عنهم " عثروا يوم أحد بما استوجب تنزيل سورتين كاملتين : سورة آل عمران ، وسورة الأنفال .

وعثروا يوم حنين إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وولوا مدبرين .

وشق عليهم القتال يوم الأحزاب حتى زلزلوا زلزالًا شديدًا .

... وعثروا فى حديث الإفك حتى شق ذلك على الرسول ﷺ شهرًا كاملًا إلى أن نزل الوحي بتبرئة عائشة رضي الله عنها .

ولكن هذه كلها كانت دروسًا فى التربية .. فكل حدث من هذه الأحداث يهز المجتمع المسلم هزًا عنيفًا ، ثم تتنزل الآيات فتلقي الدرس و"الحديد ساخن" فيترك الدرس طابعه بعد ذلك لا يزول .. " (١)

... " ولقد يحدث بطبيعة الحال أن يكون الابن مستهينًا بما وقع منه ، والمربي – بخبرته – يراه عظيمًا وخطيرًا وفى حاجة إلى توجيه شديد . فعندئذ يبين للطفل جسامة ما حدث منه ، ويوضح له أن الاستهانة من جانبه خطأ ينبغي الكف عنه .

كما حدث للمؤمنين فى حادث الإفك :

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ص ٧٥ .

عِندَ الله عَظِيمٌ ۞وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ۞ يَعِظُكُمُ الله أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞وَيُبَيِّنُ الله لَكُمُ الآيَاتِ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور ١٥ – ١٨] ..

فقد صحح لهم خطأهم فى تصورهم أن هذا الذى فعلوه كان هينًا . وبين لهم أنه كبيرة من الكبائر . وبيّن لهم ما كان ينبغي أن يكون عليه السلوك الصحيح فى هذا الموقف . ثم أعطاهم توجيهًا حادًا عنيفًا حاسمًا يشتمل على تهديد خفي لهم بالخروج من دائرة الإيمان إن عادوا إلى مثل ما فعلوه . وقال لهم فى النهاية إنه يعلمهم ويبين لهم الآيات بعلمه سبحانه وحكمته ...

... والمنهج فى هذه الآيات واضح مفصل مسلسل .. وهو دستورنا فى التربية حين تحدث المواقف التى تستدعي نوعًا خاصًا من التوجيه ، وهي مواقف لا تخلو منها حياة إنسان [(١)] .

وهكذا فى عقب كل حدث من أحداث الحياة ، تأتي توجيهات المربي طرقًا للمشاعر على " الساخن" ..

" والمربي لا يستطيع بطبيعة الحال أن يفتعل الأحداث ! فهي تجرى بقدر الله فى الصغيرة والكبيرة سواء .. ولكن تطبيق المنهج يقتضي منه أن ينتهز الفرص المناسبة ليلقي دروسه التربوية فى الأحداث التى تقع – بقدر الله – والتى يرى أنها صالحة لتوجيه تربوي معين . سواء كان الإنفعال بالحدث قائمًا فى نفس الابن بالفعل ، أو كان على المربي أن يثير ذلك الإنفعال بتعليقاته عليه ، حتى إذا علم أن التوهج الشعوري قد حدث داخل نفسه أعطاه التوجيه المطلوب " [(٢)] .

فيمكن – مثلًا – أن يكون التعليق على بعض الأحداث التى تقع للمسلمين فى العالم تربية للأبناء على الإهتمام بشؤون المسلمين كما يهتمون بقضاياهم الشخصية..

---

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ص ١٥٣ .

(٢) المصدر السابق – ص ١٥٣ .

فيذكر الأب على سبيل المثال ما حصل للمسلمين في البوسنة والهرسك من مجازر، ثم يذكر لأبنائه أن سبب ذلك هو انتهاء هذه الشعوب لهذا الدين، ولأنهم مسلمون؛ فيغرس في قلب ولده حب المؤمنين والتعاطف معهم، وكره الكافرين والمشركين والبراءة منهم .

.. وكذلك يذكر الأب ، ما حصل ويحصل في فلسطين المسلمة .. فيزرع في قلوب الأبناء بغض يهود..

وهكذا من خلال الربط بين الأبناء ، وبين أحداث الحياة التى تقع للآباء ، أو أحداث الحياة التى تقع للمسلمين فى كل بقاع الأرض ، يتكون لدى الأبناء ما يمكن أن نطلق عليه " الوعي العام " الذي يؤثر تأثيرًا إيجابيًا فى سلوكهم ..

• رصيد الخبرة والتجربة :

قد يفتقد الأب الأحداث التى يستطيع من خلالها إلقاء دروسه التربوية على أبنائه ..

وهنا يكون السرد لتجارب الآخرين ومواقفهم الحياتية ، وما تعلموه من هذه المواقف .. يكون كل ذلك بديلًا نافعًا .. وزادًا لمواجهة الحياة بخبرات كبيرة وعميقة..

فينقل الأب – مثلًا – ما حكاه أحد المربين (١) عن نعم الله التى تغمر الإنسان من فوقه ومن تحت قدميه ، وكيف تسكن هذه النعم ذات الإنسان وتفيض منه ، بقوله:

" كنا نجلس جماعة نتحدث وتتجاوب أفكارنا وتتجاوب ، وتنطلق ألسنتنا بكل ما يخطر لنا على بال . ذلك حينما جاء قطنا الصغير " سوسو " يدور هنا وهناك من حولنا ، يبحث عن شيء ، وكأنما يريد أن يطلب إلينا شيئًا ، ولكنه لا يملك أن يقول ، ولا نملك نحن أن ندرك . حتى ألهمنا الله أنه يطلب الماء . وكان هذا . وكان فى شدة العطش . وهو لا يملك أن يقول ولا أن يشير .. و أدركنا فى هذه اللحظة

(١) هو سيد قطب رحمه الله .

شيئًا من نعمة الله علينا بالنطق واللسان ، والإدراك والتدبير . وفاضت نفوسنا بالشكر لحظة ... وأين الشكر من ذلك الفيض الجزيل ..

... وكنا فترة طويلة محرومين من رؤية الشمس . وكان شعاع منها لا يتجاوز حجمه حجم القرش ينفذ إلينا أحيانًا . وإن أحدنا ليقف أمام هذا الشعاع يمرره على وجهه ويديه وصدره وظهره وبطنه وقدميه ما استطاع . ثم يخلي مكانه لأخيه ينال من هذه النعمة ما نال !! ولست أنسى أول يوم بعد ذلك وجدنا فيه الشمس . لست أنسى الفرحة الغامرة والنشوة الظاهرة على وجه أحدنا ، وفى جوارحه كلها ، وهو يقول فى نغمة عميقة مديدة .. الله . هذه هي الشمس .. شمس ربنا وما تزال تطلع .. الحمد لله ..

فكم نبعثر فى كل يوم من هذه الأشعة المحيية ، ونحن نستحم فى الضوء والدفء . ونسبح ونغرق فى نعمة الله !!! وكم نشكر هذا الفيض الغامر المتاح المباح من غير ثمن ولا كد ولا معاناة ؟؟!! (١) .

ويتحدث – المربي – عن المكاسب التى يخرج بها من عاش فى كنف الله سبحانه ، وتأمل فى قرآنه ، وأثر نصوص هذا القرآن على كيانه ، ويشير إلى طرف من ذلك قد حدث معه ، فيقول – مثلًا – " لقد كنت فى عسر وشدة ، فى لحظة جفاف روحي ، وشقاء نفسي ، وضيق وعسر ومشقة .. و منّ الله علي فواجهتني هذه الآية: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر:٢] .. وهناك يسر الله لي أن اطلّع منها على حقيقتها .. بل أن تسكب حقيقتها فى روحي ؛ كأنها هي رحيق أرشفه وأحس سريانه ودبيبه فى كياني .. حقيقة أذوقها لا معنى أدركه . فكانت رحمة بذلتها . تقدم نفسها لي تفسيرًا واقعيًا لحقيقة الآية التى تفتحت لي تفتحها هذا . وقد قرأتها من قبل كثيرًا . ومررت بها من قبل كثيرًا . ولكنها فى تلك اللحظة سكبت رحيقها ، وتحقق معناها ، ونزلت

---

(١) فى ظلال القرآن – سيد قطب – ج ٥ ص ٢٨٩٩ .

بحقيقتها المجردة .. وكأنها تقول هأنذا .. نموذجًا من رحمة الله حين يفتحها . فانظر كيف تكون !!

تم هذا كله فى أشد لحظات الضيق والجفاف التى مرّت بي فى حياتي .. وهأنذا أجد الفرج والفرح والري والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق .. إنها رحمة الله يفتح بابها ، ويسكب فيضها فى آية من آياته .. آية من القرآن تفتح كوّة من النور .. وتفجّر ينبوعًا من الرحمة . وتشق طريقًا ممهودًا إلى الرضا والثقة والطمأنينة والراحة فى ومضة عين وفي نبضة قلب وفى خفقة جنان .. اللهم حمدًا لك .. اللهم منزل القرآن .. هدى ورحمة للمؤمنين .. (١)

و ينقل المربي حكاية أحد السجناء فى سبيل الحق عن تجربته فى السجن بقوله :

" لقد وجدت الله كما لم أجده من قبل قط ، عرفت منهجه وطريقه كما لم أعرفه من قبل قط ، ولقد اطمأننت إلى رعايته ، ووثقت بوعده كما لم أطمئن من قبل قط . وأنا بعد ذلك على ما عهدتني ، مرفوع الرأس لا أحنيه إلا لله ، والله يفعل ما يشاء ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (٢)

ويعبّر – المربي – لأبنائه عما فى نفسه من إيمان وتصديق بكتاب الله وما حكاه الله فيه من حوادث .. وكيف كان يمر على قول الله عز وجل : "إذ يغشيكم النعاس أمنة منه .." فيقول : "لقد كنت أمر على هذه الآية ، وأقرأ خبر هذا النعاس، فأدركه كحادث وقع ، يعلم الله سره ، ويحكي لنا خبره .. ثم إذا بي أقع فى شدة ، وتمر علي لحظات من الضيق المكتوم ، والتوجس القلق ، فى ساعة غروب .. ثم تدركني سِنة من النوم لا تتعدى بضع دقائق .. وأصحو إنسانًا جديدًا غير الذى كان .. ساكن النفس .. مطمئن القلب .. مستغرقًا فى الطمأنينة الواثقة العميقة .. كيف تم هذا ؟ كيف وقع هذا التحول المفاجىء ؟ لست أدري ! ولكني بعدها أدرك

---

(١) راجع إن شئت فى ظلال القرآن – ج ٥ ص ٢٩٢٤ .

(٢) سيد قطب الشهيد الحي – د . صلاح الخالدي – ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

قصة بدر وأحد .. أدركها فى هذه المرة بكياني كله لا بعقلي . وأستشعرها حية فى حسي لا مجرد تصور . وأرى فيها يد الله وهي تعمل عملها الخفي المباشر .. ويطمئن قلبي .. " (١)

ومن خلال المشاهد اليومية يحاول – المربي – ترقية إحساس الأبناء بالكون وبالحياة ..

فإذا نظر المربي إلى السماء – مثلًا – ورأى ما فيها من مظاهر الجمال الأخاذ فى الكون ردد .. سبحان الله : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ .. [الملك:٥].

ثم بدأ يتحدث مع أبنائه : " إن مشهد النجوم فى السماء جميل ، ما فى هذا شك .. جميل جمالًا يأخذ بالقلوب . وهو جمال متجدد ، تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته ، وبختلف من صباح إلى مساء ، ومن شروق إلى غروب ، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء ، ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب . بل إنه يختلف من ساعة إلى ساعة . ومن مرصد لمرصد ، ومن زاوية لزاوية .. وكله جمال .. وكله يأخذ بالألباب ..

هذه النجمة الفريدة التى توصوص هناك ، وكأنها عين جميلة ، تلمع بالمحبة والنداء !!

وهاتان النجمتان المنفردتان هناك ، وقد خلصتا من الزحام تتناجيان !!

وهذه المجموعات المتضامنة المتناثرة هنا وهناك ، وكأنها فى حلقة سمر فى مهرجان السماء . وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة فى مهرجان !!

وهذا القمر الحالم الساهي ليلة . الزاهي المزهو ليلة . والمنكسر الخفيض ليلة . والوليد المتفتح للحياة ليلة . والفاني الذى يدلف للفناء ليلة !

(١) فى ظلال القرآن – سيد قطب – ج ٣ ص ١٤٨٤ .

وهذا الفضاء الواسع الذى لا يمل البصر امتداده ، ولا يبلغ البصر آماده ..

إنه الجمال .:. الجمال الذى يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه ، ولكن لا يجد له وصفًا فيما يملك من الألفاظ والعبارات " [١] .

وهذا الكون كله يشعر .. وكل ما فيه أمم أمثالنا .. تحزن وتفرح .. وتحب وتكره .. ومن قبل ذلك ومن بعده تسبح ربها المعبود ..

" ومنظر الغربان حين يموت لها ميت ، منظر مألوف شاهده الكثيرون ، وهو منظر يصعب تفسيره بغير شعور " الحزن " أو " عاطفة " القرابة !! فهذه الجموع من الغربان ، المحلقة الصافة ، الناعقة بشتى الأصوات والأنغام ، الطائرة هنا وهناك ، حتى تحتمل جثمان الميت وتطير ... هذا كله يشي برجفة الموت فى عالم الطيور ... !!! " .

ويحكي المربي بعض الأحداث التى تبدو صغيرة ، وكيف كان لها الأثر الأكبر فى نفسه وفى مشاعره حيث يقول : " كنا نربي فى دارنا مجموعة من الفراخ .. وحين قمنا بذبح أحدها .. وقفت جماعة الطيور متحلقة صامتة مبهورة مأخوذة أمام الفرخ الذبيح ..

وقد كانت هذه مفاجأة شعورية لكل من فى البيت .. مفاجأة غير منتظرة .. بل كانت صدمة لم نجرؤ بعدها على ذبح فرخ واحد على مرأى جماعة الطيور " [٢] .

وبينما تكاد قداسة الموت أن تكون شيئًا فطريًا – كما نرى – فيما رويناه عن الغربان والفراخ .. فإن مما يعجب له المرء كم بلغت غلظة مشاعر من لا يؤمنون بالآخرة ، فهم لا يعرفون للموت خشوعًا ، ولا يراعون للحياة حرمة ..

(١) فى ظلال القرآن – سيد قطب – ج ٦ ص ٣٦٣٣ ، ٣٦٣٤ .
(٢) أمريكا التى رأيت – سيد قطب – ص ٢٨ .

ويحكي المربي :

" قال لي زميل أنه حضر مأتمًا فى أمريكا ، حيث عرضت جثة الميت فى صندوق زجاجي ، كيما يمر أصدقاء الفقيد بها ، ليودعوه الوداع الأخير ، ويلقون عليه النظرة النهائية ، واحدًا بعد الآخر فى صف طويل .. حتى إذا انتهى المطاف وتجمعوا فى حجرة الاستقبال ، ... أخذوا فى تبادل الفكاهات والدعابات حول الفقيد وحول سواه .. وتشترك معهم فى ذلك زوجه وأولاده .. وتعلو ضحكاتهم المجلجلة فى سكون الموت البارد ، وحول الجسد المسجى بالأكفان "[١] .

وكذلك يستعين المربي بأخباره الشخصية ، وحوادثه الخاصة التى وقعت له أو شاهدها.. يستعين بهذا وذاك فى تربية أبنائه.. عبر بيان نظرته إلى الكون والحياة ، وتذوقه لنعم الله ، أو لتصوير نماذج إنسانية شاهدها ، أو لتسجيل ظواهر خاصة فى المجتمعات التى عاش فيها ..

فإذا مر الأب والمربي بتجربة ركوب البحر للسفر مثلًا .. حكى لأبنائه " أشهد ما أحسست ما فى قوله تعالى " والفلك التى تجري فى البحر بما ينفع الناس ... " من آية بينة لكل عاقل .. ما أحسست ما فى ذلك من عمق ، قدر ما أحسست ونقطة صغيرة فى خضّم المحيط تحملنا وتجري بنا ، والموج المتلاطم والزرقة المطلقة من حولنا . والفلك سابحة متناثرة هنا وهناك . ولا شيء إلا قدرة الله ، وإلا رعاية الله ، وإلا قانون الكون الذى جعله الله ، يحمي تلك النقطة الصغيرة على ثبج الأمواج وخضمها الرعيب .. !! "[٢] .

وإذا حدّث – المربي – أبناءه عن تأثير القرآن العجيب الساحر فى مختلف القلوب ، أشار إلى إلى قصته حين كان مسافرًا على ظهر سفينة ، فخطر له ومن معه من المسلمين أن يقيموا صلاة الجمعة على ظهر السفينة ! .. وقمت بخطبة الجمعة

(١) المصدر السابق – ص ٢٦ .

(٢) فى ظلال القرآن – سيد قطب – ج ١ ص ١٥٢ .

وإمامة الصلاة ، والركاب الأجانب – معظمهم – متحلقون يرقبون صلاتنا ! .. وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئونا على نجاح " القدّاس " !!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا ! ولكن سيدة من هذا الحشد – عرفنا فيها بعد أنها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم " تيتو " وشيوعيته ! – كانت شديدة التأثر والانفعال ، تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها . جاءت تشد على أيدينا بحرارة ؛ وتقول – في إنجليزية ضعيفة – إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح ! .. وليس هذا موضع الشاهد في القصة .. ولكن ذلك كان في قولها : أي لغة هذه التي كان يتحدث بها " قسيسكم "! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم " الصلاة " إلا قسيس – أو رجل دين – كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة ! وقد صححنا لها هذا الفهم ! .. وأجبناها : فقالت : إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب ، وإن كنت لم أفهم منه حرفًا .. ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول : ولكن ليس هذا الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه .. إن الموضوع الذي لفت حسي ، هو أن " الإمام " كانت ترد في أثناء كلامه – بهذه اللغة الموسيقية – فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه ! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعًا .. هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث رعشة وقشعريرة !! إنها شيء آخر ! كما لو كان – الإمام – مملوءًا من الروح القدس !! – حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها ! – وتفكرنا قليلًا . ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة والآيات أثناء الصلاة ! وكانت – مع ذلك – مفاجأة تدعو إلى الدهشة ، من سيدة لا تفهم مما تقول شيئًا !! (١)

ويحدّث المربي أبناءه ، كيف يهدف الإسلام إلى إقامة مجتمع " نظيف " ، لا تهاج فيه الشهوات في كل لحظة ، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم في كل حين ..

وكيف أفسدت الجاهلية الغربية عاطفة الحب التي تطلق الطاقات الإنسانية جميعًا .. وحوّلتها إلى جسد يشتهي جسدًا ، وحيوان يشتهي حيوانًا ... وأفرغتها من

(١) المصدر السابق – ج ٣ ص ١٧٨٦ .

أية روح أو مشاعر .. بينما يفتقد الإنسان – إن بقي إنسانًا – من يبادله المشاعر ، بل والحديث فى شؤون الحياة والفكر والروح ..

نعم .. إن هذا الدين يبني الفرد النظيف ، والمجتمع النظيف ..

وهو يضبط الشهوات فلا يفرغها إلا بضوابط الدين الذى ارتضاه منهاجًا لحياته ..

بينما تريد الجاهلية الغربية أن تتبع البشرية شهواتها دون أدنى ضابط ، ليحيا (الإنسان) فيها حياة دنسة من العفن الخلقي والشقاء المعيشي ..

و يحكي لنا سيد قطب رحمه الله ، كيف تعرض لفتنة الجنس حين كان فى الباخرة مسافرًا فوجد " الباب يقرع ، وفتح ، فإذا بفتاة هيفاء جميلة فارعة الطول شبه عارية يبدو من مفاتن جسمها كل ما يغري .. وكيف بدأته هذه الفتاة بقولها (باللغة الإنجليزية) : هل يسمح لي سيدي بأن أكون ضيفة عليه هذه الليلة ؟ .. ويعتذر هو بأن الغرفة معدّة لسرير واحد ، وأن السرير معد لشخص واحد !!

ويحكي كيف قالت له بوقاحة : وكثيرًا ما يتسع السرير الواحد لاثنين !!

وكيف كان من الضروري من قبله هو أن يدفع الباب فى وجهها ، وهي تحاول الدخول عنوة ؟!!(١) .

وهذا هو حال الإنسان حين ينحرف عن منهج الله القويم .. يتحول إلى مسخ لا إنساني يشقى فى الدنيا ، ويسعى فى الآخرة إلى عذاب أليم .. بل إننا قد نرى " حرص الواحد منهم على ظلم نفسه بانحرافه عن منهج الله .. وكأنما يعض بالنواجذ على مكانه فى قعر جهنم يخشى أن ينازعه إيّاه أحد من المتسابقين معه فى حلبة الإنحراف !! فهو ما ينى يقدم كل صباح ما يثبت به مكانه هذا فى جهنم !! وما يني يلهث وراء هذا المطمع لهاثًا لا ينقطع حتى يفارق الحياة الدنيا !!

---

(١) أمريكا التي رأيت – سيد قطب – ص ١٢ .

ولا ينسى المربي – طبعًا – أن يدعو فى نهاية هذا التوصيف .. اللهم اعصمنا ، وثبت أقدامنا ، وأفرغ علينا صبرًا ، وتوفنا مسلمين ... " (١).

وإذا كانت هذه هي حال الإنسان الفرد الذي انحرف عن منهاج الله ، فإن حال الأمم التى انحرفت عن هذا المنهاج القويم ، هو حال أصعب وأباس .. فهذه الأمم تسير نحو مصيرها المحتوم من الفناء المعلق فوق رأسها تحقيقًا لسنة الله التى لا تتخلف ..

" لقد كنت – فى أثناء وجودى فى الولايات المتحدة الأمريكية _ أرى رأي العين مصداق قول الله سبحانه : " فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء " فإن المشهد الذى ترسمه هذه الآية .. مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بغير حساب ! .. لا يكاد يتمثل فى الأرض كلها إلا هناك !!

وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذى هم فيه ! و شعورهم بأنه لا يستحقه إلا " الرجل الأبيض " .. وكنت أرى طريقة تعاملهم مع الملونين فى عجرفة مرزولة ، و فى وحشية كذلك بشعة ! وفى صلف على أهل الأرض كلهم لا يقاس إليه صلف النازية الذي شهّر به اليهود فى الأرض كلها ، حتى صار علمًا على الصلف العنصري . بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين فى صورة أشد وأقسى ! وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونين من المسلمين ..

كنت أرى هذا كله فأذكر الآية ، وأتوقع سنة الله ، وأكاد أرى خطواتها وهي تدب إلى الغافلين : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:٤٥] ...

... ثم ينبّه المربي إلى أهمية بذل الجهد .. فيقول : " غير أنه ينبغي ، مع ذلك ، التنبيه إلى أن سنة الله فى تدمير " الباطل " أن يقوم فى الأرض " حق " يتمثل فى " أمة " .. ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .. فلا يقعدن أهل

(١) راجع إن شئت فى ظلال القرآن – سيد قطب – ج ٣ ص ١٣٩٨ .

الحق كسالى يرتقبون أن تجري سنة الله بلا عمل منهم ولا كد . فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق ، ولا يكونون أهله ... وهم كسالى قاعدون .." [(١)].

إن أهل الحق – إن كان هذا هو مسلكهم – يجهلون أبسط حقائق هذا الدين ، وطريقة عمله فى حياة البشر ..

فهذا الدين يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية؛ ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود طاقتهم البشرية، وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة ، وليس بطريقة سحرية غامضة الأسباب ..

• تشكيل العقل السببي :

لكل نشاط عملي يقوم به أبناؤنا علاقة مباشرة بالطريقة التي يفكرون بها ، فإذا أصيب تفكيرهم بمرض من الأمراض ، أو انعدم التفكير تمامًا فإن ذلك النشاط يصبح مختلًا أو مستحيلًا !!

ومن أمراض التفكير الخطيرة ، ما يمكن أن نطلق عليه " الذرّية " .. أو " الجزئية " فى التفكير ، وهو مرض يجعل أبناءنا ينظرون إلى الوقائع والأحداث حولهم وكأنها ذرات متناثرة لا يربطها أي رباط عضوي أو يجمعها سياق واحد، وبالتالي لا يستطيعون الربط بين أحداث الواقع الذي يعيشون فيه ليستخلصوا منها قاعدة واحدة وقانونًا عامًّا يربط بين الأحداث والوقائع ، ويمكن تطبيقها على كل حالة خاصة .. ومن ثم تكون أكثر قراراتهم فى مواجهة أحداث الحياة قرارات عاطفية لا ترتكز على مبادئ محددة أو أصول ثابتة ..!!

ولعلاج تلك الظاهرة ، لا بد للمربي إذا حدّث الأبناء عما يجري فى الواقع من أحداث أن يربط بين هذه الأحداث التى تبدو متفرقة برباطها العضوي الذي يربط بينها ، وينتظم مفرداتها .. كما يقوم بتنمية العقل السببي عندهم " عن طريق ذكر أسباب الحوادث والظواهر فى أحاديثهم معهم ، كأن يقال : فلان تسوست أسنانه

(١) فى ظلال القرآن – سيد قطب – ج ٢ ص ١٠٩١ ، ١٠٩٢ .

لأنه لم ينظفها . وفلان نجح لأنه يحافظ على وقته، وفلان وجهه مشرق لأنه يكثر من ذكر الله تعالى.

وفلان يربح فى تجارته لأنه صدوق فى تعامله مع زبائنه ، وهكذا.. " [١] .

وهكذا يتعلم الأبناء الطريقة الصحيحة فى النظر للأحداث والوقائع .. ويستخلصون العبر مما يمر بهم من أحداث ، وتنشأ بداخلهم محبة الحقائق والحرص على زيادة الثروة المعرفية ..

و "من الأساليب الناجحة فى إيصال الفكرة الصحيحة إلى أبنائنا ، فن السؤال، فتلك هى الطريقة الأفضل لتعليمهم .. فبدل أن نعطي الابن الإجابة الصحيحة لما يريد ، نحاول طرح الأسئلة المناسبة عليه ، وهكذا بدل أن نعلمه بأنفسنا ، نترك المشكلة ذاتها تعلمه " [٢]وتنقل له المفاهيم الصحيحة والتصورات السليمة عن الكون والحياة ..

ويقوم هذا الأسلوب على تنشيط طاقة الفكر عند الابن لإفهامه ما نريد أن يتعلمه فى صورة حوار لا ينسى، وصورة معرفية ثابتة .. وقد رأينا مثالًا لذلك فى سنة نبينا ﷺ، حادثة إتيان جبريل للرسول وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة ... فقد كان من الممكن أن يخبر النبي أصحابه بهذه الأمور فيقول: الإسلام كذا وكذا .. علامات الساعة كذا وكذا .. لكن البيان لهذه الأمور جاء فى صورة حية نابضة ومشهد لا ينسى: دخل علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر، لا يظهر عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ... هكذا صورة غريبة ومشهد لا ينسى ، فيستقر فى الأذهان ما تعلق بهذا الحدث وذلك الخبر....

كما رأيناه فى أحاديث كثيرة منها :

" قوله ﷺ: " كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى !! "

---

(١) دليل التربية الأسرية – أ. د/ عبد الكريم بكار – ص ٥٧ .

(٢) كيف تنتقد الآخرين ، وتستولي على محبتهم واحترامهم – أكرم عثمان – ص ٨٠ بتصرف .

قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟

قال : " من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى " (رواه البخاري).

وقوله ﷺ: " من أكبر الكبائر أن يسب الرجل أباه !! "

قال : كيف يسب الرجل أباه يا رسول الله ؟

قال ﷺ: " يسب أبا الرجل ، فيسب أباه ويسب أمه " (متفق عليه)

وقوله ﷺ: " أنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا !! " .

قالوا : ننصره مظلومًا ، فكيف ننصره ظالمًا .

قال ﷺ: "رده عن ظلمه ، فإن ذلك نصره" (متفق عليه) .

ورأينا أيضًا فى أحاديث رسولنا ﷺ " عنصر التعجب كواحد من عناصر الإثارة العقلية .. يأتي معه عنصر التساؤل الذى يعطي السامع فرصة المبادرة فى التفكير .

ومثال ذلك قوله ﷺ:" مثل المؤمن كشجرة من شجر البوادي لا يسقط ورقها " ..

قال عبد الله بن عمر : فوقع الناس فى شجر البوادي . فهممت أن أقول: هي النخلة . ولكني استحييت لأني كنت أصغر القوم سنًا ، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة».

فقال عمر بن الخطاب : لئن قلتها لكان أحب إلي من كذا وكذا .

(متفق عليه).

ومثله أيضًا ، قول النبي ﷺ: " سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب " .. ثم ترك المجلس ، فقال الناس لعلهم الذين ولدوا فى الإسلام ، وقالوا : لعلهم لم يسجدوا لصنم ، وأخذوا يقولون .. حتى جاء رسول الله ﷺ فقال : " هم الذين لا يرقون ، ولا يسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون " (متفق عليه) .

... كما أن من أساليب الإثارة للتعليم .. أسلوب الإثارة الوجدانية .. والارتكاز

على الطبيعة الإنسانية للابن لتحقيق أقصى إمكانية للقناعة بما يريد المربي..

مثال :

يرتكز النبي ﷺ على الإحساس الطبيعي بالغربة عند الإنسان ، ليؤكد غربة الإسلام ، فيقول : " بدأ الإسلام غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء "

فيسأل الصحابة : ومن الغرباء يا رسول الله ؟

فيقول النبي ﷺ: " الذين يصلحون عند فساد الناس " .

وكذلك نرى الإرتكاز على إحساس الإفلاس ، وهو إحساس بالحسرة ، وكيف نقله الرسول ﷺ من الإحساس بالإفلاس في المال إلى الإفلاس في الحسنات يوم القيامة ، فيقول ﷺ: " أتدرون من المفلس ؟ "

فيقولون : المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار ..

فيقول : " المفلس من جاء بحسنات مثل الجبال ، وكان قد ضرب هذا ، وشتم هذا ، وسفك دم هذا .. فأخذ من حسناته فأعطيت لهم حتى إذا فنيت حسناته ، أخذ من سيئاته فطرحت عليه ، فطرح في النار "

كما يرتكز النبي ﷺ على الإحساس الطبيعي برحمة الأمومة ، ليؤكد لنا رحمة الله بعباده .

فبعد أن وجد ﷺ امرأة تحتضن ابنها وترضعه ، وكانت قد عثرت عليه بعد أن فقدته ، فقال رسول الله ﷺ: " هل تظنون أن تلقي هذه بابنها في النار ؟ " قالوا : لا يا رسول الله .

قال : " إن الله أرحم بعباده من هذه الأم بولدها " (متفق عليه) " [(١)].

إن من توفيق الله للأب والمربي أن يطرح الأسئلة على أبنائه ويلقي الإستفهامات المختلفة عليهم ليسقيهم من معين الهدي الإسلامي بقالب الإقناع والمحاججة ..

---

(١) حكمة الدعوة – رفاعي سرور – ص ٧٧ – ٧٩ .

" وحين لا يستطيع التعبير العادي تبليغ معنى من المعاني بالوضوح الكافي ، فإن الرمز يصبح من وسائل التعبير الضرورية ..

بل إن ضرورته تكون أشد حين يدخل حديث ما فى ضباب يوشك معه فحواه أن يتبخر .. حيث يأتي المثال أو القصة الرمزية لتعيد الحديث إلى مجراه ، وتمسك معناه فى اللحظة التي كاد يفلت فيه ..

لقد كان جدي يقص علينا العديد من قصص جحا ، وإني لأذكر إحداها لما أرى فيها من معنى ..

كان يحكي لنا أن جحا كان ذات يوم من أيام الشتاء الباردة ، يدفىء يديه مع بعض رفاقه ، وإذ هو حول نار موقدة .. إذ بالنار بدأت تخمد لنفاد الحطب.

قال أصحابه :

- هلم ، نذهب فنحتطب فى الغابة .

وهرع كل واحد إلى عدته وتوجه إلى الغابة وكذلك فعل جحا ، ثم رجع كل واحد بحزمة حطب إلا جحا فقد استبطأه رفاقه حين لم يعد ، وقالوا :

- هلموا نرى ما صنع جحا .

واقتفى الرفاق أثر جحا حتى وجدوه فى ناحية وهو يلف حبله حول المئات أو الآلاف من الشجر .

سألوه : ماذا تصنع يا جحا ؟

أجاب " بطلنا " : ألا تروننى أريد أن أحمل كل شجر الغابة مرة واحدة ، حتى لا نعود نحتطب كل يوم ؟

ذهل الرفاق إعجابًا بجحا واكبارًا له ، بل خجلوا أمام محاولة ضخمة كهذه ، خجلوا إذ لم يأت كل واحد منهم إلا بحزمة ، ثم طلبوا من جحا أن يترك محاولته هذه إلى يوم آخر ، حيث لديهم ما يكفيهم اليوم بما احتطبوا هم .

... وهكذا تفضّل عليهم جحا بتلبية رغبتهم فرجع معهم ، شامخ الأنف

يتدفأ على نارهم دون أن يأتي بعود واحد .!!

... إلى هنا كان جدي ينهي قصته ثم يترك لنا استنتاج العبرة ..!! "[١]

فإذا لم نقدر على استخلاص العبرة ، أخبرنا هو بها ، فقال لنا : إن موقف جحا، هو موقف من يحاول عملًا مستحيلًا فيستغل بذلك عمل الآخرين ..

إنه المحتال يستغل سذاجة الآخرين ، بينما يبدو لناظرهم فى مظهر البطل.

إن ضحاياه إنما هم أولئك الذين يلقبونه بطلًا ..!!!

ولسنا فى حاجة هنا للتأكيد على أن الأبناء قد يعلقون على أمثال تلك القصص تعليقات تأخذ لونًا من ألوان الترويح والتنفيس عن النفس ..

وهذا فى الحقيقة أمر مطلوب أيضًا ويمكن تشبيهه بضابط الأمان فى الآلات البخارية ، فهو يفتح ليخرج منه البخار الزائد عن الحاجة . . .

بل إنه يمثل لنا – نحن الآباء – فائدة تربوية عظيمة لأنه يمثل فى حقيقته عملية قياس دائمة للإتجاهات النفسية والاجتماعية لأبنائنا، وهو فى ذات الوقت يكشف عن العلل الكامنة فيهم وكيفية تفكيرهم ..

ومن ثم يمكن تعديل طريقة تفكيرهم ، والتخلص من علل السلوك الكامنة فيهم ..!!

.. لقد كان جدي يحدثنا عن قصص السابقين لتأكيد المعاني العقدية فى نفوسنا منذ الصغر .. فيقول لنا :

"كان في سالف الزمان ملك يحكم دولة وفي إحدى معاركه مع أعدائه قطعت أُذنه، فقال له وزيره: لعل في قطعها خيرًا. فأمر بسجنه. فقال الوزير: وفي سجني أيضًا خير! ومرت السنون وفي يوم ما خرج الملك في رحلة صيد فذهب بعيدًا عن مملكته حتى قَبض عليه جماعة من الناس كانوا يعبدون الأصنام. فقالوا لقد وجدنا شيئًا نقربه لإلهنا، فلما هموا بذبحه وجدوه مقطوع الأذن فقالوا لا نقرب لمعبودنا

(١) بين الرشاد والتيه – مالك بن نبي – ص ٧٩-٨٢ .

شيئًا ناقصًا فأطلقوه. وعند رجوعه أمر بإخراج الوزير من السجن فقال له الوزير: ألم أقل لك إن فيها خيرًا، وفي سجني أيضًا خير فلو كنت معك لذبحت بدلًا عنك"(١).

ثم يعلمنا جدي العبرة قائلًا : إنّ تصديق العبد بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان التي لا يقبل الإيمان إلا بها. وهذا التصديق يستلزم التسليم لله عز وجل في كل ما يقدّره كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾ [التغابن ١١].

فقط ندعو الله جميعًا «ربنا لاتجعل مصيبتنا في ديننا»...

وهكذا يحكي الأب ما كان يحكيه له أبوه وجده من حكايات عنهم وعن غيرهم ، وكيف كانوا يتعاملون مع الحياة ؟.. ويتحدث عن الأسرة والبيت القديم .. وكيف كانت تعيش العائلة الكبيرة فى بيت واحد ، ويأكلون جميعًا على سفرة واحدة .. ويتحدث عن الأثر الطيب لهذا الترابط الأسري على التواصل والرحمة والحب بين أفراد الأسرة ..

هذا الحب الذي أصبح سرابًا فى ظل علمنة الأسرة .. فى زماننا الصعب.

ويدعو – المربي – أبناءه إلى الإلتحاق بتلك المدرسة التى لا تشترط للإلتحاق بها إلا الميلاد واستمرار الحياة .. وتقبل الدارسين من المهد إلى اللحد.. ليتعلموا على أيدي معلميها ، وهم كل من يدبون على الأرض .. وليحاولوا اجتياز اختباراتها التى تعقد كل يوم ، بل كل ساعة .. لتعلن نتائجها على الفور نجاحًا أو فشلًا فى مدرسة الحياة ..

❀❀❀

(١) ذكرها أبو حامد الغزالي .. وراجع أيضًا تفسير السعدي ص ١٢٠٨ .

الفصـل الثاني
راوي قصص لا مُصْدِر أوامر

يضعف الجهد التفكبري للأبناء إذا خوطبوا بكلام نظرى يتبع آخره أوله..

ومن هنا تمثل القصة أفضل أشكال الإقناع والتوجيه غير المباشر لهم ، فمن خلالها يمكن للمربي أن يوحي بالسلوك الذى يريد تربيتهم عليه ، كما يمكنه تنمية مهارات التفكير لديهم ..

ومن خلال هذا وذاك يتدرب الأبناء على مواجهة القدر الأكبر من مشكلات الحياة بأساليب فكرية صحيحة ، وسلوكيات واقعية مسؤولة .

ولأن القصص بهذا القدر من الأهمية ، فإنه يصبح من حكمة المربي أن يتوقف عن أن يكون آمرًا ، ليحاول أن يصبح متمرسًا فى سرد القصص !!

- **فى قصصـهم عبرة :**

القصة أمر محبب للأبناء ، وهي تترك أثرها التربوي فى نفوسهم بطريقين:

أحدهما: هو المشاركة الوجدانية، حيث يشارك الأبناء أبطال القصة مشاعرهم وانفعالاتهم ، فيفرحون لفرحهم ويحزنون لحزنهم .. هكذا ، وكأن أحداث القصة تحدث فى ذات اللحظة التى تروى فيها .

وأمّا الطريق الثاني: الذى يتأثر به الأبناء تربويًا بما يسمعونه من قصص فهو يحدث بغير وعي كامل منهم " ذلك أن قارىء القصة أو سامعها يضع نفسه فى موضع أشخاص القصة أو يضع نفسه إزاءهم ، ويظل طيلة القصة يعقد مقارنة خفية بينه وبينهم ، فإن كانوا فى موقف البطولة والرفعة والتميز ، تمنى لو كان فى موقفهم ويصنع مثل صنيعهم البطولي . وإن كانوا فى موقف يثير الازدراء والكراهية حمد لنفسه أنه ليس كذلك ! واعتز أنه لا يقف مثل هذه المواقف المسفّة ! ومن هنا

يحدث تأثر ذاتي إلى جانب المشاركة الوجدانية ، ينتج من هذا التلبس بأشخاص القصة ووضع الإنسان نفسه محلهم أو بإزائهم ، وعقد المقارنة بينه وبينهم ..

وبهذ التأثر المزدوج تثير القصة انفعالاتنا وتؤثر فينا تأثيرًا توجيهيًا يرتفع بقدر ما تكون طريقة الأداء الفنية بليغة ومؤثرة، وبقدر ما تكون المواقف داخل القصة مواقف " إنسانية " عامة لا مواقف فردية ذاتية . (١)

إن القصة " تجسد الأحداث على شكل أشخاص يتحرك معها القلب ، ويدور معها الفؤاد ، وتنشط لها الآذان والعقول ، فهي بذلك تثير الانتباه والحواس لمتابعة أحداث القصة، ماذا سيجري؟ وما الذي سيحدث؟ وما هي مجريات القصة؟ وما هي نهاية القصة؟ فإن كانت مفرحة تجد القلب قد ارتاح واطمأن ، وإن كانت محزنة تجد القلب قد أخذ العبرة والعظة.. فالقصة موجه غير مباشر نحو الخلق النبيل ، والمعاملة الحسنة ، والتفكير الصحيح" (٢) .

ومن هنا جاءت القصة كثيرًا في القرآن، وأخبر تبارك وتعالى عن شأن كتابه فقال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف:٣] وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ [يوسف:١١١] ، وأمر نبيه ﷺ بذلك فقال : ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

لقد "استخدم القرآن القصة استخدامًا واسعًا فى تثبيت القيم الإيمانية وترسيخها وتعميقها فى نفوس المؤمنين ، وتعتبر القصة من مبادىء التربية الإسلامية ، فهى تستهوى الطفل فى سنى عمره المبكرة ، ويفضلها على غيرها لأنها تترك أثرًا واضحًا فى نفسه ، وتغرس لديه القيم المرغوب فيها من خلال مشاركته

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج ٢ ص ١٥٤ .

(٢) فنون الحوار والإقناع – محمد ديماس – ص ١٨٤ .

الوجدانية وتعاطفه مع أبطال القصة ومعايشته الحوار والأحداث التى تصورها ، وتلعب دورًا كبيرًا فى شد انتباهه ويقظته الفكرية والعقلية."[١].

ولقد سلك النبي ﷺ هذا المنهج ، واستخدم هذا الأسلوب ، وحفظت لنا السنة النبوية العديد من المواقف التي يحكي فيها النبي ﷺ قصة من القصص، لتوجيه صحابته إلى السلوك الأقوم ..

فمن ذلك ما حدث مع خبّاب بن الأرت حين بلغ به أذى المشركين فى مكة كل مبلغ ، فأتى للنبي ﷺ شاكيًا له ما أصابه .. فيقول رضي الله عنه : أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة – وقد لقينا من المشركين شدة – فقلت :ألا تدعو الله ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: « لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم أوعصب، مايصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق اثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله» [رواه البخاري (٣٨٥٢)].

و أيضًا ، حين كان المؤمنون فى مكة قلة مستضعفة ، وكان لا بد لهذه القلة من وقود تستمد منه القوة والثبات ، كان من بين هذا الوقود " قصص السابقين ، وأمثلة الأمم التى كانت تأتيهم فى آيات الله المنزلة لتخبرهم أن الابتلاء ليس مقصورًا عليهم وحدهم ، وأن المؤمنين فى كل الأمم أوذوا فى سبيل دينهم ، وأخرجوا من ديارهم ظلمًا ، ونزل بهم من العناء والابتلاء والمحن الكثير .. كما تبين لهم الآيات ما بذل هؤلاء فى سبيل دينهم ، ودفع الظالمين ، وكيف زادتهم المحن إيمانًا واستمساكًا بعقيدتهم ، وتصميمًا على استمرار الجهاد فى سبيل الحق حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا "[٢].

(١) الإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ١٢٦ .

(٢) راجع إن شئت " التربية بالأمثال القرآنية – د/ محمد القزاز – دار فرحة .

كما أن ما حكاه القرآن من تفاصيل قصة بني إسرائيل مع نبي الله موسى ، وما قالوه لنبيهم فى وقاحة العاجز الذى لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان " إذهب أنت وربك فقاتلا . إنا ها هنا قاعدون " .. كان له الأثر التربوي الكبير فى نفوس صحابة النبي ﷺ، فرأيناهم وقد وعوا الدرس – مما قصه الله عليهم من قصص – حين واجهوا الشدة وهم قلة أمام قريش فى غزوة بدر ، يقولون لنبيهم – ﷺ – إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم : " إذهب أنت وربك فقاتلا . إنا ها هنا قاعدون " .. لكن نقول : " إذهب أنت وربك فقاتلا ، فإننا معكما مقاتلون " ..!!

وقد جاء فى القرآن الكريم بعض قصص الأنبياء ، كقصة عيسى وموسى ويوسف ويونس وقصة أصحاب الكهف والأخدود وغيرهم ، وفى الحديث الشريف أيضًا قصص عديدة ، كقصة الثلاثة المبتلون (صحيح البخاري ج ٤ ص ٢٠٨ ، وصحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٧٥).

وقصة جرة الذهب (البخاري ج ٤ ص ٢١٢ ، ومسلم ج ٣ / ١٣٤٥) وقصة صوت فى سحابة (مسلم ٤ / ٢٢٨٨) والمسند ٢ / ٢٩٦) ، وقصة سفينة النجاة (سنن الترمذي ٤ / ٤٧٠) ونحوها ، وكان النبي ﷺ يحدث أصحابه عن قصص الأوائل .

وكل ذلك يؤكد بلا شك أن القصص هي أسلوب فى التربية وطريقة فى التعليم " ففى سورة المائدة مثلًا نجد قصة ابني آدم وما تدور حوله من عاقبة العمل الطيب وإخلاص النية ، وقصة أهل الكهف وما تصنعه العقيدة الإسلامية فى النفوس ، وقصة يوسف عليه السلام فى زرع العفة وإظهار قيمة القدوة والإخلاص والثبات ووجود الصراع الأزلي بين الخير والشر ، إلى غير ذلك من القصص القرآنية ، هذا بالاضافة إلى عشرات من القصص النبوية الهادفة كقصة

الأقرع والأبرص والأعمى التى تحض على شكر النعمة ودوام ذكر فضل الله تعالى ، وقصة أصحاب الغار وما تبينه من أهمية الإخلاص وفضله " [(١)] .

وغيرها من القصص القرآنية التى يمكن أن تكون مدخلًا للتحاور حول نماذج خلقية جيدة ..

- نموذج الشاب المتعفف عن الحرام فى قصة يوسف عليه السلام . (سورة يوسف : ٢٣ – ٣٤).

- نموذج الشاب الممتثل لأوامر الله ولو كان هذا الأمر هو تقديم عنقه قربانًا كما فى قصة سيدنا إسماعيل عليه السلام (سورة الصافات : ١٠٠ – ١٠٩)

- نموذج الابن المؤمن وتلطفه مع أبيه الكافر فى قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه (سورة مريم ٤١ – ٥١).

- نموذج المرأة المؤمنة فى شخصية آسيا امرأة فرعون ومريم ابنة عمران . (سورة التحريم ١١ ، وسورة مريم) [(٢)] .

إننا من خلال القصص " نوجد أجواء صناعية نضع فيها الأبناء ، فيمارسون حياة لم يعيشوها ، ويدركون بهجة الآمال ، وآلام الخيبة اللاذعة ، دون بذل جهد أو دفع أي ثمن .

إننا نستطيع من خلال السرد القصصي أن نثير الحيوية فى أحداث بعيدة عن أبنائنا فى زمانها ومكانها ، فتتحول من أخبار جامدة إلى أدوات لزرع الأفكار والقيم فيهم .. ومن ثم وسيلة إلى نقد الصور السيئة فى حياتنا» ..

" فهذه مثلًا قصة تحكي مأساة أمة دمرها الاستبداد والطغيان . وهذه قصة تحكي مأساة شاب من أسرة جيدة وقع فى شباك قرناء السوء . وهذه قصة تحكي نجاح جماعة على الرغم من الظروف القاسية التى تحيط بهم ..

---

(١) الإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ١٢٦ .

(٢) راجع إن شئت " ثقافة الداعية – د.يوسف القرضاوي.

إن القصة تتيح للأبناء إمكانات الفهم المتعددة ، وتترك أمامهم المجال واسعًا للإستنتاج والاستخلاص ..

ولذلك فإنه من الحكمة بعد السرد القصصي أن نحاول تناول الأنماط السلوكية الخيرة والسيئة التى تشابه النمط الذي عبّرت عنه القصة . "[1] لنصل من خلالها إلى هدف تعلّم الابن للقيم العالية ، والفضائل الخلقية الراقية .

فمثلا ..

يمكن غرس قيمة مراقبة الله فى نفس الابن من خلال قصة عمر بن الخطاب مع راعي الغنم الذى أراد عمر أن يمتحنه ، فطلب منه أن يبيعه شاة من الغنم التى كان يرعاها ، فيقول الراعي : أنا مملوك (يعنى أن الغنم ليست ملكًا له) .. ويستمر عمر فى الامتحان فيقول له : قل لسيدك أكلها الذئب ، فيقول الراعي : أين الله ؟ مما جعل عمر رضي الله عنه يبكي ويغدو مع المملوك ويشتريه من مولاه ، ويقول له : أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك فى الآخرة ...

كما يمكن غرس هذه المراقبة كذلك من خلال قصة أم مع ابنتها : الأم تريد أت تخلط اللبن طمعًا فى زيادة الربح ، والبنت تذكرها بمنع أمير المؤمنين ، والأم تقول : أين نحن من أمير المؤمنين ؟ إنه لا يرانا " ، وترد الابنه بالجواب المفحم المخوف : " إن كان أمير المؤمنين لا يرانا ، فرب أمير المؤمنين يرانا "

ويمكن غرس أهمية الصدق من خلال ذكر قصة الراعي الكذاب الذى زعم أن الذئب هاجم غنمه وصاح وجمع أهل القرية ثم ضحك وقال أنه مازح ، ولما هاجم الذئب ثانية وأكل غنمه ، وصاح وصاح فما أنقذه أحد ، فيتعلم الطفل أن من يكذب مرة ؛ لن يصدقه أحد ثانية ، أما الصادقون فهم فى الجنة مع الأنبياء ..[2]

---

(١) بناء الأجيال – د.عبد الكريم بكّار – ص ١٧٠ ، ١٧١ بتصرف يسير .

(٢) الإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ١٢٧ .

وكما يمكن عبر القصص غرس تلك القيم الراقية .. فإنه يمكن أيضًا علاج الكثير من الأمراض الفكرية القاتلة التى قد تتسرب إلى عقول أبنائنا من خلال واقع الهزيمة والقصعة المستباحة الذى تعيشه أمتهم ..

تلك الأمراض التى من أخطرها اعتقاد أنه لا حيلة فى مواجهة ذلك الواقع ، أو ما يعبر عنه الأبناء بمقولة " ما باليد حيلة " ..!!

فمن خلال الوقائع والأحداث الماضية والحاضرة يمكن تقوية إرادة أبنائنا ، وبث معاني حمل الرسالة ، و الجهد الواجب عليهم بذله فى سبيلها .. ويمكن فى ذات الوقت تعليمهم المنطق العملي الذى يدفعهم إلى إتقان العمل بدلًا من تبرير الفشل ، وممارسة عبودية الأخذ بالأسباب التى هي أحد مفردات عبودية التوكّل ..

فنحكي لأبنائنا – مثلًا – عن انتصارات المسلمين فى معارك "القادسية" و"اليرموك " .. و " عين جالوت " ونؤكد على أن هذه الإنتصارات وفق سنة ثابتة هي أن النجاح فى الوصول للأهداف يرتبط بالوسائل الموصلة إليها ، وليس بأمور سحرية غامضة الأسباب ، وأن المنتصر فى الدنيا هو من يأخذ بأسباب النجاح ، سواء كانت أهدافه سليمة أم لا ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء:٢٠].

ثم نحكي لأبنائنا عن هزائم المسلمين ، وأنها إنما كانت بسبب الخلل الذي يطرأ على سنة النصر التى أسلفنا .. وأن ذاكرة تاريخ المسلمين تحفظ أن هزيمتي "أحد " و "حنين " كانتا والنبي ﷺ بين صفوف المسلمين يقودهم !! وذلك ليعلم من سيرث الأرض من المؤمنين أن الخلل حين يقع من المسلمين تنطبق عليهم السنة التى لا تحابي أحدًا مهما ادعى لنفسه من مسوغات المحاباة ، فهذه السنة مما لا يفيد معه تعجّل " الأذكياء " ولا أوهام " الأصفياء " ..

فنقول لأبنائنا : " نحن نجزم أن النبي ﷺ لم ينهزم قط :

في أحـد :

رتّب رسول الله ﷺ الأمور، ورسم الخطة العسكرية التي حقق الله بها النصر، ولكن الرماة ـ الذين اجتهدوا فأخطأوا ـ هم الذين أضاعوا النصر.. فكانت الهزيمة التي تعلمنا منها أن صلاح العقيدة أهم أسباب النصر، وأن من صلاح العقيدة الأخذ بالأسباب وطاعة القائد.

وفي حُنين:

لم ينهزم النبي ﷺ، وإنما الذين انهزموا هم حديثو العهد بالإسلام الذين أُعجبوا بكثرة العدد ورأوا فيه سبب النصر، وغفلوا عن مُسبب النصر.. ومع ذلك: نصر الله نبيه ببقية من أصحابه المخلصين، لتعلم هذه الأمة أن النصر لا يكون إلا بالصفوة المختارة التي بلغت قمة التجرد لله وغاية الإخلاص لدينه.

وأمّا موقعة الجسر:

فهي درس عظيم جدير بالتأمل والتدبر..

لقد خرج أبو عبيد بن مسعود الثقفي (رضي الله عنه) على رأس جيش لقتال الفرس، فأرسل رستم إليه بهمن بن جازويه برسالة يقول فيها: إمّا أن تعبر النهر (نهر الفرات) إلينا وندعكم والعبور، وإمّا أن تَدَعُونا نعبر إليكم.. فنهى الناسُ أبا عبيد عن العبور.. فلجّ وترك الرأي والمشورة، وقال: لا يكونون أجرأ منا على الموت.. فعبر إليهم فضاقت الأرض بأهلها.. واشتد الأمر على المسلمين.. حتى إن أحد فيلة الفرس وطئ أبا عبيد فقُتل شهيدًا.. وتتابع على أخذ اللواء سبعة أنفس من ثقيف فقاتلوا حتى الشهادة، وذهبت ريح المسلمين وانكشف أمرهم، وخسروا في هذه المعركة أربعة آلاف مقاتل.. وكانت خسارة كبيرة للمسلمين كلهم، أحس بعظمها خليفة المسلمين عمر بن الخطاب فقال: اللهم إن كل مسلم في حل مني، أنا فئة كل مسلم، يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف، أو تحيز إلينا، ولم يستقل (يعني برأيه) لكنا له فئة.

.. نعم لقد عبر أبو عبيد الجسر بشجاعة وإقدام وإيمان وحب للشهادة، لكنه لم يحسب للمعركة حسابها، ولم يدرس أرض المعركة بشكل كاف، وزاد على ذلك بمخالفته لمن معه من أركان الجيش الذين نهوه عن العبور، فلم ينته واستقل برأيه، فكانت هزيمة الجسر التي علمتنا أن النصر مع الإقدام يرافقه، ولكن مع التبصر والأناة، وبعيدًا عن الاندفاع الذي يهلك الجند ويأتي بالهزيمة، ذلك أن الحماس لشيء ما لن يخدمه، ما لم يكن مشفوعًا بأسلوبه الفني الذي يحققه.

تلك بعض هزائم المسلمين، وهذه بعض أسبابها..

.. وكلها تؤكد على أن سنن الله التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، وأن الأمور لا تمضي جزافًا، وإنما تخضع لعلاقة تلازم بين الأسباب والنتائج، ولذلك فإن تخلف النتائج في أي أمر نحاول أن نقوم به لابد أن يدفعنا إلى خطوتين:

الأولى: هو أن نفترض حدوث خطأ في عملنا..

والثانية: هو أن نبحث بجد عن هذا الخطأ في أعمالنا لنصوبه.

وخذوا هذا المثال يوضح ما نقصد:

قال (عز وجل): ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ(١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم:١٧، ١٨].. لقد عزم هؤلاء على حرمان المساكين من حقهم بقطف ثمار بستانهم في الصباح قبل أن يراهم أحد، فعاقبهم الله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم:١٩، ٢٠]..

وفي الصبح: ذهب أصحاب البستان ليتموا ما اتفقوا عليه، وفوجئوا بالمأساة..مأساة استحالة النضارة في القطوف الدانية والثمار الزكية الشهية إلى سواد مُدْلَهِم لا ينتفع بشيء منه، بل هو صورة غضب الله ومؤاخذته لهم على كفران النعمة بما أقسموا على منع الخير وقبض أيديهم عن عطاء من هم أهل للعطاء..

فماذا فعل أصحاب البستان؟

لقد حاول بعضهم تصيد كبش الفداء والبحث عن أمر خارج عنهم كان هو السبب في بلائهم، فطمأنوا أنفسهم اطمئنانًا خادعًا بأنه لم يحصل شيء، فليست هذه جنتنا وإنما نحن ضللنا الطريق..

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾.. !!

وحينما تأكدوا أنها هي وليست غيرها، كان التبرير الآخر الذي يقوم على تنزيه النفس وإلقاء التبعة على الظروف والقدر ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾..

وهنا بدأ أوسطهم وأعقلهم وأرشدهم في تعريفهم بالسبب الحقيقي لما هم فيه، والطريقة الصحيحة في النظر إلى المحن والمصائب..﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، إن المشكلة فيكم وليست خارجكم، وأنتم الذين أخطأتم..

... ولم يرتكب أصحاب الجنة حماقة التبرير للبقاء على الخطأ، بل بدؤوا في عملية التصحيح على الفور.. ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.. ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ إن الخطأ عندنا، والمشكلة بدأت من عندنا وليس من عند غيرنا..

.. هذه الطريقة التي اتبعها أوسطهم هي ما يجب أن نسلكه فى كل هزائمنا، وانكساراتنا، وفشلنا.." (١)

إن عيوننا التى نرى بها هزائمنا واحدة .. ولكن كلًا منا ينظر إلى هذه الهزائم من خلال أفكاره التى يحملها، فهذه الأفكار هي العيون التى تقف خلف عيوننا لتنتقي لنا ما نراه، وما نغفله ..!!

ولا شك أن التربية هي التى تصنع هذه العيون الخلفية ..فهل نصنع لأبنائنا عيونًا ترى الحق، وتسعى للخير، وتبحث عن رضى الرب ...هل نصنع لهم كل ذلك من خلال القصص ؟ وهل ندرك أن فى القصص عبرة ؟(٢)

---

(١) راجع إن شئت " المنطق التبريري " – مقال للمؤلف بمجلة البيان – العدد ٩١ .

(٢) من الكتب النافعة فى هذا المجال كتاب" المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة – د.عبد الكريم زيدان".

• مبادىء سرد القصص :

تعد القصة من أكثر ألوان الحوارات بين الأباء والأبناء إثارة وجاذبية ، وللأسلوب القصصي تأثيرات نفسية وانطباعات ذهنية فى نفوسهم ..

ومن هنا فإنه يعد من أفضل الأساليب التى يمكن عبرها توجيه الأبناء إلى الخير والمعروف ، وإبعادهم عن الشر والمنكر .. ذلك أن الابن وهو يستمع إلى القصة من أبيه يضع نفسه فى مواقف أبطالها ، فيوافق أو يستنكر أو يتملكه الإعجاب .. وبين إعجاب الابن بمواقف الخير وأصحابها ، واستنكاره لمواقف الشر ولأصحابها .. بين هذا وذاك يتبنى الابن ما يتبناه أصحاب مواقف الخير ويكره أن يكون فى موضع أصحاب مواقف الشر ..

والمربي الحكيم هو الذى يستطيع أن يكّيف عرض القصة بأسلوب يلائم عقلية الابن ، فيثير انتباهه ذهنيًا ونفسيًا مع أبطالها ، ثم يبدأ فى صب العبرة والعظة فى مشاعره وأعماق قلبه من خلال مجموعة من التساؤلات حول أحداثها ، وما يمكن أن نخرج به من هذه الأحداث ؟

ولسنا فى حاجة هنا أن نكرر ما قلناه فى التمهيد للبحث من أن سلوك الأبناء لا يتشكل من خلال التلقين وفقط ، بل أيضا من خلال ممارسات وأساليب تصرف من يربيهم ..[1]

ولذلك فإن سيرنا كآباء ومربين خطوة واحدة فى طريق القدوة أفضل من سيرنا عشرات الكيلومترات فى متاهات التلقين والكلام ... [2]]

ولكي تحصل – أخي الأب والمربي – على أفضل النتائج السلوكية عبر رواية القصص لأبنائك لا بد أن تراعي بعض الأسس والمبادي ، ومنها :

(١) راجع إن شئت " تمهيد " البحث .

(٢) الغلام المؤمن – محمد بدري – ص ٧ .

لا تقرأ لابنك أي قصة في أي وقت، وإنما القصة التي تحتوي على المضمون الذي تريد أن توصله له ، والمرتبط بما وقع منه في هذا اليوم، وقد يكون المضمون الذى تريده فى قصة مطبوعة ، أو رواية تحكيها أنت .. وقد تكون هذه الأخيرة هي الأفضل ، لأنك بالنسبة للابن تمثل القيم الصحيحة والسلوكيات الصائبة ..

فإذا اخترت – أخي الأب والمربي – قصة تحكيها لابنك فحاول أن تسير هذه القصة " على نهج ما يمكن أن يكون لدى طفلك من مشكلات أو ما يشابهها ، ولكن إذا اخترت نفس اسم طفلك وكان الموضوع مماثلًا تمامًا لما يعانيه طفلك – فإن ذلك سيزيد الأمر تعقيدًا ، ويربك طفلك خاصة إذا كانت المشكلة خطيرة ، وقد يعبر الطفل عن هذا الارتباك بإظهار اللامبالاة بالقصة وعدم الاهتمام بها ، بل ربما تضايقه القصة مما قد يسبب الإحباط للوالد والابن فى آن واحد

وبالإمكان أن تكون القصة عن شخص يشبه طفلك مع ابتكار استعارات لتصوير المواقف ، ويمكن أن يكون بطل القصة طفلًا آخر ؛ كأن يكون شخصًا من الفضاء ، أو أى شخصية يمكن لطفلك أن يطابقها . "[1] .

واعلم – أخي الأب والمربي – أن أفضل القصص هي التي تخاطب عقل الابن ، وتجيب عن الأسئلة المتعلقة بالكون والحياة .. و تؤكد على الصراع بين الحق والباطل .

ويجب مراعاة أمور فى القصص التى يحكيها الأب لأبنائه .. منها :
اختيار الوقت الذى يكون فيه ذهن الابن خاليًا غير مشتت .
واختيار القصة التى تتناسب مع إدراك الطفل ..
ثم القراءة بحماس وتمثيل درامي .. ، وتشجيع الأبناء على المقاطعة أثناء القراءة ليوجهوا أسئلة أو يبدوا أية تعليقات ..

---

(١) كيف تنشىء طفلًا يتمتع بذكاء عاطفي – لورانس إ . شابيرو – ص ١٢٩ .

فإذا انتهيت من سرد القصة ، بدأت فى التأكد من استيعاب أبنائك لما تريده منها .. فتطلب – مثلًا – من أحدهم اختصار ما قلته فى كلمات قليلة ، أو تسأل الآخر عن عبرة القصة .. كما يمكن أيضًا دعوة الأبناء إلى طرح أية أسئلة تتعلق بما رويته ..

إنك – أخي الأب والمربي – من خلال كل ذلك تقف على طريقة أبنائك فى التفكير ، وتتعرف على نوع الأفكار التى تحملها رؤوسهم .. ومن ثم يمكنك تصحيح الخطأ من هذه الأفكار ، وتصويب ما يحتاج إلى تصويب من طرق التفكير..

خذ مثالًا :

تروي لأبنائك – مثلًا – أن أحد الرجال خرج إلى الصحراء ، فرأى فى طريقه طائرًا أعمى كسير الجناح ، فوقف يتأمل الطائر ، ويفكر كيف يجد رزقه فى هذا المكان المنقطع ، فلم يمض وقت طويل حتى جاء طائر آخر ، فأطعم الطائر كسير الجناح ، كما يطعم الحمام فراخه ، فعجب الرجل ..

ثم تسأل الأبناء : ماذا لفت نظركم فى هذه القصة القصيرة ..

يقول أحدهم : نعم الله رزقه .. الله يرزقنا .. ففيم العمل ؟!!

فيقول الأب : ولم أحببت أن تشبه الطائر الأعمى ؟! هلا فعلت ما فعل الطائر السليم الذى أتى بالطعام ، فتسعى لكسب الرزق لك ولغيرك ..؟؟

أو تحكي لهم فتقول :"كان في سالف الزمان ملك يحكم دولة وفي إحدى معاركه مع أعدائه قطعت أُذنه، فقال له وزيره: لعل في قطعها خيرًا. فأمر بسجنه. فقال الوزير: وفي سجني أيضًا خير! ومرت السنون وفي يوم ما خرج الملك في رحلة صيد فذهب بعيدًا عن مملكته حتى قَبض عليه جماعة من الناس كانوا يعبدون الأصنام. فقالوا لقد وجدنا شيئًا نقربه لإلهنا، فلما هموا بذبحه وجدوه مقطوع الأذن فقالوا لا نقرب لمعبودنا شيئًا ناقصًا فأطلقوه. وعند رجوعه أمر بإخراج الوزير من

السجن فقال له الوزير: ألم أقل لك إن فيها خيرًا، وفي سجني أيضًا خير فلو كنت معك لذبحت بدلًا عنك". [ذكرها أبو حامد الغزالي]

ثم تسألهم عن عبرتها كما فهموا؟

وتسمع منهم ؛ لتؤكد فى نهاية الحوار على أحد أركان الإيمان التى لا يقبل إيمان العبد إلا بها ، وهي الإيمان بالقضاء والقدر ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن:١١].

.. وهكذا .. حكاياتنا لأبنائنا لها إطار من مبادىء التفهيم ، تصل بنا إلى نتائج الإستقامة فى الفكر والسلوك ..

وإتمامًا للفائدة من " مبادىء سرد القصص " نحكي هنا قصة حاولنا أن نراعي فيها هذه المبادىء ، ونؤكد فيها على تلك المفاهيم ..

• قصة أصحاب الأخدود أنموذجًا :

.. بعد صلاة العشاء فى مسجد الحي ، عاد " أحمد " و "عبد الرحمن " مع أبيهم إلى البيت .. وبعد آداء واجباتهم المدرسية ، جاءت أختهم " سميّة " ، والتف الجميع حول الأب الذى كان يطالع أحد الكتب .

أحمد : يا أبي ، لقد كنت تروي لنا قصصًا جميلة ومفيدة ، فلماذا انشغلت عنّا هذه الأيام ، ولم تعد تروي لنا تلك القصص ؟

الأب : لم أنشغل عنكم يا أحمد ، وإنما انشغلت بكم ؟! بدراستكم وتوفير احتياجاتكم .

عبد الرحمن : انشغلت بالعمل والضيوف والقراءة المتواصلة فى العلوم المختلفة ..

سمية : والله يا أبي أنا مشفقة على عينيك من كثرة القراءة.

الأب : القراءة هامة جدًا للمسلم يا " سمية " فهي التى تنمي خبراتنا ، وتعرّفنا بها فى كون الله من الآيات ، كما أننا بالقراءة نتعرف على خبرات الأمم السابقة وعلى تاريخها ، وندرك ما يحمله لنا المستقبل من آفاق جديدة .. ويكفي أن أول آية نزلت من عند الله على رسول الله محمد ﷺ هي : " إقرأ باسم ربك الذي خلق " .

أحمد : يا أبي ، نريد أن تحكي لنا قصة .

الأب : سأحكي لكم – إن شاء الله – قصة الغلام المؤمن ، أو أصحاب الأخدود .

أحمد : الغلام المؤمن ؟!

عبد الرحمن : أصحاب الأخدود ؟!!

سمية : إنني فى شوق إلى سماع هذه القصة يا أبي .

الأب : يحكى أنه فيمن قبلنا من الأمم كان هناك ملك ، وكان لهذا الملك ساحر .. فلما كبر الساحر قال للملك : لقد كبرت ، وأرى أن ترسل إليّ بغلام لكي أعلمه السحر .

(وحدث ما طلبه الساحر ، وأرسل الملك إليه بغلام ليعلمه السحر) .

وفى يوم من الأيام ، كان الغلام فى طريقه إلى الساحر ليتعلم السحر ، فرأى راهبًا يعيش فى كهف مهجور ، فاقترب منه الغلام ، ودار بينهما الحديث التالي :

الراهب : إلى أين تسلك هذا الطريق ؟

الغلام : إني أذهب إلى ساحر يعلمني السحر .

الراهب : هلاّ جلست إليّ فأعلمك مما علمني ربي ؟

الغلام : ومن ربك ؟

الراهب : ربي الله .

الغلام : الله .. الله ... وما الله !!!!

الراهب : الله خالق الكون وما فيه .. الله رب السماوات وما فيها من كواكب، ورب الأرض وما فيها من أحياء وجمادات .

الغلام : حدثني عن ربك أكثر أيها الراهب الطيب .

الراهب : الله هو الخالق ، فلا خالق غيره فى السماوات والأرض .. الله هو القادر ، فهو المهيمن على خلقه فى السموات والأرض ، سبحانه لا شريك له فى الخلق ، ولا فى الهيمنة على شؤون الخلق فى ملكه العريض ؛ ولذلك فإنه من الواجب علينا نحن البشر أن لا نعبد إلا هو ولا نرضى بغير حكمه وقانونه .. وذلك هو معنى قولنا : لا إله إلا الله .

الغلام : حدثني أكثر عن الله ، وعن شرعه وقانونه ؟

الراهب : يكفي ذلك اليوم ، فقد تأخرت عن موعدك مع الساحر وأخشى أن يعاقبك لتأخرك .

.... وذهب الغلام إلى الساحر الذى عنّفه لتأخره ، وضربه لكي لا يعود إلى مثل ذلك مرة أخرى .

.. وفى اليوم التالي : جلس الغلام إلى الراهب يتعلم منه دين الله ، ويتعرف على صفات الرب سبحانه وأسمائه عز وجل .. وفى نهاية الحديث شكى الغلام للراهب من ضرب الساحر له لتأخره . فقال له الراهب : إذا خشيت الساحر ، فقل لقد أخّرني أهلي ، وإذا خشيت أهلك ، فقل أخّرني الساحر !!

أحمد : أليس هذا كذبًا يا أبي ؟

الأب : هذا سؤال طيب يا أحمد . إن الكذب محرّم ولا شك ، ولكنه يجوز فى الحرب مع الكفار كما أخبر الرسول ﷺ: " لا يحل الكذب إلا فى ثلاث ، يحدث الرجل امرأته ليرضيها ، والكذب فى الحرب ، والكذب ليصلح بين الناس" (أخرجه الترمذي ، وسنده صحيح).

وقد كان الراهب فى حرب مع الملك الكافر .

سميّة : ثم ماذا حدث بعد ذلك يا أبي ؟

الأب : في يوم من الأيام ، كان الغلام يسير في المدينة فرأى دابة عظيمة تسد الطريق على الناس .. وحين رآه الناس وعلموا أنه غلام الساحر ، ظنوا أنه يمكنه إزاحة الدابة عن طريق السحر ، فطلبوا منه أن يساعدهم .

... وهنا قال الغلام في نفسه : اليوم أعلم أيها أفضل الساحر أم الراهب؟

فأخذ الغلام حجرًا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس .

.... وهنا أخذت الناس الدهشة ، وقالوا : يا له من سحر عظيم !!

قال الغلام : لا .. ليس السحر هو الذى قتل الدابة ، إنما هو الله .

قال الناس : الله !!

الغلام : نعم .. إن لهذا الكون الذى نعيش فيه خالقًا عظيمًا ، وهو الوحيد القادر على التصرف في أمور ذلك الكون .. واجبنا نحو هذا الإله الأعظم هو عبادته وحده لا شريك له .

..... ومضى الغلام إلى الراهب ، وحكى له ماكان من أمره وأمر الدابة ، فقال له الراهب : أي بني . أنت اليوم أفضل مني ، وهذا قد يعرّضك للبلاء ، فإذا حدث ذلك فلا تدل على مكاني .

الغلام : ولماذا أتعرض للبلاء ؟

الراهب : لأنك لا تطيع إلا الله ، وهذا أمر يغضب الملك .

الغلام : الملك ؟! وماذا يضير الملك في أنني آمنت بالله العظيم ؟!!!

الراهب : إن إيمانك بالنسبة للملك يمثل خطرًا على ملكه وسلطانه .

الغلام : كيف ذلك ؟!!

الراهب : لأن الإيمان بالله العظيم القادر يجرّد الملك من قوته الوهمية ، ويحرر الناس من العبودية له .. وهذا بالطبع يفقده سلطانه وألوهيته التى يدّعيها .

.... خرج الغلام من عند الراهب ، ورجع إلى المدينة ، فقابله بعض أهلها ، وقال له : إن عندنا مرضى ونريد أن تشفيهم .

الغلام : الشافي هو الله ، وأنا لا أفعل شيئًا بقدرة من نفسي ، وإنما بإذن الله القادر .

.... وهكذا ، كان الغلام يبرىء المرضى ، ويداوي الناس من كل الأدواء بإذن الله .

وسمع جليس للملك كان قد عمي بشفاء هؤلاء المرضى ، فحمل الهدايا الكثيرة وأتى بها إلى بيت الغلام ، ودار بينهما الحوار التالي :

جليس الملك : لقد سمعت عن معجزاتك فى شفاء المرضى ، وكل ما أملكه هو لك إن أنت شفيتني .

الغلام : إني لا أشفي أحدًا . إنما يشفي الله تعالى ، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك .

جليس الملك : آمنت بالله العظيم .

الغلام : اللهم رد عليه بصره .

.... واستجاب الله دعاء الغلام ، فرد على جليس الملك بصره ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟

جليس الملك : ربي .

الملك : وهل لك رب غيري ؟

جليس الملك : ربي وربك الله .

الملك : إذن ، فقد ذهبت إلى الغلام ، وهو الذى شفاك بسحره .

جليس الملك : الغلام ليس بساحر ، وما حدث لي معجزة لا يقدر عليها الغلام ولا الساحر .. لا يقدر عليها إلا رب العالمين القادر على كل شىء ، وإني أدعوك أيها الملك إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

الملك : عبادة الله ؟! أنا أصير عبدًا ؟!! إنني الرب الأعلى .. لا رب سواي ولا إله غيري .. لئن اتخذت لك إلهًا غيري لأسجننك ولأعذبنّك عذابًا أليمًا .

.... أيها الحراس .. أيها الحراس .. خذو هذا اللعين فعذّبوه عذابًا شديدًا ولا تتركوه حتى يدلنا على مكان الغلام .

..... ولم يزل الملك يعذّب هذا الذى كان جليسه حتى دل على مكان الغلام ، وعندها صرخ الملك : أيها الحرّاس ، إذهبوا ولا تعودوا إلا بالغلام .

وذهب الحراس إلى مكان الغلام ، وأحضروه إلى الملك ودار بينه وبين الغلام الحوار التالي :

الملك : أي بني ، قد بلغ من سحرك أنك تبرىء الأكمه والأبرص والأعمى ، وتفعل ما تفعل من المعجزات .

الغلام : إني لا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله .

الملك : خذوا هذا الغلام من أمامي ... خذوه أيها الحراس فعذبوه عذابًا شديدًا ولا تدعوه حتى يدل على مكان الراهب .

وأخذ الحراس يعذبون الغلام ، وكان الغلام كلما اشتد به التعذيب ، تذكّر وصية الراهب : " فإذا تعرضت للبلاء فلا تدل على مكاني " ؛ فيتحمل التعذيب الشديد ، ولا يتفوّه بكلمة واحدة .

ولكنه فى النهاية ، وتحت التعذيب الذى لا يتحمّله بشر دلّهم على مكان الراهب !

وهنا أخذ الملك يضحك بجنون وهو يصرخ : أنا رب هذا الكون ، أنا إله الناس الذى يملك رقابهم وأرواحهم .

وأخذ الغلام يردد : الله وحده هو رب الكون وملك الناس ، وأنت لا تملك لنفسك نفعًا ولا ضرًا ، ولا تملك لنفسك موتًا ولا حياة ولا نشورًا .. وإن كنت لا تملك ذلك لنفسك ، فكيف تملكه لغيرك ؟!

الملك : ها ها .. ها ها .. أنا الإله الوحيد ، لا إله غيري ، ولا حاكم سواي .

الغلام : لا إله إلا الله ، ولا حاكم سواه .

الملك : سوف أجعلك عبرة لمن يفكر فى الخروج عن عبادتي . سوف أقتلك وأقضي عليك .

الغلام : الله وحده هو الذى يملك رقاب العباد ، وهو الذي خلق الموت والحياة .

... وبينما يردد الغلام هذه الكلمات ، كان الحرّاس قد أحضروا الراهب ، فدار بينه وبين الملك الحوار :

الملك : إرجع عن دينك ، وإلا عذبتك عذابًا شديدًا .

الراهب : لا أرجع عن ديني ، وإن قتلت وحرقت .

الملك : إنك لا تدري ما ينتظرك من العذاب ؟!

الراهب : بل أرجو الله أن يرزقني الشهادة فى سبيله فأفوز فى الدنيا والآخرة .

الملك : سترى ماذا سأفعل بك .. أيها الحراس ... أيها الحراس .. أحضروا المنشار ، وضعوه عند مفرق رأسه .

... ونفّذ الحراس أمر الملك ، ووضعوا المنشار عند مفرق رأس الراهب .. وعندها بدأ الملك يساومه :

الملك : إرجع عن دينك ، وسأهب لك حياتك .

الراهب : الله وحده هو المحيّ المميت .

الملك : أيها الحراس .. شقوه نصفين .

... وينفذ الحرّاس أمر الملك ، ويشقون الراهب إلى نصفين حتى يقع شقاه !!

عبد الرحمن : إن أهل الباطل لا يملكون فى مواجهة الحق حجة ولا برهانًا .. لا يملكون إلا التعذيب والتقتيل .

سمية : سوف ينتقم الله من هذا الملك ، ومن كل الحكام الجاحدين الظالمين فى الآخرة .

الأب : بل وفى الدنيا أيضًا يا " سمية " ، وسينصر الله جنده ، جند الحق.

ولقد ذكّرني موقف الراهب هذا بحديث لرسول الله ﷺ – حين شكى إليه الصحابة ما يلاقونه من تعذيب على أيدي المشركين فى مكة ، وقالوا : يا رسول الله ألا تستنصر ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال ﷺ: " قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يبعده ذلك عن دينه . والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، فلا يخاف إلا الله

والذئب على غنمه ، ولكنكم قوم تستعجلون " (أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي) .

أحمد : وقد وقع ما أخبر به رسول الله ﷺ.

عبد الرحمن : ثم ماذا حدث بعد أن قتل الملك الراهب ؟

الأب : بعد أن قتل ذلك الملك هذا الراهب الطيب ، جاء بجليسه فقال له : إرجع عن دينك ، فأبى جليس الملك ، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه نصفين ، ووقع نصفاه .

... ثم جيء بالغلام ، فقال له الملك : إرجع عن دينك ، وعندما رفض الغلام أن يرجع عن دينه ، نادى الملك حرّاسه ، وقال لهم : خذوا هذا الغلام إلى جبل كذا وكذا ، فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته ، فإن رجع عن دينه وإلا ألقوه من فوق قمة الجبل .

.. وذهب الحراس بالغلام إلى قمة الجبل ، وهناك دار حوار بين الغلام وبينهم .

الحراس : فكّر جيدًا ، إن لم ترجع عن دينك سنلقي بك من هذه القمة الشاهقة .

الغلام : أيها الحراس ، أنتم أهلي وعشيرتي .. إني أدعوكم إلى التوبة والعودة إلى الله ، فإن مما جاءني من العلم أن العذاب على من كذّب وتولى ، وأن من حارب الله قصمه وانتقم منه ، ومن آذى جند الله أذله الله .

الحراس : الله .. ها ها .. ها ها .. لو جاء إلهك هنا لألقيناه معك من فوق قمة الجبل .. ها ها .. ها ها .

الغلام : أشهد أن لا إله إلا الله .. اللهم اكفنيهم بما شئت .

... وهنا ، رجف الجبل فسقط الحرّاس ، وعاد الغلام سالًما إلى الملك !!

الأب : ماذا نتعلم من هذا الموقف للغلام يا " عبد الرحمن " ؟

عبد الرحمن : نتعلم أن المؤمن لا يخاف إلا الله ، ولا يطلب العون إلا منه سبحانه .

أحمد : ولكنّ الغلام كان يستطيع الهرب بعد أن أنجاه الله ، فلماذا رجع إلى الملك ولم يهرب ؟

الأب : هذا سؤال طيّب يا " أحمد " . إن من يحمل الحق لا تكون الحياة هدفًا يحرص عليه إلا ليتم دعوة الحق التي يحملها ، وقد شعر الغلام أن دعوته إلى الله رب العالمين لم تصل بعد إلى قومه ، وذلك لأن الملك كان يحاول صد الناس عن هذه الدعوة من خلال تصوير الغلام على أنه يحاول الوصول إلى أن يكون هو الملك والحاكم ، وأنه لذلك يقتله دفاعًا عن نفسه وعن ملكه ..

عبد الرحمن : لو كان الغلام يطمع في الملك والحكم لهرب عند أول فرصة يجدها ، أليس كذلك يا أبي ؟

الأب : بلى يا " عبد الرحمن " .. فتح الله عليك .

سميّة : وماذا بعد أن عاد الغلام إلى الملك يا أبي ؟

الأب : سأله الملك عمّا حدث للحرّاس ، فأخبره الغلام أن الله قد كفاه شرهم.

... وهنا حاول الملك مساومة الغلام مرة أخرى ، وقال في لهجة هادئة : لماذا تريد أن تحرّض رعيتي على الخروج عن طاعتي والتمرد على أوامري ؟

فقال الغلام : ليس هذا ما أريده وأدعو الناس إليه ، إنما أدعوهم إلى عبادة الله وحده .. بل إن الله يأمرني بطاعة الحاكم الذى يطبق شريعة الله .

الملك : شريعة من ؟ .. شريعة الله .. أي إله ؟ .. وأية شريعة ؟ .. أنا المشرّع الوحيد ، ولا شريعة إلا ما أراه ، وشريعتي أنا هي الشريعة الوحيدة التى تصلح أحوال الناس ، وطريقتي أنا هي السبيل الوحيد للرشاد !!

الغلام : لا مشرّع إلا الله .. ولا شريعة إلا شريعة الله .. والله تعالى هو الأعلم بما يصلح خلقه ، وطريق الله هو الطريق الأوحد للرشد والخير .

الملك : إذن ، فأنت تريد أن تموت ..

الغلام : بل أريد أن أحيا حياة طويلة أبلّغ فيها دعوة الله ، وأطيعه وأعبده ليغفر لي خطاياي ، وما أكرهتني عليه من السحر .

الملك : سأقتلك كما قتلت جليسي والراهب .

الغلام : إفعل ما تريد ، فلست أخشى الموت في سبيل ديني .. ولقد سبقني جليسك والراهب شهداء ، ويعلم الله أنني في غاية الشوق أن ألحق بهم.

أحمد : ياله من غلام مؤمن شجاع .

الأب : هل يذكّرك هذا الموقف بحديث لرسول الله يا " أحمد " ؟

أحمد : لا أذكر يا أبي ؟!

عبد الرحمن : أنا أذكر يا أبي . قال رسول الله ﷺ: "سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام ظالم ، فأمره ونهاه فقتله " (أخرجه الحاكم في المستدرك ١٩٥/ ٣) .

الأب : فتح الله عليك يا " عبد الرحمن " إني فخور بك .

وأنت يا " أحمد " هل تستطيع أن تضع عنوانًا لكلام الغلام مع الملك ، وموقفه الشجاع ؟

أحمد : يمكن أن يكون العنوان " الدين أغلى من الحياة " .

الأب : بارك الله فيك يا " أحمد " .

سمية : إنني في شوق أن أعرف ماذا حدث بعد هذا الكلام بين الغلام والملك؟

الأب : بعد كلام الغلام مع الملك ، نادى الملك حرّاسه ، وأمرهم أن يأخذوا الغلام في سفينة صغيرة فيتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا قذفوه فيه .

... وذهب الحرّاس لتنفيذ أمر الملك ، وحين أصبحوا في عرض البحر ، عرض عليهم الغلام التوبة ، والرجوع إلى عبادة الله وحده ، فسخروا منه واستهزأوا من كلماته .. فدعا الغلام ربه : اللهم أكفنيهم بما شئت .

واستجاب الله دعاءه ، فانكفأت السفينة ، وغرق الحرّاس ، وأنجاه الله تعالى ، فرجع يمشي إلى الملك ، وهو يحمد الله أن أنجاه من القوم الظالمين .

عبد الرحمن : سبحان الله .. سبحان الله .. لقد أنجاه الله مرة أخرى ، ولم يقدر الملك وحرّاسه على قتله !!!

الأب : نعم يا " عبد الرحمن " ، سبحان الله الذى لا نفع ولا ضر إلا بما كتبه وقدّره ، ولقد ذكّرني هذا الموقف بحديث رسول الله ﷺ لسيدنا عبد الله بن عباس وهو لا يزال غلامًا ، والذى قال فيه : " يا غلام إنيّ أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف " (أخرجه الترمذي ٢٥١٦ ، وأحمد ٢٦٦٩).

أحمد : إني فى شوق لمعرفة ماذا كان من الملك حين رأى الغلام راجعًا إليه سالمًا لم يصبه سوء !!

الأب : لقد سأله الملك : ماذا فعل الحراس ؟

فقال الغلام : لقد كفانيهم الله ..

ثم قال : أيها الملك إنك لن تستطيع قتلي حتى تجمع الناس فى صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم تأخذ سهمًا من كنانتي ، ثم تضع السهم فى كبد القوس وتقول باسم الله رب الغلام ، ثم ترمني فإذا فعلت ذلك ، فإنك قاتلي .

سمية : سبحان الله .. الغلام يدل الملك على الطريقة التى تمكنه من قتله ، يا له من أمر عجيب !!!!

الأب : ليس فى الأمر ما يدعو إلى كل هذا العجب يا " سمية " .

لقد قلنا قبل ذلك أن من يحمل الحق لا يحرص على الحياة إلا من خلال كونها وسيلته ليبلغ الحق الذى يحمله ، وقد رأى الغلام أن موته فى سبيل الله سيجعل الناس يؤمنون بالله . فقد كان الناس يحبّون الغلام ، ويعرفون أنه يحب الخير لهم ، ويسعى دائمًا لما ينفعهم ، ولا شك أنهم حين يرونه يموت من أجل أن يؤمنوا بالله ، سيعلمون أن هذا الإيمان هو الخير لهم .

أحمد : وهل فعل الملك ما طلبه الغلام ؟

الأب : نعم يا " أحمد " .. لقد جمع الناس فى مكان واسع منبسط ، فأخذ بعضهم يقول لبعض : لقد فشل الملك فى قتل الغلام .. هل تصدقون أن الغلام هو الذى طلب هذا الإجتماع .. بل وهو الذى دلّ الملك على الطريقة التى تمكّنه من قتله .. عجيب أمر هذا الغلام .. ما الذي يدفعه إلى التضحية بحياته على هذه الصورة؟!!

... وجاء الملك، فأخذ السهم من كنانة الغلام ، ووضع السهم فى مقبض القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم فى صدغ الغلام فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم ، فمات ..

وهنا .. قال الناس : آمنا برب الغلام !!!

فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر .. قد نزل بك حذرك ، لقد آمن الناس .

.... وعند هذه النقطة ، جاء الخال الطيب " محمد " خال " أحمد " و" سمية " و" عبد الرحمن " زائرا ..

فقالت له " سمية " : لماذا لم تأت قبل ذلك ، لقد كان أبي يحكي لنا قصة أصحاب الأخدود ..

الخال : نعم ، لقد كنت فى شوق إلى سماعها فعلًا ..

الأب : كيف حالك يا " أبا مالك "

أبو مالك : الحمد لله .. أتمم ما كنت تحكي فإن لي استفسار بعد أن تنتهي.

الأب : لقد كنا نقول أن الناس حين مات الغلام آمنوا ، فوقع بالملك ما كان يحذره .

عبد الرحمن : يا له من ملك غبي .. لو كان له قلب أو عقل لأدرك أن إيمان الناس فى هذا الموقف أمر لازم .

الأب : وهكذا كل الطغاة الجاحدين ، يظنون أنهم إذا قتلوا من يدعو الناس إلى الحق ، فإن ذلك سيقضي على دعوتهم .. وهم واهمون بالقطع لأن موت الداعي إلى الحق يكون فى كثير من الأحوال هو حياة دائمة لهذه العقيدة فى نفوس الناس وقلوبهم ..

أحمد : وهل ترك الملك الناس يؤمنون ؟ أم ماذا فعل بهم ؟

الأب : يتركهم يؤمنون ! كيف ذلك ؟ .. إن هذه ليست طريقة الطغاة ، لقد أخذ الملك يصيح ويصرخ : أيها الحرّاس .. أيها الحرّاس .. إقبضوا عليهم جميعًا .. لا تدعوا أحدًا يفلت منهم .. أحفروا لهم الأخاديد الكثيرة ثم أشعلوا فيها النيران ، ومن لم يرجع عن دينه فألقوه فيها .

.... وبدأت أفواج المؤمنين تلقى في النار فوجًا بعد فوج ، وكان بين المؤمنين امرأة ومعها صبيّ لها فخافت عليه أن يقع في النيران ، فقال لها الغلام : يا أمه . إصبري فإنك على الحق .

الأب : وهذه هي نهاية قصة أصحاب الأخدود .. أو قصة الغلام المؤمن والملك الجاحد .

عبد الرحمن : لقد علمتنا يا أبي أن الحق لا بد أن ينتصر ، فكيف يكون ما حدث للراهب وجليس الملك والغلام وكل الناس ، كيف يكون ذلك انتصارًا ؟!!

الأب : هل تستطيع يا " أحمد " أن تجيب عن سؤال أخيك ؟

أحمد : نعم يا أبي .. لقد فاز هؤلاء جميعًا بالشهادة في سبيل الله ، وقد أعد الله للشهداء أجرًا عظيمًا في الآخرة .

الأب : بارك الله فيك يا بنيّ .. والشهداء ليسوا أمواتًا بل هم أحياء عند ربهم، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ وَأَنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٩: ١٧٠].

الأب : و الآن جاء دوري في الأسئلة يا أبنائي الأحياء ..

ما هو الدرس الذى تعلمناه من هذه القصة ؟

أحمد : تعلمت أن الدين أغلى من الحياة .

عبد الرحمن : وأنا تعلمت ألا أخاف إلا الله ، ولا أطلب العون إلا منه سبحانه .

سمية : تعلمت أن أحب الخير للناس ، وأحاول مساعدتهم كما كان الغلام يفعل .

الأب : بارك الله فيكم جميعًا .

أبو مالك : هل تذكرون ملكًا حاول صد الناس عن الإيمان عن طريق السحر؟

سمية : نعم .. إنه فرعون الذى أرسل الله إليه رسوله موسى عليه السلام ، فكذّب برسالته ، وقال عن آيات الله أنها سحر ، وأحضر سحرته فسحروا أعين الناس وأخافوهم .. ولكن الله نصر رسوله موسى ، وتحولت عصاه إلى حية أكلت كل ما أتوا به من السحر فى صورة ثعابين .

الأب : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فتح الله عليك يا " سمية " .. والله إني لفخور بك وبفهمك .[1]

" سميه " .. و " أحمد " .. و " عبد الرحمن " : جزاك الله خيرًا يا أبي ..

أبو مالك : والآن جاء دوري فى الاستفسار ؟

الأب : سل ما بدا لك يا " أبا مالك "

أبو مالك :إنني كلما قرأت هذه القصة أو سمعتها ، دار فى نفسي تساؤل ، أكان الغلام مضطرًا لبذل كل هذه الدماء لنشر دعوته ، وإيمان الناس بها ؟

الأب : نعم كان مضطرًا لذلك .. لقد كان القوم أهل كفر.. يعبدون غير الله.. ملكًا جبارًا.. أغرقهم فى مشاغلهم اليومية ، فلم يعد لديهم وقت يفكرون فيه هل ما يعرض عليهم من أفكار صحيح أم خطأ ؟

(١) راجع إن شئت : الغلام المؤمن – محمد محمد بدري – دار الصحابة .. و قصة أصحاب الأخدود مذكورة فى سورة البروج ، وواردة فى صحيح مسلم ١٣٠/ ١٨

بل لم يعد لديهم وقت ولا اهتمام بغير ما تلمسه أيديهم مما يصلح للإدخار والامتلاك..

ومثل هذا النوع من البشر لا يستمع إلا إلى صوت القوة .. أو صوت التضحية !!

لقد كان أمام الغلام عشرات الخيارات الأخرى الأقل تكلفة.. لكنه اختار أشدّها وقعًا في النفوس !!.. اختار ما تهابه النفوس غالبًا ولا تقوى على بذله !!.. لأنه لم يكن يبحث عن الخلاص لنفسه وحسب.. بل كان يعيش لقومه وأمته..

لقد كان يفكّر فيما يجعلهم يهتزّون بقوة.. لهذا فقد كان يعود بعد كل محاولة لقتله، ليطلب الموت والشهادة بالكيفية التي يمكنه من خلالها أن يهب الحياة لقومه الذين اجتمعوا ليشهدوا فناءه !!!

الخال: ما أذكاك يا غلام.. وما أتعسنا..

ما أذكاك حين أدركتَ أن الناس لن تؤمن بأفكارنا ما لم تر بعينها من أحوالنا ما يدلّ على علوّ شأنها عندنا أولًا..

الأب: إليك إذن.. أقول.. أيها الأخ الكريم.. " أبو مالك "

لا تمنح الحقيقة التي بحوزتك في شكلها المجرّد..

اجعل من تمنحه إياها يدرك أنك تمنحه معها بعضًا من راحتك وجهدك وطاقتك.. وأنك سهرت البارحة إلى ساعة متأخرة من الليل لأجله هو.. فقط.. وأنك أخّرت بعض مشاغلك لأجله هو.. فقط.. وأنك مستعدّ لتكرار ذلك مرة ومرتين وألفًا.. من أجله هو.. فقط..

لابدّ أن يشعر بالحرارة فيها وهو يستلمها منك .. لا بدّ أن يشعر بها نديّـة.. رطبة.. بعَرَق ساعديْك .. ليعلم أنك تعبت وأنت تنتزع له نسخة من أعماق ما تحمله وتؤمن به..

نعم .. إن أفكارنا.. ستبقى تُرمى في وجوهنا حيثما اتجهنا بها.. ما دام أننا لا زلنا نعرضها كما تعرضها الكتب.. حروف وكلمات.. لا عرق فيها.. ولا دماء!!..

أيها الحائر.. إني أراك تقلّب وجهك في السماء.. تتساءل لمَ لا تُصيب الرمي.. وهذه نصيحتي.. لستَ تنقصك الكلمات.. بقدر ما ينقصك روح الكلمات.. والروح حينما لا تجد الماء والدماء.. فإنها تكبر عن الطوق.. ويسرقها الشوق.. تاركة خلفها كيانًا خاويًا.. وترحل..

أبو مالك : اللهم استعملنا في سبيلك .. حياة أو موتًا .

الأب : دينك يحتاجك حيًا..

فإن جاءتك فرصة الحياة في سبيل الله.. فتشبث بها.. واجعلها قرينتك في الحياة..

وإلاّ.. فامض إلى ربك.. الذي تجد شوق لقائه في قلبك.. فإمّا أن تطلب الموت.. فتدركه.. وأنت تريد.. وإما أن تغفل عنه.. فيدركك.. وأنت حينها لا تريد..

فارحل.. واعلم أن دماءك قد توقظ أمة من الناس.. بعدك.. كما لن توقظهم ألف كلمة.. من كلماتك الكثيرة..

❋❋❋

الباب السادس

دَرِّبْــه

T= train him

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : المسؤولية تطوّر الشخصية

الفصل الثاني : المران يصنع الإتقان

الفصل الثالث : الاتكالية بحر الحرمان

الفصـــل الأول
المسئولية تُطوِّر الشخصية

الحياة بحر خضم، يندفع الأفراد بين أمواجه العاتية، تثور عليهم تارة، وتصفو لهم تارة أخرى. فمن الناس من يقوى أمام تيارها الصاخب مستعينا بالله، ثم بالإرادة القوية والعزيمة الصادقة.. ومنهم من يضعف ويتخاذل فينهار أمام ضغط الحياة المتواصل فيهبط إلى القاع.. قاع الحياة المليء بأمثاله من ضعاف الارادة، ومحطمي العزيمة ، وقليلي الإيمان !!

فإن أردت أن يكون ابنك مواجهًا لواقع تلك الحياة ، قادرًا على هزيمة التيارات الغامضة فى أعماقها ، لا ينحني أمام هزاتها .. فأنت فى أمس الحاجة لتدريبه على تحمل المسؤولية .. هذا التحمل الذي يطوّر شخصيته ، فلا يكون مهددًا بالفشل، بل يصبح محطمًا لكل الصعاب ..

• إعطاء الحرّية يبني المسؤولية :

يشكو الأب : هذا الولد ! إنه لا يريد أن يطيع أمري ! يريد أن يدعي أنه رجل [عايز يعمل راجل] !

والأم تقول : هذه البنت ! إنها لا تريد أن تطيع أمري ! تريد أن تجعل نفسها فتاة كبيرة !

والولد والبنت يقولان : إن أهلنا مازالوا يعاملوننا على أننا أطفال . لقد كبرنا .. ولم نعد أطفالًا !

ويدور الوالدان وأولادهما فى حلقة مفرغة على هذه الصورة ..

ولكسر هذه الحلقة لا بد لنا إذا شعرنا بأن أبناءنا قد كبروا وخرجوا عن مرحلة الطفولة ، أن نسارع بفرح إلى إعلان هذا الأمر " إن ابننا – فلانًا – لم يعد طفلًا ! إنه أصبح رجلًا !

كم يثلج هذا الإعلان صدر الابن ! كم يغذي إحساسه بذاته ...

ومن بعد إعلاننا بفرح عن كبر الابن ، لا بد أن يتغير سلوكنا معه ، فبدلًا من أن يشتري له أبوه دون مشورة منه ولا إشراك له فى الأمر ، ينبغي أن يأخذ رأيه : ما رأيك فى هذا الحذاء ؟ ما رأيك فى هذا القماش ؟ ما رأيك فى هذا اللون ...

أو بدلًا من ذلك – إن كنا قد دربناه تدريبًا مناسبًا من قبل – نعطيه النقود ونترك له حرية شراء أشيائه ، مع التوجيه اللازم والنصائح اللازمة بطبيعة الحال ...

كما يمكن أن نشرك الأبناء فى شؤون الأسرة : ما رأيك فى المشكلة الفلانية؟...

ويمكن أيضًا أن نرسله بين الحين والحين نائبًا عن أبيه فى قضاء بعض الأمور..

... إننا بهذه الطريقة نكسب كسبين عظيمين فى آن واحد .. الأول هو حل عقدة نفسية للطفل وهى شعوره أننا لا نريد أن نعترف أنه كبر .. والثاني أننا ندربه تدريبًا عمليًا على خبرات الحياة ومقتضياتها ، وهذا بلا شك يعمل على تنمية شخصية الابن بإتاحة الفرصة له للتعامل الفعلي مع المجتمع ... (١)

وهكذا " من خلال تفويضنا لأبنائنا فى إنجاز العمل بأنفسهم ، ننقل المسؤولية إليهم ، وندربهم عليها ، ونعمد إلى تركيز طاقتهم نحو هذه الأعمال والنشاطات ، فالتفويض يعني النماء والتطور ، و ذلك ينمي شخصياتهم ، ويطور كفاياتهم .

---

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج٢ – ص ٢٠٥.

فالأب الذى يفوض ابنه فى شراء بعض الحاجيات للمنزل ، أو الأم التى تفوض ابنتها فى الإشراف على أخواتها ، فإن هؤلاء سيصبحون مع مرور الوقت لديهم القدرة على الاعتماد على أنفسهم ، والقيام بواجباتهم بكفاءة وفاعلية .

والذى يهمنا أن يكون التفويض متحررًا ، لا تفويضًا متسلطًا يقيد حركة الطفل ، ولا يعطيه الفرصة للنمو والإنتاجية .

والمربي الذى يقول لابنه : افعل هذا ، ولا تفعل ذلك ، اذهب هنا ، ويحدد له ما يقوم به من أعمال بدقة ، فهذا لا يعرف كيف يقيم تفويضًا كاملًا ، حيث إنه يركز على الوسائل والأساليب المتبعة فى التفويض ، فيصبح مسؤولًا عن النتائج ، ولا يعرف كيف يعد ابنه لتحقيق النتائج المرجوة .

... إن التفويض الصحيح هو الذى يقوم على إعطاء الإرادة الحرة للأبناء ، ويحملهم المسؤولية ، ويركز على النتائج أكثر من تركيزه على الوسائل ، ويعطي حرية اختيار الطريقة أو الوسيلة التى يريدونها ، ويجعلهم مسؤولين عن النتائج .. فيتعلمون من أخطائهم ، ويتدربون على إدارة العمل بثقة وقدرة "[(١)]

" فإذا كان هناك محل بقالة لا يبعد عن المنزل إلا خطوات فلا مانع من أن ترسل الأم الطفل ذا الخمسة أعوام ليشتري شيئًا من هذا المحل وأن يحاسب البائع ، بشرط أن يكون الطفل تحت رقابة الأم خوفًا من السيارات المسرعة . ويمكن للابن فى عمر السادسة أن يحمل حقيبة المشتريات أثناء ذهاب الأم أو الأب للتسوق . ويمكن للابن ، أن يفتح الباب ، باب المنزل إذا ما دق الجرس وكان الأب أو الأم مشغولًا فى عمل ما فسمحا له بذلك ...

إن إسناد بعض الأعمال للصغار ، يجعل هؤلاء الصغار يتعلمون من الكبار ويجعل طاقاتهم الكبيرة تلتقط ألوان السلوك الذى ينتهجه الكبار ... إن إسناد بعض

---

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا – أكرم مصباح عثمان – ص ١٢٧ – ١٢٩ بتصرف يسير .

من الأعمال الصغيرة إلى الأطفال يفجر فى أعماق الأطفال الفخر بأنفسهم ، ويجعلهم يكتسبون لغة الكبار فى التعبير عن أنفسهم "(١).

نعم قد يقع الطفل فى بعض الأخطاء ، ولكن هذا هو الطريق الصحيح لتعلمه ولنجاحه .. ذلك النجاح الذى سيولد النجاح الذى يليه ، لأنه يبني فى الإنسان ثقته بنفسه وبمقدرته ، وقد صدق المثل القائل بأنه " لا شيء يولد النجاح خير من النجاح نفسه " ..

فإذا نجح الابن فيما يحاول القيام به من عمل ، فقم – أيها الأب – بالتعليق الذى يدل على استحسانك ما طرأ من تحسن ولو بسيط على سلوكه ، فهو يجب أن يرى أنك تقدر مجهوده ومحاولته .

وإذا جاءت محاولته بنتائج غير طيبة أو سببت له بعض المشاكل ، فعبر عن حزنك وليس غضبك لأجل ذلك .. فهذا السلوك منك يجعل الصراع بين الطفل وبين نفسه ، وليس بينه وبينك .. كما أنه يوجه طاقته العقلية إلى حل المشكلة وليس لمواجهة غضبك !!!

و لا تحاول – أخي المربي – " زرع الحكمة فى ابنك ، أو أن تحرمه من الشعور بعواقب أفعاله ، بل لا بد أن يجرّب الطفل كيف تسير الدنيا قبل أن يحصل على حكمته الخاصة ..

لا تحرم ابنك من الخبرات ،ولو سببت له بعض الألم ، فهو بحاجة للشعور بالحياة لكى يتعلم منها . "(٢)

ولسنا فى حاجة للتأكيد هنا على أنه لا يمكننا أن نترك أبناءنا يقعون فى الأخطاء الكثيرة التى – ربما – تدفع بهم إلى الشعور بالخوف الدائم من الفشل ،

---

(١) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د. سبوك – ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) حاول أن تروضني – راى ليفي – ص ٧٨ .

والجبن عن أية محاولة لمواجهة مشكلاتهم الحياتية ..

ولكن هذا لا يعنى فى المقابل الإسراع إلى تقديم المساعدة لهم بمجرد ظهور بعض الصعوبات أمامهم ، فإن أحد ألذ التجارب التى يمر بها الابن أن يجد نفسه قادرًا على أن يقول لوالديه : " أنظرا لقد فعلت ... بنفسي !! " ..

إننا غالبًا ما نفشل فى إعطاء الاختيارات لأننا نظن أن طريقتنا هى أفضل طريقة . إننا نقع تحت ضغط النتائج السريعة لسيطرتنا على أبنائنا .. إلا أن الحقيقة أن كل اختيار بسيط نمنحه للابن يمكن أن يطفىء نار تمرده ..

والنصيحة التربوية هنا :

لا تملِ على أبنائك ما تريده وتتوقعه ، ولو كان علاج أخطائهم يستلزم بعض الوقت ، فاعلم أن قليلًا من الوقت الآن يقيك صراعًا قويًا بعد ذلك .. كثير من الاختيارات تساوى قليل من الصراعات ...(١)

خذ أمثلة توضح ما نريد :

" تريد الأم أن تطلب من ابنها البالغ من العمر عشر سنوات أن يستحم، فلا تأمره قائلة : إذهب إلى الحمام لتستحم .

وإنما تضع أمامه اختيار أحد هذين الأمرين قائلة :

- عليك أن تختار ، هل تريد أن تستحم قبل العشاء أم بعده ؟

فإذا قال : أريد أن أستحم بعد العشاء .

عندئذ عليه الالتزام بتنفيذ هذا الوعد ، فالأم يجب أن تربي فى ابنها الإحساس بأهمية الالتزام بوعوده حاضرًا ومستقبلًا .

... وعندما تطلب منه تنظيف المكان معها تقول له :

هل تريد أن ترتب معي المكان ، فتضع الأشياء فى أماكنها ، أم تريد أن تمسح

(١) المصدر السابق – ص ٨٩ – ٩١ .

الطاولات ؟ اختر أنت ماذا تريد ؟

إن منح الطفل حرية اختيار العمل الذى يريد القيام به ، يجعله راغبًا فى تطبيق ما اختاره ، لأنه لا يشعر أنه مرغم على أدائه من قبل شخص أقوى منه ، ومن ثم فهو يتعود تحمل المسؤولية " [١] وهذا التعود لتحمّل المسؤولية ـ وبخاصة إذا نجح الابن فيه ـ يدفعه إلى مزيد من الجهد ، والثقة بالنفس ، والاعتماد عليها .

إن الحرّية شرط مهم من شروط الإبداع ، وكثرة القيود التى نضعها على أبنائنا تجعلهم متوجسين من كل فعل وكل كلمة .. ومن هنا فإن من صفات التربية الجيدة عدم المبالغة فى الضوابط التى تحكم حركة أبنائنا إلى حد التنفير .. واليقين بأن حرّية الإختيار تنمي القدرة على اتخاذ القرار ..

فمثلًا إذا أردنا أن نكلف الابن بالمذاكرة خيّرناه بين مذاكرة بعد العودة من المدرسة .. أو بعد العشاء .. أو تركناه يصنع لنفسه جدولًا للمذاكرة يتناسب مع ميوله هو ..

إن الابن فى صغره يكون خاليًا " من المسؤوليات صغيرها وكبيرها ، فيتدرج فى تحملها شيئًا فشيئًا بدءًا بتحمل أعباء خلع الملابس وارتدائها ، إلى قضاء الحاجة ، إلى التحكم فى العواطف والانفعالات ، إلى أن يؤهل لتحمل المسؤولية الكبرى والأمانة العظمى التى كلف بها البشر كما قال تعالى : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، إنه كان ظلومًا جهولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] .." [٢] .

"و الأب المسلم الواعي يحاول قدر المستطاع أن يعطي الفرصة لولده ليبرز قدراته لحل مشكلاته الصغيرة فى عالم الطفولة ، فلا ينبري دونه لحل كل ما يواجهه

(١) سياسات تربوية خاطئة – محمد دياس – ص ٧٦ – ٧٨ بتصرف .

(٢) مسؤولية الأب المسلم فى تربية الولد فى مرحلة الطفولة – ص ١٦٥ .

من المشكلات المختلفة ، فإن شخصية الولد الصغير تنمو بشكل أفضل من خلال مواجهة الولد للصعوبات المختلفة وتغلبه عليها ، فيكون ذلك دافعًا له إلى مزيد من الجهد والعطاء .... ويمكن للأب أن يدرب ابنه بعد سن التمييز على تحمل المسؤولية من خلال تكليفه إدارة ما يملك من النقود ، كأن يتولى شراء بعض الحلوى مثلًا من دكان قريب من المنزل ، فيتعلم حسن إدارة ما يملك ، فيتأهل لواقع الحياة الإقتصادى ، إلى جانب أنه يحس بنشوة عظيمة حيث تولى هو بنفسه شراء ما يريد ، فترتفع معنوياته وتزيد ثقته بنفسه"[١] .

إنه لشيء جميل ، ونافع أن تحمّل الأم أبناءها مسؤولية المحافظة على ثيابهم نظيفة قدر الامكان ، والمحافظة على نظافة غرفهم الخاصة وأسرتهم ، بالإضافة إلى المحافظة على كتبهم ودفاترهم وأدواتهم المدرسية . وقد يحمّل الفتى مسؤولية شراء بعض الأشياء من البقالة المجاورة ، كالخبز مثلًا . فإذا كبر كلف ـ مثلًا ـ برعاية أخيه الأصغر منه ، وتولى بعض الخدمات أثناء الرحلات .. أو يرسل بين الحين والحين نائبًا عن أبيه فى قضاء أمر من الأمور .. يقابل أحد معارفه أو يبلغه رسالة منه أو يقضي عملًا فى السوق ..

أو إن كان الأب " فى انتظار شخص ما ، أو قريب ما ، أوكل إلى الأبناء استقباله... وبهذ الأسلوب يدرّبه على مخالطة الناس ، فتتكون لديه القدرة على التفاهم والجرأة ، فلا يهاب الغريب ، ولا يخجل من الضيف ..

كما يوليه أمر خدمة الضيف من تقديم المرطبات والماء ، أو الأكل ، أو مساعدته للوصول إلى دورة المياه ، وغير ذلك من الخدمات .. "[٢]

كما " يمكننا أن نشجع الفتى على اكتساب مهارات اجتماعية عن طريق غير مباشر ، كأن نشير عليه : إن أختك تريد مساعدتك فى ترتيب غرفتها فهي لا تعرف

---

(١) المصدر السابق – ص ١٦٦ .

(٢) المصدر السابق – ص ٢٣٨ – ٢٤٠ بتصرف .

أن ترتبها جيدًا ، أو إن زميلك " راشد " تم تكليفه بإحضار بعض الحاجات للفصل، وهو لا يستغنى عن مساعدتك إياه ..

من هنا نستطيع أن نحرك فيه روح المبادرة وتحمل المسؤولية دون إعطائه الأوامر المباشرة ، فيشعر بالسعادة والبهجة من هذه المشاركة الجيدة ، والتى من شأنها أن تصقل مواهبه وتنمي لديه المهارسات الإجتماعية الفعالة ، وروح التضحية، والإيثار لعون الآخرين ومساعدتهم . " (١)

و مثلما نقوم بتدريب الفتى على تحمل المسؤولية ، كذلك نقوم بتدريب الفتاة .. بتكليفها ببعض أمور البيت الخفيفة التى تكسبها التعود على إدارة شؤونه فى المستقبل ، كإعداد المائدة مثلًا ، أو إعداد الطعام الذى يمكن أن تستقل بإعداده بحسب السن الذى هي فيه .. ثم إشراكها تدريجيًا فى المسؤولية لا فى العمل وحده . كأن تشارك — ولو بالرأي — فى عمل الميزانية ، أو فى اختيار ملابس لإخوتها الصغار...

وكذلك نشجعها على الدخول عند الضيفات والجلوس معهن بعض الوقت وتبادل الحديث معهن ..

إن " إدارة البيت فن يحتاج إلى التدريب عليه ، ولا يتم بين يوم وليلة . فهو ليس مجرد طبخات تطبخها حتى تجيدها ، ولا مجرد تنظيف المنزل وترتيبه . إنما هو قبل كل شىء مسؤولية . وفرق كبير بين فتاة دربت على القيام بهذه المسؤولية وفتاة لم تدرب عليها ، وإن أجادت الطهي والتنظيف والترتيب . إنما الشعور بالمسؤولية هو الحافز الذى يحفز على متابعة شؤون البيت ، ووضع كل شىء فى مكانه ، وإعداد العدة لما يحتاج إلى إعداد، وملاحظة ما يتلف أو يضطرب نظامه ، ومنع أكبر قدر ممكن من الفساد والتلف والاضطراب ، وتهيئة أكبر قدر من التنظيم وحسن سير الأمور .. وهذا أمر مختلف عن إتقان الطهي أو القدرة على التنظيف والترتيب ، وإن كانت كلها مطلوبة

---

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا — أكرم مصباح عثمان — ص ١٦٢ .

ولا شك .ولكنها – وحدها – لا تكوّن ربة البيت ، إن لم يكن معها هذا الشعور بالمسؤولية الذى خصها بها النبي ﷺ بقوله : " والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها "أخرجه البخاري ومسلم..."[١] .

فإذا " كلف الأب ابنه بالإنفاق أو المهمات المالية ، بحيث يشترى الأشياء ويختارها ، ويفاوض فى شأنها ، أو يبيع الأشياء ، ويتصرف فيها ، وشجعه على مثل هذه الأنشطه المهمة والأساسية فى الأسرة ، فإنه يكون فكرة جيدة عن نفسه ، من حيث الأمانة والثقة والصدق والإخلاص والإقدام والموازنة والتحري .....

وهكذا هى الأم إذا وجهت البنت ووثقت بها لتقوم بأعمال المطبخ والطهي والترتيب واختيار الطعام ، والطبق المناسب ، وأوحت لها بقدرتها على ذلك وتمكنها منه ، فإنها تكون فكرة عن نفسها فى باب المبادرة والتعاون والمسؤولية فضلًا عن المران البدني والعضلي ... "[٢].

وهكذا من خلال التدريب ، و من خلال حرية الحركة نعطي الابن الفرصة لاتخاذ القرارات المناسبة التى يقترحها أو يتعرض لها ، مع الاحتفاظ بقدرته على تعديل مواقفه ، أو البحث عن بديل مناسب لها ، فيستفيد من تجاربه ، ويصبح قادرًا على التغلب على مشاكله ، ونحن كمربين نعمل على مساعدته بصورة غير مباشرة فى المواقف الصعبة التى تدعو إلى التدخل والمعالجة ، والتدخل المباشر يعتبر اعتداء عليه وعلى خصوصيته ، وقد يحرمه الفرصة السانحة لتجريب نفسه والاستفادة من الخبرات الماثلة أمامه .

وكذلك تنمي لديه روح المغامرة والمخاطرة ، فيعطي المجال لاكتشاف الجديد فى حياته.

---

(١) راجع إن شئت " منهج التربية الإسلامية " محمد قطب ج ٢.

(٢) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

أن ترتبها جيدًا ، أو إن زميلك " راشد " تم تكليفه بإحضار بعض الحاجات للفصل، وهو لا يستغنى عن مساعدتك إياه ..

من هنا نستطيع أن نحرك فيه روح المبادرة وتحمل المسؤولية دون إعطائه الأوامر المباشرة ، فيشعر بالسعادة والبهجة من هذه المشاركة الجيدة ، والتى من شأنها أن تصقل مواهبه وتنمي لديه الممارسات الإجتماعية الفعالة ، وروح التضحية، والإيثار لعون الآخرين ومساعدتهم . " (١)

و مثلما نقوم بتدريب الفتى على تحمل المسؤولية ، كذلك نقوم بتدريب الفتاة .. بتكليفها ببعض أمور البيت الخفيفة التى تكسبها التعود على إدارة شؤونه فى المستقبل ، كإعداد المائدة مثلًا ، أو إعداد الطعام الذى يمكن أن تستقل بإعداده بحسب السن الذى هي فيه .. ثم إشراكها تدريجيًا فى المسؤولية لا فى العمل وحده . كأن تشارك — ولو بالرأي — فى عمل الميزانية ، أو فى اختيار ملابس لإخوتها الصغار...

وكذلك نشجعها على الدخول عند الضيفات والجلوس معهن بعض الوقت وتبادل الحديث معهن ..

إن " إدارة البيت فن يحتاج إلى التدريب عليه ، ولا يتم بين يوم وليلة . فهو ليس مجرد طبخات تطبخها حتى تجيدها ، ولا مجرد تنظيف المنزل وترتيبه . إنما هو قبل كل شيء مسؤولية . وفرق كبير بين فتاة دربت على القيام بهذه المسؤولية وفتاة لم تدرب عليها ، وإن أجادت الطهي والتنظيف والترتيب . إنما الشعور بالمسؤولية هو الحافز الذى يحفز على متابعة شؤون البيت ، ووضع كل شيء فى مكانه ، وإعداد العدة لما يحتاج إلى إعداد، وملاحظة ما يتلف أو يضطرب نظامه ، ومنع أكبر قدر ممكن من الفساد والتلف والاضطراب ، وتهيئة أكبر قدر من التنظيم وحسن سير الأمور .. وهذا أمر مختلف عن إتقان الطهي أو القدرة على التنظيف والترتيب ، وإن كانت كلها مطلوبة

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا — أكرم مصباح عثمان — ص ١٦٢ .

ولا شك .ولكنها – وحدها – لا تكوّن ربة البيت ، إن لم يكن معها هذا الشعور بالمسؤولية الذى خصها بها النبي ﷺ بقوله : " والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها "أخرجه البخاري ومسلم..."(١) .

فإذا " كلف الأب ابنه بالإنفاق أو المهمات المالية ، بحيث يشترى الأشياء ويختارها ، ويفاوض فى شأنها ، أو يبيع الأشياء ، ويتصرف فيها ، وشجعه على مثل هذه الأنشطه المهمة والأساسية فى الأسرة ، فإنه يكون فكرة جيدة عن نفسه ، من حيث الأمانة والثقة والصدق والإخلاص والإقدام والموازنة والتحري .....

وهكذا هى الأم إذا وجهت البنت ووثقت بها لتقوم بأعمال المطبخ والطهي والترتيب واختيار الطعام ، والطبق المناسب ، وأوحت لها بقدرتها على ذلك وتمكنها منه ، فإنها تكون فكرة عن نفسها فى باب المبادرة والتعاون والمسؤولية فضلًا عن المران البدني والعضلي ... "(٢).

وهكذا من خلال التدريب ، و من خلال حرية الحركة نعطي الابن الفرصة لاتخاذ القرارات المناسبة التى يقترحها أو يتعرض لها ، مع الاحتفاظ بقدرته على تعديل مواقفه ، أو البحث عن بديل مناسب لها ، فيستفيد من تجاربه ، ويصبح قادرًا على التغلب على مشاكله ، ونحن كمربين نعمل على مساعدته بصورة غير مباشرة فى المواقف الصعبة التى تدعو إلى التدخل والمعالجة ، والتدخل المباشر يعتبر اعتداء عليه وعلى خصوصيته ، وقد يحرمه الفرصة السانحة لتجريب نفسه والاستفادة من الخبرات الماثلة أمامه .

وكذلك تنمي لديه روح المغامرة والمخاطرة ، فيعطي المجال لاكتشاف الجديد فى حياته.

(١) راجع إن شئت " منهج التربية الإسلامية " محمد قطب ج ٢.

(٢) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

إن الكثيرين من الآباء يتعاملون مع أبنائهم وكأن هؤلاء الأبناء بلا كيان، ويفخرون بأن أبناءهم لا يعصون لهم أمرًا ، ولا يفعلون شيئًا دون رأيهم .. ويحسبون أنهم بذلك أدركوا معهم غاية التربية !! وهم فى الحقيقة لم يفعلوا أكثر من وأد شخصياتهم بالتحكم الفارغ الذى لا ينتهي بالأبناء إلا إلى أحد أمرين : التمرّد إن كان الابن شديد المراس .. أو الإنطواء إن كان لين القوام ، وكلاهما فاسد .

إن الابن لكي ينمو نموًا نفسيًا طبيعيًا لا بد له من الشعور بالحرية والاستقلال ، والإحساس بأنه قادر على تسيير أموره بنفسه دون معاونة الآخرين .. فهذه الأمور هى المقدمة الصحيحة لثقته بنفسه ، ومن ثم قدرته على تحمل المسؤوليات فى مستقبل حياته ..

إننا كآباء ومربين حين نقرر لأبنائنا ماذا يجب أن يعملوا ، ندفعهم دفعًا — بشكل لاشعوري — إلى الاعتقاد بأنه " إذا كان من يقومون على تربيتنا يقولون لنا دائمًا ماذا يجب أن نعمل ، فسيكون الخطأ خطأهم إذا فشلنا فى القيام بأي عمل .. ومن ثم لا يتحمس الأبناء لتحمّل أدنى مسؤولية ..!! ".

إن أبناءنا يملكون طاقات كامنة بداخلهم ، ولا سبيل إلى تفجّر تلك الطاقات إلا أن ندربهم على تحمل المسؤوليات والمهمات ، ثم ننظر فيما قاموا به ونقومه ... وهكذا ..

نمنح أبناءنا حرّية الحركة .. ندربهم على تحمّل المسؤوليات والقيام بالمهمات .. نرعاهم ونتابعهم عن بعد .. فتتطوّر شخصياتهم ، ويخرج الكامن من طاقاتهم .. وتخرج أجيال لا تعاني الهزال الشديد الذى طبعت به شخصية المسلم فى واقعنا المعاصر

- **الإنجازات تنمي الثقة بالذات :**

من مؤشرات الإعتماد على النفس عند الأبناء شعور الابن أن لديه ما يمكن

القيام به فى مواجهة مشكلات الحياة .. ويمكن للأباء أن يساعدوا أبناءهم على تنمية هذا الشعور عبر تشجيع الابن – مثلًا – أن يصف للطبيب ما يعانيه إذا ألم به المرض .. أو يكل الأب لابنه متابعة إشارات المرور فى طريق عودتهم إلى البيت لإشعاره بأنه يؤدي عملًا مفيدًا ..

خذ مثالًا :

عندما سأل الخال " أحمد " : كيف كان حال يومك الدراسي ؟ هز " أحمد " كتفيه دون أن يرد ، وهنا قال والده : «إنه خجول» .. يا " أحمد " أخبر خالك عن المكان الذى ذهبت إليه فى يوم الجمعة الماضى ..، وأخبره عن حيوانك المفضل ..

قال أحمد : الزرافة ..

قال الأب : لقد كانت نزهة جميلة ، أليس كذلك يا أحمد ؟ ألم تقل أن الأرجوحة الموجودة فى الحديقة أعجبتك ، وأنك سعدت باللعب بها .. هيا أخبر خالك عنها ..!!

النصيحة التربوية هنا :

لا تحاول أن ترد عن الأسئلة نيابة عن طفلك الخجول .. ولا تحاول إجباره على أداء ما لا يريد .. ولا تحاول فى ذات الوقت القيام بتلك الأعمال بدلًا منه ، وإلا سوف يصبح أكثر سلبية ..

وإذن ، فكيف تعالج هذا الأمر ؟

- حاول أن تشجع طفلك على الثقة بنفسه من خلال الثناء على سلوكه حين يقوم بمفرده ببعض الأعمال البسيطة ، كالحديث إلى أطفال لا يعرفهم فى الحديقة أو اللعب معهم ..

- تجنب أن تقول " ليس هناك ما يدعو لهذا الخوف والخجل .. إذا ظللت هكذا لن يحبك أحد .. هيا يا أحمد أرجوك " كل تلك الكلمات التى تتوسل بها إلى ابنك لكي يصبح أكثر ثقة فى نفسه ليس لها ادنى جدوى .. وإنما الأفضل أن تدربه

على التحدث مع الآخرين دون خوف أو خجل ..

كما يمكن أن تنمي ثقة الابن بذاته من خلال إبداء نقاط قوته .. " بني .. لقد كنت دائمًا قادرًا على فعل الأشياء الجيدة والقيام بالأعمال الصحيحة ، إنني فخور بك .. وأنت أيضًا يجب أن تفخر بنفسك " ..

إذا وجدت لديك نقصًا فى معرفة شيء فلا تظن أن أحدًا من البشر لديه المعرفة الكاملة عن كل شيء .. ولا تظن أن أحدًا أيضًا يملك الحس الذى لا يخطىء ..

ولا يعني ذلك " أن ثقة الابن بذاته وإحساسه بقيمتها يتأتى من خلال الكلام والمواعظ ، إنما لا بد مع ذلك من الممارسات والأفعال ، والإنجازات التى يتدرّب عليها الابن بما يتناسب مع قدراته وإمكانياته ... فاشتراكه فى الأنشطة وتعويده على المسؤولية ، تجعله مندمجًا مع غيره ، راغبًا فى تقديم ما لديه من مواهب، فلا ينعزل أو ينكمش على نفسه ، ومن ثم تتنامى لديه القدرة على القيادة وتحمل المسؤوليات فى الأسرة وفى المجتمع ، وهذا بدوره يعطيه إحساسًا بالقيمة الذاتية .. ومن ثم الكثير من الإنجاز .. "[١]

لقد " كان رسول الله ﷺ ينمي ثقة الطفل بذاته عبر عدة طرق ، لينشأ طفلًا قويًا ، ومن هذه الطرق :

١ – *تقوية إرادة الطفل :*

وذلك بتعويده على أمرين اثنين وهما :

ـ تعويده حفظ الأسرار :

كما فعل أنس رضي الله عنه .. أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال : خدمت رسول الله ﷺ يومًا حتى أني قد فرغت من خدمتي ،

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا – أكرم مصباح عثمان – ص ٥٦ بتصرف .

قلت : يقيل – أى ينام بعد الظهر – رسول الله ﷺ، فخرجت إلى الصبيان ، قال : فجئت أنظر إلى لعبهم قال : فجاء رسول الله ﷺ فسلم عل الصبيان يلعبون ، قال : فدعاني رسول الله ﷺ، فبعثني فى حاجة ، فذهبت فيها ، وجلس رسول الله ﷺ فى فىء حتى أتيته واحتبست عن أمي الإتيان الذى كنت آتيها فيه فلما أتيتها قالت : ما حبسك ؟ قلت : بعثني رسول الله ﷺ فى حاجة له ، قالت : وما هي ؟ قلت : هو سر لرسول الله ﷺ، قالت : فاحفظ على رسول الله ﷺ سره.

ولا شك أن الطفل عندما يتعلم كتم الأسرار ولا يفضحها ، فإن إرادته تنمو وتقوى ، وبالتالى تكبر ثقته فى نفسه .

-تعويده الصيام :

عندما يصمد الطفل أمام الجوع والعطش فى الصوم يشعر بنشوة الظفر والانتصار على النفس، وبالتالي فإن إرادته تقوى على مواجهة الحياة مما يزيد فى ثقته بذاته .

٢- *تنمية الثقة الاجتماعية :*

عندما يجالس الطفل الكبار فإن ثقته بنفسه تنمو . و قد كان صحابة رسول الله ﷺ يصطحبون أبناءهم إلى مجالس النبي ﷺ..

فهذا عمر يصحب ابنه إلى مجلس رسول الله كما أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: " أخبروني بشجرة مثلها مثل المسلم تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ولا تحتُّ أوراقَها " فوقع فى نفسي النخلة فكرهت أن أتكلم وثم أبو بكر وعمر فلما لم يتكلما قال النبي ﷺ: " هى النخلة " فلما خرجت مع أبى قلت : يا أبتاه وقع فى نفسي النخلة . قال : ما منعك أن تقولها؟ لو كنت قلتها كان أحب إلي من كذا كذا ، قال : ما منعني إلا أني لم أرك ولا أبا بكر تكلمتما فكرهت . وفى رواية – فإذا أنا أصغر القوم فسكت .

ويؤكد ابن حجر رضي الله عنه على هذه الثقة ووجوب الحرص عليها فيقول رحمه الله تعليقًا على هذا الحديث : " لو كان عند الصغير ما ليس عند الكبير ، فلا يمنع من الكلام بحضرة الكبير ، لأن عمر تأسف ، حيث لم يتكلم ولده ، مع أنه اعتذر له بكونه بحضوره وحضور أبي بكر ، ومع ذلك تأسف على كونه لم يتكلم "

ويعلق ابن القيم على الحديث [١] بقوله :" وفيه فرح الرجل بإصابة ولده وتوفيقه للصواب . وفيه أنه لا يكره للولد أن يجيب بما يعرف بحضرة أبيه ، وإن لم يعرفه الأب وليس فى ذلك إساءة أدب عليه " .

وإليك – أخي المربي – مثالًا آخر لاهتمام عمر وتشجيعه للأطفال أن يتكلموا فى مجلس الكبار ، وتقديم آرائهم وأفكارهم :
روى ابن المبارك فى الزهد وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم فى المستدرك عن عمر رضي الله عنه قال : فيم ترون أنزلت هذه الآية : " أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب " فقالوا : الله أعلم ، فغضب عمر فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم ، فقال ابن عباس : فى نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : قل يا بني ولا تحقر نفسك ، فقال ابن عباس : ضرب مثلًا لعمل ، فقال عمر : أى عمل ؟ فقال : العمل ، فقال عمر : لرجل غني يعمل الحسنات ثم بعث إليه بشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها " .

هكذا قالها عمر : " قل يا بني ولا تحقر نفسك " .

وقال قبل ذلك لابنه عبد الله : " ما منعك أن تقولها " .

ففى أخذ الطفل إلى مجالس الكبار تظهر نواقصه واحتياجاته ، فيستطيع المربي عند ذلك توجيهه نحو الكمال وتشجيعه على الجواب عندما يطرح سؤال ، فيتكلم

(١) الطب النبوي – ابن القيم – ص ٣٩٨ .

بعد استئذان وذلك بكل أدب ووقار ، ويتعرف إلى أحاديث الكبار شيئًا فشيئًا فيتهيأ لدخول المجتمع ، وهكذا يتدرج رويدًا رويدًا . (١)

ويمكن تنمية الثقة الإجتماعية لدى الطفل كذلك من خلال تعويده سنة السلام ، فنلاحظ من الرسول ﷺ وصحابته أسلوبًا لطيفًا فى غرس سنة السلام فى نفس الطفل .

أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال : كان رسول ﷺ يفعله . لذا لنعود الطفل أن يبدأ السلام وخاصة عندما يدخل إلى البيت .

وروى البخاري ومسلم عن أبى هريرة رضي عنه أن رسول الله ﷺ قال : " يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير " وفى رواية البخاري : " والصغير على الكبير "

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: " يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك " ..

دخل كلدة بن حنبل على رسول الله ﷺ ولم يستأذن ولم يسلم فقال النبي ﷺ: " ارجع ، فقل السلام عليكم ، أأدخل " – صحيح الجامع برقم ٤٣٩٧ .

وروى أبو داود : عن ربعي بن حراش قال جاء رجل من بني عامر فاستأذن على رسول الله وهو فى بيت فقال أألج ، فقال رسول الله ﷺ لخادمه : أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له : قل : السلام عليكم ، أأدخل ، فسمع ذلك الرجل من رسول الله ﷺ، فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن له رسول الله ﷺ " –

(١) لا يعني ذلك أن يمنع الابن من ممارسة ما يكون مناسبًا لعمره من اللعب ، فذاك المنع يجعل الابن يعيش فى كبره أزمات نفسية على الأغلب ..!!

صحيح الجامع برقم ٢٣٤ .

فالنبي ﷺ هنا يدرّب على مهارة إجتماعية ، هى مهارة إلقاء التحية .

.... كما يمكن تنمية الثقة الاجتماعية للطفل من خلال إرساله لقضاء بعض الحاجات للمنزل ، أو لأحد الوالدين فيتعرف على مجاهيل الحياة ويشعر بفرح ونشوة المعرفة وتتكون لديه ثقة فى مواجهة الأمور ، الأمر الذى يمكنه من متابعة حياته بخطى ثابته مركزة بدون خلل أو اضطراب .

.... كما أن حضور الأطفال الحفلات المشروعة والأعراس والمبيت عند أحد أقربائه الصالحين ونومه عندهم يعتبر من العوامل التى تبهج نفوسهم وتحرك مشاعرهم وتصقل اجتماعيتهم وتدربهم على التعامل مع الآخرين وتدعم فيهم حسن العلاقة الاجتماعية ....

... كما أن من الأمور التى تزيد الثقة عند الأطفال ، تعويدهم البيع والشراء ، فقد أخرج مالك عن سليمان بن يسار قال : فنيّ علف حمار سعيد بن أبى وقاص فقال لغلامه : " خذ من حنطة أهلك فابتع به شعيرًا ولا تأخذ إلا مثله"[1].

إن الطريقة الصحيحة فى بناء شخصيّات أبنائنا بعيدًا عن الهزال الحياتي والنفسي، ألا نسارع إلى تقديم المساعدة لهم حين يقومون بعمل ما بمجرد أن نلاحظ ظهور بعض الصعوبات فى طريقهم .. بل الأفضل أن ندعهم يكملون ما بدأوه ، وإن لم تكن نتيجة العمل فى النهاية متقنة .. وإذا كان لا بد من توجيه أو مساعدة فليكن ذلك من خلال تلميح ، أو إشارة خفية ، وليس بتعليمات واضحة ومباشرة ..

---

(١) الإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ٥١ – ٥٥ بتصرف .

ذلك أن من أكبر ما ينمي ثقة الابن بنفسه واحترامه لذاته ؛ أن يكون مسؤولًا عن عمل ما ، مهما كان عمره .. فالأطفال البالغ عمرهم ثلاث سنوات يجب أن نتوقع منهم أن ينظفوا أنفسهم بأنفسهم بعد قضاء الحاجة ، بل وأن يساعدوا فى أداء المهام البسيطة فى المنزل ، ويجب أن تتزايد هذه المهام والمسؤوليات الأخرى بتقدم العمر مع عدم ربطها بالمكافآت ، فالأطفال يجب أن يقوموا بتقديم المساعدات المنزلية من منطلق مبدأ أن مساعدة الآخرين هو الشىء الصحيح الذى يجب القيام به ..

وإذا كان للأب عمل يمكن للابن أن يتدرب على ممارسته ، وجب تدريبه عليه ، فإن ذلك يلقى الثقة فى قلبه ، ويعلمه الاعتماد على النفس ، ويطور شخصيته المستقلة ..

وقد شاهدت ذلك بنفسي ، فقد كان أحد من أعرف من التجار يدفع ابنه إلى السفر ومقابلة من يتعامل معهم الأب فى تجارته ، وهو يحمل المال للاتفاق على الصفقات التجارية .، كل ذلك وهو ابن أربعة عشر عامًا ، فكان لهذا التدرب فى الصغر الأثر الأكبر فى شخصية هذا الابن فى الكبر من استقلالية التفكير والعمل ..

وإن لم يكن عمل الأب من الأعمال التى يمكن للابن ممارستها ، فلا أقل من أن يمارس الابن ما يستطيع من أعمال ، ويرّغب فى القيام بها بجد وإتقان لينشأ بعيدًا عن الكسل ، والترهل ..

وهذا مثال من الصين :

" أطفال فى الصين – فى دار حضانة !!! – متواضعة المباني فى جزء منها حجرة هي مصنع صغير ، ليست فيه أجهزة تحتاج لأموال طائلة ولا اتصالات كهربائية معقدة .. فقط مجموعة لمبات كهربائية صغيرة تصلح للبطاريات وجهاز

أقل من حجم اليد يشير : ما إذا كانت هذه اللمبة سليمة أم فاسدة ثم صندوق ورقي فيه ثقوب وورق لاصق ..

يدخل الأطفال ويختبرون كل لمبة ، فإذا كانت صالحة وضعها الطفل فى مكان مثقوب بالصندوق أعد له ، وإذا كانت فاسدة ألقاها فى سلة مجاورة ..

هكذا تتكون الاتجاهات والقيم بالعمل لا بالقول "[١].

ولكنا نريد هنا أن نؤكد على أمر يضبط نظرتنا إلى مسألة تحمل الابن للمسؤولية، وتكليفه بالأعمال .. هذا الأمر هو أن " الإسلام – وإن كان يبني الشخصية الإسلامية على تحمّل التبعة والجهد ، وعلى النشاط والكد ، وعلى التدريب العملي على الحياة منذ الصغر ، وعلى إعداد النفس " للتجنيد " فيما بعد .. فيأمر رسول الله ﷺ بتعليم الأولاد السباحة والفروسية – إلا أنه لا يذهب إلى هذا المدى من تشغيل الأطفال بغير ضرورة وأهلهم موسرون . إنما يكلف أهلهم بالإنفاق الكامل عليهم حتى يبلغوا سن التكليف. وليست الوسيلة الوحيدة لتعويدهم العمل والشعور بالتبعة هو تكليفهم بالإنفاق على أنفسهم جزئيًا وهم أطفال ، وكليًا وهم مراهقون (بعد الثانوية العامة) إنما يكون ذلك تحبيبًا لا إلزامًا ، حتى يحين وقت الإلزام .. "[٢] .. وتأكيدًا على معنى فى غاية الأهمية نريد استقراره فى نفوس الأبناء ، وهو أن " يتعلم الأبناء كيف يقومون بشؤون أنفسهم دون الاعتماد على أحد قدر الإمكان ، فذاك سمة عامة من سمات المؤمن سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا ، وقد ورد فى الحديث الصحيح أن نفرًا كانوا عند رسول الله ﷺ فقال : " ألا تبايعون رسول الله ؟ فقالوا : علام نبايعك ؟ قال : تبايعونى على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، والصلوات الخمس ، وتطيعوا " وأسرّ كلمة خفية : " ولا تسألوا الناس شيئًا " قال راوى الحديث : فلقد

---

(١) تربية الأطفال فى رحاب الإسلام – خولة درويش – ص ٢٩٥ .

(٢) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج٢ – ص ١٥٧ .

رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا أن يناوله إياه . "[(١)]

بل إن رسول الله - ﷺ - يؤكد على قيمة الإستغناء عن سؤال الناس ، ويعلمنا أنها سبيل الجنة .. كما في حديث ثوبان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ: " من تكفّل لي أن لا يسأل الناس شيئًا ، وأتكفّل له بالجنة ؟ " فقلت : أنا فكان لا يسأل أحدًا شيئًا . رواه أبوداود بإسناد صحيح ، صحيح الجامع برقم ٦٦٠٤ ."

إن الذين يتربون تربية لينة مترفة سهلة ، قد يهربون من المسؤولية في الكبر ، ويجبنون عن مواجهة أعدائهم ، ولا يستطيعون المثابرة في مواجهة الحياة ، فالواحد منهم كما قال الشاعر :

حر النسيم يجرح خده   ولمس الحرير يدمى بنانه .[(٢)]

والأب الحكيم هو من يعوّد ابنه الإعتماد على الذات ، ويدرّبه على ممارسة الحياة ، ومواجهة تحدياتها ..

خذ مثالًا :

(أحمد) يريد الخروج مع أبيه إلى السوق .. وينتهز الأب الفرصة لتدريبه على مواجهة العوز والحاجة ، من خلال تعليمه أنه لا يمكنه الحصول على كل ما يراه ويرغب فيه ؟!

فيقول له : هل تريد الخروج معي إلى السوق يا " أحمد " ؟

أحمد : بالتأكيد يا أبي .

الأب : سنذهب لرؤية البضائع ، ولن نشترى اليوم شيئًا . هل مازلت تريد الذهاب ؟

---

(١) دليل التربية الأسرية - أ. د/ عبد الكريم بكار - ص ٨٥ ، ٨٦.

(٢) مستفاد من " التربية على منهج أهل السنة والجماعة " - أحمد فريد ص ١٠١.

أحمد : نعم يا أبي .

.... يذهب الأب و" أحمد " إلى المحلات .. يطلب " أحمد " شراء بعض الألعاب لأنها أعجبته .. يقوم الأب بتذكير " أحمد " أنه ليس يوم الشراء .. وربما نستطيع الشراء فى يوم آخر ..

ماذا تعلم الابن " أحمد " ؟

تعلم أنه ليس من الممكن أن يشترى كل ما تقع عينه عليه ..

و بعد هذه التجربة " الحياتية " ، بدأ الأب يوضح " لابنه كيف يمكن توزيع مبلغ محدد من المال على شراء كل ما يحتاجه المنزل من طعام وملبس وضروريات ونفقات السيارة وغيرها . محاولًا إشراكه فى تخطيط الميزانية " (١)

و محاولًا فى ذات الوقت التأكيد على أهمية القناعة .. و على أن العطاء هو طريق الإنسان للترقي من سلبية اليد السفلى إلى إيجابية اليد العليا ..

" عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : " يا حكيم ، إن هذا المال حلو خضر ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى " قال حكيم : فقلت يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا " متفق عليه .

.... فجاء توجيه النبي ﷺ لحكيم رضي الله عنه بعد العطاء ليؤكد أن النصح ليس عن بخل ، وإنما عن حرص على تهذيب النفس من شوائب الإتكالية والإلحاح بالسؤال " (٢).

---

(١) كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د. سال سيفير – ص ٢٦٨ بتصرف .

(٢) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د/ عادل رشاد غنيم – ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

وهذا ما أكّد عليه – في حس تربوي دقيق – ابن القيم رحمه الله بقوله : "وينبغي لولي الطفل أن يجنبه الأخذ من غيره غاية التجنب ، فإنه متى اعتاد الأخذ صار له طبيعة ، ويعوده البذل والعطاء ، وإذا أراد الولي أن يعطي شيئًا ، أعطاه إياه على يده ليذوق حلاوة الإعطاء " .

إن أكثر الآباء .. يوفرون لأبنائهم كل شيء ، ويقومون عنهم بكل عمل، وهم يظنون أنهم بذلك يحملون عنهم الهموم ، ويعافونهم من الإرهاق.. !!

إن هؤلاء الآباء في الحقيقة يحرمون أبناءهم من أبسط حقوقهم ، ألا وهو الاعتماد على الذات .. ذلك الإعتماد الذي يبني روح المسؤولية في نفوسهم ، وينمي ثقتهم بذواتهم ، ويكسبهم القدرة على اتخاذ القرارات المناسبة في ما يخصهم ويتعلق بحياتهم ..

هذه الحياة التي يعيش أبناؤنا في زمانها الصعب ، ويجب عليهم أن يقتحموها، ويواجهوا مشكلاتها .. عبر تحمل المسؤولية الذي هو السبيل الأفضل لتطوّر الشخصية ..

❋❋❋

الفصـــل الثاني

المـران يصنع الإتقــان

حين ترى مسيرة فرقة من الجنود خلال عرض عسكري ، تذهلك صفوفها المستقيمة وخطواتها الرشيقة وسيرها الخالي من الأخطاء .. أليس كذلك ؟

هل تعتقد أنهم يملكون مقدرة خاصة وبراعة فريدة تؤهلهم لذلك التناغم الحركي ؟ أم أن الحقيقة أن هؤلاء الجنود حين بدأوا لم يكن لدى أحدهم من الرشاقة شيء ، فقام من دربهم بصبر كبير على تدريبهم على كيفية أن يسيروا معًا بطريقة مناسبة وفى تناغم جميل ؟

لقد قضوا الساعات يكررون نفس الخطوات مرارًا وتكرارًا ، و ربما صرخ بعض الجنود لكثرة التدريب ، وربما ملّ بعضهم من التكرار ..

ولكن النتيجة التى استطاع مدربهم تحصيلها من ذلك هى ذلك التناغم الجميل والعمل المتقن .. الذى نتعجب نحن من كماله وجماله ..

وبمثل هذه الطريقة يمكن أن تنجح مع أبنائك .. فكيف يكون ذلك ؟

• مهــارة البحــث عن البــدائل :

نحن نعيش فى عالم أصبح الذكاء العاطفى أكثر أهمية من الذكاء العقلي .. [(١)] ذلك أن الذكاء العاطفيّ يدفع الابن إلى أن يفهم مشاعره فهمًا يمكنه من اتخاذ قراراته وإدارة سلوكياته بطريقة أفضل – وخاصة خلال الأزمات – حيث يتعين أن يحسن الطفل التصرف ..

ومن هنا فقد مست الحاجة إلى تنمية هذا النوع من الذكاء لديهم لأن هذا

(١) مصطلح الذكاء العاطفي هو أحد المصطلحات الحديثة ، وهو يعني قدرة المرء على تبيّن مشاعره الخاصة ، وكذلك مشاعر الآخرين ، والتي تمكنه من السيطرة على مشاعره وعلى علاقته بالآخرين.

الذكاء سيساعدهم فى علاقتهم المستقبلية بالآخرين ..

وللوصول إلى هدف تنمية هذا اللون من الذكاء عند أبنائنا ، فإنه يتعين علينا أن نشجعهم عندما يتمكنون من تحديد مشاعرهم ومشاعر الآخرين بدقة ، وأن نثني عليهم حين يستقرئون تلك المشاعر ، ونقدّر ذلك فيهم : " لقد عرفت أنك تركت أخاك يلعب قبلك حين رأيته حزينًا .. كم أنا فخور بك "..

كما ندفع أبناءنا إلى المران على اتخاذ القرارات فى مواجهة المواقف المختلفة ، مع التحكم فى المشاعر ، بل وتقبل مشاعر الآخرين ، والنظر إلى الإختلاف فى الرأي مع الآخر على أنه ميزة ، والتدريب على البحث الدائم عن بدائل لوسائل مواجهة الأزمات والمشاكل بطرق لا يشوبها الغضب ..

ولا شك أن كل هذه المهارات فى حاجة للمران الدائم ، والتدريب الجاد على فن التعامل مع ضغوط الحياة، وفن التعامل مع الآخر .. وبخاصة فى ظل طريقة التعليم السائدة فى الواقع ، والتى تعتمد على " التلقين والحفظ والتكرار ، فتقوي ملكة الحفظ والذاكرة لدى الطالب ؛ لكنها فى غالب الأمر تؤدي إلى خمول قدرات الخيال والإبداع .. بل إننا لا نبالغ حين نقول إن هذه الطريقة تقتل الإبداع لدى أبنائنا ، فاليوم الدراسي يطول لساعات كثيرة ، والواجبات الدراسية تستغرق بقية الوقت ، فلا يبقى عند أبنائنا أى وقت للتفكير الإبداعي .."[1] ، فنجدهم عند مواجهة المشاكل التى تتطلب جهدًا عقليًا لحلها لا يملكون أدنى قدرة على حلها..!!

ومن هنا وجب علينا مساعدة أبنائنا على التفكير الإبداعي عبر تدريبهم على مهارة البحث عن البدائل فى كل ما يواجهون من مشكلات أو أمور علمية أو عملية، وتغيير طريقة التلقين إلى طرق أكثر مشاركة وتفاعل .. كل ذلك عبر

---

(١) نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي – د/ عبد الكريم بكار – ص ١٥١ .

التدريب والتوجيه والتزويد بالخبرات .. [(١)]

وقدوتنا في ذلك رسولنا المربي ﷺ الذى " كان يدرب أصحابه ، ويزودهم بالخبرات والتوجيهات اللازمة ، والمعلومات ، ويصحح أخطاءهم ، كل ذلك بطريقة علمية توجيهية ، وبمواقف عملية تطبيقية ..

وخذ مثالًا على ذلك توجيهه ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن ، فقال : " إنك تأتي قومًا أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم . واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" أخرجه البخاري ٣/ ٤١٨ .

... وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن قال له : " كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله . قال : فإن لم يكن في كتاب الله . قال : فبسنة رسول الله ﷺ. قال : فإن لم تكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأي ولا آلو . قال : فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ. أخرجه أحمد ٥ / ٢٣٠ ... " [(٢)].

أخي المربي – أبا وأمًا –

إن هناك أوقاتًا ، يحتاج فيها الابن للتفكير قبل أن يتصرف ، فلا تتطوع بحل مشكلاته بدلًا منه ، ودعه يوجد البدائل الخاصة به .. فقط يكون دورك هو تعليمه

---

(١) هذا لا يعني أن ننسى ما لثقافتنا الإسلامية من خصوصية ، فبعض العلوم لابد فيها من التلقين كعلم القراءات مثلًا .

(٢) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ٢٨١ – ٢٨٤ بتصرف .

أن التفكير قبل اتخاذ أية خطوة يمده بالخبرة الكافية للتغلب على المشكلة التى تواجهه .. يمكنك أيضًا إعطاءه البدائل ، ثم تتركه يفكر فى القرار الصحيح .. بل وبكل الحب ، قدّم له المساعدة فى الإختيار بين البدائل التى تعرض عليه ...

كما يمكنك تنمية مهارة البحث عن البدائل ، والاختيار بينها من خلال التأكيد على مبدأ الشورى .. تلك المنحة الإلهية للعقل البشري المحدود . والتى لا تنحصر فى الأمور السياسية ، وإنما تمتد إلى مشاورة الزوجة والأبناء ، والتفكير معهم فى الحلول البديلة لمشاكلنا ..

إن المربي الفطن هو من يحاول تدريب أبنائه على هذا المبدأ العظيم " مبدأ الشورى " ، و تشجيعهم على التعبير عن رأيهم ، وعدم استصغار مساهماتهم فى الحلول للمشكلات .. كل ذلك بخطوات متأنية متدرجة ، منها :

١ - تحديد المشكلة بدقة

٢ - تحديد الغاية التى يريد الابن الوصول إليها .

٣- التمهل والتفكر قبل القيام بأي عمل .

٤- استخلاص أكبر عدد من الحلول للمشكلة .

٥- التفكير فى ميزات كل حل وعيوبه .

٦- بعد التوصل للحل لا بد من إخضاعه للتجربة .

... هذه الخطوات تعلم الابن كيف يواجه المشكلة .. [(١)]

خذ مثالًا :

يأتي الابن إلى أبيه باكيًا لأن أخته قد ضربته ، من أجل أن تأخذ لعبته ..

فـ ١ - يحاول الأب التعرف على المشكلة

---

(١) حاول أيها الأب والمربي أن تطبق ذلك مع أبنائك ، وستدهش من الخير الكثير الذى ستحصل عليه، ولا تستصغر أبدًا مساهمات الأبناء ، فإني أؤكد لك أنه ما من مرة استشرت فيها أبنائي إلا استفدت من هذه الاستشارة فائدة عظيمة ..

ثم ٢ - تحديد الغاية التى كانت الأخت تريد الوصول إليها .. " أخذ لعبة أخيها ".

ثم ٣ - التمهل قبل ضرب أخيها ، فربما أدى ذلك إلى تعقيد الأمر

ثم ٤ - استخلاص عدد من الحلول الممكنة .. يمكن أن يلعبا معًا باللعبة ، أو تلعب الأخت بلعبة أخرى

ثم ٥ - التفكير فى نتائج هذه الحلول

وأخيرًا .. تجربة أحد هذه الحلول بعد التفكير فى مميزاته التى ترجح على عيوبه..[1]

وهذا مثال آخر :

يأتى أحمد إلى أمه باكيًا لأن أخته سميه قد سخرت منه ..

أحمد : إني أكره سميه ، إنها تسيء إلي .

الأم بهدوء : ماذا حدث قبل أن تبكي ؟

أحمد : قالت لي أخرج من الغرفة ورفضت أن أشاركها اللعب بالكومبيوتر ..

الأم : وماذا حدث قبل ذلك ؟

أحمد :(وهو أقل غضبًا) لقد ذهبت إلى حجرة الكومبيوتر ، وقلت لها أريد أن ألعب بالكومبيوتر ، فأنت تلعبين منذ الصباح ، وقد حان دورى .

الأم : أعتقد أن من حقك أن تلعب كما لعبت ، ولكني لا أرى أن الطريقة التى اتبعتها هى الطريقة الأفضل .. فهل ترى أنها الطريقة المثلى أم أن غيرها قد يكون أفضل ؟

أحمد : (متوقفًا عن البكاء ، وآخذًا فى التفكير) إننى أرى أنها طريقة جيدة .. أعتقد ذلك ..

الأم : ولماذا ترى ذلك ؟

أحمد : لأن سمية ترفض أن تدعنى ألعب ..

---

(١) فن تنشئة الأطفال - عكاشة عبد المنان الطيبي - ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

الأم : نعم .. اللعب حقك ، ولكن هل كان يمكن أن تطلب نفس الطلب بطريقة ألطف ؟

أحمد : نعم يا أمي .. سأحاول أن أكون ألطف في المرات القادمة ..

وهذا مثال ثالث :

يأتي الابن إلى أمه شاكيًا من زميله الذي ضربه في المدرسة ، فلا تكون ردة فعل الأم : " يا ابني اللي ضربك اضربه !! " .. وإنما تبدأ الأم في تربية الابن على البدائل الكثيرة لحل هذه المشكلة ، فتسأله :

- ماذا تقترح للتعامل مع زميلك الذي ضربك في المدرسة ؟؟

وتستمع بكل اهتمام وحيادية لاقتراحاته ، وتعلق عليها بشكل غير مباشر ، فقد يقول :

- الحل الأول : أن أضربه .. فتسأله: هل لديك حل آخر ؟
- الحل الثاني : أبلغ عنه المدرس .. فتسأله : هل لديك حل آخر ؟
- الحل الثالث : أن أسامحه .. فتسأله : هل لديك حل آخر ؟
- الحل الرابع : أخذ أغراضه .. فتسأله : هل لديك حل آخر ؟
- الحل الخامس : أكلم زميلي الآخر لمقاطعته .. فتسأله : هل لديك حل آخر؟
- الحل السادس : لا أدعوه لحفلتي القادمة .. فتسأله : هل لديك حل آخر ؟
- الحل السابع : أقاطعه ولا أكلمه .. فتسأله : هل لديك حل آخر ؟
- الحل الثامن .. وهكذا ..

وبهذه الطريقة يسمح المربي - أبًا وأمًا - لتفكير الابن وخياله أن ينطلقا في اختيار الحلول والإبداع في علاج المشكلة ...

" إن كثيرًا من الآباء يشكون من أن أبناءهم لا يتعاونون معهم ، ولكنهم لم يطلبوا من أبناءهم أن يقدموا آراءهم أو أفكارهم ، إنهم يأمرون أبناءهم فحسب ويخبرونهم بما يجب القيام به .. إن الجميع سيشعرون بالمزيد من السعادة عندما لا

يرون أحدًا يملي عليهم السلوكيات والتصرفات .. وعندما تطلب منهم مقترحاتهم حول حل مشكلات الأسرة "(١).

فحاول- أخي المربي ، أبًا وأمًا - دفع أبنائك للتفكير دائمًا فى بدائل كثيرة لحل المشكلة التى يواجهونها .. فإذا خرجوا ببدائل عديدة ؛ فاسألهم أيها يجدونه أكثر مناسبة للموقف الذى أنتم فيه؟!.

واعلم أن هذا الأمر يحتاج جهدًا من الابن ، ولكنه يعلّمه أن السماء لا تمطر أفكارًا ، وأن على الإنسان أن يبذل الأسباب ويتخذ الوسائل التى تجعله يحصل على الأفكار الإبتكارية لمواجهة مشاكل الحياة اليومية .

- **تدريب عضـــلة المســـتقبل :**

معظم الأطفال لا يفكرون طويلًا فى المستقبل .. إنهم يندفعون إلى ما يريدون دون التفكير فى العواقب .. إنهم يعيشون اللحظة .. فإذا كانت سعادة اللحظة بالنسبة إليه أن يرمى بالإسطوانات المدمجة فى الهواء وكأنها قرص رياضي فإنه يفعل .. أو يفعل أى شيء آخر يسعده !!!

ولا يمكن تدريب عضلة المستقبل لدى أبنائنا إلا من خلال تدريب عقولهم على التفكير الإبداعي ، وتدريب نفوسهم على التطلع إلى الأفضل ، وعدم الخوف من الجديد .. ذلك الخوف الذى قد يكون قد ملأ نفوس الكثيرين منا - نحن الآباء - حتى صغناه أمثالًا تلوكها ألسنتنا " مثل قولنا " لا تعرف خيره حتى تجرب غيره " .. أو قولنا : " الذى تعرفه خير من الذى تتعرف عليه " .

إننا كآباء وأمهات " فى البيوت مطالبون بتكوين عقلية الطفل نحو المتغيرات والأشياء الجديدة تكوينًا متوازنًا ، فلا يستمسك بالقديم لقدمه ، ولا يفرح بالجديد

(١) مستفاد من / للنجاح مع الناس - جيمس فان فليت.

لجدته ، ومما يساعد على هذا الأمر ما يلى :

١- جعل الطفل يعتقد أن الحكمة ضالة المؤمن ، فأنى وجدها فهو أولى بها – كما ورد فى الحديث – وأن كلمة الحق قد تأتي من صالح ، كما تأتي من طالح ، وقد تأتى من صديق ، وقد تأتي من عدو .

٢- تعويد الطفل على التجريب ، فإذا كان مترددًا بين أسلوبين فى عمل شىء ما – مثلًا – فإنه يحفّز على تجريب الأسلوبين حتى يرى أيهما أنجع ..

٣- يفهم الطفل أن النظم والوسائل التى اخترعها الإنسان ، إنما اخترعها لفائدته وخدمته وتحقيق مصالحه ، ومن الحكمة أن يتخلى عنها حين تفقد قدرتها على الخدمة ، أو حين يجد ما هو أفضل منها أداءً أو أقل تكلفة."(١) .

ويمكن تأكيد ذلك عبر الذكر الدائم لمحاسن التغيير والتجديد ، وأن بإمكاننا من خلال الاستفادة من الأشياء الجديدة أن نصبح أكثر التزامًا وأكثر نجاحًا ...

وإليك بعض النماذج لتوضيح السبيل إلى بناء التفكير الإبداعي لدى الأبناء :

- " توضع أمام الأبناء جهاز هاتف أو ساعة أو منبه ، ثم يطلب منهم التفكير فيما يمكن إدخاله عليها من تحسينات ..
- يقال للأبناء : فكّروا معنا فى التصرف الذي يمكن أن تقوموا به حيال المواقف التالية :
  - دخلت المطعم ، وبعد أن أكلت لم تجد فى جيبك نقودًا ؟
  - شخص لا تعرفه أقبل نحوك وادعى أنه يعرفك وشرع يحدثك؟
  - اكتشفت وأنت فى المدرسة أن لوني نعلك مختلفان ؟
  - تشابهت وجوه البشر .. ماذا يحدث ؟" (٢)

وحتى من خلال اللعب ، يمكن تدريب الأبناء على التفكير الإبداعي ، ودفعهم لابتكار أكبر عدد ممكن من الحلول لمشكلة ما ، ثم اختيار أفضل

---

(١) دليل التربية الأسرية – أ. د/ عبد الكريم بكار – ص ٤٨ .

(٢) المصدر السابق – ص ٦١ ، ٦٢ .

الحلول..[١].

خذ مثالًا :

" نطلب من أبنائنا أن يفكروا فى طرق جديدة لاستخدام صندوق النفايات .. ونؤكد لهم أنه ليس من المهم إطلاقًا أن نأتي بأية فكرة وإن بدت سخيفة تمامًا ، بل الهدف من اللعبة هو أن نجمع أكبر عدد ممكن من الأفكار ..

قد تسمع منهم من يقول : نضع اللعب فى الصندوق .. أو من يقول : نستخدم الصندوق بدلًا من الدلو .. أو : نستخدم الصندوق كسلة لكرة السلة .. أو: نلبس الصندوق بدلًا من القبعة .. أو غيرها من الأفكار ..

فقط : قم بكتابة الأفكار ، ثم ضع حول كل فكرة جيدة دائرة .. وأغفل الأفكار السخيفة .. "[٢]

ومما يدرب أذهان أبنائنا ويساعدهم على الإبداع ويطوّر قدرة عقولهم على التخيل .. الأسئلة الغريبة والغير مألوفة ، فالابن حين يتخيلها ويفكر لها فى إجابات يقوم بتدريب للذهن على الإبداع ..

مثال : نسأله ما هو طول فرحتك ؟ ما هى رائحة الخير ؟ ماذا يشبه الحرف "ل " من الحيوانات ؟...[٣].

كما أن للأسئلة التى تبدأ بـ " ماذا لو ؟ " فائدة كبيرة فى دفع ذهن الابن فى طريق الإبداع ... مثل : ماذا لو طلبنا من السرير أن يأتى إلينا بدلًا من أن نذهب إليه ؟

ماذا لو وضعنا فى الأرز سكرًا بدلًا من الملح ؟

---

(١) والمقصود هنا ليس الوصول إلى الحل الأمثل ، وإنما التدريب على مواجهة المشكل بمرونة أكبر ، واستعداد لابتكار الحلول ..

(٢) كيف تنشىء طفلًا يتمتع بذكاء عاطفي – لورانس إ. شابيرو – ص ٢١٠ ، ٢١١ بتصرف.

(٣) ٣٠ طريقة لتوليد الأفكار الإبداعية – د.على الحمادي – ص ٤٤ بتصرف .

.. ولا شك أن من أكبر الوسائل التي تدرّب عضلة المستقبل عند أبنائنا ، وتساعدهم على التفكير الإبداعي ، شبكة الإنترنت .. تلك الشبكة التي تفتح "عالمًا جديدًا لتعليم الأطفال المهارات الإدراكية ، وأيضًا المهارات الإجتماعية والعاطفية .. والفرص المتاحة للأطفال لتعليم أنفسهم عن طريق الإنترنت هي فرص غير محدودة تقريبًا .. وعلى الرغم من أن هناك بعض المحاذير التي يجب على الآباء اتخاذها عندما يقضي أطفالهم وقتًا أطول في الفضاء الإلكتروني ، إلا أن فائدة هذه الوسيلة الجديدة سوف تفوق في مجملها ما ينتج عنها من مشكلات .. بل إنني أؤكد أن الخطر الأساسي إنما يحدق بالأطفال الذين تخلفوا بسبب من عدم سماح آبائهم لهم باكتشاف الكومبيوتر والإنترنت .. ذلك العالم الجميل المفيد "[١].

إن إمكانيات تطوير مهارات الذكاء العاطفي على شبكة الإنترنت تفوق حد تخيلاتنا ، فهي تجعل التعلم تجربة تفاعلية متعددة الجوانب ، وتقدم لهم إمكانات لا حصر لها حيث يمكنهم زيارة الكثير من المكتبات ومطالعة العديد من الكتب والمجلات .. كما أنهم عبر هذه الشبكة الإلكترونية يمكنهم تكوين الصداقات والتعامل مع المجموعات المعتمدة على نفسها في حل بعض مشكلاتها اليومية ..

ولأن هذه الوسيلة الجديدة على هذا القدر من الأهمية ؛ فإنه من الضروري أن نعلم أبناءنا قواعد الذوق اللازمة للتواصل مع الآخرين ، ونتفق معهم على ضوابط هذا الإتصال .. ونعلمهم قدر المعلومات المسموح لهم بإدراجها على الشبكة ..[٢] .. وندربهم على كيفية التعامل مع المواقف غير السارة ، ونناقش معهم المخاطر التي يمكن التعرض لها ، كما نناقش معهم قواعد السلوك الأخرى ..

إن واجبنا كمربين أن نقرر الحدود الأساسية التي على الأولاد أن يسلكوا في نطاقها ، لكن علينا أن نتركهم يقررون لأنفسهم ضمن هذه الحدود..

---

(١) كيف تنشيء طفلًا يتمتع بذكاء عاطفي - لورانس إ. شابيرو - ص ٤٥٨ - ٤٦٣ بتصرف

(٢) على سبيل المثال ، ليس من الضروري أن يبوحوا بأسمائهم وعناوينهم لأحد لا يعرفونه ..

إن هذه هى الطريقة الوحيدة الصحيحة حتى لا يتقدم العمر بالابن دون أن يتطور تفكيره ، ومقدرته على اتخاذ القرارات المناسبة . ومن ثم تحوله من الدوران فى أحلام الأماني ، إلى التقدم إلى معطيات الواقع ، والتفكير فى سبل التعامل مع الجديد عبر تدريب عضلة المستقبل .

- **الممــارسة تصــنع التفوق :**

" يتهرب أكثر الأطفال من أداء واجباتهم المنزلية ، ويماطلون فيها حتى اللحظة الأخيرة ، وإذا قاموا بها قاموا بذلك بسرعة شديدة لا يبذلون فيها أدنى جهد ..

يشعر الآباء بالإحباط وخيبة الأمل ، فهم يريدون لأبنائهم الدرجات الممتازة، وهم يؤمنون أن الواجبات المنزلية تقوي مهارات الأبناء ، فالممارسة تصنع التفوق..

أمّا الأبناء فيرون الواجبات عملًا متكررًا ومملًا ، بل وربما نظروا إليها كلون من ألوان العقاب .. !!!

ونحن نريد أولًا أن نؤكد على أنه ما لم يكن لدى الابن الدافع الداخلي لإتمام واجبه المنزلي ،فلن تجدى محاولاتنا الخارجية لإلزامه ..!!

ولذلك فإن أول ما يجب أن نعلمه نحن أن الواجبات المنزلية هى مهمة أبنائنا، وليست مهمتنا نحن ..إنما نحن فقط يمكننا القيام بدور المساعدة والمعاونة فقط .. وليس القيام بالواجبات بدلًا منهم ..

نعم أخى الأب والمربي .. لا تفعل هذا الخطأ ، ولا تقع فى ذلك الشرك .. وإذا كنت قد وقعت فيه قبل ذلك ، فعليك أن تتوقف من اليوم ، وعليك أن تخبر ابنك أن مهمتك تجاهه هى المساعدة ..

وابدأ فى تحديد وقت ثابت للقيام بالواجبات المنزلية ، ولا بأس بالتشاور مع الابن فى تحديد الوقت المناسب لذلك .. ومن ثم تحديد أوقات النشاطات الأخرى كالرياضة أو ممارسة الهوايات ..

فإذا بدأ الابن فى القيام بواجبه ، فيمكن أن نساعده فى بعض الأسئلة التى قد يشكل عليه حلها ، وذلك عبر نقاشها معه ليتأكد لديه أن كل مشكلة لها حل ... ونشجعه فى كل خطوة من خطوات الحل : " لقد قمت بأداء الخطوة الأولى بشكل صحيح ، وأنا وثق أنك ستقوم بأداء الثلاث خطوات التالية دون مساعدتى "(١)

فإذا انتهى الابن من واجباته بسرعة ، فلا تعاقبه على أدائه السريع لواجباته ، طالما أنه دقيق فى أدائه ، فإذا كان أداؤه غير دقيق أو غير محكم ، فيمكن حينها أن نطلب منه إعادة الواجبات مرة أخرى ...

ونؤكد هنا أيضًا على أمر فى غاية الأهمية ، وهو ألا نحصر هدف الابن فى الحصول على الدرجات العالية وفقط .. فإن هذا الأمر لا يرشده إلى حب العلم أو معرفة قيمة العلماء بقدر ما يشعره أن عليه اقتحام المادة الدراسية ليحفظها ويتفوق على أقرانه وزملائه ، ويهزمهم بأرقام درجاته .!!!!

" إن تدريب الطفل يكسبه معرفة وعلمًا ، فعندما يبدأ بالنمو ويبتدىء بتشغيل يديه فى عمل من الأعمال فإن ذلك يثير فى عقله اليقظة . فيشاهد أمامه كيف يدرب ويعيد هو بنفسه ذلك العمل ، وهكذا يتقن العمل ، ويتطلع إلى إجادة العمل خطوة خطوة ...

أخرج أبوداود عن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بغلام بسلخ شاة وما يحسن فقال له رسول الله ﷺ: " تنح حتى أريك " فأدخل يده بين الجلد والدم فدحس بها حتى دخلت إلى الإبط..

بمثل هذه التجارب العملية فى تدريب الطفل يمكن أن تتفتح آفاق معرفته ، وتتوسع مدارك ذهنه وعقله ."(٢)

---

(١) كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د. سال سيفير – ص ٢٧٧ – ٢٨٠ بتصرف .

(٢) الانصات الانعكاسي – محمد دباس – ص ٨٢ .

خذ مثالًا :

" يرى الأب ابنه وهو يحاول أن يضع شريط الفيديو بطريقة خاطئة ، فيقوم بهدوء ويقول لابنه : " أنت تريد أن تشاهد هذا الشريط ، وأنت تتعجل فى وضع الشريط ، لذلك فإنك تضعه بطريقة خاطئة ... دعني أضع لك الشريط فى الجهاز وراقبني ، وبعد ذلك أخرج أنا الشريط من مكانه لتضعه أنت " ...

ويراقب الابن أباه فيما يفعل .. ثم يقلده فى كل حركة من الحركات الصحيحة .. وهكذا تنتقل خبرة الأب بمنتهى الهدوء إلى الابن ..

اجعل الابن يقوم مثلًا " بجمع الأطباق والأكواب .. والأم تقف فى المطبخ.. والأب يرتب الحجرات .. والأخت تعنى بالنباتات المنزلية .... ثم فى المساء يشارك الابن فى إعداد العشاء ، وتقوم البنت بكي الملابس مثلًا .. " ولا تجعل شعارك فى التعامل معه " إن ابنى صغير ، ولا بد أن أقوم بهذه الأمور بدلًا عنه " .. وإنما ليكن شعارك " إن ابنى إنسان ويمكنه أن يقوم ببعض الأعمال وينجزها بشكل صحيح "[1] .

وقم بتدريبه ، ولو تعرّض فى تدريبه للخطأ ..!!

نعم .. إن ممارسة الابن لبعض التجارب قد يوقعه فى بعض الخطأ والألم، ولكن هذا الألم فى حقيقته رحمة نرحم بها أبناءنا بتعليمهم الخطأ من الصواب بعاطفة منضبطة . ، وتدريبهم فى ذات الوقت على الطاعة للوالدين ؟!

" إن الذين يرغبون فى إنضاج أبنائهم بعيدًا عن النصائح المباشرة هم الذين يستطيعون تعليم الأبناء من خلال سلسلة من الأعمال الصغيرة ، ويتفاعلون معهم وينقلون لهم كل القيم السامية التى يحلمون بها "[2] عبر خبرات واقعية ، ومران عملي .. وليس من خلال نصائح نظرية لا تحمل جنين العمل ..

---

(١) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د. سبوك – ص ١٢٩ بتصرف

(٢) المصدر السابق – ص ١١٦ .

" .. فهذه أمهات أبناء الصحابة عليهم رضوان الله تعالى يشجعن أطفالهن على الجهاد ومقاتلة الأعداء دونما خوف عليهم أو حماية زائدة لهم ..

فقد روى ابن أبي شيبة عن الشعبي : أن امرأة دفعت إلى ابنها يوم أحد السيف فلم يطق حمله ، فشدته على ساعده بنسعة ، ثم أتت به النبي ﷺ، فقالت : يا رسول الله ، هذا ابني بفاعل عنك ، فقال النبي ﷺ: أي بني احمل ها هنا ، أي بني احمل هاهنا ، فأصابته جراحة فأتى النبي ﷺ فقال : أي بني لعلك جزعت ، قال : لا يا رسول الله .

وروى ابن عساكر عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : رد رسول الله ﷺ عمير بن أبي وقاص عن مخرجه إلى بدر واستصغره ، فبكى عمير رضي الله عنه فأجازه ، قال سعد فعقدت عليه حمالة سيفه ولقد شهدت بدرًا ، وما في وجهي إلا شعرة واحدة امسحها بيدي .

فهؤلاء تربوا على الجهاد ، ولم يعرفوا التثاقل أو الكسل أو الخمول ، إنما كانوا يحاولون بشتى الوسائل الخروج ومقاتلة الأعداء ، لينالوا إحدى الحسنيين ، لذا بنوا حضارة ومستقبلًا مشرقًا . "(١) .

وهذا مثال آخر من واقعنا .. " أساهير " الطالب الياباني الذى بعثته حكومته فى ألمانيا يقول : لو أنني اتبعت نصائح أستاذي الألماني الذى ذهبت لأدرس على يديه فى جامعة هامبورغ لما وصلت إلى شيء ، كانت حكومتي قد أرسلتنى لأدرس أصول الميكانيكا العلمية ، كنت أحلم أن أتعلم ، كيف أصنع محركًا صغيرًا؟! ..

وبدلًا أن يأخذني الأساتذة إلى معمل ، أو مركز تدريب عملي ، أخذوا يعطوني كتبًا لأقرأها ، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها ، ولكنني ظللت أمام المحرك ، أيًا كانت قوته وكأنني أقف أمام لغز لا يحل !!

---

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا – أكرم عثمان – ص ٥٢.

وفى ذات يوم ، قرأت عن معرض عن محركات إيطالية الصنع ، وكان معي راتبي ، وجدت فى المعرض محركًا قوة حصانين ثمنه يعادل مرتبي كله، فأخرجت الراتب ودفعته وحملت المحرك وكان ثقيلًا جدًا ، وذهبت إلى حجرتي وقلت لنفسي: هذا هو سر قوة أوروبا ، لو استطعت أن أصنع محركًا كهذا لغيرت تاريخ اليابان .. بعد أن رفعت الغطاء جعلت أفككه قطعة قطعة رسمتها على الورق بغاية الدقة ، وأعطيتها رقمًا ، وشيئًا فشيئًا فككته كله ، ثم أعدت تركيبه ، فشغلته فاشتغل ، كاد قلبي يقف من الفرح ، استغرقت العملية ثلاثة أيام ، كنت آكل فى اليوم وجبة واحدة ، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكنني من مواصلة العمل " [١]

أخي المربي - أبا وأمًا - هذه النصيحة التربوية أصوغها لك فى كلمات ..

درّب طفلك على الطرق التى تؤهله للنجاح ، وعلمه ضرورة بذل الجهد لتحقيق الأهداف .. وادفعه إلى ممارسة العمل بنفسه .. فإن كل ذلك هو سبيله إلى التفوق .. فالممارسة تصنع التفوق .. والمران يورث الإتقان .

❋❋❋

---

(١) علو الهمة – محمد أحمد إسماعيل – ص ٢٩٥ .

الفصـــل الثالث
الاتكالية .. بحر الحرمان

ينظر الآباء إلى الأبناء ، فكلما عجزوا عن القيام بشيء قالوا : " غدًا يكبروا ، ويستطيعوا الإعتماد على أنفسهم " !!

ويقوم الآباء للأبناء بكل ما يحتاجونه من مأكل ومشرب وملبس ، دون أن يكلفوهم عناء خدمة أنفسهم أو القيام بواجباتهم .. !!

ثم نسمع شكوى الآباء من أن الأبناء " لا يقومون بواجباتهم الدراسية ولا يذاكرون .. أو يشترطون لذلك أن تفتح الأم للابن حقيبته وتسأله ما يحتاجه منها .. أو غير ذلك من " الشروط " للقيام بواجباته ؟!!

ولو بحثنا وراء الأسباب التى تدفع الآباء إلى ذلك ، سمعنا كلمات من مثل " إننا نحبهم ، ونخاف عليهم ،،

ولكن ذلك الحب وهذا الخوف لا يؤدى إلا إلى قتل الروح الإستقلالية لدى الأبناء .. وإخراج جيل إتكالي لا يتحمل أدنى مسؤولية ، يشكو منه أكثر الآباء ، وهو – بكل إنصاف – من صنع أيديهم .!!

فكيف نخرج أبناءنا من الاتكالية إلى الإستقلالية والجديّة ، والعمل من خلال المبادرات الذاتية ؟!

• لا للرعـــاية الزائـــدة :

إذا حدثت أي أب عن الأساليب التى يمكنه من خلالها مساعدة أبنائه ، فلا شك أنه سينصت إليك بإهتمام بالغ ، فهو يريد أن يعرف كل ما يمكن أن يقدمه لأبنائه تلبية لاحتياجاتهم وتحقيقًا لرغباتهم من مأكل ومشرب وملبس ، ناهيك عن الألعاب والتسليات المختلفة .. !!

ولكن .. هل المساعدة التى يجب تقديمها لأبنائنا تكمن فى توفير كل ما يحتاجونه ؟!! أم أن المساعدة الحقيقية لهم ، إنما تكمن فى تنمية روح المسؤولية فى نفوسهم ، وإبراز شخصيتهم ، وتنمية الثقة لديهم ، وتشجيعهم على اتخاذ القرارات المناسبة فيما يخصهم ويتعلق بحياتهم ؟!!

" إن بعض الآباء يبالغون فى مساعدتهم للابن حتى لا يتركوا له أية فرصة للإعتماد على نفسه مما يفوت عليه أن يتعود الإستقلال وتحمّل مسؤولية شيء ، وعندما يكبر هؤلاء الأطفال قليلًا ، يكتشف الآباء أنهم بالفعل غير قادرين على القيام بشيء دون مساعدة الآخرين . هؤلاء الأطفال رغم آلاف الأوامر من قبل الآباء والمدرسين من باب نظف نفسك ، حافظ على كتبك ، لا تصادق فلانًا ... ومع ذلك فأخطاؤهم مستمرة .

والسبب أن الآباء لم تكن البداية فى تربية الطفل على الإستقلال فى وقت مبكّر مما يجعل إصلاحهم بدرجة كبيرة من الصعوبة .

خذ مثالًا :

إن الأب أو الأم التى تحل واجبات طفلها أو تقف على رأسه فى كل حرف أو رقم ، من الصعب أن توفر لولدها أي قدر من الإستقلالية والشعور بالمسؤولية ، إنه يصبح مقتنعًا بأنه ليس أهلًا للمسؤولية ، وأن أمه أو أباه أو أى إنسان آخر سواه قادر على حمل أعبائه .!!

وهنا يكمن الخطر .. !!!! " [1] والخطأ التربوي .. فالرعاية الزائدة للابن تخرجه قليل الثقة بنفسه ، فإذا اصطدم بواقع الحياة ، وجاء اليوم الذى يجب أن يعتمد فيه على نفسه ، عجز عن التفاعل مع الحياة ، وفقد كل قدرة على التوفيق بين استعداداته وقدراته ، وبين متطلبات البيئة التى حوله ؛ فيكون مصيره هو الفشل ، ومن ثم الإحباط .. وربما الأمراض النفسية !!

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د/ عادل رشاد غنيم – ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

و" مثل هؤلاء الآباء الذين يقومون عن أبنائهم بكل ما هو مطلوب منهم ، لا شك أن لديهم النية الحسنة لكنهم بذلك يتجهون نحو كبت النمو الطبيعي للأبناء .. هؤلاء الآباء لا يكونون مرتاحين لازدياد اعتماد الطفل على نفسه ؛ لأن دورهم بذلك يصبح مهددًا ..فيتدخلون لحماية أبنائهم ، فيصبح الأبناء أقل اعتمادًا على أنفسهم ، فيتدخل الآباء مرة أخرى لتصحيح ذلك .. وهكذا عجلة لا نهائية من التصرفات الخاطئة تربويًا ..

لا شك أن بعض الأبناء يثورون ويفرون من هذا الكبت ، ويحاولون تخليص أنفسهم من وطأته ، وقد تفشل كل الجهود المبذولة لإقناعهم ، ليس لكون الكلمات غير فعالة، ولكن لأن سبب ثورتهم قد تم تجاهله ، فحتى يتوقف الآباء عن اهتمامهم الزائد بالأبناء ، فلن يتغير شيء.. وحتى يترك الآباء والمربين للأبناء حياتهم الخاصة دون تدخل فى كل صغيرة وكبيرة ، فإن لغة التواصل محكمة الصياغة لن يكون لها الأثر طويل المدى على الأبناء " (١)

والأب الذى يأخذ على عاتقه كل ما يتعلق بالابن ، يدفع الابن إلى النمو ، ولكن دون أدنى نضج ذاتي !! ذلك أنه عاش على ذات أخرى .. فيفشل فى تحقيق ذاته ، ويبقى طفلًا من حيث عدم الاستعداد لتحمل أية مسؤولية ، والاعتماد الكامل على غيره .. فهو يفتقد مهاراته الإجتماعية الأولية ، لديه صعوبة شديدة فى اتخاذ أصغر القرارات .. لا يعرف مما حوله من العالم شيئًا .. ومن ثم فهو ضعيف الإرادة والعمل .. لديه اعتماد زائد على الآخرين سواء كانوا من زملاء الدراسة أو من زملاء العمل ..

كما أنه لا يراعي – إن أدرك – مشاعر الآخرين ، ولا يقدرها ، فقد تعوّد على أن يريد ما يريد وقتما يريد ، ومن هنا ، فهو لا يبذل جهدًا خاصًا ، وإنما يظن أن الجميع يجب أن يخدموه ..

---

(١) كيف تقولها لأطفالك – بول كولمان – ص ٣٩٣ بتصرف يسير .

إن الرعاية الزائدة لأبنائنا ، وعدم تدريبهم على المحاولة والمثابرة فى العمل والاجتهاد ؛ أنتجت لنا أجيالًا مشوهة تربويًا ، حتى رأينا من يتجنب العمل حتى لا يسقط فى الفشل .. أو من يبتدع الوسائل لتبرير فشله فيظهر غرورًا معكوسًا لتبرير عجزه وعدم رغبته فى القيام بالعمل فى صورة حقارة العمل الموكل إليه القيام به ، وعدم جدواه أو فائدته .. أو أخيرًا بوصف من يقومون به أو ينجحون فيه بأنهم منافقون أو حمقى وأغبياء !!!

بل إن الأمر تعدى المظهر الخادع إلى القناعة الذاتية ، فرأينا من هؤلاء من يرى فشله لونًا من ألوان عدم الانسجام مع العمل الذى يفترض أن يقوم به ، أو الطامة الأكبر اعتبار فشله فيه لونًا من ألوان تفرّد الشخصية !!!!

بل لا نبالغ إن قلنا : إن هذه الرعاية الزائدة هى التى أخرجت لنا أناسًا على درجة عالية من الخلق والأمانة ، ولكنهم يفتقدون ما يكفى من الكفاءة والحنكة وحسن الإدارة لقيادة أعمالهم فى سبيل النجاح ..

ربما قال بعض الآباء : وهل نترك أبناءنا لهموم الحياة وآلامها ، ونحن نقدر على دفعها عنهم؟

وهنا نقول : لا توجد أدنى فائدة من حماية أطفالنا من الهموم والآلام التى لا يمكن تجنبها ، بل إن محاولة حمايتهم منها لا تعود عليهم إلا بالضرر البالغ ، و بدلًا من أن نحاول حماية أطفالنا من مواجهة المشكلات ، فلنحاول أن نساعدهم عبر الصدق معهم فى أكثر المواقف إيلامًا ، فقط نقوم بشرح المواقف التى يواجهونها ، وكيفية التغلب عليها .. فيتعلمون هم من ذلك كيف يواجهون أكثر المواقف إيلامًا، وكيف يستطيعون التغلب عليها ؟!!

فإذا كان لدى الابن واجبات مدرسية – مثلًا – فليس من الحكمة التربوية أن يقوم الأب بها .. ، وإنما يعاونهم في أدائها .. وإذا اشتكى الابن من صعوبة

الواجبات ؛ قام الأب بتقسيمه إلى أجزاء ليقدر على القيام بها ، وإذا شكى صعوبة مادة من المواد الدراسية ، قال له : " فلنبدأ بها وأنا معك أساعدك " ..

وهكذا ، تنحصر وظيفة الأب أو الأم ، فى المساعدة فى القيام بالواجبات ، وليس القيام بها وأدائها .

وإذا كنت- أخي المربي أبًا أو أمًا - قد وقعت فى هذا الشرك قبل ذلك ، فعليك أن تتوقف من الآن ، وتؤكد ذلك لأبنائك " إن مهمتى هى المساعدة " وأمّا إنجاز العمل فهو مهمتكم أنتم .

قد يقول البعض من الآباء والمربين : إن من الأسهل والأسرع بل وربما الأفضل أن أقوم بنفسي بالعمل بدلًا من أبنائى.. إن قيامهم به قد يتطلب وقتًا أعلمهم فيه لكي يقوموا به بدلًا مني ، وهذا الوقت ربما فاق وقت العمل نفسه ..

ونحن نقول : إن هذا قد يكون صحيحًا إلى حد ما ، وقد يكون أفضل على المدى القصير .. ولكنه ليس الأفضل على المدى الطويل ، بل الأفضل والأنفع لك ولأبنائك أن تصبر على تعليمهم ، وتقبل ما يؤدونه من أعمال ليست على الدرجة المطلوبة من الاتقان ، وتتعود مع ذلك على التسامح والتغاضي عن أخطائهم إذا أخطأوا ، وتوجيههم وتشجيعهم إذا أصابوا . ذلك أن دورك - أخي المربي - هو تعليم الابن كيفية العمل ، وليس القيام بهذا العمل بدلًا منه .

والنصيحة التربوية هنا :

عليك بتعليم ابنك التفكير فى مشاكله ، ومحاولة حلها عبر قراراته هو . فإذا أصاب فلا بد أن تشيد بقراراته الصائبة .. وإذا جانبه بعض الصواب ، فعلمه ما هى النقاط التى لا بد أن يأخذها فى اعتباره فى المرة القادمة حتى يدرك الصواب ..

قدّم لابنك مساعدة حقيقية ليتمكن من معرفة البدائل لما اتخذه من قرارات ، وكيف يختار ويحدد مستقبله ..

واعلم أن " الأب الذى يساعد الطفل على إنجاز كل شيء بإتقان ، أو يحاول أن يحميه من أى خطر [(١)] ينتقص من قدرة الطفل على إنضاج حس المسؤولية لديه ، ويحد من احتمال أن يصبح جديرًا بالثقة . لماذا يكلف الطفل نفسه مشقة النظر إلى اتجاهى الطريق قبل اجتياز الشارع إذا كان مستوثقًا أن شخصًا ما سيقوم عنه بهذه المهمة ؟ " [(٢)].

إن بعض الآباء " يستمتعون بإعطاء أبنائهم النصائح ، ويودون أن يعالجوا مشكلاتهم بدلًا منهم !!

وهم فى ذلك – بالطبع – محبّون لأبنائهم غاية الحب ، لأنهم يرون أن ذلك يحمي الأبناء من القرارات غير الصائبة .. ولكن هذه ليست هي طريق التربية الأفضل ، فهناك أوقاتًا يجب علينا فيها ترك الابن ليفكر لنفسه ، ودورنا هنا هو تعليم الطفل قبل اتخاذ الخطوة .. التعليم بدلًا من تقديم الحلول .

و هذا التعليم والتدريب على حل المشكلات الخاصة يجب أن يبدأ مع الأبناء منذ الصغر ، حتى يكون لديهم خبرة كافية على ذلك عند الكبر ..

و مما يساعد على هذا التعليم توجيه تفكير الطفل عند اتخاذه لأى قرار :

" ماذا فعلت ؟ " .. " ما الذى تنوي فعله ؟ " .. ما هي القاعدة التى تحتكم إليها فى تصرفك " ...

خذ مثالًا على ذلك :

الأم : ماذا فعلت يا سمية ؟

سمية : لقد كان أحد يسخر مني يا أمي ...

الأم : فقط أسألك ماذا فعلت ؟

سمية : لقد ضربته !!

---

(١) إن المرء يتعرض للمخاطر إذا لم يخاطر.

(٢) عصرنا والعيش فى زمانه الصعب – د. عبد الكريم بكار – ٣٢١.

الأم : هل ترين ذلك هو القرار الصائب ؟

سمية : صمت .

الأم : ماذا يمكنك أن تفعلي بدلًا من ضربه ؟

سمية : كان يمكن أن أنصرف وأتركه ..

الأم : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .. كان هذا التصرف هو الأفضل ..

ربما سيكون من الأفضل فى المستقبل أن تتصرفي على هذا النحو الطيب الذى وصلت إليه عبر التفكير ..

وهكذا .. قامت الأم بإعطاء الابنة البديل السلوكي – إن صح التعبير – الذي يجب أن تسلكه حين تواجه نفس المشكلة مرة أخرى .. وهذا بلا شك يخرج الابنة عن الاتكالية على غيرها فى حل مشاكلها ..؟!

إن هذه الاتكالية من الأبناء على الآباء شرك تربوي يجب على الآباء الانتباه له.. ولا يمكنهم الانتباه وعدم السقوط إلا أن يعرفوا ما هي الأسباب التى تدفعنا كآباء للسقوط فى هذا الشرك التربوي ، ومنها :

١ – " رغبة الآباء فى تعويض ما فقدوه من عطف وحب وحنان أثناء طفولتهم، وذلك بإغراق أولادهم بالحب والتدليل والتسامح أو لكون أحد الوالدين أو كليهما قد حرم من عطف الوالدين أثناء الطفولة .

٢ – رغبة الآباء فى تقليد ما تعلماه فى طفولتهم من آبائهم ، وتطبيق نفس نوع التربية التى تعرضوا لها فى طفولتهم .

٣- وقد يرجع ذلك لسبب خوف الوالدين على الطفل لاسيما اذا كان الطفل الأول او الوحيد او اذا كان ولد وسط عديد من البنات او العكس فيبالغان في تربيته .....الخ

وهذا التدليل – كما قلنا – يؤدي إلى آثار سيئة فى تكوين شخصية الطفل على النحو التالي :

١- يجعل الطفل لا يعتمد على ذاته ولا يقوم بمزاولة أي نشاط إلا إذا ساعده الآخرون فيه

٢- يجعل الطفل يطلب الحماية والرعاية بصفة مستمرة ولا يستطيع التحرر من والديه بسهولة .

٣- يجعل الطفل لا يستطيع الشعور بالمسؤولية، ولا يقدر المسؤولية . ولا يقوى على رفض طلباته ، ولذا فهو يتعرض للإضطراب النفسي عندما تقف فى طريقه عقبة أو يتعرض لمواقف إحباطية " [١] .

٤- لايثق في قراراته التي يصدرها، ويثق في قرارات الآخرين، ويعتمد عليهم في كل شيء ويكون نسبة حساسيته للنقد مرتفعة .. وتحصل له مشاكل في مواجهة الحياة مستقبلا بسبب ان هذا الفرد حرم من اشباع حاجته للاستقلال في طفولته ، فأصبح رخو النفس ، معتمدا على الآخرين دائما .. فى ظروف حياتنا التى لا ترحم رخاوتنا !!

ومن هنا وجب علينا كآباء البعد عن التدليل وتلبية جميع رغبات الأبناء ، لأن هذا اللون من التربية التى تتسم بالحماية الزائدة يؤدى إلى عدم القدرة على مواجهة الواقع ، كما يخرج شخصية تعانى من الخضوع وعدم الإتزان الإنفعالي .. والاعتماد السلبي على الآخرين ..

ولكن عدم التدليل مخافة الرخاوة النفسية ، والاعتماد السلبي على الآخرين ، لا يعنى " القسوة فى التربية على الأبناء، والإكثار من زجرهم وضربهم على الأخطاء التى يقعون فيها . أو النقد المستمر لهم من قبل الأبوين ، وملاحقتهم على كل كبيرة وصغيرة حتى يتصورون أنفسهم منغمسين فى الأخطاء ..

كما لا يعني ، سيطرة الأهل على كل شؤونهم وحرمانهم من الخبرات التى تتاح عادة لغيرهم . أو الإكثار من المقارنة بينه وبين إخوته أو أقرانه الأفضل منه

---

(١) سياسات تربوية خاطئة – محمد دياس – ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

حالًا . أو إيحاء أهله له بأنه غير مؤهل لأن يكون شيئًا عظيمًا فى المستقبل ...

فكل هذه العوامل تضعف من ثقة الابن بنفسه بقدر قد يختلف من شخص إلى آخر ، ولكنها جميعًا تترك أثرًا ما» .. [1] . وتؤهل الابن إلى قبول الوصاية من الغير، بل والتطلع لهذه الوصاية والرغبة فيها ..!!

قصة رمزية :

أرادت دجاجة أن تغطى بجناحيها أفراخًا قد خرجت من بيضها وكبرت ..

فقالت الأفراخ : لسنا فى حاجة إلى عنايتك ، نحن نكره ثقلك على أنفسنا ..

فقالت الدجاجة : نعم قد تكن غير محتاجات إلي ، وأما أنا فلا أستغني عنكن، أولًا لأنه يلذ لي أن ألقي ثقلي على شيء حتى يرتفع شأني ، وثانيًا : لأني آكل ما أعد لكن من الحب ..

هذه قصة الطغاة مع المستعبدين .. فما هي عبرتها التربوية ؟

إن رعايتنا الزائدة للأبناء تحرمهم من تطوير شخصياتهم ، وهى فى ذات الوقت تؤهلهم لقبول الوصاية من الغير ،حتى لو كانت هذه الوصاية تضرهم وتفسد عليهم أعمالهم ، وتضيع حقوقهم ..

فلننظر كيف نربي أبناءنا لنخرجهم من تحت وصاية الطغاة ..

- **دعهم يكتشفون الحياة :**

كثير من الآباء يدفعه حب الابن إلى الإفراط فى العناية به و " إسعاده"!! حتى لو أصبح من فرط عنايتهم حطامًا عديم الجدوى ..

ولا يعلم هؤلاء الآباء أن " السعادة التى يريدونها لابنهم إنما هي حصيلة العمل والكدح فى الحياة ، وأنها تقتضي – أحيانًا – أن يتذوق طعم الفشل !!

لسنا بالطبع فى حاجة أن نخطط لفشله ، وإنما نقول : أننا إذا وجدناه يقابل

---

(١) دليل التربية الأسرية – أ. د / عبد الكريم بكار – ص ٧٨ ، ٧٩ . بتصرف يسير .

مشاكله الصغيرة بالبكاء والعجز ، لم نسترضه بالقيام بمواجهتها بدلًا منه ، وإنما نبقي على رباطة جأشنا حتى يستطيع هو مواجهة العاصفة ، وإن أحس من مواجهتها برودة القدمين ...!!

ولا نقوم باتخاذ القرارات التى تخصه خوفًا من وقوعه فى الأخطاء ، أو رغبة فى حمايته من النتائج التى قد تكون مؤلمة ..!!

إننا – إن نحن فعلنا ذلك – حرمناه من فرص التعلم واكتساب المهارات ..و أعطيناه فى ذات الوقت إحساسًا بعدم القدرة على اتخاذ قراراته بنفسه ..

إن العالم الذى نعيشه لا بد فيه من أن نتعلم كيف نتعامل مع الإحباط والقسوة والحساسيات والعمل من أجل حياة أفضل ، ونحن كآباء لا بد أن نساعد أبناءنا على تطوير مهاراتهم لعمل هذه الأمور ومقاومة تلك المعوقات

ولذلك فإن من الحكمة التربوية أن نؤكد : " كلما أظهر أبناؤك نضجًا ؛ فامنحهم مزيدًا من الحرية فى اختيار أفعالهم ونشاطاتهم .. بل وحفزهم على القيام بما يخصهم من أمور ، واعلم أن هذا يشعرهم بقدرتهم على تحمل المسؤولية ، ويعطيهم ثقة فى أنفسهم " .. " ولا تحاول أبدًا زرع الحكمة فى طفلك ، أو تحرمه من الشعور بعواقب أفعاله .. دعه يجرّب كيف تسير الدنيا ، قبل أن يحصل على حكمته الخاصة ..

لا تحرم ابنك من الخبرات ،ولو سببت له بعض الألم ، فهو بحاجة للشعور بالحياة لكى يتعلم منها . "(١)

خذ مثالًا :

" قد يختلط الطفل فى الشارع أو المدرسة بمستويات أخلاقية دنيا .. نعم هذه حقيقة .. ولكن البديل المتمثل فى تقييد الطفل فى البيت أشد ضررًا من تعريضه لمخالطة تلك المستويات الدنيا من البشر ؟! لأن هذا التقييد والحبس وعدم المخالطة

---

(١) حاول أن تروضني – راى ليفي – ص ٧٨ .

مع المجتمع بكل طبقاته وأجناسه ؛ سيعرض شخصية الطفل للضمور .. ثم الإضطراب والحيرة عند مخالطة المجتمع فيما بعد ..

إن " خسائر " النزول إلى الشارع أقل بكثير من خسائر البقاء مقيدًا داخل البيت .. و مع قيام الأب بعملية غسيل يومية لما أصاب الابن من قذر الطريق أو المدرسة! " [١]. فهو يدرّبه على تكوين الصداقات منذ الصغر لأن " تكوين الصداقات تعد مهنة يصعب تعلمها بعد مرحلة الطفولة ، فهى تشبه العوم الذى يسهل على الأطفال تعلمه إذا ما تم تعويدهم على النزول فى الماء وهم حديثو العهد بالمشى ، ولكن عندما يحاول الكبار تعلم العوم لأول مرة فإن أجسامهم تتصلب وتصير حركتهم غير طبيعية .. " [٢].

إنه ليس من الحرص على الأبناء أن نحجر عليهم التحاور مع الآخرين أو البقاء بلا أصدقاء .. فإن ذلك لا يحميهم من الضياع ، بل لا نبالغ إن قلنا أن هذا قد يكون من أكبر عوامل التمرد على سلطة الآباء ، ومن ثم مصادقة أى أحد بلا مشورة من أحد .. ومن ثم يكون الضياع !!!

ومن هنا وجب تدريب الأبناء على اختيار أفضل الأصدقاء .. ولا يعنى هذا إجبارهم على أصدقاء بعينهم ، وإنما يعنى بالضرورة توضيح أهمية الدور الذى يلعبه الأصدقاء فى حياة الإنسان .. توضيح ذلك بالصورة التى تتناسب مع عمر الابن ، ففى سن الثالثة إلى السابعة نحاول توفير أنشطة مشتركة بين أبنائنا وغيرهم من الأطفال ، وبالطبع تعد أجهزة الكومبيوتر من أهم العناصر فى تحقيق هذا الهدف..

---

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج ٢ ص ١٩٣ .

(٢) راجع إن شئت " كيف تنشىء طفلًا يتمتع بذكاء عاطفي – لورانس إ. شابيرو ".

وأمّا فى مرحلة ما بين سن السادسة والثانية عشرة فيتم تشجيع الابن على إقامة صداقات مع الآخرين ، ودفعه إلى أن يقص عليك تجاربه فى ذلك ، واحذر أن تنقص من قدر المشاعر الإيجابية تجاه أصدقائه ، وفى ذات الوقت عليك مقاومة الميل إلى مشاركة الابن شكواه من زملاء الدراسة .. فقط اصغ السمع لابنك وهو يشكو...

ثم أخيرًا تأتى مرحلة ما بين سن التاسعة والثانية عشرة .. حيث يأتى دورك فى حل المشكلات الناشئة عن صداقات أبنائك وفق خبرتك الخاصة فى الصداقة فى الحاضر أو الماضى ..

وهنا لا بد من التأكيد على أنه يجب أن نحتفظ بمشاعرنا نحو أصدقاء أبنائنا ، ونتجنب إبداء النصائح المباشرة بهذا الخصوص ، وإنما نؤكد لأبنائنا دائمًا على أهمية الصبر والتحمل .. فإذا أراد الابن قطع علاقته بصديقه ؛ فيجب أن يكون هذا قرارًا خاصًا به وحده ، ذلك أن أى إختيار خاطىء من غيره قد يدفعه إلى تجنب الأصدقاء جميعًا ، والميل إلى العزلة عن المجتمع !!

أيها الآباء .. أيها المربون .

إن إحدى أخطائنا التربوية الكبرى ، أننا نريد أن ندخل حكمتنا وتجربتنا إلى رؤوس أبنائنا بنفس السرعة التى يدخل بها مصل شلل الأطفال إلى مجرى الدم .. وعلى الرغم من أن هذه الأمنية جميلة ، إلا أننا يجب أن ندرك أن أبناءنا لا يمكن أن يكتسبوا الحكمة بهذه الطريقة .. ذلك أن هناك طريقة واحدة ناجحة ألا وهى المرور بالتجربة والخطأ على مدى فترة طويلة من الوقت ..

قد تؤلمنا تجاربهم أكثر مما تؤلمهم .. ولكننا لا بد أن نوقن أن هناك طريقة وحيدة ليصبحوا حكماء ؛ بل ومبدعين .. هذه الطريقة هى أن يكتشفوا بأنفسهم حقيقة الحياة بالجهد والمحاولة ، ودون وصاية من أحد ..

فهل نجعل شعارنا جميعًا - كآباء ومربين - دعهم يكتشفون الحياة ؟!

● **الاستقلالية طريق النجاح:**

" الوضعية العامة لأمة الإسلام ـ اليوم ـ تبني لدى الأبناء النفسية السلبية ، فالابن لا يسمع من أبويه منذ تفتح وعيه سوى التلاوم والشكوى من سوء الأحوال ، والتأفف من هيمنة الأعداء ، إلى جانب التذمر من سوء الخدمات التى تقدم للناس ... وهكذا يشعر الابن أن كل شيء مقلوب رأسًا على عقب ؛ ولذا فإنه يتعلم التذمر والقوقعة ، ويفقد روح المبادرة الشخصية . ومع الأيام يكبر الصغير ويصبح جزءًا من مشكلات الأمة عوضًا عن أن يسهم فى حلها!" (١).

بل يتعلم الابن من هذه الوضعية أن " يلقى اللوم على الآخرين ويتهمهم بالتقصير ، وإثارة المشاكل والتفتيش عن نقاط ضعفهم وأخطائهم ، وسيركز جل اهتمامه نحو الشكوى الدائمة من الظروف المحيطة به ، لأنه لم يتعلم من مربيه سوى أن يشك فى قدراته ، وفى الآخرين من حوله ، فهو لا يثق بهم ، وستكون مشاعره سلبيه ، تميل إلى التشاؤم والإحباط وضعف التوافق مع الآخرين " (٢).

وهذا ما نراه فى شباب أمتنا – إلا من رحم الله – نرى فيهم " شيخوخة الهمم والعزائم ، فالشباب يمتدون في حياة الأمم وهم ينكمشون . وإن اللهو قد خف بهم حتى ثقلت عليهم حياة الجد ، فأهملوا الممكنات فرجعت لهم كالمستحيلات . وإن الهزل قد هوَّن عليهم كل صعبة فاختصروها ، فإذا هزءوا بالعدو في كلمة فكأنما هزموه في معركة . وإن الشاب منهم يكون رجلًا تامًا ، ورجولة جسمه تحتج على طفولة أعماله " (٣) .

ولقد ذكر الرسول ﷺ أصحاب الهمم الضعيفة بقوله : " وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زبر له (أى لا عقل له يمنعه مما لا ينبغي) ، الذين هم فيكم تبعًا،

---

(١) دليل التربية الأسرية – أ. د/ عبد الكريم بكار – ص ٩٢ .

(٢) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا – أكرم مصباح عثمان – ص ٦ .

(٣) وحي القلم – مصطفى صادق الرافعي – ج ٢ ص ٢٣٠ بتصرف .

لا يبغون أهلًا ولا مالًا " رواه مسلم .

نعم إن من يتهيب صعود الجبال ، يعش أبد الدهر بين الحفر ..

" قال عبد القادر الجيلاني لغلامه : " يا غلام ! لا يكن همك ما تأكل ، وما تشرب ، وما تلبس ، وما تسكن ، وما تجمع ، كل هذا هم النفس والطبع ، فأين هم القلب ؟! همك ما أهمك ، فليكن همك ربك – عزوجل – وما عنده " (١) .

نعم .. إن بداية نجاح الابن فى حياته هى الإنتقال من التبعية إلى الإستقلالية .. وهذا لا يعني عدم التعاون مع الآخرين أو الأنانية وحب الذات ، وإنما يعنى الإعتماد على الذات ..

والطفل لكي ينمو نموًا نفسيًا طبيعيًا لا بد له من الشعور بالحرية والاستقلال، والإحساس بأنه قادر على تسيير أموره بنفسه دون معاونة الآخرين .. فهذه الأمور هى المقدمة الصحيحة لثقته بنفسه ، ومن ثم قدرته على تحمل المسؤوليات فى مستقبل حياته .

ومن الأساليب التى تعين الآباء والمربين على الوصول إلى هذا الهدف" وضع الثقة فى الأبناء لكي يصبحوا أكثر ابتكارًا وإيجابية من خلال إعطائهم المزيد من الحرية .. والإيمان بأن الأخطاء البشرية يمكن تخطيها والتغلب عليها عندما يعمل الجميع متعاونين فى جو من الثقة والحرية والاحترام المتبادل ، وذلك عكس ما يحدث حين يكون هؤلاء يعملون فى ظل كم من القواعد والإجراءات والقيود التى وصفها أشخاص آخرون ، هم أنفسهم لا يتصفون بالكمال " (٢) .

ومما يساعد على استقلالية الأبناء ، أن يتعود أهل البيت الحوار والمناقشة فى مختلف الأمور .. والتخفيف من الكلام عن الآخرين وذمهم بينها قد يرى الأبناء أن أهليهم ليسوا أفضل ممن يتحدثون عنهم .. ومن قبل ذلك ومن بعده تعويد الأبناء

(١) علو الهمة – محمد أحمد إسماعيل – ص ٧٧ .

(٢) راجع إن شئت " إدارة الأولويات – ستيفين كوفي – مكتبة جرير – بتصرف يسير ".

ممارسة المقارنة ، فإذا ذكر الابن ميزات أمر من الأمور ، سألناه : وما هي سلبياته ؟ .. وإذا تحدث عن سلبيات شخص من الأشخاص أو طريقة من الطرق .. سألناه عن الإيجابيات ، وإذا لم يجد نبهناه إليها وعلمناه ، وحاولنا إغناء شخصية الابن بالقيم والمبادىء والمفاهيم والعادات والسلوكيات الصحيحة والنافعة ..

ومما يساعد الأبناء على تنمية كفاءاتهم ، وتقوية استقلاليتهم في مواجهة الحياة " التنافس الذي يحرّك في الإنسان عامة – فضلًا عن الطفل – مشاعر وطاقات مكنونة قد لا يعرفها إلا عندما يضع في نفسه منافسة فلان للفوز عليه..

ولنا في رسول الله ﷺ القدوة في ذلك فقد كان يثير التنافس بين الأطفال ، فيجري بينهم مسابقة في الجري ..

أخرج أحمد بن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثيرًا من بني العباس رضي الله عنهم ثم يقول : " من سبق إلي فله كذا وكذا " . قال : فيستبقون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم .

فزرع التنافس بين الأطفال ومكافأة الفائز تشعر الطفل بلذة الفوز ، فيسارع إلى تقديم كل طاقته ، وبذل أقصى وسعه ، ومن ثم يتدرب ويتعلم ، ليري والديه إلى أي درجة وصل .. وهكذا تتفجر الطاقات المكنونة بداخله»..[1] وتتكون لديه إستقلالية في العمل والمحاولة ..

وأمّا أهم السبل التى تعين المربي على تخليص الأبناء من الاتكالية ، فهي أن يتخلص المربي من الأسلوب الإستبدادي الذى يميل إلى السيطرة .. ويحترم رغبات أبنائه ما دامت تحقق الخير .. ويظهر فرحه حين يتصرفون بأسلوب فيه نضج واستقلالية. لأن الابن الذى يتربى بهذه الطريقة " لا ينتظر حتى تكتمل معرفته بالواقع والحياة على أيدي الأبوين .. وإنما يتحرّك هو وسط ظروف الحياة ، بكل جزء من المعرفة يكتسبه ، ويتفاعل مع ما يستجد حوله من أمور الحياة تفاعلًا حيًا ،

(١) الإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ٣٧ ، ٣٨ – بتصرف يسير .

يصلح الخطأ ، ويجعله مصدرًا للخبرة ، وينمي الكفاءة ، ويجعلها سبيلًا لابتكار الوسائل ، فينهض فى يومه بما لم يستطع النهوض به فى أمسه ، ويتحول إلى رفد لأمته، لا إلى عبء عليها .. [١] .

إنه لا بد من قدر من الحرية للابن ليفعل ما يراه الأفضل ، ويتحمل مسؤولية ما فضله .. ذلك أننا كآباء ومربين حين نقرر لأبنائنا ماذا يجب أن يعملوا ، ندفعهم دفعًا – بشكل لاشعوري – إلى الاعتقاد بأنه " إذا كان من يقومون على تربيتنا يقولون لنا دائمًا ماذا يجب أن نعمل ، فسيكون الخطأ خطأهم إذا فشلنا فى القيام بأي عمل .. ومن ثم لا يتحمس الأبناء للنجاح .!! .. ذلك النجاح الذى ليس له طريق سوى الإستقلالية .. فالإستقلالية طريق النجاح .

- **قصة رمزية :**

مال البستاني على زهوره ، فلاحظ نشاطًا محمومًا فى شرنقة بالقرب منه ، وبعد الفحص اكتشف البستاني أن فراشة تريد أن تخرج من هذا النسيج الأبيض القوي . أخرج البستاني السكين من جيبه ، وقام بعمل ثقب لكى تخرج منه الفراشة .. وبعد لحظات ، خرجت الفراشة متعددة الألوان إلى يد البستاني ، ولكن بعد أن تحطمت أجنحتها ووقعت على جانبها ميتة !!!

هكذا .. ماتت الفراشة لأنها كانت تحتاج إلى الكفاح والنضال داخل الشرنقة لكي تقوي أجنحتها من أجل الطيران .. ودون الجهد الذى وضعه الله لكى تواجهه الفراشه ، فإنها لا تستطيع أن تصبح قوية بما يكفى لكى ترتفع فوق الحديقة وتحلق فى يوم من ايام الربيع الهادئة ..

.... ومثل هذا البستاني سلوك بعض الآباء الذين يميلون إلى الرعاية الزائدة لأطفالهم ، فيحلّون لهم كل مشاكلهم ظنًا منهم أن هذا يجعل حياتهم أسهل .. ولكن

(١) مجلة الرائد – العدد ١٢٩ ص ١٨ بتصرف يسير .

الحقيقة أن هذا يؤذيهم لأننا نحرمهم من تطوير الحكمة لديهم من خلال التجربة والخبرة ..

إن القلب الرحيم للبستاني قد منعه أن يجلس بعيدًا ويراقب كفاح الفراشة ، فكانت النتيجة أن حرم جمالها وهي تصفق بجناحيها فوق الورود والزهور ..

وكذلك نحن الآباء لن نستطيع رؤية أبنائنا يمارسون الحياة في قوة وسعادة إذا لم نتركهم يشقون طريقهم وسط النسيج الخشن الذي تحيطهم بها شرنقة الحياة .

نعم .. إن أبناءنا لن يقدروا جمال قمم الجبال حتى يقاسوا صعوبة الوديان ويعانون صعوبات صعودها !!

فإن لم يقاسوا هذه الصعوبات في صعود قمم النجاح ؛ فإنهم – بلا شك – ساقطون في بحر الحرمان ؟!!

❁❁❁

الباب السابع

أَرْشِــــدْهُ

O=Open his eyes

ويشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: صناعة الإنســان الصالح.

الفصل الثاني: مهارة المواجهة برفق.

الفصل الثالث: التأديب لا يعني العقاب.

الفصل الأول

صناعة الإنسان الصالح

نحن ننظر إلى أبنائنا ونتمنى أن يكون هناك مصمم للسلوك البشرى يقوم بتفصيل ألوان من السلوك الراقي لهم ، أو أن يكون هناك قطع غيار لسلوك لا يعجبنا فى أبنائنا فنستبدله بسلوك آخر نراه مناسبًا !!

ولكن هيهات .. ليس هناك مصمم سلوك بشري كمصمم الأزياء ، وليس لنا الإختيار السهل لما نريد من سلوكيات نختارها لأبنائنا كما نختار أقمشة ملابسنا .. وإنما هو الجهد البشري الذى نقوم به بأنفسنا ، فيغيّر الله ما بأبنائنا من سلوكيات لا نقبلها ..

وفى كل الأحوال ، لا بد أن نوقن أن مهمة التربية ليست تفصيل إنسان على مزاجنا ، ولكن تنمية استعدادات إنسان وتهيئته ليعيش بكامل قواه المعنوية والمادية فى هذه الحياة ، على نحو يحقق عبوديته لله تعالى ، ويقدم قدوة السلوك الإنساني لكل الناس فى كل الأرض..

- **أخرجه من عبادة العباد:**

العقيدة هي التى تبني فى صميم وجدان الابن أخلاق الفكر ، وأخلاق النفس، وأخلاق السلوك.. ولذلك فإن المنهاج التربوي الصحيح يبدأ بترسيخ الجانب العقيدي فى قلب الابن، ليصل بشكل هرمي إلى تهذيب أخلاقه.. [1]

وترسيخ العقيدة فى قلب الابن يأتي من خلال التركيز على ما وصفه ابن تيمية رحمه الله .. محبة العامة ، وهي محبة الله تعالى لأجل إحسانه إلى عباده ، وهذه المحبة

---

(١) راجع إن شئت كتابنا " الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة " .. فصل " التربية الشاملة".

على هذا الأصل لا ينكرها أحد ، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها " [(١)]

فيحدّث - الأب والمربي - الابن عن نعم الله الكثيرة ، ويربط بينها ، وبين التزام المسلم لعبادته سبحانه ، ثم تخلقه من خلال هذه العبادة بأخلاقيات الإسلام ، فيقول : " إن الله سبحانه هو الخالق الرازق الكافل الحافظ المنعم المتفضل القريب المجيب الرحيم الودود ، فحياء منه واعترافًا بفضله وشكرًا لنعمته يلتزم المسلم بما يحبه الله ويرضاه ..

إن الله سبحانه هو الجليل العلي الكبير العظيم .. فتوقيرًا لجلاله ، وخشوعًا لعظمته ، وإنابة لوجهه ، يلتزم المسلم بما يحبه ويرضاه .

إن الله سبحانه هو العليم المحيط المطلّع على سر العبد ونجواه ، الخبير بظواهره وخفاياه ، المصاحب له فى كل ما هجس فى خاطره ، وفى كل ما كسبت يداه .. وهو فى الوقت ذاته القادر القاهر المهيمن الجبار ، الذى لا مهرب منه ولا فوت ، ولا مجير عليه ولا راد لحكمه .. كما أنه هو الحسيب الذى يجزى على السيئة بالعدل ، ويجزى على الحسنة بالفضل .. فخشية لجبروته ، وطمعًا فى ثوابه ، وخوفًا من عقابه، يلتزم المسلم بما يحبه ويرضاه .

إن من القلوب ما يذوب خجلًا وحياءً أن يطلع منه الخالق الرازق الكافل الحافظ المنعم المتفضل القريب المجيب الرحيم الودود .. على ما لا يحبه ويرضاه .

ومنها ما يرتعد توقيرًا وتعظيمًا لجلال الله العلي الكبير العظيم الجليل ، أن يطلع منه على ما لا يحبه ويرضاه ..

ومنها ما يمنعه الخوف من العقاب والطمع فى الثواب أن يقدم على ما لا يحبه الله ويرضاه .

وكلها إنما تلتزم هذا الالتزام نتيجة للمعرفة الصحيحة بحقيقة الألوهية." [(٢)]

---

(١) مجموع الفتاوى - ابن تيمية - ج١٠ ص ٨٤ .

(٢) مقومات التصور الإسلامي - سيد قطب - ص ٢١٩ .

وهكذا .. يتعرّف الابن على الله بأسمائه وصفاته ، ويثني عليه سبحانه بما هو أهل له ، حتى يصير الإيمان بربوبيته عزوجل أمرًا راسخًا فى قلبه ، مؤثرًا فى نفسه ، متحركًا فى واقعه .. وليس نظرية باردة فى ثلاجة ذهنه!!

" ويأخذ حظه من عبودية أسمائه سبحانه جميعها " فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر ، فلا يحجبه التعبد باسمه القدير عن التعبد باسمه الحليم الرحيم ، أو يحجبه عبودية اسمه المعطي عن عبودية اسمه المانع أو عبودية اسمه الرحيم والعفو والغفور عن اسمه المنتقم " .. [1] بل يعبد الله سبحانه ويدعوه بكل أسمائه كما أمر سبحانه : " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها" ..

وما كان يسوغ الاتصاف به من صفات الله عز وجل كالرحيم والكريم ، فيدرّب الابن على الاتصاف بها فيما يليق به .

وما كان من صفات الرب سبحانه فيه معنى الوعد كالغفور والعفو والشكور ، فيقف الابن منه عند الرغبة والرجاء .

وماكان من صفات الله عز وجل فيه معنى الوعيد كالجبار والمنتقم وشديد العقاب وسريع الحساب .. فيقف الابن منه عند الخشية والخوف .

وما كان من صفاته سبحانه وتعالى فيه معنى الإطّلاع والعلم ، كالعليم والسميع والبصير ، فيقف الابن منه عند الحياء والخوف أن يراه الله عز وجل حيث نهاه أو يفتقده حيث أمره ، أو يسمع منه منكرًا أو كذبًا ، أو يرى منه معصية أو فجورًا ..

وبالجملة .. يهتم الأب والمربي بإحياء الآثار الإيمانية لهذه الأسماء والصفات من أعمال القلوب كالحب والبغض ، والخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة ، والإنابة والخشوع ، وغيرها .. فى نفس الابن حتى يقر فى قلبه أنه لا حياة إلا بالعقيدة ، فيعيش لها ، ويضحي فى سبيلها بماله ونفسه لأنه يؤثر حب الله على كل حب ، كما

---

(١) مدارج السالكين – ابن القيم – ج ١ ص ٤٥٢ .

أمر الله عز وجل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًا لله﴾ [البقرة:١٦٥] . ولأنه من خلال حب الله الذى يملأ قلبه يفهم قول ربه الذى جمع كل منافع الأرض فى كفة ، ووضع الإيمان فى الكفة الأخرى ، وترك الخيار للناس ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ وَالله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤] ..(١) .

إن الحب هو الصلة بين العبد وبين ربه ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة:٥٤] .. الحب .. هذا الروح الساري اللطيف الرفاف المشرق الرائق البشوش .. هو الذى يربط المؤمنين بربهم الودود .. " وحب العبد لربه نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها .. وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرًا هائلًا عظيمًا ، وفضلًا غامرًا جزيلًا ، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد، لا نظير له فى مذاقات الحب كلها ولا شبيه .. هو إنعام هائل عظيم .. وفضل عامر جزيل .

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمرًا فوق التعبير أن يصفه ، فإن حب العبد لربه أمرًا قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا فلتات قليلة من كلام المحبين ..

وهذا هو الباب الذى تفوّق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين – وهم قليل من بين ذلك الحشد الذى يلبس مسوح التصوف ويعرف فى سجلهم الطويل – و لا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسي مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد ، وهي تقول :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

(١) الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة – المؤلف – ص ١٠٠ .

.... نعم .. ﴿إن ربي رحيم ودود﴾ .. ﴿وهو الغفور الودود﴾ .... ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾ ... ﴿والذين آمنوا أشد حبًا لله﴾ ... ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ .. وغيرها الكثير"[١] .

" وليس للقلوب سرور ، ولا لذة تامة إلا فى محبة الله والتقرب إليه بما يحبه .. ولا يمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه .. وهذا حقيقة " لا إله إلا الله "[٢] .

وهذا الإعراض عن محبة غير الله هو الذى يعطي الابن قوة الرفض النفسي للشرك ، والبراءة منه ومن أهله ، " هذه البراءة التى هي الشرط لقبول الإسلام فى الآخرة .. قال ﷺ: " من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة " – أخرجه مسلم – كما أنها شرط التمكين فى الأرض لقول الله سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥]"[٣] .

ويمكن للأب أن يصل إلى هذا الرفض النفسي للشرك من خلال حكايته وصية لقمان لابنه ﴿يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم﴾ .. فيقول الأب – مثلًا – " يا بني .. هذه نصيحتي لك .. لا تشرك بالله ، فالشرك ظلم عظيم .. والشرك أنواع :

فمنه شرك التقرب والزلفى .. وهذا الشرك يمارسه إنسان يعرف أن الله هو الخالق الرازق المحيّ المميت .. ولكنه يتصوّر أن بعض الكائنات من خلق الله أقرب إلى الله من غيرها ، ثم يرى أنه إذا تقرّب إليها ، فإن ذلك يقرّبه إلى الله!!

(١) فى ظلال القرآن – سيد قطب – ج٢ ص ٩١٨ .
(٢) رسائل ابن تيمية – ص ٣٣ .
(٣) محمد قطب فى التقديم لكتاب مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب .

فهو مثلًا يتقرب إلى الصنم ، ويتمسح به ، أو يقدم له القرابين ، وهو يعلم أنه ليس هو الله ، ولكنه يظن أنه فى مرتبة قريبة من الله !! وهو لقربه هذا يملك أن يقرّب هذا العبد من الله ؟!!!

ربما تقول يا بني : وهل هناك أحد بهذه السذاجة والسخف اليوم؟

وأنا أقول لك : نعم يا بنيّ .. وإن شئت أن ترى ذلك فأنظر ما يحدث حول أضرحة المشايخ و " الصالحين " و " الأولياء " فى أرض الإسلام .. كيف يطلب منهم الملايين أن يقربوهم إلى الله زلفى ؟!!

وأنظر إلى الذين يخشون فى دخيلة أنفسهم غضبة الذين يعظمونهم من ولاة وشيوخ ..!!

وهم كمن قال الله فيهم : ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر:٣] .

وأمّا النوع الثاني من الشرك – يا بنيّ – فهو شرك الطاعة والاتباع .. وسأوضحه لك ..

إن من أحس إحساسًا حقيقيًا بعظمة الله، وأنه سبحانه هو الخالق للكون ، والمهيمن على كل شيء فيه .. إن هذا الإنسان يشعر مباشرة أنه عبد لا يرتفع عن مقام العبودية لهذا الخالق العظيم المتصرف فى الكون .. وهذا الإحساس يؤدي به إلى نتيجة لازمة هي الطاعة لهذا الإله المتفرد بالألوهية دون شريك .. ومن ثم فهو يطيعه فيما أمر وما نهى .. أو أحل وحرّم ..

وأمّا إذا رفض هذا الإنسان الإنصياع لأمر الله ، وتوجه بطاعته لغير الله يأخذ منه ما يحرم وما يحل ، وما يباح وما لا يباح .. فهذا لا يكون فى دخيلة نفسه مقرًا لله سبحانه بأنه الإله المتفرد بالأمر ، وإن أقر له أنه متفرد بالخلق ؟!!

إنه فى هذه الحال يكون قد وضع غير الله فى مقام الربوبية ، واتجه إليه بالعبادة – أي بالطاعة فى قبول التحليل والتحريم – .. تلك الطاعة التى لا يجب أن تكون

إلا لله وحده .. دون سواه ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة ٣١].

.. لقد حدد النبي ﷺ معنى العبادة ، وأنه يعنى الطاعة فى التحليل والتحريم فى قصة عدي بن حاتم حين دخل عليه عدي وهو يقرأ هذه الآية اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح بن مريم " فقال عدي : يا رسول الله ما عبدوهم .. فقال ﷺ: " بلى .. إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم ..

فعدي بن حاتم كان يتوهم أن العبادة هي الركوع والسجود فحسب ، لذلك قال : إنهم لم يعبدوهم ، ولكن الرسول ﷺ بيّن له حقيقة الأمر كما علمه الله ، بيّن له أن طاعة الأحبار والرهبان فى التحليل والتحريم ، بغير ما أنزل الله ، هي عبادة ، ومن ثم فهي شرك بالله .. حتى لو ظل الركوع والسجود يقدم لله وحده ، ولا يقدم لغيره .. لأن الله تعبدنا بتنفيذ شريعته كما تعبدنا بالصلاة .. و بيّن سبحانه وتعالى أن التوجه فى هذه أو تلك لغير الله هو شرك ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ [الشورى ٢١].

وأمّا النوع الثالث من الشرك – يا بني – فهو شرك المحبة والولاء .. وهو قريب من شرك الطاعة والاتباع .. وهو المحبة والولاء للمشركين والكفار .. لأن ولاء المسلم ينبغي أن يكون لله ولرسوله ولعباده المؤمنين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ المائدة ٥٥ – ٥٧ .[1]

(١) راجع إن شئت كتابنا " لماذا نرفض العلمانية " .

ومن خلال هذا الفهم الذى يحاول الأب أن يستقر فى قلب الابن ، يؤكد الأب على أن شعار المسلم يجب أن يكون دائمًا " الولاء لله ولرسوله ولدينه ولعباده المؤمنين ، والبراء من كل متبوع أو مرغوب أو مرهوب يحاد الله ورسوله ..

وأن يحرص الابن على تحقيق عبوديته لله سبحانه بقبول شرعه ، ورفض ما سواه من دساتير أرضية أو قوانين وضعية .. وكره كل منهج يقوم على العبودية لغير الله ، ومعاداة القائمين عليه .. وأن يحتفظ بهذا الكره حتى يجعل الله له مخرجًا... [1] لأن هذا الكره هو الخندق الأخير فى دفاعه عن دينه ، وخروجه من عبادة العباد .. فالإنسان لا يخرج من عبادة العباد ، بل لا يولد ، ولا يوجد ، إلا حيث تتحرر رقبته من حكم إنسان مثله ، وإلا حين يتساوى فى هذا الشأن مع الناس جميعًا أمام رب الناس ..

.. وتلك هي رسالة الإسلام التى عبّر عنها ربعي بن عامر رضي الله عنه فى كلمات يشع منها النور " الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة " .

- أرشده إلى السلوك الحضاري :

" حين يؤدى الإنسان ما عليه من واجبات ، فإنه يشعر بالرضا والإنجاز ، وحين يقوم بعمل زائد عن الواجب ، فإنه يشعر بالأناقة الحضارية .. وهذا ما كان يستشعره عبدالله بن عمر رضي الله عنه حين كان ينزل إلى الأسواق بهدف إلقاء السلام على الناس .. حيث أن إلقاء السلام " سنة " ، بينا رده " واجب " ..

وهذا هو ذات الشعور الذى يجده من يقوم بأعمال ليست مفروضة عليه ، فهو حين يستشعر أنه يعمل " تطوعيًا " يشعر بالتفوق ، وهو إحساس ضروري لتعزيز الثقة بالنفس ..

---

(١) الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة – للمؤلف – ص ٩٨ .

ولا يصل الابن للأناقة الحضارية ، حتى يحس حب الله فى قلبه ، ويستشعر إشراقًا روحيًا فى نفسه .. فيستقيم على أخلاقيات لا إله إلا الله ، ويخوض فى سبيل هذه الإستقامة المعارك الكثيرة فى عالم الروح .. ليحقق فيها الانتصار الروحي .. إنتصار الروح ..

ولكي نساعد الابن على تحقيق ذلك الانتصار ، فإن تربيتنا له يجب أن تقوم على إغناء شخصيته بالقيم والمبادىء والأخلاق الحضارية " على خلاف ما يفعله كثير من الآباء والأمهات حين يقصّرون فى تلقين أبناءهم ما ينبغي أن يلقنوهم إياه ، فإذا أخطأ الابن ، أو قصّر فى أداء واجب ، أقاموا عليه النكير ، ووبخوه .. غير مدركين أن الزجر لا ينفع إلا بعد أن نكون قد وضحنا للابن بشكل دائم وعلى نحو لا لبس فيه الصورة الصحيحة التى ينبغي أن يكون عليها ..

إن الطبيعة تكره الفراغ ، وحين نترك عقل الابن وقلبه خاويين ، فإن غيرنا سوف يملؤهما ، وسوف يتلقى ذلك الطفل بشوق وشغف . الطفل أشبه بالكأس فإذا ملأناها بما نريد قطعنا الطريق على ما لا نريد ." (١)

ولا يعني ذلك الإكثار على الابن من المواعظ ؛ فكثرة المواعظ مملة ، بل إنه يخالف الهدي النبوي فى الوعظ والإرشاد .. فقد كان ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة ، ولا يكثر عليهم ، رغم رغبتهم وحبهم لسماع مواعظه وإرشاداته ..

إن كثرة الكلام في كثير من الأحيان لا تؤتي أكلها .. في حين نجد أن التخوُّل بالموعظة الحسنة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ؛ و هذا ما أدركه الصحابة من فعل النبي ﷺ، فعن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: كان ابن مسعود رضي الله عنه يذكرنا في كل خميس مرة فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن! لوددت أنك ذكرتنا كلّ يوم. فقال: أما أنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملّكم وإني أتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا أي يتعهدنا بها مخافة السآمة علينا. متفق عليه.

---

(١) دليل التربية الأسرية – أ. د/ عبد الكريم بكار – ص ١٩٣ .

و لذلك نصح الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه تلاميذه بقوله: لا تحدث فقهك من لا يشتهيه. كما أن الصحابة أدركوا هذا من فعل النبي ﷺ.

إن البداية الصحيحة لإرشاد الأبناء إلى الخلق الحضاري للإسلام ، هي تجسيد الآباء والمربين لهذه الأخلاقيات فى واقعهم .. فهذا التجسيد هو الذى يثير الإقتداء عند الأبناء ، ويدفعهم لمحاكاة الآباء .

فإذا بدأ الأبناء فى التقليد لأخلاقيات المربي .. أكّد لهم المربي على أن إلتزام المسلم بأخلاقيات الإسلام إنما ينبع من التزامه بما يحبه الله ويرضاه .. " فالأخلاق فى الإسلام قائمة على قاعدة " العبادة لله " ، وهي فى ذات الوقت قيم حضارية أصيلة لأنها ذات صبغة " إنسانية " ، غير محصورة فى جنس ولا لون ، إنما هي صادرة من " الإنسان " بوصفه – إنسانًا – مؤمنًا ، و موجهة إلى " الإنسان " حتى ولو لم يكن مؤمنا بما يؤمن به المسلمون " (١) ... فالمسلم – فى تعامله مع كل الناس - يرفض الغدر ، ونقض الميثاق ، ويرفض كل ما يخالف الإستقامة على أخلاقيات لا إله إلا الله ..

ووسائل الآباء للوصول إلى هدف تعليم الأبناء ذلك السلوك الحضاري الرفيع كثيرة ومتنوعة ، فمنها القصة والمثل وغيرها ..

فمن حكاية الأب لأبنائه وصية لقمان – مثلًا – ، يمكنه أن يكسبهم الكثير من القيم الأخلاقية .. يحكي الأب الوصية ، ثم تتم مناقشة الوصايا على قدر استيعاب الأبناء ، ويستخرج منها القيم الخلقية التى يمارسها الأبناء فى حياتهم العملية ..

كما يمكن للآباء الوصول إلى تربية الأبناء على السلوك الحضاري عبر الرسوم التوضيحية – إن صح التعبير – روى الإمام أحمد فى مسنده عن جابر رضي الله عنه قال : " كنا جلوسًا عند النبي ﷺ فخط بيده فى الأرض خطًا – هكذا

(١) مفاهيم ينبغي أن تصحح – محمد قطب – ص ٢٢٢

– فقال : " هذا سبيل الله " وخط خطين عن يمينه وخطين عن شماله ، وقال : "هذه سبل الشيطان " ثم وضع يده فى الخط الأوسط ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

.. وهكذا استخدم النبي هذا الأسلوب فى الإرشاد والتوضيح حتى لا تمل النفوس أو يضعف انتباه الذهن ، ذلك أن الأذن إذا شاركت فى الفهم سمعًا ، وشاركت معها العين نظرًا ، واللسان ترديدًا ، فإن هذا أدعى أن يكون الفهم أعمق، والفكرة أثبت ..

و السلوك الحضاري للإسلام يتشعب ليشمل كل مناحي الحياة ، ولن أحاول هنا ، الوقوف على كل ما يجب إرشاد الابن إليه من هذا السلوك السامق ، ولكني أريد التركيز على الأمور التى تمثل أهمية كبيرة فى بناء شخصية سوية للأبناء .. ومنها:

– *التمحور حول الهدف :*

القلم الذى أكتب به ليس أكثر من أداة للكتابة ، يستمد قيمته من جودة أدائه لهذه الوظيفة .. والمصباح ليس أكثر من وسيلة إضاءة .. لا ريب أن هناك فروقًا بين درجة جمال مصباح ومصباح ، وقلم وقلم ، وبين كفاءة مصباح ومصباح ، وكفاءة قلم وقلم فى أداء الوظيفة التى أوجد من أجلها ، لكن تلك الفوارق تتصل بنواح جمالية وكمالية ، وليس لها اعتبارات جوهرية ..

والأب المرشد لأبنائه ، لا بد له من الاهتمام بتربيتهم على هذا السلوك الحضاري " التمحور دائمًا حول الأهداف الكبرى " ، وجعلها معيارًا لما دونها ، فالعبادات على اختلاف أنواعها يجب أن تؤدى إلى تحسين صلتنا بالله تعالى وأن تثري مشاعر الحب له ، وإلا فإنها تكون منطوية على خلل ما ، وتحتاج إلى مراجعة ، فقد

يكون لدينا نقص فى الإخلاص أو نقص فى سلامة الآداء ." [١] .. والعمل والكدح فى واقع الحياة ، لا يغفلنا عن توحيدنا وديننا ..

ولذلك نؤكد فى إرشادنا للابن " بُني .. إنك تتقلب فى البلاد العريضة ، وتقيم وتسيح فى الأرض ، وتهاجر وتتاجر ، فأنت وما يوفقك الله إليه ، لا أنهاك عن طلب ثروة وعز ، وإنما أوصيك بدينك وتوحيدك وتوكلك وإخباتك .. فكن يا بني حريصًا على ما حرص عليه نبي الله «يعقوب» عليه السلام لما سأل البشير : كيف يوسف ؟ قال : هو ملك مصر !

فقال : ما أصنع بالملك ؟ على أى دين تركته ؟

قال : على دين الإسلام .

قال : الآن تمت النعمة " [٢] .

يا بني .. إذا لم تحدد هدفك ؛ كانت كل الطرق عندك سواء .. وإذا لم تعرف إلى أى ميناء تتجه ، فكل الرياح غير مواتية .

ـ الثبـات على المبدأ :

تحاصر حضارة " المكسب والخسارة " أبناءنا ، فتجعلهم يفهمون الحياة على أنها ليست أكثر من أرقام !!..

ومن ثم يكون مجال تنافسهم هو الإستهلاك ، وليس الإنتاج والعمل .. بل إن هؤلاء الأبناء يرون أنفسهم محاصرين بالأرقام فى دراستهم ..!! فهم مطالبون بالدرجات العالية فى الدراسة ، وهم يتعلمون من ذلك أن السبيل إلى التفوق هو اقتحام المادة الدراسية لحفظها .. ولا يحدّث واحد منهم نفسه عن أهمية العلم ، فضلًا عن أن يفكر فى أن يحب العلم والتعلم ؟!

(١) دليل التربية الأسرية – د/ عبد الكريم بكار – ص ٥٤

(٢) تفسير النسفي – ج٢ ص ١٢٨ .

وهؤلاء الأبناء فى ذات الوقت لا يرون أن العمل يمكن أن يكون وسيلة تحصيل الرزق أو المكانة فى المجتمع ، بل لا يرون لهذا العمل جدوى أصلًا !!

ولا شك أنه " فى زمان كهذا بات التوكيد على الاستمساك بالمبدأ أكثر إلحاحًا، حيث أن العولمة تشيع فى الناس أخلاقيات (الصفقة) والتى تقوم على إبراز المحاسن وإخفاء العيوب ، وتشجيع التسويات والحلول الوسط ، إلى جانب المبالغة والاحتيال ، والسعي وراء تحصيل المنافع من أى وجه كان .

وهذا كله حين يتم فإنه فى الغالب يكون على حساب دين المرء وكرامته ومبادئه !!

ومن هنا وجب علينا أن نرشد أبناءنا إلى أن الإنسان حين يترك سبيل الرشاد من أجل نيل منفعة ، فإنه يعرّض نفسه لنقمة الله ، وحين يضحي فى سبيل البقاء على الطريق القويم فإنه بذلك يستنزل رحمة الله .. ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه" (١) .

أخي المربي – أبا وأما –

قم بتربية ابنك على الثبات على المبدأ ، وأكّد له .. يا بني " إنك قد تبني قصرًا فيعرفك الناس به ، وتمر السنون ويخر القصر ، فتخر أنت أيضًا من ذاكرة الناس .. وقد تموت من أجل كلمة حق ، فتقطع إربًا إربًا ويهدم بيتك ، وتحرق كل أمتعتك ، ومع ذلك تبقى ذكراك عالقة فى الأذهان ؛ لأنك لم تعش لشيء أو لقول إنما عشت لفعل كنت تراه حقًا ، وكان كذلك .

بني .. إن الأفعال هي الأكثر تخليدًا لأصحابها من الأقوال والأشياء ، وما يحفظ الأفعال إلا المصادر ، وما تحفظ الأقوال والأشياء إلا المقابر " (٢)

واضرب له مثلًا من السابقين والمعاصرين الثابتين على مبادئهم ..

---

(١) دليل التربية الأسرية – د/ عبد الكريم بكّار – ص ٣٣ .

(٢) التغريب – محمد سليم قلالة – ص ١٥٥ .

اضرب له مثلًا بـ " أصحاب الأخدود " وقصتهم معروفة [١] .. وقصّ عليه كيف أن إيمان الناس إنما جاء عندما استشهد الغلام أمام جماهيرهم الحاشدة .. وكيف كان ثباتهم هم أنفسهم حين هددهم الملك الكافر بالأخاديد والنار ؟ وكيف كان الواحد منهم يوصي أخاه أو قريبه بالثبات على الحق ولو أدى الثبات إلى الموت .. حتى الغلام الرضيع ينطقه الله فيوصي أمه بالثبات على الحق ..

وعقّب لابنك على هذا الموقف بقولك : " لقد كان فى استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم ، في مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن : كانوا يخسرون هم أنفسهم ؟ وكم كانت البشرية كلها ستخسر ؟ كم كانوا يخسرون ، وهم يقتلون هذا المعنى الكبير : معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حريّة ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح ، بعد سيطرتهم على الأجساد " .. [٢]

.. وقصّ على ابنك كيف كان ثبات صحابة رسول الله ﷺ، ومنهم " عبد الله بن حذافة " .. هذا القائد المسلم الذى قدّر الله أن يقع أسيرًا بيد الروم .. فماذا حدث له ؟

لقد " وجدها " هرقل " فرصة لإيذاء المسلمين والانتقام منهم .. فأحضر " عبد الله بن حذافة " أمامه ، وأراد أن يفتنه عن دينه ، ويبعده عن إسلامه ..

بدأ معه بسلاح الإغراء والمساومة ، فقدم له عروضًا مغرية :

قال له : أدخل فى النصرانية ، ولك ما تشاء من الأموال !

ورفض ابن حذافة هذا العرض !

ثم قال له هرقل : أدخل فى النصرانية ، وأزوجك ابنتي !!

ورفض ابن حذافة العرض الثاني !!

ثم قال له هرقل : أدخل فى النصرانية وأشركك فى ملكي !!

ورفض ابن حذافة العرض الثالث !!

---

(١) راجع – إن شئت – القصة بتمامها فى فصل "راوي قصص لا مصدر أوامر " من هذا البحث .

(٢) معالم فى الطريق – سيد قطب – ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

وعرف هرقل أنه أمام نوع خاص من الرجال ، فعرض عليه العرض الرابع ، قال له : أدخل فى النصرانية ، وأعطيك نصف ملكي ، ونصف مالي !!

فأجابه ابن حذافة إجابة ثابتة قاطعة : لو أعطيتني جميع ما تملك ، وجميع ما يملك العرب ، ما رجعت عن دين محمد ﷺ طرفة عين !!!

.. لجأ هرقل - بعد فشله فى عروضه ومساوماته وإغراءاته - إلى السلاح والاضطهاد والتعذيب والتهديد والوعيد . فقال له : إذن أقتلك ؟ وما درى هرقل أن من ينتصر على سلاح الإغراء والمساومة ، سينتصر على سلاح الاضطهاد والتعذيب ، وأن الذى يدوس على الدنيا بقدميه ، لن يبخل عن تقديم روحه فداء لدينه .

أجابه ابن حذافة : أنت وذاك !!

وضع ابن حذافة فى السجن ، ومنع عنه الطعام والشراب ثلاثة أيام ، ثم قدّم له الخمر ولحم الخنزير ليأكله . ولكن ابن حذافة رفض أن يذوقه ، واستمر أيامًا بدون طعام وشراب ، حتى أوشك أن يموت !!

فأخرجه هرقل ، وقال له : ما منعك أن تأكل من الخنزير والخمر ، وأنت مضطر جائع ؟

فقال له : أما إن الضرورة قد أحلتها لي . ولا حرمة على لو أكلتها ، ولكني آثرت أن لا آكل ، حتى لا أجعلك تشمت بالاسلام !!

ثم أمر هرقل به فصلبوه ، وأوثقوه على الخشبة ، وصار الرماة يرمون السهام قريبًا من بدنه ، وهو ثابت . وقيصر يعرض عليه التنصر ، وهو يأبى !

ثم أنزله . وأمر بوضع ماء فى قدر عظيمة ، وإشعال النار تحتها . ولما صار ماء القدر يغلي ، جيء بأسير مسلم ، فألقي فيها فذاب لحمه فى الماء ، وتحوّل إلى هيكل عظمي ، ثم ألقي فيها أسير مسلم ثان . وابن حذافة ينظر !!

ثم أمر هرقل بإلقاء ابن حذافة فى الماء الذي يغلي، فلما أخذوه ليلقوه بكى !!

فقيل لهرقل : إن ابن حذافة بكى .

فظن هرقل أن بكاء ابن حذافة لخوفه من الموت ، وأنه يدل على تراجعه عن موقفه ، وتنازله عن مبادئه ، وأنه سيستجيب له !

فدعاه . وعرض عليه التنصر . فأبى !!

فقال له : إذن لماذا بكيت ؟

فأجابه جوابًا عجيبًا حقًا ، أعجزه ، وأثبت له فشله معه ، وهزمته أمامه :

بكيت ، لأني لا أملك إلا نفسًا واحدة ، أبذلها فداء لديني في سبيل الله ، و تمنيت لو كان لي بعدد شعري أنفس ، أبذلها فداء لديني ، وتموت كلها فى سبيل الله!!

وأيقن هرقل بهزيمته أمام ابن حذافة ، هزيمته وهو يملك المال والجا والسلطان والقوة والدنيا ، أمام رجل مسلم أعزل مجرد من كل هذه المظاهر .

فعرض عليه العرض الأخير الانهزامي – حفظًا لماء وجهه - : يا ابن حذافة هل لك أن تقبّل رأسي ، وأخلي عنك ، وأطلق سراحك ؟قال ابن حذافة : نعم على شرط أن تطلق معي سراح جميع الأسرى المسلمين فى سجونكم _ وكانوا أك من ثلاثمائة سير – ؟!

وقبّل ابن حذافة رأس هرقل ، وخرج بإخوانه إلى عمر بن الخطاب فى المدي وأخبره قصته مع هرقل !

... ووافق عمر ابن حذافة على تصرفه . وقال للصحابة : حق على كل مس أن يقبّل رأس ابن حذافة . وأنا أبدأ بذلك !

..... وقصة ثبات أخرى يمكن للأب أن يحكيها لابنه ، هي قصة الإمام أ بن حنبل رضي الله عنه ، حيث ابتلي فى زمانه بفتنة " خلق القرآن " التى أثار المعتزلة .. وقف لهم إمام أهل السنة فى عصره .. وسجن وعذب ، وضر بالسياط، ومع ذلك ثبت على دينه ولم يعطي الدنية فيه ..

لقد أدخل "أحمد بن حنبل "على المعتصم عدة مرات ، ودعاه المعتصم فى

مرة إلى التراجع عن رأيه ، وهو ثابت يأبى عليه أشد الإباء ..

ولما أوشك أن ييأس منه . قال له: ويحك يا أحمد أجبني حتى أطلق عنك يدي.

وهو رحمه الله يرد عليه قائلًا : أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ حتى أقول به ... فأمر المعتصم الزبانية والجلاّدين بأخذ الإمام وسحبه وجلده .. ولما ضرب الامام تسعة عشر سوطًا ، قام إليه المعتصم ، وقال له : يا أحمد . علام تقتل نفسك ؟ إني والله عليك لشفيق .. وجعل أحد الزبانية ينخس أحمد بسيفه ، ويقول له : أتريد أن تغلب هؤلاء كلّهم ... ويكرر المعتصم : يا أحمد ويلك ! ما تقول ؟

فيجيب أحمد : أعطوني شيئًا من كتاب الله ، أو سنة رسوله ﷺ أقول به !!

... وقال المعتصم : ويلك ! أجبني إلى شيء فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك يدي !!

وأحمد لا يقول إلا كلمته المعهودة : أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ أقول به !

..... وأختم النماذج الثابتة على مبادئها بهذا النموذج الذى يمثل الثابتين فى العصر الحديث ..

إنه نموذج الصابر الممتَحن «سيد قطب» ..

لقد آذوه بأصناف الإيذاء والعذاب فصبر وثبت ، وأغروه بصنوف الإغراء والمساومات ليتنازل عن مبادئه ، فصبر وثبت .

.. لقد كان " سيد قطب " قد بلغ فى محنة ١٩٦٥ الستين من عمره .. ومصاب بالذبحة الصدرية .. بالإضافة إلى مرض الكلى .. وأمراض المعدة ..

ولم تشفع له سنه ، ولم يشفع له مرضه .. بل إن أعداءه قد استغلوا هذه الأمراض جميعًا فى نوع التعذيب الذى تعرّض له .

لقد ربطوه فى كرسي لمدة أربعة يام ، حرموه فيها من الطعام والشراب ، وحرموه حتى من الماء .. وكانوا يسكبون أمامه الماء .. ومعروف أن مريض الكلى يحتاج إلى كميات كبيرة من الماء ..وهم يفعلون ذلك به مبالغة فى تعذيبه .ولقد أوشك أن يفقد بصره من شدة التعذيب ..

أما المساومات والاغراءات فقد استمرت معه حتى فى ليلة التنفيذ ..

... لقد جاء مدير السجن إلى شقيقة سيد " حميدة " لتضغط على شقيقها ، ليعتذر عما فعل ، لينجو من الاعدام .. فقال لها : إن شقيقك خسارة لمصر كلها ، ليس لك وحدك . إنني غير متصور أن نفقد هذا الشخص بعد ساعات ، إننا نريد أن ننقذه من الاعدام بأي شكل ، وبأية وسيلة . أن يضع كلمات يقولها ستخلصه من حكم الاعدام ، ولا يستطيع أحد أن يؤثر عليه إلا أنت .... وقابلت " حميدة " شقيقها المقابلة الأخيرة ، وعرضت عليه ما سمعته من مدير السجن ، فقال لها سيد: والله لو كان اتصالنا بدولة أجنبية ضد البلد صحيحًا لقلته ، ولما استطاعت قوة فى الأرض أن تمنعني من قوله ، ولكنه لم يحدث ، وأنا لن أقول كذبًا ..

ثم قال لها : وأنت هل ترضين أن أقوله وأعتذر ؟ فقالت له الصابرة المحتسبة : لا . لا تقل .

فقال لها : إنهم لا يستطيعون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا . وإن الأعمار بيد الله ، وهم لا يستطيعون التحكم فى حياتي . والله من ورائهم محيط .

لقد كان من الكلمات التى خلّدها التاريخ لـ " سيد قطب " فى محنته عبارات أصبحت شعارًا لكل من يحمل مبدأه ويثبت عليه ..

" لماذا أسترحم ؟ إن سجنت بحق ، فأنا أرضى حكم الحق ، وإن سجنت بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل» !!

... " إن إصبع السبابة الذى يشهد لله بالوحدانية فى الصلاة ، ليرفض أن يكتب حرفًا يقر به حكم الطاغية» .

... وعندما طلب من " سيد قطب " الاعتذار عن العمل والدعوة .. قال : " لن أعتذر عن العمل مع الله "

.. وعندما سأله أحد الضباط وهو فى قفص الاتهام عن معنى كلمة " شهيد " أجابه سيد قطب قائلًا : شهيد يعني أنه شهد أن شريعة الله أغلى من حياته !!

.. ولّما حكم عليه بالإعدام قال : الحمد لله .

.. وقبل تنفيذ حكم الإعدام به ، سأله أحد إخوانه : ماذا تنتظر ؟

فأجابه سيد قطب بابتسامة واثقة نابعة من صدر هادىء مطمئن : أنتظر الوفود على ربي .

... ولّما سيق سيد قطب لتنفيذ حكم الإعدام به ، ابتسم – وهو يهم بركوب السيارة – بابتسامة عريضة ساحرة ، ملأت وجهه ، وأضاءت أساريره ، وأودع سيد ابتسامته هذه كل ما يريد قوله لمن يحملون الحق بعده ، ولكل المقتدين به فى ثباته على مبدئه ..

ما نسينا أنت قد علمتنا بسمة المؤمن فى وجه الردى

وصدق الله العظيم : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٢٣ – ٢٤] . (١) .

– *الجهــاد دون المبدأ :*

هناك " فراغات " فى نفس المسلم لا يمكن أن تملأ إلا بالجهاد ! وهناك "تقصيرات " فى حياته لا يمكن تلاشيها إلا بالجهاد ، وفوق هذا وذاك ، هناك " منازل فى الجنة عالية ، لا يمكن الوصول إليها إلا عبر الجهاد ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ..

﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً

(١) ثوابت للمسلم المعاصر – د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي – ص ٨٣ – ١٠٠ بتصرف يسير.

وَكُلا وَعَدَ الله الْحُسْنَى وَفَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء:٩٥ – ٩٦].

... والجهاد صور وحالات ، وميادين وأساليب ، وكل جهد فى سبيل الله جهاد ! كل كلمة صادقة ، وكل خطوة راشدة ، وكل ثبات على دين الله ، وكل موقف إيماني فى مواجهة أعداء الله .. كلها صور من صور الجهاد !..

وصدق من قال :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهدًا إن الحياة عقيدة وجهاد

والجهاد واجب على المسلم لأنه صاحب رسالة تحرير للبشرية وللإنسان، ولا يستطيع توصيل رسالته إلى البشرية إلا أن يزيل من طريقها كل العوائق التى تحول بين الناس ، وبين رؤية الحق ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾ [الأنفال:٣٩].

فالجهاد هو الرادع لكل الذين لا يتخلّون عن حب العدوان والسيطرة ، والتطلع إلى استعباد البشر ، ونهب ثرواتهم ، وإشاعة التخلف فى حياتهم !!

والجهاد هو الرادع لكل الذين يرون القتال أداة حيوية للقضاء على الآخرين ، وإشاعة الفساد فى الأرض كل الأرض .. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله﴾ [الأنفال – ٣٩]

فالجهاد هو القاعدة الوقائية ، والحصانة الأولية للمسلم ضد الفتنة .. تلك الحصانة التى يمثل العجز عنها طريق الأسف والأسى والحسرة .. عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: " جاهدوا فى سبيل الله ، فإن الجهاد فى سبيل الله تبارك وتعالى باب من أبواب الجنة ينجي الله تبارك وتعالى به من الهم والغم " [أخرجه أحمد فى المسند ج٥/ ٣١٤]

إن بيئة الجهاد بيئة عمل وإنجاز ، وحركة ، وإحساس بالمسؤولية ..

ومن هنا يمثل الجهاد سبيل المسلم إلى الارتفاع بالإنسان إلى المستوى الكريم

بتحريره من كل سلطان غير سلطان الله ، ومن ثم ترقية البشرية كلها فى كل الميادين المتاحة ، وتوفير الأمن الفكري والمادي لكل البشر .

- *التحرر من الأوهام:*

أرأيت إلى حشرة لا ترى لوح الزجاج على النافذة فتنقض عليه وهى تظن ألا وجود له ، فتردها صلابته ، فتعيد الكرة مرة أخرى ..

إن هذا هو شأن الانسان مع العقبات المعنوية التى تعترض طريقه ، فهو لا يحسب لها حسابًا لأنه لا يكاد يراها لأنها لا تتعدى سمك لوح الزجاج .. ولكن خطورة هذه العقبات من عقيدة فاسدة أو تصور منحرف أو فكرة شائهة .. خطورتها تأتى من أنها على صغرها كافية فى تعويق عقله عن التحليق فى سماء الحرية، ومهما جد العقل فى اقتحام تلك العقبات ، فهو لا يكون أحسن حالًا من حال تلك الحشرة التى روينا قصتها فى البداية .

خذ مثالًا :

النظرة الأحادية ..

إن أصحاب النظرة الأحادية يرون أنهم يملكون كل المعرفة، بينما لا يرون أن الآخرين يمكن أن يملكوا ولو جزءًا من هذه المعرفة .. وحالهم في ذلك يشبه حال من ذكرهم الإمام الغزالي في الإحياء في قصة رمزية تستحق التأمل مفادها:

أن ثلاثة من العميان أُدخلوا على فيل ـ ولم يكونوا عرفوه من قبل ـ فوضع أحدهم يده على رجله، ووضع الآخر يده على ذيله، ووضع الثالث يده على بطنه، فلما خرجوا سألوهم: ما الفيل؟ فقال الأول: الفيل: كسارية المسجد، وقال الآخر: الفيل: كخرطوم طويل به شعر كثيف، وقال الثالث: الفيل: الجبل العظيم الأملس.. فأدخلوا مرة أخرى على الفيل، وأمسكوا بجميع أجزائه، وعندها ضحكوا من تعريفاتهم السابقة للفيل، واستطاعوا أن يصفوه على حقيقته.

وهكذا أصحاب النظرة الأحادية، يرى الواحد منهم جزءًا من الحقيقة،

ويظن أنه يرى كل الحقيقة؛ فيصف الأمور بغير أوصافها.. فإن حدّثه الآخر عن بقية الحقيقة التي يجهلها، لم يكلف نفسه مجرد محاولة التعرف على ما يريد الآخر قوله، بل ربما اتهمه بالضلال والانحراف والجهل .. وسعى لمصادرة رأيه والحجر عليه ، ، فيصم أذنيه ويغلق عينيه، فلا يسمع له رأيًا ولا يقبل له طرحًا.. هكذا.. مهما بلغ الآخر من الفهم والتخصص فيما يحدثه فيه ويعرضه عليه ..!!

ولا شك أن هذه النظرة – مثلًا – من المعوقات الكبيرة فى طريق التواصل مع الآخر ..

فمتى نتحرر من الأوهام ، حتى نحرر منها أبناءنا ؟

إن هذا التحرر – بلا شك – له مقدمة فى غاية الأهمية هي :

ـ القــراءة والتعلّم :

فمن خلال خطاب هادىء من الأب للابن يؤكد على أهمية القراءة والتعلم يمكن أن يحرره من الأوهام ..

بني الحبيب ..

أن تقرأ معناها أن تعرف ..

وأن تعرف معناها أن ينمو عقلك وينضج تفكيرك ..

وأن ينمو عقلك وأن ينضج تفكيرك ، معناها أن تصبح أكثر إنسانية ..

من هنا نفهم لماذا استهل الله عز وجل كتابه الكريم بأن أمر " إقرأ ..

فإن القراءة لا تزال هي أهم الوسائل التى تنقل إلينا ثمرات العقل البشري ، وأنقى المشاعر الإنسانية التى عرفها عالم الصفحة المطبوعة ...

والقراءة تسمو بخبراتك وتتطورها إلى أعلى المستويات ..

بل لقد ربط القرآن بين القراءة والكرامة : ﴿إقرأ وربك الأكرم﴾ .. وأكثر الأمم قراءة هي أكثرها كرامة ، وربط القرآن بين العلم والكتابة : ﴿الذى علّم بالقلم﴾ .. و الفرق بين الإنسان المتقدم ، والإنسان المتخلف ، هو أن الأول هو

الذى يتعلم مما يمر به أو بغيره من خبرات فيثبت ما يساعده على النجاح ويعززه ويؤيده ، ويحذف ويتلاشى ما كان خطأ .. أما الثاني ، فيكرر ما أخطأ فيه ، فلا يتغير إلى ما هو أحسن .. فيتقدم الآخرون ، ويظل هو مكانه .. هذا فى أحسن أحواله ، وأحيانا كثيرة يتقهقر إلى الوراء ..

وهذا يعني أن ما نقع فيه من ضروب الخطأ هو الذى يهدينا سبل الرشاد ، وما نقترفه من الذنوب هو الذى ينبئنا - إذا تألمت منه ضمائرنا - بأن فى داخلنا نفسًا لوامة زاجرة .. وأن الاستفادة من كلتيهما هى طريق أهل الحكمة والنهى.

أخي المربي ..

إنه كما أن العطف والرحمة بالأبناء مهمان جدًا - وبخاصة فى سنين العمر الأولى - فإن دفع الأبناء فى اتجاه عشق المعرفة ، وتكوين عادة القراءة عندهم هو أمر فى غاية الأهمية أيضًا ..

ولا شك أنه يمكن وضع بذور المعرفة فى الأبناء عبر تدريبهم على الملاحظة ، والاصغاء والانتباه ، وعقد المقارنات .. وغيرها من المهارات ..

والسلوك الحضاري فى القراءة أن ندع الأبناء وشأنهم في انتقاء ما يقرأون ، فهم أصحاب الاختيار فيما يقرأون أو يدعون .. نحن فقط نجنبهم من الكتب ما يكون ضارًا بأخلاقهم ودينهم ..

.. فإذا ضلوا اختيارهم ، فنحن بإرشادنا لهم حاضرين متى سألونا هذا الإرشاد .. ونحن فى إرشادنا لا نقدم شهوتنا فى دعوتهم إلى كتب مخصوصة ، أو نمارس سلطتنا فى قهرهم عليها .. لأننا ندرك دون لبس أو غموض أو إيهام أن اعجاب المرء بالشيء لكي يكون نافعًا لا بد أن يصدر من داخل ذاته ..!!

- نصـــرة الحق :

" تضافرت مصادر التربية الإسلامية على إدانة الظلم ، وتنفير المسلم منه فى جميع مظاهره وأشكاله ، فالقرآن يسوي بين مصير المظلومين الذين يسكتون على

الظلم ، وبين الظالمين الذين يمارسون الظلم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:٩٧] .

وفى المقابل يشيد القرآن بالذين يرفضون الظلم ، ويتناصرون لمقاومته ، ويستنهض هممهم لمنازلته : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى:٣٩ ، ٤٠].

فالرسول ﷺ يجعل خنوع الأمة ، وعدم تناصرها لمقاومة الظلم ، من العلامات الدالة على موتها ، وانتهاء مبررات وجودها : "إذا رأيت أمتي لا يقولون للظالم منهم أنت ظالم ، فقد تودع منها " أخرجه أحمد [(١)] .

ومن هنا كان من السلوكيات الهامة التى يجب أن نرشد إليها أبناءنا نصرة العدل فى مواجهة الظلم ، ونصرة دعاة الحق فى مواجهة المتسلطين من دعاة الباطل .

ـ وسطية الإنفاق :

لعل من الدروس التربوية الهامة التى يجب التركيز عليها فى كل مراحل التربية " أن يجد الابن لنفسه طريقًا وسطًا بين الترف والتقشف ، ولعل هذا بعض ما عنته الآية الكريمة : " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملومًا محصورًا ".

إن هذا التوازن يركّز كل الإمكانات المتاحة لتعجيل الخطى نحو التحضّر .. حيث لا يصبح الترف والرفاهية هما الهم المقعد " [(١)] .. ذلك أن من أخطر أساليب الشيطان فى نقض أمر الله .. التبذير .

---

(١) إخراج الأمة المسلمة – د/ ماجد عرسان الكيلاني – ص ٨٩ .

(١) ثغرة فى الطريق المسدود – د/ سيد دسوقي حسن – ص ٧٠ .

وذلك باعتبار " أن التبذير تغيير لأقدار الله فى أقوات أهل الأرض ، لأن ما قدره الله من أقوات يوم خلق الله الأرض هو ما يتفق بعلم الله سبحانه وتعالى مع حاجة الإنسان ، بدليل قوله عز وجل : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت ٩ ، ١٠] .

فيصير تجاوز الإنسان لحاجته تبذيرًا يستحوذ عليه الشيطان ، ومن هنا كانت أخوة المبذرين للشياطين فى قول الله: ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء:٢٧].

و لذلك يقول الرسول ﷺ: " إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها ، فليمط ما كان بها من أذى ، وليأكلها ، ولا يدعها للشيطان ، ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه ، فإنه لا يدري فى أى طعامه البركة " أخرجه مسلم رقم [٢٠٣٤] عن أنس ..

والتبذير يدخل فى كل ما زاد عن حاجة الإنسان ، ولذلك يقول الرسول ﷺ فيما زاد عن الحاجة من أثاث البيت : " فراش للرجل ، وفراش لإمراته ، وفراش للضيف ، وفراش للشيطان " أخرجه رقم (٢٠٨٤) من حديث جابر بن عبد الله .

ويقول فيما زاد عن الحاجة من الدواب : «تكون إبل للشياطين ، وبيوت للشياطين ، فأما إبل الشياطين فقد رأيتها ، يخرج أحدكم بخبيثات معه قد أسمنها فلا يعلو بعيرًا منها ، ويمر بأخيه قد انقطع به فلا يحمله ، وأما بيوت الشياطين فلم أرها » .. وكان أبو سعيد يقول : «ولا أرها إلا هذه الأقفاص التي يستر الناس بالديباج» أخرجه أبوداود (٢٣٦ / ٧) من حديث أبى هريرة ." [1]

ومن هنا كان من مهام التربية الإسلامية إرشاد الأبناء إلى قيمة المال ، والتأكيد على أن المؤمنين مدعوون إلى جمعه بالأساليب المشروعه التى تحفظ الكرامة

(١) عندما ترعى الذئاب الغنم – رفاعي سرور – ص ٤١ .

.. وإنفاقه بوسطية بين التقتير والتبذير ..

وهم فى كل أحوالهم أوثق بما فى يدي الله عما فى أيديهم .. وهذا هو المعنى الحقيقي للزهد ..

و لكي يصل الآباء إلى هذه النتيجة مع أبنائهم لا بد لهم من تعليمهم قيمة المال من خلال أحاديثهم عما يجب عليهم دفعه مقابل ما يحصلون عليه من منافع (السكن .. الطعام .. المواصلات .. وغيرها) ..

وتعليمهم الادخار من خلال توفير الآباء لقسط من المال حتى يأتي وقت التخفيضات – مثلًا – فى المحلات فيشترون ما يريدون من أشياء تكون أسعارها فوق إمكاناتهم العادية .

خذ مثالًا :

إذا أراد الابن نوعًا من الأحذية لأن زميله فى المدرسة لديه مثله ..

لا تحاول انتقاد رغبته فى امتلاك الحذاء ، ولكن فقط أعلمه أن هذا النوع من الأحذية مرتفع الثمن " لقد اشترينا لك زوجًا من الأحذية الشهر الماضي ، وهذا النوع الذى تختاره الآن باهظ الثمن .. ونحن لا نملك أن نشتريه .. سنفكر فى شرائه ؟!!

إن هذا يعرفه قيمة المال .

خذ مثالًا آخر :

يتلقى الابن الكثير من المال فى العيد ، ويرى أنها ملكه الخاص ، وأن من حقه أن ينفقها كلها فى شراء لعبة ترى أنت أنها غير نافعة ..

تقول : " اعلم أنها نقودك التى تلقيتها فى العيد ، ولكن ليس من الحكمة أن تنفقها فى شيء واحد قد يكون غيره أنفع منه ..

أنا أعرف أنك قد أحبط لأنك لم تستطع إمتلاك هذه اللعبة ـ

سأكون سعيدًا جدًا بقبولك الاحتفاظ بمالك لأمر أهم ...

وما نحذره هنا أن تأخذ نصائحنا فى أمر الإنفاق المالي شكل النقد والتوبيخ ..

مثل أن نقول : " لماذا تعتقد أن بإمكانك الحصول على ما تريد ؟

أنت طفل مدلل .. عندما كنت فى مثل عمرك لم يكن إنفاقي يتعدى الضروريات .."

ذلك أن مثل هذه العبارات الناقدة الموبخة لا تعرّف الابن قيمة المال ، وإنما فقط توبخه دون فهم للدرس المطلوب.

- ضبط النفس :

إذا ساءلنا أنفسنا : ما الفرق بين أبنائنا وبين الأبناء منذ ثلاثين عامًا .. ماذا ستكون إجابتنا ؟

لا شك أنها ستكون : الغضب هو الفارق ..

إن أطفال اليوم يتنابهم الغضب أسرع وأشد من أطفال الجيل السابق .. إنهم يستيقظون غاضبين ، ويذهبون إلى المدرسة غاضبين أيضًا . بل إنهم ينامون غاضبين !!!

وهذا الغضب يؤدى بهم إلى التشاجر مع إخوتهم ، و زملائهم ، بل ربما مع معلميهم وآبائهم !!!

ومن هنا – فيما أعتقد – يصبح من الأهمية بمكان أن نعرف كآباء ومربين الطريق إلى تعليم أبنائنا كيفية السيطرة على غضبهم ..

ولا شك أن بداية هذا التعلم أن نؤمن نحن :

أولًا :أن الغضب جزء لا يتجزأ من السلوك الإنساني ، فكما أن أبناءنا يغضبون حين يتعرضون للفشل أو الظلم أو الحرج .. فإن الآباء أيضًا يغضبون حين يخيب رجاؤهم فى أبنائهم أو يصيبهم الإحباط بسبب سوء سلوكهم ..

فإذا آمنا بذلك تأكد لدينا أن الغضب الذى يحدث بين الحين والحين يعد أمرًا طبيعيًا ، وإنما الذى يجب أن نعالجه فى أنفسنا وأبنائنا هو الغضب الدائم ..

وأن نؤمن ثانيًا : أن الغضب الدائم يكون سببه غالبًا الأبوين العصبيين ، فمنهما يكتسب الابن تلك الصفة " الغضب الدائم " .. فحين يرى الطفل أن أبويه يعبران عن غضبهما فى شكل صراخ أو ضرب ، يتعلم هذا الطفل أنه لا غبار من التعبير عن غضبه فى صورة من هذه الصور هو أيضًا ...!!

فإذا آمنّا نحن كآباء بتلك المقدمات ..

أن الغضب أمر فطري ..

و أننا نغضب كما يغضب أبناؤنا ..

وأن أبناءنا يغضبون فى نفس صورتنا الغضبية ..

انتقلنا إلى تعليم الابن ضبط النفس .. كيف ؟

- أكّد له أن ضبط النفس عند الغضب هو علامة قوة ، وليس ضعفًا ..

فقد روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: " ما تعدون الصرعة فيكم ؟ قالوا : الذى لا تصرعه الرجال ، قال : لا ، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب».

-وعلمه أن من موجبات الكرامة أن يملك نفسه عند الغضب ، و أن الضجر والغضب الخارج عن حد الاعتدال مما لا يليق بالرجال .

-قدّر أن غضب الابن شعور طبيعي حين يجرح أحد مشاعره أو يظلمه .. ووضح أن تنفيس هذا الغضب فى صورة شجار أو اعتداء على الآخر لن يحل المشكلة ..

-قم بالتأثير فى نفس الابن عبر رؤيته للغاضب كيف يتلون وجهه ، ويتوتر جسده ، ويصاب بحالة من عدم السيطرة على كثير من مواضع جسده ووجهه .. فإذا تأثر برؤية ذلك دعوناه إلى ترك الغضب ، والتدرب على التحكم فى ذاته وعدم الغضب من المعايرات اللفظية لأقرانه ، والإجابة عليها بالتفاتة هادئة ودون غضب أو عراك .. فإذا نجح فى ذلك شجعناه وأثنينا على قدرته على السيطرة على الذات ..

إن الابن يشعر فى الاستفزاز جرحًا له ، ويدفعه ذلك فى بعض الأحوال أن يكون عدوانيًا ، وليس من المطلوب أن يرشد الأب الابن إلى عدم المبالاة بالاستفزاز .. فهذا الإرشاد يقرب أن يكون مثل أن يقول لسبّاح : لا تبتل أثناء السباحة .. ، و إنما الواجب على الأب أن يرشد الابن إلى عدم المبالغة فى رد الفعل لاستفزاز الآخر..

و يمكن الوصول إلى ذلك بطرق كثيرة منها :

أن يخبر الأب ابنه بالمواقف التى تعرض الأب فيها للإستفزاز فى الصغر ، وكيف تصرف حيالها .. " أذكر أننى فى مرة ضايقني زملائي فى الفصل الدراسي ، فقد اختاروا جميعًا أن يلعبوا كرة القدم خلال فترة الفسحة ، بينما اخترت أن أقرأ .. لقد بدأوا يسخرون مني بقولهم : يا فيلسوف .. يا أستاذنا .. وغيرها ..

ولكني فى الحقيقة لم أزد عن أن ابتسمت ، وها أنتم تروننى اليوم طبيبًا ناجحًا، وباحثًا موفقًا "

كما يمكن أن يعلّم الأب لابنه بعض العبارات المملة التى تحمل الاعتزاز بالذات ، وتمثل أفضل الطرق لتجاهل استفزاز الآخرين .

خذ مثالًا :

إذا قال له زميله فى الفصل الدراسي : ياله من قميص سيء هذا الذى ترتديه!! هل هو قميص أختك ؟

يرد الابن : إننى آسف لأنه لا يعجبك ، ولكنه يعجبني أنا .

فإذا رد عليه : إنه يشبه قميص أختى الصغيرة . ، إنه يبدو قبيحًا .

رد الابن : ولكنه يعجبني ، وأنا أراه جيدًا .

... ثم يتحول عن هيئته فيقول مثلًا .. إننى ذاهب إلى الفناء .. أراك لاحقًا..[1] .

---

(١) مستفاد من كتاب " كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د / سال سيفير .

- *الإحساس بالجمال :*

الجمال فطرة الحياة البشرية .. فالحياة لا تكتفي بقضاء الضرورة ، ولكنها تهدف دائمًا إلى الإحسان فى الأداء ..

" أرأيت يا بني – هذه الزهرة الجميلة الفياحة الشذى المتناسقة الألوان؟ أتظن أن ذلك " ضرورة " ؟

قالوا : لتجتذب إليها النحل فينتج منها العسل غذاء وشفاء للناس ! وتساعد كذلك فى تلقيح النبات !

فهل تظن ذلك ؟ هل من " الضرورة " بالقياس إلى النحل أن يكون فى الزهرة كل هذا الجمال ؟

كلا والله ! فالنحل خلق متواضع ، وإنه ليحط على الزهرة الأريجة الفاتنة كما يحط على الزهرة العادية الجمال ..

فليس جمال الزهرة إذن ضرورة ! ...

أرأيت حمرة الشفق المبدعة ، ورأيت جمال الصبح الوليد ؟

أرأيت روعة الجمال التى تبهر الأنفاس وتهز الوجدان ؟

والبحر الممتد إلى غير نهاية منسرب الموج ، تراه فى الليل الساكن كأنما تغمره الأطياف أو الأشباح ؟

والليلة القمراء .. هل ذقتها ؟ وذقت طعم السهر فى ضوئها ، وظلها ، وأطيافها الساربة وحديثها المهموس ؟ .. هل تظن ذلك ضرورة ؟

أين هي الضرورة فى ذلك كله ، والحياة ممكنة ومستطاعة بغير هذا الجمال؟

هل رأيت هذا الوجه .. ؟ هاتان العينان الحالمتان اللتان يطل منهما عالم عميق الأغوار .. تلك التقاطيع المنسقة .. هذا المعنى المعبر .. تلك الروح التى تطل من وراء القسمات ؟

أتظن ذلك ضرورة ؟ وما الضرورة ؟

..... كلا .. إنه الجمال .. فى كل الكون ..

هذه النقطة من الطل المتلألئة فى ضوء الشمس ..

هذا البرعم المتفتح تنطلق منه الحياة ..

هذه الورقة النابتة كالطفلة الوديعة تهتز للنسمة الخافقة كما تهتز الطفلة بكل تجربة جديدة فى الحياة ..

هذه الريشة البديعة فى جناح الطير ، منسقة الألوان دقيقة التركيب ..

هذا الفرخ الناقف من البيضة ، جميلًا فى ضعفه ، لطيفًا فى سذاجته ..

هذه الأضواء والظلال تقصر وتمتد فى حركة دءوب..

هذا الجدول الرقراق .. والنهر المتدفق .. والبحر المتلاطم .. والخضم الموّار .

هذه الهدأة فى الليل الساكن الغافي النعسان ..

والصبح إذا تنفس من هدأته ، وتنفست معه الأحياء ..

كلها .. كلها جميلة بديعة الجمال ..

إنه الجمال فى كل شىء .. بل إنه الإحسان الذى كتبه الله على كل شىء.."[١].

" إن الله كتب الإحسان على كل شىء .. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته " (رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة) .

والإحسان المقصود هنا هو جعل الشىء حسنًا .. أى الجمال .. جمال الأداء وجمال الإحساس وجمال التفكير ، الجمال فى كل شىء ، حتى فى ذبح الذبيحة وقتل القتيل ..

ولأن الجمال مقصود فى هذه الشريعة بهذا القدر ، فإن من المهمات التربوية للأسرة ، تنمية أحاسيس الجمال لدى الأبناء ، ودفعهم إلى إضفاء المسحة الجمالية

---

(١) منهج الفن الإسلامي – محمد قطب – ص ٧٤ – ٨٩ بتصرف يسير

على كل الأشياء ، حتى وإن كانت هذه الأشياء تحتوى بعضًا من قسوة أو مرارة !! قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمّل:١٠] ، فالهجر نوع من القطيعة ومع ذلك يمكن أن يكون جميلًا إذا لم يصحبه عتاب . وقال سبحانه: ﴿فاصبر صبرًا جميلًا ﴾ [المعارج:٥] حين لا تصحبه شكوى لغير الله ..

.. بل " لقد ورد النهي عن أن يقول المسلم : عبدى وأمتى ، وأن عليه أن يقول عوضًا عن ذلك : فتاي وفتاتي من أجل الارتقاء بلغة الخطاب ...

وهكذا يجب أن نرتقي بأسلوب خطابنا لأبنائنا ..

فإذا غضبت الأم الصالحة قالت لأولادها : هداكم الله ، أصلحكم الله .. أما إذا غضبت الأخرى فهى تدعو عليهم وتقول : أرجو الله أن يبتليكم بالمصائب والدواهي .

الأم الصالحة تقول : المسلم المؤدب يفعل كذا وكذا حتى يدخل الجنة ، أما الأخرى ، فإنها تهدد وتتوعد ، وتقول : الذي يجب أن يضرب يفعل كذا وكذا ..

الأم الصالحة إذا رأت فى يد ابنها شيئًا ليس ملكًا له قالت : هذا ليس من حقك ، ردّه على صاحبه ..

أمّا الأخرى فتقول : يا لص .. يا حرامي ..

إن علينا أن نعلم أبناءنا أن كل خير جميل ، وكل شر قبيح .. وإن من المؤسف أن يبرق كل شيء فى حياتنا ويلمع ، وتظل قلوبنا خاوية مظلمة " (١)

● ضبط المسألة الجنسية :

" بالدراسة الإسلامية للنفس البشرية نعلم أن هناك ترتيبًا للغرائز حسب قوتها ، ومن هذا الترتيب أن غريزة الجنس هي الغريزة التى تغلب غريزة حب الحياة.. والدليل على ذلك هو حادثة اليهودي الذى زنى بيهودية ، فأمر بهما رسول

(١) دليل التربية الأسرية – د/ عبد الكريم بكّار – ص ١٠٤ – ١٠٦ .

الله فرجا ، قال ابن عمر : فرجما عند البلاط ، فرأيت اليهودي أجنأ عليها [أخرجه البخاري في الحدود (١٢٨ / ١٢) عن ابن عمر رضي الله عنه .)] .. كدليل على أن الموت لم يشغل اليهودي عن حبه لتلك التي زنى بها .

والدليل على ذلك أيضًا ، ما جاء في قصة هجرة إبراهيم الخليل إلى مصر عندما كانت معه زوجته سارة ، وكان في مصر ملك يأخذ كل امرأة جميلة غصبًا ، فعلم بقدوم سارة فطلبها ، فلما جاءت أمامه دعت الله أن ينجيها منه ، فخسف الله به الأرض ، فدعت الله ، فقالت : يا رب إن يمت يقولوا قتلته ، فأنجاه الله ، فحاول مرة ثانية وثالثة . (أخرجه البخاري (٣٨٨ / ٦)

وواضح من الموقف أن هذا الملك عندما كان يحاول مرة ثانية وثالثة كان يعلم أنه مقدم على خسف وموت ، ولكنه أقدم على المحاولة !! وفي ذلك دليل على المعنى المطلوب تأكيده ..

ولا شك أن دفعة الجنس التي تبدأ في أبنائنا في فترة المراهقة يكون لها ضغطها على أعصاب الفتى أو الفتاة ..

ويزيد من ضغطها على أعصابها بُعد الأمل في الزواج ، والمثيرات المجنونة في كل مكان حولها .. وفوق كل ذلك القدوة السيئة في المجتمع ..!!

ولا سبيل للمربي لمواجهة ذلك إلا أن " يقوي الجسور في البنيان النفسي لفتاه وفتاته لكي تقاوم الفيضان !

ويعمق الإحساس بالله في نفس الشخص الذي يربيه – فتى أو فتاة – وأن يحاول أن يجعل حب الله ورسوله أثقل في قلبه من كل هذه الضغوط ، وطاعة الله ورسوله أحب إليه من طاعة المجتمع كله .

ومن أعظم الوسائل التي تعينه على ذلك أن يكون " صديقًا " لمن يربيه ، وأن يجعل الصلة التي تربطه بالبيت أقوى وأثقل من الصلة التي تربطه بالمجتمع ، وأن

تكون صلة المودة بين الولد وأبيه ، وبين الفتاة وأمها كافية " للمكاشفة " التى يمكن عن طريقها تصفية الضغط الزائد عن الحد ، والتوجيه إلى اجتناب الأوزار والدنس "(١).

والحديث مع الأبناء حول تقدير الآباء لمشاعرهم حول هذا الأمر .. وإدراكهم أن الدنس يلاحقهم بكل وسائله فى الشارع والسينما والمسرح ، بل والمجتمع على اتساعه ..وأنه يضغط على أعصابهم بصورة لا يصمد لها إلا أولو العزم من البشر وهم دائمًا قلة ..

والتأكيد على أن الحياة تصبح فى ظل ذلك كله قطعة من الجمر لا يستطيع أحد الإمساك بها ..

وهذا ما أخبر به رسولنا ﷺ حين قال : " يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر " أخرجه الترمذي ..

وإحساس الآباء بهذا الجمر الذى يمسك به الأبناء يتأكد حين يشهدون ضغط الجنس فى العهد الأول للدعوة باعتباره الوضع الإجتماعي القياسي ، فإذا " رجل يقف مع رسول الله ﷺ فى الحج فتأتي امرأة لتسأل الرسول ﷺ سؤالًا ، فينظر الرجل إلى المرأة – وهو فى الحج وبجانبه الرسول – فيدفع الرسول ﷺ وجه الرجل بيده ويحوله عنها (رواه البخاري) ..

و آخر يأتي إلى صلاة الصبح فيقابل امرأة فى الطريق ، فيقبلها (رواه البخاري) ..

فالأول كان فى الحج ، والثاني كان آتيًا لصلاة الصبح .

وهذا أبو هريرة يعيش رفيقًا للرسول ﷺ على ملء بطنه ، فيشكو إلى رسول الله معاناته من الغريزة ويطلب منه أن يجيز له الإختصاء ، وتقول الصحابة

---

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج٢ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

لو أذن له لفعلنا (رواه البخاري)

ولن يعيش أحد مثلما كان يعيش أبو هريرة والصحابة فى عهد الرسول ﷺ، ورغم ذلك كانت هناك معاناة " [١].

ومعرفة الآباء لهذه المعاناة من الأبناء ، تجعل ترشيد أخطائهم – إن حدثت – ترشيدًا صحيحًا وعلاجًا نافعًا ناجعًا ـ بإذن الله ـ .

خذ مثالًا :

دخل الزوج إلى زوجته بالمطبخ وهو يمسك بيده صورًا عارية قد وجدها تحت سرير ابنه المراهق قائلًا : لقد وجدت هذه وأنا أبحث عن محفظتى التى سقطت مني فى حجرته ..

قالت الأم : ماذا علينا أن نفعل ؟ أنرجعها إلى مكانها ونتصرف كأننا لم نرها ، أم نواجه الولد بما صدر منه من خطأ ؟

ردّ الزوج : أنا أرى أن مواجهة هذا الخطأ برفق قد تكون أنفع ..

الأب : لقد لا حظت وجود هذه الصور تحت سريرك .. فلماذا تخفيها ؟

الابن : " صمت "

الأب : أنا أقصد أنك تدرك كما أدرك أنا أن النظر إلى مثل هذه شيء محرّم .. أليس كذلك ؟

الابن : نعم يا أبي .

الأب : أنت لديك أم وأخوات .. أتحب لهم أن يكونوا على هذه الصورة التى تغضب الرب ، وتذهب الكرامة ؟

الابن : لا .. لا يا أبي لا أرضى لهن ذلك أبدًا ..

الأب : إن العبودية لغير الله ذل .. وهذه الصور تحوّل المرأة إلى سلعة تقتنى وتباع .. وتحوّل من يدمن رؤيتها إلى عبد ذليل لشهوته ..

---

(١) راجع إن شئت " بيت الدعوة – رفاعي سرور .

الابن : صمت تام .

الأب : أرجو أن تتذكر هذه الكلمات .. أمّا الآن ، فأنا أدعوك إلى التخلص من هذه الصور بالحرق ، فأنا لا أريدها فى بيتي ، وكذلك أنت لا تريد أن تراها .. أليس كذلك ؟

الابن : نعم ..

هذا هو أسلوب الإرشاد ..

أمّا الأسلوب الآخر ، والذى يفتقر إلى استثمار الأحداث فى الإرشاد إلى الصواب فنسمع فيه كلمات من نوع : من أين حصلت على هذه الصور أيها السافل؟ .. هل أعطيك مصروفًا لتشتري به هذه المنكرات ؟

لا أصدق .. أنت من ربيّته فى بيتي الذى يقوم على الدين والأخلاق .. إن علمت أنك ترى مثل هذه الصور فسأطردك من منزلي ..

إن هذه الكلمات وأمثالها لا تؤكد إلا أمرًا واحدًا ، بينما تضيّع الكثير من فرص التوجيه ..

إنها تؤكد رفضك للفعل الذى قام به الابن (وهو أمر يعلمه هو تمام المعرفة).. بينما تضيع عليك فرصة إصغائه لك ليعلم أين الخطأ ..

إنه ربما يظن – خطأ – أن سلوكه لا ينافي القيم ، وأنه فضول يراود كل من فى مثل عمره ..!!

هكذا .. " كما حدث مع الشاب الذى طلب من النبي ﷺ إذنًا بالزنى ، فعلى الرغم من شذوذ فكرة الشاب ، والتى أثارت الجالسين عند رسول الله ﷺ فحاولوا زجر الشاب وإسكاته ، إلا أن الرسول ﷺ طلب من الشاب أن يقترب منه ، وهنا نفهم دلالة المسافة بين الأشخاص ، فقرب المسافة يمكن من توفير جو مناسب للحوار ، أما المسافة البعيدة فهى لا تصلح إلا لإملاء الأوامر وإصدار التعليمات .

وبدأ النبي ﷺ الحوار الهادىء .. والملفت للنظر أن الرسول ﷺ لم يذكر

الشاب بآيات وأحاديث فى تحريم الزنا ، فالشاب لا يجهل حرمته ، ويريد من الرسول ﷺ أن يبيح له حرية ممارسة الجنس .

وإنما استخدم الرسول ﷺ مع الشاب ما يمكن أن نطلق عليه " المنطق الإجتماعي " القائم على أساس عدم تقبل أى إنسان أن يفرط فى عرض أمه أو أخته أو عمته " .. (١) .

وهكذا يجب أن يكون الإرشاد الصحيح للابن .. إرشاد يؤكد على أن " الإحساس بهذه الرغبة هو إحساس بأمر فطري فى نفس الإنسان يجب ألا أصطدم معه وأن أجعل هذا التفكير فى حدوده التى لا تقعد بي عن عمل ولا تنزوي بي إلى ركن يتسلل إليه الشيطان ، بل يجب أن أفهم فهمًا مدركًا أن الإسلام لا يمنعني من إفراغ ما أحسه وأن أشبع هذه الرغبة ، ولكن بطريقها المحدد وفى وقتها الذى أستطيع تحمل تبعاته ، إنه ليس من حقي أن أفرغ هذه الطاقة فى أى مكان وبأي طريقة كانت ومع أى فتاة شئت . إن هناك طرقًا للوصول إلى هذا الأمر ينظمها ديني تحقيقًا لهدفه النظيف الذى لا أهضم فيه حق غيري ولا أعتدي على أعراض الناس ولا أدنس نفسي فى وحل الخطيئة . وأعلم وأنا أفكر فى هذا الجنس أنني بشر من عقل وجسم وروح ، ويجب ألا تجرني رغبة جنسية إلى نسيان ذاتي، وإني باختيار وقدرة على ضبط نفسي ورغباتها أستجيب لعقل راشد وروح إيمانية عالية يسددان لهذا الجسم ورغباته الطريق ، إنني أختلف عن الحيوان الهائم المعدوم الإختيار والتصرف ...

فإذا سرت إلى إشباع هذه الرغبة بطريقها المرسوم فإني حينئذ أصل إلى ظل وارف وماء عذب وحياة هادئة ومتعة نظيفة وحرية هناك مطلقة ..

وإذن .. فالواجب عليّ كمسلم أن أدّخر هذه الطاقة التى لم يحن وقتها والتى يؤجرني الله عليها ، فإن الإسلام محتاج إليها حاجته لكل الطاقات الأخرى متناسقة

---

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د.عادل رشاد غنيم – ص ١١٢ بتصرف

فى إطار العقل والجسم والروح ....

فقد بيّن النبي ﷺ أن المسلم يؤجر ويثاب على إتيانه شهوته بالحلال فيقول الصحابة متعجبين : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ، فيقول رسول الله ﷺ: " أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ، فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر "

ويقول النبي ﷺ وهو القدوة : " حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء ، وجعلت قرة عيني فى الصلاة " (١)

فالنبي ﷺ جمع فى هذا الحديث بين " قرة العين فى الصلاة " ومعناها قمة القرب من الله ، وبين حب النساء !!!!

إن الجنس ليس لونًا واحدًا ولا درجة واحدة ..

" فهناك الشهوة العارمة التى تتمثل فى الجسد الهائج والجوارح الظامئة ، والعيون التى تطل منها الرغبة المجنونة .

وهناك الرغبة الهادئة المتدبرة التى تعد العدة فى ترتيب وأناة ، حتى تظفر بما تريد على مهل ودون استعجال .

وهناك الأشواق الحارة الملتهبة التى تنبع من الجسد ، ولكنها تمر فى طريقها على القلب ، فيصفيها من بعض ما بها من " العكار " ويعطيها قسطًا من "العاطفة" تمتزج بصيحة الجسد الملهوف .

وهناك الأشواق الطائرة المرفرفة التى تنبع من القلب ، ولكنها قد تمر فى طريقها على الجسد ، فيعطيها بعض لهيبه المحرق ، وقد يخلط بها بعض العكار ، ولكنها تظل محتفظة بكثير من الصفاء .

وهناك إشراقة الروح الحالمة ، قد صفيت من العكار كله ، وصارت صفاءً مطلقًا لا يعرف الجسد ، وإشعاعة لا تعرف القيود . تعشق الجمال خالصًا حتى من

(١) طريق البناء التربوي الإسلامي – د.عجيل جاسم النشمي – ص ٧٥– ٧٧

الإطار الذى يصب فيه !

وهناك ألوان أخرى لا تدركها الألفاظ ، ولا يقدر عليها التعبير !

وبين هذه الألوان المختلفة مئات من الأحاسيس ، تشترك فى الأصل ، ولكنها تختلف فيما بينها أشد اختلاف ..

فأي مبرر من عالم الواقع يبرر أن نحصر الجنس فى شكل واحد هو النهم الحيواني المسعور ؟ " [١].

إن الإسلام لا ينكر الجنس ، وما يرف حوله من مشاعر وأفكار . لأن منهجه الذى يسير عليه فى معالجة النفس هو الاعتراف بالطاقات البشرية كلها ، نظيفة وفى معرض النور ، لا مستقذرة ولا مختلسة فى الظلام .

وهكذا من خلال " الضبط " يحل الإسلام " مسألة " – ولا نقول " مشكلة" – الجنس ..

نعم ليس الجنس مشكلة ، وليست " مشاعره وأفكاره بدعًا بين المشاعر والأفكار ، وليست خصائص الجنس الجسدية بدعًا بين خصائص الجسد ، وليس الجنس كعملية حيوية بدعًا بين العمليات الحيوية التى يقوم بها الإنسان من طعام وشراب وغيرها ...

ومن هنا لا يضع الإسلام حاجزًا نفسيًا خاصًا أمام الجنس ، غير ما يضعه لغيره من ألوان النشاط البشري ، لا فى طريقة الحديث عنه ، ولا فيما يصرح به منه أو يمنع .. " [٢].

ولا يعنى قولنا أن الجنس ليس مشكلة أنه كـ " مسألة " يمر بلا كدح وتعب فى توجيه تلك الطاقة ، بل كل أمر فى الحياة يحتاج إلى كدح وتعب وجهد ..

" إنك لكي تفلّح الأرض تتعب .. تشقها ، وتبذر فيها البذر ، وتسقيها ،

(١) منهج الفن الإسلامي – محمد قطب – ص ٦٩ ، ٧٠

(٢) منهج التربية الإسرمية – محمد قطب – ج٢ ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

وترعاها من الحشائش الضارة ، وترعاها من الآفات ، وتحافظ عليها من أي مغيّر يغيّر عليها من حشرة أو حيوان أو إنسان ...

وإنك لكي تتاجر تتعب .. تجمع المال الذى تبدأ به تجارتك ، وتختار نوع التجارة الذى تنوي العمل فيه ، وتكتسب فيه خبرة كافية ، وتدرس السوق واحتياجاته ، ثم تشتري بضاعتك ، ثم تعرضها العرض الذى يضمن رواجها ، ثم تجتذب إليها الزبائن بحسن المعاملة والأمانة والصدق ...

كل ذلك تعب ومشقة ، ولكنه ليس مشكلة ... " (١)

لقد تضمّن القرآن الكريم ، والسنة المطهرة آدابًا ، وتوجيهات كثيرة فى مجال التربية الجنسية ، وهي تعد مدخلًا جيدًا للحديث مع الأبناء حول هذه المسألة .. مثل الاستنجاء ، وآداب الغسل ، والطهارة ، والوضوء للصلاة .. ومن هنا فلا ينبغي أن يعتقد المربي حرمة الحديث عن القضايا المتعلقة بالجنس وتعليم الأبناء الاتجاهات الصحيحة فى ذلك ؛ بل هي جائزة ، وربما كانت واجبة فى بعض الأحيان إذا ترتب عليها حكم شرعي ..

كما أن عدم إعطاء الأبناء المعلومات الكافية حول القضايا المتعلقة بالجنس ، سوف يدفعهم للحصول عليها من جهات أخرى قد تكون مشبوهة فيؤثر ذلك فى أخلاقهم ، ونفسياتهم ، وعقولهم ..

إن تقديم المعلومات الجنسية للأبناء عند حاجتهم إليها وتساؤلهم عنها دون غضب أو غموض أو سرية ،.. وتحويل " همساتهم " حول تلك المسائل إلى "حقائق " علمية توضّح لهم كيف يمارسون هذا الـ " جزء " من الحياة وفق منهاج الله الشامل لـ " كل " الحياة " .. هو واجب شرعي لنباعد بين أبنائنا ، وبين الوسائل المحرمة لذلك الأمر .. ولنفرغهم للمهمة الأولى للإنسان .. " عبادة الله وحده لا شريك له " ..

---

(١) المصدر السابق – ص ٢٠٨ بتصرف يسير .

ولا بد لنا – كآباء ومربين – أن نعرف كيف نقدّم هذه الثقافة لهم ؟ ومتى ؟ .. ولا بد أن ندرك أننا إن لم نقم بهذه التوعية لأبنائنا وبالطريقة السليمة ، فإن هناك من يقف على الجانب الآخر فى انتظار أبنائنا ليملأ تلك الكأس الفارغة بطريقة خاطئة ..!! ووقتها لن ينفعنا الندم ..!!

" إننا نعلم كآباء وكمربين أن واقعنا كله يتبع الغرب فى المسألة الجنسية ..يتبعهم فى كل ما يصنعوه ، بل يجري وراءهم لاهثًا خشية أن يفوته شيء من انحرافاتهم فنتهم أننا رجعيون ومتأخرون بقدر ما تركناه بلا تقليد !!

وهذا الغرب قد ملأ حياة الشباب بكل طريقة للإثارة والرغبة الجنسية فكما يصف " الكاتب الأمريكي " ول ديورانت " فى كتابه " مباهج الفلسفة " : " ... يقبل الحب فلا يجرؤ الشاب على الزواج وجيوبه صفر من المال ، ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفًا (وقد مرّت السنوات) ، ومع ذلك لم تمتلىء الجيوب بما يكفي للزواج . ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت السنوات) فيجد الجيوب عامرة فيحتفل الزواج بموت الحب!! ...

ونحن بالطبع نتبعهم فى كل ما صنعوه ..[1]نصعّب الزواج بكل وسائل التصعيب ، ونطلق وسائل الإثارة بأقصى ما فى طاقاتنا من جهد . ثم يروح " علماؤنا" و " مفكرونا " و " كتابنا " ... يناقشون مشاكل الشباب ؟؟!! .. وتلك المشكلات نحن الذين صنعناها لهم .. ثم نتساءل أين الحل ؟؟ " [2].

فهل نَصْدُق أنفسنا لنعرف أين الحل ؟ ، و ندرك كيف يكون إرشادنا لأبنائنا صحيحًا فى المسألة الجنسية ؟

إن الجنس حقيقة إنسانية .. و الحب أيضًا حقيقة إنسانية ..

(١) هذا الذى قاله ول ديورانت كان فى عام ١٩٢٩ !!

(٢) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج٢ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

«فقد أقر النبي ﷺ بالحب كحقيقة واقعة عندما رأى عبدًا يجرى وراء جارية وهو يبكي ، فقال لأبى بكر : " أنظر يا أبا بكر ، ودعا الجارية فجاءت فقال لها : أتتزوجيه ؟ . قالت : يا رسول الله أتأمر أم تشفع ؟ قال : بل أشفع . قالت : إذن لا أتزوجه . " (رواه البخاري) .

فقد كان هذا الحديث تقريرًا من النبي ﷺ لواقع الحب من خلال تعجبه من حال العبد دون إنكار عليه ، وطلبه من الجارية أن تتزوجه ، وأيضًا من خلال تقريره رفض الجارية للزواج من العبد ، ومراعاة مشاعرها رغم شفاعة النبي للعبد ..!!

ولكن هناك أمر لا بد من التأكيد عليها هنا ، وهو أن اعترافنا بالحب كحقيقة إنسانية واقعة هو اعتراف مجرد من أي مدلول له فى الواقع المنحرف ..

فعندما يمارس المنحرفون الحب ، فإنهم يحبون إلى حد " العبودية " فلا يحمل الواحد منهم أية رسالة فى الحياة إلا من أحبها بحيث تتحول من يحبها إلى قضيته التى يحيا بها ولا يتصوّر الحياة إلا من خلالها ».. ولذلك فإنه حين يفشل فى حبه قد يصاب بالجنون بسبب طغيان إحساسه بمن أحبها على عقله ووعيه .. أو يصاب بانطواء يصل به إلى الانتحار كصورة من صور الرفض لحياته التى لا يتصورها إلا من خلال علاقته بمن أحب ؟!!»[(١)] .

ربما قال القارىء لهذه الكلمات : أليس الإيمان يحمي الأبناء من الفتنة ؟

ونحن نتفق مع القارىء الحبيب على أن الإيمان يحمي صاحبه من الفتنة ، ولكن يجب أيضًا أن نتفق على أن أمر الحب – وبخاصة حين ينحرف – يحتاج إلى معالجة " وجدانية " لأن المشاعر تبقي فى نفس الإنسان ولو حقق جسده الإلتزام السلوكي ..

هذه قصة توضح ما نريد :

▪ روى الترمذى أن رجلًا يقال له مرثد كان يحمل الأسرى من مكة حتى

(١) بيت الدعوة – رفاعي سرور – ص ١٣ – ١٦ بتصرف يسير .

يأتى بهم المدينة ، وكان له صديقة يقال لها عناق ، وهي إمرأة بغي .. وقد واعد مرثد رجلًا من أسارى مكة ليحمله ، وأن عناقًا حين رأته قالت : مرثد ؟ فقال : مرثد ، فقالت : مرحبًا وأهلًا ، هلم فبت عندنا الليلة . فقال مرثد : يا عناق إن الله حرم الزنا ، فقالت : يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم ، فتبع ثمانية من الرجال مرثد حتى دخل إلى غار أو كهف ، فجاءوا حتى قاموا على رأسه فبالوا فظل بولهم على رأسه ، فأعماهم الله عنه .... فلما أتى مرثد المدينة ، قال لرسول الله ﷺ: أنكح عناقًا – أنكح عناقًا ؟ مرتين .. فأمسك النبي ﷺ فلم يرد شيئًا حتى نزلت : " الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين " .. فقال رسول الله ﷺ: يا مرثد الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها " رواه أبوداود والنسائي .

وواضح من الحادثة كيف أن مرثد أراد الزواج من المرأة رغم كفرها وبغائها ، بل ومحاولتها جمع الناس لقتله ... وواضح أيضًا كيف ألح فى طلب زواجها ..

وفى هذا دليل على أنه كان متعلقًا بها وجدانيًا ..

ومن هنا وجب علينا معالجة مثل هذه الحالات عند نشأتها فى وجدان أبنائنا..

ولا شك أن " علاج " مثل هذه الحالات لا يكون أبدًا باستقذار مشاعر الابن ، أو نهيه عن الحديث عن مثل هذه الأمور " التافهة " ، وإنما التأكيد على أنه تسبق " الزواج مشاعر وأفكار وتجارب تؤهل له وتمهد له الطريق وهذه " العواطف " ليست حرامًا فى نظر الإسلام .

عواطف الإعجاب والحب ، وما يصحبها من أفكار وأعمال وسلوك .

وإنما الحكم عليها هو الحكم على كل عمل آخر وكل شعور .. الحكم المستمد من قانون الكون :

هل تؤدي الدور الذى يتفق مع فطرة الكون ؟ أم تنحرف عن الطريق ؟

فأما إن كانت هذه العواطف – وهي فطرية فى صميم الخلقة – تهدف إلى

تحقيق هدف الحياة ، تهدف إلى ارتباط شقيّ الإنسانية فى علاقة نظيفة مثمرة منتجة ، تهدف إلى تقوية كيان كل من الشقين ودفعه فى طريق الصعود ... فهي طبيعية ...

وأمّا إن كانت عبثًا .. لا يسعى إلى غايته الطبيعية ، بل يجعل من نفسه غاية مستقلة منفصلة عن كيان الحياة ... فهي مرفوضة بنفس قوة رفض الإسلام لفكرة أن الجنس عملية بيولوجية خالصة ، وهدف يتحقق فى ذاته بصرف النظر عن أية علاقة وأي ارتباط ... [١]

إن الحضارة التى جاء بها الإسلام روح يسرى فى كيان الفرد فيعطيه طابعًا خاصًا ، يلمسه الناس فى كل شؤونه .. فى طريقة كلامه وعباراته المنتقاة ، وفى أسلوب استماعه ، وأسلوب تناوله لفرصة التحدث .. فى سلوكياته كلها ، تلك السلوكيات التى مثّلنا لبعضها الآن ..

ولكي يستطيع الفرد المسلم الإستقامة على تلك السلوكيات السامقة ، فهو فى حاجة إلى زاد من أعمال وممارسات تشكّل ماء الحياة للسلوك الحضاري للمسلم ، ومن هذه الأعمال :

ـ الصبر :

الصبر معلم بارز من معالم السلوك الحضاري ، وخط متين من خطوط الشخصية المتحضرة . ذلك أن الصبر يضبط الإنفعالات ، فيفكر المسلم بهدوء ، ويتحمل الآلام التى تقتضيها طبيعة المعركة مع أعداء الله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦] .. فالمسلم يصبر وهو يحارب ، ويصبر وهو يسالم ، ويصبر قبل العمل ، ويصبر أثناء العمل ، يصبر ويتروى للدراسة والتحقيق ، وليس للخوف والتردد ، قال عز وجل : ﴿يا أيها الذين أمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ [آل عمران – ٢٠٠]..

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج٢ ص ٧٥ ، ٧٦ بتصرف .

والمسلم يصبر "الصبر الإيجابي الذى وصفه الله فى القرآن بالصبر الجميل . صبر يعقوب عليه السلام الذي استخدمه وهو يعيش الأمل المشرق البسّام فى لقاء ابنه يوسف – عليه السلام – فكان الصبر الجميل عنده أقوى البواعث على لقائه به..

بالصبر الجميل واجه المتآمرين ﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمرًا ، فصبر جميل . والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف ١٨] .

وبالصبر الجميل أمر أولاده بالبحث عن أخويهم : ﴿قال : بل سوّلت لكم أنفسكم أمرًا ، فصبر جميل . عسى الله أن يأتيني بهم جميعًا ﴾ [يوسف: ٨٣].

والصبر الجميل هو ما استخدمه محمد ﷺ فى مواجهة تكذيب قومه ، فكان دافعًا إلى مزيد من الدعوة والجهد والنشاط حتى تحققت آماله ، وانتصرت دعوته ﴿فاصبر صبرًا جميلًا ﴾ [المعارج:٥].

إن الصبر الإيجابي الجميل ضياءلأبنائنا ، يضيء لهم طريقهم فى هذه الحياة، كما قال ﷺ: " والصبر ضياء " .. "[1]

وليس الصبر أن يستسلم الإنسان للذل والهوان والاستعباد ، كما لو كان لا سبيل إلى تغييره ، أو زحزحته والتمرد عليه !!

بل الصبر .. هو مواجهة التحديات ، ومقاومة الشر ، و ثبات على المبدأ ورفض العبودية إلا لله رب العالمين ..

ـ الصــلاة :

فالصلاة تغرس فى نفس الابن تناقضًا " مطلوبًا " بينه وبين كل مجتمع لا يقيم الصلاة .. وهو تناقض مطلوب لأنه يخرج الولد من تناقض آخر بين أمه المحجبة و" أبله " المتبرجة .. مثلا .

لابد أن يفهم الصغير التناقض الموجود فى المجتمع ، بل وأحيانًا داخل العائلة

(١) ثوابت للمسلم المعاصر – د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي – ص ٦٢ ، ٦٣ .

.. بين الأم المحجبة ، وبين المذيعة أو المعلمة المتبرجة ..!!

بين الأب الذى لا يدخن ، والخال الذى يدخن مثلًا .. ذلك أن هذا الإرشاد هو الذى يخرج الأبناء من الصراع الداخلى حول القيم .. ويحفظه – بتوفيق الله – من ضرر الأصحاب فى العمل أو المدرسة .. فهو يحاول دائمًا الخروج بأفضل ما فيها .. وإذا استطاع الإختيار ، أحسن هذا الإختيار وفق استقامة الصديق من خلال صلاته

ـ الصـــدق :

سأل رجل علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : يا أمير المؤمنين : عظنى وأوجز ، فقال له : " توقّ ما تعيب "

أى لا تفعل شيئًا تؤمن بأنه معيب أو يستحى منه ، أو تتراجع عنه .. لا تقل ولا تفعل شيئًا يضعف موقفك .

وهذا ما سوف ننصح به الابن ..

يا بني – إن الصدق مريح ، وهو يوصل إلى الحب .. فعليك بالصدق ..

وإذا طلب منك شىء لا تستطيعه ، فلا تعد بتنفيذه ، بل قل لا أستطيع ، وهذا سيجعل الآخر يثق بك ، وهو أفضل من أن تعده وتخلفه ..

سهل عليك أن تعطى وعدًا بأن تزور ، والصعب هو ألا تعطي وعدًا لإنسان طلب منك أن تزوره ، حين تعلم أنك لن تستطيع ، ولكن هذا أفضل وأسهل من أن تعد بشىء لا تستطيع تنفيذه ثم تخلف به ..

واعلم – بني – أن حقيقة واحدة تهدم صرحًا من الخيال .. ومن هنا وجب على الإنسان أن يكون صادقًا .. صادقًا مع الله .. صادقًا مع الناس .. صادقًا فى وجهته إلى الحق .. صادقًا فى حمل مبادئه وقيمه ..فالصدق طريق النجاح ..

ـ الرحمة والتواضع :

وهذا الخلق يحفظ النفس من الرغبة فى الانتقام التى تدمّرها وتدمّر الحياة من حولها .. لأن الإنسان الذى تخلق بخلق العفو والمغفرة ، يقدر على ضبط مشاعره ،

ويتسامى ويترفع عن المعاملة بالمثل ، إلى موقف التفضل على المسيء ، وإفساح المجال له ليتراجع عن خطأه ..

وأمّا التواضع .. فهو النظرة الواقعية للنفس ، ومعرفة حسناتها وسيئاتها ، والنظر إلى الآخرين من خلال فهم النفس ، والموازنة بين ما فيها من نقاط الضعف ، ونقاط القوة ، وبين ما فى نفوس الآخرين من هذه الصفات .. وهذا بلاشك يؤدي إلى التواضع بالضرورة ، لأنه لا يحتاج إلى التكبر إلا الضعيف ..

إن الرحمة والتواضع تجعل من الإنسان مصدرًا للعطف على الآخرين ، ومنبعًا للأمن والطمأنينة يركنون إليه ، وبذلك تقترب القلوب منه ، ويكتسب حبها واحترامها ، قال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩] .. "[١]

ـ سلامة الصدر :

هنا نود أن نذكر خلقًا جميلًا من الأخلاق الإسلامية التى أكد عليها رسول الله ﷺ، وهو خلق سلامة الصدر من الأحقاد ، وذلك لأهمية هذا الخلق للنفس السوية ، " فها هو رسول الله ﷺ يوجه نداءه للطفل الناشيء أنس بن مالك أن يغسل أدران نفسه صباحًا ومساءً فيسامح من أساء إليه ويفرغ قلبه من أى بقايا من وساوس الشيطان ونفثه فى الرؤوس والنفوس ، فلنسمع سويًا إلى هذا النداء العجيب العظيم :

أخرج الترمذي عن أنس رضي الله أن رسول الله ﷺ قال له : " يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس فى قلبك غش لأحد فافعل" .. "[٢]

ـ حفظ السر :

لا شك أننا نحب أن يكون أبناؤنا موضعًا لثقة الآخرين ، ولكي نؤهلهم

(١) الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة – للمؤلف – ص ١٠٥ .

(٢) الإنصات الإنعكاسي – محمد دياس – ص ١٢١ .

لنيل الثقة لا بد من تربيتهم على :

حفظ السر ، فحفظ السر نوع من أنواع الوفاء بالعهد .. وقد كان النبي ﷺ يركّز في تربية أصحابه على هذه المسألة ؛ فكان يحذّر ﷺ من إفشاء الأسرار فيقول : " إذا حدّث الرجل الحديث ثم التفت فهو أمانة " [رواه أبو داود والترمذي].

" حتى إننا نجد – كما في بعض الأخبار – حرص الفتيان على كتمان السر ؛ ففي حديث مسلم وغيره عن ثابت عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : "أتى علي رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان ، فسلّم علينا ، فبعثني في حاجة ، فأبطأت على أمي . فلما جئت قالت : ما حبسك ؟ فقلت : بعثني رسول الله لحاجة . قالت : ما حاجته ؛ قلت : إنها سر . قالت : " لا تخبرن بسر رسول الله ﷺ أحدًا . قال أنس : والله لو حدثت به أحدًا لحدثتك به يا ثابت " ..

ومن هنا وجب أن نعلّم أبناءنا أن إفشاء الأسرار خلقًا رديئًا وأن مالم تغيبه الأضالع ، فهو مكشوف ضائع ".

... واذكر أيها الأب المربي هذه الحادثة عن معاوية رضي الله عنه .. فقد أسر معاوية إلى الوليد بن عتبة حديثًا فقال لأبيه : يا أبت إن أمير المؤمنين أسرّ إلي حديثًا ، وما أراه يطي عنك ما بسطه إلى غيرك ، افأحدثك به ؟ قال : لا تحدثنّ به ، فإن من كتم سره كان الخيار إليه ، ومن أفشاه كان الخيار عليه ، قال : فقلت يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه ؟ فقال : لا والله يا بني ، ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر ، قال : فأتيت معاوية فأخبرته فقال : " يا وليد أعتقك أبوك من رق الخطأ " [1] فهل تعلّم – أخي المربي – ابنك حفظ السر ، وتعتقه من رق الخطأ ؟!

.. ونعود هنا ونؤكد أن التربية الخطأ تشكّل الإنسان الخطأ ، والذى ينتج المسلك الخطأ والمواقف الخطأ ..

---

(١) إحياء علوم الدين – أبو حامد الغزالي – ج ٣ ص ١٩٦ .

ولا ندعي أننا فيما سبق من كلمات قد أحطنا بما هو مطلوب لصياغة المثال الأخلاقي لتحقيق القدوة السلوكية ، وإنما هي كلمات لا تعدو أن تكون منبهات ومثيرات للذين سوف يوفقهم الله للقيام بهذا الجزء من الإنسان الصالح .. جزء الأخلاق الحضارية ، والذى يشكل مع غيره من الأجزاء الصورة الوضيئة للإنسان الصالح ..

ولا بد أن نؤكد هنا أن كلماتنا إن نطقت أو كتبت لا تحل محل " أفعالنا " ، فضلًا عن أن تكون هي " الأفعال " .. بل لا بد أن تتحول كلماتنا إلى أفعال نمارسها فى واقع الحياة لتكون الطريق لصناعة الإنسان الصالح ، والذي تتمثل فيه أخلاق الإسلام الحضارية ..

• **أعدّه للكدح فى الحياة :**

ينتظر البعض من هذا الدين- ما دام منزّلًا من عند الله- " أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب! ودون أي اعتبار لطبيعة البشر، ولطاقاتهم الفطرية، ولواقعهم المادي، في أي مرحلة من مراحل نموهم، وفي أية بيئة من بيئاتهم.

وحين لا يرون أنه يعمل بهذه الطريقة، وحين يرون أن الطاقة البشرية المحدودة، والواقع المادي للحياة الإنسانية، يتفاعلان معه، فيتأثران به – في فترات – تأثرًا واضحًا، على حين انهما في فترات أخرى يؤثران تأثيرًا مضادًا لاتجاهه، فتقعد بالناس شهواتهم وأطماعهم، وضعفهم ونقصهم، دون تلبية هتاف هذا الدين، أو الاتجاه معه في طريقه..

حين يرون هذا فانهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها – ما دام هذا الدين منزلًا من عند الله – أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته. أو يصابون بالشك في الدين إطلاقًا!.

وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد أساسي: هو عدم إدراك هذا الدين وطريقته، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة.

إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية ، يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية؛ وفي حدود الواقع المادي حينما يتسلم مقاليدهم. ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود طاقتهم البشرية، وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة وليس بطريقة سحرية غامضة الأسباب ..!! [١]

وهذا يعني أن مشكلة تخلف المسلمين يجب أن ننظر إليها كمشكلة " مجتمع " لا مشكلة " دين " .. فالإسلام حق لا يجادل فيه منصف ، ولكن المسلم ينطبق عليه ذات السنن الكونية التي لا تحابي أحدًا من البشر ، ولا يفيد معها " تعجل " الأذكياء .. ولا " أوهام " الأصفياء ..

ومن هنا فإن المسلم لا بد أن يوقن أن العمل والكدح فى واقع الحياة هو الذى يخط مصير المسلمين فى واقع الحياة .. وأن ملكية الحق لا تكفي للنصر فى الأرض إلا أن يكون من يحمل هذا الحق " يكدح " و " يعمل " من أجل ما يملكه من الحق ..

و لأن هذا هو اليقين الذى يجب أن يكون عليه المسلم ، فإن التربية الإسلامية فى أمس الحاجة لصناعة الإنسان المتحضر الذى يعلن رفضه للكسل والقعود والاتكال ، والعبور السالب للعالم دون تغيير أو إعمار .. ليجعل العمل والإبداع المتواصل فى واقع الحياة هو نسيج حياته من لحظة الوعي ، وحتى ساعة الحساب .

ويبذل فى ذلك كل الجهد ،ويمارس العمل والكدح فى واقع الحياة .. يمارسه وهو يؤمن أن " الكدح – وهو العمل فى واقع الحياة – هو العبادة الدائمة التى يقوم بها المسلم ، والتى يتزود – من أجل القيام بها – بذلك الزاد الروحي العميق الذي تمنحه إياه الشعائر التعبدية ، حين يقوم بها على صورتها الحقة من الخلوص إلى الله ، والتجرد إليه ، والخشوع والخشية والإخبات» .. [٢]

---

(١) هذا الدين – سيد قطب – ص ١ ، ٢.

(٢) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ص ٢٠٤ .

إن عبودية الله توجب عليه " أن لا يفرط في نصيبه من مقومات الحياة الدنيا كشأن أهل التصوف الخطأ والدروشة .. بل لا بد له من خوض معركة الحياة ، وتسخير جميع الماديات واكتساب ما أمكن منها بالطريقة المباحة ، ليتمكن من أداء رسالته في الحياة بالإنفاق في سبيل الله من كافة الوجوه ، ويتماسك مع إخوانه المؤمنين ، فتكون لهم اليد الطولى التي يقدرون بها على الصلاح والإصلاح في الأرض ، لأن ما في الدنيا من المقومات المادية الهائلة سلاح خطير إذا سبق إليه أهل الباطل وظفروا به كان وسيلة فعالة للتحكم في الناس وإفساد دينهم ودنياهم ، كما جرى للمسلمين بسبب الأفكار التي أقعدتهم عن الأخذ بأسباب القوة والهيمنة على الدنيا ، والتفوق على أهلها ، وفسحت المجال لأهل الكفر .. "(١)

إن طبيعة العبودية لله سبحانه وتعالى تقتضي تفوق و تقدم العابد في كل ميادين الحياة ، ولا يكون ذلك إلا من خلال العمل الجاد ، ومن خلال معرفة العابد كيف " يسارع " وكيف " يسبق " ؟ ومن ثم تصحيح الفهم الخاطيء للزهد الذي يدفع إلى الفقر ، بل ويجعله من سمات الصالحين !

أخي المربي – أبا وأما –

قل لابنك : إن نصيب أمتنا من الساعات في اليوم كنصيب أية أمة أخرى .. ولكننا إذا كنا نعرف شيئًا اسمه الوقت ، فإنّا في الحقيقة لا ندرك معناه ، ولا نعرف كيف نستثمره .. وهذه كارثة أن يضيع وقتنا هباء كما يهرب الماء من ساقية خربة .!!

ودربه على تخصيص نصف ساعة – على سبيل المثال – لأداء عمل معين ، لأن هذه " النصف ساعة " تؤكد في عقله أهمية الوقت ، فلا يضيعه سدى ، ومن ثم يرتفع حصاده العقلي ، واليدوي ، والروحي .. وهذه هي الحضارة..(٢)

(١) صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم – الشيخ عبد الرحمن الدوسري – ص ٧٩ .
(٢) مستفاد من " شروط النهضة – مالك بن نبي – ص ١٤١ .

إنه " ليس من الضروري ، ولا من الممكن - أن يكون لمجتمع فقير المليارات من الذهب كي ينهض ، ويسير فى طريق البناء الحضاري .. وإنما ينهض ويبني حياته وحضارته بالرصيد الأساس للحضارة .. " الإنسان ".. الإنسان الكادح ..

• وبكلمــة :

إن التربية الخطأ تشكّل الابن الخطأ ، والذى ينتج المسلك الخطأ ، والمواقف الخطأ ..

وأمّا التربية الصالحة ، فهي تقوم على إرشاد الابن إلى :

الخروج من عبادة العباد إلى عبادة الله .. ليكون عبدًا ربَّانيًّا.

و الإستقامة على السلوك الحضاري .. ليكون مثالًا إنسانيًا .

و مواجهة تحديات الحياة .. ليكون الإنسان الكادح ..

والاستعانة على ذلك بالله سبحانه وتعالى ، ثم بالزاد الروحي الذى تمنحه الشعائر التعبدية له ، حين يقوم بها على وجهها الصحيح ..

لأن كل ذلك هو ما يمكن أن نقول عنه أنه نجاح للتربية فى " صناعة الإنسان الصالح " .

❋❋❋

الفصـل الثاني
مهارة المواجهة برفق

مع ضرورة المواجهة للأبناء – في بعض الأوقات – ، فإن هذا لا يعنى أبدًا أن تبدو هذه المواجهة وكأنها حربًا ، بل الرفق أكثر فعالية فى الإرشاد والتوجيه .. ذلك أن التوجيه الصحيح لا يتحقق عبر أسلوب القوة ، وإنما عبر اكتساب حب الأبناء ، ومن ثم الحصول على طاعتهم ..

ولا طريق إلى هذا الهدف إلا أن يكون المربي مرشدًا ، وليس حكمًا .. قدوة ، وليس ناقدًا .. جزءًا من الحل ، وليس جزءًا من المشكلة .. لا يدخل الارشاد من باب اللوم والاتهامات ، بل يأخذ بيد الابن من زاوية تفكيره الخاطئة بلطف المحب إلى جادة الصواب ، يغمر حواره معه جمال التواصي والارشاد بحكمة ورفق .

فكيف نمارس هذا الفن الراقي .. ونتقن تلك المهارة العظيمة ؟

• الإرشاد .. إقناع لا تحكّم:

لا شك أن " الرفق عنصر مهم للغاية لنجاح مسعاك فى تربية أبنائك ، ذلك أن الرفق هو الذى سيجمع حولك أطفالك حبًا وودًا ، فإذا كنت ممن يستفزه الخطأ فيعصف به الغضب ، ويجعل العنف هو طابعه ؛ فلن يخرج من بين يديك إلا كائنات ضعيفة مسلوبة الشخصية . فكن رفيقًا بأولادك وحاول مصاحبتهم والعطف عليهم ، والوقوف إلى جانبهم فى الحالات الصعبة ، مما يشعرهم بالدفء والحنان والقوة والقدرة على الصمود . وهكذا أوصى الله نبيه ﷺ :

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

ويقول ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه» [أخرجه مسلم] .

ومما أخبرتنا به أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنه – أن الرسول ﷺ عندما رآها تلعن ناقتها التي تلدّنت عليها (أي لم تنبعث في السير وكانت فيها صعوبة) فقال لها : " مهلًا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله ، فعليك بالرفق " [صحيح الجامع رقم ٧٩٣٠] فإذا كان ذلك التوجيه حدث بشأن التعامل مع دابة فما بالك إذا حدث مع ولدك ؟![١] .

إن توجيه الابن وإرشاده فن يراعي الرفق في كل شيء ..

يراعي الرفق في الجمل الإرشادية ؛ فيستخدم- مثلًا – جملة " أريد أن نحاول معًا الوصول إلى حل مشكلة كذا " بدلًا من جملة " لقد أخطأت خطأً كبيرًا ، ولا بد أن تحاسب عليه " !!!

ويراعي الرفق في درجة الصوت الإرشادي ، فلا يرفع الصوت بالتهديد ليفرض ما يريد من القيم ، وإنما يحاول زرع هذه القيم عبر القدوة .. و"المراقبة الحنونة للطفل ، والكلام بهدوء معه ، والتوجيه المليء بالثقة ، وعدم منع الطفل من فعل إلا بعد تفهيمه وعدم إطلاق قذائف التوبيخ عليه وكأنها قذائف صاروخية.."[٢] لأنه يؤمن أن القيّم الخيّرة لا تفرض فرضًا ، وإنما ينجذب إليها الابن عبر تمثل الأباء لها فيقبلها عن طيب خاطر ، بل ويحبها .. وأما الحشو المجرد لأذهان الأبناء بقيّم ومفاهيم نظرية مجردة .. فهذا الحشو يتلاشى مع أول صدام مع الواقع .

ويراعي الرفق في طول النصيحة ؛ فيحرص على الإيجاز في الإرشاد وعدم التطويل ، كما كان هدي النبي ﷺ الذى أخبر صحابته أن العادّ إذا أراد أن يعد

---

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د/ عادل رشاد غنيم – ص ١٠ .

(٢) تربية الأبناء في الزمن الصعب – د. سبوك – ص ٤٥ .

كلامه استطاع ، وأنه ربما أعاد ﷺ الكلمة مرارًا حتى تعقل عنه .(١)

ويراعي الرفق في أسلوب الإرشاد ؛ فيتجنب تخويف الأبناء ، لأن التخويف لا يجعلهم ينتفعون بالنصيحة ..إقتداء برسول الله ﷺ الذى " كانت الأجواء التربوية فى مجلسه تبعث على الأمن والطمأنينة ، بل كان رسول الله ﷺ ملاذًا للخائفين ومحطًا آمنًا للفزعين .

وكان ﷺ يهتم بتوفير الأمن لطلابه والقادمين إليه قبل أن يحدثهم أو يفاتحهم فضلًا عن تربيتهم وتعليمهم .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:٦] .

وكان يعطي الأمان للقادمين الجدد– بل ولأعدائه قبل الإسلام – لما له من أثر نفسي وتربوي ، ومن هذا أنه كان يعطي الأمان لمن جاءه مسترشدًا أو فى رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية عروة بن مسعود ، ومكرز بن حفص ، وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحدًا بعد واحد يترددون ، فرأوا من إعظام المسلمين لرسول الله ﷺ ما كان سببًا فى هداية أكثرهم " (٢).

وأنت – أخي المربي – إن كنت معتادًا على تهديد ابنك أو تخويفه بشكل دائم؛ فلا تتوقع أن تحصل منه على الطاعة أو التقبل لأوامرك !! .. إن الخوف يؤدى إلى الكراهية .. عندما يخشاك شخص فإنه سيكرهك فيما بعد ، وإذا كرهك فلن يطيع أوامرك بمحض إرادته ..

جرّب أن توفر لأبنائك جوًا من الحب والأمن ، بعيدا عن التهديد والتخويف.. جرّب ذلك ، وستجد أنك تحصل منهم على نتائج تفوق توقعاتك ..

---

(١) تثبت الدراسات أن العقل البشرى لا يستطيع أن يتابع ما يلقى عليه بكفاءة أكثر من خمس عشرة دقيقة ، ثم يتسرب إليه الملل !!

(٢) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ١١٢ .

بل إنك ستندهش من حجم التعاون الذى يظهرونه فى طاعة أوامرك والمسارعة فى تنفيذ رغباتك .!!

إن الابن يجهل أكثر مما يعلم ، فإذا علم فعل الصواب سار سيرًا محمودًا ، لذلك تكون مرحلة تعليمه الصحيحة من الصغر ، أولى الخطوات في تقويمه ، وقد ورد أن النبي ﷺ كان يصحح البنى الفكرية للطفل ، وكان يتبع في ذلك شتى الأساليب المعينة التي تمتاز بالرفق واللين ، وذلك لتصحيح فكر الطفل .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه ، فقال رسول الله ﷺ: (كخ كخ): إرم بها ، أما علمت أنا لا نأكل صدقة...

ففي هذا الحديث فائدة لطيفة وهي طريقة الزجر بهذه الكلمة (كخ كخ) ثم مالبث أن علل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه للطفل سبب عدم الأكل ، وعدم حمله له لتكون قاعدة فكرية عامة في حياته كلها (أما علمت أنا لا نأكل الصدقة) وذلك في صيغة رائعة .. أما علمت ..؟؟! وذلك ليكون وقعها في النفس أقوى تأثيرًا .

إننا كثيرًا ما نطلب من الطفل القيام بأعمال لم يسبق له عملها ، أو شاهد من عملها لذلك يبقى في جهل ، فإذا طلب منه العمل وقع في أخطاء تحتاج إلى تصحيح، فإذا عوقب على خطئه هذا كان ظلمًا وحيفا .

إن الإرشاد هو مهارة المواجهة بحكمة ، ولا يجوز أن نتكىء فيه على خط الخوف ، فنكثر الحديث عن " غضب الله وعذابه والنار وبشاعتها . إنما ينبغي – كما هو مقرر فى المنهج الرباني فى كتاب الله وسنة رسوله – المزاوجة بين الرضا والغضب، والنعيم والعذاب . وينبغي كذلك أن نبدأ بالترغيب لا بالترهيب ، حتى يتعلق قلب الطفل بالله من خيط الرجاء أولًا فهو أحوج فى صغره إلى الحب .. ولا بأس بأن يصل الترهيب إلى نفس الطفل من طريق غير مباشر . كأن يقال له حين

يقوم بعمل خيّر : إن الله سيحبه من أجل هذا العمل ، ويدخله الجنة ، وإنه ليس كالأولاد الآخرين الذين يعملون السيئات ، والذين سيعذبهم الله في النار .. فنكون قد ذكرنا له العذاب ولكن من طرف خفي ، يحدث في نفسه الرهبة المطلوبة ولكنها لا ترتبط بشخصه مباشرة .. " (١) .

ولا شك أنه من نافلة القول التأكيد على أن يكون الإرشاد بشكل غير مباشر .. فالتوجيه بهذا الشكل يدفع الابن إلى قبول إرشادك واستقبال نصيحتك .. وانظر إلى هذا الحوار بين النبي ﷺ مع حصين الخزاعي .. يقول النبي : " يا حصين كم إلهًا تعبد ؟ قال : سبعة ، واحد في السماء ، وستة في الأرض ، فقال ﷺ: يا حصين إذا أصابك الجوع والفقر فمن تدعو ؟ قال : الذي في السماء ، فقال الرسول ﷺ: إذا عدمت الولد فمن تدعو ؟ قال الذي في السماء ، فقال له الرسول ﷺ: فيستجيب لك وحده وتشرك معه غيره ! ... هنا تنبه حصين .. وعرض النبي عليه الإسلام ، فأسلم حصين» . [أخرجه الترمذي برقم ٣٤٨٢].

إن انتقادنا المباشر لعمل أبنائنا وسلوكياتهم بقولنا لهم : " أنتم أغبياء ، أو غير أكفاء " .. إن هذا يبعدنا عن هدفنا في إرشادهم إلى الأفضل .. ذلك أنهم حين يسمعون هذاالتعليق منا ، فإنهم يقفون موقف الدفاع عن أنفسهم، فلا يصبح لديهم أدنى استعداد لتقبل ما نريد قوله ، ومن باب أولى فعل ما نريده منهم ..

ولذلك فإننا إن اضطررنا إلى الإرشاد المباشر ، وجب علينا ألا نكرر ذلك مرات عديدة حتى لا يصاب الابن بالإحباط واليأس .. كما أن من حكمة التوجيه والارشاد أن لا ننبش ماضي الأخطاء وننفخ فيها الروح من جديد !! إن مثل هذا التصرف لن يساعد الابن أبدًا على تقديم أفضل ما لديه في الوقت الحالي ، بل إن

---

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ص ١٦٤ .

الأكثر احتمالًا أن يكون له أثرًا عكسيًا تمامًا .[١] ذلك أن لغة إصدار الأوامر بأسلوب الاستبداد والصرامة يبغضها الابن قدر كراهية الكبير لها ، وغالبًا ما يستجيب لها فقط عندما تكون على رأسه ، أما إذا غبت عنه فعل خلاف ما دعوته إليه ..

وقد جاءت الكثير من النصوص الشرعية فى الكتاب والسنة بذكر الحكمة من الأمر والنهي .

- يقول رسول الله ﷺ لأنس رضي الله عنه " يا بني إذا دخلت على أهلك فسلّم يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك " – رواه الترمذي بسند صحيح برقم ٢٦٩٨ .

- وعندما " لاحظ النبي تجمعات بعض الناس فى الطرقات ورأى فيها احتمالات الإيذاء للمارة ، حذرهم ﷺ من الجلوس فى الطرقات : " إياكم والجلوس فى الطرقات "

كان من الممكن أن ينتهي الموقف عند هذا ، حيث يعلن الصحابة استجابتهم وإذعانهم للأمر الصادر من الرسول ﷺ، لكن الرسول ﷺ ربى أصحابه بطريقة مختلفة ، لذلك نجدهم يقولون : " ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها " !!

إن الرسول ﷺ لم يعتبر ذلك رفضًا أو تحديًا ، وإنما أقرّ لهم حاجتهم ، لكن لا بد من ضوابط ! لذلك قال لهم ﷺ " فإن أبيتم إلا المجلس ، فأعطوا الطريق حقه "

قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟

فقال : " غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " صحيح الجامع رقم ٢٦٧٥ .

.... إن لغة الحوار وإقرار حق الأبناء فى التعبير عن احتياجاتهم وتلبية هذه الاحتياجات بأسلوب الضوابط ، كلها توضح كيف نشأت هذه الصفوة من الجيل المسلم الأول فكانوا سبقًا حضاريًا تهاوت أمامه الأنظمة النخرة التى عاملت الناس

(١) كيف تتمتع بالثقة والقوة – لس . جبلين – ص ٢١٦ بتصرف .

بالقهر والاستعلاء "[١] .

ومن هنا ينبغي لنا ألا نجبر أبناءنا على الانصياع لنا ، فنقتل إرادتهم وعزيمتهم .. وإنما إذا أردنا أن نفيدهم بمشورتنا وخبراتنا الحياتية فإن طريقنا إلى ذلك هو " استخدام الإقناع والابتعاد عن الإكراه ، فالمنطق والاحترام سيولد التقبل والارتياح من جانبهم ، فيشعرون بالمشاركة فى أمورهم مما يكسبهم شعورًا بوجودهم وقيمتهم "[٢] ..

كما أن الشرح والتعليل يفيد الأبناء فى أمرين فى غاية الأهمية :

" الأول : أن نبني العقلية السببية لدى الطفل حيث نعوده منذ الصغر أن يربط بين الظواهر وأسبابها ، والنتائج ومقدماتها . وذلك يقوى لديه الرؤية المنطقية والمنهجية ، ويساعده على النجاح فى الحياة ، كما يجعل عقله فى مأمن من تسرب الخرافة إليه ، فحين نقول للطفل : لا تخرج إلى اللعب اليوم ، لأن الجو بارد . وحين نقول له : نظف أسنانك كى تبقى قوية وسليمة ؛ فإننا بذلك نساعده على أن يفهم مفردات الوجود فى إطار من الترابط والتعالق ، وهذا هو واقع الحياة فى الحقيقة .

الثاني : الحفاظ على كرامة الطفل ؛ إذ أن الشرح ينطوى على اعتراف بأهمية الطفل . ونحن لا نريد أن نربي (إمّعة) يتصرف كالتابع الذليل ، وإنما نريد أن نربي رجلًا مستقل الشخصية ، متميز الكيان ، يعمل ما يقتنع به . ونحن حين نشرح للطفل مواقفنا وأسباب رفضنا لأمر يرغب القيام به فإننا نمنحه فرصة للدفاع عن رأيه والمجادلة عن وجهة نظره . وقد تكون صحيحة ومقنعة ..

إننا نعرف أطفالًا كثيرين يسلكون سلوك المنافقين بسبب صرامة لغة أهليهم معهم ، فهم يمتثلون لما يؤمرون به على وجه تام ، لكنهم فى داخلهم يرفضون على نحو تام كذلك ؛ ولذا فإنه حين تتاح لهم الفرصة للقيام بما يحبون ، فإنهم يندفعون

---

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د.عادل رشاد غنيم – ص ٦٢ ، ٦٣ بتصرف

(٢) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا – أكرم عثمان – ص ٣٧ .

إليه على نحو طائش غير عابئين بموقف أهليهم من ذلك .

.... نحن على يقين أن عملية الشرح والتفسير للأبناء لا تخلو من بعض المشاق ؛ ولا سيما إن كان الطفل عنيدًا ، ولكن من الذي يقول : إن في التربية أمرًا سهلًا " (١) .

ولا يعني ذلك تعليق تنفيذ ما يأمر به الأبوين على قناعة الابن الشخصية ، فليس هذا بالأمر الصائب فضلًا عن أن يكون تربية صالحة .. !! وإنما المقصود أن " قناعة الابن بما يقوم به أرجى للثمرة التربوية ، كما أن شرح الحكمة من الأمر الذى نطلبه من الطفل أيسر لتنفيذه .. ولكن لا بد من الإلزام حين تعجز مدارك الطفل عن تبين حكمة الأمر ...

ولا يعنى ذلك في المقابل التحكم الفارغ من الأبوين لمجرد الإلزام بالطاعة .. فذلك لا يؤدى في الغالب إلا للتمرد .

إذن .. المقصود أن نأمر الطفل ، ونلزمه بالأمر ، مع ترك المجال دائمًا لقدر من الاختيار في تصرفات الطفل ، لكى لا ينشأ سلبيًا من ناحية ، ولكي يتعود من طفولته أن يتحمل تبعة عمله .. فيختار ، ويتحمل تبعة ما يختار . (٢) .

مثال للتحكّم :

الابن : لماذا لا أستطيع الذهاب ؟

الأب : لأنني قلت ذلك .. أنا والدك ولا بد من أن تطيعني !!

الابن : ما الفائدة من عدم ذهابي ؟

الأب : كل شيء .

الابن : حسنًا ، ولكني سأذهب .

الأب (يستشير غضبًا) : أحذرك أن تذهب ، وإلا سترى ما أفعله بك .

---

(١) دليل التربية الأسرية – أ. د / عبد الكريم بكار – ص ١٤٣ – ١٤٥ .

(٢) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ص ١٢٤ .

الابن : لا يهمني .

الأب : سترى .. ويضربه .

.. مثال للإقناع :

الابن : لماذا لا أستطيع الذهاب ؟

الأب : لا أظن أنه من المفيد أن تذهب إلى هذا الحفل .

الابن : أستطيع أن أقدّر الأمور يا أبي .

الأب : سيكون في الحفل أولاد غير صالحين ، ثم أن الحفل نفسه يحوى بعض المفاسد .

الابن : لا تقلق علي يا أبي .

الأب : أنا أثق بك ، ليست المشكلة عدم ثقتي في قدراتك وأخلاقك .. إنني لا أثق بروّاد هذا الحفل ، فلن يكون لديك القدرة على السيطرة على أفعالهم ..

الابن : وما لي ولهم ؟

الأب : أدرك أنك يسعدك الذهاب ، ولكني مضطر لتغيير شكل سعادتك !!

لماذا لا تأتي ببعض أصحابك إلى المنزل ، وتستمتعون بوقتكم بشكل أفضل .. أو تخرج مع بعض أصحابك إلى نزهة مثلًا .

- أخي المربي:

إن الحزم ضروري في بعض الحالات ، ولكن الحزم لا يعني أن نحول منازلنا إلى معسكر ، ونحول الأبناء إلى جنود ، ونعيش جميعًا في جو عسكري صارم...

لا.. إن هذا ليس حزمًا ، إنه زراعة للخوف في نفوس الأبناء حتى لا يقتربوا منا الآن ، ولا يهتمون بنا في شيخوختنا ..

إن مساحة السيطرة الأبوية يجب أن تكون ضيقة ومتميزة حتى تتيح للأبناء فرصة تكوين شخصية خاصة وذوق راق وإبداع فعال .

خذ مثالًا :

الأم : " كف عن ضرب أختك يا أحمد "

أحمد : هى ضربتنى أولًا !!

سمية : لم أضربه يا أمي ، فقط هو غضب لأننى هزمته فى اللعب .

أحمد (يصرخ) : لا لم أفعل هذا .

الأم فى غضب شديد : " لا يهمنى السبب ، أنت تعرف يا أحمد أنه لا يحق لك ضرب أختك .. إذهب إلى حجرتك الآن .. لا أريد أن أراك أمامي !!

لا شك أن هذا الحوار قد يكون متكررًا فى أغلب بيوتنا .. أليس كذلك؟

كل الأطفال يأتي عليهم يوم فيضربون أخوتهم أو أقاربهم الصغار ، ربما لجذب الإنتباه ، أو الإنتقام ، وربما الإرهاق الشديد .. و ليس هناك وسيلة لحل هذه المشكلة تتسم بالكمال ، وإنما هى المحاولة ، التى تأتى بالأسلوب الأمثل للمواجهة ..ذلك الأسلوب الذى يراعي أن الأبناء مهما كانوا صغارًا لا يحبون أن يطيعوا دون أن يفهموا .. هم يحبون أن يفهموا كما يحبون أن يطيعوا .. أما الطاعة العمياء فهم يشعرون فيها بانتقاص الكرامة وتهميش القيمة ..

إننا نكثر من قولنا : لا تذهب إلى اللعب فى الخارج .. لا تصعد .. لا تنزل .. لا تأكل الحلوى .. لا تلعب مع ابن الجيران .. لا .. لا .. لا ..

هكذا بلا تفكير فيما يطلبه الابن هل هو صواب أم خطأ ؟ وإنما " لا " هذه تفاديًا لـ " وجع الدماغ " كما تقول الأم .. أو يؤكد الأب !!

ولكن الحقيقة أن (لا) المستمرة هذه ليست فى مصلحة الابن تربويًا ، لأنها تجبره بعد ذلك على مخالفتها دون تمييز بين صواب أو خطأ .. بل ربما قام الابن بما هو مرفوض لمجرد العناد والخروج من السيطرة !!!

النصيحة التربوية هنا ..

لا تقل (لا) حين تستطيع قول (نعم) .. ومادام ما يطلبه الطفل معقولًا ، فإن من الأفضل أن يسمع (نعم) .. وحين يكون العمل مرفوضًا ويسمع منا (لا)

فيجب أن يعرف لماذا (لا) ؟ .. نشرح له أسباب الرفض ..

ونقيم إرشادنا له على " التعاون " وليس " التحكم " .. بمعنى أننا نترك للأبناء " إختيار " سلوكهم بأنفسهم .. ويكون دورنا نحن هو أن " نعاونهم " فى " الإختيار " ؛ فيتربى هؤلاء الأبناء على الاعتماد على الذات فى اتخاذ القرارات .. فإذا واجهوا المشكلات كان لديهم القدرة على اتخاذ القرار الصائب للحل .. لأنهم تربوا على يدي آباء يثقون بهم ثقة تامة ، وهم يعلمون فى ذات الوقت أن أبناءهم – قد – يخلّون بهذه الثقة ، ولكنهم لا يخشون أخطاءهم التى يمكن علاجها قدر خشيتهم من الطباع التى تتأصل فى أبنائهم بسبب سوء الظن والقهر ..؟!

إن رفق المربي فى معالجته لأخطاء أبنائه يعينه على حل ما يستعصي منها بحكمة ، وقد يكون الإهمال لبعض تلك المشاكل هو بحد ذاته علاج تربوي ناجح .. ومن الضروري أن نؤكد على أنه كلما كان الصوت هادئًا كان أسرع فى الفهم والقبول . و كلما كان الإرشاد رفيقا ، حصلنا من أبنائنا على سلوك جيد .. بل وأشعرناهم بالخجل من تصرفهم الخطأ .. وأن الإرشاد إنما يكون بالتفاعل وليس التسلط ، بالتفاهم وليس القسر ، بالحنان وليس القهر .. ذلك أن الإرشاد هو .. فن المواجهة بحكمة .

● **التدرج .. قيادة النهر إلى المصب :**

من طبيعة الإنسان أنه إذا بدأ فأنجز عملًا ، ثم قام بعمل آخر ؛ فإنه يطمح لإنجاز أعمال أخرى ، وهكذا يدفع الإنجاز للإنجاز .. ذلك أن النتائج التى يتوصل إليها ، والثمرات التى يحصلها منه تدفعه إلى إنجاز أكبر وأكثر ، ويستمر ذلك حتى يتغلب على كل ما يواجهه من عقبات ومصاعب ..

ومن هنا فإن من الحكمة التربوية .. التدرج فى إرشاد الابن ، ودفعه إلى بدء العمل المطلوب ، فإذا نجح ، وأحس بإنجازه ولو قليلًا ؛ فإن هذا الإنجاز يدفعه للمواصلة والمتابعة ..

ومن أمثلة ذلك ما ورد فى أداء صلاة الفجر كأداء نهائي بعد أعمال أخرى :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب على مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطًا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان" أخرجه البخاري ج ٣ ص ٣٠ .

... فهو هنا يدفع الإنسان بعد النوم والاسترخاء إلى الذكر ، ثم الوضوء ، ثم الصلاة ، وهى إنجازات متتابعة تؤدى إلى تلك الحيوية والنشاط ..

إن التدرج وعدم إعطاء التوجيهات جملة من أهم القواعد التى يجب مراعاتها في إرشاد الأبناء .. ففي الحديث : " مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين " ..

فالصلاة التى هى ركن الدين وعمود الإسلام تمر فى الإرشاد إلى القيام بها فى ثلاث مراحل :

" ١ - *المرحلة الأولى :* وهى من لحظة سير الطفل ووعيه إلى السابعة من عمره، وهى مرحلة المشاهدة ، حيث يشاهد الطفل والديه يصليان فيسارع إلى الصلاة ، فإن درّبه والده عليها كان ذلك خيرًا على خير .

٢ - *المرحلة الثانية :* مرحلة الأمر – وتمتد من السابعة من عمره إلى العاشرة حيث يوجه الوالدان الأوامر للطفل ويطلبان منه الصلاة .

٣ - *المرحلة الثالثة :* مرحلة الضرب – وتبدأ من العاشرة إلى ما بعد ، وفيها يضرب الطفل إن لم يؤد الصلاة .

... ولا شك أن لهذا التدرج فى الخطوات أثرًا كبيرًا فى نفس الطفل واستجابته لأنه مازال غضًا يافعًا ..

فلابد من التدرج مع أبنائنا ونقلهم من مرحلة إلى أخرى " (١)

---

(١) الإنصات الانعكاسي – محمد ديماس – ص ٧٠ ، ٧١ .

ذلك أن " تناول الدواء دفعة واحدة لن يشفي من الداء بقدر أخذه على جرعات وفق الوصفة الطبية ، لذا فإن التدرج واستخدام استراتيجية تجزئة التغيير المطلوب أمر مهم لنجاح عملية الإرشاد .. فإن التغييرات كلما كانت قليلة الحجم ، كلما أمكن قبولها من الأبناء "(١) .

ومن الأمور البديهية فى الارشاد أن تكون النصائح بسيطة ومفهومة ومتدرجة ، و من أمثلة ذلك " قال سهل بن عبدالله التسترى : كنت أنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالى محمد بن سوار . فقال لى يومًا : ألا تذكر الله الذى خلقك ؟ فقلت : كيف أذكره ؟ قال : قل بقلبك عند تقلبك فى فراشك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك : الله معى ، الله ناظر إلىّ ، الله شاهدى ، فقلت ذلك ليلى ، ثم أعلمته فقال : قل ذلك كل ليلة سبع مرات ، فقلت ذلك ليلى ، ثم أعلمته . فقال : قل ذلك كل ليلة إحدى عشرة مرة فقلته ، فوقع فى قلبى حلاوته ، فلما كان بعد سنة قال لى خالى : احفظ ما علمتك وداوم عليه إلى أن تدخل القبر ، فإنه ينفعك فى الدنيا والآخرة ، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سرى، ثم قال لى خالى يومًا : يا سهل من كان الله معه ، وناظر إليه ، وشاهده أيعصيه؟ إياك والمعصية

" هكذا توجيه متدرج ، وترويض مستمر .. (٢)

فالمربي هنا يحاول الوصول إلى الإرشاد القوي النافع ، فيلقي على مسامع الابن فكرة واحدة ، ثم يتوقف فترة .. فإذا استوعبها ؛ انتقل إلى الفكرة التى تليها .. هكذا .. دون خوض فى تراكيب فكرية صعبة يصعب فهمها ..

فإذا زرعت الفكرة في نفس الابن ، كان الحصاد فعلًا، .. وإذا تحوّل الفعل إلى عادة تكونت للابن شخصية ، وإذا تكونت الشخصية ، كان المصير المشرق بإذن الله .

(١) التغيير الذكي – د .على الحمادي – ص ٧٣ .

(٢) تربية الأولاد في الإسلام – عبدالله ناصح علوان – ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

إن التدرج الواعي في إرشاد الابن يدخلنا إلى عقله بلباقة تسمح لنا بالتجول السياحي داخله ، ومن ثم التحويل الإدراكي لهذا العقل ، ليصل بنا فى النهاية إلى السلوك المطلوب .. وقصة تحريم الخمر ، والتدرج فيها ، وبالأسوب الراقي الفريد، وكيف أوصلت المسلمين عندما قال الله : " فهل أنتم منتهون " كيف كانت إجابتهم : إنتهينا يا رب .. إنتهينا يا رب .. هذه القصة من أقوى الأدلة على ذلك *..كيف كان ذلك ؟*

" لقد كانت " فهل أنتم منتهون " هى المرحلة الأخيرة فى العلاج .. وسبقتها مراحل ..

كانت المرحلة الأولى مرحلة إطلاق سهم فى الاتجاه حين قال سبحانه فى سورة النحل المكية : " ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا .. " فكانت أول ما يطرق حس المسلم من وضع السكر (وهو المخمر) فى مقابل الرزق الحسن .. فكأنما هو شيء والرزق الحسن شيء آخر .

ثم كانت الثانية بتحريك الوجدان الديني عن طريق المنطق التشريعي فى نفوس المسلمين حين نزل قول الله عز وجل : " يسألونك عن الخمر والميسر . قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما " .. وفى هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى مادام الإثم أكبر من النفع . إذ أنه قلما يخلو شيء من نفع ، ولكن حله أو حرمته إنما ترتكز على غلبة الضر أو النفع .

ثم كانت المرحلة الثالثة بكسر عادة الشراب ، وإيقاع التنافر بينها وبين فريضة الصلاة حين نزل قوله سبحانه : " يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون " .. والصلاة فى خمسة أوقات معظمها متقارب ، ولا يكفي ما بينها للسكر ثم الإفاقة . وفى هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشراب – وخاصة عادة الصبوح فى الصباح والغبوق بعد العصر أو المغرب كما

كانت عادة الجاهليين – وفيه كسر لعادة الإدمان التى تتعلق بمواعيد التعاطي . وفيه – وهو أمر له وزنه في نفس المسلم – ذلك التناقض بين الوفاء بفريضة الصلاة فى مواعيدها والوفاء بعادة الشراب فى مواعيدها !

ثم كانت الرابعة الحاسمة والأخيرة ، وقد تهيأت النفوس لها تهيؤًا كاملًا فلم يكن إلا النهي حتى تتبعه الطاعة الفورية والإذعان .. " إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ؛ ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ "

.. وعندها لم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد فى نوادي المدينة : " ألا أيها القوم . إن الخمر قد حرمت " .. فمن كان فى يده كأس حطمها ومن كان فى فمه جرعة مجها، وشقت زقاق الخمر وكسرت قنانيه .. وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر!" (١).

إن أي ابن يحب أن يعرّف السلوك المقبول وغير المقبول ، لأنه يشعر بالأمان حين يرى أنه يتحرك فى حدود الأفعال المسموح بها .. ولذلك فإنه ليس من الصواب أن نرشده بشكل غامض ، " فنقول على سبيل المثال : " أريد أن أرى منك تصرفًا أفضل " ... " أريدك أن تكون أكثر مسؤولية " ...

وهكذا يحاول الابن أن يكون أفضل ، ولكن " أفعاله قد لا تتناسب مع ما فى عقلك لأنه لا يعرف بالضبط ماذا فى عقلك ." .. " ويمكنك تجنب هذا الخطأ بأن تكون محددًا وواضحًا فى تفصيل السلوكيات التي تريد أن تراها " (٢) وأن تعلم أنه لا سبيل إلى أن يفهم أبناؤك مرادك فهمًا شاملًا بكل ظلاله وتلويناته طالما أن رسالتك اللفظية رسالة معقدة ، بل قد يسيئون فهم ما تقول ، أو يفهموا قشوره دون لبه وحقيقته .. واجعل شعارك دائمًا " إذا فهم أبنائى ما أريده كما أريده بعد أن

(١) فى ظلال القرآن – سيد قطب – ج ٢ ص ٩٧٤ ، ٩٧٥ .

(٢) حاول أن تروضني – راى ليفي – ص ٢٢١

شرحته عشرين مرة ، فالحمد لله على نعمته التى تستوجب شكرها بمزيد من التوضيح والتفهيم والشرح ..!!

و كن على يقين ، أن أبناءك يتلهفون على فعل السلوكيات الصحيحة ، ولكنهم فقط يريدون معرفة " ما هو الصحيح ، وماذا تعنى به ؟!

" ويمكننا القول : إن سلوكيات الأبناء تقع فى ثلاث مناطق لونية .. أخضر ، وأصفر ، وأحمر ..

المنطقة الخضراء تحتوي على السلوك المطلوب والمجاز ، إنها المنطقة التى نعطي لها كلمة " نعم " بحرية وسماحة ..

والمنطقة الصفراء ، وتتضمن السلوك غير المجاز ، ولكن يمكن السماح به لأسباب خاصة ، مثل التفاوت المسموح به فى أوقات الشدة كالمرض أو الانتقال من سكن إلى سكن .. إننا لا نتظاهر بأننا نحب ما يأتي الابن من سلوكيات مخالفة وهو مريض ، وإنما نحن نفصح له أننا تركناه يفعل ذلك لأنه مريض ..

والمنطقة الحمراء ، وتغطي السلوك الذى لا يمكن السماح به على الاطلاق ، ولا بد أن يوقف . وتتضمن هذه المنطقة السلوك الذى يمثل مخالفة لما شرع الله من قيم وأخلاق وسلوك ...

وكما نتمسك بالسماح فى المنطقة الخضراء ، فنحن نتمسك بالمنع فى المنطقة الحمراء .. "(١)

والمربي الحكيم هو من ينتقل بين هذه المناطق بحكمة تضبط " السماح " كما تضبط " المنع " ..

وإذا منعنا الابن من سلوك خاطىء ، قدمنا له البديل السلوكي له ..

"يروى لنا عمر بن أبى سلمة هذا المثال : " كنت غلامًا فى حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش فى الصحفة فقال لي رسول الله ﷺ: يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك فما زالت تلك طعمتي بعد " رواه البخاري برقم ٥٠٦١ .

(١) بين الآباء والأبناء – صبري الفضل – ص ٩٠ ، ٩١ بتصرف يسير .

السلوك الخاطئ : كانت يدي تطيش في الصحفة .

السلوك البديل : سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك .

وهكذا يجب أن تكون تربيتنا .. نقدّم لأبنائنا بدائل لسلوكهم غير المرضي ، بدائل تناسب قدراتهم ونموهم العمري .. [(١)] .

مثال :

الأب : إنني أرغب في الحديث معك يا أحمد .

أحمد : عن أي شيء ؟

الأب : أريد التحدث معك حول غضبك أمس ، وشجارك مع أخيك ؟

أخبرني ماذا حدث فأغضبك ؟

أحمد : لقد غضبت لأنه أخذ القرص المدمج " الأسطوانة " الخاصة بالألعاب ومنعني أن ألعب ..

الأب : لقد أخذ أخوك الأسطوانة ، وهذا الأمر قد أغضبك .

أحمد : نعم .

الأب : إنني أتفهم أن هذا أمر يثير الغضب ، ولكن هل أفادك هذا الغضب؟

أحمد : لقد تشاجرت مع أخي في الحقيقة .

الأب : قد نقبل أن تغضب من أخيك ، ولكن ليس من المقبول أن تضربه .. هل يمكنك التفكير في سلوك آخر كان بإمكانك القيام به ؟

أحمد : لا .

الأب : ربما كان يكفي أن تقول لأخيك " إن أخذك الأسطوانة يغضبني، من فضلك أعطها لي حتى ألعب مثلما لعبت أنت" .

أحمد : ولكن هذا لن يجعله يعطيني إياها ..!!

الأب : لماذا لا تجرّب ذلك في المرة القادمة ، ستجد أنه أفضل من تشاجرك

---

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د.عادل رشاد غنيم – ص ٣٧ .

مع أخيك ..

... وهكذا "عندما تقوم بإرشاد أبنائك إلى ما ارتكبوه من الخطأ ، لا بد أن تخبرهم بالكيفية التى تمكنهم من تصحيح ذلك الخطأ ، ولا ينبغي التشديد على الخطأ نفسه ، بل على طرق ووسائل تصحيح الخطأ ، وتجنب تكرار حدوثه "[١].

وهكذا إرشاد الرفق ، بحل ممكن .. وليس إرشاد اظهار النقائص فحسب ..

.. كل ذلك فى إطار من التدرج فى التأديب من " إطراء الطفل ومدح سلوكياته السوية .. إلى مرحلة أخرى يتجاهل فيها اكثر عدد ممكن من أخطائه .. تلك الأخطاء التى يختفي الكثير منها بتجاهلها وعدم لفت نظره إليها .. إلى مرحلة رابعة من التوبيخ فى السر ، ثم العلن .. ثم تأتي فى آخر القائمة مراحل متدرجة من العقاب .. "[٢].

فمثلًا .. إذا كنت تحاول التقليل من لجوء الطفل إلى الضرب فعليك أن تمتدحه إذا ما ابتعد عن هذا السلوك ، وبهذا تذكره بطريقة إيجابية بالأسلوب الذى يجب أن يتصرف به .

" رأيت أنكما لعبتما معًا بلطف ودون عراك ، حتى عندما اختلفتما على شيء لم تتعاركا ، كم أسعدتمانى بهذا ".

إذا ضرب طفلك أحد أقرانه ووبخته انتظر بعدها قليلًا ثم استمع إلى أسباب إتيانه مثل هذا السلوك ... حاول بقدر المستطاع أن تظهر تفهمًا لمشاعره . لا تحاول فعل هذا قبل أن تهدأ تمامًا فإذا كنت لا تزال غاضبًا من طفلك لما فعل فسترفض أسبابه بسرعة "

حسنًا ، أريد الآن أن أجلس وأستمع لك قليلًا . أخبرني بسبب ضربك لأختك .. نعم فهمت عندما أخرجت لك لسانها بعد أن فازت عليك فى اللعبة

---

(١) كيف تتمتع بالثقة والقوة – لس . جبلين – ص ١٢٣ .

(٢) سياسات تربوية خاطئة – محمد ديماس – ص ١٠٩ .

انزعجت ، أنا متأكد أنك غضبت عندما أغاظتك هكذا ..

بعد أن تظهر التفهم لمشاعر طفلك ، علمه بأسلوب غير مباشر وغير تلقيني ، وساعده على تحديد ما كان يجب عليه فعله بدلًا من هذا .

" عندما تغيظك أختك ، وترغب فى ضربها ، فما الذى يمكنك فعله غير الضرب حتى تحل الموقف فتتجنب المشاكل ؟ "[1].

خذ مثالًا :

يتشاجر الابن مع إخوته ، وتخبرك أمه بما فعله ، فيكون تحاورك معه على النحو التالي :

١ - *وصف الأمر دون تعليق :*

لقد أخبرتني أمك بأنك تعتدي على إخوتك .

٢ - *صف مشاعرك إزاء هذا الموقف :*

لقد تضايقت لأنني أتمنى أن يكون سلوكك مع إخوانك جيدًا ، وسأكون أكثر سعادة إذا ابتعدت عن ضربهم .

٣ - *اشرح ما تود أن يفعله بنفسه :*

بهذه الأفعال التى تسلكها مع إخوانك لن تستطيع جعل الآخرين يحترمونك أو يثقون بك فى المنزل .

٤ - *تعرف على مشاعر ولدك :*

أعرف أنك لا تريد أن تحدث أي مشكلة فى المنزل .

٥ - *أذكر ما تريد أن تنميه فى ابنك مع إعطاءه الفرصة لحل مشكلته :*

أحب أن تكون تصرفاتك أفضل ، أدرك أن لديك القدرة على حل مشاكلك دون تدخل منى .

---

(١) كيف تفرضا لأطفالك - بول كولمان - ص ١٦٢ - ١٦٥ .

٦- *قدم القليل من المساعدة :*

أستطيع أن أقدم لك مساعدة فى المواقف الصعبة بعدما تحاول حلها وتفشل فيها .

٧- *ثق فى ابنك :*

كلي ثقة على أنك تستطيع أن تتجاوز مشاكلك .

٨- *اشرح دورك فى هذه المشكلة :*

لن أستطيع مساعدتك فى حل مشاكلك ، عليك أن تتحمل مسؤوليتك جيدًا" (١) .

وكما أن من الحكمة التربوية أن يكون إرشاد المربي للابن واضحًا .. فإنه من الحكمة أيضًا أن لا ينغمس المربي فى تفاصيل المشكلة التى يحكيها له الابن ، وإنما يركز على نهاياتها ونتائجها ليتعامل معها ترشيدًا وعلاجًا .. فليست كل الحوارات فى حاجة إلى تعليق ، وليست كل فكرة فى حاجة إلى نقاش .. فهناك الفكرة التى يمكن إهمالها بلا ضرر . وهناك التعليقات التى يمكن إسقاطها من الحديث دون أن يتأذى الابن ..

خذ مثالًا :

يرى الأب أن أداء الابن لواجباته قد تأثر كثيرًا فى مادة من مواد الدراسة .. وحين يسأل الابن عن السبب يشكو الابن من مدرسه ، فيقول الأب : " لقد أقلقك هذا المدرس كثيرًا .. أليس كذلك ؟

ولكن .. ما الذى قاله أو فعله حتى تراه على هذه الصورة ؟ هل هناك شىء آخر غير ما حكيت لي ؟ .. هل سبق وقال لك هذه الكلمات ، أم أن هذه هي المرة الأولى..؟

ثم .. بعد سماعه له ، وفهم أسبابه .. يحاول أن يعلمه أن يكون مؤدبًا ومحبًا

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا – أكرم مصباح عثمان – ص ١٤٠ .

للعمل ، وملتزمًا بما يسند إليه من واجبات ، ويؤكد له أن ذلك هو السبيل إلى تغيير تقدير المدرس له ..

أمّا إذا تأكد لديه حدة هذا المدرس فلا بد من أن يتعاطف مع الابن " لا شك أن هذه الطريقة تشعرك بالظلم من مدرسك .. والظلم شيء سيء جدًا .. ولكني أؤكد لك أن طريقك إلى تقديره لك هو العمل الجاد ..

أَتذَكر – يا بني – أنني حين كنت طالبًا فى الصف السادس كان لدينا مدرسًا مزعجًا جدًا ، وحادًا بشكل كبير .. هل أحكي لك ماذا كان يفعل ، وكيف كنت أتعامل معه ؟ .. "

فإذا رغب الابن فى السماع فتلك فرصة طيبة لمساعدته عبر الحكايات على مواجهة المشكلة ، وأيضًا على الإحساس بحجم المشكلة بدون تضخيم ..

الأمر الذى نحذّر منه هنا أن يأخذ المربي رد الفعل المستخف أو المتهم للابن مثل أن يقول : " إذا كان مدرسك يهينك ، فله عذره " .. " لا بد أنك ارتكبت خطأ" .. " يبدو أن مدرّسك أحمق مثلك ".

فالإرشاد إنما يتم عبر .. إعطاء الملاحظة الضرورية بنغمة هادئة رزينة .. تحري الحقيقة كاملة .. التعليق على الخطأ بما يناسبه .. وأخيرًا النصيحة التى يمكن من خلالها تجنب الخطأ وتخطي المشكلة فى المستقبل .

وهكذا .. إذا شكى لك الابن من أخطائه ، فلا تعنفه .. علمه وأرشده .. قل له فى نهاية شكايته : إن ما نقع فيه من الغي هو الذى يهدينا سبيل الرشد ، وما نقترفه من الذنوب هو الذى ينبئنا – إذا تأملنا منه – الطريق إلى استقامة النفس .. لم يدهشنى ما أخبرتنى به ، ولن أعيب ما فعلت ، لأنك قد عبتها بنفسك وأنت تحكيها وتتألم منها .. ومهما أردت إرشادك بنصائحى فإنها لن تساوى ما علمته لك تجربتك الذاتية .

فمن خلال هذا الحوار الهادىء ، يتم الإمتزاج والإندماج ، ويتعرف الابن

من خلال هذا الإمتزاج الكثير من المعلومات عن سلبيات ما وقع فيه ، كما يتعرف على إيجابيات تركه لمثل هذا الخطأ .. فيتعلم ما قد يكون نساه ، ويمارس ما قد يكون كسل عنه ..

وخير مثال على ذلك موقفه ﷺ مع الأنصار في غزوة حنين بعد قسمته للغنائم، فقد أعطى ﷺ المؤلفة قلوبهم وترك الأنصار، فبلغه أنهم وجدوا في أنفسهم، فدعاهم ﷺ، وكان بينهم وبينه هذا الحوار الذي يرويه عبدالله بن زيد – رضي الله عنه– فيقول: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن، قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟» قال كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن قال: «لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» [رواه البخاري (٤٣٣٠) ومسلم (١٠٦١)]

ففي هذا الموقف استخدم النبي ﷺ الحوار معهم، فوجه لهم سؤالًا وانتظر منهم الإجابة، بل حين لم يجيبوا لقنهم الإجابة قائلًا : (ولو شئتم لقلتم ولصدقتم وصُدقتم ...)

لقد كان رسول الله ﷺ يصبر على أصحابه ولا يتعجل جذبهم إلى القمة التى يقف هو عليها بعون من الله ، وكان يتخولهم بالنصيحة المرة تلو المرة فى غير إملال مضجر ولا تهاون فى أمر الله ..

وأنت – أخي المربي– يجب أن تعلم " أن الإرشاد يحتاج إلى عمل دؤوب

لغسل أدران التربية الخاطئة فى المدرسة والشارع والمؤسسات الأخرى التى تدفع أبناءنا دفعًا إلى الإنحرافات !!.. تلك الإنحرافات التى لا يمكن محوها من نفوس أبنائنا فى لحظة لأنها متشابكة مع خيوط النفس وداخلة في بنائها . كالبقعة الداخلة فى النسيج ، ربما تحتاج إلى غسلات كثيرة حتى تذهب .. بل ربما تغسلها حتى يبلى الثوب وهي تخف قليلًا ولكنها لا تذوب !! "(١)

ومن هنا ، لا بد فى الإرشاد من المتابعة والتوجيه المتدرج والمستمر ؛ فالمتربي نفس بشرية وليس آلة تضغط أزرارها مرة ثم تتركها وتنصرف إلى غيرها فتظل على ما تركتها عليه !

" نفس بشرية دائمة التقلب متعددة المطالب متعددة الإتجاهات ، وكل تقلب، وكل مطلب ، وكل اتجاه فى حاجة إلى توجيه ! ... فالعجينة البشرية عجينة عصية تحتاج إلى متابعة دائمًا . وليس يكفي أن تضعها فى قالبها المضبوط مرة فتنضبط إلى الأبد .. بل هناك عشرات من الدوافع المؤّارة فى تلك النفس ، دائمة البروز هنا والبروز هناك ، ودائمة التخطي لحدود القالب المضبوط من هنا وهناك ، ولا بد فى كل مرة من توجيه إعادة ضبطها داخل القالب ، حتى تنطبع نفس المتلقي بالتوجيه ، فيقوم هو بذاته بعملية المتابعة والضبط بدلًا من المربي ... "

ولا شك أن هذه العملية المتكررة من الإرشاد والتوجيه تحتاج منك – أخي المربي – إلى التأكيد على أهمية تعاون الابن معك .. كما تحتاج من ناحيتك إلى التزام الهدوء مهما تنوعت مواقف الأبناء .. والتحكم فى أعصابك .. والتمهل والتفكير ، وعدم الإندفاع وراء ردود الأفعال الغاضبة ..

إن التربية لا تكون بالغضب من أى سلوك تافه ، ولكن بالتوجيه والإرشاد المستمرللابن بالحرص على القيام بواجباته بشكل صحيح .. فهذا الابن كائن

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ص ٤٧ .

جديد فى الحياة ، وهو يتدرب عليها وسط حدود قد يجهل أكثرها .. وهو فى أمس الحاجة إلى أن يرشده أبواه بهدوء أعصاب ، وشجاعة مؤثرة فى ذات الوقت .. فهما – الأب والأم معًا – هما مجرى نهر حياة الابن .. ومجرى النهر هو الذى يقود مياه النهر إلى المصب بهدوء ..

فهل نقدر على هذه المهمة الشاقة فى تربية أبنائنا .. مهمة قيادة النهر إلى المصب؟!

• **ما بدأ بالغضب انتهى بالخزي :**

" يمثل الجانب العاطفي والجانب العقلي العنصرين الأكثر أهمية فى شخصية الإنسان . وحين يكون الإنسان فى حالة طبيعية سوية ، فإنه يستخدم الجانب العقلي فى إدراك القضايا والتكيف مع الظروف الطارئة والتخطيط الشامل لكل جوانب الحياة ..

أما الجانب العاطفي فإنه يكون منبع التواصل الأسري والإجتماعي ، كما يكون مصدرًا للطاقة التى نحتاجها فى الإندفاع نحو الأعمال المختلفة .

لكن الإنسان لدينا متحيز إلى جانب العاطفة الجياشة – فى أكثر الأمر – وذلك الميل خلاصة مركزة لكل أنواع الإخفاق والقصور على المستوى الفكري ؛ فالضمور هناك لابد أن يقابله نمو هنا . وتأخذ الإنفعالية لدينا طابع الهيجان الذى يؤدي إلى الإضرار بالقضية مصدر الإنفعال ، فيكون الشأن كحال سيارة مضت فى منحدر دون أن يكون ثمة سائق يوجهها .

كما أن الإنفعال لدينا يتسم بالقصر ، فيكون (لحظة تفريغ) أكثر من أن يساعد على تجاوز أزمة أو مشكلة " [(١)].

فنحن حين نغضب من سلوكيات أبنائنا ، نتحول إلى أناس يتحركون بلا إرادة ، ومن ثم لا نحصل من أبنائنا إلا على علاقات مقطعة ، وسلوكيات مشوهة..

(١) نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي – د/ عبد الكريم بكار – ص ٨٠ .

ذلك أن الأبناء يدركون مشاعرنا تجاههم، ويركزون عليها، ولا يهتمون للتوجيه إذا كانت المشاعر تجاههم سلبية مثل الغضب منهم أو الحيرة تجاه سلوكهم.

خذ هذا المثال :

يخطئ الابن خطأً يسيرًا : يتعثر ويقع ، يسكب العصير على السجادة ، يتأخر قليلًا في نومه، يلعب في بيته، يعلو صوته، ينقص درجةً في اختبار. تصرخ الأم ، تهدد ، : أنت محروم من المصروف ، تضربه بلا رحمة ، وكأنه يهوديٌّ قد احتلّ أرضها، أو دنّس مقدّساتها ، .. تضربه وهي تصرخ : " والله لأرينك أيها الكلب .." (١).

ويزيد صراخ الأم .. حرام عليكم .. أنا تعبت ..

ويحضر الأب من العمل بعد يوم شاق محملًا بمشاكل وصراعات وإحباطات ، ويواجه فى بيته ذلك الصراخ ، فيبدأ فى مناقشة الأمر مع زوجته ..

ماذا حدث ؟ .. صوتكم و صل إلى الشارع !!

تبكي الزوجة ، وتنهار وتعترض : نعم أنا أصرخ طوال النهار .. لقد جعلني هؤلاء الأولاد أقترب من الجنون .. إن الصراخ هو الأسلوب الوحيد الذى أستطيع التعامل به معهم !!

.. يحاول الزوج أن يعالج الموقف بكلمتي تقدير منه لجهد زوجته ، وشكوى من تعب العمل ، وإحباطاته .. وحاجته الشديدة إلى الراحة ..!!

وبالطبع .. يدفع هذا الكلام الزوجة إلى الصراخ مرة أخرى .. والشكوى من أنها تحتاج إلى عونه فى التعامل مع الأبناء .. فيرد الزوج على صراخها بصراخ يؤكد حاجته إلى الراحة من تعب اليوم الشاق ..

وهكذا يزيد الصراخ .. ويتطور الغضب ..

---

(١) الخطورة أن النتيجة هي طفلٌ ضعيف ، جبانٌ ، تابعٌ ، ذليلٌ ، يكره أمه وأباه والناس أجمعين ، لا ينفعُ نفسه ولا أمته ، وإذا تحكم .. انتقم وتشفى ، وكان من المفسدين ..

ولا يستطيع الآباء – ولا الأبناء بالطبع – السيطرة على تصرفاتهم أثناء الغضب ..

و يحار الأبوان على أي شيء يركّزون على سبب الغضب أم على الغضب نفسه؟

ولا شك أن العلاج الأسرع لابن غاضب ألا يكون الأب غاضبًا ، وأن يحادث الابن بنغمة حوارية هادئة ، تظهر الإهتمام بالمشكلة التى سببت غضبه ، وتقدر المشاعر التى أحزنته وأغضبته .. فأغلب الغضب يرجع إلى الإحساس بفقدان الحب والاهتمام أو الشعور بمعاندة الظروف أو توّهم اضطهاد الآخر..

ومن هنا تصبح عبارات من مثل : " طالما أنك غاضب إلى هذه الدرجة ، فلا بد أن هناك ما يحزنك ، فأخبرني عما حدث " ... لقد أغلقت الباب بعنف شديد ، وهذا يعني أن هناك ما أغضبك ، فما هو هذا الشيء ؟ " ... " لا أستطيع أن أجبرك على التحدث عما يغضبك الآن .. ولكني أكره أن أراك هكذا ، فهل تخبرني ماذا أغضبك ؟ "

حاول مع هذه العبارات أن تجلس أنت و ابنك .. فتغيير الهيئة من الوقوف إلى الجلوس يهدء الغضب ..

وحاول فى نهاية الحديث مع الابن أن تقوم بتشجيعه عبر كلمات من مثل : "ما شاء الله ، برغم أنك غاضب إلا أنك تتحدث بصوت هادىء .. أحسنت " .. "ما شاء الله .. أنت ابن بار ، فرغم غضبك ، فأنت تسبق كل حديث معي بقولك يا أبي .. بارك الله فيك ".

وإذا لم يستجب لك الابن و دفعك للغضب فتذكر هذا الموقف ..

جاء رقيق (غلام) لأبى ذر وقد كسر رجل شاة فقال له : من كسر رجل هذه؟ فقال الغلام : أنا فعلته عمدًا لأغيظك فتضربنى فتأثم ، فقال أبو ذر : لأغيظن من حرضك على غيظى ، فأعتقه فى سبيل الله ..(١)

---

(١) أمسك عليك هذا– د. على الحمادي.

ربما قال أحد الآباء الآن:" إن أطفالي لا يستمعون إلى أى شيء أقوله "

وأنا أسأل هذا الأب : " وماذا تفعل معهم ؟

وأتوقع أن يكون الرد : " أعنفهم وأضربهم .. أنا أعلم أن هذا أسلوب خاطيء ، ولكن ماذا أفعل ؟ لا يوقفهم عن فعل ما لا أرغب إلا الضرب .. أضربهم ، ثم أشعر بالضيق ..!! ماذا أفعل ؟

وهذه الجملة الأخيرة هي ما أقصده بالضبط " أضربهم ، ثم أشعر بالضيق..!! ماذا أفعل ؟ هذه الجملة الأخيرة تعني الكثير .. أنت تتمنى ألا تضربهم، وتبحث عن سبيل آخر لتأديبهم ، أليس كذلك ؟

وأنا أؤكد لك – أخي المربي – أن هذا السبيل الآخر هو ترك الغضب .. واتباع الأسلوب الأفضل فى الارشاد ، واسداء النصيحة للأبناء ، والاهتمام والتعاطف والتوجيه السليم دون زجر أو تعنيف ، فذلك يدعم ثقة الأبناء ويعطيهم الفرصة إلى تحقيق الذات والوصول إلى تقويم ما قد يحصل منهم من أخطاء وممارسات سلوكية خاطئة

.. وأؤكد لك أيضًا أن الصراخ والتعنيف جميعها ليست أشكالًا للإرشاد الجيد .. بل هى فى حقيقتها لا تخرج عن أن تكون تنفيس عن الغضب المكبوت فى صدور الآباء .. وهى جميعها قد تؤثر تأثيرًا وقتيًا على السلوك السيء للأبناء ، ولكنها لا تعالجه .. فالأبناء يكتسبون بتكرار الصياح والتعنيف مناعة ضدها فتصبح دون جدوى .

خذ مثالًا :

عند ما يجري الابن أمامك ليفتح الباب ثم تصطدم رجله بإناء فينكسر الإناء.. إذا كان رد فعلك أن تغضب و تنفعل فإنه لن يستقبل أي معلومة أو توجيه. أمّا إذا ضبطت نفسك و حاورته بهدوء ووجهته كيف يجب أن يجري مستقبلًا داخل الصالة فإن الرسالة سوف تصل إليه و معها احترامك له وتقديرك

لأخطائه التي لا يجد هو نفسه مبررًا لها. و قد يكون منزعجًا منها ولا يرغب في تكرارها دون أن تحدثه عن الخطأ الذي ارتكبه !!! .

إن الإمتناع عن الغضب ، من أعظم المكارم الخلقية ، بل هو الأخلاق كلّها .. فقد أخرج المروزي أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ من بين يديه ، فقال : يا رسول الله ما الدين ؟

قال : " حسن الخلق "

فأتاه من قبل يمينه ، فقال : يا رسول الله ما الدين ؟

قال : " حسن الخلق "

ثم أتاه من قبل شماله ، فقال : ما الدين ؟

قال : " حسن الخلق "

ثم أتاه من ورائه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟

فالتفت إليه عليه الصلاة والسلام ، وقال : " أما تفقه ؟ هو أن لا تغضب"..

و حين سئل عبدالله بن المبارك عن كلمة تجمل حسن الخلق قال : ترك الغضب ...

وقال المعتمر بن سليمان : كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه ، فكتب ثلاثة صحائف ، وأعطى كل صحيفة رجلًا . وقال للأول إذا غضبت فأعطني هذه ، وقال للثاني : إذا سكن بعض غضبي ، فأعطني هذه . وقال للثالث : إذا ذهب غضبي أعطني هذه . فأشتد غضبه يومًا فأعطي الصحيفة الأولى ، فإذا فيها: ما أنت وهذا الغضب ، إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضًا. فسكن بعض غضبه ، فأعطي الثانية ، فإذا فيها : إرحم من فى الأرض ، يرحمك من فى السماء . فأعطي الثالثة ، فإذا فيها : خذ الناس بحق الله ، فإنه لا يصلحهم إلا ذلك [1] .

(١) إحياء علوم الدين – أبو حامد الغزالي – ص ٣٣١ .

وأنت – أخي المربي – لكي تحمي نفسك من الغضب من أبنائك ، تذكّر أنه عندما تسير الأمور على خلاف ما تحب، فليس من الضروري أن يكون هناك خطأ كبيرًا يستحق العقاب .. ولا تفترض أن أبناءك قد فعلوا ذلك عنادًا .. بل افترض أنهم قد فعلوا ما فعلوا باجتهاد خاطىء .. وسترى أنهم فى هذه الحالة يحتاجون إلى التوجيه لا الصراخ والغضب ..

أخي المربي ..

لا تفرغ شحنات غضبك فى شكل موجات تحرق الأخضر واليابس ..

اعلم أنك لن ترتاح إذا نفست عن غضبك ، بل ربما تجنى الحسرة ..

إن العاقل لا يفرح براحة لحظية يعقبها خزي دائم ..

ولا شك أن ما بدأ بالغضب لا ينتهي إلا بالخزي ..

وهذه قصة رمزية توضح ما قصدناه ..

كان هناك طفل كثير الغضب .. فأعطاه والده كيسًا مملوءًا بالمسامير وقال له : أطرق مسمارًا واحدًا في سور الحديقة في كل مرة تفقد فيها أعصابك أو تختلف مع أي شخص !!

في اليوم الأول قام الولد بطرق ٣٧ مسمارًا في سور الحديقة ..

وفي الأسبوع التالي تعلّم الولد كيف يتحكم في نفسه وكان عدد المسامير التي توضع يوميًا ينخفض ..

في النهاية أتى اليوم الذي لم يطرق فيه الولد أي مسمار في سور الحديقة !!

و ذهب الطفل ليخبر والده أنه لم يعد بحاجة الى أن يطرق أي مسمار ..

قال له والده: الآن إخلع مسمارًا واحدًا عن كل يوم يمر بك دون أن تفقد أعصابك ..

مرت عدة أيام .. ثم جاء الطفل ليخبر والده أنه قد قام بخلع كل المسامير من السور ..

قام الوالد بأخذ ابنه الى السور وقال له : " بني قد أحسنت التصرف، ولكن انظر الى هذه الثقوب التي تركتها في السور لن تعود أبدا كما كانت " !!

عندما يحدث بينك وبين الآخرين مشادة أو اختلاف ، وتجد أنك ستتفوه بكلمات غاضبة قد تعتذر عنها فيما بعد ، فاعلم أن هذا الكلمات الغاضبة – وإن تأسفت لمن أصبته بها – فإنها تترك له جرحًا غائرًا فى أعماقه كتلك الثقوب التى تراها فى السور ..!!

❀❀❀

الفصــل الثالث

التأديب لا يعني العقاب

مهما بلغ الأب والمربي من الحلم في إرشاد أبنائه ، ومهما ملك من سعة الصدر لأخطائهم ، فإنه يجد نفسه – في بعض الأحيان – حائرًا في التعامل معهم .. فهو قد استنفد كل أساليبه لحملهم على السلوك الحسن .. ولكن دون جدوى .. وهنا يجد نفسه مضطرًا إلى استخدام الضرب لحمل الأبناء على السلوك الطيب ..!!

ولقد دار جدل طويل بين التربويين حول إمكانية الضرب .. ولا أريد أن أزجّ نفسي في ذلك الجدل .. ولكني أقول: إن الضرب في الحقيقة ينافي جوهر العلاقة بين الأبناء ومربيهم ، فهي علاقة حب واحترام وتقدير وامتزاج روحي .. والأصل أن يستطيع الأب والمربي أن يصل إلى تقويم أبنائه دون اللجوء للضرب ..

بل ربما لا نجاوز الحقيقة حين نقول : أن لجوء الأب والمربي للضرب دائمًا ، هو دليل على نقص قدراته في مواجهة المشكلات ، بل قد يصل – في بعض الأحيان – أن يكون دليلًا على ضعف شخصية المربي ..!!

• العقــاب في عملية التأديب :

عندما أسأل الآباء كيف يؤدبون أولادهم ؟ يخبرني معظمهم بكيفية إيقاع العقاب بأولادهم . فهم يصرخون ويوبخون ويعنفون ويسلبون الإمتيازات ويحتجزون أولادهم داخل حجرات نومهم ..إلى آخر هذه العقوبات !! فهل *التأديب والعقاب لهما نفس المعنى؟*

الحقيقة أن العقاب جزء صغير جدًا من عملية التأديب ..تلك العملية التى تعني مساعدة الأبناء على القرارات الصائبة والسلوك الحسن ، وتعليمهم في ذات

الوقت تحمّل المسؤولية واكتساب القدرة على اختيار الطريقة الصحيحة للحياة ..

أمّا أن نقوم طوال اليوم بمطاردة أبنائنا فى أنحاء المنزل لنجبرهم على فعل ما نريد ، فهذا ليس طريقة صحيحة فى التعامل ، فضلًا عن أن يكون وسيلة صحيحة للتربية والتأديب !!

خذ مثالًا :

تخيّل أن ابنتك تقوم بإحداث فوضى فى المطبخ ..

التأديب الخاطىء .. هو البدء بالتعنيف والصراخ والتأنيب لها بقسوة ..

أمّا التأديب الذى نراه صوابًا فقد يكون :

" إننى سعيد لأنه قد جاء الوقت الذى تستطيعين فيه إعداد طعامك بنفسك يا حبيبتى .. ولكنك أحدثت فى المطبخ الكثير من الفوضى .. ومع ذلك فإني على ثقة أنك قادرة على أن تكوني أفضل من ذلك فى المرات القادمة ، رجائي أن تقومي بترتيب هذه الفوضى ، وإذا أردت المساعدة فناديني !!

لقد اعتاد الكثير من الآباء فى تأديب أبنائهم أن يوقفوا الأفعال غير المرغوب فيها وفقط ..!!

وهم فى قمة غضبهم من أفعال الابن يضعون القيود على تحركه وحياته ، هذه القيود التى تكون – غالبًا – متناقضة ، ومهينة .. والتى تصاغ بكلمات تثير فى الابن المقاومة والعناد .. كتلك الكلمات التى تعطي انطباعًا عند الابن أنه شخص لا جدوى منه .. شخص غير صالح .

ولكن هذا لا يمكن أن يسمى تأديبًا ..!!

إن التأديب الصحيح يسمح للابن أن يعبر عن مشاعره ، ويضع القيود على الأفعال أو التروك بكلمات تحافظ على احترام ذات الابن ،.. بل القيود فى ذاتها تكون تربوية وبناءة .. تطبق بدون عنف أو غضب زائد .

ربما قال بعض الآباء الآن :

إن هذا كلام نظري لا علاقة له بواقع الأبناء .. فإنه على الرغم من محاولاتنا الكثيرة لبناء علاقة قوية معهم ، يستمرون فى إساءة السلوك و الرعونة فى التصرفات ..!! بل أحيانًا نشعر أنهم أصبحوا خارج السيطرة ..!!

وأنا أقول .. هنا لا بد من إظهار العواقب التى تترتب على السلوكيات السيئة، ومن ثم يتعلمون السلوكيات المناسبة ؟! .. *العواقب ، وليس العقاب* .. كيف ؟.

" هناك إختلافان أساسيان بين العواقب والعقاب.

الأول : أن العواقب تعلم الطفل ما تريده أنت أن يتعلم ، ولكن نادرًا ما يفعل العقاب ذلك .

على سبيل المثال:

تخيل للحظة أن الطفل لم ينظف غرفته كما طلبت أنت منه . وكرد فعل منعته من اللعب بالكومبيوتر . هذا العقاب – عدم اللعب بالكومبيوتر – لا يساعده على أن يتعلم كيف ينظف الغرفة بطريقة أفضل . إنه فقط يضايقه بشده وكأن تنظيف الغرفة هو الجحيم ..

هناك أثر جانبي آخر للعقاب وهو أن يصبح الطفل أكثر استياء ويحاول الإنتقام والثأر ، مما ينتج عنه عقاب آخر .

على العكس من ذلك ، فإن العواقب الجيدة تعلّم الطفل ، لأنها توضح له السلوك الصحيح الذى تريده أنت بطرق ملموسة يستطيع فهمها .

فى مثال الغرفة غير النظيفة تكون العاقبة هى أن يقوم الطفل بتنظيفها أثناء مراقبتك له ، ثم تعود الغرفة إلى عدم الترتيب ويقوم هو بتسويتها مرة أخرى ... وهذه العاقبة تعلمه ماذا تريده أن يفعل .. وهذا يبدو معقولًا للطفل على الرغم من أن هذه المهمة لا تبدو سارة .

الفرق الثاني بين العواقب والعقاب: هو الطريقة التى يقدم بها كل منهما، فالعقاب ينطلق دائمًا أثناء ظهور الغضب ، وغالبًا ما تصبح غاضبًا بسبب مشاحنات ابنك أو إحراجه لك ، ويكون ردك الطبيعى هو : العقاب الذى يظهر فى نوبة من الغضب تنقل انفعالاتك .

إن إظهارك للغضب أمر غير جيد ، فذلك لا يحفز الابن ، بل إنه يدفعه للعناد لأنه يحب أن يثير غضبك !!!

إن الأطفال يعتبرون ذلك لونًا من ألوان السيطرة ، فإذا عاقبته فقد كأفأته ، ودعته إلى الصراع معك ، وليس إلى تعلم الدرس والإستفادة من الخطأ " [1].

خذ مثالًا :

فى لهجة غاضبة يصرخ الأب فى وجه ابنه : كم أخبرتك يا أحمد .. أنه يجب عليك أن تقوم بترتيب حجرتك !!

إنك تجد دائمًا وقتًا للعب بالكومبيوتر أو زيارة أصدقائك ، أو حتى اللعب فى الشارع ، ولكنك تتعلل دائمًا بضيق الوقت حين يطلب منك أى أمر !!

" يرد " أحمد " : لقد قمت بترتيب سريري "

فيرد الأب بلهجة ساخرة : "حقًا قمت بذلك ، ولكن يوم الجمعة الماضي !!"

يقوم الابن بترتيب حجرته فى خمس دقائق .. فيقول الأب : أرأيت .. كم هو أمر سهل ، لماذا تثير غضبي دائمًا عندما أطلب منك أي شيء ؟ ..

ما نريد أن نركّز عليها هنا هو أننا كآباء لسنا فى حاجة لاستخدام أسلوب التهديد بالعقاب فى مثل هذه المواقف .. وإنما قد يكون من الأنفع أن تكون العواقب هى العقاب المطلوب كأن يقول الأب مثلًا : " إذا لم تنته من ذلك بحلول الثانية تمامًا فلن تذهب إلى النادي ، والأمر فى ذلك فى يدك الآن " .." لقد طلبت منك أن تضع أوراقك فى مكانها ، وتعلق ملابسك ولكنك لم تقم بذلك ، وإذا لم يتم ذلك فى غضون خمس دقائق فسوف يغلق الكومبيوتر وسيظل مغلقًا إلى أن تنتهي

---

(١) حاول أن تروضني – راى ليفي – ص ١٤١ .

من تلك المهمة " (١) .

وهكذا .. تكون بداية التأديب للابن " من خلال تحميله مثلًا مسؤولية تنظيف الموقع من السجادة الذى لطخه بالعصير أو الحلوى ، فيؤمر بتنظيف ذلك المكان بكل جدية وحزم ؛ فيتعلم أن أعماله التى يقوم بها هو المسؤول الأول عنها ...

ويلاحظ فى تحميل الولد تبعات أخطائه أن يكلفه ويحمله الأخطاء التى ارتكبها عمدًا ، أو بتفريط منه ، أما الأخطاء التى وقعت له بدون قصد ، أو سابق إرادة ، فإنه لا يعاقب على ذلك ؛ بل يشرح له ويبين ، ويؤمر بأخذ الاحتياط فى المستقبل .

كما يحاول الأب أن يثيب الولد بعد اعترافه بخطئه وتحمله لتبعاته ونجاحه فى ذلك ، فيعطيه هدية ، أو يظهر له الثناء على عمله ، وأنه راض عنه ؛ وذلك لئلا يشعر الولد بأن والده يكرهه ، بل يتعلم أن خطأه هو الذى جر عليه غضب والده ، وأن تحمله أعباء خطئه وإصلاح ما أتلفه أعاد له رضا والده عنه مرة أخرى . " (٢)

..وهكذا .. نتقبّل الابن كما هو .. نصوبه إذا أخطأ .. ونكافئه إذا رجع عن الخطأ ، و اعترف به ..

وحتى حين نستخدم " العقاب " فإن هذا لا يعني دائمًا " الضرب " .. بل يمكن معاقبة الابن من خلال " النتائج الطبيعية " .. أو " التجاهل " .. أو "الحرمان من الإمتيازات "

• ***النتائج الطبيعية :***

وفيها يتم ترك الطفل يجرب ويواجه النتائج التى تترتب على سلوكه ، فمثلًا إذا تكاسل الطفل عن أتوبيس المدرسة ، فإنه يترك ليذهب إلى مدرسته سيرًا على أقدامه ..

---

(١) كيف تقولها لأطفالك – بول كولمان – ص ٥٢ – ٥٥ باصرف .

(٢) مسئولية الأب المسلم فى تربية الولد فى مرحلة الطفولة – عدنان حسن باحارث – ص ١٦٧ .

ولكن هذا الأسلوب لا يمكن استخدامه دائمًا ، فمثلًا لا يمكن ترك الطفل يلعب بالنار أو بالكهرباء ليتعلم أنها تضره !!!!

ولكنا نؤكد أنه ليس من العدل أن نعاقب الابن على خطأ سبب له ألمًا ، فبعض الأفعال الخاطئة التى يقوم بها الطفل تسبب فى نتائجها آلامًا له ، وهذه الآلام تكون بالنسبة له وسيلة تأديب ، وبالتالي ليس من العدل أن نوبخه أيضًا فنزيد من آلامه .. وذلك كأن نكون قد حذرناه من طريقته الخاطئة فى تشغيل لعبته ، ولم يعمل بالتحذير فتعطلت اللعبة ، وحزن عليها ، فليس من العدل والصواب هنا أن نعاقبه ، فألمه النفسي على خسارته لعبته هو تأديب فى حد ذاته .. ولكن هذا لا يمنع أن نشرح له أن عدم أخذه بالتحذير نتج عنه خسارته لعبته ، وأن عليه أن يتحمل نتيجة عمله ..

- ***التجــــاهل :***

ليس معنى تأديب الأبناء أن نحاسبهم على كل هفوة حتى وإن كانت صغيرة .. بل التربية الحكيمة تقتضى فى بعض الأحيان التغاضى لأن إستمرار التنبيه ضار تمامًا كالإلحاح فيه ، وحكمة المربّى فى أن يعرف متى يتغاضى ومتى يوجه .

وألا يراقب الابن أو يتجسس عليه ويفضحه إذا أخطأ .. " وإن خالف فى بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره .. لا سيما إذا ستره الابن ، واجتهد فى إخفائه ؛ فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة ، فعند ذلك إذا خالفه ثانيًا فينبغي أن يعاقب سرًا ، ويعظم الأمر فيه "[1] .. ثم يتغاضى عن خطئه ..

والتغاضي لا يعنى عدم الإهتمام بالابن ، بل التغاضي أن ترى فى كسر ابنك للطبق أمرًا لا يستحق الهياج والصراخ .

إن التجاهل قد يكون لونًا من ألوان العقوبة ، بل إنه قد يكون الأكثر تأثيرًا فى

(١) إحياء علوم الدين – أبو حامد الغزالي – ج ٣ ص ٧٠ .

بعض الأبناء .. وبخاصة أؤلئك الذين يسيئون السلوك لجذب الإنتباه .. فإذا شعرت أن ابنك من هذا الصنف فإن أفضل ألوان العقاب بالنسبة له هو " تجاهله تمامًا " .. ولا يعنى ذلك عدم عقاب الابن ، وإنما تجاهل حالات لفت الإنتباه .

إن إبداء الإهتمام فى هذه الحالة يعد مكافأة ينالها الابن ، ومن ثم يسىء السلوك أكثر ..

ومن ثم يصبح العلاج فى مثل هذه " الحالات " هو التجاهل .. تجاهل الطفل، لا تجاهل السلوك ..

تجاهل الابن لأن هذه هى عقوبته .. وعدم تجاهل السلوك ، لأنه لا بد من توجيه الابن إلى أن هذه ليست الطريقة الصحيحة للحصول على الإهتمام..

خذ مثالًا ..

– يردد الابن كلمة بذيئة سمعها من الشارع ، فنتجنب إظهار الغضب ، ونتجاهله ما أمكن .. لأن غضبنا يشعره بالفوز فى إثارة اهتمامنا ..

– يلح الابن فى طلب شىء ما ، ولا يهدأ عن الإلحاح فى طلبه .. فنتجاهله تمامًا كأننا لا نسمع ما يقول .. ولسان حالنا يقول : " إن لي أذنان ولكنهما لا يسمعان الإلحاح ..!!

ولا يعنى التجاهل بالطبع أن نتجاهل السلوك السىء إن كان يستحق العقاب ، بل لا بد من عقاب السلوكيات السيئة بالعقاب المناسب .. فعندما يسىء الابن السلوك لجذب الإنتباه نتجاهله .. فإذا لم يتوقف نقوم بتذكيره : " إننا لا نستجيب للإلحاح ، ولن نتحدث معك حتى تهدأ " .. فإذا لم يهدأ أخبرناه : " توقف عن هذا السلوك وإلا ستتعرض للعقاب " .. كل ذلك بلا غضب !

نعم .. بلا غضب ، لأن الغضب يمثل بالنسبة للطفل انتصارًا لحصوله على الاهتمام الذى يسعى إليه وتلاعبه بمشاعر أبويه ..

.. كأننى أسمع هنا أحد الآباء يقول : بلا غضب .. كيف؟

إن لدىّ ابن " دائمًا " يسلك السلوك السىء ، ولقد جرّبت معه " كل شىء "

ولا فائدة ..

إنني أصرخ فيه ، وأوبخه ، بل وأضربه .. ولا فائدة ..
إنك إن رأيت كيف يعامل والدته لأنزلت أنت به عقوبة الضرب الشديد!!

وأنا هنا أؤكد لهذا الأب ولمن قد يكون فى مثل حاله أن هناك ما يمكن عمله غير الضرب لتحسين سلوك الابن .. فمن ذلك تنسيق عمل الأب والأم معًا ، فقد لاحظت أن الأب يقول : لو رأيت كيف يعامل والدته .. ويقول أيضًا إني أصرخ فيه وأضربه .. وفى مثل هذه الحالات يتلاعب الابن باختلاف سياسة الأبوين .

ثم إن الأب يقول : أنه جرّب " كل شيء " .. فهل يعني ذلك أن الابن لم يفقد صموده ، بينما فقد الأب صبره ؟!!

.. هذه دعوة للتأمل فيما يمكن عمله غير : تأدب وإلا .. التعنيف والتوبيخ الدائم .. فضلًا عن الضرب !!

.. دعوة للتأمل فى قاعدة التجاهل الذهبية .. *" السلوك الذى لا يكافأ يختفي" !!*

نعم ، حتى تتوقف السلوكيات السيئة لابنك ، فأنت فى حاجة لعدم مكافأته عليها.. ولكن هذا الأمر يحتاج منك للصبر والمثابرة ، فلاتستجيب لتشنج الابن ، أو تضعف أمام إلحاحه ..

سيكون تفكير الابن بعد تجاهله : " كنت أحصل على ما أريد حين أتشنج أو ألح فى الطلب .. أمّا الآن فإن أمي – أو أبي – يتجاهل تشنجاتي ، ولا يستجيب لإلحاحي " .

ولا يعني هذا أن تتغاضى – أخي المربي – عن التصرفات السيئة للأبناء مهما كان حجمها ، لأن التغاضي يجعل تلك الأخطاء تتفاقم .. وإنما المقصود أن " لا تقف عند الأخطاء البسيطة .. تعامل معها بهدوء ثم دعها تخبو . إن الهدف من التصحيحات الشفهية هو العمل على تنشئة طفل أكثر تعاونًا ، فإساءة التصرف

والأخطاء أمور طبيعية .. لا تمعن التفكير فيها أو تعد ذكر الأيام السالفة المليئة بالمشاكل مع زوجتك أمام ابنك ، فالأبناء لا يمكن أن يبنوا على نقاط ضعف والديهم ولكن على نقاط القوة فيهما " (١) .

وإذا استثارك الابن بعبارات وتعليقات ، وأردت أن تتجاهله فيمكنك ذلك عبر ما يمكن أن نطلق عليه " العبارات المملة " ؟!!

فمثلًا .. إذا استثارك الابن بقوله : " هذا ظلم .. إنك تحب أخي أكثر مني ".. فما عليك إلا أن تقول : " إني أتفهم ذلك " لا أكثر ولا أقل .. وإذا صرخ الابن " فى الأسبوع الماضي فعلت أختى نفس ما فعلته ولم تعاقبها مثل ما عاقبتنى!!" فيمكنك أن تقول : ممكن .. وإذا كذب الابن فقال أنه لم يتأخر عن موعد المدرسة ، وأن المدرس هو الذى ظنه تلميذًا آخر بنفس الإسم كان متأخرًا ..

فما عليك أيها الأب المربي إلا أن تبتسم وتقول : محاولة جيدة ! .. والرسالة التى تريد أن توصلها له هى : " لم تنجح فى توصيل ما أردت من فكرة " .

وإذا رفض الابن إطاعة أوامرك فقال : " سوف أنظف حجرتى عندما أحب" .

فيكون ردك : " ليته ينفع " ..

... ولكن تذكر فى كل العبارات المملّة أن تقول تلك التعبيرات بحزن وعدم مبالاة ، ولكن – فى ذات الوقت - بلا غضب أو سخرية ..

ـ الحرمان من الإمتيازات ..

قد يتعجب بعض الآباء أنه يمكن عبر هذه الطريقة فى العقاب " الحرمان من الإمتيازات " يمكن السيطرة على الابن مهما كان عناده ، بل وتعديل سلوكياته السيئة !!.. ولكن هذه هى الحقيقة التى تثبتها التجربة العملية !!

إن هذه الطريقة تقوم على إخبار الابن أنه إذا جلس هادئًا فسيعطى ما يطلبه ،

---

(١) كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د. سال سيفير – ص ٢٢٠.

وإلا فلا ترفيه ولا إجابة لما يطلب ، بل على العكس .. حرمان من الترفيه ، وعدم استجابة لما يطلب ؟

.. ربما يبكى الابن لمدة ساعة أو أكثر .. وهنا لا بد أن يثابر الأب ويصبر ، وإلا فقدت هذه الطريقة فى العقاب تأثيرها تمامًا ..

قد يكون أمرًا شديد الصعوبة - فى بعض الأحيان - أن ترفض ما يطلبه لابنك ، ولكن ما تريد أن تعلّمه إياه عبر هذا الحزم هو أمر فى غاية الأهمية ..

فإن كان ما يطلبه الابن أمرًا غير ممكن أو أمرًا ضارًا ؛ فقل له : " لا " .. وكن حازمًا فى تنفيذ ما قلت ..

وسترى أن هذا الأسلوب يعدّل سلوك الابن ، ويعلمه التحكم فى رغباته ، ويدفعه إلى السلوك الأفضل ..

خذ مثالًا :

يلعب «عبد الرحمن» خارج البيت بعد عودته من المدرسة ، وعندما يعود لتناول العشاء يطلب منه والده أن يغسل يديه قبل أن يأكل .. يرفض عبد الرحمن غسل يديه ويجلس إلى المائدة ليبدأ فى تناول الطعام !!

هنا .. لا بد من تأديب ، لأن ترك هذا الأمر دون عقاب ولو مرة واحدة يغري الابن بتكرار الفعل ..

إن الحزم فى مثل هذه الحالات فى غاية الأهمية .. وهذا الحزم لا يعني دائمًا " الضرب " - بل ربما لا يكون الضرب وسيلة لمنع ذلك - و الأفضل فى مثل هذه الحالات هو الحرمان من الإمتيازات ..

ولكى تنجح فى انتهاج هذا الأسلوب لا بد لك من معرفة أشياء والإجابة على تساؤلات مثل :

١- ماذا يريد الطفل من وراء سلوكه السيئ ؟

٢- هل نجح الطفل فى إغضابك بهذا السلوك قبل ذلك ؟

٣- هل فشلت فى إلزامه بما تريده أن يأتيه ؟
٤- هل استسلمت لما يطلبه تجنبًا للمشاكل ؟
٥- هل حصل على ما يريد بعد سلوكه السيئ ؟

.. فإذا عرفت الإجابة على هذه التساؤلات ، فإن هذا يمثل الخطوة الصحيحة فى طريق إصلاح الابن وتغيير سلوكه السيئ .

خذ مثالاً :

تطلب الأم من ابنها " أحمد " أن يحمل كيس القمامة إلى الصندوق المخصص لها على باب المنزل ..

يقول أحمد : فيما بعد سأحمله إلى الخارج .. لماذا أنا بالذات الذى ينبغي أن يقوم بذلك ؟ لماذا لا ترسلي " عبد الرحمن " أخي؟

تحاول الأم إفهام " أحمد " أنه لا بد أن يقوم بما تطلبه منه ..

يصرخ " أحمد " ويتشنج ويثور ..

تقوم الأم بالعمل المطلوب من " أحمد " لأنها لا تقوى على رؤيته بهذه الحالة التي وصل إليها !!!

بعد دقائق يعود " أحمد " لممارسة لعبه بشكل طبيعي !!

ماذا يعني ما حدث بالنسبة لـ " أحمد " ؟

لقد فهم أنه يمكنه عدم القيام بأي عمل يطلب منه إذا صرخ، وغضب، وتشنج ..

وما السبب فى هذا السلوك السيئ ؟

السبب إنما هو عدم قدرة الأم على "الصبر" واستسلامها لـ " أحمد " حتى تحصل على الهدوء ..

وإذن .. فتغيير سلوك الأم هو الطريق لاحتواء " أحمد " ومن ثم تغيير سلوكه السيئ ، أليس كذلك ؟

.. وتغيير سلوك الأم يبدأ من الصبر والمثابرة على حرمان الابن الذى يسلك السلوك غير السوي ، حرمان هذا الابن من الإمتيازات التى تكون

ممنوحة له من قبل ..

وحتى يكون هذا اللون من العقاب .. أو غيره من ألوان العقاب نافعًا لأبنائنا، ومصوبًا لسلوكياتهم الخطأ .. فنحن فى أمس الحاجة أن نحلل تلك السلوكيات ، وأن نحاول أن نعرف دوافعها قبل أن ننزل العقاب بهم .. وأن نجعل مبدأنا الدائم ..

• *البحث عن السبب :*

فلا شك ، أن إصلاح السيارة لا يجعلها أفضل إن كانت المشكلة فى البنزين ، وارتداء الملابس الصوفية قد يشعر صاحبها بالدفء ، ولكنه بالقطع ليس العلاج للمدفأة التالفة ..!!

فالعلاج الصحيح فرع عن التشخيص الصائب للسبب ..

إن لأبنائنا فيما يأتون أو يدعون أسبابًا لا بد من التعرف عليها ، فإذا عرفناها فربما لا نحتاج إلا إلى كلمات قليلة لتغيير ما نريد تغييره .. فالنجاح فى إرشاد الأبناء للصواب يبدأ من معرفة " سبب " السلوك غير السوي ؟!

خذ مثالًا ..

تعانى الأم من تصرفات ابنتها ذات السبع سنين !! ، بل وينقطع أي أمل لها في جعلها تتوقف عنها ، فالابنة كما تقول الأم "مشاكسة" .. والأم كما تحكي عن تربيتها "قد دللتها أكثر من اللازم" ..

وتعاني الأم من "وحش" آخر هو الأخ الأصغر للابنة وهو خمس سنوات، ولكنه ملأ جدران البيت بالكتابات والتخريب ، وكلما " ضربته " ازداد تمسكًا بما يأتي من أفعال مشينة ..

وتتساءل الأم : هل الوضع الصحيح أن تحاول التعايش مع هذا " الوحش " وتلك " المشاكسة " ؟!!!

إن الخطوة الأولى – فيما أرى – في تربية هؤلاء الأبناء تبدأ من الكف عن

اعتبار البنت " مشاكسة " واعتبار الولد " وحشًا " .. بل اعتبار كل منهما " حالة " تستحق التأديب ، وأن تأديبها قد يكون صعبًا ، ولكن في كل الأحوال يجب البدء فى العلاج بالبحث عن السبب .. فقد يكون سلوك الأبناء تعبيرًا عن اضطراب عاطفي..؟!

ثم علاج السبب .. ولا مانع من عقاب الطفل بطرق مختلفة ، كالحرمان من شيء يحبه ، أو عدم إعطائه التقدير الذي يناله من يحسن السلوك من الأبناء.. [١]

إن أبناءنا – مثلًا – قد يعاقبوننا عبر خيبتهم؟! فنراهم يتفوقون فى العلوم التى نكرهها، بينما يهملون قصدًا ما نحب من المواد كنوع من مقاومة أوامرنا المتسلطة ..!!

وهنا يصبح من الواجب علينا ، أن نحلل سلوكهم ، ونبحث عن أسبابه ، ونتفهم جذوره ؟!

لأننا حين نعرف السبب ونعالجه فإننا نحل العقدة التى تنتج كل العقد منها .. وهذه هى طريقة نبينا ﷺ ، وتأمل معي كيف جاهد في حل عقدة الشرك في واقع الجاهلية الذي أنزلت فيه الرسالة، فلم يحتج إلى جهد لكل أمر ونهي في حياة أصحابه، " فقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ... لقد خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم، وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم، وأصبحوا فى الدنيا رجال الآخرة .. لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون فى أنفسهم حرجًا مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى ، حدثوا الرسول عما اختانوا أنفسهم ، وعرضوا أجسامهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد .. نزل تحريم الخمر والكئوس المتدفقة على راحاتهم ، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدة، وكسرت دنان الخمر فسالت فى سكك المدينة " [٢]

---

(١) ولابد من التأكيد هنا أن الضرب ليس طريقة التأديب الأفضل ..

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوي – ص ١٢٥-١٢٧ بتصرف.

أخي المربي – أبًا وأمًا – ابحث عن السبب الحقيقي لما دفع الابن لما فعله من سلوك غير سوي ، ثم وجهه أو وبخه – وقد تلوم نفسك على تقصيرك إن كنت منصفًا – و فى كل الأحوال لا تركّز على إظهار مشاعر السخط أو الضجر، بل ركز على إيضاح التصرف المطلوب منه مستقبلًا في مثل هذا الموقف مع مراعاة أن تكون هادئ وغير منفعل ..

إن احترام الآباء للأبناء أمر أساس وهام ... ولكن الاحترام لا يجوز أن يتحول إلى لون من إطلاق العنان للابن ليفعل ما يشاء ويأتى كل ما يريد . ، بل لا بد مع الاحترام من تأديب يمنع الخروج عن السوى من التصرفات .. تأديب لا يتحول تحت غضب الأب إلى قسوة مبالغ فيها فيهدر إنسانية الابن ويفقده الإحساس بأية قيمة وأى اعتبار ..

والعقوبة جزء من التأديب .. والذى لابد أن يشتمل على التعليم .. تعليم التفكير المنطقى وإتخاذ القرارات الصائبة .. وممارسة السلوك القويم .. وضبط النفس .. وما يمكن أن نطلق عليه السيطرة الذاتية ..

ونحن حين نضطر إلى العقوبة ، نتذكر دائمًا أن العقوبة ليست تشفيًا فى الابن أو انتقامًا منه .. و

- **إنمـــا العقـــوبة للتعـــليم :**

تتفتح عينا الابن على الحياة .. يبحث عن الحدود التى يجب ألا يتخطاها ، ثم يحاول أن يتخطاها .. يعبث بأزرار الكهرباء ، فنخاف نحن عليه من الصعق ، فننهره ونمنعه من الإقتراب منها .. ومع نمو الطفل يحاول دائمًا اكتشاف حدود ما سيسمح به الآباء ، و يحاول أن يتعدى الحدود ، ولا بد له من أب حازم يقول : " لا هناك حدود " .. ولكنه لا يتعنت فى ذلك ، وإنما يخفّض القيود تدريجيًا مع استمرار الحزم .

إن هذا الحزم الأبوى لا يضر شخصية الطفل على المدى البعيد ، بل إنه فى

غاية النفع لأن الطفل يشعر فى قرارة نفسه أنه قليل الخبرة وأن أمنه وأمانه يعتمد على والديه .. كما أن الشاب يجب أن يلعب والده أحيانًا دور القاضي الذى يستسمحه فى بعض سلوكياته فيوافق على البعض ويرفض الآخر .. وجميع الأبناء يشعرون مع الأب المحب الحازم علاقة أكثر دفئًا ولطفًا ..

إن كل أب ومرب يحتاج لعنصري الإقناع والعقاب معًا ، ولكن القاعدة هنا أنه لا يحتاج إلى العقاب إلا الذين حرموا من التربية القويمة .. وأن الأسرة الفاضلة هى التى تحل أزماتها الداخلية بأقل قدر من العقوبات والإكراه .. وحتى حين تستخدم العقاب فإنه يكون عادلًا ومكافئًا للجرم الذى يرتكبه الأبناء وفى إطار الشريعة الغراء .

ربما قال أحد الآباء الآن : أنا أعرف أنه من الأفضل فى تربية الأطفال عدم استخدام التهديد أو محاولة بث الخوف فى قلوبهم ، ولكن ماذا أفعل ؟ إنهم يوصلوننى إلى أقصى قدرة على الإحتمال .. فأجدنى أصرخ وأهدد وأرهب .. أنا أعلم يقينًا أن هذا الأسلوب لا جدوى منه ، ولكن صبرى ينفد، فلا أجد أمامى سوى أن أفعل هذا !!!

.. و أنا أقول لك – أخي الأب – إن العبيد والسجناء هم فقط من يمكن السيطرة عليهم بالتخويف أو الإجبار .. ومع ذلك فسوف يتمردون فى أقرب فرصة تتاح لهم.

إن علاقة الأب بالأبناء لا بد أن تكون قوية حسنة ، وإلا تحوّل فى نظر أبنائه إلى حارس سجن ، مسؤول عن مساجين !! وفى هذه الحالة ، فإنه بمجرّد أن يدير حارس السجن ظهره للمساجين ، فإنهم يسيئون السلوك ، بل ويخططون ضد الحرّاس !!!

خذ مثالًا ..

لعلنا – كلنا أو بعضنا – قد رأى ذلك المشهد .. مشهد المدرس الذى لا

يسمح بأى خطأ على الإطلاق ، والعقاب على الخطأ عنده معروف .. الضرب على الأيدى بأربعة مساطر معًا .. فماذا كان هذا ينتج فى واقع الطلبة ؟ .. إنها الكراهية للعلم الذى يقوم هذا المدرس بتدريسه ..أليس كذلك ؟

" إن الضغوط النفسية التى يولدها الضرب ، والتهديد ، والسخرية ، والنبز بالألقاب ، تترك فى عقول أبنائنا ونفوسهم آثارًا سيئة قد تدمر حياتهم كلها ، وقد تترك فى شخصياتهم ندبًا يصعب عليهم التخلص منها إلا بعد سنوات كثيرة ، بل إن بعض الدراسات تؤكد أن التفكير والتذكر يتأثران على نحو سلبي بالضغوط النفسية ... بل إن أحد الدراسات أشارت إلى أن الابن الذي يمارس ضده التهديد باستمرار يصبح أكثر ميلًا للحفظ بدل التحليل والنقد ، والأهم من ذلك أن هذه الضغوط النفسية قد تغيّر من رؤية الابن لذاته ، فينظر إليها على أنها ذات منحطة مخفقة متخلفة ، وأنه لا أمل فى إصلاحها .. وبذلك يكون الابن قد وقع ضحية فيما يشبه العاهة الدائمة " (١)

وما أروع ما قاله ابن خلدون فى مقدمته : " من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو الخدم ، سطا به القهر وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعا إلى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث .. وهو التظاهر بغير ما فى ضميره .. خوفًا من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت هذه له عادة وخلقًا ، وفسدت معاني الإنسانية التى له من حيث الاجتماع والتمدن ، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصارًا عيالًا على غيره فى ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فاتقبضت عن غايتها ، ومدى إنسانيتها ، وعاد فى أسفل السافلين ..

... إن من يُعامل بالقهر يصبح حِملًا على غيره ، إذ هو يصبح عاجزًا عن الذود عن شرفه وأسرته لخلوه من الحماسة والحمية على حين يقعد عن اكتساب

(١) بناء الأجيال – د/ عبد الكريم بكار – ص ١٧٥ بتصرف .

الفضائل ، والخلق الجميل .. وبذلك تنقلب النفس عن غايتها ومدى إنسانيتها"[١] .

أرأيت – أخي المربي – هذا الفهم التربوي المستنير لدى ابن خلدون لتأثيرات سيادة القهر والعقاب على نفسية الأبناء من اكتئاب وتكاسل ، وكذب وخداع ، وسلبية وضعف ثقة بالنفس ...

" إن السلوك الأهوج فى تربية الأولاد يترك آثاره السيئة فى حياتهم بدرجة يصعب التخلص منها ، فالجبن والانكماش والتردد والتشاؤم واتهام الظروف عند الإخفاق ، والفشل فى العمل ، .. كلها مظاهر مرضية قد يصاب بها أطفالنا إذا استمر الآباء على الأسلوب العنيف وحده فى التربية "[٢] .

" إن التربية الإسلامية قد عنيت بموضوع العقوبة عناية فائقة سواء أكانت عقوبة معنوية أم عقوبة مادية .. وقد أحاطت هذه العقوبة بسياج من الشروط والقيود ، فعلى المربين ألا يتجاوزها وألا يتغاضوا عنها .. إن أرادوا لأولادهم التربية المثلى ، ولأجيالهم الإصلاح العظيم ..

وكم يكون المربي موفقًا وحكيًما حينما يضع العقوبة موضعها المناسب ، كما يضع الملاطفة واللين فى المكان الملائم .. ؟

وكم يكون المربي أحمق جاهلًا حينما يحلم فى موضع الشدة والحزم ، ويقسو فى مواطن الرحمة والعفو ؟ "[٣] .

ولذلك ، فلا بد من قواعد تساعدك – أخي المربي – على ممارسة العقاب بضوابط تحميك من ظلم الأبناء ، وتحمي الأبناء من الآثار المدمرة لتجاوز الحكمة فى العقاب ، ومنها :

– أن يكون العقاب ملائمًا للخطأ .. فلا تخاصم ابنك أو تلطمه مثلًا لأنه لا

(١) مقدمة ابن خلدون – ص ١٠٤٣

(٢) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د.عادل رشاد غنيم – ص ١٥٦ ، ١٥٧

(٣) تربية الأولاد فى الإسلام – عبدالله ناصح علوان – ص ٧٢٩ .

يأكل الخضار ..

- أن يكون العقاب مناسبًا للجرم .. فمثلًا " من حول المكان إلى فوضى فعليه ترتيبه ... من عاد متأخرًا فلا يسمح له بالخروج فى اليوم التالى "

- استخدم عقابًا من السهل تنفيذه ..

- فسّر العقاب .. حاول تفسير عقابك لطفلك بحيث يشعر أنه فى مصلحته، ولكن بدون الدخول معه فى نقاش طويل .

وهكذا .. وفى كل الأحوال قل لابنك : لقد كان سلوكك جيدًا دائمًا ، أمّا هذا الخطأ العارض ، فأنا أسألك عما تراه مناسبًا كعقاب عليه ؟ ماذا قررت ؟ .

وتذكّر شيئًا هامًا جدًا : العقاب الأكبر ليس الأفضل .. العقاب الحقيقي اللطيف يعلّم الابن أكثر .

وتذكر أيضًا شيئًا فى غاية الأهمية : الحكم بالخطأ لا يستلزم اللوم دائمًا .

فهناك - مثلًا - الخطأ الذى يعترف به صاحبه بصدق ، ويستشعر فيه عظم المخالفة .. وهذه القيمة " قيمة الصدق " .. و " الاعتراف بالخطأ " لا بد أن يكون لها أثر فى طريقة مواجهة الخطأ والمخطىء ..

وقد رأينا فى السنة النبوية المطهرة الكثير من المواقف التى كان الرسول يشجّع فيها صحابته على الصراحة ..

" عن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال : " كنت عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال يا رسول الله إني أصبت حدًا فأقمه علي ، قال : ولم يسأله عنه .. قال : وحضرت الصلاة فصلى مع النبي ﷺ فلما قضى النبي ﷺ الصلاة ، قام إليه الرجل فقال : يارسول الله إني أصبت حدًا فأقم في كتاب الله ، قال : أليس قد صليت معنا . قال : نعم : قال فإن الله قد غفر لك ذنبك أو قال : حدك " [رواه البخاري برقم ٦٨٢٣ ، ومسلم برقم ٢٧٦٤] .

فالطفل الذى يرتكب خطأ ما مثل كسر زجاج النافذة ، ونسأله عما حدث فيصدقنا ، لا بد لنا أن نعتبر هذا " الصدق " كخصلة من خصال الخير فيه ، وبالتالى

لا نشدد عليه فى العقوبة ، وإنما نقدم له النصح مثل أن نقول : الغرفة ليست محلًا للعب ، حاول ألا تتكرر مثل هذه الفعلة .. " (١)

أخي المربي ..

" كن إيجابيًا عند تأديب أبنائك ، ولا تأخذ بمنهج النقد الدائم ، وتأكد من أن عقابك لهم عقاب عادل ، فلا بد أن تكون العقوبات الموقعة عليهم غير حادة و من شأنها تعليم الأبناء اتخاذ القرارات السديدة ، ولا تعاقب أبناءك لأنهم أغضبوك .. لا تعاقب وأنت غاضب " (٢)، فأبناؤك ليسوا إلا ضيوفًا جدًا على المجتمع ، وهؤلاء الضيوف يحتاجون إلى وقت طويل ، وصبر جميل حتى يتعلمون أنماط السلوك التى تنسجم مع عادات المجتمع وأخلاقه ومفاهيمه وتصوراته ...

وتأمل – أخي المربي – إشارة النبي ﷺ إلى أهمية الدفع الإيجابي والتشجيع فى أحد أهم مسائل تربية الأولاد ، وهي الصلاة ، فيقول ﷺ: " مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين " رواه أحمد فى مسنده ج٢/ ١٨٧ ..

فنحن نلاحظ فى هذا الحديث أن النبي ﷺ قد ترك مسافة ثلاثة سنوات بشهورها وأيامها لاستخدام كافة وسائل التشجيع والدفع الإيجابي التى يمكن أن تتاح للآباء ليرغّبوا أبناءهم فى الصلاة ، قبل اللجوء إلى الضرب ..

.. وقد يكون بعضنا قد وقف على خبر والي خراسان الذي كتب إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه فى استخدام القوة والعنف مع أهلها لأنهم كما يظن هو لا يصلحهم إلا السيف والسوط .. فبماذا ردّ عليه عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد ؟ .. لقد قال له : كذبت .. بل يصلحهم العدل والحق ؛ فأبسط ذلك فيهم ، واعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين ..

لقد أدى اعتماد هذا الأسلوب الذى أوصى به الخليفة الراشد إلى أن وضع

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د.عادل رشاد غنيم – ص ١٠٠ بتصرف
(٢) كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د. سال سيفير – ص ٢٢٣ بتصرف يسير .

الخوارج أسلحتهم لأول مرة » وذلك بعد أن استعصوا على بقية الخلفاء...

ونحن أيضًا – كآباء ومربين – يمكننا أن ننشىء جيلًا مهذبًا ومتوازنًا من أبنائنا دون قهر وسوط ؟!

يمكننا ذلك عبر الإعتدال فى التربية ، فلا إفراط فى التسامح والتساهل حتى يقع الابن فى العثرات .. ولا قهر وعقوبة للحصول على طاعة ظاهرية .. وإنما استخدام لكلمة " لا " فى مكانها ووقتها .. ويقين تربوي فى أعماقنا ، أن الطاعة الظاهرية ليست الإيجابية المطلوبة فى الأبناء المهذبين ؟! وأن العقاب ليس له دور إلا فى إيقاف السلوك السيء ، وعلينا أن نعلمه السلوك الصالح .. وطرق العقاب كثيرة وعلى المربي أن يتخيّر منها ما يناسب سن الطفل ويسهم فى تأديبه ..

أخي الأب والمربي ..

نريد أن نعاقب للتعليم ، ولا نسعى إلى الانتقام .

ذلك أن الابن حين يشعر أن العقوبة توقع عليه للإنتقام والتشفي – لا للإصلاح – فإن هذا يحدث فى نفسه انحرافًا معينًا ، وهو أن يتعمد إثارة والديه ليستمتع بمنظر هياجهما وثورتهما عليه ، ويحس بالانتفاش الداخلي والارتياح ، لأنه – وهو الصغير – استطاع أن يثير أولئك الكبار ويزعجهم ! ولا مانع لديه عندئذ من احتمال الأذى – ولو اشتد– فى سبيل هذه المتعة التى يجدها فى نفسه كلما استطاع أن يثير ثورة والديه وهياجهما عليه ! وعندئذ تكون الخسارة مزدوجة : فلا العقوبة أدت غرضها فى الإصلاح ، وزاد فى نفس الطفل انحراف جديد هو تحقيق الذات عن طريق غير سوي .

العقوبة إذن – رغم ضرورتها فى كثير من الحالات – ينبغي أن تنفذ بالحكمة الواجبة فى كل شأن من شئون التربية ، فلا يسرف المربي فى استخدامها ، ولا يتخطى تدرجاتها . ثم عليه أن يراعي كذلك أن تكون العقوبة مناسبة للجرم . فلا تكون لديه جرعة جاهزة من العقوبة يستخدمها لكل حالة على السواء ، فإن ذلك يغري

الطفل بالكبيرة مادام يعاقب على الصغيرة كالكبيرة .

كما أنه من الأفضل التهديد بالعقوبة أكثر من توقيعها بالفعل ، لأن ذلك يحتفظ برهبتها الدائمة فى نفس الطفل ، فالتهديد بالمقاطعة يروع الطفل ، أما المقاطعة الفعلية فسيتعودها إن تكررت . والتهديد بالحرمان موجع . والحرمان الفعلي موجع كذلك فى مبدأ الأمر . ولكنه إن طال تعودته النفس وفقد تأثيره . والتهديد بالضرب مفزع . أما الضرب الفعلي فهو موجع فى البدء ، عديم التأثير فى النهاية ...

ولا ضرر بعد التهديد من عدم تنفيذه فى بعض الأحيان اكتفاء بأثره المرهوب. فليس من الضروري أن ينفذ التهديد بالفعل حين يقع من الابن ما هدد من أجله بالعقوبة . إنما يمكن أن يستتاب دون تنفيذ التهديد . بشرط واحد ، وهو ألا يعتقد الطفل أن التهديد هو لمجرد التهديد لا للتنفيذ ! فإنه إن اعتقد ذلك فلن يهمه التهديد بطبيعة الحال ! فمن أجل ذلك ينبغي أن ينفذ التهديد – ولو مرة – إذا أحس المربي أن الابن قد استخف بالتهديد ولم يعد يهمه أمره أما إذا وجد أنه مازال يخاف منه ويتقيه – ولو وقع فى الخطأ المنهي عنه أكثر من مرة – فلا بأس بالاستمرار فى التهديد بغير تنفيذ ، و عمر رضي الله عنه يقول : علق عصاك بحيث يراها أهل الدار ! أي التهديد ! ولكنه لم ينصح باستعمالها فى كل مرة !

بهذه الصورة – وبالحكمة الواجبة – تؤدي العقوبة دورها فى التربية فى وقت الحاجة إليها " [١].

أمّا أن نصنع من " الحبة قبة " ، ونحوم حول أبنائنا وكأنهم مجرمون صغار يقومون بالتحضير لجريمة ، فليس ذلك بأسلوب تربوي صحيح ، فضلًا عن أن يكون إسلاميًا ..

فمتى يكون أسلوبنا فى التربية أن العفو هو الأساس فى معالجة أخطاء

---

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج ٢ ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

الأبناء، وليس العقوبة ، ومتى يكون مبدؤنا فى مواجهة السلوك الخاطىء : " لأن تخطىء فى العفو خير من أن تخطىء فى العقوبة " ومتى ندرك أن العقوبة ليست للتشفي والانتقام ، و .. " إنما العقوبة للتعليم "

• آخــر العقاب .. الضرب :

قال صاحبى : إن هؤلاء الأبناء لا ينفع معهم إلا الضرب !!

قلت : وهل يصلحهم فعلًا ؟

قال : أنا أوافقك أنه أسلوب خاطىء ، بل أؤكد لك أننى بعد أن أضربهم أشعر بالحزن الشديد !!

قلت : إذن فلابد أن يكون هناك حل آخر لتقويم سلوكهم .. أليس كذلك.

قال : حل آخر !! إن هذا هو الحل الوحيد الذى يجعل الابن يكف عما يصنع !!

قلت : يكف عمّا يصنع دائمًا أم مؤقتًا ؟ .. إن الضرب حل مؤقت ، وهو فى ذات الوقت يحمل مخاطر تربوية كثيرة .

قال : مخاطر !!

قلت : إن الضرب يزلزل ثقة الابن فى نفسه .. ثم إن الأبناء الذين يمثل الضرب جزءًا من حياتهم يتحولون إلى أبناء سريعى الغضب لا يجدون فى مقابلة أى فعل لا يرضونه من الآخر إلا الضرب .. ثم هم فى أغلب الأحوال عدوانيين وانطوائيين فى ذات الوقت .

إن الأبناء الذين يتم معالجة سلوكهم السيء بالضرب لا يتعلمون القدرة على ضبط النفس .. لقد اعتادوا ألا يتوقفوا عن سلوكهم السيء ولا يستجيبوا لما يطلب منهم إلا حين يضربون (١) !!

---

(١) أذكر أننى ذات مرة طلبت من ابني الذهاب للفراش للنوم لأن الوقت تأخر ، فتساءل بعفوية : كيف أذهب قبل أن تضربني أمي !!

بل إنك تجد الواحد منهم يأتي فى كبره أمرًا عجبًا .. تجده قد يخاطر بحياته فى ساحة قتال لأنه يرى استحسان الناس لذلك ، بينما لا يصبر على مقاومة طبع سيء أو عادة متأصلة عنده ، فتراه ينكص عن ذلك نكص الجبان ، ويفر فرار الرعديد !!

أخي المربي ..

إن الهدف من العقاب هو تعليم الأبناء .. وهذا يتطلب منك أن تهدأ .. ثم تبدأ فى التفكير فى العقاب المناسب للتعليم ..

هل هذا العقاب سيساعد فى تقليل العادات السيئة للابن ؟

هل عقابى جزء من خطة ؟ أم أننى أندفع فى العقاب بلا خطة ؟

هل هذا العقاب عادل ومناسب للفعل الخاطيء ؟

هل جربت قبل العقاب الدفع الإيجابي للابن ؟

واعلم – أخي المربي – أن العقاب الصحيح لا بد فيه من هدوء وثبات ، ولا بد فيه أن تتأكد أن عقابك للابن ليس ضربًا تنهال به عليه وكأنك تنهال على كل ظروفك الصعبة .. بمعنى أنك تقوم بعملية " إزاحة للعقاب من الطرف الأقوى الذى لم تقدر عليه إلى الطرف الأضعف وهو فى هذه الحالة ابنك ؟!! .. فمثلًا حين لا تقوى على مواجهة رئيسك فى العمل تضرب الابن !!!

قال صاحبي : أنت تحاول إبعادي عن ضرب الابن مهما صنع !! وأنا أسألك " ماذا تفعل عندما ترى ابنك الذى هو فى السابعة من عمره ، تمتد يده إلى حافظة نقودك ليأخذ منها قدرًا كبيرًا من النقود ويدعو أصدقاءه فى المدرسة إلى أكبر وليمة حلوى ؟.

وماذا تفعل عندما يخفي ابنك تقريره الدراسي ويعلن لك أن المدرسة لم تعطه أى تقرير وأنه ناجح فى كل المواد ، ثم تفاجأ بالهاتف يدق فى منزلك ليخبرك المسؤول أن ابنك " يزوغ " من المدرسة وأنه راسب فى كل المواد الدراسية المقررة

له؟ "[1] .. هل ستبقى على هدوئك الذى تحدثني عنه ؟

قلت : لا شك أنك عندها ستكون فى حالة غيظ وتريد أن تعاقب ابنك الذى " أخذ " من حافظة نقودك المال ، وتريد عقاب ابنك الذى " أخفى " عنك تقريره الدراسي .. وهذا حقك وواجبك فى ذات الوقت .. ولكن لا بد من ملاحظة أن تعاقبه بلا غيظ ، وتؤنبه دون تجريح له كإنسان ، وبحزم دون مبالغة .. .. ومن قبل ذلك ومن بعده لا بد أن تسأل نفسك : ما عمر ابنك الذى أخذ النقود من الحافظة؟ .. وهل يحب ابنك مدرسته أم أنه يكره مدرسيه لأنهم يوجهون له ألفاظًا نابية ؟ ..

قال صاحبي : وكيف يكون للأب هيبته مع غياب العقاب بضرب من ساء سلوكه ؟.

قلت : " إن دعوتنا لتأخير العقاب بالضرب لا تعني إبطال هيبة الأب واحترامه !! .. لكن السؤال : هل زرع الهيبة فى نفوس الأولاد لا تكون إلا بأسلوب الفزع والرعب والعقاب الذى يتجاوز حدود الخطأ الذى ارتكبوه؟!!

يمكن بالطبع غرس الهيبة والاحترام بغير الضرب ، ولكن الأمر يحتاج إلى صبر وتعلّم مهارات . والحقيقة المرة أن كثيرًا من الآباء يثأرون لمتاعب العمل الخارجية فينتقمون من أطفالهم الأبرياء وأمهم..!!!

.. وتأمل – أخي المربي – ما رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه عن إياس بن عبدالله بن أبي ذئاب قال : قال رسول الله ﷺ: " لا تضربوا إماء الله ، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : ذئرن النساء على أزواجهن ، فرخص فى ضربهن ، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن ، فقال رسول الله ﷺ: لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم " – صحيح الجامع ، حديث رقم ٧٣٦٠.

---

(١) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د/ سبوك – ص ٦٢ .

" إن نفي الخيرية عن ضاربي زوجاتهم ليس أمرًا هيِّنًا ولا سيما في مجتمع أصحاب رسول الله ﷺ ...

وعند كثير من علماء التربية الإسلاميين أنه لا يجوز للمربي أن يلجأ إلى العقوبة إلا عند الضرورة القصوى ، وأن لا يلجأ إلى الضرب إلا بعد التهديد والوعيد وتوسط الشفعاء .. لإحداث الأثر المطلوب فى إصلاح الطفل ، وتكوينه خلقيًا ونفسيًا ..

قال صاحبي : لا أعرف ما تقول .. ولا أظن أنه أسلوب صحيح فى تصويب أخطاء الأبناء !!.. أبنائي أنا على الأقل .. إنهم لا يستمعون إلى أى شىء أقوله !!

قلت : كيف إذن تواجه سلوكياتهم السيئة ؟

قال : إننى أصرخ فيهم بأعلى صوتى !!

قلت : وهل يهدأون ويكفون عن سلوكهم السىء ؟

قال : يهدأون لفترة قصيرة ، ثم يبدأون فى السلوك السىء مرة أخرى ..

قلت : ماذا تفعل وقتها؟

قال : أجن .. وأضربهم !! أضربهم ، ثم أشعر بالضيق ..!! ماذا أفعل ؟

فقلت : أضربهم ، ثم أشعر بالضيق ..!! ماذا أفعل ؟ هذه الجملة الأخيرة تعني الكثير .. أنت تتمنى ألا تضربهم ، وتبحث عن سبيل آخر لتأديبهم ، أليس كذلك ؟

قال صاحبي : نعم .. أتمنى أن أجد أسلوبًا غير الضرب لتقويم سلوكهم.

قلت لصاحبي : إن الأبناء حين يضربون يهدأون لـ " بعض الوقت "، فالضرب يؤدي إلى نتيجة سريعة ظاهريًا – طاعة شكلية تغرينا وتخدعنا – بينما بدون الضرب يمكن تحصيل نتائج تربوية أفضل وأقوم ؟!!

إن الضرب ـ فيما أرى ـ يؤدي إلى تهشيم للشرائح النفسية داخل نفسية الابن، وأنا أستخدم هنا كلمة «شرائح» لدقتها المتناهية وهو تعبير مجازي

بحت...وهذا الضرب يولد حالة من الانكسار، والجبن، وضعف الشخصية، والحقد الدفين والشوق لتعويض الكرامة المفقودة عند النضج ؟!!!

قال صاحبي : ما هذا الهراء ؟ لقد كنا نضرب من آبائنا ، وقد خرجنا رجالًا ونساءً صالحين ..؟! .. هل تنكر العقوبة الحسية للأبناء مهما كانت أخطاؤهم ؟!!

قلت : " إن العقوبة الحسية ليست أمرًا مستنكرًا فى ذاته ، ولكن الواجب ألا تكون أول ما يلجأ إليه المربي ، وإنما البداية هى العقوبة المعنوية .. تلك العقوبة التى لا بد أن يسبقها المثوبة ..

" وفى كل الأحوال لا بد من مراعاة الفوارق الفردية بين ابن وابن . فهناك ابن يرى فى إعراضك عنه عقوبة قاسية ، فلم نتجاوز معه هذه الوسيلة النافعة ؟.. وهناك الابن الذى لا يكف عن الخطأ حتى يذوق العقوبة الحسية ، فهل يصلح مع هذا مجرد الإعراض عنه ؟ .."[1] .

بالطبع .. لا .. هنا لا بد من العقوبة الحسية .. الضرب .. ولكني أتساءل معك: هل نحن ـ كآباء ومربّين ـ نستخدم الضرب للأبناء بأسلوب تربوي صحيح؟.

إننا – كآباء ومربين – نستخدم الضرب بثلاثة أساليب :

" أسلوب الضرب دائمًا .. وأسلوب الضرب عند الغضب .. وأسلوب الضرب التخطيطي ..

- أمّا أسلوب الضرب دائمًا :

فنسمع من كثير من الآباء والأمهات قولهم : " إني أضربه باستمرار ، ومع ذلك لا يستمع لما أقول ؟!! ".

وبالطبع هو لا يستمع لما يقول الآباء لأن الضرب بالنسبة إليه أصبح دون معنى .

كما أن الآباء والمربين الذين يستخدمون هذا الأسلوب – غالبًا – يكونوا غير

---

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج ٢ ص ١٣٦ بتصرف .

جادّين ، فهم يشدون الأبناء من ملابسهم بيد ، وبالأخرى ربما يطوحونهم فى الهواء، ثم يضربونهم ضربة قد تكون رمزية . فيصرخ الابن ، ثم يعاود من فوره ما كان يصنعه قبل من سلوك سيء !!

نعم .. إن الأبناء لا يتعلمون أى شيء من هذا الأسلوب فى الضرب .. ذلك أن هذا الأسلوب غالبًا ما يعتمد على شعور الآباء فى اللحظة التى يعاقبون فيها أبناءهم بالضرب . فإن كانوا منفعلين ونافذى الصبر ، فهم يضربون الأبناء على أقل خطأ .. وإن كانوا هادئين فربما تركوا أفعالًا تستحق العقوبة الشديدة بلا عقاب !!

ولا شك أن هذا التغاير يربك الأبناء فهم يرون أنهم فعلوا بالأمس شيئًا ومر بلا عقاب ، بينما يتلقون اليوم لنفس الفعل صفعة قوية ؟؟!! ومن ثم لا يتعلمون الفرق بين الخطأ والصواب ، وإن تعلموا أحد الخصال الذميمة وهي " الجبن " و " فقدان الثقة بالنفس " .. وضرب كل من يقوم بأمر لا يحبونه .. ومن ثم يكثر تشاجرهم حتى مع أشقائهم ..

- *وأمّا أسلوب الضرب الغاضب (عند الغضب) :*

هذا الأسلوب هو الأكثر إنتشارًا والأكثر ضررًا على السواء ..

فهو أولًا يعلّم ابنك كيف يتحكم فى أفعالك ويغضبك ..

وهو ثانيًا يمكن أن يؤدي إلى إيذاء الابن ؛ لأنك لا تعي ما تفعل غاضبًا..

وهو قبل ذلك وبعده يعلّم ابنك الإندفاع وقت الغضب ، فلا يمارس على نفسه إذا غضب أي سيطرة لأنه لم ير أباه يفعل ذلك ..

- *وأمّا الأسلوب الثالث للضرب .. فهو التخطيطي :*

فى هذه الطريقة لممارسة عقوبة الضرب .. يتحدث الأب أو المربي إلى الابن عن سلوكه السيء ، ويخبره أنه إذا أتى مثل هذا السلوك فسوف يعاقب بالضرب .. فإذا فعل ما نهاه عنه ضربه فى هدوء !!

و كلمة " فى هدوء " هذه فى غاية الأهمية ، فالأب إذا لم يلتزم الهدوء ، وقع فى

ممارسة الضرب الغاضب الذى تحدثنا عن سلبياته ..

إن أسلوب الضرب التخطيطي ينطوى على معنى إنساني هام هو " ابني .. إن ضربي لك يؤلمنى أكثر مما يؤلمك " (١).

كما أن هذا الضرب التخطيطي هو أقصى درجات العقوبة .. فالعقوبة درجات .. " تبدأ من الكف عن التشجيع - وهذه فى حد ذاتها عقوبة لمن كان يتلقى التشجيع من قبل - ، إلى الإعراض وإعلان عدم الرضا ، إلى العبوس والتقطيب والزجر بصوت غاضب ، إلى المخاصمة الطويلة والمقاطعة - أو التهديد بها - إلى الحرمان من الأشياء المحببة إلى الطفل - أو التهديد به - إلى التهديد بالإيذاء ، إلى الضرب الخفيف .. إلى الضرب وتلك أقصى الدرجات ..

ولا ينبغي تخطي ذلك التدرج ، والبدء بالنهاية ، وهي الضرب سواء كان خفيفًا أو موجعًا .. لأكثر من سبب.

فأولًا : ينبغي أن تكون هناك بدائل متدرجة من العقوبة لأن الطفل سيخطىء كثيرًا – ولا بد أن يخطىء – وسيحتاج إلى العقوبة – فى الغالب – مرات كثيرة . فمن المصلحة إذن أن يكون خط العقوبة طويلًا كذلك لكي لا تنفد الوسائل سريعًا ونحتاج إلى تكرار الوسيلة الواحدة أكثر من مرة فى المدى القريب ، لأن ذلك يفقدها كثيرًا من تأثيرها ، فتصبح بعد قليل عديمة الجدوى.

وثانيًا : هناك خطر من التعود على الضرب بالذات – أكثر من أى وسيلة أخرى – لأنه عقوبة بدنية ، والجسم يمكن أن يتعود على الأذى فلا يعود يتأثر به كثيرًا ، وعندئذ نكون قد فقدنا كل وسائلنا الفعالة دفعة واحدة ! لأن من يتبلد حسه على الضرب ، وهو أقسى العقوبات ، لا يزجره ولا يؤثر فيه وجه عابس ولا صوت غاضب ولا حرمان ولا تهديد بحرمان ! وعندئذ ماذا نفعل؟!

---

(١) راجع إن شئت " كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك – د/ سال سيفير – ١٦٥ – ١٧٣ .

إن هذه شكوى معهودة من الآباء الذين يسارعون إلى استعمال العقوبة البدنية الموجعة ويلجّون فيها حتى يتبلد عليها حس أطفالهم ، ثم يروح الواحد منهم يشكو : الولد .. لا أدري ماذا أصنع به .. " غُلبت " من الضرب فيه ولا ينصلح حاله .. فماذا أصنع ؟

لا شيء ! لأنه استنفذ وسائله كلها من أول لحظة .. ولم يعد هناك من سبيل إلا تغيير المربي ليمكن تغيير الوسيلة ! أي بنقل الطفل إلى مكان آخر ، أو إلى يد أخرى تتعهده ، تفتح معه صفحة جديدة تبدأ بالتشجيع .. تبدأ من أول الطريق !

وهذا خطأ الإسراف في العقوبة ، والضرب بصفة خاصة ..

إن العقوبة تظل شيئًا مرهوبًا قبل أن تنفذ ؛ ثم يكون لها وقعها الكامل في أول مرة تنفذ . ولكنها إن كررت في المدى القريب تظل تفقد شيئًا من تأثيرها في كل مرة، حتى يعتادها الحس وتصبح بغير تأثير ، ومن ثم تصبح بغير فائدة" (١) .

إن الضرب – إن كان ضروريًا – " فينبغي ألا نلجأ إليه إلا بعد استنفاد كل الوسائل الأخرى ، فهو أشبه بالتدخل الجراحي من الطبيب ، فإذا اضطررنا إليه فلنتقيد بآدابه التي ذكرها علماء التربية الإسلامية ، والتي منها أن الابن لا يضرب قبل سن العاشرة ، كما لا يجوز ضربه على الرأس أو الوجه . كما لا ينبغي إيقاع الضرب والمربي في قمة غضبه . نعم يمكن أن يهدده وقت اكتشاف الخطأ ثم ينفذ بعد أن يهدأ غضبه . ومنها ألا يضرب أمام أحد ، وألا يكون الضرب مبرحًا ، فيترك آثارًا نفسية أو جسمية . ولا يطلب من الطفل الاعتذار أثناء الضرب أو بعده.."(٢) .

إن الإسلام لا يرضى عن استخدام الضرب بلا ضوابط ، ومن الأدلة على ذلك ما قاله أبو مسعود البدري : " كنت أضرب غلامًا لي بالسوط فسمعت صوتًا من خلفي اعلم أبا مسعود ، فلم أفهم الصوت من الغضب ، قال فلما دنا مني إذا

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج ٢ ص ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٢) دليل التربية الأسرية – أ. د/ عبد الكريم بكار – ص ١٥٣ .

هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود، قال : فألقيت السوط من يدي فقال : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام ، قال : فقلت لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا ، وفى رواية : فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى . قال : أما إنك لو لم تفعل للفعتك النار أو لمستك النار " [صحيح الجامع برقم ١٠٧١].

كما أن هناك أمرًا فى غاية الأهمية فى الضرب ، وهو ألا يكون علنيًا ، بل – إذا ضرب الابن – فليكن ذلك بعيدًا عن العيون .. وكأننا نقول له : " إننا أردنا بذلك ألا نفضحك أو نحرجك أمام الآخرين " ..

إن هذا سيكون أول دروس الإعتزاز بكرامته الانسانية .. أمّا إذا تكرر الضرب فى حضور المشاهدين بعضهم مشفق والآخر شامت ، والثالث مذعور ، ويعرف الجميع سبب الضرب .. وقد يكون السبب معيبًا ، فنحن بذلك نفقد الطفل حياءه حيث أن المفضوح يكون عادة أقل حرصًا على عدم الفضيحة مرة أخرى عن ذلك الذى سترناه ونحن نعاقبه ، فالأخير قد تركنا له الفرصة للتراجع والكف ..

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ " من ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة " – رواه مسلم –

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: " لا يرى مؤمن من أخيه عورة فيسترها عليه إلا أدخله الله بها الجنة " رواه الطبراني ..

• ***وبكلمـــة ..***

أخي المربي – أبا وأمّا – إذا اضطررت لعقاب الابن بالضرب ، فاحرص على:

– ألا يكون الضرب إلا بعد استنفاذ الوسائل الأخرى كالتوجيه والنظرة الحادة والتوبيخ ..

– لا تعاقب ابنك وأنت غاضب ؛ حتى لا يكون عقابك أقرب إلى الإنتقام منه إلى التأديب .

- إن كان الخطأ يأتيه الابن لأول مرة ، فلا بد من إعطائه فرصة أخرى.
- العقوبة لا بد أن تكون مناسبة للخطأ ، حتى تكون وسيلة للإصلاح .
- أرشد الابن قبل أن تعاقبه بالضرب .

أخي المربي – أبا وأمًا –

تعالى نجعل احترام أبنائنا لنا هو مصدر سلطاننا عليهم ، وليس سلطاننا عليهم هو مصدر احترامنا ..

تعالى نحاول الحصول على تربية جيدة دون ضرب ، فطريق النجاح فى هذا الأمر معبّد ومفتوح ..

أخي المربي – أبا وأمًا –

إن الضرب هو شكل من أشكال العقوبة التى قد تكون مطلوبة .. ومع مراعاة كافة الأسس والضوابط السابق عرضها .. فينبغي أن يكون ذلك أمرًا شديد الندرة ، قليل التكرار فى حياة الأبناء .. ذلك أن آثاره السلبية عليهم ، من ضعف الثقة بالنفس ، والانطواء ، بل وسرعة الغضب والإفراط فى العدوانية .. تجعله مثل الكيّ الذى هو آخر الدواء ..

فليكن منا على ذكر جميعًا – كآباء ومربين _ أن يبقى " آخر العقاب .. الضرب " .

❁❁❁

الباب الثامن

تَفَهَّمْ تفرّدِهِ

U=Understand his uniqueness

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : ابنك ليس أنت .

الفصل الثاني : إنه كائن متفرد .

الفصـل الأول
ابنك ليس أنت؟!

إن أقدم حديث عرفه الإنسان هو حديث الأجيال .. وهو عندما يأخذ طابع الحوار بين عقول الآباء الناضجة ، وقلوب الأبناء المتفتحة ، ومن قلوب الآباء المغمورة بالحب إلى عقول الأبناء المستعدة للفهم .. عندها يصل حديث الأجيال بطرفي الآباء والأبناء إلى بر الأمان ..

أمّا حين يأخذ هذا الحديث طابع الأوامر العلوية الأبوية المطلقة ، والنظرة الإستصغارية ، فإنه يتحول إلى صراع بين العقول المسيطرة المنغلقة للآباء ، و العقول التابعة المتحجرة للأبناء ، ومن القلوب القاسية الشديدة للآباء إلى العقول الرافضة للفهم للأبناء .. ومن ثم فإنه لا يوصّل إلا إلى المجهول ..!!

• فكّــر بعقـــله :

حين لا نستطيع فهم الآخر فنحن نكرهه ، وأحيانا نكره أنفسنا لنفس السبب!!

والدليل على ذلك أننا قد نجد أطفالًا يتعرضون لنقد ولوم جارح من والديهم اعتقادًا منهم بأن هؤلاء الأطفال يتعمدون مخالفة أوامرهم .. وهذا الأمر ف كثير من الأحيان يكون غير صحيح .. وانما يكون السبب الحقيقي هو سوء الفهم ..

إن من أهم الأسس التى يجب مراعاتها فى خطابنا لأبنائنا ، أن نخاطبهم على قدر فهمهم ، وذلك وفق وصية النبي ﷺ : " أنزلوا الناس منازلهم " رواه أبوداود..

فلابد أن نراعي الفروق بيننا وبين أبنائنا ، كما نراعى الفروق الفردية بين ابن وآخر ؛ فالطفل الصغير يختلف فهمه عن طالب المرحلة الإعدادية ، وطالب الثانوية

العامة يختلف فهمه عن الرجل الكبير ، فلكل مرحلة خصائصها وصفاتها ، ومن الصعوبة بمكان أن يكون خطاب الجميع واحدًا ..

وحين نفشل فى إقناع أبنائنا بما نريد ، فإن ذلك لا يرجع إلى كونهم حمقى يرفضون الانصات لصوت العقل والخبرة ، وإنما يرجع إلى " أن هناك مسافة بين عقولنا وعقول أبنائنا ، والواجب علينا أن نحسن اختيار وسيلة المواصلات المناسبة لاجتياز هذه المسافة وطرق أبواب عقولهم بلياقة تناسب صاحب الدار ، وأما منطق تهشيم الباب ، فإنه لن يعطينا القوة بالدخول ، بل إنه يحرمنا حتى إذا دخلنا أن نستطيع إحداث التحويل الإدراكي المطلوب فى عقول الأبناء " (١)

" إن كل إنسان يدرك العالم من حوله بطريقته الخاصة فيضع له خارطة فى ذهنه ، ويرسم له حدودًا تختلف عن الحدود التى يرسمها غيره .. والعالم فى أذهاننا هو غير العالم الذى نعيش فيه ، لأن الذى فى أذهاننا عالم محدود ، مبتسر ، ولكننا مقتنعون تمامًا بأن العالم هو ما نراه ونسمعه ونحس به ، وليس شيئًا آخر " (٢)

وكذلك هم أبناؤنا .. لا يرون الحقائق القائمة حولهم على ما هى عليه ، أو بعيونهم المجردة ، وإنما يرونها عبر نظارات وأغشية من فهمهم واهتماماتهم ، ولذلك فإن بداية التفاهم معهم هو التعرف على هذه الاهتمامات ، والتفحص الدقيق لتلك المفاهيم ..

ففى بعض الأحيان ، يبدو تصرف طفل ما على أنه خطأ كبير فى حين أنه قد يكون محاولة من الطفل لتقديم مساعدة لوالديه .

خذ مثالًا :

وجدت الأم طفلتها الصغيرة (أربع سنوات) تقطر ملابسها جميعًا ماء ،

---

(١) صناعة النجاح – د.طارق السويدان ، أ.فيصل باشراحيل – ص ١٦٤ بتصرف يسير .

(٢) آفاق بلا حدود – محمد التكريتي – ص ١٤ .

فعاقبتها على تصرفها ، لكنها عرفت بعد ذلك أن ما كانت تريده الطفلة هو ملء دلو من الماء وتنظيف باب المنزل كما رأت أمها تفعل ذلك ، فوقعت وانسكب الماء ونزل بها العقاب ، لا شك أنه بدا للطفلة أنها عوقبت جزاء لها على محاولتها تقديم العون وبذل المساعدة .

مثال آخر :

ربما حاول الطفل مصاحبة والده إلى المسجد ، وربما أحدث فى المسجد من الحركة والضوضاء ما يزعج المصلين مما يدفع الوالد أحيانًا إلى تبكيت الطفل وتعنيفه ، ويحضرني هنا ذلك الموقف التربوى الرائع لرسولنا ﷺ الذى يروى عن عبد الله بن شداد عن أبيه رضي الله عنهما قال :" خرج علينا رسول الله ﷺ فى إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسنًا أو حسينًا فتقدم رسول الله ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهراني سجدة أطالها قال أبى فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد فرجعت إلى سجودي ، فلما قضى رســول الله ﷺ الصلاة قال الناس : يا رسول الله إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك ، قال : كل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته " (رواه النسائي برقم ١٤١١) [١] .

إننا قد نرى أن الوقت والمكان ليسا مناسبين لتصرف الطفل .. ولكن النبي ﷺ لا يرى خطأ فى ذلك ، لأنه ﷺ يفكر بعقل هذا الصغير وما دفعه لسلوكه إلا الرغبة فى اللعب مع جده ، ومن ثم لم يزجره ، وإنما على العكس من ذلك تغاضى عن استمتاعه بلهوه الطفولي فى هذه الشعيرة العظيمة ، الصلاة ..!!

إننا " عندما نربي أطفالنا » نلمس فى تصرفاتهم الكثير من الأخطاء

---

(١) د/ عادل رشاد غنيم – ص ١٨ ، ١٩ .

والممارسات غير اللائقة ، الأمر الذى يجعلنا فى عصبية دائمة ، فتراانا على الدوام ننتقد هذه السلوكيات ، وإذا وقفنا مع أنفسنا وقفة موضوعية ، نجد أن هذه البراءة فى عيون الأطفال لها ما يبررها ، فالتماس العذر لهم وحسن الظن بهم لهو التصرف الأفضل والأسلوب الأمثل فى تربيتهم وتوجيههم " [١] .. كما أن محاولة تعريفهم على العالم من حولهم .. العالم على حقيقته ، وليس كما يتوهمون ..هو أمر فى غاية الأهمية ..كيف ؟

" إن العالم أمام الابن معظمه لم يكتشفه بعد .. عالم ملىء بالعديد مما يجهله .. عالم ظلام لم يبدده نور المعرفة .

والإنسان بطبعه قد يحتمل الظلام بعض الوقت ، لكنه يشتاق إلى النور .. والإنسان بطبعه يكره القلق والحيرة والاضطراب ، ويتطلع إلى الإستقرار والطمأنينة ، وحالة الجهل تمثل خطرًا على حياته ، فيظل قلقًا حائرًا مضطربًا ، فإذا " عرف " تيقن ، وإذا تيقن ، استطاع أن يتصرف ويسلك ، لأننا لا نستطيع السلوك إلا بناء على يقين ..

خذ مثالًا ..

لو أنك فى ضيافة أحد الأصدقاء ، وسألك عما تحب أن تشرب ، وأجبت " قهوة " ونسيت أن تذكر نوعها ، وكمية السكر بها .. وجاءت القهوة ، ستكون فى حالة " شك " من طعمها ، ولذلك لن تقبل على شربها إلا بعد أن تسأل عن ذلك ، فالشك حالة جهل ، وهو يعنى التوقف عن السلوك ، فإذا أجابك المضيف بأن حالة القهوة هو ما تحب ، أقبلت على الشرب ، لأنك تكون قد وصلت إلى " يقين " فيسهل عليك التصرف والسلوك ..

(١) كيف تنتقد الآخرين ، وتستولى على محبتهم واحترامهم - أكرم عثمان - ص ٧١ بتصرف يسير .

هكذا المعرفة دائمًا أساس السلوك ، وكلما " عرفنا " تفتحت أمامنا سبل السلوك والتصرف ، وكلما جهلنا ، انسدت أمامنا هذه السبل ..

وكلما طرح الابن سؤالًا ، فمعنى ذلك أنه أمام حالة مجهولة اكتشف حاجته إلى معرفتها ليحسن التفكير والسلوك إزاءها ، وبالتالي كلما أجبنا على سؤاله أو أرشدناه إلى كيفية العثور على الإجابة ، ساعدنا بذلك على إضافة " معرفة " إليه ، توسع من أفقه وتفتح له مجالًا جديدًا يتصرف بوعي تجاهه .."(١)

.... إن منطقة التساؤل عند الأبناء واسعة ، لأنهم يريدون اكتشاف العالم من حولهم .. وكلما اتسعت هذه المنطقة عند الابن كلما كان سبيلنا إلى تكوين شخصيته أوسع .. وتعويده على أن يكون واثقًا من نفسه ، يعتمد على عقله .. ويبتعد عن أن يكون مقلدًا " إمعة " ..

إن طرح الأبناء لأسئلتهم الكثيرة يعني أن لديهم روحًا نقدية لا تسلم بكل ما ترى وتسمع ، ولا تصدق كل ما يقال لها .. بل تبحث عن البرهان والدليل والحجة، لتبني أفكارها وآرائها على يقين واقتناع .

ونحن كآباء لا بد لنا أن نجيبهم إجابات نافعة ، بل ومثيرة لمزيد من الأسئلة ، وليس إجابات مسكتة وفقط ..!!

لأن الإجابات المسكتة لا تنتج إلا جيلًا من الإمعات الذين يتعرضون يوميًا لعشرات المعلومات التى تغمرهم عبر وسائل الإعلام ، والكتب المختلفة ، فيتلقون كل هذا الذى يلقى إليهم بتسليم غريب ، مفترضين أنه " حقيقة " دون أن يتوقف أحدهم – ولو مرة واحدة – ليسأل : هل هذا صحيح ؟

وحتى حين يسأل الابن سؤالًا غريبًا ، فيجب ألا نقابل السؤال بالإستهجان والاستغراب ، وإنما نحاول تهذيب السؤال ، وإعادة صياغته ، واستخراج ما فيه من

(١) تربية الأبناء علم له أصول – د . سعيد إسماعيل علي – ص ٥٦ ، ٥٧ .

نقاط إيجابية ..فتقول مثلًا : أشعر أنك تقصد بسؤالك كذا وكذا .. جميل أن يسأل الإنسان عما يجهل .. سؤال طيب .. أوافقك على جزئية كذا وكذا .. كل ذلك مع الإشادة بطريقته فى التفكير ..

"فقد كان رسول الله ﷺ يبدأ من سأله بمثل أن يقول : " قد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله له " هكذا ، وكأنه ﷺ يقول : سؤالك فى غاية الأهمية .. ثم يجيبه ﷺ: " تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان ، وتحج البيت " .. ثم يتجه إلى أسلوب الإثارة والتشويق ليكون الخبر أوقع فى نفسه وأبلغ : " ألا أدلك على أبواب الخير عامة ؟ " ثم يقول : "الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل ، ثم تلا قوله تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) [السجدة ١٦] .. ثم قال : " ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ " .. وفى هذا أيضًا تشويق آخر للشىء الذى يعد ذروة الأمر بعد الذى سمعت ، وهل هناك أعلى مما سمعت ؟ وهنا قد وضع الرسول ﷺ فى رأس المتلقى الخلفية التى تجعله مؤهلًا لسماع المهم . قال : بلى يا رسول الله . قال ﷺ: " رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد " .. ثم قال ﷺ: " ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ " ..يعني بعد كل ما سمعت أيضًا هناك ما هو أهم . قال : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه وقال : أمسك عليك هذا " ... رواه الترمذي [(١)].

وبديهي أن نراعي – كآباء ومربين – المستوى العقلي ، بل والنفسي لأبنائنا حين نجيبهم على ما يسألون عنه .. فهذه هي طريقة رسولنا ﷺ فى إجاباته على من يسأله .." فهذا أعرابي يمسك بخطام الناقة التى يركبها النبي ﷺ ويقول : يا محمد ، قل لي فى الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك . فيقول له رسول الله ﷺ: " قل

(١) راجع إن شئت الطب النفسي والدعوة إلى الله – د.عبدالله الخاطر – ص ٤٧

آمنت بالله ثم استقم .. دع الناقة " رواه مسلم .

فدل السؤال على أن أسلوب التفكير عند السائل هو التفكير الكلي ، فاتفقت الإجابة مع الأسلوب .

بينما يأتي سائل آخر ، فيقول للرسول ﷺ: يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ قال : " الصلاة على وقتها " قيل : ثم أي ؟ قال : " بر الوالدين " قيل : ثم أي ؟ قال: " الجهاد فى سبيل الله " فيقول السائل : ولو استزدته لزادني .. (متفق عليه).

وهذا دليل على تجاوب رسول الله ﷺ مع السائل فى أسلوب تفكيره التحليلي والمتأني .

ويأتي أعرابي آخر ، تقول الصحابة فيه : نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول.. هذه هي طبيعة السائل .

فيقول : يا محمد ..

- ماذا فرض الله علي فى اليوم والليلة ؟
- قال : " خمس صلوات إلا أن تطوع .
- قال : ماذا فرض الله علي فى العام ؟
- قال : " صيام شهر إلا أن تطوع .
- قال : ماذا فرض علي فى العمر ؟
- قال : " حج مرة إلا أن تطوع ..
- قال : والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص .
- قال : " أفلح إن صدق ، أو دخل الجنة إن صدق (متفق عليه)
- *وواضح من طبيعة السائل كما وصفتها الصحابة ، والأسلوب الذى سأل به .. عنصر السرعة ... وواضح كذلك تجاوب رسول الله ﷺ بسرعة الإجابة التى لاحقت كل أسئلته .*

بينما يأتي سائل آخر بغير الأساليب السابقة ليسأل النبي ﷺ.

فيقول : " أو يأتي الخير بالشر ؟ فسكت النبي ﷺ، قلنا يوحى إليه ، وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير ، ثم إنه مسح عن وجهه الرحضاء .

فقال : أين السائل آنفًا ؟ وخير هو " ثلاثًا " .. إن الخير لا يأتي إلا بالخير ، وإنه كما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم كلما أكلت ، حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت " (رواه البخاري)

.. ولعلنا هنا نلحظ عمق الإجابة بما يتفق مع عمق السؤال ، وخصوصًا عندما نحاول تفسير الإجابة .. ومضمونها أنه مثلما ترعى بقرتان " مما ينبت الربيع"، فرعت واحدة وأكلت بصورة خاطئة ، فحبطت ، وماتت .. ورعت الأخرى وأكلت بصورة صحيحة ، ثم " استقبلت عين الشمس ، فثلطت وبالت ثم رتعت " .

فإن هذا يعني أن مأخذ البقرة الأولى " لما ينبت الربيع " هو الذى قتلها .

ومأخذ البقرة الثانية " لما ينبت الربيع " هو الذى أفادها .

ولكن " مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم "

وعلى هذا كانت الإجابة : " إن الخير لا يأتي إلا بالخير " .. ولكن مأخذ الناس للخير بصورة خاطئة هو الذى ينشيء الشر . "[١]

" إن مخاطبة أبنائنا في حدود إمكاناتهم ومستواهم العقلي ، وعدم تكليفهم ما يغلبهم .. جانب عملي تطبيقي لحديث رسول الله ﷺ: " يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا " – متفق عليه / صحيح الجامع الصغير ص ١٣٤٤ .

ومن أهم المبادىء التربوية التى يجب أن تكون نصب أعيننا آباء ومربين مبدأ

---

(١) حكمة الدعوة – رفاعي سرور – ص ٧٥-٧٧.

" خاطبوا الناس على قدر عقولهم " ..

ولقد أشار الغزالي رحمه الله إلى ذلك المبدأ بقوله : " ويقتصر المعلم بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره .. اقتداء فى ذلك بسيد البشر ﷺ حيث قال : " نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم " وقال ﷺ: " ما أحد يحدّث قومًا بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم ، وعن علي رضي الله عنه قال : " حدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذّب الله ورسوله ؟! " [1].

إن لدى الانسان تطلعًا إلى الحقيقة ، وهذا التطلع يمكن أن يكون طريقًا ممهدة – إذا استثمر – لصناعة الإنسان الصالح ، عبر إرشاد متدرج يراعي قدرات ذلك الإنسان .. فكيف نصنع من أبنائنا أناسًا صالحين ؟

حين تتيقظ فطرتهم لوجود خالقها .. فتنطلق تسأل من الخالق ؟ من المدبر ؟ من وراء الأحداث الجارية فى الكون ؟ من منشيء الحياة وواهبها للأحياء وآخذها منها ؟

" حينها ، تكون فرصة ربانية يمكننا من خلالها تشكيل النفس ، وتطوير الشخصية ، ومن ثم إعادة تشكيل الإنسان المسلم العابد لله سبحانه ..

فحين يبدأ الطفل فى التساؤل .. السماء مدورة .. لماذا ؟

الشمس أكبر من القمر .. لماذا ؟

أين تذهب الشمس فى الليل ؟

أين يذهب القمر حين لا يكون موجودًا فى السماء ؟

أين آخر الأرض ؟

---

[1] ... رويش – ص ١٩٨ ، ١٩٩ بتصرف.

... أو يسأل : كيف جئت إلى هذا الوجود ؟

إلى مئات الأسئلة التى ليس لها إلا إجابة واحدة : الله هو الذى خلقها .. أو الله هو الذى جعلها هكذا ..

.. مهمة المربي هنا أن ينتهز الفرصة ويعرّف الطفل بإلهه الحق ، ويربط مشاعره به ، ويعلق قلبه بالتطلع إليه والخشية منه ..

ولا شك أننا ربما قلنا للطفل أشياء لا يستطيع تصورها ولا تخيلها ، ولكننا مع ذلك لا بد أن نلقيها فى خلده حتى يتم إدراكها فيما بعد ..

وذات يوم حين ينضج عقله وتتسع مداركه ، فسيعلم أن تصوره لله سبحانه وتعالى فى طفولته كان تصورًا ساذجًا وغير صحيح ، ولكن الأثر التربوي الذى ارتبط بفكرته عن الله فى طفولته سيبقى .. وسيتعمق ويرسخ .. ويقوم عليه بناء نفسي سليم . "[1]

كما أن " من الأساليب الناجحة فى إيصال الفكرة الصحيحة لدى أبنائنا ، سؤالهم ، فتلك هى الطريقة الأفضل لتعليمهم .. فبدل أن نعطي الابن الإجابة الصحيحة لما يريد ، نحاول طرح الأسئلة المناسبة عليه ، وهكذا بدل أن نعلمه بأنفسنا ، نترك المشكلة ذاتها تعلمه "[2] التمييز بين النافع والضار ، والخير والشر من خلال أسئلة من نوع : ما رأيك فى ... ؟ ، أيسرّك كذا .. ؟

ولنضرب على هذا مثالًا :

يذهب الابن مع أبيه إلى السوق ..

قال الأب : ما رأيك نشتري من هذه البقالة أم تلك ؟

فقال الابن : من هذه يا أبي ؟

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج ٢ – ص ١٦١–١٦٤ .

(٢) كيف تنتقد الآخرين وتستولى على محبتهم واحترامهم – أكرم عثمان – ص ٨٠ بتصرف .

قال الأب : لماذا ؟

قال الابن : لأن فيها شوكولاته كثيرة !!

قال الأب : لكنها تبيع أشياء محرّمة .. ما رأيك لو ذهبنا إلى تلك البقالة ، إن بها شوكولاته أكثر .. وهي لا تبيع أشياء محرمة ..

هنا .. يتعلم الابن أن معيار انتقاء الشراء من البقالات هو خلوها من المنكرات ..

وعلى هذا المنوال " ما رأيك في كذا " ثم نبيّن له المعيار .

كما يمكن استخدام التساؤل المباشر للابن : أيسرّك كذا .. ؟

خذ هذا المثال : قال الأصمعي : قلت لغلام حديث السن من أولاد العرب : أيسرك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحمق ؟ فقال : لا والله ، قلت : ولم ؟ قال: أخاف أن يجنى علي حمقي جناية تذهب مالي ويبقى علي حمقي ..

وهكذا .. من خلال إجابات الآباء عن أسئلة الأبناء .. ومن خلال دفعهم إلى التأمل فى الحياة والكون .. من خلال هذا وذاك ، يستخلص الأبناء العبر والدروس ، وتنشأ بداخلهم محبة الحقائق ، وتترسخ فى نفوسهم الأخلاق النافعة .

أخي المربي ..

إذا أردت الحصول على أفضل ما عند ابنك ، فعليك ان تتعرف إلى حاجاته الملحة ، فإذا كانت طريقتك مناسبة لحاجته فإنه يستجيب لكل ما تطلبه .. ولكي تكون طريقتك مناسبة لحاجته ، لا بد أن تنظر إلى الأشياء بمنظاره .. وتفكر بعقله، وتبحث عما يريد هو ، وليس ما تريد أنت ...

والقاعدة الإنسانية هنا : أن الإنسان لا يستطيع الحصول من الآخر على ما يريده حتى يساعده فى الحصول على ما يريد ..

خذ هذه القصة مثالًا :

" فى ذات يوم كان أب وابنه يحاولان إدخال حصان إلى الحظيرة ، لكنهما وقعا فى خطأ التفكير بما يريدان .. فكان الأب يدفع والابن يشد ، لكن الحصان ثبت أقدامه فى الأرض ورفض مغادرة المرعى !!! ورأت الخادمة هذا المشهد ففكرت كيف تقود الحصان ؟ فرأت أنه إنما يريد المرعى لما فيه من طعام ، فأخذت بعض الأعشاب ووضعتها فى فمه ، ومن ثم قادته إلى حيث تريد داخل الحظيرة " (١)

أخي المربي ..

حاول اكتشاف ما يريده ابنك .. ساعده فى الوصول إليه .. فيشعر بالسعادة والامتنان .. ومن ثم يجب أن يطيعك ويقبل أمرك .. واعلم أن النظرة الجادة إلى تفرد الابن هى من أكبر المحفزات للآباء والمربّين على الإبداع فى عملية التربية .. وأننا – كآباء – حين ننظر بمنظار الأبناء إلى ما يواجهنا من مشكلات ، نحاول تلبية إحتياجاتهم ورغباتهم ، وهذا بدوره يدفعنا إلى ابتكار أفكار جديدة لتلبية هذه الحاجات ..

إن ما نراه وفق رؤيتنا ، ربما يختلف عن رؤية أبنائنا ، والصورة التى نمتلكها فى أذهاننا عن العالم هى فى الغالب ليست نفس الصورة التى تدور بخلدهم !!

ولا بد أن نعلم أن كل مرحلة من مراحل عمر أبنائنا لها معطياتها واحتياجاتاها من الفهم والادراك ، والقدرة على التعامل مع الحياة ..

إن محاولة تركيب عقولنا على رؤوس أولادنا رغبة فى " الإرتقاء " بهم .. سوف لا يجعلهم كبارًا .. بل إن كثرة شدهم إلى " هذا الأعلى " قد يقطّع أوصالهم ويوقف نموهم ..

---

(١) صناعة النجاح – د. طارق السويدان ، أ. فيصل باشراحيل – ص ٤٧ بتصرف

وهذه القصة الرمزية توضح ما قصدنا من هذه الكلمات ..

ذهب المريض الذى يعاني من متاعب فى النظر إلى إخصائي فحص البصر .. وبينما هو يشرح مرضه له ، رفع الإخصائي نظارته وأعطاها إياه وقال : " ضع هذه النظارة ، لقد استعملتها لمدة عشر سنوات وقد ساعدتني فعلًا ، إن لدي نظارة أخرى فى البيت ، وبإمكانك استخدام هذه !! فوضع المريض النظارة وأحس بازدياد المشكلة ، فصرخ من شدة الألم ، فاستغرب الطبيب ما الخطأ فيها ! إنها تعمل معى وبشكل واضح ورائع ، فقال للمريض : حاول مرة أخرى ، فصرخ المريض قائلًا : لا أريد هذه النظارة ، عندها صرخ الدكتور: يا ناكر الجميل ، بعد كل ما فعلته لمساعدتك ..!!"[1]

هذا الموقف قد يكون مضحكًا .. نعم .. ولكن ألسنا نطبق ذلك فى كثير من الأحيان مع أبنائنا ، فنصف لهم العلاج لمشاكلهم دون أن نحاول معرفة كنه المشكلة، بل ونجبرهم على رؤى معينة لنا فى مشاكلهم دون شعور بهم وبتفردهم من حيث المشكلة والحل ..

إننا لن نشعر بأبنائنا حتى نضع أنفسنا مكانهم ، ونفكر بعقولهم .. وكما يقول المثل الصيني : لن تفهم الذى أمامك حتى تمشى فى حذائه ألف خطوة "[2]

أخى المربي ..

دع ابنك يعيش حياته وعقله وطاقته ، لا حياتك أنت ، مع متابعته حتى لا يقع فى انحراف ، أو خطر ، عندها يكون دورك كأب هو الحب والتوجيه مع إعطاء مهارات الحياة ..

تعلّم أن ترى الأمور بمنظار أبنائك ، وفكر بصدق فيما يريدون ، لا ما تريد أنت ! واذكر دائمًا تلك النصيحة التربوية «فكّر بعقله» !!

(١) المصدر السابق - ص ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق - ص ١٣٤ .

• رفقًا بضعفه الإنساني :

من أسس التعامل مع النفس الإنسانية "مراعاة الضعف الإنسانى العام" .

ولعل إيقاف الحدود فى بلاد الكفر أثناء الحروب دليل واضح فى هذا ، لأن الإنسان بضعفه قد تسول له نفسه الهروب من حد من الحدود الواجبة عليه إلى الكافرين واللجوء إليهم ، وفى ذلك فتنة شديدة عليه .

ويوضح لنا رسول الله ﷺ حدود المراعاة المقصودة فيقول مثلًا :

" ارحموا عزيز قوم ذل " ... ذلك أن الذى يعيش فى عز طول عمره يصعب عليه نفسيًا أن ينقلب إلى الحالة المذلة فعندئذ يتطلب الأمر هنا مراعاة له فى حالته ..

" لقد غضب النبي ﷺ مما فعل صاحبه الجليل (معاذ) رضي الله عنه ، حين صلى بالناس فأطال حتى شكاه أحدهم إلى النبي ﷺ فقال له : " يا معاذ أفتان أنت؟! .. أو أفاتن أنت ؟ ثلاث مرات "

لأن كل إنسان له طاقة محدودة ، وهو يسأم مما هو شاق عليه فيقع فى التفريط، وقد وجهنا رسولنا ﷺ فى ذلك بقوله : " خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملّوا ... وإن أحب الأعمال إلى الله أدومه وإن قل " (١)

إننا عندما نحمّل أبناءنا فوق طاقتهم نفقدهم أى اتزان ، ونوقعهم فى الأخطاء ..

و الطريقة الأفضل أن نكلفهم ما يطيقون ، فينجحون فى إنجازه ، فتتولد لديهم الثقة فى النفس ، ويندفعون إلى مزيد من الإنجاز والعمل .. ونحاول فى كل ذلك أن نتلمس المرحلة العمرية التى يمرون بها ، فلكل مرحلة مواصفات يجب مراعاتها وعدم إغفال أي منها ، فالأطفال " لا يولدون وعندهم معرفة بآداب

---

(١) كيف تنتقد الآخرين ، وتستولي على محبتهم واحترامهم – أكرم عثمان – ص ٩٥ بتصرف يسير .

المجتمع ، بل يكتسبون تلك الآداب بطريقة بطيئة مؤلمة . وعندما يجاهد الطفل ليتعلم كيف يعيش فى دنيا الكبار ، فإنه من اللازم أن يقع فى بعض الأخطاء ، ولا يمكنه إصلاح ما بنفسه ، لأن تعلم ما يطالبه به المجتمع على العموم وما يطالبه به والده على الخصوص ، عمل شاق عليه " [٢] .. و الآباء والأمهات الذين يحاولون تربية أبنائهم بلا هدى ومعرفة ، و يظنون أن من التربية حرمان الأطفال من طفولتهم وحاجاتهم ، ولا يدركون مراحل نموهم ، سوف يواجهون انتكاسات خطيرة فى تربية أولادهم ..

إن لكل عمر حاجاته ومطالبه واهتماماته ..!!

وهذه هي طريقة نبينا ﷺ.. فقد حدث أن جاء صحابي ومعه صبية صغيرة فجعلت الصبية تلعب مع رسول الله ﷺ ﷺ فزجرها أبوها ، فقال له رسول الله ﷺ: دعها . وأصل الرواية فى صحيح البخاري : " عن أم خالد بنت خالد بن سعيد، قالت : أتيت رسول الله ﷺ مع أبي وعلي قميص أصفر ، قال رسول الله ﷺ: سنه سنه ، قال عبد الله وهى بالحبشية حسنة ، قالت : فذهبت ألعب بخاتم النبوة فزبرني أبي فقال رسول الله ﷺ: دعها ، ثم قال رسول الله ﷺ: أبلي وأخلقي ، ثم أبلي وأخلقي ، ثم أبلي وأخلقي . قال عبد الله : فبقيت حتى ذكر " أى دعا لها بطول العمر فعمرت طويلًا " . رواه البخارى رقم ٢٩٠٦ .

فالنبي ﷺ هنا يراعي ميل الأطفال إلى الاستمتاع باللحظة الحاضرة والانغماس فيها بالكلية .

وهذا هو واجبنا إذا رأينا البراءة فى سلوك أبنائنا ، أن يزيد صبرنا ورفقنا بهم..

وقد واجهت أنا مثل ذلك حين كنت أقوم بتأليف هذا الكتاب ، فقد كان "

(٢) سياسات تربوية خاطئة – محمد ديماس – ص ٣١ .

عبد الرحمن " ابني الأصغر يدخل علي فيقطع عليّ تسلسل أفكارى .. ولكن حين كنت أرى البراءة فى هذا السلوك الطفولى ؛ كان هذا يساعدنى على الصبر والنظر إلى سلوكه على أنه لون من ألوان التعبير عن الحب وبالتالى كنت أكثر صبرًا ورفقًا .

إن المعرفة الكاملة بنفسية الابن وخصاله تدفعنا إلى الصفح عنه والتماس العذر له ، وفيما يروى عن عمر : " أعقل الناس أعذرهم للناس "

وكما يجب الحرص أن يتناسب ما نطلبه من أبنائنا مع قدراتهم واهتماماتهم ، لا بد أيضًا أن يتناسب مع المرحلة النفسية التى يمرون بها ، حتى نضمن تجاوبهم معنا، والقيام بما نكلفهم من أعمال ..

ففى مرحلة المراهقة ـ مثلًا ـ يسعى الأبناء إلى لفت النظر ، وكأنهم يقولون " نحن هنا" .. فتكون وسيلة مواجهة المرحلة هى " التقبل " والاستفادة منها بدفع الابن إلى الاستقلال الفكرى ..

وكلنا يذكر أن هذه المرحلة هى التى استقل فيها الشافعي ؛ فكان صاحب فتوى فى سن السادسة عشر .. واستقل فيها الطفيل بن عمرو الدوسي حينما أزاح عن أذنه القطن ، وسمع كلام رسول الله فوجده حسنًا ، فأسلم .

وحين تقوم الأم – مثلًا – " بانتقاد تصرفات ابنتها التى بلغت الخامسة عشر سنة ، ينبغي عليها أن لا تغفل عن أنها تمرّ فى مرحلة حرجة تسمى المراهقة ، ومن أهم مزايا هذا السن الاتجاه نحو الرغبة فى الإستقلالية ، وهو ما يسمى بـ "الفطام النفسي " لأنه يتبين فيه انفراد ذات المراهق عن سواها من سائر أفراد أسرته، فابنتك لم تعد طفلة تقوديها كما يحلو لك .. " [1] والواجب أن تعامل بالثقة والتقدير والتقبل ، فإن ذلك هو السبيل الأقرب لأن يختفي من قاموس المربي عبارات من مثل : فقدت أعصابي ! هذا الولد (أو هذه البنت) يفقدني صوابي ! لأن الغضب

(١) كيف تنتقد الآخرين ، وتستولي على محبتهم واحترامهم – أكرم عثمان – ص ٥٠ .

وفقد الأعصاب إنما يأتي من المشاعر السلبية من عدم الثقة فى الابن أو اعتقاد عدم أهليته أو عناده لما نريد .. كل ذلك يفسد العلاقة بين الآباء والأبناء ..

خذ مثلًا :

الابن يستعمل الهاتف لمدة طويلة .. الأب يغضب بشدة ويصرخ .. يغضب الابن أيضًا .. هذا الغضب المتبادل يفسد علاقة الود بينهما .. لا تعاون من الابن مع أبيه فى مناقشة الخطأ ومحاولة الخروج منه وتصويبه ..

والنصيحة التربوية هنا :

كن أبًا حليمًا تنشىء ابنًا أكثر حلمًا .. لا تفقد هدوءك أبدًا ، وتكلم بنبرة لينة ودودة ، واعلم أن هذه النبرة اللينة الهادئة لا تهدىء الابن فحسب ، بل تحمي الأب من الوقوع فى براثن الغضب .. وهكذا حين تجد نفسك فى موقف متوتر.. إحرص على هدوئك واخفض صوتك عن عمد .. [1] .. وكن أبًا رحيمًا لا يهجر الحب قلبه ، كلمته لينة ، مسامح يقبل أعذار أبنائه ، صاحب قلب معطاء ومحب بلا شروط ، رفيق بضعف أبنائه ، متفقد للنبض الداخلي لهم ، ، يشعر بهم ويحس آلامهم ، يفرغ وقته لأجلهم ، يتصل بهم ويتفقد همومهم ومشاكلهم ، شعاره : ﴿وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾ [النمل:٢٠] .

فإذا كان الابن مهمومًا أو واقعًا تحت ضغط نفسي ، عرفنا ذلك من خلال الملاحظة والتفقد ، عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ ونحن شببة متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين يومًا وليلة ، وكان رسول ﷺ رحيمًا رفيقًا ، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا – أو قد اشتقنا – ، سألنا عمن تركنا بعدنا ، فأخبرناه ، قال : " ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم .. "أخرجه البخاري برقم ٦٣١ ، ومسلم برقم ٦٧٤ . [2]

---

(١) مستفاد من " للنجاح مع الناس " – جيمس فان فليت – ص ٢٠٩

.فيصل باشراحيل – ١٣٠ بتصرف .

وهكذا.. " تبقى حال الطفل ماثلة أمام المربي حين تربيته ، كما تتجلى حال المريض أمام الطبيب حين معالجته ، يراعي حالته ومقدرته ومزاجه فيكون أثر التربية أتم وأعظم ثمرة " .. يقول أبو عمر يوسف بن عبد البرالقرطبي في كتابه جامع بيان العلم وفضله : " و إذا كان الابن صغيرًا ، فيجب أن يراعي الأب والمربي فهمه وقدراته فلا يطالبه بما هو خارج نطاق قدرته العقلية .

ولا يحاول أن يحمل ضعف الابن على قوته فيضره ويملّه .. وإذا نظر في إهتمامات الابن ، وأراد أن يحكم عليها حكمًا صحيحًا ، فليتذكّر نفسه حين كان فى نفس مرحلته العمرية ..

إن أبناءنا لا يريدون الحياة إلا أزهارًا ، ولا يطيقون العمر إلا ربيعًا ، فهم السهولة قبل أن تتعقد .. يثيرون السخط بالضجيج والحركة ، فيكونون على خلاف مع الآباء بسبب من أخطائهم التى يعود أكثرها إلى ضعفهم الإنساني الفطري .

تلك الأخطاء التى تحتاج من الآباء إلى رفق وحلم زين العابدين الذى كان غلامه يصب له لماء بإبريق مصنوع من خزف، فوقع الإبريق على رجل زين العابدين فانكسر، وجرحت رجله فقال الغلام على الفور: يا سيدي يقول الله تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ﴾، فقال زين العابدين: لقد كظمت غيظي .. ويقول : ﴿والعافين عن الناس﴾، فقال: لقد عفوت عنك .. ويقول: ﴿والله يحب المحسنين﴾.. فقال زين العابدين: أنت حرّ لوجه الله..!!

أخي المربي..

إن أبناءنا فى حاجة إلى أب رحيم ودود يسعهم ، ويحلم عليهم ، لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم .. فى حاجة إلى أب كريم يعطيهم ويحمل همومهم ، ويجدون عنده دائمًا الرعاية والعطف والسماحة والود والرضا ... وهكذا يجب أن يكون المربى ، يعطى أبناءه كل ما ملكت يداه من نفع مادي أو معنوى فى سماحة

ندية ، ويسعهم بحلمه وبره ووده الكريم ، .. ويصبر على أخطاء ضعفهم الإنساني حتى تضمحل هذه الأخطاء ، فتموت ذاتيًا !!

• **استمتع بإبــداعه:**

مما لا شك فيه أن كل مربٍ – أبًا وأمًا – يحب لأبنائه الإبداع والتفوق والتميّز.. ولكن المحبة شيء والإرادة شيء آخر ، فالإرادة تحتاج إلى معرفة كاشفة وبصيرة نافذة ، وقدرة واعية ، لتربية الإبداع والتميّز ، وتعزيز *المواهب وترشيدها .. فما هي الظروف الواجب توفرها لينمو الإبداع؟*

إن المبدعين يمتازون بأنهم لا يقبلون كل ما يسمعونه على علاّته ، وإنما يحاولون تقييمه والبحث فى تناقضاته وثغراته ..

ولذلك فإننا إن أردنا أن ينمو الإبداع عند أبنائنا ، فلا بد أن نحقق لهم أمرين " الأمن ، والحرّية " .. !!

ذلك أن " الخائف ينكمش بدل أن يبدع ، ولذا فإن استخدام الأبوين للتخويف والزجر يحبط القوى المبدعة للابن ، ويصبح مآلها إلى الضمور ، ... كما أن إهانته وتوبيخه ، وتيئيسه من التفوق ، يؤدي إلى النتيجة نفسها ؛ حيث ينصرف اهتمام الابن عن إبصار كل نقاط التفوق لديه ، لينشغل بكيفية حماية نفسه من الإهانة !!

.. وأمّا الحرية ، فهي شرط مهم للإبداع ، لأن كثرة القيود المفروضة على الابن تجعله متوجسًا من كل فعل وكل كلمة ..[(١)]

" إن بعض الآباء يكون فى غاية القسوة ، ويحاول السيطرة على أبنائه فى كل لحظة من لحظات حياتهم ، وكأنه يرتدي جلد الابن ، فيفرغ شخصيته ، فيصبح هذا

---

(١) بناء الأجيال – د/ عبد الكريم بكار – ص ٨١ ، ٨٢ .

الابن بلا تميّز ..

إن السيطرة ضرورية بلا جدال ، ولكن بشرط أن نترك للابن فرصة جيدة لتكون له شخصيته الخاصة به لئلا يصبح شخصًا متسلطًا فى الكبر ..

إن مساحة السيطرة الأبوية يجب أن تكون ضيقة ومتميزة حتى تتيح للأبناء فرصة تكوين شخصية خاصة وذوق راق وإبداع فعال .." (١)

ربما قال بعض الآباء : ألسنا مسؤولين عن أبنائنا ، وعن توجيههم إلى الطريق الأصوب للحياة؟

وأنا أقول .. نعم ، نحن مسؤولون عن أبنائنا ، ولكن مسؤوليتنا هذه لا تعني " أن نعمل ٢٤ ساعة لنطور سلوكهم ، وإنما علينا فقط أن نعلمهم السلوك الصحيح ، ونضع لهم الحدود الضرورية لكي لا يتجاوزونها فيسيئوا إلى أنفسهم وإلينا ، لا أن نحول حياتنا معهم إلى محاضرات عليهم الإصغاء إليها وتنفيذها ، لأنهم سيتحولون بذلك إلى آلات مبرمجة ، لا كائنات مستقلة لها قدرة على التفكير والإبداع .. واتخاذ قراراتها بنفسها ، وتحمل نتائج هذه القرارات ، إذ لا تتيح أكثر محاضرات الآباء للأبناء المجال للحوار بينهم ، وبين أبنائهم ، لأنها تكون على شكل أوامر تسير فى اتجاه واحد فقط ، ومهمة الأبناء أن يطيعوا دون أن يناقشوا ، وهذا ما يدفعهم إلى أن يتظاهروا بالصمم أو يستعدوا لمواجهتنا بتحد واضح لما نسببه من استفزاز يومي لهم .. وفى النهاية سنجد أنفسنا نقوم عنهم بأعمالهم بدل أن نعلمهم كيف يعتمدون على أنفسهم للقيام بها " (٢).

إن واجبنا نحو أبنائنا أن نؤكد لهم على حريتهم فى اختيار ما يريدون ، وتقرير ما يفعلون ، والاستعانة فى كل ذلك بالله سبحانه أن يعلمّهم ويفهمّهم كما علّم

(١) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د. سبوك – ص ١٥٥

(٢) سياسات تربوية خاطئة – محمد دياس – ص ٨٤ .

إبراهيم وفهم سليمان .. [1] وأن ندرك " أنها حرب خاسرة أن نحاول أن يكون الابن نسخة مكرورة من غيره .. إنه هو هو وليس غيره ..!!

إننا بمحاولتنا هذه نقتل إبداعه ، ونفقده أقوى حافز وأقوى سلاح يملكه فى معركة الحياة " سلاح التفرد " ذلك السلاح الذى أكد على قانونه رسولنا الكريم ﷺ حين قال : " كل ميسر لما خلق له " أخرجه البخاري برقم ٤٩٤٩ ومسلم برقم ٢٦٤٧ ... [2] فكل ابن مبدع فى جانب ، ومهمتنا هى اكتشاف مجالات إبداعه، ودفعه فى اتجاه تميزه بوضوح فى الهدف ووضوح فى الطريق الموصل إلى هذا الهدف ، وصبر على مواصلة السير إلى الهدف بتوكل على الله ورضى وتفاؤل بالتوفيق ..

إن الآباء والمربين حين يتمكنون من اكتشاف مجالات الإبداع فى أبنائهم يملكون القدرة على إيقاف اندفاع الأبناء نحو تعلم " ما لا يناسبهم أو العمل فيها لا يعود عليهم بالنفع والخير . ويذكرون فى هذا السياق ، أن مالك بن أنس صاحب المذهب ، قال لأمه حين كان صبيًا : أحب أن آتي أحد المغنين ، فأتعلم الغناء . فقالت له أمه المرأة الصالحة : يا بني إن الناس لا يستحسنون الغناء إذا خرج من لحية وشارب " أى لا يستحسنونه من الرجال " . ولكن اطلب العلم بالدين . وحين هداه الله لذلك جاءت فألبسته شيئًا مما يلبسه طلاب العلم فى تلك الأيام ، ووضعت على رأسه عمامة ، وقالت له : اذهب فاطلب العلم الآن . وكانت تقول له: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه . وقد نفع الله تعالى مالكًا بتوجيه أمه حتى صار أحد أئمة الدين وواحدًا من كبار أعلام المسلمين .

إن توجيه الطفل نحو ما يجب أن يتعلمه ويتقنه قد يكلف المال الذي قد

---

(١) كان ابن تيمية رحمه الله يخرج إلى البرارى ويضع جبهته على التراب ساجدًا متضرعًا لله سبحانه «اللهم يا معلِّم إبراهيم علِّمنى ، ويا مفهِّم سليمان فهِّمنى» .

...ان ، أ.فيصل باشراحيل – ص ١٥٩ .

لا يتوفر لدى الأسرة بسهولة ؛ ولا بد آنذاك من التضحية والتحمل وتدبر الأمر فى سبيل أن يتعلم الولد ما يناسبه ويلائمه .

وقد أخرج الإمام أحمد بسنده عن وكيع قال : قالت أم سفيان الثوري (المحدث الفقيه المشهور) له حين كان صغيرًا : " يا بني اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي " فكانت – رحمها الله – تعمل فى الغزل ، وتقدم له ما يتطلبه تفرغه للعلم"[1].

إن " من الأمور التى يجب أن يدركها المربون جيدًا ، وأن يهتموا بها ، ويوجهوا نظرهم إليها .. معرفة ما يميل إليه الولد من صنائع ، وما يناسبه من أعمال، وما ينشده فى الحياة من آمال وأهداف ..

ولا شك أن الأولاد يختلفون فيما بينهم أمزجة وذكاء وطاقة واتزانًا .. والمربي الحكيم أو الأب الحصيف هو الذى يضع الولد فى المكان المناسب الذى يتفق مع ميوله ، وفى البيئة التى يصلح أن يكون فيها .

... وهذا هو ما أمرنا به رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم وأبوداود :

" أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم " ..

.... والمربي لن يعدم وسيلة فى التعرف على نفسية الولد ، وما يميل إليه من دراسة أو صناعة ..

فإذا علم ذلك ساعده أن يشق طريقه فى الحياة بما يتلاءم مع مصلحته ، وما يتناسب مع رغبته . . .

وعلى المربي أن لا يحول بين الولد وبين الرغبة التى ينشدها فى الحياة إذا كان فى هذه الرغبة مصلحة تعود إليه ، وفائدة يرجوها .. "[2] .

(١) دليل التربية الأسرية – د/ عبد الكريم بكار – ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) تربية الأولاد في الاسلام – عبدالله ناصح علوان – ص ٩٣١ – ٩٣٣ بتصرف يسير .

خذ مثالًا .. الدكتور / أحمد زويل (١)

هل تعرف أخي المربي ، ما هي العبارة التى كتبها والده على لافتة ، وعلّقها فى غرفته وهو طفل صغير ؟

إنها عبارة " الدكتور / أحمد زويل " .. لقد تفرّس فيه أبواه هذا الميل ، وحلما أن يحقق ذلك الحلم .. وبالفعل أصبح دكتورًا ، ثم أخذ جائزة الملك فيصل .. وبعدها جائزة نوبل فى الكيمياء عام ١٩٩٩ م ..

وتاريخنا الإسلامي حافل برعاية المبدعين والمتميزين ليس فقط من الوالدين، وإنما من العلماء والمجتمع ، فالإمام أبو حيان : محمد بن يوسف الغرناطي قال عنه الصفدي أنه كان يقبل على أذكياء الطلبة يعظمهم وينوه بقدراتهم، وكان هارون الرشيد يغدق الهبات لطلبة العلم المميزين حتى قال ابن المبارك: ما رأيت عالمًا ولا قارئًا في أيام الرسول أكثر من زمن الرشيد ..

وكان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان سنين ويستمع الفقه ويروى الحديث ويناظر وهو ابن إحدى عشر سنة.

وفي القرن السادس عشر قامت محاولات ناجحة في عهد الخلافة العثمانية لتجميع المميزين والنابهين حتى خصص وقف لهم سُمي بـ " وقف الأطفال الأذكياء " ..

والسؤال الذي يطرح نفسه على القارئ الكريم– سواء كان أبًا أو أمًا : ماذا علّقتم في غرفة أبنائكم الصغار؟!

ما هي الرؤية التي لديكم عن مستقبل أبنائكم؟! (٢) ..

---

(١) الحاصل على جائزة نوبل في الكيمياء

www.almutawa

بل ماذا أعددنا تربويًا من وسائل تساعد على إستقلالية أبنائنا فى التفكير والعمل؟

إن الكثيرين منا يفرضون على أبنائهم قسمًا معينًا فى الثانوية العامة .. قسم العلمي أو الأدبي .. أو ... أو .. إلخ

بل يفرضون على أبنائهم أقسامًا معينة فى الجامعات دون اعتبار لميولهم أو استعداداتهم وقدراتهم ..!!

وهم يظنون أن ما يصنعونه فى مصلحة الأبناء، وما علموا أن هذا الأسلوب فى التربية خطر على صحة الأبناء النفسية، وأن هذا الأسلوب فى التربية ينشىء أبناء لديهم ميل شديد للخضوع واتباع الآخرين .. لا يستطيعون أن يبدعوا أو أن يفكروا ..!! ليس لديهم قدرة على إبداء الرأى والمناقشة .. شخصياتهم قلقة خائفة دائمًا من السلطة، وتتسم بالخجل والحساسية الزائدة .. فاقدين للثقة بالنفس، وللقدرة على اتخاذ أية قرارات فى حياتهم ..!!

خذ مثالًا ..

هناك توجه عام فى المجتمع – مثلًا – يرى أن خيرة الأدمغة يجب أن تذهب إلى فروع الطب أو الهندسة .. فيفرض الأب على الابن التوجه إلى الطب لإتقانه، والتمكن من ناصيته .. ولا تكون هذه هي منطقة تميّز الابن !! ومن ثم تستهلك طاقاته فى دراسة علوم لا يحبها، دون أن يحصّل ما يحبه ويتفوق فيه من العلوم ..!!

ولسنا بالطبع نقلل من علم الطب، وإنما القصد أن المربي لا يهتم بما يريد الابن وما يتقن، وما يتميز فيه، بقدر اهتمامه بما هو صورة الابن فى المجتمع ؟!! بينما ما ينبغي أن نعتمد عليه هو ميول الابن، مع ملاحظة مدى قدرة الابن على متابعة السير في هذا التخصص، ويمكن أن يطلق على هذه الطريقة في المرحلة العُمرية الثالثة من أعمار الأبناء " طريقة الانتخاب الطبيعي "، وهي بعيدة كل

البعد عن التوجيه الذي نشاهده غالبًا في حياة أبنائنا وبناتنا اليوم ، ذلك التوجيه الذى يكلّف الابن معاكسة طباعه واتجاهاته ، والسير ضد ميوله وقدراته الذاتية ، وهذا الأمر فى الحقيقة لا يفلح فى تحقيق الغاية التى أكرهنا الابن على ركوب مسارها..!!

.. إن التجربة تدلنا على أن محاولة جعل الإنسان يتوحد مع بيئته ليصبح نموذجًا مكررًا عما هو سائد تحوله إلى إمّعه ، وتقتل روح المبادرة لديه ، كما أنها تفسد أخلاقه حين تهزم مشاعر الإستقلال والحرية لديه ..

إن الابن ليس آلة نديرها حسبما نشاء . إن له إبداعه الخاص في إدارة أموره الخاصة ، فلماذا نحرمه من لذة الإبداع ؟

إننا حين نتفهم هذا التفرّد نعرف ميزات الابن وعيوبه ، ونعرف فى ذات الوقت ميزاتنا وعيوبنا.. ثم نصنع من عيوبه وميزاتنا نسيجًا تربويًا يحميه من تلك العيوب .. ونصنع من مميزاته وعيوبنا نسيجًا يحميه من الضلال .

ولكي نصل إلى هذا المستوى التربوي ، لا بد لنا من أن نسلك أساليب تربوية حكيمة ، ونستخدم عبارات لخطاب أبنائنا توحي بإيماننا بقدراتهم ، وبتفرّدهم فى هذه القدرات .. " فبدلًا – مثلًا – من أن نجيب الأبناء بـ " نعم " التى نوافق بها على ما قرره الابن .. يمكننا أن نعبّر عن ذلك بصياغة تشجعهم على الإستقلال ، وإليك بعض الطرق لقول " نعم " :

- إذا أردت ذلك .
- إنه قرارك .
- هذا يرجع إليك بالفعل .
- إنه اختيارك أنت نفسك .

- مهما كان قرارك فأنا موافق .
- فهذه الصيغ تعطي ارتياحًا إضافيًا للابن لأخذ قراراته بنفسه " [(١)] .

أخي المربي ..

أيها الأب .. أنت تريد قيادة أبنائك .. لا تظن أن هذا هو طريق التربية الصحيحة .. إن طريقها الصحيح تهيئة الأجواء لقيادتهم وتغييرهم ، وأول هذه الأجواء أن تقود سفينة نفسك قيادة واعية ثابتة نابعة من فهم ما حولك لا من ردود أفعالهم

وتذكر دائمًا : ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم ، حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد:١١] .. فكيف تنظم حياة الآخرين وتقود سفينتهم ، بينما أنت لا تقدر على قيادة سفينتك ؟!! [(٢)] .

إن أبناءنا يتمتعون بمرونة ذهنية تماثل مرونتهم الحركية ، بينما يصيبنا نحن تصلبًا فكريًا يحاكي تصلبنا الحركي بتقدم السن .. وهذا التصلب الفكري قد يدفعنا إلى رفض كل جديد صالحًا كان أو طالحًا .. أو النظر إليهم على أنهم مجرّد امتدادات لنا ، أو على أنهم أشخاص يجب علينا الإعتناء بهم فحسب .. وهذه ليست نظرة صائبة .

إن أبناءنا يمكن أن يكونوا أكبر المعلمين لنا بصرف النظر عن سنهم ... فكيف نتعلم الصبر والحب غير المشروط إلا من خلالهم ؟

إن نظرتنا إلى أبنائنا على هذا النحو تجعلنا أقل غضبًا عند خطئهم ، ذلك أننا في كل تصرفاتهم نبحث عن الدرس الذي يمكن أن نتعلمه من هذه الحادثة وذلك التصرف ؟

---

(١) بين الآباء والأبناء – صبري الفضل – ص ٨٢

(٢) مستفاد من " صناعة النجاح – د.طارق السويدان ، أ.فيصل باشراحيل " ص ١٠٢ .

• **وبكلمــــــة ..**

إن التربية التى تلقيناها فى بيوتنا كانت تقوم على قاعدة " كن متفرجًا لا فاعلًا" .. والتربية التى تلقيناها فى مدارسنا وجامعاتنا كانت تعتمد أسلوب " كن حافظًا لا مفكرًا " .. والتربية التى نتلقاها اليوم من وسائل الإعلام هي " كن متأثرًا لا مؤثرًا " ..

ولا شك أن هذه التربية ليست هي التربية الملائمة بدليل الواقع الذي نعيشه اليوم، وسيقول الأبناء والأحفاد مثل قولنا إذا لم نسارع إلى تدبر أمورنا، وإصلاح ما لدينا من خلل في تربيتنا وعلاقاتنا وسلوكنا..

إننا اليوم أمام إختيارين لا ثالث لهما ..

إمّا أن نقبل على حديث أبنائنا مهما كان متناقضًا أو غير مسؤول ، فنأخذ به أحيانًا ، ونصحح ونوجهه أحيانًا أخرى ..

وإمّا أن نرفض حديث الأبناء ، لأنه يبدو غير ناضج وغير مسؤول ، فنحرم أنفسنا لذة الانتفاع بإبداع الأبناء .. ونحوّلهم فى ذات الوقت إلى مقلدين إمّعات..!!

فهل نختار الرشد والخير ، وتكون قاعدة تعاملنا مع كل أبنائنا " ابنك ليس أنت" ؟

❀❀❀

الفصـــل الثاني

إنه كائن متفرد

حين نتأمل أبناءنا ، نجد أن بينهم تباينًا فى القدرات ، وتفردًا فى الإستعدادات .. فيخطىء أكثرنا فى التعامل مع ذلك التباين ، و لا يعتد بهذا التفرد ، فيعامل كل الأبناء معاملة متماثلة!! ويرغمهم على مماثلة كل ما حولهم مما هو سائد فى مجتمعهم..!!

فتكون النتيجة التربوية .. جيلًا من المقلدين " الإمعات " الذين يتنازلون عن خصائصهم الفردية من أجل التجانس مع الآخرين ..

و نحمل كآباء ومربين إثم قتل روح المبادرة لدى أبنائنا ، بل وإفساد مشاعر الإستقلال والحرية لديهم ؟!

فمتى نتوب من خطأ التعامل مع أبنائنا كشريحة واحدة ، وندرك أن لكل ابن كيانه ، وقدراته ، ودرجة استعداده الخاصة به ؟!

• التفـرّد ســنة بشــرية :

تشكو الأم متعجبة من أن أحد أبنائها مجتهد فى دراسته ، بل ومتفوق على كل أقرانه فى المدرسة .. بينما أخوه فى غاية الإهمال والتدنى الدراسي ، بل هو لا يكلف نفسه عناء محاولة الإجتهاد لفهم دروسه واستذكارها .. !!

ويلقي بعض الآباء على أصدقائهم دروسًا ونصائح فى التربية مفادها أنه يجب عليهم إتباع نفس طريقتهم فى التعامل مع أبنائهم حتى يحصلوا على أبناء من نفس الطراز !! فهل " الطبيعة الإنسانية ذات صبغة مشتركة ، أم أن لكل إنسان طبيعته

المستقلة ؟ ..

لا شك أن شخصية الإنسان بالغة التفرد ، فهى لا تشبه فى أفعالها وصفاتها أى شخصية أخرى .." [1] و لا يوجد إثنان فى هذا العالم أطفالًا أو كبارًا وحتى بين الأخوة ..لا يوجد إثنان بنفس التماثل فى القدرات والاستعدادات والمواهب ..

وأبناؤنا ليسوا استثناء من ذلك ، فهم ليسوا سواسية فى طبيعتهم .. وعلينا إذا فهمنا هذه الحقيقة ألا نحاول صب كل الأخوة فى قالب واحد من حيث التعلم أو الوظيفة ..

لقد اقتضت " الحكمة الإلهية ألا يخلق الناس متشابهين كنسخ مكررة ، وإنما خلق الناس متفاوتين مختلفين فى كل شيء ، ولا يوجد اثنان متطابقين تمامًا حتى التوائم المتشابهة .

فثمة اختلاف ولا بد بين كل اثنين من البشر فى الصفات الجسمية، والخصائص النفسية، وحتى مع افتراض حدوث تشابه كامل فى الأجسام والأشكال ، فالنفوس وخصائص الشخصيات يستحيل أن تتطابق

" لقد خلق الله الناس مختلفي الطبائع والأمزجة لحكمة يريدها سبحانه ، لكي تتنوع الحياة البشرية وتثرى ، ولا يكون الناس نسخة واحدة مكرورة .. فالحياة البشرية متعددة الجوانب فسيحة الآفاق ؛ ولا بد أن تكون طبائع البشر متنوعة متعددة ليقوم المجموع البشري بمهمة الخلافة ، كل من موقعه وزاويته ، وكل بالجانب الأبرز فى كيانه. فهذا يصلح للسياسة ، وهذا يصلح للحرب وهذا يصلح للفكر ، وهذا يصلح للقول ، وهذا ذو طبيعة عملية وهذا ذو طبيعة نظرية .. وهكذا، وهكذا تتعدد الطبائع وتتعدد الوظائف فى مهمة الخلافة الشاملة الهائلة.." [2].

---

(١) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ٣١٦ .

(٢) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب – ج ٢ ص ٩٢ .

وهذا التفرّد هو ما أكده حديث رسول الله ﷺ : " إن الله خلق آدم من جميع الأرض فمنه السهل و الحزن و الأبيض و الأسود "

فمن هذا الحديث تثبت الفوارق الطبيعية بين الأفراد كما تثبت الجبلة الخاصة التى خلق عليها أي الإنسان.

ونحن نؤكد ذلك بناء على التصور الإسلامي للنفس البشرية .. ذلك التصور الذى ليست له علاقة بأى مدارس أو نظريات أو مصطلحات بشرية ، ولا يقارن بها ولا يقاس عليها ،لأنه يلتزم منهجًا إسلاميًا لا يعترف ولا يعتبر أى طرح تصورى عن النفس يأتى من خارجه ؛ لأنه المنهج الوحيد الذى يملك أصحابه إمكانية هذه الصياغة وشروط النجاح فيه .، فهو التصور القياسي لأنه منهج ربنا الذى يعلم النفس ويعلم عملها .. " ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير "

لذلك فإن على المربي الحاذق أن يراعي تلك الفروق الفردية بين أبنائه كما أوصى ابن مسكويه " وأنت تتأمل فى أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه ، وما يظهر فى بعضهم من القحة ، وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما نرى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة ، والحسد وضده ، ومن الأحوال المتفاوتة ، ما تعرف مراتب الإنسان فى قبول الأخلاق الفاضلة ، وتعلم معه أنهم ليسوا على مرتبة واحدة ، وأن فيهم المؤاتي والممتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخير والشرير ، والمتوسطين بين هذه الأطراف فى مراتب لا تحصى كثيرة"[(١)].

وهذا التصور فى التفهم لتفرّد الإنسان .. ومن ثم لتفرّد كل ابن من أبنائنا هو الطريق الأمثل لإخرج الفرد الحر المستقل التى تصدر أراؤه وأعماله عن اختيار وعلم لا عن اضطرار وتقليد ..، ومن الخطأ التربوي البين أن نحاول إنشاء أبنائنا

(١) سياسات تربوية خاطئة – محمد دياس – ص ١٠٦ ، ١٠٧ بتصرف .

على مثل طباعنا وأذواقنا ، ذلك أن هذا الأسلوب التربوي يسبب الندرة فى الرجال المستقلين إستقلالًا حقيقيًا .

كما أن " من الجدير بالذكر أن الانسجام لن يتحقق بيننا وبين أولادنا إلا إذا عاملناهم كأفراد مستقلين ذى كيانات منفصلة ، ولعل البعض يخطىء فى محاولته استدراج أبنائه فى بوتقته الخاصة ، وكأنهم نسخة ثانية عنه ، عندها لن ينال منهم إلا التمرد والعصيان وسوء المعاملة .. فالعناد يحدث عندما تتصادم إرادة المراهق الذى يودّ أن يستقل بنفسه ، ويبرهن أن له كيانا يجب احترامه ، وإرادة الأسرة التى لا تعترف بهذه الإستقلالية وتهمّش دوره !!

... وكما يقال : تناسي الحقوق يولّد العقوق .. "(١)

• هل تدرك مجال تفرّده ؟

" لن يتمكن المربي أن يستخدم الإقناع ، إلا إذا أدرك المدخل المناسب لهذا الأسلوب ، فلكل نمط من أنماط الشخصية مدخل ومفتاح ، فإن كان الابن يغلب عليه الطابع الوجداني ، فمخاطبة القلب أولى ، وإن كان أسلوبه منطقي ويغلب عليه التحليل والاستنباط والاستنتاج فمخاطبة العقل أجدر .. وكذلك حال المرء فى السعادة والسرور ، يختلف عن حاله فى الحزن والكآبة .. "(٢)

ومن هنا تعد معرفة النمط الإنساني للابن من أهم ما يعجّل بالانسجام والتوافق وإقامة جسور الثقة بين الآباء والأبناء .. كما أن معرفة الفوارق الشخصية من الأسس الهامة فى تصحيح أسلوب التعامل النفسي للأبناء ، " فمن الأبناء من يغلب على شخصيته الجانب الأدبي ، ومنهم من يغلب عليه الجانب المادي ..

---

(١) التميز فى فهم النفسيات – أكرم مصباح عثمان – ص ٧٦ .

(٢) [illegible] – ص ٩١

حتى إننا نجد الذى يغلب عليه الجانب الأدبي يرضى بأقل شيء مادي يوفر له حاجته الأدبيه ..

خذ مثالًا ..

" كان المسور بن مخرمة ..رجلًا ثريًا .. ولكن الغنائم وزعت ، ولم يكن حاضرًا ، فنساه الرسول ﷺ. حتى تذكّره بعد حين فخبأ له قميصًا . فعلم الرجل أن الغنائم قد وزعت .. ولم يبعث إليه أحد بنصيبه ، فجاء غاضبًا وهو ينادي : يا رسول الله ، فقال له الرسول : قبل أن يكلمه : خبأته لك .. خبأته لك . فعظم فى نفس الرجل أن يخبىء له بنفسه نصيبه ، حتى قال الرجل دون أن يأخذ القميص : رضيت ... رضيت ." (١)

ولأن الاختلاف يمثل القاعدة ، فإن مداخل التأثير فى الشخصيات تتعدد ، وما يصلح لطفل من أساليب التعامل – مع الاحتفاظ بالمبادىء العامة – قد لا يصلح مع الآخر .. ولا بد من مراعاة الفروق الفردية بين ابن و ابن ... فهناك ابن أحوج إلى الحنان والعطف ليتوازن كيانه النفسي ، وآخر يحتاج إلى الحسم لكى يتوازن كيانه كذلك ، فلا يعطى الاثنان جرعة متماثلة من العطف والحسم ..

وهذا ما قرره الإمام الشاطبي .. حيث أكّد على قاعدة مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين فى أكثر من موضع من " الموافقات " موجهًا كلامه إلى المربين ذوي البصيرة ، والموجهين من أصحاب العقول الراشدة ..

يقول رحمه الله " وعلى الجملة ، فتحقيق المناط الخاص نظر فى كل مكلف بالنسبة إلى ما وقع عليه من الدلائل التكليفية ، بحيث يتعرف منه مداخل الشيطان ، ومداخل الهوى والحظوظ العاجلة ، حتى يلقيها هذا المجتهد على ذلك المكلف ،

---

(١) فى النفس والدعوة – رفاعي سرور – ص ٢٠١ .

مقيدة بقيود التحرز من تلك المداخل ، هذا بالنسبة إلى التكليف المتحتم وغيره ، ويختص غير المتحتم بوجه آخر : وهو النظر فيها يصلح بكل مكلف فى نفسه بحسب وقت دون وقت ، وحال دون حال ، وشخص دون شخص ، إذ النفوس ليست فى قبول الأعمال الخاصة على وزن واحد ، كما أنها فى العلوم والصنائع كذلك . فرب عمل صالح يدخل بسببه على رجل ضرر أو فترة ، ولا يكون كذلك بالنسبة إلى آخر، ورب عمل يكون حظ النفس والشيطان فيه بالنسبة للعامل أقوى منه فى عمل آخر ، ويكون بريئًا من ذلك في بعض الأعمال دون بعض ، فصاحب هذا التحقيق الخاص هو الذى رزق نورًا يعرف بها النفوس ومراميها ، وتفاوت إدراكها، وقوة تحملها للتكاليف ، وصبرها على حمل أعبائها أو ضعفها ، ويعرف التفاتها إلى الحظوظ العاجلة أو عدم التفاتها ، فهو يحمل على كل نفس من أحكام النصوص ما يليق بها ، بناء على أن ذلك هو المقصود الشرعي فى تلقي التكاليف "[١]

... وفى هذا الإطار جواب النبي بأجوبة مختلفة على ذات السؤال فى أوقات مختلفة ، ولأفراد مختلفين ..

ففى الصحيح أنه ﷺ، سئل أي الأعمال أفضل ؟ فقال : " إيمان بالله " ، قيل : ثم ماذا ؟

قال : " الجهاد فى سبيل الله " ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : " حج مبرور " [رواه الشيخان عن أبى هريرة]

وسئل عليه الصلاة والسلام : أي الأعمال أفضل ؟ قال : " الصلاة لوقتها " ، قيل : ثم أي ؟ قال : " بر الوالدين " ، قيل : ثم أي ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله " [رواه الشيخان عن ابن مسعود].

وفى النسائي عن أبي أمامة قال : أتيت رسول الله ﷺ، فقلت : مرني بأمر

(١) الموافقات – الامام الشاطبى – ج ٤ ص ٩٨ .

آخذه عنك ، قال : " عليك بالصيام ، فإنه لا مثل له "

وفى الترمذي : أي الأعمال أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : "الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات "

وفى مسلم : أي المسلمين خير ؟ قال : " من سلم المسلمون من لسانه ويده "

وفى البخاري ومسلم : سئل ﷺ: أي الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف "

وفى الصحيح : " وما أعطي أحد عطاء هو خير وأوسع من الصبر " [متفق عليه عن أبي سعيد (٦٢٧)]

وفى الترمذي : " خيركم من تعلّم القرآن وعلمه "

.... وإلى أشياء من هذا النمط جميعها يدل على أن التفضيل ليس بمطلق ، ويشعر إشعارًا ظاهرًا بأن القصد إنما هو بالنسبة إلى الوقت أو حال السائل .

وفى الصحيح : " أني أعطي الرجل ، وغيره أحب إلي منه ، مخافة أن يكبه فى النار " [أخرجه الشيخان عن سعد بن أبي وقاص ، الحديث ٦٣١]

وآثر النبي ﷺ فى بعض الغنائم قومًا ، ووكل قومًا إلى إيمانهم [1] ، لعلة بالفريقين ، . .

وقبل ﷺ من أبي بكر ماله كله ، وندب غيره إلى استبقاء بعضه ، وقال : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك " [2]

وجاء آخر بمثل البيضة من الذهب ، فردها فى وجهه [رواه أبو داود عن جابر فى كتاب الزكاة (١٦٧٣)]

... قال الشاطبي : ولو تتبع هذا النوع لكثر جدًا ، ومنه ما جاء عن الصحابة

(١) كما فى حديث مسلم فى إعطاء أبي سفيان وغيره يوم حنين .

(٢) قاله لكعب بن مالك ، كما فى حديثه الطويل الذى رواه الشيخان ، كما فى اللؤ لؤ والرجان برقم ١٧٦٢.

والتابعين وعن الأئمة المتقدمين وهو كثير .. [(١)] .

وهكذا من خلال معرفة ما يتفرد به كل ابن عن الآخر يمكن توجيهه إلى الأنسب لخصاله وقدراته .. فهذا أبو ذر يقول أن النبي ﷺ قال له : " يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ... لا تأمّرن على إثنين " – (رواه مسلم) .. فخصال أبى ذر لا تؤهله للإمارة ، وهذا لا ينفى حب النبي له .

وهذا صحابي آخر يقول أوصنى يا رسول الله ، فيقول له : لا تغضب ، قال أوصنى ، قال : لا تغضب . قال : أوصنى ، قال : لا تغضب. (رواه البخاري) .

ويأتي آخر ليقول له أوصنى يارسول الله ، فيوصيه بذكر الله ..

فالنصيحة النبوية تغيّرت بتغيّر الفرد السائل .. وبتفرد هذا السائل عن غيره..

وكان رسول الله ﷺ يؤكد هذا التفرد فيقول : «أفضل أمتى أبوبكر ، وأشدهم عمر» .

وعلى ذات الطريق سار صحابة رسول الله ﷺ، فكانت نصيحتهم لمن سألهم عما يقومون به من أعمال ليقلدهم .. أنه رب عمل صالح يدخل بسببه على رجل ضرر أو فترة ، ولا يكون كذلك بالنسبة إلى آخر ....

" عن أبى العلاء عن رجل قال : أتيت تميمًا الداري فحدثنا ..

فقلت : كم جزؤك ؟

قال : لعلك من الذين يقرأ أحدهم القرآن ، ثم يصبح فيقول قد قرأت القرآن فى هذه الليلة " فو الذى نفسى بيده " لأن أصلي ثلاث ركعات نافلة أحب إلي من أن أقرأ القرآن فى ليلة ثم أصبح فأخبر به .

فلما أغضبت قلت : والله إنكم معاشر أصحاب رسول الله ﷺ من بقي منكم

(١) [illegible] ١٠٣-٩٩

لجدير أن تسكتوا فلا تعلموا وأن تعتقوا من سألكم فلما رآني غضبت « لان وقال : ألا أحدثك يا بن أخى ؟ أرأيت إن كنت أنا مؤمنًا قويًا ، وأنت مؤمن ضعيف ، فتحمل قوتى على ضعفك فلا تستطيع فتنبت أو رأيت إن كنت أنت مؤمنًا قويًا ، وأنا مؤمن ضعيف " حين أحمل قوتك على ضعفى فلا أستطيع فأنبت "

ولكن خذ من نفسك لدينك ، ومن دينك لنفسك حتى يستقيم لك الأمر على عبادة تطيقها " [١]

بل إن مراعاة الفروق الفردية بين الأفراد قد وصلت إلى ما ينقله العالم إلى من يسأله أو يفتيه ، فرأينا الإمام الشاطبي يؤكد أنه ليس كل العلم مطلوب النشر ، بل منه ما هو مطلوب النشر ، وهو غالب علم الشريعة ، ومنه ما لايطلب نشره بإطلاق، أو لا يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص .. [٢] ، فليس كل ما يعلم يقال ، وليس كل ما يقال « يقال فى كل وقت .. وليس كل ما يقال فى كل وقت ، يقال لأي أحد .. بل لا بد من معرفة ، ماذا نقول ؟ ولمن نقوله ؟ وفى أي وقت نقوله؟!!

" ومثال ذلك ما جاء فى الصحيح عن معاذ أنه عليه الصلاة والسلام قال : يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ .. الحديث ! إلى أن قال : قلت : يا رسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال : " لا تبشرهم فيتكلوا " .. وفى حديث آخر عن معاذ فى مثله ، قال : يا رسول الله أفلا أخبر بها فيستبشروا ؟ فقال : " إذًا يتكلوا " .. قال أنس : فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا . [٣]

وكما نراعي الفروق الفردية بين الأبناء في تعليمنا إياهم ، ولا نعطي المبتدىء

(١) سير أعلام النبلاء ، ج ٤ – ترجمة ١٨٢ تميم الدارى ص ٨٥
(٢) الموافقات – الشاطبي – ج ٤ ص ١٩٠ ، ١٩١
(٣) المصدر السابق – ج ٤ ص ١٩٠ .

منهم ما هو نصيب المنتهي .. فإننا أيضًا نراعي توجيههم إلى العلوم والتخصصات والأعمال المختلفة ، وفق القدرات الذهنية والبدنية ، والاستعدادات الفطرية ، والميول المهنية ، فلا يرغم الابن على علم لم يتهيأ له عقليًا ولا نفسيًا ، ولا يوجه إلى عمل لا يلائم مواهبه وتطلعاته واستعداداته الفكرية أو حتى الجسمية !!

إن بعض التخصصات والعلوم والصناعات ينجح فيها بعض الأبناء دون بعض ، بل يمكن أن يبرز فيها البعض ويتفوق ، إذا وضع فى مكانه المناسب ، واختير له ما يوافق مؤهلاته الفطرية ..

ولذلك فإن من فقه المربين الإلتفات إلى ذلك فى الأبناء " فيراعونهم بحسبها، ويراعونها إلى أن تخرج فى أيديهم على الصراط المستقيم ، ويعينونهم على القيام بها ، ويحرضونهم على الدوام فيها ، حتى يبرز كل واحد فيما غلب عليه ومال إليه من تلك الخطط . ثم يخلى بينهم وبين أهلها ، فيعاملونهم بما يليق ليكونوا من أهلها ، إذا صارت لهم كالأوصاف الفطرية ، والمدركات الضرورية ، فعند ذلك يحصل الانتفاع ، وتظهر نتيجة تلك التربية .

فإذا فرض مثلًا واحد من الأبناء ظهر عليه حسن إدراك ، وجودة فهم ، ووفور حفظ لما يسمع – وإن كان مشاركًا فى غير ذلك من الأوصاف – ميل به نحو ذلك القصد . وهذا واجب على الناظر فيه من حيث الجملة ، مراعاة لما يرجى فيه من القيام بمصلحة التعليم ، فطلب بالتعلم وأدب بالآداب المشتركة بجميع العلوم. ولا بد أن يمال منها إلى بعض فيؤخذ به ، ويعان عليه ، ولكن على الترتيب الذى نص عليه ربانيو العلماء ، فإذا دخل فى ذلك البعض ، فمال به طبعه إليه على الخصوص ، وأحبه أكثر من غيره ، ترك وما أحب ، وخص بأهله ، فوجب عليهم إنهاضه فيه ، حتى يأخذ منه ما قدر له ، من غير إهمال له ولا ترك لمراعاته . ثم إن وقف هنالك فحسن . وإن طلب الأخذ فى غيره أو طلب به ، فعل معه فيه ما فعل

قبله . وهكذا إلى أن ينتهي . " (١)

ما ينبغي أن يكون واضحًا في أذهان الآباء والأبناء وكافة أفراد المجتمع :

أن التخصص والتعمق في شتى مجالات الثقافات والعلوم والفنون والاختراعات والأعمال والمهن، هي من فروض الكفاية على مجمل أفراد المجتمع؛ لأنه يجب أن يكون في المجتمع المسلم ، قضاة، ورجال دفاع، ورجال أمن، وأطباء، ومهندسون، وتجار، وخبراء، ومهنيون، وعمال، وغير ذلك مما يحتاجه المجتمع.

إن كثيرًا من الآباء يلزمون أبناءهم بدراسة تخصصات لا يميلون إليها ، وليس عندهم الاستعدادات لتمثلها والابداع فيها . وهم حين يفعلون ذلك يحولون بينهم وبين النبوغ فيما يحبون من علوم . كما أنهم يحملونهم على تعلم علوم ومهن يكرهونها . وفى ذلك مصدر للشقاء دائم ...

كما أن من الخطأ مقارنة أحد الأبناء بالآخر ، فهذه المقارنة لا تنتج إلا الحسد والحقد ، بل و كره الآخر أحيانًا .. بل لا نبالغ إن قلنا أنه ينتج عدوانية فى الابن نحو إخوته انتقامًا لما يشعر به من ظلم الأب له !!

إن حكمة الله فى الخلق تتنافى أن يكون الجميع على مستوى واحد (٢) . فلا يصح مقارنة طفل بآخر ، وإنما يقارن الطفل بحاله سابقًا ونثني على كل تحسن نلمسه من الطفل ...

و إذا أردنا كآباء ومربين سلامة أبنائنا من أدران القلوب من حقد وحسد وفساد طوية ، فليس أمامنا إلا تنفيذ وصية النبي ﷺ: " اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم " .. ومن العدل عدم مقارنة طفل بآخر أو تعييره بما يملكه من مواهب قد

---

(١) المصدر السابق - ج ١ ص ١٧٩ ، ١٨٠

(٢) إذا اتفق اثنان فى كل شيء ، فقد تصبح غير محتاجين لواحد منهما !!!

يفتقدها هو .

إن العدل بين الأبناء واجب شرعي .. وهو فى ذات الوقت أحد متطلبات التربية الناجحة ، وليس من العدل أن نطلب من جميع أبنائنا أداء واحدًا فى دراستهم وأعمالهم ، فقد يكون لدى بعضهم إمكانات أدنى من الآخر .. ولذا ، فإن على الأبوين الابتعاد عن إجراء المقارنات بين الأبناء ، وبينهم وبين الآخرين ، كأن تقول الأم مثلًا : انظر إلى فلان كيف هو الأول فى هذه المادة من مواد الدراسة بينما أنت تنجح بالكاد !!

إن هذه المقارنات غير عادلة ، وهي فى ذات الوقت تشوه نظرة الولد إلى نفسه، وتحطم ثقته بها ، ولا يحصل منها أى تأثير إيجابي فى تغيير واقع الابن ..

كما أنه ليس من العدل أيضًا أن نسمع من بعض الآباء عبارات من مثل : " أخوك أذكى منك ، أو .. أخوك أكثر أدبًا ممنك .. أو .. أخوك أفضل منك فى كذا .. لأن معرفتنا بالإستعدادات المختلفة للأبناء من حيث الذكاء والنواحي النفسية وغيرها ؛ لا تعني أن نبرز هذه الفوارق ونشعر الأبناء بها ..

وإنما الصواب ، إذا مدح الأب أحد أبنائه لتميزه فى أمر ما أكثر من أخوته ، فإن الطريقة الإيجابية المتفهمة لمعنى التفرد ، تقضي ألا تذكر الاسم إلا إذا كان السبب هو مطالبتهم أن يحذوا حذوه " إني على ثقة من أنكم ستحذون حذو أخيكم فلان ، بل إني على ثقة أيضًا أن لكم فضلًا كبيرًا فى وصوله إلى ما هو فيه من التفوق فى مجاله ..

أخي المربي ..

" لا حظ مهارات طفلك ومواهبه ، ربما تجده يتمتع بمزية قوية تجاه الجوانب العملية أو الفنية أو غيرها أكثر من المجال النظري مثلًا ، فلا تحكم عليه بالفشل

وإنما ادعم نقاط قوته ، وحاول معالجة نقاط ضعفه فى حدود إمكاناته . والحياة تحتاج إلى كل ذى موهبة ..

خذ هذا المثال التربوي النبوي :

«روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : جاء الفقراء إلى النبي ﷺ، فقالوا : ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلا والنعيم المقيم يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل أموالهم يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون . قال : ألا أحدثكم : إن أخذتم أدركتم من سبقكم ولم يدرككم أحد بعدكم ، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله ، تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين " أخرجه البخاري برقم ٨٠٧ .

فالنبي ﷺ هنا يدل الفقراء على ما يدركون به ثواب الأغنياء[1].

وخذ هذا المثال الحواري بين النبي ﷺ، وبين ابن عباس رضي الله عنه ..

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بت عند خالتى ميمونة لأراقب صلاة رسول الله ﷺ، فانتبه رسول الله ﷺ وقال : " نامت العيون وغارت النجوم وبقي الحي القيوم ثم قرأ آخر آل عمران : " إن فى خلق السموات والأرض ... " الآيات، ثم قام إلى شن معلق فى الهواء فتوضأ وافتتح الصلاة ، فتوضأت ووقفت عن يساره فأخذ بأذني . وفى رواية بذؤابتي وأدارني خلفه حتى أقامنى عن يمينه فعدت إلى مكاني ، فأعادني ثانيًا وثالثًا ، فلما فرغ قال : " ما منعك يا غلام أن تثبت فى الموضع الذى أوقفتك فيه ؟ " فقلت : أنت رسول الله ولا ينبغي لأحد أن يساويك، فقال ﷺ: " اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل " ..

ونحن كآباء ومربين يمكننا أيضًا أن نسلك ذات الطريق " ما منعك يا غلام"

---

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د/ عادل رشاد غنيم – ص ١٦٠ .

الذى يعلمنا إياه رسول الله ، لنتعرف على تفرّد الابن من خلال إتاحة الفرصة له ليعبر عن أفكاره ومشاعره وآرائه ..

ثم القيام بتوجيهه إلى الأعمال التى يمكنه أن يتفوق فيها ويتفرّد ، فقد " وهب الله لكل شخص مواهب خاصة يتميز بها عن غيره ، وعلينا أن نشجع وننمى الصفات الموهوبة مع التدريب على الصفات الأخرى باعتدال .

... وهذه حكاية رمزية تبين ما نقصد ..

يُحكى أن الحيوانات قد قررت ذات يوم أن تقوم بشىء خارق لمواجهة مشكلة العالم الجديد ، فأقامت مدرسة ، ووضعت منهجًا دراسيًا للنشاطات يتألف من الجرى والتسلق والسباحة والطيران .. ولتسهيل إدارة المنهاج تقرر أن تأخذ جميع الحيوانات كل المقررات ..

كانت البطة ممتازة فى السباحة ، بل فى الواقع أفضل من مدربها ، وحققت تقديرات ممتازة فى الطيران ، لكنها كانت ضعيفة جدًا فى الجرى ، وعليه فقد فرض عليها أن تبقى بعد ساعات الدراسة لتتمرن على الجرى .. ثم أهملت السباحة وقد داومت على التمرين حتى أرهقت قدميها وأضعفتها ، وأصبحت متوسطة المستوى فى السباحة ، ولأن التقديرات المتوسطة كانت مقبولة فى المدرسة ، فلم يشعر أحد بأى قلق سوى البطة نفسها .

أما الأرنب فكان الأول على الصف فى الجري ، لكنه أصيب بانهيار عصبي بسبب ما عاناه فى السباحة .

وكان السنجاب ممتازًا فى التسلق ، لكنه أصيب بإحباط من دروس الطيران حيث جعله المعلم يبدأ من على الأرض بدلًا من القفز من قمة الشجرة ، وقد أصيب بتصلب فى أرجله بسبب زيادة الإجهاد ، وحصل على تقدير متوسط فى التسلق ومقبول فى الجري .

وكان النسر مشكلة ، فلا بد من تعويده على النظام بشده ، وقد تغلب على جميع رفاقه فى التسلق إلى قمة الشجرة ، ولكنه أصر على أن يفعل ذلك بطريقته الخاصة .

وفى نهاية السنة كانت هناك سمكة تستطيع أن تسبح بشكل فائق ، وتستطيع أيضًا أن تجرى وأن تتسلق وأن تطير قليلًا ، وقد حصلت على أعلى تقدير متوسط وقامت بإلقاء كلمة الخريجين . "(١)

والنصيحة التربوية هنا :

أن نعرف جميعًا ونوقن أن كل ابن له شخصيته المستقلة التى لها المزايا والاستعدادات الخاصة ، وكل واحد منهم مهما كان فيه من خصال لا نرضاها ، فإن به ما نرضاه من خصال طيبة ومزايا يجب أن نعتز بها ، وندفعه إلى الإعتزاز بها .. " فالتباين فى الاستعدادات والقدرات والميول بين الأطفال موجود ، لذا ينبغي مراعاة خصائصهم وسمات كل فرد باعتباره شخصية مستقلة عن غيره فمن الصعوبة بمكان أن نجعلهم فى صف واحد ونتعامل معهم بنفس الأسلوب الذى نتعامل به مع الجميع "(٢) .

إن الشباب – مثلًا- يحبون الاستقلال والتميز والانفراد ، لأنهم يرونه الطريق إلى إثبات ذواتهم وتميزهم .. فإذا لم نفطن لهذا التطلع عندهم ونقوم بإشباعه، فإنهم يسعون إلى إشباعه بطريقتهم التى كثيرًا ما تكون خاطئة ، فيبحثون عن أى اختلاف عما هو سائد فتراهم مثلًا يبحثون عن رقم هاتف متميز ، أو يشترون ملابسهم من متجر بعينه .. إلى آخر هذه الصور للتميز الشكلي الذي يسعى إليه الشاب بديلًا عن التميز الحقيقي الذي لم يدله عليه أحد مثل الحصول على

(١) دليل التدريب القيادى – د. هشام الطالب – ص ٢٩٥ .
(٢) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا – أكرم عثمان – ص ٢٦

شهادة أو خبرة عالية جدًا ، أو التقدم بمبادرة جديدة فى مجال من مجالات العمل غير مسبوق ..

أخي المربي ..

إن لكل ابن من أبنائنا ميزة ميزه الله بها عن غيره .. فهذا خطه جميل .. وذاك صوته طيب .. لا يخلو الإنسان من صفة إيجابية .. والواجب على الآباء والمربين رصد هذه الإيجابيات في الابن وتنمية فخره واعتزازه بها..

ولا بد أن نوقن أن الشخصية الإسلامية ليست صورة واحدة مكررة كالنسخ المطبوعة .. فالإسلام يوحد من أنماط السلوك وآدابه .. الآداب العامة .. البيع والشراء .. وآداب الزيارة وآداب الحديث .. ولكنه فى ذات الوقت لا يلغى الفوارق الذاتية بين البشر .. بين أبى بكر وعمر .. وبين عثمان وعلي .. وبين أبى ذر وخالد .

والمربي الموفق هو من يستطيع إدراك مجال تفرد الابن ، ليحسن التعامل معه ، ويوجهه إلى ما ينفعه ..

فهل تعرف - أخي المربي - ميزة ابنك ؟ وهل تدرك مجال تفرده ؟

• أبناؤنا فى واقع متفرّد :

" يصل إلى عقل الإنسان عن طريق الحواس كم هائل من الصور والأحداث والكلمات والمشاهدات والظروف البيئية ، فيخضعها لعملية انتقاء وترشيح ، فيقبل منها ما يقبل ، فتكون هى عالمه الذى يدركه ، ويعيش فيه ، وليس له عالم إلا هذه الخارطة فى ذهنه ، قد تكون كبيرة أو صغيرة ، وقد تكون مضيئة أو مظلمة ..." [1] .

إن ابناءنا لم ينشأوا فى زماننا !! " فحياتهم لها مميزات وخصائص واحتياجات

---

(١) [illegible] — ص ١٤ بتصرف يسير .

مغايرة تمامًا لما كنت أنت عليه في الماضي ، ومن ثم فليس من المجدي مثلًا أن تسرد لهم الكثير من مواقف حياتك أو تصف لهم كم كنت تمشي بالساعات عندما تذهب للمدرسة ، أو كيف تعرضت لمعاناة حتى تحصل على لقمة العيش .. "[(١)].

إن هذه الطريقة في التربية في ظل الواقع المتغيّر .. و تلك النظرة للحياة في ظل المستجدات الحياتية الكثيرة تنطوي على كثير من السذاجة التربوية ..

لقد " كان الناس في البيوت يربون في بيئة محدودة شبه مغلقة . وكان الطفل ينشأ وأمامه نماذج وشواهد محلية أو تاريخية منتزعة من حضارة أمته .. وكانت هذه الحال تشبه إلى حد كبير محل " بقالة " وحيد في قرية صغيرة ، وليس أمام الناس سوى الشراء منها ، وليس بين أيديهم إمكانات لتجاوزها..!!

ولكن الواقع التربوي الآن قد اختلف اختلافًا كبيرًا .. إنه يشبه سوقًا بها عشرات من الـ "سوبر ماركت" وفي كل سوق أشكال عدة من كل صنف.."[(٢)].

لقد تعقدت في مجتمعاتنا قنوات الإتصال ، وتشعبت ، وتعددت مراكز السيطرة عليها وأصبح بالإمكان توجيهها كيفما شاء الموجهون ، وتحميلها الرسالة التي يريدون ..

وأصبح في إمكان تلك القنوات أن تشوّش رسائلنا إلى أبنائنا ، فتقلب الود لومًا ..و تجعل الآباء والأبناء أعداء من غير عداوة !!

فهل يمكن أو يصح في ظل هذا الواقع ، أن نحاول كآباء أن يكون أبناؤنا نسخة مكررة منّا ؟!

إن هذا – بلا شك – خطأ تربوي ، بل وهروب من مواجهة هذا العالم المتغيّر..

(١) ٢٥ طريقة لتصنع من ابنك رجلًا فذًا – أكرم عثمان – ص ٣٩ بتصرف.

(٢) بناء الأجيال – د/ عبد الكريم بكار – ص ١٨٦ بتصرف

بل إننا لا نجاوز الحقيقة حين نقول :

إن تربية تكون بدايتها إلغاء إستقلالية الشخصية لحساب قالب المربي لتربية خاطئة يقينًا ..!!

ذلك أن التماثل التام بيننا وبين أبنائنا وبين أبنائنا وبعضهم ، ليس علامة صحة أو موضع غبطة ، وإنما هو علامة خمول وضياع للإبداع ...

إن ما نريد التأكيد عليه هنا ، أن من حق كل فرد أن ينفذ إلى الواقع ، ليدرك الحقائق بطريقته الخاصة دون قسر أو إكراه . وذلك النفاذ هو المصدر الوحيد لامتلاك الرؤية النقدية التى تحول بين المجتمع وبين التحنط فى أشكال ميتة .

وثمة مسألة أخرى تنطق بصعوبة فهمنا لأبنائنا وفهم أبنائنا لنا ؛ حيث أن التفتح الأولي الذى بدأ به تدرجنا نحو اكتمال ذواتنا مغاير للتفتح الذى يلاقونه اليوم ، كما أن الظروف والضغوط والآفاق والأفكار المحورية ، كل أولئك مختلف بيننا ....

ولذلك فإن قسر طبيعة الأولاد من أجل أن يكونوا نسخًا مكررة عنا سيظل غير منطقي وغير عملي ، وسيظل غير مفهوم بالنسبة لهم .

بل ستظل محاولاتنا اليائسة لطبع أبنائنا نسخًا مكرورة فى الحقيقة محاولات فاشلة وإن أدركنا فيها النجاح .. ويجب أن نتجنبها لأنها تفقد الأبناء استقلالية التفكير وإبداع الممارسة .

إن تربيتنا لأبنائنا لا بد لها من التأكيد على أنهم ليسوا ملزمين أن يأخذوا بآرائنا ، وأن من حقهم أن تكون لهم آراؤهم التى يتبنونها فى ظل مستجدات عصرهم وحاجات زمانهم .. ولكنا فى ذات الوقت ، لا بد أن نؤكد لهم أنه لا يكفيهم رفض الماضي وهدمه إلا لملكيتهم للعلم الذى يثبت خطأه ..!!

نعم .. قد نأمل أن يكون أبناؤنا على مثل ما نحن عليه من أفكار وآراء وخصال وطباع .. ولكن حين لا يكونون كذلك فإننا نحن الذين فشلنا فى توصيل أفكارنا إليهم بطريقة صحيحة .. وهذا يعني أن مخالفات أبنائنا لنا هى فى أكثرها أخطاء عقولنا المخلصة فى تلمسها الرشد للأبناء .

أمّا أن نربي أبناءنا على التلقى منا بالتسليم والموافقة بناء منه أو منا على أن من سبقوه كفوه مؤنة ما يسأل عنه ولا داعى أن يجهد نفسه فى أية تفكير أو تأمل .. فلا شك أن هذا اللون من التربية لا يخرج إلا جيلًا ضعيف العقل ، يملك قابلية كبيرة للإستعباد والإسترقاق بجميع دروبها .

إن الحياة في تطور معرفي وتربوي وهناك قفزات تحدث كل يوم وفي جميع مجالات الحياة فلا يُعقل أن يكون الطفل نسخة من أبيه أو أمه، .. كيف يمكن ذلك، ونحن نستطيع أن نؤكد أن الطفل اليوم أفهم من أبيه فى مواكبة الحياة وقفزاتها الجديدة ؟!

خذ مثالًا ..

إن عدد الآباء والأمهات الذين لا يجيدون التعامل مع الحاسب الآلي يقدره البعض بأكثر من ٧٠٪ .. بينما يجيد أكثر من ٧٠٪ من الأطفال التعامل معه ..!!

لقد كان من نصائح على بن أبى طالب رضي الله عنه التربوية : " ربّوا أولادكم غير تربيتكم ، لأنهم سيعيشون زمانًا غير زمانكم " ..

أخي المربي ..

ليس معنى أنك أكبر سنًا من أبنائك أنك بالضرورة أذكى منهم أو أعلم .. بل يمكن أن تتعلم منهم أشياء لا تعرفها .. فقط كن صبورًا وكن لطيفًا فى حوارك معهم ، وستدرك الثمرة المرجوة من علم وفهم وإدراك .. إدراك لأهم حقيقة فى علاقتك بهم .. إنهم متميزون .. إنهم متفردون .

إن لدينا نحن الآباء بديهية لا تحتمل النقاش .. تلك البديهية أننا " معلمون " لأبنائنا دائمًا .. وهم " متعلمون " دائمًا .. ولكن الحقيقة أننا نتبادل معهم المواقف فى بعض الأوقات ، فنصبح نحن المتعلمين ، ويصبحوا هم المعلمين .. !!

وفى هذا الإطار يمكن أن نفهم أن معارضة الأبناء لبعض ما يقرره الآباء ليست دائمًا لونًا من ألوان سوء الأدب أو عدم الطاعة ، بل على العكس هى فى أكثر الأحوال تعبّر عن إستقلالية شخصية الابن ، وهذه ميزة تحفظه بإذن الله من الإنسياق العاطفي وراء أى أحد ..

ثم فوق هذا فإن هذه المعارضة تثرى أفكار الابن بالنقاش وتمحيص الأفكار التى يعرضها أو يعترض بها .. ومن ثم يتعلم الابن الإيجابيات والسلبيات لكل رأى ، فإذا قبل أيها كان قبوله قبول فهم ، وكانت طاعته طاعة رضى ... إن أكثر الأبناء لا يعارضون طاعة الوالدين ، وإنما هم يحبون أن يفهموا كما يحبون أن يطيعوا .. وهذا حقهم وواجبهم فى ذات الوقت !!

أنا أعلم أن هذه الكلمات قد يكون من السهولة كتابتها ، ولكنى على يقين أنه من الصعوبة بمكان تطبيقها فى واقع التعامل مع أبنائنا .. ولكنّا إذا بذلنا الجهد فى سبيل الوصول إلى ما نريد ، وقمنا بما فى وسعنا ، وصلنا إلى ما نبتغي بإذن الله ..

و"عندما نصل إلى مستوى معين من القدرة سوف نحس أنه لا يعيبنا أن نطلب مساعدة الآخرين لنا، حتى أولئك الذين هم أقل منا مقدرة! ولا يغض من قيمتنا أن تكون معونة الآخرين لنا قد ساعدتنا على الوصول إلى ما نحن فيه.

إننا نحاول أن نصنع كل شيء بأنفسنا، ونستنكف أن نطلب عون الآخرين لنا، أو أن نضم جهدهم إلى جهودنا... كما نستشعر الغضاضة في أن يعرف الناس أنه كان لذلك العون أثر في صعودنا إلى القمة... إننا نصنع هذا كله حين لا تكون

ثقتنا بأنفسنا كبيرة، أي عندما نكون بالفعل ضعفاء في ناحية من النواحي.. أما حين نكون أقوياء حقًا فلن نستشعر من هذا كله شيئًا..

إن الطفل هو الذي يحاول أن يبعد يدك التي تسنده وهو يتكفأ في المسير!

عندما نصل إلى مستوى معين من القدرة، سنستقبل عون الآخرين لنا بروح الشكر والفرح... الشكر لما يقدم لنا من عون... والفرح بأن هناك من يؤمن بما نؤمن به نحن.. فيشاركنا الجهد والتبعة.. إن الفرح بالتجاوب الشعوري هو الفرح المقدس الطليق! " (١)

وأنا شخصيًا أرى أن ما يظهر من الأبناء من رفض شديد لكل شيء ولكل أمر من أوامر الآباء، إنما هو سلاح زودهم الله تعالى به للحفاظ على كيانهم من الإذابة فى المحيط الاجتماعي، حيث أننا معاشر الكبار نحاول دائمًا استخدام التربية أداة لصهر الأبناء فى المجتمع ، وأداة لجعلهم يشبهوننا فى كل شىء .

وليس هذا هو القرار الصائب ، وليس الحرص على جعل أبنائنا نسخًا مكررة عنا بالشيء الحميد ، فالثراء الثقافي والحضاري لا يأتي من خلال التطابق وإنما من خلال التنوع .

إن اعتبار الزمان فى طريقة الحياة هو ما أرشد إليه قول رسول الله ﷺ بقوله : "رحم الله من حفظ لسانه ، وعرف زمانه ، واستقامت طريقته" (٢) .

---

(١) راجع إن شئت " أفراح الروح – سيد قطب "

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير – المناوي – ج ٤ ص ٢٩ رقم ٤٤٤٠

وبكلمـــة ..

التربية الجيدة لا تحاول أن تجعل الأبناء نسخًا مكررة ، ولا تحملهم على النظر للأمور من منظار واحد ، ولا ترغمهم على تنفيذ أوامر الآباء ..!! بل يحاول المربي الناجح ترك مساحة للتنوع الشخصي والسلوكي والفكري بين المتربين .. ويراعي في تعامله مع كل ابن أن هذا الابن له شخصيته المتميزة ، وطموحاته الخاصة .. وهو ليس نسخة مكررة من أخيه أو أبيه أو مربيه .. بل هو كائن متفرّد .

❀❀❀

الباب التاسع

اتَّصِلْ بِهِ

C=Contact him

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : التواصل .. السعادة الحقيقية.

الفصل الثاني : المداعبة .. المظلة الواقية.

الفصل الثالث : الجفاء .. الاستقالة التربوية.

الفصل الأول
التواصل .. السعادة الحقيقية

لا شك أن الأسرة تحتاج إلى التواصل الدائم والقوي بين أفرادها ، فهذا التواصل هو العاصم – بعد تقوى الله – من " علمنة " الأسرة .. هذه العلمنة التى تسعى إلى القضاء على الأسرة الممتدة ؛ لتحل محلها الأسرة النووية ، والتى يختفي التواد والتراحم بين أفرادها ، فيتحولون إلى مجموعة من الأفراد " المستقلين " الذين يعيش كل منهم همه الفردي ..!! ومن ثم تتحول الأسرة إلى ما يشبه " القوقعة الفارغة " ، ويعيش أفرادها بلا أدنى علاقات فيما بينهم ، ولا حتى التواصل ضمن الحدود الدنيا ..!!

فإذا استشعر أحد أفراد الأسرة مأساتها ، فإننا نراه – بكل أسف – يأتي هذا التواصل مع الآخرين من باب "الواجب"، وليس من باب " الحق " .. والاستمتاع بهذا التواصل ..!!

فهل ندرك – كآباء – أن تواصلنا مع أبنائنا حق لنا ، وليس واجبًا علينا ؟!!

وهل نستشعر فى تواصلنا مع أبنائنا سعادة حقيقية ؟!

• لا تبخل بوقتك على أبنائك :

فى أيام آبائنا وأجدادنا ، كان الآباء يجتمعون مع الأبناء فى الأمسيات يتبادلون الحديث ، وكانوا يجتمعون على الطعام فى كل موعد .. أمّا اليوم فهناك أنشطة تشغل الأبناء بعد المدرسة أكثر من ذي قبل فلا يجدون وقتًا للتواصل مع آبائهم وأمهاتهم

.. كما لا يجد الآباء وقتًا لهذا التواصل لإنشغالهم هم أيضًا .. بل أصبح تناول الأسرة للطعام مجتمعة شيئًا من الماضي .. !!

وهكذا انقرضت اللقاءات العائلية .. وتلاشى التواصل بين الآباء والأبناء ؟!!

نحن لا ننكر أبدًا أن الوقت بالنسبة للآباء هو وسيلة كسب الرزق وتحسين الوضع المعيشي .. بل هو عمر حراثة الحاضر لتوسيع مساحة الراحة فيه ، وتأمين المستقبل الأفضل فى ذات الوقت ..

لا ننكر كل ذلك ، ولكنا نريد أن نؤكد على أن " مهمة الوالد لا تقتصر على أن ينصب من الصباح حتى المساء ، أو أن يضرب فى الأرض من أجل الحصول على ما ينفق على بيته ، كما لا تقتصر مهمة الأم على ترتيب البيت وتنظيف الثياب وإعداد الطعام .. فهذه المهام الكريمة التى يقوم بها الآباء والأمهات ، لا ينبغي أن تستغرق كل أوقاتهم وجهودهم حيث إن ذلك لا يعد سوى أجزاء مهمة من مكونات البيئة التربوية الجديدة ، أمّا العمل التربوي فإنه شيء آخر ..

إننا ورثنا عن الأجيال السابقة مسألة إعطاء جل اهتمامنا للأمور التى ذكرناها ؛ وإذا نظرنا إلى البرنامج اليومي للسواد الأعظم من الآباء وجدنا أنهم يقضون ساعات طويلة خارج المنزل ، وحين يعود الواحد منهم من عمله يعود منهكًا ، وقد استنفذت طاقاته النفسية ؛ وكثير منهم يعودون بعد أن يكون الأطفال الصغار قد استغرقوا فى النوم ، كما أن كثيرًا منهم يذهبون إلى أعمالهم قبل أن يستيقظ أبناؤهم !!

ولا يصح أن نتجاهل صعوبة كسب العيش بالنسبة إلى معظم الناس ، كما لا يصح أن نستهين بالثواب االعظيم الذي ينتظر الكادحين فى سبيل تحصيل لقمة العيش – إذا رزقوا الاحتساب – لكن حين نعلم أن توجيهنا لأبنائنا وإشرافنا

عليهم هو الأساس وهو المحور ، فإننا سنبحث عن الوقت الذي نجلس فيه معهم." [١] ولن نقول أننا مشغولون جدًا ؟!

إن أبناءنا لا شأن لهم بانشغالنا أو نجاحنا فى أعمالنا .. إنهم يحتاجون منا إلى الحب والرعاية والحنان والاتصال الدائم .. إنهم لا يحتاجون منا إلى التركيز الدائم على توفيرنا المال لهم ، أو أننا نكد ونكدح لأجل سعادتهم .. إنهم يريدون تواصلنا معهم .. إنهم يحتاجون هذا التواصل .. ونحن نبخل عليهم به ، ولا ندرك أن البخل ليس بالمال فقط ، بل البخل الأكبر هو البخل فى التفاعل مع الأبناء والتواصل معهم ، ومشاركتهم فى اللعب والعمل ، والصبر عليهم أثناء هذا التواصل .. وممارسة دور المربي فى حل مشكلاتهم ، وإشعارهم فى ذات الوقت بوجودنا وتأثيرنا .. وفى خلال كل ذلك تعليمهم أن الصداقة مع الآخر والتواصل معه أمر جيد وضرورى .. وتعليمهم فى ذات الوقت أن اكبر صديق لهم يجب أن يكون أنفسهم .. بمعنى أن شعورهم بذاتهم ينبع من داخلهم وليس من خلال من يعرفون من أصدقاء ..

إن الكثيرين من الآباء يقضون كل أوقاتهم فى العمل ، وعندما يأخذون أبناءهم فى نزهة مثلًا فإنهم أيضًا لا يكفّون عن التحدث فى الهاتف النقال أو التحاور مع الآخرين حول مشكلات العمل !!

هكذا دون أدنى شعور بالذنب تجاه أبنائهم لأنهم يظنون أن الذنب الحقيقي أن يقضوا جزءًا من وقتهم دون العمل لتيسير أفضل حياة لأولئك الأبناء !! .. وهم " يهربون من مواجهة مسؤولياتهم بتخصيص وقت للتفاعل واللعب والانسجام مع الأطفال ويستبدلون هذا الوقت بهدايا وألعاب وحلوى ونقود ، هؤلاء الآباء والأمهات يعانون دائمًا من الأبناء يتحولون إلى أناس شديدي الأنانية والوصولية ..

(١) دليل التربية الأسرية – د/ عبد الكريم بكار – ص ١٦ ، ١٧

إنهم يتعلمون الانتهازية من هؤلاء الأباء الهاربين من ممارسة مسؤولياتهم " [١]

ومن هنا ، فإن النصيحة التربوية ..

لا تستخدم المال بديلًا عن العاطفة ، لا تعطى لابنك المال الذى يطلبه لأنك لا تستطيع أن تجلس معه ، ولو لمدة نصف ساعة تسأله عن شؤونه وتفيض عليه بعاطفة الأبوة .. فمهما كثر ما تعطيه لأبنائك من مال أو من توفير الإمكانات الكثيرة فى الحياة ، فإنهم سيظلون يتوقعون اللمسة الإنسانية منك عبر تواصلك الطيب معهم .. فهذه اللمسة لا يمكن أن يعوضهم عنها مال ولا إمكانات مادية حياتية .

وهذه اللمسة هى التى تشيع جوًا من المودة والحب يشعر أبناءنا بالطمأنينه والأمن والمودة ، فيبث ذلك فى نفوسهم الإرتياح ويدفعهم إلى مصارحتنا بما يدور داخلهم ، بل يشجعهم على مناقشة مشاكلهم معنا بانفتاح عاطفي كامل ..

إن قرب المربي من المتربين بتوفير الأوقات التى يلتقى بهم فيها ويحادثهم ويستمع إلى ما يعانونه من مشكلات ، وما يريدونه من استرشادات .. إن كل ذلك عامل هام جدًا فى التفاعل والتأثير والإقبال من المتربين ، " وقد وجد " ولسن وودز " أن هناك علاقة مؤثرة بين توفر المربي فى ساعات معينة ، وظهوره بمظهر المستعد لاستقبال المتعلمين ، وقضاء وقت معهم ، وبين إقبال هؤلاء المربين عليه ، واستعانتهم به ، وعرض مشكلاتهم عليه " ومن هنا وجب على الوالدين والمربين توفير الوقت والاستعداد النفسي للتواصل مع المتربين والتعامل معهم مهما صعبت الظروف أو كثرت الواجبات . [٢] وتوفير وقت التواصل مع الأبناء فى كل حين وفى

---

(١) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د/ سبوك – ص ١٤٧ .

(٢) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ٣١٠ .

كل مكان وبكل الوسائل .. والقرب المطلق مع الأبناء ، بحيث " يكون وقت الأب فيه متوفرًا للأبناء فى كل حين وفى كل مكان وبكل الوسائل .....

فهكذا كان رائد التربية الأول ﷺ .. فقد كان يتوفر لصحابته فى معظم الأحيان، فى المسجد ، فى السوق أو الطريق ، فإن لم يكن ذهبوا إلى بيته ، وكان ﷺ يستقبلهم، ويعلمهم ، ويجيب على أسئلتهم ، ولم يكن من عاداته حجب الناس عنه أو ردهم بل كان يستقبلهم ، ويبتسم لهم دائمًا ..

عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : " ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت ، ولا رآني إلا ابتسم فى وجهي "

و برغم انشغاله ﷺ بأمور المسلمين ، والجهاد ، وسياسة الدولة ، فإن هذا لم يمنعه من مخالطة الأولاد " فقد استفاضت كتب الحديث والسير بذكر منهجه وأسلوب حياته فى البيت مع الأولاد ، فقد روى عنه أصحابه رضي الله تعالى عنهم أنهم شاهدوه والحسن والحسين على بطنه أو صدره ، وربما بال أحدهما عليه ، أو ربما جلس لهم عليه الصلاة والسلام كالفرس يمتطيان ظهره الشريف ، وربما صلى وهو حامل أحد الأولاد أو البنات ، ويروى عنه أنه كان يقبلهم فى أفواههم ويشمهم ويضمهم إليه ، وربما خرج على أصحابه وهو حامل الحسن أو الحسين على عاتقيه ، فكان ﷺ مع جلالة قدره وعلو منزلته يفعل ذلك ؛ ليقتدي به الناس ، ولأنه يعلم أهمية هذه المخالطة فى المجال التربوي .." (١)

ونحن حين نقتدي برسول الله ﷺ فى مصادقة أبنائنا على هذا النحو فإننا بذلك نوجد جوًا من المودة والحب يشعر أبناءنا بالطمأنينه والأمن والمودة ، ويبث فى نفوسهم الارتياح ويدفعهم إلى مصارحتنا بما يدور داخلهم ..

فإذا صارحنا الابن بما يدور فى عقله وما يختلج فى نفسه فيجب أن نكون له "

---

(١) مسؤولية الأب المسلم فى تربية الولد فى مرحلة الطفولة – عدنان حسن باحارث – ص ٧٣ .

بمثابة الطبيب الذى يداوى الجرح باللمس الرقيق وليس بمبضع الجراح .. فنحاول أن نجد له المبرر لتصرفه إن لم يرق لنا هذا التصرف ، ونبقى له على بصيص من الأمل يحيا به ، ويبعده عن اليأس والقنوط ... فإذا استشعر الحب والحنان ، فإن باستطاعتنا عندها أن نرده إلى جادة الصواب بحكمة وروية .. "(١) .

إنه لا بد للأب من وقت يقضيه مع كل ابن على حده .. يتناول معه وجبة غذاء خارج البيت ، أو يمارس معه رياضة المشي .. يشعره فيه أنه يقدره ، ويستمع إلى ما تنطوي عليه نفسه من مشاعر ، وما يشغل عقله من تساؤلات ..

إننا – كآباء ومربين – إذا أردنا أن يتعلّم أبناؤنا الدروس النافعة فى حياتهم ، فإن طريقنا إلى ذلك هو التواصل الفعال معهم ، وعدم الاقتصار على ما يتعلمونه فى المدارس ..

إن تقييد عقول أبنائنا بالدروس من الصباح الى المساء دون أية ممارسات أخرى لا يخرج رجالًا عظامًا بقدر ما يخرج مقلدين مهرة .. !!

إنه أمر فى غاية الأهمية أن نتواصل مع أبنائنا ، نتواصل معهم بحب واهتمام .. فيخرجهم الله بنا من الخطأ إلى الصواب ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن إحساس الغربة عن مجتمعاتهم إلى إحساس الحب لها .. من الإحساس بالضآلة إلى الثقة والتوازن والقدرة على إدارة حياتهم .

فإذا لم تتمكن – أيها الأب – من مخالطة أبنائك دائمًا فخصص لذلك وقتًا معينًا فى اليوم والليلة أو كل أسبوع ، تجلس معهم فيه فتتحدث إليهم وتتبسط معهم ، وتداعبهم ، وتدخل السرور على قلوبهم .. فإذا لم تستطع ذلك فلا أقل من أن تبدأ معهم نشاطًا ما ثم تتركهم يكملون ، كأن توجههم مثلاً إلى قراءة كتاب معين ، فتبدأ

(١) الآباء وتربية الأبناء – محمد عبد الرحيم عدس – ص ٧٦ بتصرف.

معهم ثم تتركهم يكملون ، وتذهب أنت إلى مهامك ، أو تجلب لهم برنامجًا مفيدًا فتدربهم على تشغيله بالحاسب الآلي ثم تتركهم ليكتشفوا كامل إمكاناته بأنفسهم ..

إن ابنك أو ابنتك فى سن الخامسة عشرة أو ربما قبل ذلك فى غاية الاحتياج إلى تواصلك .. حدد مع أبنائك موعدًا أسبوعيًا على الأقل تصطحبهم فيه لخارج المنزل حيث النزهة والحديث معهم في كل شؤونهم ..

و لا تجعل حديثك معهم مناقشة فكرية عميقة ، وإنما مجرد " دردشة " لتعميق العلاقة بينكم .

إن أبناءنا كثيرًا ما يشعرون بالوحدة ، ولا بد أن نصبح كآباء ومربين أصدقاء ومستمعين جيدين لهم ...

ومن هنا وجب علينا كآباء أن نزيد من الوقت المخصص لتواصلنا مع أبنائنا .. التواصل الحقيقي ، وليس المبادلات الكلمية عند مرورنا بالمطبخ أو غرفة الطعام.!!

خذ مثالًا :

الأب : " لقد لاحظت أنك صامتة منذ أن عدت من المدرسة يا " سمية " فما الأمر ؟

سمية : لا شيء يا أبي ..

الأب : إني أعتقد أن هناك شيء ما يتعلق بالامتحان الذى اجتزته مؤخرًا ..

سمية : لا

(كلمة " لا " هنا رسالة غير صريحة للأب أن يكف عن الحوار)

والنصيحة التربوية هنا ، تواصل معها بحب حتى تستطيع أن تخرج لك ما بداخلها ..

فقل مثلًا : أشعر أن كلامي معك حول أحوال الدراسة غير محبب لك في بعض الأوقات ؟

فإذا كان هذا الوقت لا يناسبك ، فلنتحدث عنه في وقت آخر ..

على كل حال .. إذا فكّرت فيها يشغلك ، واحتجت المساعدة في شيء فإن لدي اليقين أنك ستحب التحدث مع أبيك عنه .. أليس كذلك ؟

(كلمة " لدي يقين " تكون بمثابة لمسة حنون على كتف الابنة أو الابن ، وتشعره باحترامك لخصوصياته ، وقربك منه ..)

لقد تحدثنا عن التشجيع والمدح وأثره في تنشئة الأبناء تنشئة طيبة [(١)]

ونحن هنا نؤكد أن هذا الأثر ليس للمدح بمفرده ، وإنما هو للمدح والتشجيع كجزء من عامل كبير وهام جدًا اسمه التواصل مع الأبناء ..

وما كان المدح والتشجيع ليغني شيئًا عن الوقت الذى تقضيه مع أبنائك ، ولا عن العطف و العناية والتواصل الكريم معهم ..

وما كان توجيهنا لأبنائنا ليؤتي ثماره بخروجهم من الخطأ إلى الصواب إلا بقربنا منهم .. وتأمل قول النبي ﷺ للشاب الذي جاء يستأذنه في الزنى (أدن مني ثم مسح على صدره) الحديث .

بل إننا حين نقترب من أبنائنا أكثر وأكثر سنجد أنه " ليس من الضروري أن ينطق الابن بكلمة واحدة لتعرف فيم يفكر أو بم يشعر ؟!... إن يديه وعينيه وفمه وجسمه تمكن من معرفة مشاعره الحقيقية ... إن يديه يمكن أن تدلا بوسائل عديدة على إحساسه بالخوف والقلق ، فمثلًا ، ارتعاش الأصابع أو نقرها على الركبتين أو على ذراعي المقعد أو ابتلال راحة اليدين وبرودتها أو عندما تظهر عصبية اليدين

---

(١) راجع فصل " قلب التحفيز النابض ".

عند إمساك القلم ... كل هذه المظاهر تدل على قلق هذا الابن ..

فهل الآباء يملكون الوقت لهذا القرب الواعي ، والتواصل الجميل ؟

إن أكثر الآباء ، إمّا غائب جسمانيًا أو غائب نفسيًا عن أبنائه ..

وهم لا يكفون عن مداومة الكد فى تزويد أبنائهم بما يلزمهم من طعام وملبس ومسكن مريح ، ويرسلون بهم إلى المدارس الخاصة ، ويواصلون السعي وراء الحصول على ما يلزم لذلك وغيره من مال .. وهم يظنون أن موعد تواصلهم مع أبنائهم يحين فيما بعد ..!!

وبينما ينتظر الآباء فراغًا لا يأتي للتواصل مع أبنائهم ، لا يجد الأبناء من يتواصلون معه ويلجؤون إليه ، و يتعلمون التصرف فى مشاعرهم ومشاكلهم بأنفسهم .. ، وهذا الأمر يترك أثره على الأبناء فلا يرتاحون عند الكبر لمناقشة مشاعرهم مع أحد ..

أخي المربي ...

لقد مست الحاجة اليوم لوجود ما يمكن أن نطلق عليه إجتماعًا عائليا بين أفراد الأسرة حتى لو لم يستغرق سوى ساعة واحدة ، ولم يتكرر سوى مرة فى الأسبوع ... تبحث فيه مشكلات العائلة ، ويشعر فيه الأبناء أنك " قائد " العائلة ..

إن هذه الإجتماعات فى غاية الأهمية للتواصل مع الأبناء ، ومعرفة التزاماتهم وأعمالهم خلال الأسبوع ، ومناقشة وحل مشكلاتهم قبل استفحالها .

نقترح أن يكون الإجتماع مساء الجمعة مثلًا ..

حاول فى البداية إثارة اهتمام ومشاركة كل فرد عبر دعوتك للجميع أن يكملوا هذه الجملة " خلال هذا الأسبوع كنت أتمنى أن يقوم أبى وأمى بـ .... والأشياء التى حدثت ولا تعجبنى هى .... "

المهم أن يعتمد الإجتماع على حرية التعبير التى تفتح مجالًا لمشاركة كل فرد من أفراد الأسرة ن مع إبعاد مفهوم التسلط الصادر عن الدكتاتورية الفردية للتحكم بالقرار الواحد ... ويناقش هذا الإجتماع مواضيع متعددة يتفق عليها بأسلوب ودي ، بحيث لا يشعر أى فرد بأنه مرغم على تداول مواضيع لا تهمه ..

وكذلك ومن خلال التحاور مع الأبناء يمكن معرفة مواعيد امتحاناتهم أو ما هو مطلوب منهم فى المدارس .. وتساءل معهم عن موعد الإجازة « وما الشكل الأفضل لقضائها ..

وهذا الإجتماع الأسري لا يهتم فقط بالمشاكل العالقة ، بل إنه يقوم باقتراح المشاريع التى يمكن أن يستفيد منها الجميع ..

ويجب مراعاة بعض القواعد فى هذا الإجتماع ، ومنها :

البدء والانتهاء فى الوقت المحدد ... عدم مقاطعة أحد خلال حديثه .. عدم انتقاد أو السخرية من الآخر أو من مشاعره .. إعطاء كل فرد الحق فى المشاركة ..

كما يجب أن يشمل الاجتماع كل الأولاد مهما صغر سنهم ، وحتى سن متقدمة من عمرهم ، مما يساعد الأولاد على التعرف على الأساليب الصحيحة للتفاهم ، وأساليب السماع مطولًا ومليًا وعن كثب لأكثر المشاكل المطروحة اجتماعيًا أو عمليًا. وأساليب المناقشة المثمرة التى تعود بالنفع على الجماعة ، مما يساعدهم على مجابهة الحياة بكل ثقة ونجاح .

فإذا وجدت – أخي المربي – تغيبًا من بعض أبنائك عن مثل هذه الإجتماعات – خاصة أولئك الذين يمرون بفترات المراهقة – ، فلا تجبرهم ، وإنما يمكنك أن تقول: " غالبًا ما اجد لديك أسبابًا وجيهة لفعل أى شىء أو الإحجام عنه ، فما هى أسباب عدم رغبتك فى حضور مثل هذه الإجتماعات " " لماذا لا تحضر اجتماعًا أو اثنين ثم ترى إن كان هذا يناسبك .. أقصد الحضور

لتلك الأمسية الجميلة مع إخوتك ؟ ".

.. ولا نريد أن نعيد هنا التأكيد على أنه من الأهمية بمكان أن يسود إجتماعات التواصل مع الأبناء جو من خفة الظل والمتعة ، وألا تكون جلسة كئيبة ، بل نشارك الأبناء الضحك ، ونتجنب الاستهزاء بما يقولون مهما كانت غرابته !! ونلمس الجوانب الطيبة فى نفوسهم ، لنجد أن " هناك خيرًا كثيرًا قد لا تراه العيون أول وهلة!..

لقد جربت ذلك. جربته مع أبنائي ، ومع غيرهم .. شيء من العطف على أخطائهم، وحماقاتهم، شيء من الود الحقيقي لهم، شيء من العناية ـ غير المتصنعة ـ باهتماماتهم وهمومهم.... ثم ينكشف لك النبع الخير في نفوسهم، حين يمنحوك حبهم ومودتهم وثقتهم، في مقابل القليل الذي أعطيتهم إياه من نفسك، متى أعطيتهم إياه في صدق وصفاء وإخلاص !

فقط .. شيء من سعة الصدر في أول الأمر كفيل بتحقيق ذلك كله، أقرب مما يتوقع الكثيرون... لقد جربت ذلك، جربته بنفسي. فلست أطلقها مجرد كلمات مجنحة وليدة أحلام وأوهام!".[1]

أخي المربي ..

إنك تعمل لساعات طويلة لإسعاد أبنائك ، ولكن لم يعد لديك وقت لرؤيتهم..!!

ومثلك فى ذلك كمن يأخذ كبسولة ليوقف الرشح ، ولكنها تتركه نعسان ولا يستطيع أداء عمله !!

فكّر فى هذا المعنى ؟!!

---

(١) راجع إن شئت " أفراح الروح – سيد قطب ".

وتأكد أنه حين تنقلب جهودك المبذولة لتنشئة أطفالك إلى الضد ، فلا بد أن يكون شيء ذو أهمية بالغة مفقودًا .. ذلك الشيء هو التواصل بينك وبين أبنائك !! وهو شيء يستحق منك المحاولة ، ويستحق منك بذل الوقت .. فلا تبخل بوقتك على أبنائك .. واعلم أن ..

• التواصل مع الأبناء متعة :

تمضي حياتنا مع أبنائنا ، وكأنها قطار سريع جدًا ، ولاهث جدًا ، لا يتوقف عند محطات التواصل والتفاهم ، بل غالبًا ما يتوقف عند محطات المحاسبة والعقاب .. وقليلًا ما يتوقف عند لحظات السعادة العميقة ، بل غالبًا ما يتوقف عند لحظات الألم .. وبسبب هذا اللهاث ؛ فإننا نفقد التواصل مع أبنائنا .. وحتى إن تواصلنا معهم ؛ فإننا نأتي هذا الأمر كعبء ثقيل ، و بلا أدنى استمتاع حقيقي ..!!

إن الكثيرين منا – حتى إن تواصلوا مع أبنائهم- فإنهم يأتون ذلك من قبيل " الواجب الثقيل " وليس من قبيل " الإستمتاع الحقيقي " !!

نعم .. إن أشد ما يؤسف له أن أكثرنا لا يفطن أن صحبة الأبناء متعة حقيقية .. وأنها أكثر إشباعًا عن متعته بأن ولد له .. فما أكثر من رزقوا أبناء ، وما أقل من يعرفون أبناءهم ويفهمونهم ويعملون على صحبتهم .

وما أكثر الآباء الذين لم يذوقوا قط ما فى صحبتهم لأبنائهم من متعة حقيقية ..

ولذلك أخي المربي – أبًا أو أمًا – أدعوك لمتابعة هذه المتعة الحقيقية من خلال يوم من التواصل مع الابن ..

– " الصباح الجميل ..

تسحب الأم الغطاء من فوق الابن ، وتصرخ : انهض ! لقد تأخرت !

ويحاول الابن أن يبقى " عشرة دقائق فقط يا أمي " .. ولكن هذه الـ " عشرة دقائق " لا تنتهي ..

وتبدأ الأم فى وصم الابن بأنه " كسول " .. و أن وجهه فى الصباح : نكد " .. وربما " يقطع الخميرة من البيت " !!

والنصيحة هنا " أن نعيش مشاعر الابن النائم ، بدلًا من التعارك معه ؟!

مثال :

- إن الاستيقاظ اليوم يبدو صعبًا
- إن الرقاد فى السرير ، والاستسلام للأحلام لشىء ممتع !!
- خذ خمس دقائق أخرى

.. إن هذه الأقوال تجعل الصباح وضاءً بالبهجة والسعادة ، إنها تخلق جوًا من الدفء والمودة ، على عكس الأقوال التالية ، فهي تدعو لجو عاصف بارد :

- استيقظ يا كسلان !
- قم من السرير حالًا ، وإلا سأعاقبك !
- قم سقط عليك حائط !

.. أما مثل الأقوال التالية :

- هل مازلت فى السرير ؟ هل أنت مريض ؟ هل تشعر بأي ألم ؟ هل عندك مغص ؟ صداع ؟ ..

فهذه الأقوال توحي بأن الطريقة التى يستحوذ بها الابن على الرعاية الحانية هى أن يكون مريضًا. وهذا ربما يدفع الابن إلى القول بأنه يشعر بالمرض ، ربما إرضاء الأم ، أو للهروب من الاستيقاظ ، والذهاب للمدرسة.

- ســـاعة الذروة ..

نحن نستعجل الطفل دائمًا .. أسرع .. ليس عندنا وقت ..!!

والأفضل أن نعطيه حدود الوقت المعقول ، ونتركه ليكون جاهزًا فى الوقت المطلوب :

مثال :

أتوبيس المدرسة سيكون هنا بعد عشر دقائق .

العشاء سيكون فى تمام التاسعة ، والآن الساعة الثامنة والنصف .

إن صديقك سيكون هنا فى خلال خمس عشرة دقيقة .

... هكذا ، وكأننا نقول للطفل : إننا نتوقع منك أن تكون جاهزًا فى الموعد المحدد ، وأننا نثق فى ذلك تمامًا .

- الإفطار .. وجبات بدون مواعظ :

إن وجبة الإفطار ليست وقتًا مناسباً لتعليم الأطفال الفلسفات العالمية ، أو المواعظ أو آداب التصرف .

إنه الوقت المناسب لننقل فيه للأطفال أن منزلهم فيه مطبخ ومائدة طعام مع جو بهيج وطعام جيد.

وبصفة عامة فالإفطار ليس الوقت المناسب للمحادثات الطويلة ، فغالبا ما يكون الآباء أو الأطفال نعسانين ، ضيقي الخلق ، وقد تتحول المجادلات إلى نوبات غضب بسهولة ..

- إرتداء الملابس .. معركة رباط الحذاء

فى بعض البيوت ، ينشغل الآباء والأطفال فى معركة يومية على رباط الحذاء ، ويقول أحد الآباء : عندما أرى حذاء ابني مفكوك الرباط ، تنفك معه أعصابي ؛ أريد أن نعرف هل نجبره على ربطه ، أم ندعه يتجول به مفكوكًا ، وقد يكون فى غمرة السعادة ، ولكن ألا يجب أن نعلمه المسؤولية ؟ من الأفضل عدم ربط تعليم

المسؤولية مع ربط الحذاء .. ومن الأفضل تجنب المجادلات بشراء حذاء الطفل بدون رباط ، أو ربطه بدون تعليق .. ويظل المرء يؤكد أن الطفل نفسه إن آجلًا أو عاجلًا ، سيتعلم الاحتفاظ بحذائه مربوطًا ..

لا يجب أن يذهب الأطفال إلى المدرسة وهم يرتدون (ما على الحبل) .. فلا يجب أن يقلقوا بخصوص الاحتفاظ بملابسهم نظيفة ، بل يجب أن تأخذ حركة الطفل على الجري أو القفز أو اللعب – أسبقية ـ على نظافة الملابس ، وعندما يعود الطفل من المدرسة بقميص متسخ *فعلى الأم أن تقول :*

يبدو أنك قضيت يومًا حافلًا ، إذا أردت أن تغير يوجد قميص آخر فى حجرتك.

وليس من المفيد أن تقول للطفل : كم هو آخر بهدلة .. وكم يبدو قذرًا .. وكم تعبنا وزهقنا من غسيل وكي قمصانك ، فالطريقة الواقعية لا تركن لمقدرة الطفل على تقديم النظافة على اللعب .

وبدلًا من ذلك ، تأخذ أمرًا مسلمًا به أن ملابس الأطفال لن تستمر نظيفة مدة طويلة .. وزيادة لبس الطفل للقمصان ، قميصين نظيفين أفضل بالنسبة للصحة العقلية من مائة موعظة عن النظافة .

- الذهاب إلى المدرسة ..

من الممكن توقع أن الطفل فى اندفاعه فى الصباح قد ينسى بعض كتبه أو نظارته أو طعامه أو مصروفه .. ومن المستحسن مناولته ما قد نسيه بدون إضافة أية مواعظ عن سرحانه وعدم مسؤوليته ..

وسيكون القول :

- ها هي نظارتك .. أكثر فائدة للطفل من : أريد أن أعيش وأرى اليوم الذى تتذكر فيه لبس نظارتك

- ها هو ذا طعامك ... أفضل من إنك شادر الذهن ، إنك ستنسى رأسك إذا لم تكن مثبتة فوق كتفيك .

- هاهو ذا مصروفك .. سيفضلها الطفل أكثر من السؤال التهكمي : كيف تخرج بدون نقود ؟

ويجب عدم إعطاء الطفل كشفًا باللوم والتحذير قبل الذهاب إلى المدرسة ..

فلتجعله يومًا سعيدًا أفضل من التحذير العام . إياك والدخول فى مشاكل ..

سأراك فى الساعة الثانية " أكثر إرشادًا للطفل عن " لا تنسى نفسك فى الشوارع بعد المدرسة .

- العودة من المدرسة ..

من المحبب أن تكون الأم فى البيت لاستقبال الطفل عند عودته من المدرسة ، وبدلًا من سؤاله أسئلة تجعله يجيب إجابات مبتذلة ..

- كيف كانت المدرسة ؟
- تمام .
- ماذا فعلت اليوم ؟
- لا شيء .

... يمكن للأم أن تقول ما يحمل تفهمها للمحاولات ، والمحن بالمدرسة :

- - يبدو أنك قضيت يومًا عصيبًا
- أكيد لم تستطع الانتظار لانتهاء المدرسة
- يبدو أنك سعيد برجوعك للبيت .

......

- *عودة الأب إلى البيت ..*

عندما يعود الأب للبيت بعد الظهر ، فهو يحتاج إلى فترة انتقالية هادئة بين مطالب الدنيا ، ومطالب أسرته ، فيجب عدم مقابلة الأب عند الباب بوابل من الشكوى والمطالب ..

إن مشروبًا جاهزًا أو حمامًا دافئًا ..أو صحيفة اليوم أو مجلة الأسبوع ، مع فترة " اللاأسئلة " تساعد على خلق واحة الهدوء التى تضيف الكثير لنوعية حياة الأسرة ..

ومن الطفولة المبكرة يتعلم الأطفال أنه عند عودة الأب للبيت فهو يحتاج إلى فترة قصيرة من الهدوء والراحة ، والعشاء أو الغداء من ناحية أخرى يجب أن يكون وقتًا للمحادثة ، ويجب التركيز على الطعام بشكل أقل إلا إذا كان ذلك التركيز من أجل الطفل ، فقليل من الملاحظات على كيف ؟ ، وماذا يأكل الطفل ؟ ، وبعض الأفعال الإنضباطية مع أسئلة كثيرة من فن الحديث العتيد ..

- *وقت النوم ..*

فى كثير من البيوت وقت النوم هو وقت الهرج والمرج كمجانين مستشفى المجاذيب - مع أطفال وأمهم وهم يشكلون مجتمعًا من الاحباط المتبادل - فالأطفال يحاولون البقاء مستيقظين أطول مدة ممكنة ، فى حين أن الأم تريدهم أن يخلدوا للنوم فى أسرع وقت ممكن ، وتصبح الأمسيات هى وقت العكننة الأكبر للأمهات ، ووقت المراوغة التكتيكية للأطفال .

إن أطفال ما قبل المدرسة ، يحتاجون من الأم أو الأب أن يدسوهم فى السرر ..

ويمكن الاستفادة من وقت النوم من أجل المحادثة الحميمة مع كل طفل ، ويبدأ الأطفال عندئذ فى التطلع إلى وقت النوم وانتظاره فى شوق ، فهم يحبون أن يستأثروا بأمهم أو أبيهم ، ويكون لديهم وقت يقضونه معًا ، وإذا تحاملت الأم على نفسها ، واستمعت فسيتعلم الطفل إشراكها فى مخاوفه وآماله وأمنياته ..

إن هذه اللحظات الحميمة تخفف عن الطفل قلقه ، وتهدهده وتدخله فى نوم هنيء وسعيد.

وهناك أيضًا بعض الأطفال الأصغر سنًا يحبون أن تضعهم أمهاتهم فى الفراش ، فيجب أن تحترم رغبتهم ، وتنفذ لهم ذلك ، ويجب عدم السخرية منهم أو انتقادهم لحاجتهم إلى ما قد يبدو للأباء ما يسمى " شغل عيال " .

أما وقت النوم بالنسبة للأطفال الأكبر فيجب أن يحدد ويثبت موعده .. ووقت النوم هو ما بين الثامنة والتاسعة (أو التاسعة والعاشرة) " [١] .

.. *هذا فى الأيام العادية .. أما إن كان اليوم هو يوم الإجازة* ، فإن الخروج مع الأطفال فى يوم الإجازة مسألة فى غاية الأهمية ، ولا بد أن نأتيها كآباء من باب " الاستمتاع " بالتواصل مع أبنائنا ..!!

فليس من المطلوب أن نصحب أبناءنا فى نزهة للترفيه ، بينما نحس نحن بالغم والهم لأجل ذلك ..

إن هذا الإحساس سيدفعنا ولا بد إلى الصراخ طوال اليوم وعقابهم على أدنى زلة أو خطأ ..

وليس من المطلوب أن نقوم بالتواصل مع أبنائنا فى يوم الأجازة وكأنه "واجب " ثقيل الظل . أو أنه مجرد خروج لقضاء مسؤولية نتمنى ألا تكون قد بدأت . أو إنها عبء ثقيل ضمن أعباء الأسبوع الأخرى . أو إنها الاستجابة الأسبوعية للمطاردة بين الابن وأسرته ... فإذا كنتم تضغطون عليه بالمذاكرة وبالتهديد والوعيد ، فلماذا لا تكونوا أوفياء بحقوقه الأساسية الأولى وهي أن يخرج إلى الهواء الطلق ؟ أو أن يتجول فى حديقة يختارها الأب أو الأم .. حديقة ينطلق فيها كل فرد من أفراد الأسرة مع أفكاره ومشاعره .

---

(١) بين الآباء والأبناء – د/ ج جينوت – ص ١٠٣ – ١١٠ بتصرف.

إن هذا اليوم لا يمكن اعتباره يومًا عاديًا من الأيام التى تتلاقى فيها الأسرة ، فالخروج مع الأطفال بهدف الترفيه يجب أن يكون أمرًا محببًا للأب وللأم .

إن قبول صحبة الطفل يجب أن لا يكون عبئًا ....

إن الطفل الذى يشعر أن أسرته تسعد بصحبته هو أقل الأطفال إزعاجًا للأسرة فى يوم العطلة .....

وعندما نخرج مع الطفل إلى نزهة ما ، علينا أن ننسى تمامًا لهجة التهديد التى تصاحب الآباء والأمهات قليلي الصبر ..

.... وعلينا نحن الآباء أيضًا أن لا نضغط على الأطفال بمعرفة الأحداث أو بمشاهدة الوقائع كما نراها نحن .

خذ مثالًا ..

إذا قمنا بزيارة حديقة الحيوان ، فإننا نترك للطفل حرية التوقف عند الحيوانات التى يجب أن يراها ، وأن نترك له الفرصة ليناقش حارس هذا الحيوان .. وإذا استبد التعب والملل بالطفل ، ولم يعد قادرًا على أن يستكمل مشاهدة الحيوانات .. هنا علينا أن نتوقف عن الضغط أو الإلحاح عليه . إن الطفل قد يشاهد ما نريد له أن يراه ، إنما من دون استمتاع ، بل إن ما يراه بالضغط عليه إكراهًا ينسيه ما شاهده بسرور وسعادة واستقبال."[1] .

إننا إن أردنا إسعاد أبنائنا بتواصلنا معهم ؛ فلا بد ان يكون هذا التواصل بالطريقة التى يحبها الأبناء .. بل ، ولا بد أن يستشعروا سعادتنا الحقيقية فى هذا التواصل .. السعادة الحقيقية ونحن نشاهدهم يركضون ويلعبون .. السعادة الحقيقية ونحن نرقبهم يلعبون متحررين من كل القيود .. بل السعادة الحقيقية

---

(١) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د/ مبوك – ص ٣٠ – ٣٢ بتصرف .

ونحن نسمع أصوات لعبهم ، ونرى فوضى تشاجرهم ، ونوسع صدورنا لكل هذا، ونذوق فيه حلاوة القرب التى لا يعرفها إلا من حرمها ، أو حرم نفسه منها بالبعد عن الأبناء .. فأصبح يشعر بالأسى لأجل غيابهم، وغيـاب لعبهم ، فأنشد يقول:[(١)].

أين الضجيج العذب والشغب | أين التدارس شابه اللعِبُ
أين الطفولة في توقُدِها | أين الدمى في الأرض والكتبُ
أين التشاكس دونما غرض | أين التشاكي ما له سببُ
أين التباكي والتضاحك في | وقت معًا والحزن والطرب
أين التسابق في مجاورتي | شغفًا إذا أكلوا وإن شَرِبوا
يتزاحمون على مجالستي | والقرب مني حيثما انقلبوا

أخي المربي ..

إن من حقك أن تستمتع بأبوتك من خلال التواصل مع أبنائك .. وطريقك إلى هذا " الإستمتاع " هو أن تعطي أبنائك الحنان والرحمة فى كل تواصل بينكم ..

أكثر من الاتصال اللفظي:

حبي ، عزيزي ، أحترمك ، أقدرك معجب بسلوكك ، فكرتك ممتازة .. الخ .

وأكده بالإتصال الحركي:

الجلوس علي الطعام والمرافقة في الزيارات والمواعيد الخاصة والمشاركة في الرحلات والنزهات ، وكذلك المجالسة اليومية ..

---

(١) هو عمر بهاء الدين الأميري

فإن اخترق تواصلك الجيد مع أبنائك موقف سلبي لتشاجرهم ، أو سلوك سيئ لأحدهم ؛ فتناساه ولا تجعله يؤثر على استمتاعك ، وقم بتغيير الموضوع ، وحاول التحاور مع من تشاجروا للوصول إلى حل .. وحاول تغيير السلوك السيء باستخدام روح المرح !!

ثم ادعهم جميعًا لعمل مشترك أو لعبة جماعية .. وحاول مرة أخرى أن تتواصل مع أبنائك تواصلًا يملؤه الحنان والرحمة ، واعلم أن هذا التواصل – بهذه الصفات – هو ما يجعلك تشعر " السعادة الحقيقية " .

❀❀❀

الفصـــل الثاني

المداعبة .. المظلة الواقية

عندما يسود الأدب تواصل الآباء والأبناء ، ويشعر الأبناء بالإندماج والتعاون ، وتسود المرونة سلوكيات أفراد الأسرة ، ويتسم المناخ الأسري بالدفء والقبول، ويظلله مرح الآباء وابتساماتهم .. عندها يتحمس كل فرد فى الأسرة لتحقيق أهداف الآخرين ، ويكتسب الأبناء قيّم الآباء، ويتقبلون إرشادهم، بل وعقابهم !!

ذلك أن الرفق يزيل القلق .. والرحمة تذهب التوتر .. فيستشعر الأبناء محبة الآباء واهتمامهم ، ومن ثم يتكاتفون معهم لحل ما قد يواجه الأسرة من مشكلات.. فى ظلال التواضع والحب والرحمة .. ومن قبل ذلك ، ومن بعده .. المداعبة ، تلك المظلة الواقية !!

• لا تخلط لعبك بالتوجيه الدائم :

للتواصل مع الأبناء أساليب كثيرة ووسائل متكاملة ومتداخلة تساعد على الإندماج بين المربي والمتربين ..

فمنها ، لغة المربي وطريقة تخاطبه مع الأبناء ، وأساليبه فى الحوار معهم ، ونوع الكلمات المستخدمة ، فلا فظاظة ولا غلظة ، ولا سباب ولا تكلف .. قال تعالى : ﴿ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

" إن الناس ينفرون من الكثيف ، ولو بلغ فى الدين ما بلغ ، ولله ما يجلب اللطف والظرف من القلوب فليس الثقلاء بخواص الأولياء ، .. والمربي يجب أن

يكون من أحلى الناس ، وألطفهم وأطرفهم ، بل وأكرمهم وألينهم .. [1] .. عن أنس رضي الله عنه قال : لم يكن النبي ﷺ سبابا ولا فحاشًا ولا لعانًا ، كان يقول لأحدنا عند المعاتبة : " ماله تربت جبينه " أخرجه البخاري .

وهكذا كلما كان المربي لينًا فى حديثه مع المتربين ، وغير جارح فى خطابه ، ينتقى الكلمات اللطيفة والأجوبة الرفيقة كلما كان متفاعلًا محبوبًا .. عن جابر رضي الله عنه قال : " ما سئل النبي ﷺ عن شيء قط ، فقال : لا :" أخرجه البخاري .

وعن أنس رضي الله عنه قال : " خدمت النبي ﷺ عشر سنين ، فما قال لى أف قط ، ولا : لم صنعت ؟ ولا : ألا صنعت ؟ " أخرجه البخاري .

ومن أعجب ما يروى عن النبي ﷺ فى رحمته بالأولاد الحديث الذى ذكره الهيثمي فى مجمع الزوائد ، عن أبى ليلى قال : كنت عند النبي ﷺ ، وعلى صدره ، أو بطنه الحسن أو الحسين عليهما السلام فبال فرأيت بوله أساريع (أي طرائق) ، فقمت إليه ، فقال دعوا ابني لا تفزعوه حتى يقضي بوله ، ثم أتبعه الماء " وفى رواية " لا تستعجلوه " !!

إن من أهم الوسائل التى تعين المربي على نجاح ذلك التواصل مع المتربي : معاملة الابن بالملاطفة وحسن الخلق " أكمل المؤمنين أحسنهم أخلاقًا وألطفهم بأهله " رواه الترمذى والحاكم .

كما أن ، المباسطة مع المتربي والتصابى له تؤكد التواصل مع الأبناء وتقويه ..

روى الطبراني عن جابر قال : دخلت على النبي ﷺ وهو يمشى على أربعة ، وعلى ظهره الحسن والحسين وهو يقول : " نعم الجمل جملكما ، ونعم العدلان أنتما "

وقد أجملت عائشة رضي الله عنها حال رسول الله إذا خلا فى بيته فقالت :

---

(١) تهذيب مدارج السالكين – عبد المنعم صالح العلي – ص ٥٧٦ .

«كان ألين الناس بسّامًا ضحاكًا» ...

ولنا قدوة – كآباء ومربين – فى هذه الملاعبة من النبى ﷺ للحسن والحسين وركوبهما على ظهره والمسير بهما .. تلك الملاعبة التى تنمي نفس الابن وتساعده على إظهار مكنونها ..

إن النبي ﷺ " يوجه نداء عامًا لكل والدين أن يتصابيا لطفلهم : فقد روى ابن عساكر عن أبى سفيان قال : دخلت على معاوية وهو مستلق على ظهره ، وعلى صدره صبي أو صبية تناغيه . فقلت : أمط هذا عنك يا أمير المؤمنين ! قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من كان له صبي فليتصاب له "

.... بل لقد روى الطبري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يصلي فجاء الحسن والحسين أو أحدهما رضي الله عنهما ، فركب على ظهره فكان إذا رفع رأسه قال بيده فأمسكه أو أمسكهما قال : "نعم المطية مطيتكما"(١) .

ولقد " اقتدى الصحابة رضوان الله عليهم برسول الله ﷺ فسارعوا إلى مداعبة وممازحة أطفالهم فنزلوا إلى منازلهم ، وتصابوا لهم ولاعبوهم ..

قال عمر رضي الله عنه : ينبغي للرجل أن يكون فى أهله كالصبي – أى فى الأنس والبشر وسهولة الخلق والمداعبة مع أولاده – فإذا التمس ما عنده وجد رجلًا .

حتى أن عمر رضي الله عنه ليعزل أحد عماله عن الرئاسة لأنه وجد منه دليلًا واضحًا على قسوة قلبه تجاه أولاده .. فعن محمد بن سلام قال : استعمل عمر رضي الله عنه رجلًا على عمل ، فرأى الرجل عمر يقبل صبيًا له ، فقال الرجل : تقبله

---

(١) لإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ٤١ ، ٤٢ .

وأنت أمير المؤمنين ؟ لو كنت أنا ما فعلته . قال عمر : فما ذنبي إن كان نزع من قلبك الرحمة! إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء ، .. ونزعه عمر من عمله ، وقال : أنت لا ترحم ولدك فكيف ترحم الناس .؟؟ "(١)

وكما أن الملاعبة من طرق التواصل الجيد مع الأبناء ، فكذلك الدعابة والمزاح بين الحين والحين ، والملاطفة والتورية فى الحديث ، والتعليق دون جرح المشاعر ، والملاعبة بما لا يذهب الهيبة .. تعد كلها من الوسائل التربوية التى تساعد على حسن التواصل بين المربي والمتربي ، ومن ثم التأثير فيه بما ينفعه..

عن محمود بن الربيع رضي الله عنه قال : إني لأعقل مجة مجها رسول الله ﷺ فى وجهي وأنا ابن خمس سنين من دلو [أخرجه البخاري].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يدخل على أم سليم ولها ابن من أبى طلحة يكنى أبا عمير وكان يمازحه فدخل عليه فرآه حزينًا ، فقال : مالي أرى أبا عمير حزينًا . فقيل مات نغره الذى كان يلعب به . قال : فجعل يقول : أبا عمير ما فعل النغير " أخرجه أحمد .

وتأمل معي من صور مداعبة الرسول ﷺ للأطفال ، أنه مر بعبد الله بن جعفر وهو يبيع مع الصبيان (أى يلعب لعبة البيع) فقال : " اللهم بارك له فى بيعه"(٢).

ومثلما الدعابة من وسائل التواصل الجيدة .. فإن اللعب أيضًا يمثل وسيلة من أفضل وسائل التربية للأبناء ، " وكان ﷺ يحفز المتعلمين بالترويح واللعب والدعابة مما يذهب ملل المتعلمين ، ويجعلهم أكثر حيوية ونشاطًا فى أعمالهم ، كما أن الأجواء التربوية كانت أجواء مفتوحة ومتجددة ، فالتربية تحدث فى المسجد

---

(١) المصدر السابق – ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) الإصابة – ج ٢ / ٢٨١ .

والسوق والبيت ، وفى الرحلات الدعوية والاستطلاعية والجهادية والعبادية كرحلات العمرة والحج وغيرها . وهذه الطبيعة التحفيزية الكامنة فى الجو التربوي وفى البيئة الدعوية تعتبر ميزة من ميزات علم النفس التربوي الإسلامي فى الحفز مفهومًا وتطبيقًا . حيث نجد الحوافز تنبعث من طبيعة البيئة التربوية و أحداثها وميادينها ، وتأخذ اتجاهًا عمليًا يحرك الناس ضمن الحقل التربوي ذاته . "[1]

لقد كان النبي ﷺ - وهو قدوتنا فى كل شىء - يلاعب أبناء الصحابة ، ويروح عن نفوسهم ، ويدخل السرور عليهم ، ويمرح معهم ، ويستأنس بهم ، ويشجعهم على اللعب البرىء والمرح المباح ..

فمن ذلك ، ما أخرجه الإمام أحمد باسناد حسن عن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يصفّ عبد الله وعبيد الله وكثيّر بني العباس رضي الله عنهم ، ثم يقول : " من سبق إلي فله كذا وكذا " ، قال : فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم .

- وأخرج أبو يعلى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : رأيت الحسن والحسين رضي الله عنهما على عاتقي النبي ﷺ فقلت : نعم الفرس تحتكما ! فقال عليه الصلاة والسلام : " ونعم الفارسان هما" .

- وروى الطبراني عن جابر رضي الله عنه قال : دخلت على النبي ﷺ فدعينا إلى طعام فإذا الحسين رضي الله عنه يلعب فى الطريق مع صبيان ، فأسرع النبي ﷺ أمام القوم ، ثم بسط يده فجعل يفر ههنا وههنا ، فيضاحكه رسول الله ﷺ حتى أخذه فجعل إحدى يديه فى ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه ، ثم اعتنقه وقبله ، ثم قال : "حسين مني وأنا منه!!.. أحب الله من أحبه ، الحسن والحسين سبطان من الأسباط ".

- وروى الطبراني عن جابر رضي الله عنه قال : دخلت على النبي ﷺ وهو

(١) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ١٠٧ .

يمشي على أربعة (أى على يديه ورجليه) وعلى ظهره الحسن والحسين وهو يقول : " نعم الجمل جملكما ، ونعم العدلان أنتما "

- أخرج مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : " كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا ، فأرسلني يومًا لحاجة ، فقلت : والله لا أذهبن ، وفى نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ ، فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون فى السوق ، فإذا برسول الله ﷺ بقفاي من ورائي ، فنظرت إليه وهو يضحك ، فقال يا أنيس : ذهبت حيث أمرتك ؟ قال : قلت نعم أنا ذاهب يا رسول الله ، قال أنس : والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته : لم فعلت كذا وكذا ؟ أو لشيء تركته : هلا فعلت كذا وكذا "

... ومن هنا فقد نادى علماء التربية الإسلامية بحاجة الطفل إلى اللعب والمرح والترويح عن النفس بعد الانتهاء من دروسه أو عمله ..

فهذا الإمام الغزالي ، يتنبه إلى ذلك من جهة حث الولد على طلب العلم ، وعدم التنفير منه فقال رحمه الله : " وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتّاب أن يلعب لعبًا جميلًا يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب فى اللعب ، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعليم دائمًا يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسًا " (١)

ولكي يؤدي اللعب أثره التربوي فى نفوس الأبناء لا بد للمربي من اعتبار عدة أمور :

فمنها .. عدم تدخل الأب والمربي فى شأن الطفل أثناء لعبه ، فلا يفرض عليه خطة اللعب ..

---

(١) إحياء علوم الدين – أبو حامد الغزالى – ج٣ ، ص ٧١

ومشاركته اللعب بين حين وآخر تعليمًا له وتفريحًا ..

وتشجيع الأطفال على بعض الأنواع من اللعب التى تربط بين النظر واليد خلال اللعب: مثل اصطياد السمك بالمغناطيس ، وعمل عقد من المكرونة ذات فتحة .. وربط قطعة اسفنج مستطيلة من وسطها ، ثم من زاويتي المستطيل لتصبح على شكل قطة .. أو تدريب الطفل على قذف كيس صغير فى دولاب بلاستيك على بعد متر مثلًا ..

هذه كلها ألعاب زهيدة التكاليف ، ولكنها تدخل البهجة والفرح على نفوس الأطفال .. وتعلمهم أمورًا مفيدة فى ذات الوقت .

ومنها .. مشاركة المربي لأبنائه فى لعبهم " سواء أكان هذا اللعب مجرد دحرجة الكرة للطفل الوليد ، أم إبداء الإعجاب بتطريز البنت ، أم إضافة الخطوط السريعة إلى رسمها ، أم مشاركة البنت وهى تلعب لعبة العروسة وتتعلم منها آداب الحديث والطعام والاستئذان ، أم مشاركة أفراد الأسرة فى لعبة ما ، فكثير من نشاط الأطفال يغدو أكثر إمتاعًا لو أن الآباء شاركوهم فيه "[1] .. وبخاصة إذا كانت هذه المشاركة كاملة كأن تتسخ يديك – أخي المربي – من الألوان التى يستخدمها أبناؤك، أو أن تتعامل مع الصلصال الذى يلهون به ، وما إلى ذلك من اندماج مع الأبناء ..

فهل هذه هى الصورة التى نتواصل بها مع أبنائنا من خلال اللعب ؟

إننا – فى الحقيقة – كثيرًا ما نخلط بين لعبنا مع الابن ، وبين توجيهه بلا صبر؛ فتنطلق أوامرنا للابن .. إن لم تسمع الكلام سآخذ منك اللعبة .. إن لم تأكل فلن تلعب بها ... إن لم تلعب بصوت هادىء فلن آخذك معى فى نزهة يوم العطلة ..

(١) الإنصات الإنعكاسي – محمد ديماس – ص ٤٣ – ٤٥ .

وغيرها ..

إننا ننسى فى هذه التوجيهات الغاضبة شيئًا فى غاية الأهمية وهو أن الأساس الوجداني للابن ومشاعره ليسا محلًا تجاريًا نطلب منه فنأخذ حاجتنا .. و أن الشكل الصحيح فى هذا التواصل والقاعدة الثابتة يجب أن تكون " إن أبناءنا أصحاب الحق فى الحياة واللعب ، وأن طلباتهم فى ذلك مجابة مادامت معقولة "

ومن هنا وجب علينا :

١ – عدم التدخل فى شأن الطفل أثناء انصرافه إلى اللعب ، إلا إذا استلزم نظام طعامه أو نومه ذلك ، أو إذا تعرض الطفل للخطر .

على أن نكون مستعدين لتشجيعه وتقدير أعماله ، وتقديم العون له إذا طلبه إلينا فقط.

٢ – أن نتقبل الفكرة أو الخطة التى يرسمها الصغار للعبهم ، ولا نفرضها عليهم ، من أجل استفادتهم وللوقوف على أسلوبهم فى التفكير ، وهكذا نستطيع أن نوجه نشاطهم فى لباقة ، تبعد عن الفوضى والعبث "[(١)].

ولا تظن – أخي المربي – أن " إغراق الطفل بالألعاب المختلفة ذات الثمن المرتفع يسعده ، فقد يتركها جانبًا ليلعب بـ (كرتونة فارغة) يربطها ويسحبها ، ذلك أنه بحاجة إلى أن يشعر بكيانه فى ألعاب جماعية ، بعيدًا عن الوحدة والانطواء فى الألعاب الفردية الغالية الثمن ...

وهذه فرصة تربوية ثمينة حيث يمكن عبر اللعب تعليم الأطفال انتظار الدور والصبر واحترام رغبات الغير ، والبعد عن العزلة ، والحرية المنضبطة.. "[(٢)].

---

(١) تربية الأطفال فى رحاب الإسلام – محمد الناصر ، خولة درويش – ص ١٤٧ .

(٢) تربية الأطفال [illegible] درويش ومحمد الناصر – ص ١٤١–١٤٥ بتصرف.

إن أطفالنا يحتاجون إلى اللعب ، ليس فقط مع بعضهم البعض ، ولكن أيضًا مع الكبار حتى يتعلموا أهمية القواعد والقوانين التى تحكم كل الأمور ..

فهل نحن كآباء نقدر روح الطفولة وطبيعتها ، وندرك أن اللعب حق من حقوق الصغار ، وأن " الطفل الذى يلعب بنشاط ، ولا ينفك يلعب حتى يصيبه الإجهاد فيكفّ .. هذا الطفل سيكون فى مستقبل حياته شخصًا ذا إرادة وعزيمة يكافح ويستميت فى النضال لخيره وخير غيره " [١] .. وهل نعلم أن قمع نشاط الطفل، واعتقال انطلاقه ، والتضييق عليه بالواجبات المدرسية هو خطأ تربويّ يحرمه من حقّه الخالد بالتمتع بالطفولة البريئة ؟!!

إن اللعب هو المتنفس الأكبر للطاقة الهائلة عند أطفالنا، وهذه الطاقة إذا كتمت، لسبب أو لآخر، تراكمت كما يتراكم الغبار على أثاث بيت مهجور وزجاجه؛ فيعتم النوافذ فلا يدخله النور، كما أن مظهره العام يصبح كئيبًا مقبضًا.

فإذا كان لديك – أخي المربي – أطفالًا فى الثامنة أو التاسعة لا يستمعون لك، فإن الحل هو أن تلعب معهم ..

قد يبدو هذا الحل بسيطًا ، ولكنه على بساطته يعد حلًّا ناجحًا ، ذلك أن اللعب مع طفلك يعلمه الإستماع لك ويحسن من سلوكه عمومًا ..

فإن كان ابنك يلعب جالسًا على الأرض ، فعليك أن تجلس معه على الأرض.

ثم تحدث إليه وأنت تلعب معه ... واجعل حديثك وصفًا للعبه مثل أن تقول: أحمد أخذ الكرة .. أحمد وضع الكرة فى السلة .. ما شاء الله .. لقد أصاب الهدف ..

أو إن كان يبنى حائطًا بالمكعبات ، تقول إن أحمد يبنى ناطحة سحاب .. إنها

---

(١) المصدر السابق – ص ١٣٨ .

تتصاعد .. ثم إذا صدمها بسيارته اللعبة فهدمها قلت : يا إلهى إن السيارة قد اصطدمت بالحائط .. لقد انهارت البناية العظيمة ..

هكذا فى وضوح وبساطة ودون تكلف أو صعوبة ..

ومن الأمور الهامة فى هذا الأمر والتى يجب أن نحرص عليها ألا نوجه أسئلة للطفل أثناء لعبه .. فعلى سبيل المثال إذا كان الابن يلعب بالمكعبات ، فلا تشر إلى سيارته اللعبة وتسأله : أليست هذه سيارتك المفضلة ؟ .. إن هذا سوف يعوق اهتمامه بالمكعبات ، ومن ثم يقلل استمتاعه به .

كما أن من الأمور الهامة حين تلعب مع أبنائك ألا تنتقدهم ، فإذا ساء سلوك الطفل بعض الشيء فتجاهله وابتعد عنه ..

واحرص أشد الحرص على أن يختار الابن اللعبة التى يريدها ، فاللعب قرار الطفل الكامل ، وإلا أصبح واجبًا دراسيًا !!! (١)

أخي المربي ..

أشبع أطفالك عاطفيًا ، أعطهم حقهم فيك ، اخرج معهم في نزهات دورية ، إلى الحدائق ، إلعب معهم أنت .. مُجّ الماء في فمك ، ورشّهم به مُلاعبا .. أخرج لسانك لهم مضاحِكا ، حتى يرون حمرتَه ... اعمل جَملًا لابنك ، احمله على ظهرك ، دُر به في غرفته ، اجعله يوجهك أينما شاء ... إذا ركب فوق ظهرك وأنت ساجد ، فأطِل السجود ، حتى يشبع ...

هكذا كان يفعل نبيّك محمد ، سيّد الخلق أجمعين ، قدوتك وقائدك .

واعلم أن اللعب ممتع .. ولكن اللعب مع الآباء أمتع ..

فلا تمنع أبناءك بـ " حب " أو " حرص " من ممارسة اللعب ، فتتحطم

---

(١) حاول أن تروضني – راى ليفي – ص ١٢٠ ، ١٢١ بتصرف .

نفسياتهم كما تتحطم الآنية فى يد من (يحب) وضع الزهور بها ..

واذكر دائمًا أن الطفولة ليست تكليفًا ، وإنما هى تدريب على التكليف

و لهذا يجب علينا كآباء ومربين ألا نخلط لعبنا مع أبنائنا بالتوجيهات الدائمة..

● ولك فى خفة الظل مندوحة :

يظن البعض أن المزاح ينافي الجدية فى تربية الأبناء ، وهذا فى الحقيقة محض وهم ، فقد يكون المرء ذا ظرافة ، لكنه جاد عامل فى موضع الجد والعمل..

بل إننا لا نجافي الحقيقة حين نقول أن الإنسان لكي يجدّ فى عمله لا بد أن يكون له فترات يرفّه بها عن نفسه ، ويزيل بها الملل والسأم عن حياته ، ومن هنا يحسن أن ندخل الترويح والدعابة على حوارنا مع أبنائنا ..

وقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك مع الحسن بن علي رضي الله عنه ، فكان ﷺ يدلع له لسانه ؛ فيرى الحسن لسانه فيهش له .. [رواه أحمد وأبو يعلى]

كما كان ﷺ يداعب أصحابه مابين الفينة والأخرى حتى أنهم عجبوا لذلك؟!

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال الصحابة للنبي ﷺ : يارسول الله إنك تداعبنا ! فقال ﷺ : إني لا أقول إلا حقًا .

لقد تعجب الصحابة رضوان الله عليهم من ممازحة النبي لهم ، وثار في أنفسهم هذا السؤال ، بعد أن عادوا بأذهانهم إلى الجدية التامة في حياته ﷺ ، ثم عايشوا ممازحته ، فانبعث من نفوسهم هذا السؤال ، فكان جوابه ﷺ فيه جانب تربوي كبير ، إذ لم يقل ﷺ : نعم ، وإنما كان جوابه متضمنًا الإقرار بجواز الممازحة ، وزاد على ذلك بقوله : إني لا أقول إلا حقًا ، ومعنى هذا أن المزاح بالباطل لا يجوز ؛ لأنه يناقض حينئذ التربية الصحيحة التي هي هدف الإسلام .

.. وقد كان صهيب الرومي رضي الله عنه كثير المزاح ، فأراد رسول الله ﷺ أن يلاطفه ويدخل السرور على نفسه ، وكان وقتها – أي صهيب – يأكل تمرًا وبه رمد ، فقال النبي ﷺ له كما روى ذلك ابن ماجة في سننه (٢/ ٢٥٣) : أتأكل التمر وبك رمد ؟! فقال يا رسول الله : إنما أمضغ على الناحية الأخرى !! فتبسم رسول الله ﷺ .

هنا يراعي رسول الله ﷺ الحالة التي كان عليها صهيب رضي الله عنه ، فقد كان مصابًا في عينيه بالرمد ، وهو في حاجة إلى المواساة والملاطفة التي تدخل السرور على نفسه ، فقال له الرسول ﷺ وهو يأكل التمر : أتأكل التمر وبك رمد ؟! سبحان الله وما دخل أكل التمر بالرمد ؟! وهل الإنسان يأكل بفمه أم بعينه ؟ وليس في سؤاله ﷺ إلا الحق ، فإنه مجرد استفهام لا يغير الحقيقة ، فكان جواب صهيب وقد كان مزاحًا يحمل دعابة جميلة ، فقال : يا رسول الله إنما أمضغ على الناحية الأخرى !! سبحان الله ، ومادخل المضغ على أحد الجانبين بالرمد في العين ؟! ولكنها سرعة البديهة التي أجابت على قدر السؤال ، فإذا حق لنا أن نقول : ما العلاقة بين أكل التمر وبين الرمد في السؤال ؟ جاز لنا أن نقول : وما العلاقة بين الرمد وبين الأكل على أحد الجانبين من الفم ، على أن صهيبًا رضي الله عنه حين قال ما قال ، فإنه لم يقل إلا حقًا فإنه عند الأكل إنما كان يمضغ على أحد جانبيه .

و لقد كان من بين الصحابة الذين اشتهروا بكثرة المزاح نعيمان البدري رضي الله عنه ، فقد ذكر ابن حجر في الإصابة (٦ / ٣٦٧) : أن أعرابيًا دخل على النبي ﷺ وأناخ ناقته بفنائه ، فقال بعض الصحابة لنعيمان : لو عقرتها فأكلناها ، فإنا قد قرمنا من اللحم ، فخرج الأعرابي وصاح : واعقراه يا محمد ! فخرج الرسول ﷺ فقال : من فعل هذا ؟ قالوا : نعيمان ، فأتبعه يسأل عنه حتى وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ، واستخفى تحت سرب لها فوقه جريد ، فأشار رجل إلى النبي ﷺ حيث هو ، فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : الذين دلوك

لي يا رسول الله هم الذين أمروني بذلك ، فجعل يمسح التراب عن وجهه ويضحك ثم غرمها للأعرابي .

هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم يشيرون على نعيمان رضي الله عنه بعقر الناقة ليأكلوا منها ، فلما كُشف أمره دلوا رسول الله ﷺ عليه ، فاستخرجه ﷺ من بين الأعواد ومسح التراب عن وجهه وهو يضحك متعجبًا من فعله رضي الله عنه وجرأته على ناقة الأعرابي ، وقد عالج ﷺ الموقف بغرم ناقة الأعرابي من ماله .

و ذكر ابن حجر في الإصابة (٦ / ٣٦٦) مزاح أصحاب النبي ﷺ معه : فقال : قال الزبير : وكان نعيمان لا يدخل المدينة طرفة – أي طعامًا – إلا اشترى منها ثم جاء بها إلى النبي ﷺ ، فيقول ها أهديته لك ، فإذا جاء صاحبها يطلب نعيمان بثمنها ، أحضره إلى النبي ﷺ وقال : أعط هذا ثمن متاعه ، فيقول : أولم تهده لي ، فيقول إني والله لم يكن عندي ثمنه ، ولقد أحببت أن تأكله ، فيضحك – أي النبي ﷺ من هذا الفعل – ، ويأمر لصاحبه بثمنه .

ووقفة متأنية مع نعيمان رضي الله عنه تجعلنا نجل له كل تلك الموقف .. فهو على الرغم من كثرة مزاحه واشتهاره بين الصحابة بذلك .. فقد كان يضفي على جو المدينة شيئًا من الدعابة والمرح يتقبلها الرسول ﷺ بصدر رحب رغم ما قد تسببه هذه المداعبات من حرج له ﷺ كما في حادثة ناقة الأعرابي .. ومع هذا نلاحظ أن النبي ﷺ يتقبل هذه المداعبات منه رضي الله عنه ، ولا يغضب منها بل تدخل البسمة عليه ﷺ ويتعجب منها .. و على الرغم من كثرة ما روي عنه رضي الله عنه من قصص طريفة ومزاحات طاهرة عفيفة إلا أنه كان فوق ذلك كله صاحب عبادة وجهاد وجد وعمل ، ومن القلائل الذين يسارعون لكل غزوة ومعركة مع رسول الله ﷺ .. فقد شهد بدرًا وأحد والخندق وبقية المشاهد مع رسول الله ﷺ

وتوفي في خلافة معاوية رضي الله عنه انظر الإصابة (٣ / ٥٤٠) .

ومن المواقف العجيبة في حياته ﷺ وهو يمازح أصحابه موقفه من العجوز الصالحة الصوامة القوامة ، فقد روى الترمذي في الشمائل (ص ١٢٨) أن عجوزًا أتت إلى النبي ﷺ فقالت يارسول الله : ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز ، فولت تبكي ، فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول : ﴿إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عُرُبًا أترَابًا﴾ [الواقعة/ ٣٥-٣٦] .

هنا الرسول ﷺ يمازح هذه العجوز الصالحة قائلًا لها : يا أم فلان ، وهذا من حسن أدبه ﷺ في إدخال السرور على الناس ، فإن تكنية الإنسان مما يدل على التقدير والاحترام الذي أمر به الإسلام.

ثم إنه ﷺ أراد أن يقرر حقيقة من حقائق الآخرة ، وهو النعيم الخالد لأهل الجنة ، في إنشاء النساء إنشاء وجعلهن عربًا أترابا .

ومن مزاحه عليه الصلاة والسلام أنه كان ينادي أحد الصحابة بـ (ياذا الأذنين) ورسول الله ﷺ صادق في وصفه إياه بذلك .. فمن منا ليس له أذنان ؟!

وأتى رجل إلى النبي ﷺ وهو يعد للجهاد ، فقال له : احملني يارسول الله ، فقال النبي ﷺ : إنا حاملوك على ولد الناقة ، فقال الرجل : وما أصنع بولد الناقة؟! فقال النبي ﷺ : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟!

وعن أنس رضي الله عنه قال : إن كان رسول الله ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير : يا أبا عمير ! ما فعل النغير ؟

ففعل النبي ﷺ هنا إنما كان من باب التخفيف من حزن الصبي حيث أنه كان له طائر فمات ، فأراد أن يمازحه فسأله : يا أبا عمير ما فعل النغير ؟

ومما تقدم نلاحظ أن مزاح النبي ﷺ كان فيه تعليم وتهذيب وتربية .

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلًا من أهل البادية كان اسمه زاهرًا .. وكان ﷺ يحبه وكان رجلًا دميًا ، فأتاه النبي ﷺ يومًا وهو يبيع متاعه ، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره فقال : من هذا ؟ أرسلني فالتفت فعرف النبي ﷺ ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه ، فجعل النبي ﷺ يقول : من يشتري هذا العبد ؟ - وهو بلا شك عبد الله - فقال : يارسول الله إذن والله تجدني كاسدًا ، فقال النبي ﷺ : ولكن عند الله لست بكاسد .

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم ، فسلمت فرد وقال ادخل ، فقلت : أكلّي يارسول الله؟ قال : كلك ، فدخلت . سنن أبي داوود (٣/ ٢٢٨) .

أخرج البخاري في صحيحه برقم (٦٠٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها أن رفاعة القرظي طلّق امرأته فبتّ طلاقها ، فتزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير ، فجاءت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله إنها كانت عند رفاعة فطلقها ثلاث تطليقات ، فتزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير ، وإنه والله ما معه يا رسول الله إلا مثل هذه الهدبة - لهدبة أخذتها من جلبابها - قال وأبو بكر جالس عند النبي ﷺ وابن سعيد بن العاص جالس بباب الحجرة ليؤذن له ، فطفق خالد ينادي أبا بكر ، يا أبا بكر ألا تزجر هذه عما تجهر به عند رسول الله ﷺ ؟ وما يزيد رسول الله ﷺ على التبسم ، ثم قال : لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة ؟ لا حتى تذوقي عُسيلته ويذوق عُسيلتك .

وأخرج البخاري في صحيحه برقم (٦٠٨٥) من حديث محمد بن سعد عن أبيه قال : استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من

قريش يسألنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر تبادرن الحجاب ، فأذن له النبي ﷺ فدخل والنبي يضحك .. الحديث .

وأخرج البخاري في صحيحه برقم (٦٠٨٦) من حديث عبد الله بن عمر قال : لما كان رسول الله ﷺ بالطائف قال : إنا قافلون غدًا إن شاء الله ، فقال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ لا نبرح أو نفتحها ، فقال النبي ﷺ فاغدوا على القتال ، قال : فغدوا فقاتلوهم قتالًا شديدًا وكثر فيهم الجراحات ، فقال رسول الله ﷺ إنا قافلون غدا إن شاء الله ، قال : فسكتوا فضحك رسول الله ﷺ .(١)

.. ومثلما مارس الصحابة مع رسول الله ﷺ التواصل عبر المزاح والدعابة ، كان العلماء على ذات الطريق يسيرون ..

فهذا الشعبي رحمه الله كان مشهورًا بالدعابة والطرافة ، فقد أتاه رجل يومًا وهو جالس مع إمرأته ، فقال : أيكم الشعبي ، فأشار إلى امرأته فقال : هذه ..

وسأله رجل : ما اسم زوجة ابليس ؟ فقال : ذاك عرس لم نشهده ..

وجاء رجل إلى الشعبي فقال : إني تزوجت امرأة فوجدتها عرجاء ، فهل لي أن أردها ؟ فقال له : إذا كنت تريد أن تسابق بها فردها .

وسأل رجل الشعبي فقال : هل يجوز للمحرم أن يحك بدنه ؟ قال الشعبي : نعم ، فقال الرجل : مقدار كم ؟ قال : حتى يبدو العظم .

ومع هذه الطرافة التي اشتهر بها ، فقد قال عنه مكحول : ما رأيت أحدًا أعلم من الشعبي ..

فكن أخي المربي دائم المرح ، فروح الدعابة تريح قلب الابن، وتساعده على فتح قلبه لك ، ومن ثم يحسن التواصل معك ..

---

(١) للمزيد من هذه المواقف انظر صحيح البخاري كتاب الأدب باب التبسم والضحك .

إن الدعابة هى أحد مظاهر المناخ الأسري الجيد ، والذي يوجّه التواصل الأسري فى الاتجاه الصحيح .. ومن ثم فهى أحد الوسائل الناجعة فى توجيه السلوك السيء للأبناء .

خذ مثالًا ..

يتشاجر أحمد وعبد الرحمن .. يصبر الأب لفترة ، ولكنه لا يلبث أن ينفجر غضبًا " كفاكما شجارًا وإلا سأكسّر رأسكما !! "

يهدأ الطفلان لفترة صغيرة عند التهديد ، ويعتقد الأب أن صياحه يأتي بالفائدة المرجوة ، وهذا بلا شك اعتقاد خاطىء ، فالصياح والصراخ يأتي بفائدة لفترة قصيرة ، ثم يعود الأطفال إلى التشاجر والجدال مرة أخرى ، ويعود الأب للصياح !! ويهدأون مرة أخرى ، ويمكن لهذا الأمر أن يستمر ويستمر ..

ماذا يتعلم الأطفال من هذا .. إنهم يتعلمون أنه يمكنهم الشجار حتى يصيح الأب ويصرخ فى وجوههم فيتوقفوا ..

أمّا أن يتعلموا من هذا الصياح كيف يحلّون مشاكلهم وخلافاتهم .. فهذا أمر لا يحدثه الصياح والصراخ ..

إن قليلًا من الدعابة قد يساعد فى إنهاء المشاجرة ..

أخي المربي ..

إن روح الدعابة والمزاح تساعد الأطفال على التغلب على الغضب والإحراج..

ومن هنا وجب علينا تشجيع أطفالنا عليها منذ صغرهم كأن نعطي الرضيع فرصة لشد أنفنا ، ونقوم نحن بعمل حركة مضحكة بالوجه ، وكذلك بالقيام بتمثيل حركات مضحكة مع دغدغة الطفل ومداعبته ، أو تحريك جسمه كهزه فوق ركبتنا ، أو رفعه برقة فى الهواء ..

.. كما يمكن أن نؤدي بعض الحركات ، أو نتلفظ ببعض الألفاظ المضحكة

حين نتلقى الفواتير الباهظة للتليفون أو الكهرباء مثلًا ..

وهكذا فى كل تواصل ، لا نترك أبناءنا إلا وهم ضاحكين .. ولا ننهي حديثنا معهم ونذهب إلى ما نريد إلا أن يكونوا باسمين ..

• **ابتسامتك .. مظلة واقية :-**

من القواعد التربوية المجمع عليها لدى علماء الاجتماع والنفس والتربية .. تقوية الصلة ما بين المربي والولد ، ليتم التفاعل التربوي على أحسن وجه .. لذا وجب على الآباء والمربين البحث عن الوسائل الإيجابية فى تحبيب الأطفال بهم ، وتقوية الصلة بينهم ، وإيجاد التعاون معهم ...

ولا شك أن التواصل عبر الكلمات هو أحد تلك الوسائل .. ولكنه – فى الحقيقة – يمثل جزءًا ضئيلًا من أجزاء تواصل الآباء بالأبناء ، يقدره علماء التربية بسبعة فى المائة ، بينما تمثل الإيماءات والالتفاتات وتعابير الوجه .. بل ونغمة الصوت ما يقرب من ثلاثة وثمانين بالمائة من عملية التواصل معهم ..

نعم ، تؤثر نغمة الصوت والمظهر الخارجى للجسد فى المتلقى لكلماتنا .. ومن هنا وجب على المربي أن يكون مدركًا لأهمية ما يظهر عليه وهو يحادث أبناءه ويتواصل معهم ..

" فإذا كان المربي لا يقطّب جبينه عند الغضب ، ويبتهج ويتورد خده عند الموقف السار ، فلن يشعر الأطفال بفعالية تجاه القصة أو الموضوع ، وما فيه من توجيهات ومعان تربوية ...

كذلك الإشارة باليدين ونظرات العينين تدل على بعض المعاني التى لا يمكن أن يعبر عنها بالكلمات ، وتقوم بالتأثير على المتربين وإقناعهم ...

إن تقمص الموقف والتعبير الطبيعي للحركات التى يتطلبها الموقف له دور فعّال

فى التأثير والإقناع أكثر من الإستعانة بالعبارات البليغة ، فظهور الإنفعالات كالغضب والاستنكار والألم والمعاناة ، وبروز العواطف كالحب والإعجاب والرضى فى تعابير الوجه كتقطيب الجبين وانبساطه وفى حركة اليدين والعينين ، فتقمص المحدث لتلك الإنفعالات والعواطف من شأنه إحداث التأثير الجيد لدى المتربي ... (١).

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق " أخرجه البزار بسند صحيح .

وعن أبى ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " تبسمك فى وجه أخيك صدقة " أخرجه الترمذى ..

إن المربي الحكيم يربي أبناءه من خلال البسمة والنظرة والهمسة ، ويؤسس علاقة رهيفة جدًا بينه وبين ابنه من خلال ذلك .. يضم ولده إلى صدره ويقبله ويلاعبه ويصبر على ما يصدر منه من خطأ أو تصرف غير مناسب ! .. يقابله بطلاقة وجه، ويدرك أن تبسمه فى وجه ابنه صدقه ، بل وقربى وتقارب للقلوب .. لأن عمل الابتسامه فى نفس الابن لا حدود لها فى كسبه واستجابته لما يريده منه الأب ..

إن الأب كلما كان سهلًا طليق الوجه ، كلما ازدادت دائرته الاجتماعية مع أبنائه .. وأمّا حين يكون فظًا منغلقًا ، فإن هذه الدائرة قد تضيق حتى تصبح صفرًا ﴿ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ [آل عمران : ١٥٩].

و " كم يُسَرُّ الأبناء حين يرون مربيهم ، ومرشدهم لا تفارق الإبتسامة ثغره ، ولا تجافي المباسطة مجلسه ؟! .. وكم يستشعرون محبته لهم حين يرون معاملته اللينة وخلقه العظيم ؟!..

روى الإمام أحمد عن أم الدرداء رضي الله عنها قالت : كان أبو الدرداء إذا

(١) فنون الحوار والإقناع – محمد ديماس – ص ٧٧ .

حدث حديثًا تبسم ، فقلت : لا ، يقول الناس : إنك أحمق !! – أي بسبب تبسمك في كلامك – فقال أبو الدرداء : ما رأيت أو سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثًا إلا تبسم ، فكان أبو الدرداء إذا حدث حديثًا تبسم اتباعًا لرسول الله ﷺ في ذلك ..

وروى مسلم عن سماك بن حرب قال : قلت لجابر بن سمرة رضي الله عنه : أكنت تجالس رسول الله ﷺ ؟ فقال جابر : نعم كثيرًا ، كان رسول الله ﷺ لا يقوم من مصلاة الذى فيه يصلى الصبح حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون ، والرسول جالس ، فيأخذون فى أمر الجاهلية ، فيضحكون ، ويبتسم رسول الله ﷺ "[1].

أخي المربي ..

إن بعض الأشياء الصغيرة يكون لها أثر كبير على النفس ، ومن ذلك الإبتسامة ..

و كما أن الطفل الصغير يقتنص الحب من الكبار بعينيه الصافيتين وضحكته اللامعة وصوته الذى لا يحمل كلمات محددة ولكنه أكثر جمالًا من كل الأصوات .

كذلك الأب الذى لا تفارق البسمه شفتيه يحق له أن يقول أن تواصله مع أبنائه على ما يرام .. فهل نستطيع كآباء ومربين أن نجعل ابتسامتنا لأبنائنا صادقة؟.. إبتسامة حب لهم ، وليس ابتسامة تحريك لهم نحو اختيارك !!!

وهل نصدق أن هذ الإبتسامة فى مواجهة مشاكلنا التربوية هي بحق .. المظلة الواقية ؟؟!!

❁❁❁

(١) المصدر السابق – ص ٢١٦ .

الفصل الثالث

الجفاء .. الاستقالة التربوية

يؤكد واقعنا كمربين – آباء وأمهات – أننا قد قمنا باستقالة تربوية تركنا بموجبها مسؤوليتنا فى عملية تربية أبنائنا، لنحصر هذه المسؤولية فى توفير المصروف والكسوة والأكل وتوفير أسباب الراحة ، زاعمين أننا هكذا أدينا الأمانة ونستحق التكريم والتقدير عليها !!! .. وتلك حقيقة مرّة ؟!

ولكن ما هو أمرّ منها أن نبقى على واقعنا هذا حتى ندرك بعد فوات الأوان ، ونحن نواجه فى أبنائنا البقع المتصحِّرة التي يخلِّفها غياب التواصل معهم ، أنَّ نقطة واحدة من الوقت الذي أهدرناه دون التواصل معهم ، رُبَّما كانت كافية لانقاذ أخلاقهم ، ومن ثم تخفيف سياط الأسى الدفين عن قلوبنا كآباء وأمهات ..!!

• شـــاركه ، وكن معه :

قال أحد الآباء يشكو ابنه : " إنه منطو على ذاته ، يفتقر إلى الثقة بالنفس والقدرة على البت فى الأمور ، وروح النضال والكفاح والمثابرة .. فسأله محدثه : كم من الوقت تمضيه مع ابنك ؟ أجاب يقوله : أراه كل يوم على الإفطار « إلا إذا اختلفت مواعيدنا .. فقال له محدثه : أعرف ذلك .. ولكني أسأل إن كنت تمضي معه وقتًا طيبًا بالمنزل ، أو تلعب معه فى الحديقة ، أو تدعوه إلى مطعم ، أو إلى صيد سمك .

أجاب الرجل مندهشًا ومتسائلًا : ومن أين لي الوقت لأفعل ذلك ؟

سأله صديقه : هل ذهبت مرة لتشاهده فى أى نوع من النشاطات التى يمارسها ؟

ثم قال له : العلاج بسيط .. " كن هناك " .. نظم حياتك العملية بحيث يتسع منها وقت لابنك الذى هو أهم من العمل "[١]

قال الأب : إنني أقوم بمدحه ، وتحفيزه بكلمات التقدير لما يقوم به !!

قال صديقه : إن امتداح الابن لم يزل أداة قوية فى تربيته ، وفى مساعدته على الشعور بالرضا تجاه نفسه ، ولكن الدراسات تشير إلى أن المديح شيء فعال لأنه جزء من عامل كبير وهام جدًا إسمه " مشاركة الآباء " .. تلك التى تفعل ما هو أكثر من المدح .. فالمدح شيء عظيم ، ولكنه لا يغني عن الوقت الذى تقضيه مع الابن مشاركًا له فيما يمارس من هوايات أو يقوم به من أعمال..

إن من الوسائل الهامة التى تحسّن تواصلنا مع أبنائنا أن نشاركهم هواية لهم كالنجارة مثلًا أو الخياطة أو تربية النباتات أو الرسم ... وغيرها من الهوايات ، نشاركهم فيها مشاركة الصديق .. و نناقشهم فى كل ما يخص هذه الهوايات بصداقة حميمة .. فهم يتذكرون بكثير من السعادة والامتنان الأوقات التى نقضيها معهم ، بل كلما زاد الوقت الذي نقضيه معهم ، قلت طلباتهم المادية ..

لقد اعتاد بعض المربين أن يكون دورهم قاصرًا على إعطاء الأوامر ومراقبة التنفيذ، وهو مسلك مخالف لمنهج المربي الأول ﷺ ، الذي كان يعيش مع أصحابه ويشاركهم أعمالهم وهمومهم ..

لقد شاركهم ﷺ في بناء المسجد ..

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قدم النبي -ﷺ- المدينة فنزل أعلى

(١) [illegible] الكاشف – ص ١٠٢ بتصرف.

المدينة في حي يقال لهم : بنو عمرو بن عوف، فأقام النبي -ﷺ-فيهم أربع عشرة ليلة ... وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون والنبي -ﷺ- معهم ، وهو يقول: اللهم لا خير إلا خير الآخرة؛ فاغفر للأنصار والمهاجرة .

وشاركهم في حفر الخندق :

فعن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال : كنا مع رسول الله -ﷺ- في الخندق، وهو يحفر ، ونحن ننقل التراب ، ويمر بنا فقال: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة .

وكان يشاركهم في الفزع للصوت :

فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبي -ﷺ- أحسن الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم النبي -ﷺ- وقد استبرأ الخبر ، وهو على فرس لأبي طلحة عري وفي عنقه السيف وهو يقول: " لم تراعوا لم تراعوا "

وأما مشاركته لهم في الجهاد :

فقد خرج معهم في تسع عشرة غزوة ، بل قال عن نفسه: " ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية "

إن مجرد إصدار الأوامر والتوجيه أمر يجيده الجميع، لكن مشاركة الأبناء والمتربين ، يرفع قيمة المربي لديهم ويعلي شأنه وذلك أيضًا يدفعهم لمزيد من البذل والهمة والحماس عكس أولئك الذين يدعون للعمل ومربيهم بعيدٌ عنهم، وقد عبر عن هذا المعنى ذاك الحداء الذي كان يردده أصحاب النبي ﷺ :-

لئن قعدنا والنبي -ﷺ- يعمـل لذاك منا العمـل المضلل ..

ثم إنه يشيع روح الود ، ويسهم في بناء علاقة إنسانية وطيدة بين المربي ومن

يربيهم ..

إن الإهتمام بالأبناء والتواصل معهم أكثر أهمية من وعظهم وإرشادهم ، لأن الوعظ والإرشاد لابد فى استقباله أن يكون الأبناء سعداء .. وتلك السعادة لا تتأتى إلا أن يشعر الأبناء بأن الأباء يهتمون بهم ، ويشاركونهم ما يحملونه من أفكار ، و ما يأتونه من أعمال ..

ومن هنا كان السعي فى حاجة الأخر له هذا الثواب : " أن أسعى بحاجة أخى خير من أن أعتكف شهرًا "

إن الكلمة من القلب تشرح القلب .. و الألفاظ الطيبة سهم يزيل الهم والغم .. و " المربي الذى يودّ تقديم المشورة والنصيحة لأبنائه ، لا بد له أن يتخلى عن دور الأب ما أمكنه ، حتى يستطيع أن يكون صديقًا لهم .. لأن هذا الأسلوب يبني علاقة حميمة ورائعة ، تتسم بالثقة والتعاون المشترك ، " [1] .. وتؤكد مفرداتها على مشاركة الابن فى همومه ، وتقدير معاناته .. " أي بني .. إني أشاركك حيرتك وهمومك وتطلعاتك.. لقد عانيت ما تعاني ، فتعال نبحث معًا في هدوء دون أن أضيق بك أو تضيق بي.. نعم لن أضيق بك يا ابني الحبيب ، فإني أستبشر خيرًا باهتمامك وتطلعك وتفكرك ، وإني أرى نفسي فيك ، فقد مشيت ذات الطريق ، ومررت على ثغراته ومَنَّ الله علي بمعرفة كثير من مسالكه ومنعطفاته .. لن أطلب منك أن تكون أسير فهمي أو فهم غيري ، لن أزعم لك أني أحتكر الفهم الصحيح وحدي " [2] .. وإنما أدعوك إلى التأمل الهادىء فيما تعاني من مشكلات ، وما أقترحه عليك من حلول لها ..

وإذا صارحك ابنك بما يمكن أن يكون خطأ فعله ، أو تقصيرًا وقع فيه ، فقل: لقد راقنى منك يا بني العزيز صراحتك ، وموافقة سرك لعلانيتك ، ومع اعترافى

---

(١) التميز فى فهم النفسيات – أكرم مصباح عثمان – ص ١٠٩ .

(٢) رسالة إلى أخي المربي – مقال للمؤلف بمجلة البيان – العدد ١١

بأن ما قصصته علي قد أهمني شيئًا ما ، ولكنى أحرص على كرامتك ونقاء نفسك وأسدى إليك نصحى عسى الله أن ينفعك به ، ولا يجعل فيما أتيت من خطأ خسارًا عليك .. فليس هناك فشل ، وإنما زيادة خبرة ..

واعلم – يا بني – قبل ذلك وبعده أن صدرى واسع على الدوام لتلقى أسرارك ومشاركتك فى آلامك ..

فهذا هو السبيل الأصوب إلى مراجعة أعمالنا وممارساتنا ، وقياسها على مقياس شريعتنا ، وحتى لا تبقى سفينة حياتنا حائرة فى خضم أمواج الواقع الفاسد دون أن تعرف طريقها إلى شاطىء رضا الرب .

ولا شك أن هذا اللون من التواصل الحميم ، وسعة الصدر للابن للسؤال عما يريد سيجعل لديه الكثير من التساؤلات ..

والنصيحة التربوية هنا :

إذا كان لدى الابن تساؤلات ، فلا تجبه على ما لا تملك فيه علمًا .!!

فهذه مسألة خطرة وخطيرة بكل ما تعنى هذه الكلمات من معنى ؟ ذلك أن الابن إذا تعود أن مربيه يعرف كل شيء ، وأن بإمكانه تناول إجابة لكل سؤال دون أدنى بحث أو جهد ؛ فإن ذلك يدعوه إلى البلادة وخمول الذهن .. وإنما الأصوب هو إعتراف المربي أن ما يسأله عنه الابن لا يستطيع أن يجيبه عنه حتى يتأمله : "هذا سؤال جيل ولكن لا تحضرني الآن الإجابة عليه ، وسوف أبحث عنه وأخبرك " .. أو استخدام الحكمة بالثناء على السؤال والإجابة المختصرة عنه ..

سأل أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ رسول الله ﷺ يومًا: من أسعد الناس بشفاعتك ؟ فقال ﷺ " لقد ظننت أن لايسألني أحد عن هذا الحديث أول منك لما علمت من حرصك على الحديث " [رواه البخاري (٩٩)].. فتخيل معي أخي القاريء موقف أبي هريرة، وهو يسمع هذا الثناء، وهذه الشهادة من رسول الله ﷺ.

بحرصه على العلم، بل وتفوقه على الكثير من أقرانه. وتصور كيف يكون أثر هذا الشعور دافعًا لمزيد من الحرص والاجتهاد والعناية.

وحين سأل أبيَ بن كعب: " أبا المنذر أي آية في كتاب الله أعظم؟" فقال أبي:آية الكرسي. قال له ﷺ " ليهنك العلم أبا المنذر " [رواه مسلم (٨١٠) وأحمد (١٤٢/٥)] ".

إن الأمر قد لايعدو كلمة ثناء، أو عبارة تشجيع، تنقل الابن مواقع ومراتب في سلم الحرص والاجتهاد. والنفس أيًا كان شأنها تميل إلى الرغبة في الشعور بالإنجاز. ويدفعها ثناء الناس –المنضبط– خطوات أكثر.

يقول عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه : دخلت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يفقهني فى الدين ويعلمنى !! قال الرسول ﷺ : " ماذا قلت؟ " قال عثمان : فأعدت عليه القول ، فقال رسول الله ﷺ : " لقد سألتنى عن شيء ما سألني عنه أحد من أصحابك ، إذهب فأنت أمير عليهم وعلى من يقدم عليك من قومك " [أخرجه الطبراني].

وفى كل الأحوال ينبغي تحفيز الابن على المزيد من التساؤل ، ومحاولة العثور على إجابات لها ، بل ودعوته إلى تأمل الأمر معنا .. فهذا يعلمه أن الوصول إلى الصواب فى الرأى هو ثمرة العمل الجاد والتأمل والبحث ، وهذا هو الإرشاد الصحيح للابن ..

أمّا – أخي المربي – إذا كنت تملك الجواب على تساؤل الابن ، فلتكن إجاباتك عن أسئلته بصدق وحكمة .. حتى أسئلته التى تتضمن بعض الحرج ، كأن يسأل الطفل مثلًا : كيف وجدت فى هذه الدنيا ؟ .. فيكون الجواب بصدق مع استعمال التلميح والإيحاء .. فنقول بصورة مختصرة : خرجت من بطن أمك ..

ونوجهه إلى قول الله تبارك وتعالى : ﴿والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النحل: ٧٨].

فإذا استطرد الابن مثلًا ، فسأل : وكيف نشأت فى بطن أمي ؟ وما هى علاقة أبى بأمى ؟ .. كان الجواب : إن الله هو خالق كل شيء ، وهو خالق الإنسان يجعله فى بطن أمه فيكبر حتى يصير طفلًا ، فيخرج .. ونوجه الطفل إلى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ ... ﴾ [المؤمنون:١٢].

ربما قال بعض الآباء هنا : أو ليس لدي أنا كذلك إهتمامات وحاجات ؟ فمن أين لي بأوقات لها، إن كان كل وقتى تواصل مع الأبناء ، ومشاركة لهم فى لعب وجد؟!!

وأنا أنصحك – أخي المربي – أجّل إشباع حاجاتك ، فإذا كان الابن لا يريد أن ينام بالنهار بينما تريد الإسترخاء ، فأجّل حاجتك لحاجة ابنك إلى التواصل معك .. أجلسه بجوارك ، ولا تزجره ، أحبه كما هو بلا شروط . إصبر عليه وأكرمه فإن ذلك هو جواز مرورك للتجوال داخل عقله وتوجيهه .. واجعل من رسول الله ﷺ قدوتك التى تتأسى بها " فعن عمر بن أبى سلمة رضي الله عنهما قال : كنت غلامًا فى حجر رسول الله ﷺ (أي تحت رعايته) وكانت يدي تطيش فى الصحفة (أى تتحرك هنا وهناك فى إناء الطعام) فقال رسول الله ﷺ : " يا غلام سمّ الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك " رواه البخاري .

فهنا نرى أنه ﷺ يأكل مع الصغار ، وهذا يدل على قوة الإمتزاج النفسي بين المربي والمتعلم ، فيستطيع أن يفتح الحوار معهم ويناقشهم ويصحح أخطاءهم "[1] ..

بل إن النبي ﷺ يعلّم الكبار أدب المجلس عند حضور الأطفال إليه ، فينهى

---

(١) المصدر السابق – ص ١٠٤ .

عن قطع التواصل بين الابن وأبيه ، فعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : " لا يجلس بين الرجل وابنه فى المجلس " رواه مسلم ..

أخي المربي ..

إننا حين نتحدث إلى أبنائنا فإننا ننقل إليهم رسالتين : رسالة لفظية ، ورسالة غير لفظية (عن طريق الإشارات والإيماءات وغيرها) .. وإن أبناءنا يتمكنون بسهولة من قراءة ما تنقله لهم رسائلنا غير اللفظية ، فلو شعروا أننا غير مستريحين للتحدث فى أمر ما – حتى وإن حاولنا أن نبدي رغبة متصنعة فى الحديث – فإنهم يحجمون عن هذا الحديث ، فتتكون بيننا وبينهم فجوة تربوية كبيرة ..!!

إنه أمر فى غاية الأهمية أن نشارك أبناءنا أفكارهم ، و نتواصل معهم بحلم وأناة .. فيخرجهم الله بنا من الخطأ إلى الصواب ، ومن الضعف إلى القوة ، و من الإحساس بالضآلة إلى الثقة والتوازن والقدرة على إدارة حياتهم .

وهذه قصة لطيفة، تبين أهمية الحلم والأناة في بناء أخلاق الجيل الجديد:

قال عبد الله بن طاهر: كنت عند المأمون يومًا ، فنادى بالخادم: يا غلام فلم يجبه أحد ثم نادى ثانيًا وصاح: يا غلام ! فدخل غلام تركي وهو يقول: أما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب؟ كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام ! إلى كم يا غلام ؟ فنكس المأمون رأسه طويلًا ، فما شككت في أن يأمرني بضرب عنقه ثم نظر إلي فقال: يا عبد الله ! إن الرجل إذا حسَّن أخلاقه ساءت أخلاق خدمه وإنّا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا ، لنحسِّن أخلاق خدمنا ..

إن الحقيقة التي يجب أن نتعلمها جميعًا ، أن جلوسنا مع أبنائنا ولو لجزء من الوقت دون تصارع أو غضب وصراخ ... هذا الجلوس يقوي علاقتنا بهم ومن ثم يشعرون بالأمان وتتحسن طاعتهم لنا ، وتتطور سلوكياتهم إلى الأفضل ..

فمتى نجلس مع أبنائنا نراقبهم وهم يلعبون ، ومتى نمشى معهم إلى المدرسة مثلًا .. أو نذهب إليهم لنحضرهم من النادى مثلًا ..

ومتى يشعر أبناؤنا أننا نشاركهم فى كل أمورهم .. وأننا معهم فى كل ما يأتون أو يدعون ؟!

• التفكك الأسري ، وتمّرد الأبناء :

من البديهي أن البيئة المثالية لتربية الأبناء ، هى منزل يسوده الوئام فى كنف أم وأب متفاهمين محبان لطفلهما .. ولكن المناخ الأسري يكون فى بعض الأيام جيدًا ، ثم يكون فى أيام أخرى غير ذلك ... و هذا أمر طبيعي ،والواجب على الوالدين محاولة زيادة الأيام المستقرة والسعيدة .. و الاستمتاع بوقت التواصل مع أولادك ..

كما أن من الواجب على الوالدين – حتى إذا اشتطا فى الخصومة – أن يمارسا من ضبط النفس والحكمة ما هو فوق ما يحتمله البشر حفاظًا على مشاعر أبنائهما .

ومن الحكمة التربوية أن " تكون سياسة الأبوين موحدة أو متقاربة تجاه الطفل بحيث لا يشعر أن هناك فارقًا ملحوظًا بين معاملة كل منهما له ، وبالذات لا ينبغي أن يقف الأبوان موقفين متعارضين – أمام الطفل – تجاه عمل قام به ، أحدهما – مثلًا – يطالب بعقابه والآخر يعارض فى توقيع العقوبة عليه ، فإن هذا يفسد الموازين فى حسه ، ويشعره بأن الأمور ليس لها ضابط محدد ، ولا معيار معين يلتزم به . وأن فى إمكانه أن يخالف تعاليم أحد الوالدين ويجد من يدافع عنه من طرف آخر !

وحتى حين يكون موقف الوالدين مختلفًا فى تقدير ما ينبغي أن يعامل به الطفل فى موقف معين ، فلا يجوز لهما أن يعلنا خلافهما ذلك أمام الطفل ، إنما فيما بينهما فيما بعد ، وعلى غير مسمع من الطفل . لأنه يدرك مغزى الخلاف بين الوالدين

بشأنه – مهما بدا لنا أنه لا يدرك – ويتأثر بنتائجه – مهما بدا لنا أنه لا يتأثر – والنتيجة كما قلنا هى اضطراب المعايير فى حسه بحيث لا يصبح الخطأ والصواب واضحي المعالم عنده ، ومن ثم لا يعود يلتزم بما يطلب منه .

وليس معنى ذلك – إذا أسرف أحد الوالدين فى العقاب مثلًا – أن يقف الطرف الآخر مكتوفًا وهو يحس بهذا التجاوز ، ولكن عليه أن يقوم بتسكين الموقف دون إظهار المعارضة . كأن يأخذ الطفل بعيدًا ويقول له : انظر كيف أغضبت أباك – مثلًا – لأنك صنعت كذا وكذا . اعتذر له لكي يرضى عنك .

وبذلك ينقذ الطفل من العقاب الزائد دون أن يحس أن أبويه قد اختلفا بشأنه" (١) .

إن خلاف الوالدين حول كيفية تربية أطفالهما قد يكون أمرًا بديهيًا ، والإتفاق التام على أسلوب تربية الأبناء قد يكون هدفًا بعيد المنال .. ولكن الشيء المهم بالنسبة لهما ألا يقلل أحدهما من شأن الآخر ، وأن يكون لديهما طرقًا متكاملة لتربية أبنائهما .. ويبقيا الخلاف مهما اشتد فى أضيق الحدود المستطاعة .. ولا يختلفا أمام الأبناء .. فهذا الإختلاف يؤثر سلبًا على تربيتهم ، وهو فى ذات الوقت يجعل الابن مشوّش التفكير .. لأنه يتلقى أوامر مختلفة ، ومعايير للأمور مختلفة !!!

خـــذ مثـــالًا ..

يطلب الابن من أبيه زيادة فى مصروفه .. يرفض الأب ، فيذهب الابن إلى أمه، فتعطيه ..

هنا مشكلة تربوية ليست بالهينة ، بل إنها فى الحقيقة كارثة تربوية !!

ففي مثل هذه الأجواء التربوية التى يختلف فيها الأبوان على السياسة التربوية المطلوبة ، يتعلم الأبناء التلاعب بالآباء .. فهم يطلبون أمورًا من الآباء

---

(١) منهج التربية الإسلامية – محمد قطب ج ٢ ص ١١٥ ، ١١٦ .

يعلمون سلفًا أنهم يستسلمون لها ، ويطلبون أخرى من الأمهات لأنهن يستجبن لهن فيها !!

ومن هنا فإنه من الأهمية بمكان أن يتفق الأبوان على القواعد الخاصة بالتربية وما يستحقه كل طفل ، وطرق عقاب المخطىء ، فإذا لم يوافق أحدهما الآخر على فعله فليصوبه ، ولكن ليس أمام الأبناء ..

إن اختلاف الآباء والأمهات – أمام الأبناء – على السياسة التي يجب اتباعها فى التعامل مع الأبناء يعلّم الأبناء نقطة ضعف كل منهما ، ومن ثم نسمع إلى عبارات من مثل : " أبى يرى أنه لا بأس أن أشترى تلك الفطيرة " .. " أمي ترى أنه يمكنني الذهاب إلى تلك الحفلة " ..

وكما يؤدي اختلاف الآباء والأمهات على السياسة التربوية للأبناء إلى تمرّد الأبناء .. فكذلك يؤثر التناقض فى سلوك الآباء والأمهات داخل الأسرة وخارجها فى استقامة نفسية الأبناء " فالأم – مثلًا – تظهر النظام والاحترام ، وتظهر العناية والإخلاص بالآخرين خارج البيت ، بينما يحدث العكس تمامًا داخل البيت مع أولادها .. وكذلك يفعل الأب .. مما يوقع الأبناء فى حالة مقت واشمئزاز من السلوك المتقلب ، وحالة رفض داخلي أو شك فى مصداقية المبادىء التى يظهر الأبوان حبها ، ويدعوان إليها ، كذلك قد يؤدي هذا إلى ضيق الأبناء بسلوك الأبوين واليأس منه ، فيبحثون عن نماذج سلوكية أخرى خارج البيت ، والتى تكون – فى الأغلب – نماذج سيئة .. !! "[(١)].

ولا يصح بالطبع أن تؤجل الأم قرارًا بتصويب خطأ وقع فيه أحد الأبناء حتى يرجع الأب فتقول : " انتظر حتى يرجع والدك وسترى أنه سيعاقبك عقابًا

(١) الانفعالات – التشخيص والعلاج – د/ عبد العزيز محمد النغيمشي – ص ١٣٧ .

شديدًا " .. بل الأصوب أن تقول : " إنتظر حتى يرجع والدك فأتشاور معه حول العقاب الذى تستحق " ..

إن هذه الطريقة تعلّمه أن بين والديه عملًا مشتركًا ، وأنهما يربيانه معًا ، ومن ثم لا تسوّل له نفسه أن يتلاعب بأحدهما ضد الآخر ..

أما المثال الخطأ فهو ..

تشكو الأم : لا أستطيع شيئًا تجاه ولدى ، لكن يكفى لذلك نظرة من أبيه " ..

لا شك أن كلامها يدل على أن الذى يدفع الطفل إلى الطاعة وحسن السلوك هو الخوف وحده ، ولكنه الخوف من أبيه فقط ، فهو لا يهتم بأى أحد آخر سواء مدحه أوذمه ..!! .. وهو يتمرّد على الجميع ..

ويصل الأمر إلى مستوى الكارثة التربوية حين يتسابق الأبوان إلى التحكم الفارغ فى الأبناء لمجرد إثبات من يملك السلطة الأقوى فى الأسرة ؟!!

خذ مثالًا ..

يجلس الأب والأم وبجانبهما ابنتهما ذات الخمس سنوات فى مطعم للمرطبات ، تمد الطفلة يدها لتأخذ كأس العصير ، فتبدأ على الفور مسابقة بين الأم والأب فى إمطارها بوابل من النصائح والإرشادات .. هكذا وكأنهما يؤكدان لها أنها لا تستطيع أي عمل مهما صغر إلا فى ظل إرشاداتهما التفصيلية ؟!!

ترتبك الطفلة ولا تدري ماذا تصنع .. وأخيرًا تترك العصير وتقرر أنها ليست بحاجة إليه ، وتصر على عدم تناوله ..

يتبادل الزوجان اللوم ونظرات العتاب .. كل منهما يلقي اللوم على الآخر !! بينما كلاهما قد شارك فى هذه النتيجة التربوية من عناد الابنة عبر ما ظن أنه لونًا من ألوان الإرشاد ، وهو لا يعدو نوعًا من أنواع التحكم الفارغ ..!!

وهذا هو واقع أكثر الآباء ، فهم يرون الرجولة هي الجفاء ، وعدم النزول إلى مستوى الأبناء ، والكلام معهم بتعالي .. فلا مداعبة ، ولا ممازحة ، ولا مشاركة فى لعب .. ولذلك يشعر الصبيّ بفجوة عظيمة ، بشرخ كبير ، بحاجز هائل بينه وبين والده ، فأبوه لا دور له في حياته ، إلا أنه دكتاتور متسلط ، يلقي أوامره وتعليماته ، بصوتٍ عالٍ ، وسوطٍ حادّ ، وجبينٍ مقطب ، أسدٌ .. فقط على أولاده ، وكأنه فرعون زمانه ..

لا يطيق ابنه أن يراه ، لا يجد في حضرته متعة ، ولا في وجوده لذّة ، يتمنى أن يسافر إلى الصين ، ولا يعود ولو بعد حين ..!!

وما كل ذلك التمرّد إلا بسبب اقتصار دورنا – كآباء – على إعطاء الأوامر لأبنائنا ، ومراقبة تنفيذها .. وعدم كسب الأبناء بالتواصل الحميم ، والمشاركة الفاعلة ..

خذ هذا المثال ..

" كانت عينا (أحمد) غارقة فى النوم ، وكان وجهه يبدو هادئًا وجسده راقدًا فى سعادة وسكون ..

وكانت أمه تنظر إليه وتستمتع بهذه اللحظة الوديعة الهادئة غالبًا كل ليلة ، وكم تمنت أن يظل هذا الهدوء ملازمًا له فى صباح اليوم التالي ..

ولكن .. لا يبدو أن هذا يتحقق عبر الأمنية فقط !! فعند الفجر كان من المؤكد أن " أحمد " سوف يبدأ زوبعة أخرى .. إنه فى كل صباح بموقفه العنيد ينجح فى تحويل ما كان يجب أن يكون عملًا بسيطًا – مثل الاستعداد للذهاب للمدرسة – إلى معركة بكل قوته .

إنه يقاتل أمه بشأن النهوض من الفراش ، وما يجب أن يرتدي ، ويجادلها بشأن ما تريده أن يأكل ... ومهما كان من التماس أمه ومناشدتها وصراخها ، فإنه لا

يغير الطريقة التى يتصرف بها .. "[١] .

فماذا تفعل الأم ليغيّر " أحمد " من الطريقة التى يتصرف بها ؟

إنه لا سبيل إلى ذلك إلا التواصل الحميم معه .. تتحدث معه عن كل شيء .. تتحدث معه عما يفعله وعن شعورها بالغضب مما يفعل : " حين تتشاجر مع أخيك، فإنني أكون غاضبة لأنك قد تؤذيه أو يؤذيك " .. " حين تتأخر عن موعد عودتك يصيبنى القلق .. إنى أخاف أن تكون قد أصبت بمكروه .. " .

إن مثل هذ العبارات الحانية هى السبيل إلى التغيير المطلوب ..

وعلى النقيض من ذلك تمثل عبارات أخرى معوقات حقيقية فى سبيل التربية الراشدة ، وتغيير تمرّد الأبناء إلى طاعة رضا ..

خذ مثالًا ..

كثيرًا ما نسمع فى الشارع أو فى محل البقالة أو حتى فى المتنزه والحديقة ، أبًا أو أمًا يقول لابنه : إذا لم تأت حالًا .. أو إذا لم تطع ما آمرك به ، فسوف أتركك هنا !!

إن مثل هذه العبارة التى نظن أنها بسيطة تؤثر تأثيرًا فى غاية السلبية على الابن، ذلك أن فزعه الأكبر وخوفه العظيم هو عدم حب والديه أو هجرهم إياه وحرمانه من الأمن فى كنفهما ..

إن هذه العبارة تشعل لهب الخيال لديه فى أنه قد يصبح هنا وحيدًا ..

إن من الأفضل فى مثل هذه المواقف أن نسحب الابن من يده ، لا نهدده بالكلمات ..

لقد تحوَّل أكثرنا إلى القيام بدور " مفسد السعادة " بالنسبة لأبنائنا .. فهو الذى يكرر " لا تفعل .. " لأشياء كثيرة مما يحبوه .. وهو الذى يضع القيود الكثيرة على حركتهم .. هكذا وكأننا رجال الشرطة الذين يمسكون بالمخالفين ، ويراقبون

(١) حاول أن تروضني – راي لفي – ص ١٩٣ .

المنحرفين .. !!

القاعدة التربوية هنا (القواعد بدون علاقة تساوى تمرد !!)

• لا تسـند السلم إلى الحائط الخطأ :

من سنن النفس البشرية أن يعمل الإنسان على مشاكلة من يحبهم من البشر ، فمن أحب أحدًا عمل على مشاكلة أعماله .. وإذا أحب الابن والديه ، كان حلمه أن يكون على شاكلتهم ، و رغب فى سماع توجيهاتهم ..

ومن هنا تأتي أهمية إتصال الآباء بالأبناء .. ذلك أن هذا التواصل هو طريق الآباء إلى جعل علاقتهم مع أبنائهم قوية متينة عميقة ، ومن ثم .. يصبح الأبناء محبين لآبائهم ، متعلقين برضاهم ، و يصبح وزن البيت فى حسهم أثقل من المدرسة والشارع والأصدقاء .. ويتيسر للآباء إصلاح ما يمكن أن يكون قد فسد فى نفوس الأبناء بسبب من كل هؤلاء .. ذلك الهدف الذى لا يتحقق من خلال القواعد والقسر ، ولكن من خلال الجاذبية والحب .

أمّا حين يحرم الأبناء من التواصل مع آبائهم ، فإن هذا يولّد عندهم الشعور بافتقاد من يسمعهم أو يهتم بهم ، فيهربون إلى من يسمعهم .. وربما هذا يكون تفسيرًا لوقوع بعض الفتيات فى علاقات مع أشخاص ليس لغرض الحب أو الجسد، بل لأن هذا الشخص يسمعها ويحاورها ويهتم بها .. وكذلك الحال مع الأولاد حيث يصبح أصدقاؤهم أقرب إليهم من آبائهم ..!! .. فيبدأون فى نقل نماذج السلوك عنهم ، والتى تكون فى كثير من الأحيان نماذج هابطة .

إن من أكبر مشكلاتنا – إن لم تكن أكبرها – أننا نفتقد الحد الأدنى من التواصل مع أبنائنا .. وأن إنشغالنا فى كثير من الأمور التى قد نراها " ضرورية " جعل علاقتنا بأبنائنا علاقة ضعيفة وهشة ، ولذلك فإن متاعب أبنائنا تتفاقم يومًا بعد يوم .

لقد أصبحنا ـ كلنا أو معظمنا ـ مشغولين خارج بيوتنا فى أعمالنا الوظيفية أو التجارية ، وكثيرًا ما نرجع آخر الليل لنجد أبناءنا فى نوم عميق ، وقد نصبح والأبناء فى مدارسهم ، وهكذا ... بل ربما مضت أيام دون أن تقع أنظارنا على أبنائنا؟!

"فأين أبوة التوجيه ؟ أبوة التربية ، أبوة العطاء والتجربة والخبرة ..

إن وجود الأب بين أبنائه ولو صامتًا ، فيه من عمق التربية ما فيه ، فيه التضحية بوقته ، فيه التقدير لهم ، فيه إحساس المشاركة ، فيه الطمأنينة .. فما بالك إذا نطق الأب وهو بينهم خيرًا أو حل مشكلة أو ناقش همومهم .. إنه بذلك يكسر الحواجز بينه وبينهم ويسبر غور نفوسهم بل يصبح مخططًا لحياتهم بما يعود عليهم بالنجاح فى حياتهم.." [1] فلا نسمع ابن يقول : " لا أحد يفهمني !! " .. ولا نسمع أب يبرر : "لقد قلت لهم ما يجب أن يقوموا به .. لقد فقدت الأمل فى إصلاحهم"..

إن من الإجابات المألوفة والقاسية فى نفس الوقت ، والتى يسمعها الأبناء من آبائهم حين يشكون إنشغال الآباء عنهم ، أن يقول الآباء : إن هذا الإنشغال ليس من أجلي ، وإنما من أجلكم أنتم حتى أؤمن لكم مستقبلكم !!!

إن هذه الإجابة – فى الحقيقة – تعكس وهمًا يسيطر على كثيرين من الآباء ، وهو أن تأمين المستقبل إنما يكون بتوفير كم من المال .. إن هذا الجانب هام ولا شك .. ولكن ما لا يقل عنه أهمية أن الأبناء بحاجة إلى تأمين نوع آخر .. بحاجة إلى تأمين رصيد دفء الحب الذى لا يشترى بالمال ، وإنما بالتواصل معه .. بالتحادث معهم .. بالتفاهم المشترك ..

أيها الأب المربي ..

لا تحاول تبرئة ذاتك .. إعترف بخطئك .. تحمّل مسؤوليتك .. واعلم أن

---

(١) [illegible] جاسم النشمي – ص ٣٦ .

من أشد ما يبعث على الأسى تلك البيوت التى تخلو من الأب !!

ولسنا نشير هنا إلى الأب الذى مات ، أو انفصل عن الأسرة بالطلاق مثلًا .. وإنما نشير إلى الأب الذى يطغى عليه عمله أو أصحابه أو .. غيرها من الإهتمامات، طغيانًا يحرم أسرته من حضوره والأنس به ..

فهل تخصص – أخي الأب - " وقتًا كل يوم لتتحدث مع أطفالك بشأن ما يحدث فى المدرسة ؟

– إن هذا يكشف لك عن المشكلات المحتملة فى وقت مبكر ، ويساعدك على تقديم المساعدة فى الوقت المناسب ..

– هل تصرف وقتًا مع أطفالك مانحًا إياهم انتباهك الكامل ؟

– من المشجع أن تطلب من أطفالك تزويدك بالمعارف الجديدة التى تعلموها.

إن سؤالًا كهذا : ماذا تعلمت اليوم وترغب أن تفيدني به ؟ سوف يشعر ولدك بأهمية ما تعلمه .

– هل تقرأ لأطفالك أو تطلب منهم القراءة لك ؟

– وهل أنت قدوة لأولادك فى قراءة القرآن ، والكتب ذات المعارف المتنوعة؟

خذ هذا الموقف التربوي النبوي مثالًا توضيحيًا :

عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ " إقرأ عليّ » قال : قلت أقرأ عليك وعليك أنزل ؟

قال : إني أشتهي أن أسمعه من غيري ، قال : فقرأت النساء حتى إذا بلغت "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك شهيدًا على هؤلاء شهيدًا " قال لي : كف أو أمسك فرأيت عيناه تذرفان " – أخرجه البخاري برقم ٥٠٥ .[١]

إن الأب يجب أن يتعامل مع أبنائه كصاحب وصديق لهم .. فهذه الصداقة

---

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د.عادل رشاد غنيم – ص ١٧٩ ، ١٨٠ بتصرف يسير.

هي الكفيلة بتحقيق هدفين هامين فى عملية التربية :

الهدف الأول .. هدم الحواجز التى تمنع الأبناء من مصارحة الآباء بكل شيء فى حياتهم ، واستشارتهم فى كل امر يستجد عليهم .. وهذا يمكّن الآباء من معرفة جميع مشاكل الأبناء وما يُعانون منه، كما يمكنهم من توجيه أبنائهم على بصيرةٍ في الاتجاه الصحيح والمطلوب ..

بينما يدفع انعدام التواصل بين الآباء والأبناء إلى كتمان الأبناء عن الأباء ما يحصل لهم من مشاكل ومن أمور مستجدة تحتاج لمساعدة الآخرين، تجعل الولد يلتجئ غالبًا إلى أقران السوء من أصحابه يستشيرهم في أمره وفيما يطرأ عليه من مشاكل، ليجد عندهم أسوأ الآراء، وأردأ الحلول التي قد ترتد عليه بالدمار والهلاك لو عمل بها ..!

الهدف الثاني .. إكتساب الأبناء شعورًا صادقًا بحب وحنان وعطف الآباء عليهم .. وهذا الشعور بمحبة الآباء من أهم المشاعر الإنسانية .. فالابن يميل دائمًا إلى من يلمس منه المحبة والعطف نحوه، ويكون مشدودًا إليه وإلى توجيهاته وتعليماته .. فإن لم يجد هذه المحبة عند الآباء بحث عمن يجد عنده هذا الشعور، ليسد حاجته في هذا الجانب ..!

والمشكلة قد تكون كبيرة وخطيرة جدًا عندما لا يجد الأبناء المحبة والحنان من آبائهم ثم يجدون شيئًا منه عند أصحابهم من أقران السوء ..!!

فحينها يكون قرين السوء هو المثل الأعلى عند الولد الذي منه يتلقى كثيرًا من القيم والمفاهيم، والعادات السيئة ..!!!

إن قلب الأب يجب أن لا يركز على النتائج التى يجنيها من تعامله مع أبنائه ، حتى إن كانت هذه النتائج هى نجاحهم وسعادتهم ، و إنما الواجب على الآباء أن يحبوا أبناءهم من صميم قلوبهم ، يحبونهم كما هم ، وبشيء من العطف على

أخطائهم ، وشيء من الود الحقيقي لهم ، عندها ينكشف لهم النبع الصافي في قلوب هؤلاء الأبناء ..

إننا حين نمنح حبنا ومودتنا بصدق لأبنائنا ، عندها نكون قد جذبناهم إلينا من الأمام ولم ندفعهم من الخلف .. ولا شك أن الجذب إلينا يعطينا حبهم ، بينما الدفع من الخلف يفقدنا السيطرة عليهم تمامًا ..

ولكي نستطيع ذلك لا بد أن نتعلم كآباء أن نقول : لا .. نعتذر عن آداء هذا العمل .. عندنا ارتباط بمواعيد مع أبنائنا .. هكذا بلطف ووضوح .. ذلك أن قولنا نعم لشيء يساوي قولنا : لا لشيء آخر ..

نعم أخي المربي ..

يجب أن نتنازل عن بعض ما نراه " فرصة " عمل لنجلس مع من " نحبهم " من أبنائنا .. ولا نعتذر بأننا مشغولون دائمًا وليس عندنا الوقت الكافي للجلوس معهم ..

إننا في هذه الحالة من الإنشغال الدئم بالعمل وعدم إعطاء أبنائنا أي نصيب من وقتنا .. إننا في هذه الحالة نكون كمن يصعد السلم بكل جد ونشاط حتى إذا انتهى إلى قمته وجد أنه مستند إلى الحائط الخطأ ..

فاحرص – أخي المربي – ألا تسند السلم إلى الحائط الخطأ ؟!!

❀❀❀

الباب العاشر

أَكْرِمْهُ

H=honour him

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : ولقد كرّمنا بنى آدم

الفصل الثاني : التربية الإستقلالية

الفصل الثالث : العبيد لا يصنعون حضارة

الفصـــل الأول
ولقد كرمنا بني آدم..

من اللحظة الأولى التى أعلن فيها ميلاد الإنسان ، أمر الله الملائكة بالسجود له إيذانًا بكرامته عند الله . .

وأكدت الآيات الكثيرة على كرامته ، وأمرت بتكريمه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء ٧٠].

وسخّر الله له ما فى السماوات والأرض ﴿وسخّر لكم ما فى السموات والأرض جميعًا منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ ..

و كل قيمة من القيم المادية لا يجوز أن تطغى على قيمة الإنسان ، ولا أن تستعلي عليه .. وكل هدف ينطوي على تصغير قيمة الإنسان مهما يحقق من مزايا مادية هو هدف مخالف لغاية الوجود الإنساني ، فكرامة الإنسان أولًا .. وسمو الأهداف وعظمة القيم ، إنما يأتي نتيجة مباشرة لشعور الإنسان بكرامته على الله ، ثم برقابة الله على الضمائر ، واطلاعه على السرائر ..

- احتـــرم إنســـانيته :

ما أن ولد الطفل حتى صار من " بنى آدم " .. والله سبحانه قد كرّم بني آدم " ولقد كرّمنا بنى آدم " – الإسراء ، آية ٧٠ ... فلا بد أن نكرمه ونعتقد اعتقادًا جازمًا بأن ذاته محترمة .. و لا بد من احترام " الإنسان " فى ذات الابن !!

و الإنسان بفطرته يتوق إلى من يشعره بأنه كريم ، بل النفس الإنسانية تبحث

عن المكان الذى يوقّر لها الكرامة بقانون ثابت يشابه إلى حد كبير قانون نزوح الماء بين وسطين مختلفي التركيز يفصل بينهما غشاء نصف نفوذي باتجاه الوسط الأكثر تركيزا بالأيونات !! .. واحترام إنسانية الابن يعمل ضمن نفس القانون فتصبح وسيلة " جذب " للابن ناحية الأب والمربي .. ومن ثم فهي الطريقة الأمثل لإصلاحه .

إن الابن يتلهف إلى التقدير والإحترام ، و هذا " التلهف " هو المحرك لكثير من الأعمال والنشاطات لديه ، ولذلك فإن الابن الذى ينشّأ على الإحترام والتقدير هو إنسان يضع كل شىء فى مكانه الصحيح ، يعرف قيمته ومكانته وينافس بشرف مع الآخرين ؛ فينمو مستقبله بين يديه قويًا ثابتًا ... كل ذلك من ينبوع التقدير والإحترام يخرج ؛ فطاقة الحب فى قلب الابن تتحول إلى تعاون مع مربّيه لهزيمة كل الآلام ، ومواجهة كل الأخطار .. والقيام بكل الواجبات .

" أمّا بخس الابن حقه ، فهو يؤدي إلى مخاطر نفسية كثيرة كالإصابة بالخوف الشديد والانطواء وحب الاعتداء والمشاجرة "(١)

إننا ربما سمعنا أمّا تقول لابنها : " إذا لم تصمت ألقيتك من هذه النافذة " .. هي بالطبع لا تقصد أن تفعل ، وإنما هو استعراض لجبروت الكبار ، وسوء استعمال لاحترام الأولاد الطبيعي لوالديهم !!

الطفل هنا يسمع فى كل كلمة إهانة .. ومثل ذلك يقال أيضًا لمن يهدد ولده أن يحرمه من محبته " لن أحبك إن فعلت كذا " أو التهديد بتركه " سوف أتركك ولن أعيش معك " .. كل أولئك يستغلون خوف الطفل ، وهم قد يحققون نجاحًا مؤقتًا فى إلغاء ما يريدون من خصال لا تعجبهم .. *ولكن خطورة هذا الأمر تأتي من أن التربية بالخوف لا تربي بشرًا مستقلين بل بشرًا توابع .*

---

(١) تربية الأطفال فى رحاب الإسلام – خولة درويش – ص ١٥٩ بتصرف يسير

كما أن إذلال " الطفل يولّد لديه مناعة ضد كل النصائح التى تلقى عليه ، وسلب كرامته يسوغ له عمل القبائح . وإذا كان الكبار لا يستغنون عن التقدير والتشجيع والثناء ، فإن الأطفال أحوج إلى ذلك ، فالطفل كائن غريب على مجتمعه الناضج ؛ ومن ثم فإنه يقوم بأعمال كثيرة ولا شعورية – أحيانًا – فى سبيل انتزاع إعتراف مجتمعه به ، وصلاحيته لعضويته فيه . وإن علينا أن نمنحه ذلك ، ونشعره به دون شطط "(١).

إن القبول مطلب نفسي واجتماعي .. والابن يسعى للحصول على الإحترام والتقدير من والديه ، ويكره أن يستهين به أحد ، أو أن يحقره ، و يحس بألم وضيق نفسي ، ويسعى لتلافيه ما استطاع .. وكل تلك الأحاسيس تبدأ فى كيانه مبكرًا جدًا .. ففى " العام السادس من عمر الطفل يدق باب قلبه السؤال التالي : " هل الكبار يحترمونني حقًا " .. والاحترام ببساطة هو أن تصبح مسافة الهواء التى تفصل بين جسد الطفل وجسد الوالدين ممتلئة بالدفء . والدفء ليس حالة احتضان دائم للطفل ، ولكنه حالة اعتراف نفسي بأن هذا الطفل جدير بالمستقبل ، وأن أخطاءه قابلة للإصلاح . وهو ككائن صغير سيستطيع أن يصحح أى أمر بهدوء"(٢)

أخي المربي ..

" عامل ولدك معاملة إنسان وعضو محترم من أعضاء الأسرة ،لأن الطفل الذى نشأ على التحقير و الاستهزاء من شخصه لا يستطيع فى الكبر أن يبدى الاستقلال فى تصرفاته والرصانة فى شخصيته .

إن إيجاد تلك الشخصية والاعتماد على النفس عند الطفل من أهم الواجبات التربوية للآباء والأمهات والشرط الأول فى تلك التربية هو تصحيح نظرة الآباء إلى

(١) من أجل إنطلاقة حضارية شاملة – د.عبدالكريم بكار – ج ٢ – ص ١٤٢ .
(٢) تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د. سبوك – ص ١٣٠ .

طفلهم . إنه إنسان صغير ، إنسان واقعي ولكنه ضعيف ، إنسان لديه من الفطرة ما يجعله يعي الكثير من الأمور .

ومن مظاهر تقدير الطفل في تربية النبوة أن النبي ﷺ كان يكني الأطفال الصغار (يقول لأحدهم يا أبا فلان) ، وفي ذلك تنمية لشعور التكريم في نفس الولد ، كما في حديث أنس : " كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا وكان لي أخ يقال له أبو عمير قال أحسبه فطيمًا ، وكان إذا جاء قال : يا أبا عمير ما فعل النغير (اسم طائر مثل العصفور) نغر كان يلعب به . البخاري برقم ٦٢٠٣....... كما يروى أنس رضي الله عنه : " كان يمر بالصبيان فيسلّم عليهم " – صحيح الجامع ٥٠١٤ .. فهو ﷺ يلقى السلام على الصغار لأن في هذا الأمر إحياء لشعور الطفل بكيانه الشخصي .. لأنه يجد الكبار يسلمون عليه فيشعر بالثقة في نفسه ويطمئن إلى احترام الآخرين له "[1].

وهذه هي الطريقة الأصوب لتحصيل طاعة الابن ، أن تتذكر – أخي المربي – " أنه إنسان وله أحاسيس ومشاعر مثله مثل سائر البشر ، وإن ما توارثناه من آبائنا وأجدادنا من أن الابن يعامل بإصدار الأوامر وتوقع تنفيذها بدون جدال أو نقاش وبدون توضيح لمعناها ، تلك الطريقة وذلك الأسلوب مع الابن لا يساعدانه في تكوين شخصية قوية ذات اعتماد على النفس وثقة في التفكير والقرارات و تخطيط المستقبل ."[2].

وإذن ، فالنصيحة التربوية هنا " أكرمه وازرع في داخله الثقة بالنفس " ..
"ومن إكرامه أيضًا إلحاق لقب حسن به ، وذلك بحسب قدراته وخصائصه ، كأن يقول المربي عن الابن : الشجاع ، أو الصبور ، أو المكتشف ، أو السبّاق ، أو

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د.عادل رشاد غنيم – ص ١٥٠ – ١٥٣
(٢) قضايا الأبناء في عالم متغير – آمال الشرقاوي – ص ١٢٠ ، ١٢١ بتصرف يسير

الصدوق ، أو الأمين ؛ وذلك وفق ما يشيع في سلوكه من خصال مرغوبة ومحببة إلى نفسه . وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ مع أصحابه رضي الله عنه فكان يلقبهم بما يتميزون به ؛ فقد لقب أبا بكر بالصديق ، وعمر بالفاروق ، وخالد بسيف الله المسلول ، وأبا عبيده بالأمين"(١) .

وحبذا لو أمكن ربط الثناء على المتربي برضا الرب ، فيقول المربي : هذا شيء يحبه الله . هذا الذى فعلته يرضي الله ورسوله . أو لقد وافقت السنة . على أساس أنه هو المعيار ...

إن الابن يرتبك حين يتلقى الأمر الصادر من أمه أو أبيه بفتور أو استخفاف ، ذلك أنه يتخيل أنهم لا يقدرانه وأنه شخص غير موثوق فيه أو لا يقدّره أحد .. ولذلك فإن النظر إلى الابن والكلام معه باحترام وحب ، وتلقيه المكافأة على طاعته وعدم تمرده هو الطريق إلى تقليل عناده ..

إن المكافأة الكبرى التى يتطلع إليها الابن دائمًا هى أن يحس أنه محبوب من أبويه وأنهما يثقان به ويكرمانه .و " كلما استخدمت – أخي المربي – الأساليب والعبارات الملائمة ، كان التأثير أجدى وأنفع ، مثل قولك لابنك : آسف لإزعاجك ، ولكن أريدك أن تساعدني فى عمل ما .. أو من فضلك .. أود أن تعتني بمذاكرتك جيدًا .. أو هل من الممكن أن تنتبه إلى أسلوب تعاملك مع إخوانك ؟ .. وغيرها ..

كما يجدر بنا كآباء أن نستخدم ألفاظ وعبارات تشعر الابن أنه جزء منا وقريب من قلوبنا .. مثل .. يا ابني .. يا ابنتي .. يا حبيبتي ...

والمتأمل فى سورة يوسف يجد أنها حافلة بهذه المعاني السامية واللفتات التربوية التى ترسخ هذا المفهوم الذى يتجلى فى مواقف عدة ، منها طبيعة حوار

---

(١) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ١١١ .

سيدنا يعقوب عليه السلام مع يوسف وإخوته حينما قال : ﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدًا﴾.

﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾.

﴿يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله﴾ .

فها هو يعقوب عليه السلام في مواقف عصيبة وحالة محزونة ، بقي في تعامله مع أبنائه بروح الأب الحاني يشملهم بأبوته العظيمة " (١) .

وفي ظني أن علينا معاشر المربين أن نبحث دائمًا عن الأساليب الأكثر أناقة والأكثر رقيًا في خطابنا لمن نقوم على تربيتهم ؛ لأن الخطاب حين يكون راقيًا يبني ذوقًا وأدبًا وخلقًا راقيًا لدى من نربيهم ، وفوق هذا وذاك فإن الأسلوب الراقي في الخطاب يجعل المتلقي أكثر استعدادًا لقبول ما نقوله له .

فمثلًا .. بدلًا من أن نقول : هذا كذب . نقول : هذا خلاف الواقع ، أو نقول : معلوماتي حول هذا الموضوع غير ما ذكرت . وبدلًا من أن نقول لابن لمسنا فيه العجلة : أنت عجول ، أو أنت دائمًا مستعجل .. فإن الأحسن من ذلك أن نقول: الرؤية جيدة ، والعجلة لا تأتي بخير . وإذا رأينا ابنا لنا يغيّر رأيه فلا نقول : أنت متناقض ، ولا نقول : كل يوم لك رأي !! وإنما نقول له : كان لك في الماضي رأي مختلف ، فهل جدت لديك خبرة أو معلومة جديدة حتى غيّرت رأيك ؟ .. وهكذا.. " (٢)

وإذا رأينا من الابن خطأ واضحًا ، حاولنا إرشاده إلى الصواب بأسلوب لبق ليس فيه جرح لمشاعره أو ما شابه ذلك ..

خذ مثالًا للطريقة الخطأ في الإرشاد:

يقول الأب أو الأم : أحمد .. إن خطك في الكتابة في غاية السوء .. لقد

---

(١) التميز في فهم النفسيات – أكرم مصباح عثمان – ص ١٠٠ .

(٢) بناء الأجيال – د/ عبد الكريم بكار – ص ١٥٩ بتصرف يسير .

سئمت من أخطائك الغبية ... لا بد من إعادة ما كتبت مرة أخرى .

خذ المثال الصائب للإرشاد :

" أحمد .. خطك فى الكتابة فى تحسن مستمر .. الحمد لله قلّت أخطاؤك بدرجة كبيرة .. إنها أخطاء قليلة ولكن بعضها يغير المعنى .. أليس كذلك ؟

مثال آخر للإرشاد الخاطىء :

يقول المربي : ماذا فعلت فيما أمرتك به .. إنك أغبى من رأيت فى حياتى .. يبدو أننى سأضطر لأمرك بإعادة هذا العمل اللعين مرة أخرى ..

الطريقة الصحيحة :

ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، لقد أنجزت جزءًا كبيرًا مما طلبته منك مع صعوبة الظروف .. ولكن هناك أمر أريد أن أفهمه فيما قمت به ، فهل تراجعه معى لأنني أخشى أن يفسد ما صنعت ..؟؟

مثال آخر للطريقة الخطأ :

" لماذا حصلت على هذه الدرجات المنخفضة فى مادة التاريخ يا غبي ؟ إنك إما كسول أو غبي جدًا ، لدرجة أنك لا تصلح للتعلم . فأى واحد من ذلك تعتبر نفسك ؟

الطريقة الصواب :

"أحمد ، إن بطاقة الدرجات الخاصة بك تبدو رائعة هذه المرة ، إننى حقًا فخور بعملك ، ولكن الدرجة التى حصلت عليها فى التاريخ تعتبر دون المستوى المألوف ، ولكننى أعلم أنك تستطيع تحسينها أيضًا لأنك تقدمت فى بقية المواد الدراسية " [1] .

إن هذه الطريقة فى الإرشاد وتصويب الخطأ لا تحطّم كرامة الابن ولا تفقده

(١) ٢١ يومًا للحصول على القوة والسلطة فى تعاملك مع الآخرين – جيمس ك . فانفليت – ص ١٤٥ .

احترامه لنفسه ..

إنها طريقة تتطلب منك أيها المربي صبرًا ووقتًا .. ولكنها تأتيك بنتائج مبهرة .. فهل تجرّب ؟

إن أسلوب الإرشاد فى غاية الأهمية ، بل إننا لانجافي الحقيقة إذا قلنا أن أسلوب الإرشاد قد تزيد قيمته على قيمة المضمون ، وقد قالوا من قبل: ليس المهم ما قيل ، ولكن كيف قيل ؟

فصياغة الضوابط تكون بلغة لا تتحدى احترام الطفل لذاته .. فمثلًا : " هذا وقت النوم " .. أفضل من " إنك صغير جدًا حتى تظل مستيقظًا إلى الآن .. إذهب إلى فراشك " ... و " الكرسي للجلوس ، وليس للوقوف عليه" ..أفضل من " لا تقف على الكرسي " !!

إننا كثيرًا ما نسمع آباء يشكون من آبائهم الذين عاملوهم بجفاء ، فانعكس ذلك على سلوكهم فيما بعد .. سواء من حيث شدتهم على أبنائهم ، أو الأغرب من ذلك من حيث التسيب عاطفيًا وعدم السيطرة على أبنائهم ، بل وتنفيذ كل ما يطلبه الأبناء منهم .. بل ربما سمعنا بعضهم يقول : إن التدليل المبالغ فيه هو الأمر الممكن الوحيد الذى يستطيعونه مع أبنائهم ، لأن القسوة السابقة معهم كانت كفيلة بتسيبهم عاطفيًا ..!!

إن الأبناء الذين يتربون بالقسوة ، يخرجون إلى هذا العالم وهم يحملون قلوبًا لا رحمة فيها .. يقيسون كل شيء بميزان لا يعرف الحنان أو الحب .. ذلك أنهم فى صغرهم إذا أظهروا عواطفهم ، واجهتهم قسوة الآباء " لا تبك ، وكن رجلًا !! " .. وإذا احتاجوا الاختباء داخل جسد الأب الكبير ، واجهتهم تربية جافة تجمد ينابيع العطاء فى أعماقهم ، وتدفعهم إلى إزعاج كل من حولهم فى محاولة لتنبيههم إلى

حاجتهم الشديدة إلى الحب والاحترام !

ولذلك فإننا " إذا لاحظنا على الطفل عمل بعض الأعمال غير المرغوبة وجب أن ننبهه إلى ذلك بطريقة لا تجرح كبرياءه ؛ فإذا رأينا – مثلًا – أنه يكذب كان من المناسب أن نقول : إن فلانًا لا يكذب . وإذا كان وقع ذلك منه فإنه ليس متعمدًا ، فذاك خير من تقريعه وتوبيخه . وعند إرادة مناصحته فى خطأ ما فإن ذلك ينبغي أن يتم فى السر بعيدًا عن الناس حتى أفراد أسرته . وكل ذلك فى سبيل السعي إلى محاصرة الانحراف دون إيقاع أضرار به "[1].

إن على الأبناء واجبات تجاه الآباء .. هذه حقيقة ، ولكن الحقيقة الأخرى التى لا تقل عنها أهمية أن للأبناء حقوقًا على الآباء .. وإذا رغبنا فى طاعة أبنائنا وعدم عقوقهم فلا بد أن نعلم أن هذه الطاعة إنما ينتجها عدم عقوقنا لهم .. وهذه النتيجة تخضع لقاعدة ثابتة هي قاعدة " الحقوق والواجبات " .. " فالأب عليه واجبات كثيرة تجاه أولاده ، ومن هذه الواجبات :

١- تعليمهم أمر دينهم بالطريقة الصحيحة .

٢- حسن اختيار أسمائهم .

٣- إحاطتهم بالرحمة والشفقة والعطف .

٤- تقريبهم ومحبتهم .

٥- إشباع حاجاتهم المختلفة بالمقدار المناسب (مثل حاجتهم إلى الأمن ، والاحترام ، واللعب ، والمعرفة، ...).

ولا ريب أن قيام الآباء بهذه الواجبات وفق التوجيهات الشرعية ، ووفق الحاجات الفطرية لهؤلاء الأبناء ، سيؤثر على مسالك الأبناء تجاههم وسيورث

---

(١) من أجل انطلاقة حضارية شاملة – د.عبد الكريم بكار – ص ١٤٢

المحبة والاحترام والطاعة ، وسيؤدى إلى البر بهم والبحث عن رضاهم .

وما حدث من عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع الرجل الذى اشتكى ولده يبين أهمية قاعدة " الحقوق والواجبات " فى التربية .. فقد " جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو عقوق ابنه فأحضر عمر الولد ، وأنّبه على عقوقه لأبيه ونسيانه لحقوقه فقال الولد : يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال : بلى . قال : فما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أن ينتقي أمه ، ويحسن أسمه ، ويعلمه الكتاب (أى القرآن) . قال الولد : يا أمير المؤمنين ، إن أبي لم يفعل شيئًا من ذلك ، أما أمي فإنها زنجية كانت لمجوسي ، وقد سماني جعلًا (أى خنفساء) ، ولم يعلمنى من الكتاب حرفًا واحدًا .

فالتفت عمر إلى الرجل وقال له : جئت تشكو عقوق ابنك ، وقد عققته قبل أن يعقك ، وأسأت إليه قبل أن يسىء إليك " [(١)].

أخي المربي ..

إن لنا فى رسولنا ﷺ القدوة الحسنة ، وقد بلغ من اهتمامه ﷺ بالأطفال ، وحرصه على التعامل الطيب معهم ، وتربيتهم التربية الصالحة أنه :

كان يحملهم معه ويأتي بهم إلى المساجد، كما في حديث أمامة في البخاري وغيره، وحديث الإمام أحمد والنسائي وغيرهما عن عبد الله بن شداد عن أبيه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسنا أو حسينا فتقدم رسول الله ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة .

ويجلسهم إلى جواره ، كما في حديث أبى بكرة في البخاري: " سمعت النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه .

---

(١) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ٢٦١.

أو يحملهم وهو على المنبر يخطب كما في خبر نزوله ﷺ للحسن والحسين عن المنبر وحمله لهما وقوله صدق الله " إنما أموالكم وأولادكم فتنة " – رواه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما..

ولا يفرق في ذلك بين الذكور منهم والإناث، حتى بلغ به الأمر أن يصلي حاملًا أمامة بنت زينب على عاتقه – رواها البخاري ومسلم وغيرهما –

وكان يطيل الصلاة لأجلهم، كما فعل عندما ارتحله الحسن أو الحسين في الصلاة . كما في حديث الإمام أحمد والنسائي وغيرهما عن عبد الله بن شداد عن أبيه ، ويقَصرها لأجلهم كذلك كما كان يفعل إذا سمع بكاء الصبي مع أمه في الصلاة – رواه البخاري وغيره – ..

بل ثبت عنه ﷺ أنه أخّر الإفاضة من عرفة من أجل أسامة ينتظره، ولم يُفض حتى جاء وكان يومها غلامًا ، فقد روى ابن سعد فى الطبقات ، عن هشام بن عروة عن أبيه: أن النبي ﷺ أخر الإفاضة من عرفة من أجل أسامة ينتظره، فجاء غلام أفطس أسود، فقال أهل اليمن: إنما جلسنا لهذا! قال فلذلك كفر أهل اليمن من أجل هذا. قال ابن سعد: قلت ليزيد بن هارون ما يعني بقوله كفر أهل اليمن من أجل هذا؟ فقال: ردتهم حين ارتدوا في زمن أبي بكر أي كانت لاستخفافهم بأمر النبي ﷺ.

وكان ﷺ يزورهم ويكنيهم ويداعبهم ويلاعبهم ، كما في حديث "يا أبا عمير ما فعل النغير – في البخاري وغيره. وكذا حديث محمود بن الربيع في البخاري أيضًا قال: عقلت من النبي ﷺ مجة مجها في وجهي وأنا ابن خمس سنين .

ويسلم عليهم في الطرقات ، كما هو ثابت من رواية أنس عنه في البخاري وغيره ..

ويردفهم وراءه ، كما في حديث ابن عباس الآتي (يا غلام إني أعلمك كلمات) وفيه أنه كان خلف النبي ﷺ ..

ويأكل معهم، كما في حديث عمر بن سلمة في البخاري ومسلم وغيرهما: (يا غلام سم الله. وكل بيمينك وكل مما يليك ..

ووصيته ﷺ لابن عباس وهو غلام مشهورة معروفة حديث (يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك..) الحديث رواه الإمام أحمد وغيره وهو صحيح، ممتلئة بمعاني التوكل واليقين وتعظيم اللهً عز وجل والاستعانة به وحده وغير ذلك من الأمور التي يحتاجها كثير من الكبار والآباء، فكيف لو ربي عليها الأبناء منذ نعومة أظافرهم..

ولا شك أن مثل هذا الاهتمام البالغ من النبي ﷺ بالصغار وتعهدهم بهذه التربية وتلك التوجيهات هي التي صنعت أولئك الرجال ..

أخي المربي ..

فى التربية تعتمد الغايات على الوسائل .. وتعتمد النتائج على طريقة السير .. وفى ظل احترام إنسانية الابن ، يتربى الابن فى الأسرة فلا يرى العلاقة بين أحد طرفي الأسرة والآخر علاقة إنسان يقوم بدور «السّيد» ، وآخر يقوم بدور " العبد " .. وإنما لكل إنسان فى الأسرة مكانته ، ومساحة المشاركة التى يأخذ بنصيبه فيها .. ومن ثم تزدهر شخصيته ، وتتطور صفاته للأفضل .. فهل ينصح بعضنا بعضًا أن يكرم أبناءه ، ويحترم إنسانيتهم ؟!

• اللمسات الحانية والإهتمام :

هناك حقيقة ينبغي التأكيد عليها فى عملية التربية .. هذه الحقيقة أن البنية

العميقة التى توجه سلوك أبنائنا ، وتنظم ردود أفعالهم هى بنية فى أساسها "عاطفية"، وعلى قدر قدرتنا كآباء ومربين على معرفة الإتجاه الذهنى لأبنائنا ، وتحسس مواقفهم الشعورية تجاه الأحداث والأشياء .. على قدر ذلك تزيد إمكاناتنا فى التفاهم معهم وتوجيههم بلباقة ولياقة ودقة وملاطفة وحضارة ؟!

إن كل طفل يجب أن يكون محبوبًا وإلا فإنه سوف يلجأ إلى إزعاج من حوله لتنبيههم لحاجته إلى الحب .. بل لقد لوحظ أن الأطفال الذين يتمتعون بروح قيادية هم فى معظم الحالات من أسر متفاهمة يسودها الحب ، فالأم " تقوم دائمًا بمخاطبة طفلها والتحدث معه ، ولا يهمها فى ذلك إن كان طفلها يفهم ما تقول أم لا ، فهى تستخدم كتفيها ووجهها وابتسامتها وصدرها وكل جسمها ، لتؤكد له شيئًا واحدًا وهو أنها تحبه ، أنها قريبة منه ، وأنها تفهمه ، وأنها تلبي طلباته " (١)

ومن أحسن الأمثلة التى يسوقها لنا العالم الفرنسي " مونتاجنر " ، تلك الأم التى تأخذ طفلها ، وقد بلغ من العمر سنة واحدة ، فتسأله بحب وعطف : ماذا يريد أن يلعب ؟ هل يرغب فى تسلق ظهرها ؟ هل تحكي له حكاية كما فعلت بالأمس ؟

إن هذه الأم التى لا تمل من محادثة طفلها على الرغم من صغر سنه تخلق بذلك جوًا من التفاهم والثقة بينها وبين طفلها " (٢)

وأنت – أخي المربي – لا بد أن تعلم أنه ليس هناك أفضل من أن تظهر حبك لابنك ، وتخبره أنك تحبه لقول النبي ﷺ للرجل الذي قال : أنه يحب فلانًا : " هلاَّ أخبرته أنك تحبه " الحديث . فالوصية التربوية النبوية أن تخبر من أحببت أنك تحبه .. فأخبر طفلك أنك تحبه .. تحبه لشخصه وليس لأفعاله ، وأظهر له ثقتك فى

(١) تربية الأطفال فى رحاب الإسلام – محمد الناصر ، خولة درويش – ص ٧٠ .
(٢) المصدر السابق – ص ٧١ .

قراراته وقدراته ، وامتنانك لجهوده .. وامنحه رسالة حب كلما سنحت الفرصة .. فهذا من أكبر ما يعينك على توجيهه ، فالانسان مجبول على حب من يقف إلى جانبه ويشجعه ويظهر له الحب .. فحين وفد كعب بن مالك رضي الله عنه على رسول الله ﷺ بعد أن أنزل الله توبته على الثلاثة الذين خلّفوا كان الصحابة قد تحلقوا حوله في المسجد ، قام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحه ، وهنأه بتوبة الله عليه ، فسرّ بذلك كعب سرورًا عظيمًا ، وقال : والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ؛ فكان كعب لا ينساها لطلحة . [أخرجه الشيخان]

ولأجل ذلك نؤكد – أخي المربي – عبّر عن حبك لابنك .. قل له إني أحبك .. هو يحتاج إلى سماعها .. هو يرتاح لسماعها .. هذا يشعره أنه ليس وحده ، وبأنك تهتم به .. اكتب له في ورقة صغيرة كلمة حب أو تشجيع وضعها إلى جانبه في السرير إذا كنت ستخرج وهو نائم ، أو في شنطة المدرسة حتى يشعر أنك تفكر فيه حتى وأنت غير موجود معه ..

خاطبه بأحب أسمائه إليه ، واجعل له لقبًا يشعره بالكرامة والاعتزاز بالنفس .. وفى كل توجيهاتك له بيّن له أن حبك إيّاه هو الذى يدفعك إلى توجيهه ، وحثه على فعل الخير .." روى معاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخذ بيده وقال : " يا معاذ والله إني لأحبك ، والله إني لأحبك ، فقال أوصيك يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك " (أخرجه أبو داود فى سننه صحيح الجامع برقم ٧٩٦٩) ..

لاحظ فى هذه القصة اللمسات التالية :

- الأخذ باليد
- والتقديم بعبارة (والله إني لأحبك)
- تكرار اسمه أكثر من مرة

ـ عبارة أوصيك .

وكل ذلك يجعل الشخص يتلقى النصح ويعمله فى كل حال من تلقاء نفسه"[١].

ولا تقل لطفلك : " لن أحبك بعد ذلك " فهذا النوع من التهديد له أثر مدمر ، فهو يقوض الثقة فى الآخرين ، ويفقد الابن الإحساس بذاته . بل لقد بيّنت الدراسات التربوية أن الذى يسمع عبارات من هذا النوع ، تكون علاقته مع الآخر علاقة تنافسية لا يسودها أدنى ود أو تعاون ..!!

إن التربية لا تتم فى غيبة الحب ، والأطفال الذين يجدون من مربيهم عاطفة واهتمامًا ينجذبون نحوه ، ويصغون إليه بسمعهم وقلبهم .. والمربي الحقيقي لا بد أن يكون ذا قلب ينبض بالرحمة على أبنائه وإرادة الخير لهم ، والنصح لهم .. والتعبير عن حبه لهم بكل الوسائل .. بالكلمة الطيبة ، والثناء المحب ، والحوار المتفهم .. ومع كل ذلك " اللمس " المعبّر عن الحب !!

" اللمس " الحاني الذى يمثل العلاج الناجح لأكثر مشاكل الأبناء ، والذى يؤكد الواقع والتجربة أن حاجة الأبناء إليه كحاجتهم للطعام والملبس والمأوى .!!

لقد تحدثنا عن الحوار .. ذلك السحر الأبيض .. [٢] وهنا نؤكد على الحوار اللمسي أي الذى يتم فيه استغلال اللمس للتعبير عن الحب والاهتمام ، والرضا أو النصح أو حل مشكلة من مشاكل الأبناء .. ذلك أن الحوار الجاف الذى يخلو من الاهتمام والأمان يصبح دون أثر أو ذا أثر ضعيف ..

---

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د/ عادل رشاد غنيم – ص ٤٦ .

(٢) راجع إن شئت فصل " السحر الأبيض ".

واللمس هو الوسيلة للوصول بحوارنا مع أبنائنا إلى الهدف الذى نريده من الحوار .. كما أن اللمسات التى يقوم بها الأب للابن تساعده على مواصلة الحوار ، والتعبير عن النفس بصورة صريحة ، وهى فى ذات الوقت تخرج المشاعر الإيجابية من الابن .. وهى تشمل " الامساك باليد أو الكتف أو المسح على الظهر والرأس معًا...[1] لمسة الرأس وفرك الشعر .. لمسة الوجه والقبلة ، لمسة الظهر والكتف ، الإحتضان والضمة إلى الصدر ، لمس مواطن الألم ، لمس الرقبة ، لمس الصدر ، تشبيك اليد ، لمس اليد .. لمس الجسم بالجسم .. الكتف بالكتف ، الرجل بالرجل ، الرقود مع وضع الرأس على الرجل ...

فمثلًا : فى أوقات الاختبارات ، وحين يتوتر الابن .. فإن أحد السبل الهامة لإعادته إلى حالته الطبيعية هو التربيت على كتفه ، ولمسات الحنان على جسده .. فهذا يعطي أكبر الأثر فى الاستعداد لهذه الامتحانات .. ومن جرّب عرف ..

وحين يشعر الابن بالأرق ، فإن لمس الرأس والصدر يكون له أثر كبير فى هدوء الابن ، بل وشعوره بالراحة .. ومن ثم ذهاب الأرق ، وخلوده للنوم .

و" بما أن الوجه يحمل الحواس فهو أكثر أجزاء الجسم حساسية للمس ، وبهذا يعتبر الوجه موصلًا ممتازًا للحب والود والحنان ، ويكون ذلك من خلال لمس مواضع مثل الجبهة والأنف والأذن والعين والشفتين والوجنتين .. وهذه اللمسات الحانية تكون فى جميع المناسبات والأوقات خاصة عند الحاجة مثل المرض والنوم والغياب الطويل ، ووجود الغيرة بين الأبناء، والإخفاق فى بعض المشاريع أو الأعمال مثل الدراسة، والمشاجرات بين الأخوان أو الأقران، أو الشعور بالظلم أو لمجرد التعبير عن الحب والود لتأكيد مفهومي الثقة والأمان نتيجة القرب والتواجد

---

(١) لمسة حنان – جاسم المطوع – ص ٤٣.

الفعلي مع الأبناء "[١].

" عن جابر بن سمرة رضي الله عنه . قال : " صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأول ، ثم خرج إلى أهله ، وخرجت معه ، فاستقبله ولدان ، فجعل يمسح خدي أحدهم واحدًا واحدًا ، قال : وأما أنا فمسح خدي ، قال : فوجدت ليده بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من جؤنة عطر " (أخرجه مسلم ـ ج ٤ / ١٨١٤) .

فهو هنا ﷺ يحنو على الأطفال ، ويشعرهم بالقرب واللطف ، وانظر إلى هذا التناسب والترابط والتجاوب العجيب ، فالطفل يصلي ثم يجد الرسول ﷺ – وهو من هو فى مقامه وقدره ومحبة الناس له – فيمسح على خده ، ويقربه ، إنها مكافأة مباشرة ، بطريقة جذابة .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال :

" كان رسول الله ﷺ يأخذنى فيقعدنى على فخذه ، ويقعد الحسن بن علي على الفخذ الآخر ثم يضمهما ، ثم يقول : " اللهم ارحمهما فإني أرحمهما " أخرجه البخاري ..

وهنا أسلوب عملي لكيفيات إمداد الطفل بالحنان والرحمة والعاطفة ، من الوضع على الفخذ ، والضم والدعاء ، وفيه المساواة بين الأطفال الحاضرين ، ولو تفاوتت أعمارهم ، فإن أسامة بن زيد كان أكبر من الحسن بسنوات .

وكل هذا يشير إلى أن التأثير على الطفل ، وتربيته يتطلب إقامة علاقة حميمة به تشعره بالمحبة وتدعوه لتبادلها مع الآخرين ، وتزرع فيه الثقة ، ولذلك كان يدعو الرسول ﷺ الحسن والحسين بريحانتيه ، من الريحان وهو من أحسن المشمومات ، أى هما نصيبي من الريحان الدنيوي ، فقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول : " هما ريحانتي من الدنيا " أخرجه البخاري وفيه إشارة إلى أن

(١) المصدر السابق – ص ٢٣ .

الأطفال محل للشم، والتقريب كالرياحين ..

وقد تأثر الصحابة أطفالًا وشبابًا بهذا الحب، وتلك الرحمة من رسول الله ﷺ، فأحبوه» وفدوه بأنفسهم، وقلدوه بأفعالهم، لمّا أعطاهم من الحب والرحمة كخطوة أولى، وأساس أول، لا بد من بنائه لضمان التأثير اللاحق" [١].

ولذلك فإن من النصائح التربوية الهامة .. الإكثار من اللمسات السحرية الحانية للابن بالكلمة الطيبة، والدعاء، والعين المشفقة .. الإبتسام، الكنى، التكلم معه بما يناسب عقله وادراكه .. كل ذلك يشعره بالاهتمام ..

فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لى أخ يقال له أبوعمير وهو فطيم، كان إذا جاءنا قال: «يا أبا عمير، ما فعل النغير» وهو طائر صغير .... وربما حضرت الصلاة وهو فى بيتنا، فيأمرنا بالبساط الذى تحته فيكنس ثم ينفخ، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا. أخرجه البخاري برقم ٦٢٠٣ ومسلم برقم ٢١٥٠.

و عن عائشة رضي الله عنها قالت: عثر أسامة بعتبة الباب فشج وجهه. فقال النبي ﷺ: " أميطى عنه الأذى " فتقذرته. فجعل يمص عنه الدم ويمجه عن وجهه، ثم قال: " لو كان أسامة جارية لحليته وكسوته حتى أنفقه " (سنن ابن ماجه ١ / ٣٦٣).

ولعل كون أسامة غلامًا من الموالي، وكونه ليس ابنًا لرسول الله ﷺ يعطي مثالًا لأبعد المستويات فى العناية؛ إذ أن هذه العناية إنما تمت بهذا الطفل الذى قد لا يعنى به أحد – وفق معايير الناس – فهو ليس ابنًا له، وهو ابن مولى، وهو أسود،

---

(١) علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – ص ١٩٤، ١٩٥.

فكيف يجب أن تكون العناية إذًا من الوالدين بأبنائهم ؟!![1] .

وفى هذا الإطار يصبح " التقبيل " من نعم الله علينا نحن البشر ..فهو وسيلة تحصيل رحمة الله عبر الرحمة بالأبناء .. وهو فى ذات الوقت وسيلة التعبير عن حبنا ، وزيادة شحنة الحب بيننا وبين أبنائنا ، وتأكيد الود والرحمة بيننا وبينهم ..

ولنا الأسوة الحسنة فى ذلك رسولنا ﷺ ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ ، وهو يقبل حسينًا ، فقال : إن لي عشرة من الولد، ما فعلت هذا بواحد منهم ، فقال رسول الله ﷺ : من لا يرحم لا يرحم . رواه الترمذي فى صحيح الجامع .

وعن البراء رضي الله عنه أنه قال : دخلت مع أبى بكر أول ما قدم المدينة، فإذا عائشة ابنته مضطجعة قد أصابتها حمى ، فأتاها أبوبكر ، فقال لها : كيف أنت يا بنية ؟ وقبّل خدها . رواه البخاري .

و عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما رأيت أحدًا كان أشبه سمتًا وهديًا ودلًا برسول الله ﷺ من فاطمة .. كانت إذا دخلت عليه قام إليها فأخذ بيدها فقبلها ، وأجلسها فى مجلسه .. وكان إذا دخل عليها قامت إليه ، فأخذت بيده ، فقبلته وأجلسته فى مجلسها " صحيح الترمذي ٤١٤٦ .

و عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : بينما رسول الله ﷺ فى بيتي يومًا ، إذ قالت الخادم : إن عليًا وفاطمة بالسدة ، قالت : فقال لي : قومي فتنحي لي عن أهل بيتي . قالت : فقمت فتنحيت فى البيت قريبًا ، فدخل علي وفاطمة ومعهما الحسن والحسين ، وهما صبيان صغيران ، فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره فقبلهما ، قالت: واعتنق عليًا بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى ، فقبل فاطمة ، وقبل عليًا ،

---

(١) المصدر السابق – ص ١٨٧ .

فأغدف عليهم خميصة سوداء فقال : اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتي ، قالت : فقلت : وأنا يا رسول الله ، فقال : وأنت " مسند الإمام أحمد ٦ / ٢٩٦ .

و عن عبد الله بن الحرث قال : كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثيرًا من بني العباس ، ثم يقول : من سبق إلي فله كذا وكذا ، قال : فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره ، فيقبلهم ويلزمهم .. مسند الامام أحمد ١ / ٢١٤ .

أخي المربي ..

لقد عرفتُ كأب و" بالتجربة أنه لا شيء في هذه الحياة يعدل ذلك الفرح الروحي الشفيف الذي نجده عندما نستطيع أن ندخل الثقة أو الأمل أو الفرح، إلى نفوس الأبناء ! .. إنها لذة سماوية عجيبة ليست في شيء من هذه الأرض، إنها تجاوب العنصر السماوي الخالص في طبيعتنا، إنها لا تطلب لها جزاء خارجيًا؛ لأن جزاءها كامن فيها ! "[(١)]

إن الواجب علينا أن نفعل كل ما يصلح حياة أبنائنا ، نسمعهم جيدًا .. نتفهم تفردهم على قدر المستطاع ، ننفق عليهم من عطاء الأحاسيس لا من عطاء المال فقط، نكرمهم عبر الكلمات واللمسات والأفعال .. فإذا نحن فعلنا ذلك حصدنا – بإذن الله – نجاحاتهم ثمرة أكيدة لجهدنا كما يحصد صاحب الأرض الثمار الناضجة من أرضه التى أحسن فلاحتها .

• حطّم أغلاله وحرره :

الثقة بالنفس ترتبط بإحساس الطفل بالسعادة ، والسعادة بحد ذاتها ترتكز على الشعور بالأمن والطمأنينة ، ومن هنا كان من الأهمية بمكان أن نوفر لأبنائنا الشعور بالأمن والطمأنينة عبر إشعارهم بثقتنا فيهم وإعطائهم الحرية المسؤولة التى

---

(١) راجع إن شئت " أفراح الروح – سيد قطب ".

تحترم إنسانيتهم وتكرمها .. ذلك أن الطفل حين يفقد الطمأنينة والإكرام ويشعر أن الآخرين يسخرون منه ويحتقرونه ، فإنه يشعر بالدونية والتردد ويعتقد ضعف قدراته ؛ فيميل إلى الإعتماد على الآخرين ، ويتوقع لنفسه الفشل فى أية مهمة وإن كانت بسيطة وسهلة ، وبالتالى فإنه لا يصمد أمام المشكلات التى تواجهه بل يكون دائم التراجع والتردد .!!

وفي هذا الخبر عن عمر بن عبد العزيز دليلًا لما نقول

كان لعمر بن عبد العزيز ابن من فاطمة بنت عبد الملك ، فخرج يلعب مع الغلمان ، فشجه غلام ، فاحتملوا ابن عمر والذى شجه ، فأدخلوهما على فاطمة .. فسمع عمر الجلبة وهو فى بيت آخر فخرج .. فجاءت مريأة فقالت : هو ابني وهو يتيم ..

قال عمر : له عطاء ؟!!

قالت : لا

قال عمر : أكتبوه فى الذرية ..

قالت فاطمة مستنكرة فعل عمر : فعل الله به وفعل إن لم يشجه مرة أخرى !!

قال عمر بن عبد العزيز : إنكم أفزعتموه ...

.. وكما سمعنا عمر بن عبد العزيز يعطي من شج ابنه من الأطفال عطاء ، لأن من أمسكوا به قد " أفزعوه " .. فإننا قد سمعنا عمر بن الخطاب يدفع ذلك عن كل الرعية بقوله : " أيها الناس ، إني والله ما أرسل عمالي ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم وليقضوا بينكم بالحق ، ويحكموا بينكم بالعدل ... فمن فعل به شيء سوى ذلك ، فليرفعه إلي ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه "

أخي المربي ..

" إن التحكم الفارغ لمجرد إلزام الطفل بالطاعة – وكأنها هدف وليس وسيلة – إن هذا التحكم حري أن ينتهي بالطفل إلى التمرد إن كان شديد المراس ، أو الاستكانة والانطواء إن كان لين القوام .. وكلاهما مفسد ولا شك !!

إن حياتنا مع أبنائنا ليست محاضرات عليهم الإصغاء إليها وتنفيذها ، لأنهم ليسوا آلات نبرمجها ونحركها بأوامرنا عن بعد !!

إن أبناءنا كائنات مستقلة لها القدرة على التفكير والإبداع .. واتخاذ قراراتها بنفسها وتحمل نتائج تلك القرارات . " (١)

والحقيقة التربوية الأساسية هي أن الابن يحتاج من أبيه أن يحبه وأن يحتضنه لا أن يحاصره .. ويحتاج إلى الرعاية الممزوجة بالثقة . ويحتاج إلى أن يعلمه كل جديد من دون أن يكرهه عليه ..

خذ مثالًا ..

يلعب أحمد فى الحديقة حافي القدمين .. ينصحه أبوه أن يرتدى حذاءه خوفًا من أن يصيبه أذى من شظية زجاجية أو غيرها .. ويصر أحمد على اللعب حافيًا .. وما هى إلا لحظات قليلة حتى يسمع الأب صراخ أحمد وبكاءه ، ورفعه فمه صائحًا طالبًا النجدة من أبيه أو أمه ، لقد دخلت قطعة من الزجاج فى قدمه وقد بدأ ينزف..

لا شك أن أول ما تفكر فيه أيها الأب أن تغضب وتقول لأحمد : " هل رأيت! لقد أخبرتك ذلك " .. أليس كذلك ؟

نحن ننصحك برد فعل آخر وهو : آه يا حبيبي ، لا بد أن هذا يسبب لك ألمًا شديدًا !! دع أبوك يحملك ، ويذهب بك ليضمد جرحك !!

أنا أعرف – أخي المربي – أن هذا ليس سهلًا ، فليس من الطبيعي أن

---

(١) سياسات تربوية خاطئة – محمد ديماس – ص ٨١ – ٨٤ بتصرف .

تستجيب بهذه الطريقة ، لأن هذه الإستجابة تكون غالبًا ضد غرائزك الأبوية ، ولكن عليك أن تحاول التدريب على ذلك التصرف ..

إن جرح الابن ترك الدرس عالقًا فى ذهنه ، وهو ليس بحاجة لدرس آخر وعظي ، فالواقع دائمًا أثقل من الكلام ..

وهو كما علق بذهنه درس الجرح والألم ، علق به أيضًا إحساس الحنان الإهتمام والكرم ..

خذ مثالًا آخر ..

" يحذّر كل أب من وقت لآخر ابنه من أخطار لمس الفرن الساخن . فيقول له كيف يكون ألم الحرق مؤلمًا ، وكم يستغرق من الوقت حتى يلتئم . ولكن أحيانًا ما يلمس الابن الفرن لكى يكتشف بنفسه . وهذا يغريك لكى تقول : " لقد قلت لك ذلك " بينما يقفز الابن من الألم وينفخ فى يديه .

لا تقل لطفلك أبدًا : ألم أقل لك ذلك .. إنه كما أن لديك مشاعر وكرامة ، فإن لابنك مشاعر وكرامة .. وأنت عندما توضح له الدرس الذى تعلمه لتوه ؛ فإنك تسحق كرامته !!

إن الأطفال الذين يقال لهم الدرس الذى تعلموه سوف يفعلون نفس الشيء مرة أخرى ليستعرضوا أمامك محاولة حفظ ماء الوجه ، ولكي يعرفوك أن باستطاعتهم تعلم الدروس وحدهم ، وشكرًا لك .. "[(١)]

لا تعجب أيها الأب والمربي !!

إن أبناءنا لا يريدون أن يتعلموا من خبراتنا نحن ، إنهم يريدون أن يكتشفوا بأنفسهم .. وهم إذا تغيروا من سلوكيات إلى أخرى لا يحبون نسبة الفضل فى هذا التغيير لأى أحد .. إنهم يحبون الفخر بذواتهم ، ويحبون أن يروا أنفسهم مسؤولين

(١) حاول أن تروضني – راى ليفي – ص ٩١ .

عن سلوكياتهم ، ومسؤولين عن تغييرها إن كانت غير ملائمة ..

ولكل ذلك ؛ فإنهم ليسوا مستعدين ولا راغبين فى أن يروا شخصًا آخر ينال شرف وفضل تعليمهم درسًا مهمًا ، فذلك بالنسبة إليهم مضيعة للكرامة وامتهان للمشاعر .. !!!!

إن بعض الآباء يصدر أوامره لأبنائه ، ويحاول أن يحملهم على ذوقه الخاص فى الحياة !! بل إن بعضهم " يريد من أبنائه أن يكونوا دائمًا على أهبة الاستعداد لتلبية طلباته التى لا تقف عند حد ، كما أن بعضهم يريد من أهل بيته أن يمشوا على رؤوس أصابعهم إذا كان نائمًا ، وبعضهم يحجر على الابن أن يراجعه فى أى كلمة يقولها ولو كان الابن مؤدبًا ، بل ولو كان الابن على صواب فيما يقوله !!

كما أن بعض الأمهات مثلًا تريد من ابنتها أن تلعب وتأكل وتذاكر بنفس الطريقة التى كانت تتبعها لما كانت صغيرة !! حتى إن بعض الأمهات تتدخل فى لون الحقيبة التى يحملها الابن ، وشكل الثوب الذي يرتديه ... إن هذا كله يجعل الطفل يشعر أنه مسحوق الشخصية ، وأن العلاقة بينه وبين أبويه أشبه بالعلاقة بين السجين والسجان !! ...

إن التربية الجيدة ليست تلك التى تجعل الطفل يشعر أنه جندي فى ثكنة عسكرية ، وإنما تلك التى يستمتع فيها الطفل بصحبة والديه ، ويشعر أن اختياراته موضع اعتبار وتقدير . "[1] ، و يتنسم فيها روائح صدق الآباء فى الإعتراف بأخطائهم – إن وقعت – دون شعور منهم بسقوط هيبتهم أو ضعف مكانتهم .. فهذه هي الخطوة الأولى فى تغيير سلوكيات الأبناء ، لأنها تحطم " أغلالهم وتحررهم " .. وأي تجاوز لهذه الخطوة إلى غيرها هو خطأ فى التوجه والسلوك !!

---

(١) دليل التربية الأسرية – د/ عبد الكريم بكار – ص ٢٣ ، ٢٤ .

ولتوضيح ما نقصد بـ " الأغلال " نقول : لو أن إنسانًا جلس فى محاضرة ، وهناك مهمة خارج القاعة تدعوه للخروج .. فقد لا يستجيب .. لماذا ؟ .. إن هذا قد يرجع إلى عدة أسباب منها :

١ – خوف هذا الإنسان أن يخرج من الدفء إلى الجو البارد .. فيصيبه المرض.. واقتناعه بهذه الفكرة يمنعه الخروج بلا شك .... فالعائق هنا " فكرة " يمثل الإيمان بها عائقًا فكريًا عن الخروج .

٢ – خوف من عدو يتربص به فى الخارج . . فيمتنع أيضًا عن الخروج ... فالعائق هنا " الخوف " وهو قيد نفسي ..

٣ – عدم انتهاء المحاضرة هو السبب فى عدم الخروج ، لأنك تحرص على عدم إزعاج المحاضر .

.... فالعائق هنا هو " التقاليد " ... وهي قيد اجتماعي ..

وإذا أردنا لهذا الإنسان الخروج من القاعة ، فنحن فى حاجة ضرورية لأن نضع عنه الأغلال التى تقيّده ..

وهكذا هو الابن .. لا يمكن لنا أن نخرجه من السلوكيات الخطأ حتى نضع عنه قيود الأفكار الخطأ ، والتصورات الخطأ .!!

خذ مثالًا ..

" أسامة " طفل ثقيل الوزن مقارنة بزملائه فى الصف الرابع ، وهو يتعرض للمضايقات من وقت لآخر .

.. بالطبع نحن لا نستطيع أن نحمي أبناءنا من التعرض للمضايقات بسبب مظهرهم ، ولكن ما نؤكد عليه تربويًا أننا كآباء ، لا بد أن نتحدث معهم بطريقة تخفف من مشاعر الألم لديهم وتمدهم فى ذات الوقت بالقوة والاعتداد بالذات .. فالوقاية خير من العلاج ..

والوقاية هنا أن يسود الحب العلاقة بين الآباء والأبناء .. وتسود الحميمية العلاقة بين الزوجين .. ويسود جو البيت عمومًا المشاعر الدافئة ..

إن كل ذلك سيجعل الأبناء قادرين على مواجهة أغلب الصعوبات فى خارج المنزل ..

فمثلًا : إذا تعرض الابن بسبب مظهره الخارجي لمضايقات زملائه ، فإن بعض العبارات التى تظهر تعاطف الوالدين معه قد تساعده على مواجهة تلك المضايقات " أسامة .. أعلم أن نداء زملائك لك باسم البدين يضايقك ، وأنت محق فى ذلك تمامًا .. ولذلك نهانا ربنا عن التنابز بالألقاب .. ".

ثم لقنه درسًا فى التغلب على الإحباط والمشاعر المؤلمة " قد يفتقد الإنسان ميزة معينة فى مظهره الخارجي ، ولكن قيمة الإنسان لا تعتمد على مظهره الخارجي، وإنما على ما يملكه من قدرات وقيم .. وأنا واثق أنك تملك قدرات تجعلك متميزًا عن كل أقرانك .. أنا واثق من ذلك "

ولا بد من الحذر هنا من التعامل مع مظهر الطفل بشكل يؤكد لديه شعور الاحباط مثل : " لا تأكل من هذا الطعام ، ستزيد بدانتك .. هل تريد سخرية أكثر من زملائك ؟!! "

" لا تدع زملائك يستخفون بك .. حاول أن تخفف وزنك .. " .. إن مثل هذه الكلمات تزيد من المشكلة ..

ولا يعنى ذلك بالطبع عدم التخلص من البدانة – مثلًا – إن كانت مفرطة ، ولكن المقصود التأكيد على أن المدخل للبرنامج الغذائي ليس سخرية الآخرين ، وإنما الرغبة الذاتية فى ذلك ..

وأن يعرف الابن الفرق بين " الخجل المذموم الذى يحجب صاحبه عن

ملاقاة الناس والاختلاط بهم ومعاملتهم والمهابة منهم لغير سبب ، وبين الحياء المحمود الذى كان من خلق النبي ﷺ ومن طبعه وسجيته حيث كان " أشد حياء من العذراء فى خدرها " [١].

فالخجل قيد .. بينما الحياء خلق .. والغرور قيد ، بينما الثقة بالنفس قيمة جميلة .. فهي تعني يقين الابن بأنه قادر على القيام بما لا يستطيع أقرانه القيام به ، كما تعنى إحساسًا قويًا بالقدرة على التقدم ، والتفوق على الذات ، والصمود فى وجه التحديات ..

إن أسوأ شيء في بيوتنا المراقبة المتصلة التي تقيّد الابن بالسلاسل ، وتثقل عليه بالأغلال ، ولا تترك له أدنى مساحة من الحرية .. تلك المراقبة التى نرى فيها الأب " يوفر الحماية الزائدة للمراهق ، فيجعله يتصرف وفق قواعد صارمة ، ويشك فى كل تصرف من تصرفاته ، ولا يفوض له أى أمر من أموره الشخصية أو أمور الأسرة .. إنه يعامله على أنه مازال طفلًا فى سنيه الأولى . وكل هذا من الخطأ البالغ.. " [٢] الذى يجب الحذر منه وبخاصة مع المراهق الذى يحب أن يثق به والده ، ويعتمد عليه ..

إن الطريقة الصحيحة فى الرقابة هى المحاسبة الهادئة البعيدة عن الإهانة والتجريح، القائمة على الإرشاد والتشجيع ، التى تهمل توافه الأمور والعثرات فى مقابل إيجابيات المحاسب الكثيرة .. التى تدرك أن " مطالبة المسلم بأن يزكى نفسه ، ويطهرها ، ويراقبها ؛ لا تعنى أن يهينها ، وأن يحتقرها ، وأن يبخسها حقها ، بل إن

---

(١) مسؤولية الأب المسلم فى تربية الولد فى مرحلة الطفولة – عدنان حسن باحارث – ص ١٧٥ .
(٢) دليل التربية الأسرية – أ. د/ عبد الكريم بكار – ص ٢٠٥ .

هناك من النصوص ما ينهى عن ذلك ، فليس للمسلم أن يذل نفسه وذلك بأن يكلفها ما لا تطيق ، أو يعرضها للوقوع فى المهالك . وهو إلى جانب ذلك مأمور ان يثق بعون الله – تعالى – له ، كما أنه مطالب بأن لا يتهم نفسه بأمور هى منها بريئة ، وأن يعرف قدر نفسه من خلال ذكر إنجازاته ، واكتشاف الإمكانات الكامنة فيه"[١] فهو لا يقتل شعوره بذاته ، وإنما يحاول تهذيب هذا الشعور .. وهو لا يقيده بالسلاسل ، وإنما يحطّم قيوده ويحرره .

• *وبكلمة ..*

إننا عبر " إحترام إنسانية الابن " .. و "اللمسات الحانية والإهتمام" به .. و"تحطيم أغلاله وتحريره " .. إننا عبر كل ذلك نحاول أن نصنع من واقعنا ما يحمل أبناءنا على أن يقولوا بلسان حالهم .. لو لم نكن أبناءهم لوددنا أن نكون كذلك .!! ونسعى لكي لا يكون المنزل بالنسبة للأبناء وكأنه قفص حديدي يحاولون الهروب منه إلى الشارع .. ذلك الشارع الذى أصبح بعد فقدانه لأبسط المبادىء والقيم غابة حقيقية !! .. والذى لا ينتج إلا مشكلات تربوية يصعب علينا حلها ، فيبقى لسان حالنا يقول : " مشكلاتنا صنعها الجيل السابق ، وسوف يحلها الجيل اللاحق .. أمّا نحن فأبرياء من كل تبعة أو مسؤولية !!

❀❀❀

(١) عصرنا والعيش فى زمانه الصعب – د. عبد الكريم بكار – ص ١٨٢ .

الفصـــل الثاني
التربية الاستقلالية

يفخر كثير من الآباء بأن أبناءهم لا يعصون لهم أمرًا ، ولا يفعلون شيئًا دون رأيهم ..!!

ولا يشعر هؤلاء الآباء أنهم بذلك قد أعدوهم لينفذوا ما يفكّره لهم غيرهم؟!

و أن الأعمال الإبداعية لا تنشأ عن طريق فرض القيود ، ولا عن طريق الزجر والمنع والتخويف ، وإنما عن طريق التحفيز والمشاركة الواسعة .. تلك المشاركة التي لا تقوم إلا عبر المبادرات الحرة ..

ولا يدرك هؤلاء الآباء ، أن التسلط ، ووصد باب الحريّة فى وجوه الأبناء ، هو فى حقيقته وأد تربوي لشخصياتهم ، وهدم لروح الإبتكار والتجديد لديهم .. كما أن ترك الحبل على الغارب لهم لا يأتي بأي خير؛ لأن التربية الصحيحة إنما تكون على أساس من الحرية ضمن النظام، والمبادرة مع الانضباط، والتنفيذ وليس الجدل، وتفجير الطاقات وليس تبرير العجز، وروح الفريق وليس روح القطيع ؟!

- **الطاعة « العميــاء » :**

" فى الماضى كانت الطاعة " العمياء " لرب الأسرة دليلًا على التهذيب والوفاق .. فهى دائمًا بشرى خير ؛ لكن الأمر اختلف اليوم ، حيث يرى كثير من المفكرين أن ما كان يراه الناس من محاسن الانقياد الأعمى ، ما هو إلا فوائد زائفة ، وإن من حسن حظ رب الأسرة أن يجد من يقول له (لا) ومن يصحح له خطأه ،

ومن ينهاه ويحذره ؛ لأن ذلك قد يكون الوسيلة الوحيدة لردعه عن كثير من الأخطاء والتجاوزات ، كما أنه أفضل وسيلة للحيلولة دون توافق شكلي ، لا يخفى تحته إلا القهر والاستبداد والتبرم .. "[1]

أنا أعرف – أخي المربي – أنه " " قد يغضبك أن تسمع كلمة (لا) من ولدك لاسيما إن تحريت معه أسلوبًا لائقًا في التعامل معه كإنسان ذى حقوق ، لكن متى تعتبر (لا) من الطفل خطأ ؟ ومتى نعتبرها سلوكًا مقبولًا ؟ بل ومطلوبًا في بعض الأحيان .!!

دعنا ننظر في هذا الموقف النبوي في التربية :

روى مسلم والبخاري عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتي بشراب ، فشرب منه وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال: لا والله يا رسول الله لا أوثر بنصيبي منك أحدًا... قال، فتلّه رسول الله ﷺ في يده " متفق عليه...

... فالسنة في الشرب أن يقدم الشخص الجالس في اليمين ، لكن كان هناك اعتبار آخر وهو وجود كبار السن . وكان من الممكن أن يدفع الرسول ﷺ الشراب إلى الكبار متجاوزًا بذلك الغلام الذى على يمينه . لكنه ﷺ يقول للغلام : أتأذن لي أن أعطي هؤلاء ؟ والغلام يقول : لا والله ....

ولم تكن (لا) هذه خطأ في ميزان الإسلام ، لأنها كانت تعبيرًا عن تمسك إنسان بحقه ، فإذا كان لطفلك حق فعليك أداؤه أو الاستئذان منه ، فإن أذن فيها ، وإلا فأعطه حقه كاملًا ... "[2].

ذلك أن ولاية الأب على أبنائه هى ولاية ارشاد الى استخدام فطرهم ، مع

(١) عصرنا والعيش في زمانه الصعب – د. عبد الكريم بكار – ص ٥٤ بتصرف .

(٢) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك – د/ عادل رشاد غنيم – ص ١٧ ، ١٨ .

محاولة تعريفهم بها فى الأمور والحوادث من قبح أو حسن ، ليس على طريقة ((أعتقد صحة ما أقوله لك ، فلا بد أن تأتمر بأمري فيه " .. وإنما نطالبه بطاعتنا عن فهم واختيار وقناعة ..

إن معارضة الأبناء لبعض ما يقرره الآباء ليست دائمًا لونًا من ألوان سوء الأدب أو عدم الطاعة ، بل على العكس هى فى أكثر الأحوال تعبّر عن إستقلالية شخصية الابن ، وهذه ميزة تحفظه بإذن الله من الإنسياق العاطفي وراء أى أحد ..

ثم فوق هذا فإن هذه المعارضة تثرى أفكار الابن بالنقاش وتمحيص الأفكار التى يعرضها أو يعترض بها .. ومن ثم يتعلم الابن الإيجابيات والسلبيات لكل رأى ، فإذا قبل أيها كان قبوله قبول فهم ، وكانت طاعته طاعة رضى ...

إن أكثر الأبناء لا يعارضون طاعة الوالدين ، وإنما هم يحبون أن يفهموا كما يحبون أن يطيعوا .. وهذا حقهم وواجبهم فى ذات الوقت ..

إن أبناءنا يتمتعون بمرونة ذهنية تماثل مرونتهم الحركية ، بينما يصيبنا نحن تصلبًا فكريًا يحاكى تصلبنا الحركى بتقدم السن .. وهذا التصلب الفكرى قد يدفعنا إلى رفض كل جديد صالحًا كان أو طالحًا ..

ولا ينقذنا من هذا الرفض للصالح إلا أن نوفّر لأبنائنا مناخًا تربويًا يسمح بالنقد ، ويعطيهم حرية التعبير وإبداء اعتراضاتهم – إن وجدت – وطرح أسئلتهم واستفساراتهم .. وأن يكون لدينا الاستعداد لرؤية كثير من الأشياء من وجهة نظر الأبناء ، وإشعارهم على الأقل بأن لهم وجهة نظر يمكن أن تكون صائبة .. فهذه النظرة فى غاية الأهمية لكسبهم .. ذلك أن النظرة الدونية لهم لا تخرج لنا إلا مجموعة من العبيد ..

إن من واجبنا كآباء ومربين أن نتيح للابن الفرصة لكي يكون جريئًا فى الحق

واثقًا من نفسه عبر إمتداحه على التعبير بحرية بدلًا من عقابه عليها .. فنقول مثلًا : " لقد أحببت صراحتك حين شكوت لي أنك لا تأخذ حقك فى قضاء وقتًا معي " .. "ولأنك صريح وتعبّر عن رأيك بهذه القوة فإني سأخصص لك جزءًا من وقتي يوميًا لأجلس معك وأستمع إليك " .

وحتى إذا لم تتمكن من الوفاء بذلك يومًا فكن – أخي المربي – صريحًا مع ابنك بقولك " لقد وعدتك أن أنتهي مما فى يدي من عمل خلال خمس دقائق ، ولكني للأسف لم أتمكن من ذلك».

.. وأكّد له مرة أخرى : « أن الدفاع عن المبدأ والفكرة من الرجولة التى يعد فقدها لونًا من ألوان الإنحطاط الخلقي».

إن هذا الأسلوب فى التربية هو الذى ينتج لنا – بإذن الله – أبناء كعبد الله بن الزبير رضي الله حيث ذكر عنه أنه لما كان طفلًا يلعب مع أقرانه ويهل عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بكل هيبته ، فيفر الأطفال عدا عبد الله .. ويسأله عمر : لماذا لم تفر مع هؤلاء ؟ فيرد عليه : لم أفعل شيئًا فأخاف منك ، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك .

إن التربية لدينا لازالت تركّز على تخريج الإنسان التابع المطيع ، والمعتمد على غيره ، .. والنتيجة هي فقدان أكثر أبنائنا روح المبادرة الفردية ، وانتظارهم الرعاية من غيرهم .. بينما التكليف الإسلامي يركز على تنمية روح المبادرة والمسؤولية الفردية ، ويأمر بسلوك طريق الحق وإن كانت موحشة أو مهجورة.

لقد نشأنا نحن الآباء منذ صغرنا ونحن نعانى عبودية اختيارية لما يتبناه معلمونا من أفكار وتصورات دون بحث فيها أو نظر ، وأكثرنا فى سيره تبع لغيره معتمد عليه ، لا يقوى على حوار أو نقاش حول ما يرى أو يعتقد ..

وإذا قمنا بتربية أبنائنا بذات الطريقة ، فحرمناهم الإختيار ، وحجرنا على تصرفاتهم ، ومنعناهم من المبادرات الذاتية الحرّة .. إذا فعلنا ذلك فقد حرمناهم مما يحفظهم – بإذن الله – من أن يقود الآخرون حياتهم ، أو يقضون أوقاتهم فى مهنة أو عمل لا يحبونه ولا يتقنونه بناء على اقتراح من غيرهم ؛ أو يخضعون للتأثيرات السلبية لأقرانهم ، فتكون النتيجة هى الفشل والإحباط ..

خذ مثالًا ..

يعود الابن من المدرسة وقد امتلأت عيناه بالدموع .. وحين يسأله الأب عن السبب ، يكتشف أنه سخرية أقرانه فى المدرسة من ملابسه ، أو من أوصافه الجسدية..

.. المطلوب هنا ألا يقوم الأب بدور الناقد أو الساخر من دموع الابن ، وإنما يقوم بدور المعلم والمرشد " إن لكل منا نقاط ضعف ، ونقاط قوة .. وما قد تفتقده من مواهب ، فإن غيرك يفتقد مواهب أخرى .. إن كل ما عليك أن تركّز على نقاط قوتك " .. " وأنا أؤكد لك – يا ابني الحبيب – أنك قادر على تغيير أقرانك ، وأنك تستطيع التأثير فيهم " .. " وحتى إذا لم تستطع التأثير فيهم ، فإن الحد الأدنى ألا يؤثروا هم فيك تأثيرًا سلبيًا .... " أذكر أنني حين كنت طالبًا فى الثانوية ، قام مجموعة من أصدقائي بشراء علبة من السجائر وبدأوا فى التدخين ، وأرادوا مني أن أجرب ، .. ولكني رفضت لأنني شعرت أنه ليس من العقل أن أتناول ما يتناولون من الخطأ لمجرد إرضائهم .. وأذكر أن أصدقائي ضايقوني وسخروا مني لفترة .. ولكنهم كفوا عن ذلك بعد فترة قصيرة ..

نعم .. إن من السهل أن تجاري مجموعة الناس ، ولكن الشيء الصعب هو أن تفعل ما هو صحيح ، حتى لو قال كل الناس أنه ليس من الخطأ فعله ..

أنا أعرف – يا بني – أن الإنسان يحب أن يكون مقبولًا من أصدقائه .. وأنا أدرك

– يا بني – أن من يرفض سلوك أصدقائه قد يشعر فى البداية بشىء من عدم الثقة بالنفس ، ولكنه سرعان ما يكتسب الثقة حين يدرك أنه يتصرف التصرف السليم ..

ولذلك – يا أحب الناس – فإني أنصحك فى كل المواقف التى تتعرض فيها للضغط من اصدقائك ، أن تسأل نفسك : هل هذا الأمر غير شرعي ؟ هل هو لون من ألوان خيانة الأمانة ؟ هل هو فعل مشين ؟ .. فإذا كانت الإجابة بـ " نعم " فإني أربأ بك – وأنت أيضًا تربأ بنفسك – عن أن تكون فاعلًا لذلك .. أليس كذلك؟"[(١)] .

ابني الحبيب .. إننا حين نقلّد الآخرين ، نتحول إلى قردة ..!! ولا نفطن عندها إلى أمر خطير ، وهو أنه من الخير للقرد أن يبقى قردًا مكتمل القرودية (سيدًا) فى غابته .. من أن يتحول إلى مسخ يقلّد الانسان ليضحكه فى السيرك ..!! ، فما بالك لو كان الإنسان هو الذي يقلّد القرد ، لمجرد أن القرد هو الأكثر قابلية لدى الأكثرية ؟!!

وهكذا – أخي المربي – تحاول أن تجعل من ابنك شخصية إيجابية فاعلة فى الأرض ، متحملة لتبعة أعمالها ، جريئة مقدامة .. وتتمتع باستقلالية أكّد عليها رسول الله ﷺ بقوله : " لا يكن أحدكم إمعة يقول إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسنوا أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تظلموا " أخرجه الترمذي ..

"إن لأبنائنا عقولًا ينبغى أن نحترمها ، ولهم إدراك ينبغى أن يقدر ، والاعتقاد بأنهم لا يفهمون الحياة ولا يصلح معهم إلا التجاهل هو اعتقاد خاطىء مجانب للصواب "[(٢)] .

ومهما كان عمر الابن فهو يدرك ويفهم فى حدود ملكاته المعرفيه .. ولا بد أن

(١) كيف تقولها لأطفالك – بول كولمان – مكتبة جرير – ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٢) مقاومة المقاومة – د.على الحمادى – ص ٦٢ بتصرف .

تشعره بدوره الإيجابي .. فابن الحادية عشرة يستطيع ان يناقش بعض القضايا الاجتماعية المعقدة ، وان يقترح بعض الحلول لبعض المشكلات اليومية اذا تلقى شيئًا من التدريب على التفكير و المحاكمة العقلية ، وهناك تجارب عديدة تؤكد ذلك..

إننا نعيش بيئة تربوية متخلفة قوامها " قيادة الفرد الواحد " فى جميع مناحي الحياة . فللأب السيادة المطلقة فى الأسرة ، وكذلك الحال فى المدارس والحكومات والجيش والأحزاب السياسية .. لقد استحوذ هذا النظام على جميع مؤسساتنا فأحالها أشبه بمؤسسات للرقيق تخضع لسيد واحد .. فنرى أن مجرد إعطاء الانسان الحق فى أن يراجع ما يصدر إليه من أوامر يؤدى إلى فساد النظام ، وإحلال الفوضى!!!

ربما قال قائل من القراء :

وهل نترك لأبنائنا الحبل على الغارب .. إن أكثرهم لا يستجيبون لما نطلبه منهم .. إن بعض الأبناء إذا طلب منه أبوه شيئًا رفض وتذمّر وأصر على عدم الطاعة ، ولا يقوم بما هو مطلوب منه إلا بعد الإلحاح الكثير ، أو ربما لايقوم به أبدًا..!!؟؟

ونحن لم نقل ذلك، ولم يقل ذلك أحد .. " إننا نقدر قيمة النظام والطاعة فى بناء الفرد الصالح والأسرة الناجحة .. ولكن لا ينبغي أن نعتبر الطاعة غاية فى حد ذاتها ، لأن خضوع الابن الخالص لسيطرة الآباء قد يكون موقفًا ضارًا بالطفل فى مستقبل حياته ، فقد تنحط الطاعة سريعًا حتى تصبح خنوعًا أو رغبة فى السير وفقًا لرغبات أى شخص قوي الإرادة أو وفقًا لأهوائه ، فالطاعة وسيلة لغاية .. هذه الغاية هى ضبط النفس والإمساك بزمامها.

إن الطاعة المطلقة ليست إلا لله ورسوله ، أمّا سوى ذلك فطاعته محدودة فى

المعروف ، وإذا تطلب الآباء من الأبناء طاعة مطلقة أدى بهم هذا إلى استخدام الشدة والعنف حتى لقد يفقد الآباء تلك الأحاسيس الإنسانية الرقيقة التى ينبغي أن تسود علاقة الآباء بالأبناء "(١) .

إن الكثيرين منا - كآباء ومربين - " يتعاملون مع أبنائهم وفق رؤيتهم الشخصية .. وكأنهم من ممتلكاتهم ، أو كأنهم بلا كيان !! ومن ثم يصبحون فاقدين للثقة بأنفسهم ، ولا يحسنون اتخاذ القرارات المناسبة فى حياتهم .. بل يصبحون شخصيات مهزوزة ، يغلب عليهم النقص والدونية ..

إنهم يحاولون أن يخضعوا أبناءهم ، وكأن خضوعهم وطاعتهم هدف فى ذاته، وليس وسيلة لتربيتهم وصقل شخصيتهم وطاقتهم ..

و هذه الطريقة فى التعامل لا تنتج إلا أحد أمرين ، التمرد .. أو الإنطواء والعزلة ، وكلاهما بالطبع من أضر الأمور على شخصية الابن .."(٢) .

إن دور الأب والأم ليس هو التفكير بدلًا من أبنائهما ، وإنما مساعدتهم على التفكير الصحيح ...وعدم إلغاء عقولهم تحت دعوى " أنا أكبر منك ، ولذا أنا أفهم منك " .. هكذا وكأننا نقول : لا تفكر ، دورك فقط أن تتبعنى !! بينما من أوائل القضايا التى حاربها الإسلام التقليد بلا فهم ، بلا حجة ، وبدون وعى : " بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون "

و فى الحديث عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تكونوا إمعة تقولون : إن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا " - أخرجه الترمذي .

---

(١) خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك - د/ عادل رشاد غنيم - ص ١٢٨ .

(٢) ٢٥ طريقة تنصح من ابنك رجلًا فذًا - أكرم مصباح عثمان - ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

إن علينا كآباء أن ننظر إلى أفكار أبنائنا التى قد تخالفنا على أنها أفكار قد تكون إبداعية ، وأن الأفكار الإبداعية تفقد كثيرًا من إبداعيتها إذا حازت القبول من الجميع .. !!

إن تربيتنا لا بد أن تركّز على عدم الإستسلام لأى فكرة لمجرد أنها " شائعة " . أو أن الكثرة من الناس يؤمنون بها .وأن أعمال المرء لا بد أن تكون وفق مبادئه وأفكاره وقيمه .. ولا بد أن يملك خياره ، فيصبح لديه القدرة على قول : نعم .. أو قول : لا .. بلا خوف أو تردد .. فتصبح طاعته مبصرة ، وليست " عمياء" !!

• **الطامّة التربوية الكبرى :**

كان المهتمون بتربية الأبناء فى غير زماننا " يركّزون على ما يمكن أن نطلق عليه " قمع النفس " وضبطها وإماتة نزعاتها أكثر من تركيزهم على الثقة بالنفس والاعتداد بها ، وتلمّس أوجه تقويتها .. وهذا أفرز نتائج سيئة على المستوى الاجتماعي ، حيث صار الناس الأطهر نفوسًا ، والأكثر صلاحًا وزهدًا يعيشون على هامش المجتمع ، لا مال ولا نفوذ ولا منصب ، وهذا حرم الأمة من عطاءاتهم العظيمة ، كما مهّد الطريق لتكون القوة – بمعناها الشامل – بيد من لم ينل داخله من التزكية سوى القليل .. "[(١)] .

ونحن لليوم لم نستطع أن نستعيد التوازن فى هذه القضية ، فنعلّم الأبناء كيف يحصنون أنفسهم ، كما نعلمهم كيف يؤثرون فى الحياة العامة ، ويقودون سفينة أمتهم إلى بر الأمان !!

.. ونظرة واحدة فى سياستنا التربوية تكفي لندرك أنها " تركز على تنشئة الابن

---

(١) عصرنا والعيش فى زمانه الصعب – د. عبد الكريم بكار – ص ١٧٣ .

المطيع الذى ينفّذ كل ما قيل له دون اعتراض أو تفكير ، والذى يصدق كل ما يقال له دون أدنى مناقشة .. تسعى إلى بناء جيل من الإمعات المقلدين ؛ حيث يكون شق طريق جديد أمرًا يبعث على الريبة ، وحيث يكون السير خلف الآخرين أمرًا محمودًا ومرغوبًا .. وتبني جيلًا ماهرًا فى العثور على محاسن الظلم الذى يقع عليه ، وتعلمه كيف يصفق لظالمه ، وكيف يكبت مشاعره إلى ما لانهاية !! مع أن الإسلام يحث بنيه على دفع الظلم ، والأخذ على يد الظالم ، والانتصاف منه لصالح المظلوم"(١)

إن مؤسساتنا التربوية تقوم بتربية أبنائنا على ما تراه دون ما يرونه .. وتبارك استظهارهم لما تلقيه عليهم من قشور العلم وإن لم يكن مما يفيدهم .. وتمتدح أن يسيروا على ما ترسمه لهم من خطط الحياة وإن كانت مما لا يناسب حياتهم .. و كل من يتابع مناهج التعليم فى مدارسنا الإبتدائية وحتى الثانوية لا يسعه إلا أن يوقن أن ما شيد لها من أبنية ووضع لتلاميذها من مناهج ، إنما وضع لحبس الجسم والعقل والتضييق عليهما .. ويتم تفريخهم كما تفرخ الدجاج بتسليط الحرارة الصناعية على البيض .. والحرارة الصناعية هنا هى قوتا " التقليد والذاكرة " .. وهما كما نعلم أقل القوى الإنسانية كشفًا عن حقيقة العقل وملكاته الحقيقية .

نعم .. إن بعضهم قد لا يصغى لمعلميه ، ويتحيز إلى الطائفة التى تطالب بما ينفعه ، وتقوم بما يناسبه ، ولكن هؤلاء يقلّون يومًا بعد يوم بفعل ما يلاقونه من العقاب على جرم التحرر من التبعية الذليلة وفقدان الذات ..(٢)

ربما قال قائل من القراء : إن بوسع أى إنسان أن يتعلم بعد خروجه من هذه المؤسسات " المدرسة أو الجامعة " أنواع العلوم المختلفة !!

(١) بناء الأجيال – د/ عبد الكريم بكار – ص ٣٩ ، ٤٠ . بتصرف يسير .
(٢) الذنب عليهم لأنهم لم يعرفوا أن لهم واليًا يقوم عليهم ، وأستاذًا يرشدهم ؟!

وهذه حقيقة .. ولكنه يبقى متأثرًا بالعوائد الى غرست فيه منذ صغره من قبل معلميه ومربيه .. فكيف يعرف الطريق إلى التعامل مع الحوادث والقيام بأعمال مستقلًا بذاته ، وقد رباه معلموه ومربوه على أن ليس له من أمر نفسه شيئًا وأن كل شأنه إنما يديره من هم أقدر منه وأعرف بالحياة من مدرسين أو مربين ؟!!

إن هذا ليس بالأمر الهين أو الميسور .. أن يجد الواحد من أبنائنا القوة لاسترجاع ما فقده من سلطانه على نفسه بعد أن ألقى لغيره قياده ؟!!

هذا هو واقعنا التربوي الذى نعيشه .. وهو واقع يجرى بأبنائنا فى بحر لجي من الفساد جري السفن التي مدت شرعها ؛ ولا بد أن يدفعنا ذلك إلى طلب مرساة نوقف بها جريانها ، ولا سبيل لذلك إلا أن نلتمس ذلك فى التربية البيتية .. تلك التربية التى يناط بها القيام بمهمة تربية الأبناء ، قبل أن تناط بالمدارس والجامعات!! وبخاصة بعد أن تحوّل ما يلقى فى المدارس والجامعات من مناهج إلى قوالب يراد لأجيالنا أن تصاغ فيها لتؤدى بها إلى نفوس مستعبدة ، خائرة العزيمة ، لا يحمل لها التعليم أدنى مساحة من الإبتكار أو الإبداع ، وإنما هى فى أحسن أحوالها لون من ألوان تدريب الذاكرة على الحفظ لما يلقيه المربي ثم استرجاعه .. وفى خلال تلك العملية يثقل الابن بأحمال من المناهج والقوالب ، لا يقوى بعدها على الطيران فى سماء الإبداع والتميز ...

نعم .. قد يكون التحصيل العلمي جانبًا من جوانب شخصية المسلم ، وله أهميته .. ولكنه ليس أهم تلك الجوانب .. والأهم من العلم ذاته هو كيفية الإستفادة بهذا العلم فى الحياة العملية ، وكيفية التعامل مع الناس والأحداث..

إن التغيير الذى حدث فى مجتمعاتنا قد غيّر سلم الأولويات والاهتمامات فى الأسرة، فصار أهم شىء فى حياة الوالدين رؤية أبنائهم حاصلين على أعلى

الدرجات فى التعليم ، ودخول هؤلاء الأبناء أكبر الجامعات .. حتى أصبح ذلك لونًا من " الهوس " الذى يسيطر على عقل الآباء والأمهات .. ذلك الهوس الذى يجعلهم فى توتر مستمر ، وبالتالي ضغط مستمر على الأبناء دون ادنى اعتبار لرغبات الأبناء ، ورأيهم فيما يحبون دراسته من العلوم ، وما يرغبون فى القيام به من الأعمال..!!

وهكذا .. أصبحوا يربّون أبناءهم على الطاعة والانقياد الأعمى وتنفيذ كل ما يطلب منهم دون تفكير أو مناقشة ، وتلك ـ والله ـ هى الطامة التربوية الكبرى ..

قصـــة رمـــزيّة :

بينما كان موكب استعراضي يعبر أحد شوارع المدينة ارتفع صوت من بين الجمهور الغفير يقول : " انتبهوا أيها الحمقى ! لقد ضللتم الطريق ، وطريقكم هذا لا يؤدي إلى شيء فهو طريق مسدود " .

توقف الركب وفزع الناس : " هل حقًا ما تقول ؟ " .. تطلعوا إلى المقدمة وإذا بقائدهم يشق طريقه نحو الأمام فى فخر وكبرياء .. فقالوا : " لا شك أنه يسير فى الاتجاه الصحيح ، فها هو يمشي شامخًا مرفوع الرأس ... " وانطلقوا وراءه بحماسة .... انطلقوا وراءه نحو الهاوية .. (١).

• العبد لا يكرّ ولا يفرّ :

لا شك أن قهر الابن على الامتثال ، وإلزامه طاعة الأوامر باستمرار ؛ يخمد وجدان التكليف فى نفسه ، وبخاصة إذا طال هذا القهر لأنه يرسخ فى نفس الابن أن غيره هو المسؤول عن ادارة شؤونه وتبصيره بالحدود الفاصلة بين الصواب والخطأ ؛ فيخفت فى نفسه الرجوع إلى وجدانه هو واستفتاء قلبه ، وهذا بالتالى يميت

(١) راجع إن شئت " دليل التدريب القيادى – د. هشام الطالب " ص ٦٠.

عزيمته فلا يسعى للخير اختيارًا ولا تكون أفعاله صادرة عن ارادته .. وفوق كل ذلك فإنه يجهل كثيرًا من خصائصه ونقائصه فلا يعرف ما يجب أن يزيده وما يجب أن يتجرد منه ..

إن التربية الصارمة تفرز نوعين من البشر ليس أحدهما بأقل فسادًا من الآخر..

فأما الصنف الأول فهو ذلك الصنف المطواع والمستعبد ..

وأما الثاني فهو الصنف المستبد المستكبر ..

لأن هذه التربية تؤدي إلى الشعور بأن العلاقة الوحيدة الممكنة بين مخلوقين من البشر يتعاونان هي أن يصدر أحدهما الأوامر إلى الآخر ، فيطيعه هذا الآخر وينفذ أمره على الفور ؟!!

كما أن ، من يتربى على الانقياد للغير والتبعية له ، ترى فى سيره فى الحياة لينًا وجبنًا ، فلا تراه يقوى على مقاومة عادة اعتادها – وان كان يقنع بضررها – ولا تراه يؤيد حقًا قل ناصروه ، بل إذا دعاه داعي الجهاد نكص على عقبيه وفر فرار الجبناء .

وقد يعرف الحق ، ولكنه ينكره وينفر منه إيثارًا للقديم الذى ورثه عن آبائه " لقد جئناهم بالحق ، ولكن أكثرهم للحق كارهون " .. وحتى لو كان ما تركه الآباء هو الشقاء والتعاسة ، فإن هؤلاء يظلون متمسكين به " إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون ".

ولا شك أن هذا يوجب علينا ، ونحن نربي أبناءنا أن نجعل من أهم السلوكيات التى نحاول تربيتهم عليها ، السعي الدائب إلى ما هو أفضل من بدائل لما هم فيه من قيود الأوهام أو العادات أو التقليد والكسل .. ومحاولة

التفوق على الذات والارتقاء المطّرد الذى يجعل يومهم أفضل من أمسهم .. والرغبة فى تغيير الأوضاع السيئة والمتخلفة .. تلك الرغبة التى كان نبي الله موسى عليه السلام يبثها فى بنى إسرائيل حين جاءهم وهم يعيشون حالة من الإذلال تفرض عليهم بيد فرعون ، فارتفع صوته يصور لهم ضرورة السير معه للخروج مما هم فيه ، فدك صوته الأرواح الساكنة المستسلمة فحركها ، وأشاع فيها القلق والرغبة فى التغيير .

إن على الآباء والمربّين اليوم أن يقوموا بتنمية " تعشق الحرية فى نفوس أبنائهم ، بل ونصرة هذه الحرية والغيرة عليها والدفاع عنها إذا انتهكت كالغيرة على الأعراض والحرمات .. ويتفرع عن ذلك تنمية الوعي بقيمة التعبير عن الرأي ، والنقد الذاتي فى إطار قول الله سبحانه وتعالى " وقولوا للناس حسنًا " البقرة ٨٣ وقوله : " وجادلهم بالتى هي أحسن " النحل ١٢٥ ، وقوله عزوجل : " وقل لهم فى أنفسهم قولًا بليغًا " النساء ٦٣ " [1] والتأكيد على أن من العقل والحكمة أن نستغني أحيانًا عن بعض ما فيه راحتنا لننال به حريتنا ، ذلك أن الإنسان حين يفقد حريته ، فإنه يفقد معها ذاته ، ويتحول إلى شخص أقرب إلى الجنون ..!! يخاف الوهم ، وتحكمه الخرافة ، وتسيطر على عقله أمراض التفكير الخطيرة كالأحادية ، والذريّة .. وغيرها ..

قصة رمزية :

تروى القصة أن رجلًا طلب من النجار أن يصنع له بابًا ، ثم جاء فى يوم وكان النجار غائبًا ، فحمل الباب وانطلق به ، ولما عاد النجار فلم يجد الباب ركض

(١) إخراج الأمة المسلمة – د. ماجد عرسان الكيلانى – ص ٩٠ ، ٩١ .

خلف الرجل فوجده يمشى به خارج البلدة . فما كان منه إلا أن بدأ يقرع الباب قائلًا : افتح الباب ، أقول لك إفتح .. والسارق يحكم إغلاق الباب .. وكل الفلاة مفتوحة بينهما ..!!

فهل ترى فارقًا بين هذه الطريقة ، وطريقتنا فى مواجهة الكثير من مشاكلنا؟!

إننا نصرّ على سبيل واحد ، لا نرى غيره .. وعدونا إمعانًا فى تضليلنا يكرر إغلاق الباب الذى نتوهم نحن أنه منفذنا " الوحيد " إلى ما نريد ؟!! .. فنستمر فى الطرق على ذات الباب !!!

إن أسوأ القيود التى تشل حركتنا هى القيود غير المرئية ، والتى تتمثل فى أوهامنا وعاداتنا السيئة ، وسيطرة رغباتنا علينا ، وقلة الخيارات أمامنا .ولذلك فإن من أوجب واجباتنا كآباء ومربين ، أن نوضح لأبنائنا الأسس والامكانات والمفهومات التى تجعل منهم جيلًا حرّا أبيًا .

وأعتقد أن لدينا ثلاثة أمور تحدد الدرجة التى نتمتع بها من التحرر والانعتاق من أغلال العبودية والهوان والانحسار ، وتلك الأمور هي : العلم ، والإرادة ، والإمكانات .

فعن طريق العلم نتخلص من قيود الجهل والخرافة والمقولات التى ليس لها سند من دليل أو برهان .كما نتخلص من المفهومات التى تشكل منطق التخلف والعجز لدى الإنسان المسلم ..

وبالإرادة الصلبة نتخلص من عبودية الشهوات والرغبات والعادات السلبية، ونوقف التدهور فى حياتنا الشخصية الخاصة . ونعمل ما يملي علينا العقل والخبرة القيام به .

وعن طريق تحسين الإمكانات نتخلص من ضغوط البيئة ؛ حيث إن جوهر

الحرية يكمن فى القدرة على الاختيار ؛ وهي تتحدد بمدى البدائل التى سنختار منها ما يلائمنا . والبدائل لا تتوفر إلا إذا تحسنت إمكاناتنا المعنوية والمادية . "(١)

" إن التربية الإسلامية الصحيحة هي التى أنجبت فى عصور التطبيق الإسلامي أفرادًا تثور ثائرتهم على الولاة المقربين ، إذا هتكوا حرية أحد الرعية الذميين ، وتنفجر قداسة الحرية على ألسنتهم : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا .. فى الوقت الذي تعمل سياطهم تأديبًا لمن اغتصبوا هذه الحريات ... وحين هجرت التربية الإسلامية رعاية (قيمة) الحرية ، مرّت على الأمة قرون كاملة من اغتصاب الحريات دون حس أو شعور "(٢).

ونحن إن أردنا لأبنائنا تربية إسلامية صحيحة ، فلا بد أن نربيهم على تذوّق طعم الحرّية فى تعاملاتنا معهم ، وفى تعاملاتهم مع الغير ، فإذا دعاهم داعي الاستعباد والذل أن يتخذوا من المستعبدين قدوة لكي يحصلوا على المال والسلطة ، قال قائلهم : هذا أمر لا تقدر أن تنصحنا فيه ، فأنت جربت نعمة الاستعباد" مالًا وسلطانًا " .. ولكنك لا تعلم شيئًا عن نعمتنا التى نحن فيها .. لقد ذقت حظوة الملك .. وأمّا الحرية فلست تعرف ما مذاقها ولا مدى عذوبتها .. ولو عرفت مذاقها لكانت نصيحتك لنا : دافعوا عن حريتكم ليس بالرمح أو الدرع ، بل بالأسنان والأظافر ..

ولكن .. أنى لك ذلك ، ولم تتذوقها ..

وأنى لنا أن نأخذ بنصيحتك ، وقد علمنا مذاقها ..

وأدركنا أن الحرّية هي إحدى العلامات المميزة للإنسان ، و أن غيابها هو

(١) بناء الأجيال – د/ عبد الكريم بكار – ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) مقومات الشخصية المسلمة – د/ ماجد عرسان الكيلاني – ص ٧٤ .

غياب التوحيد ، فحقيقة التوحيد أن لا يخشى الإنسان الموحّد إلا الله ، ولذلك فسّر الطبري قوله تعالى : " لا يشركون بي شيئًا " بأن معنى لا يشركون بي شيئًا هو : لا يخافون غيري من جبابرة السلاطين والأشخاص . (1)

أخي المربي ..

إن كثرة القيود التي نضعها على أبنائنا تجعلهم متوجسين من كل فعل وكل كلمة .. فلا تقيّد ابنك ..

دعه يحاول .. علمه أنه هو الحكم على ما يلائمه من الأعمال .. طبيبًا ، مهندسًا ، محاميًا أو صانعًا أو ... أو غير ذلك .. ولكن فليحرص ألا يكون خادمًا لظالم أو معينًا له على ظلمه ، أو مستعبدًا لأحد فى أى مهنة كان .. علّمه حرية الإختيار ، حرية التصرف ، حرية المبادرة .. إن كل ذلك هو الذى يحفظه– بإذن الله – من أن يقود الآخرون حياته أو أن يقضي عمره فى مهنة أو عمل لا يحبه ولا يتقنه بناء على اقتراح من غيره ، فتكون النتيجة هي الفشل والإحباط ..

علّمه الاستفادة من أخطائك فى هذا المجال .. علّمه أن طريقه إلى الحرية أن ينفى عن عقله الجهل ، وعن نفسه الأوهام والضلالات التى تبذر في أمتنا بذور الطغيان والقهر والاستذلال ... تمنى من مجامع قلبك أن يكون أسعد منك حالًا وأكثر منك حرية .. وأدق منك مشاركة فى هموم أمته ...

واحذر – أخي المربي – أن تربي ابنك بالقهر ، فإنك بذلك تدفعه إلى خداعك..!! فكلما أتى أمرًا تكرهه فكّر فى طريق الخلاص من عقوبتك له ، وإذا

---

(١) راجع إن شئت –" تفسير الطبري ج ١٨ ص ١٥٨ ".

نجح مرة واحدة فى خداعك ، اكتسب ثقة فى قدرته على خداع الآخرين ، وفى مثل هذه الحالات ترى ابنًا مطيعًا منقادًا ، ولكن لا تدرى ما انطوى عليه قلبه من التذمر وترقب الوقت للخداع والمكر ..

فالخداع دائمًا هو سلاح الضعيف للاحتماء من قوى الشر ... واذا كانت هذه هى أخلاقه فى الصغر ، كانت أخلاقه فى الكبر هى الجبن والفرار من كل ما يقابل ..

ذلك أن العبد لا يكرّ ولا يفر ..

• التربيـــة الإســـتقلاليــة:

الاستقلالية عامل أساسي فى نمو القدرات العقلية اللازمة للتمييز بين الصواب والخطأ .. و إطلاق الإرادات العازمة المناصرة للحق المناهضة للباطل ..

وحين تختفي الإستقلالية ، تتعطل القدرات العقلية ، وتتقلص الإرادات العازمة ، وتتوقف الأمة عن الإبداع والانجاز، وتسير فى طريق الضعف المفضي إلى الإستضعاف فى الدنيا ، والعقوبة فى الآخرة ..

ولذلك ، فإن بداية النجاح التربوي ؛ أن نلتفت إلى استقلالية الابن .. ولا نتعامل معه وكأنه آلة لتحقيق طلباتنا .. فإن هذا التعامل لا يخرج إلا نفوسًا محطمة وحياة مشتتة .

لقد بلغ الاهتمام بتربية الأبناء على الاستقلالية أن ينصح كثير من أطباء النفس بعدم تقميط الأطفال لأن ذلك مما يقيّد حركتهم ، ويمنعهم التعبير عن أنفسهم !!! [1].

---

(١) لا خطأ على من يقومون منا بالتضييق على الطفل وتقميطه ، فهم يعلمون أنه عند الكبر سيقمط ويشد بجميع قوانين القهر والاستعباد !!

وبالغ بعضهم فى ذلك الأمر ، فقال بوجوب تعويد الطفل منذ نعومة أظفاره أن تكون أعماله كلها عن قصد وعزيمة ، وعدم مساعدته على الوقوف أو المشى عن طريق الآلات الصناعية ، لأن هذه المساعدة – فى رأيهم – تجعله جاهلًا بقدراته الحقيقية ، فيتوهم قدرة ليست لديه ، ويبقى هذا الوهم مصاحبًا له أكثر عمره !! (١).

بل إن هؤلاء الأطباء يزيدون على ذلك بأن يقولوا أن عادة هز الأطفال ليناموا تعلمهم أن راحة أبدانهم عند غيرهم ، بينما يجب أن يتعلموا أنها عندهم هم بالفطرة التى فطرهم الله عليها !! (٢).

وحتى فى لعب الأطفال يجب إطلاق الحرية لهم ، فلا يرجعون إلى الآباء فى ذلك لأنه يقتل روح الابداع فى نفوسهم ، وقوة الانبعاث إلى العمل .. وأما إذا استقل فى لعبه فإنه يعتاد ان لا يكون تابعًا لغيره

إن الطفل كلما شعر بقلة أسباب الوقاية من جانب الغير ؛ زاد حرصه ووقايته لنفسه ، ولا شك ،أن هذا يربي فيه خلق الإستقلال بحماية نفسه ، وعدم الاعتماد فى ذلك على الغير أو على أوهام ليست من الواقع فى شيء (٣).

فإذا أردت – أخي المربي – " أن تربي ابنك على الإستقلالية ، فإن عليك أن تبقي تلك الغاية واضحة فى ذهنك أثناء تعاملك اليومي معه ، ولا تتصرف

---

(١) لا خطأ أيضًا فى ذلك ، فنحن نعد أبناءنا منذ صغرهم أن يمشوا على الصراط الذى يضعه حكامنا ، وأن يصلوا إلى حيث يريد من يقودونا !!

(٢) كم من أناس تجاوزا طور الطفولة بمراحل بعيدة ، وهم لا يزالون فى حاجة إلى الاهتزاز حتى يشعروا بالراحة ، بل تجدهم فى غفلة عن أنفسهم تحركهم عوامل العالم الخارجي ، دون أن يكون لهم أدنى استقلال بفعل أو جهد !!

(٣) إن القائمين علينا فى تربيتنا ليسلبوننا من أول نشأتنا كل ما أودع فينا من حسن الظن بأنفسنا وثقتنا بها !!

حياله بطرق تدمر شعوره بتلك المسؤولية" [١] ويشمل ذلك كل تصرف ؛ حتى اختيار الكلمات والعبارات التى تساعد على تعليم الابن الإستقلالية فى التفكير والعمل .

مثال ذلك :

" فى محادثتنا مع الأطفال يمكننا استخدام عبارات توحي بإيماننا بقدرتهم على اتخاذ قرارات حكيمة لأنفسهم .. فبدلًا من " نعم " التى نوافق بها على ما قرره الابن .. يمكننا أن نعبر عن ذلك بصياغة تشجع الطفل على الاستقلال . وإليك بعض الطرق لقول " نعم " :

- إذا أردت ذلك .
- إنه قرارك .
- هذا يرجع إليك بالفعل .
- إنه اختيارك أنت نفسك .
- مهما كان قرارك فأنا موافق .

... فهذه الصيغ تعطي ارتياحًا إضافيًا للابن لأخذ قراراته بنفسه " [٢] .

وإذا أردنا الثناء على ما يفعل الابن .. فلا نقول : تعجبنى الطريقة التى اتبعتها فى فعل كذا ..

وإنما الأفضل : إنه عمل رائع ، ينبغى أن تفخر بذاتك .. ، فهذه الأخيرة تعلّم الابن التقييم الذاتي ، ومن ثم إستقلالية التفكير .

ومن أهم الأمور التى تعين المربي على الوصول فى هذا المجال إلى المنزلة العليا، حسن خلقه من صبر وعفة وشجاعة وعدل .. " فالصبر يحمله على الإحتمال

(١) صناعة النجاح – د.طارق السويدان ، أ.فيصل باشراحيل – ص ١٠٠ .

(٢) بين الآباء والأبناء – د/ ج جينوت – ص ٨٢ .

وكظم الغيظ ، والحلم والأناة والرفق ..

والعفة تحمله على اجتناب الرزائل والقبائح من القول والفعل ..

والشجاعة تحمله على ايثار معالي الأخلاق ، وعلى البذل والندى ، وتحمله أيضًا على كظم الغيظ والحلم ، فإنه يوقن أن الشجاعة أن يكبح لجام نفسه " ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب"..

وأمّا العدل : فهو يحمله على اعتدال أخلاقه بين الإفراط والتفريط ..

فيصبح بهذه الأخلاق مهيب محبوب ، عزيز جانبه ، محبب لقاؤه .. وقد كانت هذه هى صفة نبينا ﷺ " من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه عشرة أحبه " (١) .

ولا يكفي بالطبع كلمات المربي وعباراته فى تأصيل معنى " الثقة " بالنفس ، و" استقلالية " التفكير والعمل لدى الأبناء ؛ وإنما لا بد مع الكلمات والعبارات ، من سلوكيات واقعية للأب يراها الابن بعينيه ، ويتلمس آثارها بيديه – وبخاصة فى وقت الأزمات – ذلك أن الابن يتأثر بمن حوله تأثرًا بالغًا (٢) .

فلا يدرّب الأب ابنه – مثلًا – على عدم التسليم دائمًا بكل ما يقال بلا مناقشة، و يعلّمه أنه لا بد من التفكير فيما يعرض عليه من وجوه مختلفة قبل قبوله .. ثم يفاجئه عند المناقشة بقوله "هو كده" .. لا بد أن تقبل ما أقول لك بلا مناقشة..!!

إن الأبناء حين يتربون على الإستقلالية فى التفكير والعمل ، ينبعثون إلى صالح السلوك بسائق الحب للآباء وليس الخوف من سياطهم .. فيتقنون ما يوكل

---

(١) مدارج السالكين – ابن القيم – ج ٢ – ص ٢٢٨ بتصرف .

(٢) فرار واحد من قيادات المعركة يشكل كارثة للجيش بما يشيعه من الخوف والخذلان ، ولذا كان الفرار من الزحف كبيرة من الكبائر .

إليهم من أعمال لأنهم يستشعرون ملكية أنفسهم وانفكاكهم من أدنى رق أو استعباد .. و تصدر أعمالهم وآراؤهم عن اختيار وعلم لا عن اضطرار وتقليد .

لا تحشر إليهم قواعد العلم حشرًا أو يرغمون على حفظها ، بل يكون تعليمهم بأن يخلى بينهم وبين ما حولهم من الأشياء والحوادث ، وتلفت أذهانهم إليها لينتزعوا منها بأنفسهم الحكمة والعلم .. ثم يتدربون على " مراجعة الموروثات الثقافية والاجتماعية المنحدرة من كل جيل ، وتنمية القدرة على التفكير واكتشاف الجوانب التي عدا عليها الخطأ أو الإفساد في الفهم و التطبيق .. أو تلك التي مضى زمانها ، وبطل مفعولها ، ثم القدرة على التخلص منها ، ومن آثارها ، والهجرة من تطبيقاتها التي تسربت إلى مظاهر الثقافة السائدة في القيم والعادات والتقاليد والأخلاق والفنون والنظم ، وشبكة العلاقات الإجتماعية وغير ذلك"(١) فيتعلمون حريّة التصرف ، وحريّة المبادرة ..

إن الشباب يحب الاستقلال و الانفراد والتميّز .. ولكنه كثيرًا ما يخطىء الوسيلة إلى هذا التميّز .. فيرى – مثلًا – أن وسيلة التميّز هي " الحصول على رقم هاتف او رقم لوحة سيارة متميز ،او الشراء من متاجر ، و النزول في فنادق فخمة ظانين ان ذلك يجعلهم من الصفوة ..!! وهذا في الحقيقة جزء من مرض عام بات يجتاح حياة كثير من الناس ،وهو مرض " الشكلية "، فهناك اليوم مدارس ليس فيها من الرقي سوى فخامة مبانيها ، حتى كأنها قصور تعليمية . وليس فيها من التعليم سوى حسن مجاملة اداريها . هنا وهناك ... وهذا الطلب الشديد على البروز الشكلي لدى الشباب كثيرا ما يكون صدى لفراغ روحي و خلقي وفكري مخيف!!(٢).

وأعتقد أن واجب الآباء أن يبينوا من خلال التربية أن المتميزين هم الرواد

---

(١) إخراج الأمة المسلمة – د. ماجد عرسان الكيلاني – ص ٥٠ ، ٥١ بتصرف يسير .

(٢) بناء الأجيال – د/ عبد الكريم بكار – ص ٤٤ باصرف يسير .

الحقيقيون الذين يمهدون الطريق ليسير الناس خلفهم ؛ وأن فى إمكان كل ابن من أبنائنا أن يكون واحدًا منهم إذا حاول وبذل الجهد ..

وأن بداية النجاح فى الحياة هي الانتقال من التبعية إلى الاستقلال ، فالمستقل أفضل من التابع ، وهذا لا يعني الأنانية وعدم التعاون وإنما يعنى الاعتماد على الذات . وفى ذات الوقت توحيد الجهود مع الآخرين .. فالمتعاون أفضل من المستقل بهذا المعنى ..

فى التبعية .. أنا اعتمد عليك .. أنت تفكر لى .. أنت تقرر لى ..

بينما التعاون .. أنا أستفيد منك ، وأنت تستفيد منى .. وطاقاتنا مع بعضنا ثمرتها النجاح .

.. ونحن نؤكد على ذلك وتكرر التأكيد ، لأن بعض الآباء من باب الخوف على أبنائه والحرص على" مستقبلهم " قد يدفعهم إلى أن يكونوا بلا رأى أو مشاركة فى حياة أمتهم ، فتسمعه يؤكد لأبنائه : عليكم بالإجتهاد فى دراستكم وأعمالكم ولا تشغلوا أنفسكم بالسياسة ، فهذه لها رجالها الذين يقومون عنا بها !!!!

ولا شك أن هذه الطريقة فى التربية تدفع بهم نحو العبودية الذليلة للطغاة ..

إن أمثلنا طريقة – كآباء ومربين – ينتظر تغيير حال الأمة بمعجزة .. بينما لا يكون هذا التغيير إلا بالجهد نبذله ويبذله أبناؤنا .. وما ذاك إلا بسبب عيوب تربيتنا نحن التى دفعت بنا بعيدا عن المشاركة فى الهم العام للأمة إنشغالًا بالهم الخاص لكل منا .. فلا يجب أن نربي أبناءنا بنفس الأسلوب إذا أردنا تغيير أحوالنا وأحوال أمتنا ... بل على العكس نربيهم على أن يضع كل واحد منهم نفسه فى مكان القائد الإيجابي الناصح لبلده ، ويستخدم قدراته العقلية لإيجاد حلول للمشكلات القائمة .. حلول حقيقية واقعية ، وليست إدعاءات حالمة تنادى بالحياة الفاضلة فى شكل تمنيات ليس أكثر ..

إن علينا أن نعلّم الابن أن علاقته بمجتمعه هي علاقة إيجابية ، وسلوكه مع

مشكلات هذا المجتمع هو سلوك الطبيب الذى يعتبر عافية مرضاه تحديًا يقبله وواجبًا يسعى إلي القيام به ، برغم عدم مسؤوليته عن إصابتهم بتلك الأمراض والعلل .. وحتى إذا لم يتوفّر العلاج الشافي ، فعليه أن يسعى إلى التخفيف من آلام مرضاه ومعاناتهم ..

وأن بإمكانه التوسل إلى ذلك عن طريق رصد واقع المجتمع الذى يعيش فيه من خلال الصحف والمجلاّت ومتابعة ما يذاع ويعرض فى وسائل الإعلام الأخرى، كما ينبغي أن ندرّبه على تداول الأخبار ومناقشتها معنا ومع من نرى أنه صاحب فهم ووعي ..

ولا شك أن هذا كله " يحتاج أن ندرّب الابن على الفهم الواعي للنظام السياسي لبلده ، والأحزاب السياسية وأتباعها ، وما يصدر عنها من مطبوعات ومنشورات ، وطبيعة العمل السياسي .. كما ينبغي التعرف على الصحف والمجلات الرئيسة الصادرة فيه ، وعلى قادة الفكر وموجهي الرأي العام ، وكبار العلماء والمثقفين "[١].

إننا نريد أبناءنا رجالًا ونساءً متميزين باستقلال الشخصية وحرية التفكير وحرية الرأى المنضبط والجرأة فى الحق .. ولا سبيل لذلك إلا ممارسة الحياة ومجابهة مشاكل الواقع .. فهذه هي الطريقة التى تخرج رجالًا هم أمنية آبائهم الغالية مقتدين بإمامهم " عمر بن الخطاب " رضي الله عنه الذى قال لأصحابه تمنوا ، فتمنى كل واحد أمنية ، فقال عمر بن الخطاب : ولكني أتمنى بيتًا مملوءًا رجالًا مثل أبي عبيدة ، وسالم مولى أبي حذيفة[٢].

---

(١) دليل التدريب القيادى — د. هشام الطالب — ص ٢٠ .

(٢) راجع ابن شنت رسائل العاملين / د. جاسم مهلهل الياسين — ص ٢٩٤

إن من الواجبات التربوية الملحة الآن تعميق الاستقلالية فى التفكير والفعل حتى نجعل من أبنائنا أعضاء صالحين للنهوض بالحق ، والانتصار للمظلوم .. نجعل منهم رجالًا أكفاء وليسوا نكرات يسيرون مع القطيع حيث سار .. نجعل منهم أحرارًا يتنافسون ويجاهدون وينتظرون نصيبهم من ألم الإنكسار أو فرحة النصر ، وليس عبيدًا فاقدي الهمة فى كل المواقف .. لا يشعرون بلهب الحرية يحترق فى قلوبهم .. هذا اللهب الذي يجعل المرء يزدري المخاطر ، ويود لو اكتسب بروعة موته شرف الشهادة فى سبيل الله ..

أيها المربي – أبا وأمًا – :

اجعل تصرفاتك خاضعة لدينك وقيمك ، لا تكن عبدًا إلا لله .. علم أبناءك حرية الاختيار ، وحرية التصرف .. واجعل مفرداتهم الفكرية والنفسية .. أستطيع أن أتغير .. أعزم على ما أريد وأحاول النجاح فى الوصول إليه ..

واعلم – أخي المربي – أن هذه الطريقة فى التربية هي الجهاد الذى يجب أن تقوم به فى مواجهة أعدائنا الذين يريدوننا تابعين لهم ، معتمدين عليهم ، فيدفعون بأبنائنا منذ صغرهم أن يقوموا ويمشوا فى دراجات ، ويهزّوا فى المهود ، ويساسوا ويراقبوا فى جميع حركاتهم وسكناتهم ، كل ذلك ليؤهلوهم فى مستقبل حياتهم أن يعيشوا تحت سيطرتهم ..

وهذه هى طريقتهم تتسلسل أجزاؤها منذ الصغر لتصل بهم فى الكبر إلى الغاية المرسومة ، حيث يجعلون منهم مادة لينة بيد معلميهم ، ليصنع منهم هؤلاء المعلمون رعية سلسة القياد ..!! بل وفى القالب الذى يريدون !!! .... فهل لنا أن نحاول إحباط مخططهم عبر التربية الإستقلالية ؟!!

❀❀❀

الفصـل الثالث

العبيد لا يصنعون حضارة

ماذا يفعل الإنسان عندما يجد أن القيم قد فقدت قيمتها .. وكيف يتصرف وهو يرى حضارته تتحشرج فى صدرها الأنفاس الأخيرة ، ويهاجمها السوس ينخر أصل جذورها ، والجراد يلتهم الخضرة من فروعها وأوراقها ، فلا تملك الطيور المبدعة إلا أن تهجر الأعشاش التى بنتها ، وتأوي – يائسة أو مترفعة – إلى حزنها وصمتها ؟

ماذا يفعل هذا الإنسان ، و هو يشعر الإضطراب والخلل فى كل شيء ، ويفزعه خلو الساحة لعقارب الخسة والغدر ، وكلاب السلب والنهب ، وقرود الوصولية والانتهازية ؟!!

أيبقى أمامه إلا أن يصرخ ويحذر وينذر ، أو يسقط فى الهاوية التى تتعطل فيها إرادة الحياة ، وتشل القدرة على الاختيار والمبادرة والفعل الحر؟!!

وهل نعجب إن رأيناه غارقًا فى القنوط والتشاؤم، أو سادرًا فى العبث والسخرية . أو فاتحًا ذراعيه لاحتضان الموت فى سبيل الله يلتمس فيه المعنى الحقيقي بعد أن غاب المعنى عن كل شيء ؟

وهل نستغرب إن سمعناه يردد أنشودته الخالدة " إن كانت حياتي فى سبيل الله ؛ فأنا أتمسك بها وأحرص عليها .. وإلا فإني أختار المضي إلى ربي الذى أجد شوق لقائه فى قلبي ..!! .. وأنا على ثقة أن دمائي قد توقظ أمة من الناس من بعدي ، كما لن توقظهم ألف كلمة من كلماتي الكثيرة .." ؟!!

- **القابليـــة للاســـتعباد :**

لا شك أن الطغيان مأساة فى حياتنا .. ولا شك أيضًا أننا لم نستطع بعد أن " نقبض " على أسباب هذه المأساة عبر تسليط أضواء البحث العلمي الجاد على كل أبعادها .. فعلى الرغم من الكم الهائل من الكتابات والتحليلات والتفسيرات التى خرجت إلى النور حول هذه المأساة ، لم تزل ظلال الطغيان وأصداؤه المعتمة تتردد فى صرخات الشكوى والأنين التى تنبعث بين الحين والحين ..!!

" ومع أن مفهوم الطغيان يرتبط بمفاهيم أخرى عديدة تنتمي إلى عائلته المشؤومة ، كالاستبداد والتسلط والحكم الفردي المطلق ... ومع أنه يمد ظلال لعنته الكئيبة على مختلف وجوه حياتنا وتفكيرنا وسلوكنا وتعليمنا ... ويثمر ثماره المسمومة فى ألوان التعصب والتطرف وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة التى نشقى بغصصها ، ونتوجس خيفة من أخطارها ... فإن المشكلة تظل قائمة ، وهي أن الطغيان لم يأخذ حقه من اهتمام الدارسين والباحثين فى العلوم الإنسانية بوجه خاص ، على الرغم من أنه هو رأس المشكلات والأزمات وأولاها بالدرس والتحليل والنقد والعلاج .... " [(١)]

... لم يحدث هذا الذى يحدث ، وكيف يحدث ؟ .. يا إلهي .. إنه نوع من الانتحار نستدرج إليه بأيدينا !!

كيف يسقط البشر فى أصفاد العبودية ، وكيف يخضعون لجبروت فرد مثلهم يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون ؟

" لست أبتغي شيئًا إلا أن أفهم كيف أمكن لهذا العدد من الناس أن يحتملوا طاغية واحدًا لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه ، ولا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه . إنه لأمر جلل حقًا ، وأدعى إلى الألم منه إلى العجب أن

---

(١) جذور الاستبداد – د : عبد الغفار مكاوي – ص ١٠ ، ١١

ترى الملايين يخدمون فى بؤس وقد غلت أعناقهم دون أن ترغمهم على ذلك قوة أكبر ، بل هم فيما يبدو قد سحروا ؟!!! " (١)

أخذت سهام هذه الأسئلة التي تدمي القلب والعقل تنهال عليّ. وتداعت علي هذه الأسئلة وأمثالها كما تتداعى عواصف الرمال على شجرة وحيدة فى الصحراء ، وأثارت سحب الهواجس والظنون التي خالجتني أثناء العمل في هذا الكتاب ، ولم تفلح في تبديدها أضواء التحليل التي حاولت أن أسلطها على أحداث الواقع ، والنظرات المتأنية في وقائع الماضي ..!!

ثم منّ الله علي بمعرفة الكثير من الإجابات على هذه التساؤلات .. تلك الإجابات التى لا أزعم أنها الفهم الصحيح ، ولا أدعو أحدًا أن يكون أسيرها أو أسير غيرها ، وإنما أدعو الجميع دعوة هادئة إلى كتاب الله الذي أنزل ليمنحنا الحياة " يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم " .. نتأمل ماذا يقول لنا فيما نحن فيه ؟

إن القرآن يعيب على المستضعفين تذللهم للمستكبرين وخضوعهم لهم فى غير ما أمر الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى الله أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ الله عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ الله يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى الله وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى الله وَكَانَ الله غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

---

(١) كتب المفكر الفرنسي إتيين دى لابواسييه فى عام ١٥٦٢ م ، مقالة بعنوان "العبودية المختارة" قام فيها بتحليل آلية الاستبداد ، فراجعه إن شئت .

... وصوّر القرآن فى عدة آيات النقاش الذى يدور فى النار بين المستضعفين والمستكبرين .. الضعفاء يعتذرون بأن الكبراء أغروهم .. والكبراء يتنصلون .. ووضح القرآن أن هذا الاعتذار لا يعفي المستضعفين من المسؤولية .. وأنه لا يخفف عنهم العذاب ..

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ...﴾.

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾.

.. وغيرها من الآيات كثير تصور مسؤولية المستضعفين ، ومغبة تسليمهم وخضوعهم المطلق للمستكبرين .

وتدعو بكلماتها وحوارها كل مؤمن أن يتحدى العقبات التى تعترض طريقه فى السعي والتحرك ، وأن يعد لكل عدو سلاحًا ،فأما الجبن فيواجهه بالتوكل ، و أمّا الخوف فيستعين عليه بالثقة بالله ، و أمّا مغريات الدنيا فيستعد لها بقوة الا رادة ، وأمّا لوم اللائمين ومدح المادحين أو الأغلال الإجتماعية الأخرى فيتسلح ضدها

باليقين ، فلا يخاف فى الله لومة لائم ، كما لا يثنيه مدح المادحين عن الاعتراف بعيوبه ونقائصه ..

إن الأغلال التى وضعت على الجاهليين فى مكة هي التى أركستهم إلى العبودية الذليلة ، فلما جاءت رسالة الإسلام وضعت عنهم هذه القيود ..

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

واليوم .. تشكّل الأفكار الخاطئة ، والمفاهيم المنحرفة قيودًا وأغلالًا تمنع المسلم من التحرّك لتغيير واقعه .. واقع العبودية الذليلة .. ولن يضع عنه الأغلال التى صارت عليه إلا تصحيح تلك الأفكار .. ومنها :

- إعتقاد أن لا إلى إلا الله كلمة تطلق فى الهواء ، وأنه ليس لها مقتضيات!!

- حصر العبادة فى الشعائر .. بينما هي غاية الوجود الإنساني كله ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

- الخضوع لأي سلطة مهما كانت الشريعة الذى تقوم عليها ، بزعم أنها أولي الأمر !! (١)

إنه لا يؤدي بالناس إلى " كارثة الإستعباد " إلا عدم وضوح حقيقة الألوهية .. وحقيقة الإنسان .. وحقيقة الحياة ... وحقيقة الكون ..!!

وما حياة المستعبدين فى حقيقتها إلا قصة جهل ، وإهمال ، وسوء استخدام ، وخيانة لأفكار الإسلام الصحيحة

وهذه الخيانة التى هى جذور إخفاق الأمة من جميع النواحي الأخلاقية

(١) راجع إن شئت " الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة " للمؤلف – ص ٣٠.

والسياسية ..

لقد كان ضعف تأثير الإسلام في الحياة العملية للمسلمين مصحوبًا دائمًا بانحطاطهم وانحطاط مؤسساتهم السياسية والاجتماعية.

وتاريخ الإسلام كله منذ بدايته إلى يومنا هذا يؤكد هذا التطابق، كأن هذا التطابق هو المصير الذي لا مناص منه للشعوب المسلمة وأحد قوانين التاريخ الاسلامي نفسه. ؟!!!.

تلك هي حال المسلمين التي سماها البعض بحق " ليل الإسلام المظلم"..

والحقيقة أن هذا الليل قد بدأ بغروب في قلوبنا. وكل ما حدث لنا وما يحدث لنا اليوم إنما هو صدى وتكرار لما حدث من قبل في داخلنا : ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

إننا إذا استمسكنا بإسلامنا استمساكًا حقيقيًا فلا يمكن استعبادنا أو إيقاعنا في الجهالة أو تجهيلنا أو تمزيق وحدتنا

" إن ظاهرة التخلي عن الإسلام أو هجره تتجلى بوضوح في محاولات قمع الفكر الاسلامي ، واستبعاده من الحياة النشطة المتوثبة، كما تبدو في تحجيم الاسلام إلى حالة من السلبية والتسطيح . ويمكن ملاحظة هذا بأكبر قدر من الوضوح في طريقة تناولنا اليوم للقرآن وهو الفكرة المركزية في الايديولوجية الإسلامية والممارسة الإسلامية.

إن الإخلاص للقرآن لم يتوقف ولكنه فقد خصوصيته الفاعلة . لقد استبقى الناس في أفئدتهم من القرآن ما أشيع حوله من تصوف ولا عقلانية، فقد القرآن سلطانه كقانون ومنهج حياة واكتسب قداسته (كشيء).

وفي دراسة القرآن وتفسيره استسلمت الحكمة للمماحكات اللفظية، واستسلم الجوهر للشكل، وعظمة الفكر للمهارة والحفظ. أما ما يحث عليه القرآن من ـ جهاد واستقامة وتضحية بالنفس والمال، كل ذلك قد ذاب وتلاشى في ضباب الصوت الجميل لتلاوة القرآن وحفظه عن ظهر قلب. هذه الحالة الشاذة قد

أصبحت الآن مقبولة كنموذج سائد بين الشعوب المسلمة . لأنها تتناسب مع أعداد متزايدة من المسلمين لا يستطيعون الانفصام عن القرآن ولكنهم من ناحية أخرى لا يملكون القوة أو الإرادة على تنظيم حياتهم وفق منهج القرآن.

ولعل التفسير النفسي لهذه المبالغة التي يخلعها الناس على التلاوة المنغمة للقرآن يكمن في هذه الحقيقة ، فالقرآن يتلى ثم يفسر ويتلى. ثم يدرس ويتلى مرة أخرى. وهكذا تتكرر الآية ألف مرة ومرة حتى لا نطبقها في حياتنا مرة واحدة ..

وهكذا تحول القرآن" عندنا" إلى صوت مجرد من الوعي ضبابي المعنى.

إن واقع المسلم بكل تناقضاته، وكل ما فيه من فصام بين الكلمة والفعل، وانحرافه عن الواجب، وشيوع الفساد والظلم والجبن، وافتقاره إلى المثل العليا وإلى الشجاعة، وانتشار الشعارات الإسلامية المثيرة والتشدد المتنطع في أداء التكاليف الدينية، والاعتقاد بدون إيمان حقيقي فعال ـ كل هذا ليس إلا انعكاسًا خارجيًا للتناقض الأساسي الذي أحطنا به القرآن والذي يتمثل في الحماس المشتعل للقرآن من ناحية والإهمال الكامل لمبادئه في الممارسة العملية من ناحية أخرى.

إن هذا التناقض فى التعامل مع كتاب الله هو السبب الأول والأكبر أهمية للتخلف والعجز الذي تعانيهما الشعوب المسلمة.

وهنالك سبب آخر ذو أهمية عامة وهو نظام التربية بأوسع معانيه.

كانت شعوبنا ـ عبر قرون كثيرة مضت ـ محرومة من وجود أناس متعلمين تعليمًا صحيحًا فعالًا. وبدلًا من ذلك توفر لهذه الشعوب نوعان آخران من الناس كلاهما غير مرغوب فيه: الجهال والمتعلمون تعليمًا خاطئًا. فلا يوجد في دولة مسلمة واحدة نظام تعليمي مُعد إعدادًا مناسبًا قادرًا على التجاوب مع الفهم الأخلاقي للإسلام أو التجاوب مع احتياجات الناس. فأصحاب السلطة عندنا إما أنهم قد أهملوا هذه المؤسسة بالغة الحساسية في أي مجتمع، أو تركوها نهبًا للأعداء يتصرفون فيها وفق مخططاتهم. *هذه المخططات التى لا تعلّم الناس ليكونوا مسلمين*

ولا حتى ليكونوا وطنيين ، إنما يحقن النشء فيها " بفضائل " الطاعة والخضوع والانبهار بتقدم المجتمعات الغربية وسطوتها وثرائها. ولا بد أن نتفحص مناهج هذه المدارس ونحلل محتواها تحليلًا عميقا وعندها فقط سيتضح لنا تمامًا أن القضية الحقيقية ليست إلا إخضاع الشعوب .. وأنه في ظل هذه التربية لم يعد هناك ضرورة للسلاسل الحديدية لإخضاع الشعوب ، فإن الخيوط الحريرية للتعليم لها نفس القوة .. إنها تشل عقول المتعلمين وإرادتهم. وبهذا الوضع للتعليم فإن الأجانب من أصحاب النفوذ وأتباعهم من أبناء البلاد المسلمة ليس عندهم ما يخشونه على مراكزهم .. فبدلًا من أن يكون التعليم مصدرًا للتمرد والمقاومة يصبح أكبر حليف للأعداء وأتباعهم "[١]

فهل نحن نتعلم لنكون بما تعلمناه أحرارًا .. أم لنكون لما تعلمناه عبيدًا؟؟

يقول عبد الرحمن الكواكبي عن التعليم : " المستبد لا يخشى من علوم اللغة المقوّمة للسان .. وكذلك لا يخاف من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد ، لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ، ولا تزيل غشاوة .... وإنما هو يخاف من العلوم التي توسع العقول ، وتعرّف الإنسان ما هو الإنسان ، وما هي حقوقه ، وهل هو مغبون .... ولذلك يسعى العلماء في نشر العلم ، ويجتهد المستبدون في إطفائه ... وتبقى الجماهير الجاهلة الغافلة .. إذا خافت استسلمت .. استسلمت حتى للذبح ..!!

فإذا ارتفع الجهل ، زال الخوف وانقلب الوضع ....

إن الطغاة يمسكون الشعوب بخيطان رفيعة من الخوف .. وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت .. لو كانوا يعلمون .. "[٢].

ومن هنا ، فهم يحوّلون المدارس إلى محاضن بشرية لإعداد العبيد والخدم والأتباع ..!!

---

(١) مستفاد من كتاب الإسلام بين الشرق والغرب – على عزت بيجوفيتش

(٢) راجع إن شئت طبائع الإستبداد – الكواكبي

خذ مثالًا .. الفقه ؟!

إن الفقه عند " المستعبدين " يتجزأ ، فيصبح " هناك " فقه " للحياة كما تودها إرادات أصحاب القوة ، و " فقه " ينحسر إلى ميادين النشأة والمصير دون مرور فى محطة الحياة .. وينمو " فقه " المظهر الديني للعبادة ، وينحسر " فقه " المظهر الاجتماعي ، لأن إرادة الجالسين فى مراكز النفوذ تتطلع للبقاء طليقة من أى "فقه " يقيدها فى التصرف بشؤون الحياة والاجتماع . وانحسار " فقه " المظهر الاجتماعي للعبادة ، ينعكس على " فقه " المظهر الكوني ، فبدل أن يكون بحثًا عن آيات الله فى الآفاق والأنفس ، يصبح تطويرًا لوسائل الهيمنة على البشر ، وبدل أن يكون " تسخيرًا " للمخلوقات لخدمة الإنسان ، يصبح تسخيرًا للإنسان والمخلوقات سواء ، لإرادات أصحاب القوة والنفوذ "(١) .

وأمّا الدراسات الفقهية فهي " دراسات نظرية لفقه الفروع وأحكامه فى الجوانب غير المطبقة فى واقع الحياة .. إنها دراسات للتلهية !! لمجرد الإيهام بأن لهذا الفقه مكانًا فى هذه الأرض التى تدرسه فى معاهدها . ولا تطبقه فى واقعها ! .. وهو لون من ألوان " تزوير " الفقه ؟!!

بل إن هذا التزوير " العلمي " يصل إلى مصطلحات إسلامية ثابتة .. كمصطلح " الشيطان " مثلًا ؟!

إن " الشيطان فى القرآن والحديث قسمان : *الأول* هو الشيطان الجني الذى لا يرى ولا يسمع من البشر ..

والقرآن يذكر هذا النوع فى معرض تعريفه بعناصر الوجود المحيط ، وتفاعل الإنسان معها ، ويخبر أن هذا الشيطان الجني ضعيف الكيد والتدبير ..

والنوع الثاني : هو الشيطان الإنسان الذى ينشطن – أي ينحرف عن قصد وإصرار – عن منهج الله ، ويتبنى منهاجًا مضادًا فى الفكر والسلوك ويجعل من الانحراف والضلال فكرًا صائبًا ، وعملًا صالحًا ، وإنجازًا حضاريًا متقدمًا ، ثم

---

(١) إخراج الأمة المسلمة – د. ماجد عرسان الكيلاني – ١٢١ .

يكرّس حياته ، وجهوده للدعوة إلى هذا الإنحراف ، والضلال وإشاعتها ..

ففى معنى قوله تعالى : " وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم .. " يذكر الطبري فى تفسيره أن الشياطين المشار إليهم فى هذه الآية هم شياطين فارس من المجوس ، وأن أولياءهم هم المتمردون من مشركي قريش ، فقد أرسلت فارس إلى أوليائها من قريش أن جادلوا محمدًا وأصحابه حول أكل الميتة ، وكانوا يسمونها قتل الله . فقالوا : ما قتل الله لا تأكلونه ، وما قتلتم تأكلون .. وفى رواية ، قال المشركون للرسول ﷺ : أخبرنا عن الشاة إذا ماتت ، من قتلها ؟ فقال : الله قتلها . قالوا : فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال ، وما قتله الله حرام ؟!

فأنزل الله : "ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه" .. وفى رواية أخرى ، قالوا: أما قتل الصقر والكلب فتأكلونه ، وأما قتل الله فلا تأكلونه ؟ .. فوقع فى نفوس بعض المسلمين شيء ، فأنزل الله الآية ، ونزلت أيضًا آية : " شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا " الأنعام ١١٢

ورواية الطبري عن مناسبة الآية تبين بوضوح أن ظاهرة شياطين الفكر من الأعداء الذين يثيرون الشبهات حول الإسلام ، وظاهرة أوليائهم من العرب — أو العملاء حسب لغة العصر الحديث — الذين يشيعون هذه الشبهات ، هي ظاهرة قديمة — حديثة ، فالعرب كانوا ومازالوا يتلقون القضايا الفكرية من شياطين الخارج .

ففى الماضي كانوا يتلقون المعتقدات والشبهات من فارس والروم ، واليوم يتلقونها من الغرب والشرق ، ولا عاصم لهم إلا الإسلام .

والحديث النبوي يركّز على التحذير من شياطين الإنس . من ذلك قوله ﷺ : " يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ .. قال : قلت : يا رسول الله ، وهل للإنس من شياطين ؟ قال : نعم ، شر من شياطين الجن..

وبهذا التصور الذى يقدمه القرآن ، والحديث ، يكون هناك شيطان الفكر ، وشيطان التربية ، وشيطان الثقافة ، وشيطان الآداب ، وشيطان الفنون ، وشيطان الإعلام ، وشيطان الإباحية ، وشيطان الأزياء ..

.... وهكذا تتمركز ولاية الشيطان فى قلب المجتمع البشري ، وتحتل سلوكًا بشريًا متخلفًا وضارًا ، ولا بد من مواجهته ودراسته ، ولكن مؤسسات التربية الإسلامية حين خشيت فى عصور الجمود و الاستبداد شياطين السياسة والترف من الإنس ، انحرفت للغوص فى الغيبيات بحثًا عن شياطين الجن التى لا ترى !!!

وأشغلت تفكير الناس بذلك حتى انتهت بكثير منهم إلى الوسوسة والجنون..!! (١)

وهكذا .. يتم عبر " العلم " تهيئة تربة أفكار أبنائنا لتصبح صالحة لاستنبات بذور الإستكبار .. وذلك من خلال إنشاء " القابلية للإستعباد " فى نفوسهم .. بحيث تمثّل هذه " القابلية للإستعباد " ما يمكن أن نطلق عليه " وضع امتصاص " يمتص العبودية من كل واقع إستبدادي ..!!

و " لقد شاهدت فى عمري المحدود أناسًا كان فى وسعهم أن يكونوا أحرارًا ، ولكنهم يختارون العبودية . وفى طاقتهم أن يكونوا أقوياء ، ولكنهم يختارون التخاذل .. شاهدتهم يهربون من العزة كي لا تكلفهم درهمًا ، وهم يؤدون للذل دينارًا أو قنطارًا ..

لا بل شاهدت شعوبًا بأسرها تشفق من تكاليف الحريّة مرة ، فتظل تؤدي ضرائب العبودية مرات .. ضرائب لا تقاس إليها تكاليف الحريّة ، ولا تبلغ معشارها ، وقديمًا قالت اليهود لنبيها : " يا موسى إن فيها قومًا جبّارين ، وإنّا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا . إنا ها هنا قاعدون " .. فأدّت ثمن النكول عن تكاليف العزة ، أربعين سنة تتيه فى الصحراء تأكلها الرمال ، وتذلها الغربة ، وتشردها المخاوف .. وما كانت لتؤدي معشار هذا كله ثمنًا للعزة

---

(١) إخراج الأمة المسلمة – د. ماجد عرسان الكيلانى – ص ١٠٧ ، ١٠٨ بتصرف يسير .

والنصر فى عالم الرجال ...!!! (١)

بل لقد قرأت عن عبيد أعتقهم سادتهم ، فرأوا أن العتق كان وبالًا عليهم ، فتشبثوا بالرق ، لأنهم رأوا أن حياتهم فى الحرية غير ممكنة ..!! فإن لم يكن ذلك بسبب وجود ما يمكن أن نطلق عليه " مركب العبودية التربوية " .. و " القابلية للإستعباد " فماذا يكون السبب إذًا ؟

إن " القابلية للإستعباد " هى التى تمتص العبودية وتدفع العبيد إلى قبولها .. فليست المشكلة فى الخارج ، بل المشكلة داخلية .. وعناصر تحكمنا فى حلها هى التحكم فى عالمنا الذاتى ، وليس لنا من سبيل إلى الخروج منها إلا من هذه البوابة "بوابة النفس " .. إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"

إن هناك علاقة توافق بين الذين يعشقون التبعية والخضوع ، وبين السلطة التى تحب أن يكون لها أتباع يصفقون لها ويستحسنون أعمالها سواء أصابت أم أخطأت .. وحين نربي أبناءنا تربية " الإمعات " فنحن ندفعهم إلى عبادة الأشخاص والسلطات والأوثان .. ندفعهم إلى أن يكونوا عبيدًا " يتزاحمون على أبواب السادة ، ويتهافتون على الرق والخدمة ، ويضعون بأنفسهم الأغلال فى أعناقهم والسلاسل فى أقدامهم ، ويلبسون شارة العبودية فى مباهاة واختيال .. لا يدركون بواعث الأحرار للتحرر ، فيحسبون التحرر تمردًا ، والاستعلاء شذوذًا ، والعزة جريمة ، ومن ثم يصبون نقمتهم الجامحة على الأحرار المعتزين ، الذين لا يسيرون فى قافلة الرقيق ! " (٢) .. ولا يوجد لديهم ما يوجد فى نفوس أولئك العبيد من " القابلية للإستعباد " !!

وهذه قصة رمزية لتوضيح ما نقصد ..

---

(١) دراسات إسلامية – سيد قطب – ص ١٢٤ – ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق – ص ١٢٧ .

- أين ضاع الخاتم؟

أضاع جحا خاتمه في داخل بيته فبحث عنه فلم يجده فخرج من البيت وجعل ينظر أمام الباب فسأله جاره ماذا تصنع فقال: أضعت خاتمي في البيت، فقال ولماذا لا تفتش عليه في البيت فأجابه: رأيت الظلام حالك في الداخل ، فقلت أبحث عنه في النور !!!

ونحن أيضًا .. ضاعت حريتنا بداخلنا ، واستقرت عبوديتنا بداخلنا .. ثم نحن نبحث عنها في الخارج .. ونستجديها من كل الأمم !! .. ونحن – شئنا أم أبينا – المسؤولون عما صرنا إليه من العبودية الذليلة .. و مرفوضة كل محاولة تسعى إلى اتخاذ ممارسات الأمم الأخرى مشجبًا لتعليق عبوديتنا ، وتبرير ذلنا .. " قل هو من عند أنفسكم " – آل عمران ١٦٥ .. بل إن كل من يحاول أن يزحزح مسؤوليتنا عن عاتقنا ليضعها على كاهل الغير هو في الحقيقة يلحق بنا الضرر ، ويؤخر خروجنا من " الاستعباد " إلى " الحريّة " ..

- **ترويـــض العبيـــد :**

لا يولد البشر أحرارًا فحسب ، بل إنهم مفطورون على حب الحرية والزود عنها .. !!

وليس البشر وحدهم ، بل إن الحيوانات يهتف كل مسلك تسلكه بما يعني "عاشت الحريّة " ..!!

فالكثير منها ما يكاد يقع في الأسر حتى يموت !! .. و يأبى أكثرها الأسر فيقاوم بشدة بالأظافر والقرون والمناقير والأقدام ، وكأنه يعلن اعتزازًا شديدًا بالحرية ..

خذ مثالًا على ذلك :

الفيل .. هذا الحيوان الذى يقاتل بكل ما آتاه الله من قوة دفاعًا عن حريته

حتى إذا رأى ضياع الأمل وأوشك أن يقع فى الأسر ، رأيناه يغرس فكيه فى شجرة محطمًا سنيه ..!! هكذا وكأنه يساوم قناصيه على حريته مقابل عاجه لعلهم يقبلون الصفقة ، ويفتدى بسنيه حريته ..!!

وهناك بعض الأسود لا تتناسل فى الأسر أو داخل القضبان الحديدية..!!

فهذه هى الحيوانات التى خلقها الله لخدمة الإنسان لا تألف العبودية دون أن تبدي احتجاجًا يعرب عن رغبتها فى الحرية ، فكيف بالإنسان ؟!!!

كيف يسقط هذا الإنسان فى قبضة الإستبداد ، ويرضى بالعبودية ؟

إن هذا فى الحقيقة يحدث بطرق كثيرة ، منها :

- الإجتياح الخارجي للأمة ، وهو يأتي على أثر الإنهيار الداخلي لهذه الأمة ..
- الولادة فى ظلام العبودية الذى يشعر معه الفرد أن طبيعة الحياة هكذا!!!
- التحول التدريجي من الحرّية إلى العبودية عبر الترويض الذى يحدث مع الحيوانات ..

فالخيل – مثلًا – التى كانت تجمح براكبها تتحول مع الترويض إلى حصان يتباهى بسرجه واللجام ..

ويضاف إلى ما ذكرنا عنصر مهم يلعب دوره فى تخدير الوعي هو إيقاظ الغرائز والشهوات ..

وهو ما وصفه الكواكبي بقوله : " وأمّا ملذاتهم فهي مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسرت ، وإلا فمزابل للنباتات .. ومنحصرة فى استفراغهم الشهوة كأن أجسامهم خلقت دملًا على أديم الأرض وظيفتها توليد الصديد ودفعه .. " (١).

---

(١) راجع إن شئت " طبائع الاستبداد – الكواكبي .

فإذا ثارت ثائرة العبيد ضد الطغاة ، إختلق هؤلاء حيلة ليبقوهم فى هدوء واستنامة.. تلك الحيلة هي " دور الدعارة والخمر والألعاب الجماهيرية" !!! [٢]

وأمّا السبيل الأنجح لدى الطغاة لاستعباد الجماهير فهى شغلهم بظاهر من الحياة الدنيا ، وإغفالهم عن الآخرة .. فإذا بقي بعد كل هذه الوسائل أقلية ممن أسماهم مالك بن نبي " مقلقي النوم العام " قام هؤلاء الطغاة بتصفيتهم حتى لا يبقى فى طول البلاد وعرضها إنسان ذو قيمة ؟!!

.. وهكذا عبر الترويض المستمر " يحوّل الإنسان من الرغبة فى الحرّية إلى التباهي بالعبودية !!

.. مثل الجياد الشوامس التى تعض الرسن بالنواجذ فى البدء ، ثم تلهو به فى نهاية ترويضها .. وبعد أن كانت لا تكاد تستقر تحت السرج ، إذا هي تتحلى برحالها وتركبها الخيلاء وهى تتبختر فى دروزها .. ثم تقول إنها كانت منذ البدء ملكًا لمالكها ، وأن آباءها عاشت كذلك ، وتظن أنها ملزمة باحتمال الجور ، وتضرب الأمثلة لتقتنع بهذا الإلتزام ، بل بمرور الزمن تدعم هي نفسها امتلاك طغاتها إياها" [١].

وبنفس الطريقة ، تدفع إرادة الحياة فى النفس الإنسانية إلى الاستجابة للوضع الاجتماعي وتكييف النفس على أساسه ، بل وقد تزيد فتبدع له فلسفة الخضوع والاستخذاء بحيث يجد الفرد مبررًا ، ويحس التذاذًا .. وربما يستشعر الزهو فى الوضعية الجديدة ..!!

... وهذه هى التى يمكن أن تفسّر مغالاة بعض الناس فى خدمة سادتهم

---

(٢) هكذا كما فى المحطات الفضائية التى يشرف المطربون فيها على صناعة الثقافة حتى مطلع الفجر !!

(١) مستفاد من " العبودية المختارة " إتيين دى لابواسيه .

ورؤسائهم .. فهؤلاء يعملون بوحي مزدوج من لذة الخضوع والمنفعة ..!!!

لقد تحوّلوا إلى غثاء من " النفايات " البشرية الخاوية التى لا تملك أدنى قابلية لبعث جديد ، أو لحمل رسالة حضارية .. وما ذلك إلا لأنها ليست مستعدة للتضحية ، ولا قادرة على التحرر من رق الشهوات الفردية ... وأبرز صفاتها " الوهن " .. حب الدنيا وكراهية الموت .. فهي تخاف من تكاليف الحرية ، وتجبن عن مجابهة الظلم فى الداخل ، وصد الغزاة من الخارج .. بل لقد تحوّل هذا الجبن عند أكثر أولئك الغثائيين إلى مرادف لكلمة " الحكمة والتعقل" !!!

وهذه هي حال العبيد فى كل زمان .. إنهم ينطقون لغة واحدة قديمًا وحديثًا..

ينطقون الخوف ، والجبن ، والعبودية للبشر الذين لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ..

إن ملكة سبأ تعطيهم الحق فى المشورة ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل ٣٢].

ولكنهم يرفضونها : ﴿قالوا نحن أولو قوة، وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ النمل ٣٣].

.. هكذا ، يرفضون المشورة لأنهم لم يتعودوا رفع الرؤوس ، بل ظلت رؤوسهم متصلبة على الانحناء للبشر ..

فهم يرون أن عليهم فقط بذل القوة إلى الاتجاه المطلوب وهم معصوبي العيون لا يدرون اين يسيرون ؟!!! وإلى أين يقاتلون ؟!! ومن يقاتلون ؟!! ولماذا يقاتلون ؟!!!

وهكذا هو الرقيق دائمًا .. يتحمل واقعه دون التفكير فى أدنى شيء يمكن أن يخرجه منه أو يخلصه من شره .. إنه يتعود التعامل مع المشكلات على أنها شيء طبيعي !

خذ على ذلك مثالًا :

" لقد ظلت النساء تكنس البيوت وهن يحنين ظهورهن عشرات السنين ، إلى أن جاء من وضع عصا للمكنسة ؛ حتى يكنس بها الناس وهم واقفون دون انحناء ، وما ذلك إلا لأن الناس لم يفكروا فى التطوير ، ولأن فكرة " ليس فى الإمكان أبدع مما كان " تحكم كل رؤاهم الحضارية " تلك الرؤى التى تخلفها تربية الرقيق .. "(١)

إن الطغيان يدمّر الخامة البشرية .. " ولقد اسهب المؤرخون فى سرد هذه الآثار المدمرة للطغيان بما لا يدع مجالًا للشك . فكانت العرب تقول بأسلوب العصر :" قال العقل أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة وأنا معك ، وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة وأنا معك " . والمقريزى يذكر من بين الصفات التى تغلب على أخلاق بعض من يعيشون فى ظل الطغيان لفترات طويلة "الدعة والجبن وسرعة الخوف والنميمة و السعى إلي السلطان " ....

وقد مكّن كل هذا بدوره لمزيد من الاسراف فى الطغيان على كل المستويات دون رادع !!

وقد أدّى هذا كله الى أن أصبح الفرد منهم مغلوبًا على أمره يائسًا من الحياة نفسها، ومحرومًا من أمل "الحياة الجيدة "، ولهذا كان متنفسه الوحيد هو "الحياة الجديدة " :إنتاج الأبناء .وكان لهذا نتائجه التى أكدت مرة اخرى فرص الطغيان"(١) .

إن الطغاة يقومون عبر وسائل عدة بتحطيم كافة قوى المقاومة فى النفس و محو المميزات الفردية ، وصهر الشخصية الخاصة فى بوتقة القطيع ، لا يستثنى من ذلك الأعمال التى يبدو أنها تؤكد تميّز الفرد و " حريته " كالانتخابات مثلًا !!

---

(١) عصرنا والعيش فى زمانه الصعب – د. عبد الكريم بكار – ص ٥٥ .

(١) شخصية مصر د/ جمال حمدان – ص ٥٢ بتصرف

وتظل هذه الضغوط تعمل فى نفوس المستعبد عملًا آليًا ، فتجده يمارس التذلل للمستكبر وإن لم يطلب منه ؟!!

فإذا عوتب فى ذلك صرخ بأعلى صوته " أنا عبد المأمور " .. هكذا ، دون أن يشعر مهانة أو ذلة ؟!!!

... وتأمل حال من يصدر له الأمر " إضرب يا عسكري " فيشرع عصاته ويأخذ فى ضرب من طلب منه ضربه بلا رحمة ..!! أليس ذلك دليلًا على محو شخصية هذا الجندي ، وتحويله إلى " عصا " أو " بندقية " لا تفكر من تضرب ، ولا لماذا تضربه ؟!! أو تحويله إلى مذياع لا يرفض أن ينقل خبرًا وإن كان باطلًا !!

.. إنه الترويض يتكفل بمهمة " التحويل "من إنسان إلى" عصا ، أو بندقية"، أو " مذياع " !! .. ولكن ، كيف ؟

خذ مثالا توضيحيًا ..

فى علاقتنا بالحيوانات ، نشد العنزة بالحبل .. أو ندفع الحمار إلى السير عبر قناعته أنه يمكن أن يلحق الجزرة التى نربطها أمام عينيه .. وإذا أردنا أن نحمل الأغنام إلى البواخر مثلًا ، فإننا نجر الكبش بالقوة ، وعندها نجد أن حيوانات القطيع الأخرى لا تلبث أن تسير راضية مختارة ... ونطلب من القرود أن ترينا ما تملكه من مواهب " التمثيل " ..!!

.. وإذا طبقنا هذه المفاهيم فى عالم الإنسان ، وجدنا حالة العنزة مع الحبل " تتمثل فى سلطان الشرطة والقوات العسكرية " .. وأمّا حالة الحمار والجزرة ، فهي تمثل الدعاية .. أما القطيع الذى يتبع قائده المقهور على إرادته ، فيتمثل فى السياسات الحزبية عندما يكون زعيم الحزب موثوقًا من الناس ..

وأمّا القرود فهى قوة التعليم ..

... فإذا تنبّه بعض " العبيد " لما قام به المستكبرون من التدمير النفسي والفقر الأخلاقي ، تكفلت الصحافة والسينما وغيرها من الأجهزة الإعلامية تعويض هذا الأمر .. ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾.

وهذا ما يمكن أن يذهب العجب الذى - ربما - تملكنا ونحن نرى أن إجتماع أفراد الأمة بدلًا من أن يكسبهم القوة والمنعة ، قد أكسبهم فقدانًا للتوازن ، وجعلهم كقطيع يفقد كل فرد فيه إدراكه واتزانه ويتحرك مع الآخرين مدفوعًا بحركتهم ، وكأنه موجة صغيرة من خط الموج العظيم الذى يتقدم ويتعالى ولا يقف أمامه شيء، وعندئذ يقوده الخطيب المفوّه والممثل القدير فيسير وراءه يردد صيحته ..!!

كما وصف الشاعر أحمد شوقي الجماهير فى عهد كليوباترا ، وكيف يوحون إليه الباطل فينطلي عليه ..

اسمع الشعب ديون	كيف يوحون إليـــه
ملأ الجـو هـتـافًـا	بحيـــاة قاتليـــه
أثر البـهـتـان فـيـــه	وانطلى الزور علـيـــه
ياله مـــن ببـغـــاء	عـقـلـــه فى أذنيـــه

إن الراصد لواقعنا بنظرة تحوي شيئًا من الحكمة لا بد أن يرى أنه تحوّل إلى مصح كبير للأمراض العقلية !!

فغياب الحرّية قد لا يجعل الناس مجانين ، ولكنه يفقد عقولهم النظرة الصائبة للأمور ، فهو من ناحية التشخيص لا يمكن تشخيصه بأدوات التشخيص الطبي..!!

إن كل فرد قد يبدو عاقلًا فى تمام وعيه وإدراكه ، ولكن جموع الأمة تبدو غائبة عن الوعي .. فنحن لا نعاني من غياب الفرد الذكي ، ولكنا نعاني من غياب وسيلة التفاهم بين الأفراد فى مجتمع أخرس له صفات القطيع لا تجمعه أصلًا سوى إرادة الراعي وعصاه ..

لقد عمد أحد المربين للحيوانات إلى تربية كلبين خرجا من بطن واحدة ، وجعل الأول يسمن فى المطابخ ، والثاني يجري فى الحقول .. حتى إذا كبرا بما فيه الكفاية جاء بهما إلى السوق ثم وضع أمامهما وعاء من الحساء بجانب أرنب ، وأطلق الكلبين ..

فإذا أحدهما يلعق الوعاء كسولًا رخوًا ..

وأما الثاني فيضرب فى البراري يلاحق الأرنب المذعور ..

وهذه هي خطورة التربية .. إنها قد تهبط بالإنسان إلى أسفل سافلين ، فتمسخ هذا الإنسان إلى شكل القردة والخنازير ، أو قد ترتفع به إلى أعلى عليين..

.. ولذلك ، فإن علينا أن نجعل من أهداف تربيتنا لأبنائنا ، تزويدهم بالمزيد من الحكمة والفهم والبصيرة بنوعية الاستجابات التى تصدر عنهم ، وبالاستجابات التى ينبغي أن تصدر عنهم فى مواجهة مغريات الحضارة وتحدياتها.

حتى إذا هاجمهم الإستبداد إمتنعوا عنه بما قمنا بحقنه فى وعيهم من أمصال الحرية والكرامة ..!!

وكان نشيد رفضهم للطغاة ، والأرباب الزائفين محطمًا لكل " هُبل " ..

هُبلٌ... هُبلْ

رمز السخافة و الدجل
من بعد ما اندثرت على أيدي الأباة
عادت إلينا اليوم في ثوب الطغاة
هُبلٌ ... هُبلْ
رمز السخافة والجهالة والدجل
لا تسألن يا صاحبي تلك الجموع
لِمن التعبدُ والمثوبة والخُضوع
دعْها فما هي غير خِرفان ... القطيع
هُبلٌ ... هُبلْ
رمز الخيانة والجهالة والسخافة والدجل
هُتّافةُ التهريج ما ملوا الثناء
زعموا له ما ليس ... عند الأنبياء
مَلَكٌ تجلبب بالضياء وجاء من كبد السماء
هو فاتحٌ .. هو عبقريٌ مُلهمُ
هو مُرسَلٌ .. هو علم و معلم
ومن الجهالة ما قَتَل
هُبلٌ ... هُبلْ
رمزُ الخيانة والعمالة والدجل
صيغت له الأمجاد زائفة فصدقها الغبي
واستنكر الكذب الصّراح ورده الحرّ الأبي

لكنما الأحرار في هذا الزمان هُمُ القليل

فليدخلوا السجن الرهيب و يصبروا الصبر الجميل

ولْيَشهدوا أقسى رواية .. فلكل طاغية نهاية

ولكل مخلوق أجل ... هُبَلٌ .. هُبَل (١).

• الحـريّة المفقـودة :-

فى الجاهلية الأولى .. وفى كل جاهلية " كانت القدرة على الظلم قرينة العزة والجاه فى عرف السيد والمسود !!

" وما كان الشاعر النجاشي إلا قادحًا مبالغًا فى القدح حين استضعف مهجوه لأن :

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

.. وكان حجر بن الحارث يستعبد بنى أسد بالعصا ، فيتوسل إليه شاعرهم عبيد بن الأبرص فيقول :

أنت الملك فيــهم وهم العبيد إلى القيامة

ذلّوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامة

... وكان عمر بن هند يعوّد الناس أن يخاطبهم من وراء ستار ..!!!

أمّا النعمان بن المنذر فقد بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يومًا للرضى يغدق فيه النعم على كل قادم إليه خبط عشواء ، ويومًا للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء !!" (١)

---

(١) القصيدة لـ " سيد قطب " رحمه الله .

(١) في ظلال القرآن – سيد قطب – جـ ٢ ص ٨٤٥ .

أمّا فى الإسلام فقد " تضافرت مصادر التربية الإسلامية على إدانة الظلم ، وتنفير المسلم منه فى جميع مظاهره وأشكاله ، فالقرآن يسوي بين مصير المظلومين الذين يسكتون على الظلم ، وبين الظالمين الذين يمارسون الظلم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء ٩٧ .

وفى المقابل يشيد القرآن بالذين يرفضون الظلم ، ويتناصرون لمقاومته ، ويستنهض هممهم لمنازلته :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٣٩، ٤٠].

و الرسول ﷺ يجعل خنوع الأمة ، وعدم تناصرها لمقاومة الظلم ، من العلامات الدالة على موتها ، وانتهاء مبررات وجودها :

" إذا رأيت أمتي لا يقولون للظالم منهم أنت ظالم ، فقد تودع منها " أخرجه أحمد"[١] .

ومن هنا كان من السلوكيات الهامة التى يجب أن نرشد إليها أبناءنا نصرة العدل فى مواجهة الظلم ، ونصرة دعاة الحق فى مواجهة المتسلطين من دعاة الباطل.

---

(١) إخراج الأمة المسلمة – د. ماجد عرسان الكيلانى – ص ٨٩ .

" إن الإسلام هو المنهج الوحيد الذى يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان .. ففى كل منهج – غير المنهج الإسلامي – يتعبد الناس الناس . ويعبد الناس الناس . وفى المنهج الإسلامي – وحده – يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك ...

و الاسلام حين يجعل الشريعة لله وحده ، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويعلن تحرير الإنسان ، بل يعلن " ميلاد الإنسان " .. فالإنسان لا يولد ، ولا يوجد ، إلا حيث تتحرر رقبته من حكم إنسان مثله ، وإلا حين يتساوى فى هذا الشأن مع الناس جميعًا أمام رب الناس ....

هذه بديهية .. يشرّع غير الله للناس .. فإذا هم عبيد من يشرّع لهم . كائنًا من كان . فردًا أو طبقة ..

ويشرع الله للناس .. فإذا هم كلهم احرار متساوون ، لا يحنون جباههم إلا لله ، ولا يعبدون إلا الله .. " (٢) .

فالحرية هى منحة الله وأمانته التى استودعها إياه ، ولا يصح للإنسان أن يفرّط فيها ..

" ومن هنا كان من آكد الحريات التى حرص عليها الإسلام بعد حرية الذوات والأبدان ، حرية الآراء والأقوال ، .. فالحرية أصل الإعتقاد إذ لا إكراه فى الدين ، فالتحكم منتف ومحرم فى الشرع أصلًا عقيدة ومعاملة " (١)

.. بل ذهب الإمام الشافعي إلى أنه إذا أسلم أحد الزوجين لا يجوز عرض

---

(٢) فى ظلال القرآن – سيد قطب – ج ٢ ص ٨٩٠ ، ٨٩١ .

(١) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية – بن زغيبة عز الدين – ص ٢٠٩ .

الإسلام على الآخر ، وعلل الشافعي ذلك بقوله : " إن فى هذا العرض تعرضًا لهم ، وقد ضمنا بعقد الذمة أن لا نتعرض لهم " (٢)

وهكذا لا بد من " اعتبار حرية الإنسان حقًا معنويًا له ، وهو بفقده يصير معدوم الإرادة ، مسلوب الشخصية ، .. ومن ثم حرص الإسلام على توفيرها لكل فرد من أفراد الأمة ، فهو بذلك جعلها ضمن الكفّارات فى كثير من الأفعال ، ومصاريف الزكاة ، ومن أفضل أعمال البر ، وانطلاقًا من هذا الحرص الذى أظهرته الشريعة على إقامة الحرية ، كان جديرًا بنا اعتبارها ضمن كليّات الضروري ." (٣) .

وعدّ بعض الأصوليون ضرورات الدين ستًا : الدين والنفس والعقل والنسل والمال والحرية(٤) .. فجعل " الحرية " من الضروريات .. وقد عرفها بأنها : "إنسجام فطري بين سلوكيات الإنسان والتكاليف الشرعية بذات حرة وإرادة مستقلة غايتها تحقيق الصالح العام فى الدنيا والآخرة ")(٥) .

بل إننا قد لا نكون مجاوزين للحقيقة إن قلنا أن غياب الحرية هو غياب لتوحيد الله سبحانه وتعالى ، ذلك أن حقيقة التوحيد أن لا يخشى الإنسان الموحّد إلا الله ، ولذلك فسّر الطبري رحمه الله تعالى قول الله سبحانه : " لا يشركون بى شيئًا " بأن معنى لا يشركون بى شيئًا : أنهم لا يخافون غيري من جبابرة السلاطين والأشخاص " (١) .

---

(٢) المصدر السابق – ص ٣٠٩ .

(٣) المصدر السابق – ص ٣٨٢ .

(٤) المصدر السابق – ص ٢٠٤ .

(٥) المصدر السابق – ص ٢٠٤ .

(١) راجع إن شئت تفسير الطبري ج ١٨ ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

قصـــة رمزيــة ..

يقول محمد إقبال في كتابه " أسرار خودي " في افتتاح الكتاب :

" رأيت البارحة شيخًا يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلًا ، كأنه يبحث عن شيء ، قلت له : يا سيدي ! تبحث عن ماذا ؟ ، قال : مللت معاشرة السباع والدواب ، وضقت بها ذرعًا ، وخرجت أبحث عن " إنسان " في هذا العالم ، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام ، الذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال ، وبطل من الأبطال ، يملأ عيني برجولته وشخصيته ، وبروح نفسي .

قلت له : لقد غرتك نفسك يا هذا ! فخرجت تقتنص العنقاء !! بالله عليك لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدت نفسي ، وأنضيت ركابي ، ونقبت في البلاد ، فلم أر هذا الكائن عينًا ولا أثرًا ، قال الشيخ : إليك عني ، أيها الرجل ! فأحب شيء إلى نفسي ، أعزه وجودًا وأبعده منالًا "

أين هذا الإنسان الصالح الذي لا يرى تقدمه في استعباد العباد ، وقهر النفوس .. أين هذا الإنسان الذي يسعى بكل إخلاص من أجل الإنسان كل الإنسان ، في الأرض كل الأرض ..

يحاول أن يخرج الشعوب والأمم من عبودية البشر ، وعبودية المال ، وعبودية القوة ..

ويردد ما قاله ربعي بن عامر " الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام؟ " (١)

---

(١) البداية والنهاية – ابن كثير – ج ٧

أين هذا الإنسان الذى يدرك أنه ليس السبيل الحق أن تخلّص الأرض من " يد طاغوت روماني أو طاغوت فارسي ، إلى يد طاغوت عربي . فالطاغوت كله طاغوت ! إن الأرض لله ، ويجب أن تخلص لله . ولا تخلص لله إلا أن ترتفع عليها راية : " لا إله إلا الله " . وليس الطريق أن يتحرر الناس في هذه الأرض من طاغوت روماني أو فارسي ، إلى طاغوت عربي . فالطاغوت كله طاغوت !

ويعلم أن " الناس عبيد لله وحده ، ولا يكونون عبيدا لله وحده إلا أن ترتفع راية : " لا إله إلا الله " - لا إله إلا الله كما يدركها العربي العارف بمدلولات لغته: لا حاكمية إلا الله ، ولا شريعة إلا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله ، ولأن " الجنسية " التي يريدها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة، التي يتساوى فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله . (٢)

" عن أبي عثمان الهمدي قال : لما جاء المغيرة إلى القنطرة ، فعبرها إلى أهل فارس ، فأجلسوه . واستأذنوا رستم فى إجازته ، ولم يغيّروا شيئًا من شارتهم تقوية لتهاونهم ، فأقبل المغيرة ابن شعبة والقوم فى زيهم ، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وبسطهم على غلوة (والغلوة مسافة رمية سهم ، وتقدر بثلاثمائة أو أربعمائة خطوة) لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة ، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى يجلس على سريره ووسادته ، فوثبوا عليه فترتروه وأنزاوه ومغثوه.. فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قومًا أسفه منكم. إنّا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضًا... فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى. وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبروني أن

(٢) راجع إن شئت " معالم فى الطريق – سيد قطب – فصل : طبيعة المنهج القرآني

بعضكم أرباب بعض .. "

كذلك وقف ربعي بن عامر مع رستم هذا وحاشيته قبل وقعة القادسية...

" أرسل سعد بن أبي وقاص قبل القادسية ربعي بن عامر رسولًا إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم . فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير . وأظهر اليواقيت واللآلىء الثمينة العظيمة . وعليه تاجه . وغير ذلك من الأمتعة الثمينة . وقد جلس على سرير من ذهب . ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة . ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد . وأقبل وعليه سلاحه وبيضته على رأسه . فقالوا له : ضع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم . وإنما جئتكم حين دعوتموني . فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت . فقال رستم : ائذنوا له . فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق لخرق عامتها . فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . " (١)

إنه رضي الله عنه كان يشعر أن الله ابتعثه ليقدّم حقيقة هذا الدين الذى يكرّم الإنسان ن ويخرجه من ذل العبودية لغير الله ، إلى عبودية الله وحده ، ومن الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .... وهذا الشعور هو السر فى انطلاقته العظيمة .

نعم هذا " البدوي " يرى أن إمبراطورية فارس " ضيق الدنيا " .. وهي كذلك لأنها قفص عبودية .. والقفص يبقى قفصًا ، وإن كان ذهبًا .. فأسلاكه الذهبية لا تمنع عنه صفة الأسر لمن فيه ..

ومن هنا يؤكد لهم " أتينا نرثى لكم أيها الفرس .. نرثى لحالكم .. أيها

(١) معالم فى الطريق – سيد قطب – ص ١٨٣ .

الأشقياء .. أتينا لنخلصكم من هذا القفص الذهبي الذي تشدون فيه وتغردون، ..

نخرجكم منه إلى الحرية ..

لا يستعبدكم عبيدكم ..!!

أتينا نخرجكم من كل هذه العبوديات التى لا يحصيها إلا الله ..

إن الإسلام يجعل الشريعة لله وحده ، وبذلك يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويعلن تحرير الإنسان ، بل يعلن " ميلاد الإنسان " .. فالإنسان لا يولد ، ولا يوجد ، إلا حيث تتحرر رقبته من حكم إنسان مثله، وإلا حين يتساوى فى هذا الشأن مع الناس جميعًا أمام رب الناس ..

قد نسمع البعض الآن يؤكد : إني لا أفتقد الحرية !!

وأنا أؤكد معه ذلك !! فالإنسان لا يفتقد أبدًا شيئًا لم يحصل عليه ..

ولا يشعر بالأسى إلا من ذاق السعادة .. وذكرى الفرح المنقضي تأتي فقط مع الألم ..!!

إن موضوع الحريّة من الموضوعات التى هجرت فى البحث والبيان .. و لذلك يصعب على الإنسان التوجه إلى بحثها وفهمها .. وحتى إذا بحثها ، فربما يعجز عن تفهيمها للآخر الذى يسمع منه هذا الأمر ، وكأنه يسمع إلى مجنون يهذى..!!! إن الكثيرين لا يفهمون الحرية إلا أنها لون من ألوان الانطلاق من جميع القيود !! وتلك فى الحقيقة كارثة كبرى ، ذلك أنها فى الحقيقة عبودية تتخفى فى ثوب " الحرية " فتبدو انطلاقًا من جميع القيود، انطلاقًا من العرف والتقاليد، انطلاقًا من تكاليف الإنسانية في هذا الوجود!

إن هناك فارقًا أساسيًا بين الانطلاق من قيود الذل والضغط والضعف، والانطلاق من قيود الإنسانية وتبعاتها. إن الأولى معناها التحرر الحقيقي، أما الثانية فمعناها التخلي عن المقومات التي جعلت من الإنسان إنسانًا وأطلقته من قيود الحيوانية الثقيلة .

إنها حرية مقنعة؛ لأنها في حقيقتها خضوع وعبودية للميول الحيوانية، تلك الميول التي قضت البشرية عمرها الطويل وهي تكافحها لتخلص من قيودها الخانقة إلى جو الحرية الإنسانية الطليقة.

" ولا اريد هنا ان اناقش خرافة " الحرية " فى القرن العشرين ، وهو القرن الذى شهد فى اوروبا خاصة افظع دكتاتوريات التاريخ فى السياسة والاقتصاد ، والذى يستعبد الفرد " للدولة " باسم التحرر من الجوع و الصراع الطبقى ! ولا خرافة التحرر من الخوف ، والعالم يعيش فى أسوأ فترة من الفزع و الاضطراب مرت به منذ فجر التاريخ . ولا خرافة السيطرة على قوى الكون، والانسان فى سبيل ان يدمر حياته بنفسه ، بالصواريخ الموجهة والقنابل الذرية ، قبل أن تتم له السيطرة على قوى الكوكب الضئيل الذى يعيش فيه ، فضلا عن الكون الواسع العريض !

لن اناقش هنا هذه الخرافات ....ولكنى فقط اناقش الخرافة الأخرى .. خرافة الشعور بالحرية حين ينفلت الانسان من قيود الاخلاق ..!!

أنظر إلى هذا الفتى المملوء بالقوة والحيوية .. وهذه الفتاة المتوفزة التى ينطلق من جوارحها نداء الحياة

لقد احس بالرغبة فيها ... رغبة طبيعية .. رغبة الحياة ! وأحست كذلك بالرغبة فيه .

وانطلقت رغبتان متجاوبتان فأطاعتا هاتف الجنس ، وحققت كل منهما كيانها متحررين من القيود !

وهذا شخص آخر لا يشاركهما فيما ينطلقان إليه من " تحرر " .. ؟!!

لا يشاركهما عن عقيدة .، أو لا يشاركهما لأنه لا يجد " الآن " رغبة فى هذا اللون من المتاع . أو لا يشاركهما لأنه لا يجد السبيل !

لا يعنينى ! المهم أنه متفرج يسجل ما يرى أمامه من الأحداث ... فما الذى يراه ؟ إنه يرى صورة أخرى لا يراها الفتى ولا الفتاة !

إنه يرى الحبل الممدود الذى ينجر منه الفتى وتنجر منه الفتاة ! حبل الشهوة.

حبل الرغبة الجامحة التى انقاد لها كل منهما بلا وعى . حبل غليظ لايملك كل منهما الفكاك منه ،لأن قوتهما ضئيلة بالقياس إليه ، أو لأنهما لا يقاومان !

هذا الحبل لا يراه الفتى لأنه بالنسبة إليه كالمغناطيسية قوة غير منظورة ، يندفع إليها طائعًا مختارًا لأنه هو الذى يريد !ويراه الشخص المتفرج غليظًا مجسمًا ، لأنه بعيد ـ أومبعد ـ عن مجاله ،فهو غير متأثر به ، ولذلك يراه !

أي الوجهين هو الحقيقة ؟

ثم نقلب الصورة ...

هذا فتى يواجه الاغراء بقلب رابطة وقوة ضابطة . يراه وينصرف عنه . ويوجه طاقته الفائرة فى مجال جديد . ويحس أنه " متحرر " !! متحرر من ضغط الشهوة . متحرر من الانقياد لهذا الحبل الذى يخزم الأنوف فتنقاد ، متحرر من إطاعة هذا الهاتف . متحرر يتوجه بطاقته حيث يريد !

وهذا شخص آخر يتفرج من بعيد دون أن يشارك هذا الفتى عقيدته، فما الذي يراه ؟

إنه يرى صورة أخرى لا يراها هذا الفتى (المتحرر)

إنه يرى القيد مجسمًا غليظًا .. ويرى الحبل الذي يكتف هذا الفتى فيمنعه من الحركة ويزجره عن الإنطلاق .. هذا الحبل الذي لا يراه الفتى لأنه يحس أنه قيّد نفسه باختياره، هو الذي يريد ذلك ..!! ليس الحبل هو الذي يمنعه من إجابة الهاتف، ولكنه هو يتجه بعيدًا عنه لأنه لا يريده .

أي الوجهين هو الحقيقة ..

لا أريد أن أحيّر القارئ بين الوجهين المتناقضين .. سأريحه، سأقول له إن كلا الوجهين هو الحقيقة .. القيد والحرية .. حقيقتان متجاورتان .. بل حقيقة واحدة ذات صورتين ...

..... قيود الإنسان إسمها الفضيلة أو اسمها العقيدة

وقيود الحيوان إسمها الغريزة أو اسمها الشهوة أو اسمها المتاعع الغليظ

والانسان " حر " بعد فى أن يظل إنسانًا أو يعود إلى حظيرة الحيوان..(١)

أما نحن فنؤكد أن النفس البشرية لن تسعد أبدًا، ولن يطيب لها عَيش وهي مستعبدة من أحد غير خالقها، حتى ولو ملكت ما في الأرض جميعا.. ستظل هكذا حائرة، تائهة، طريدة، تصرخ من الآلم، وتضحك كالمجنون وتجري كالمطارد، وتعربد كالسِكير.. تبحث عن لا شيء، وتجري وراء أخيلة، وتقذف بأثمن ما تملك، وتحتضن أقذر ما تمسك به يداها من تفاهات.. ثم تسأل ـ إن فاقت من نومها العميق ـ كيف حدث لها هذا؟ وما هذه اللعنة التي

---

(١) فى النفس والمجتمع - محمد قطب - ص ١٨٧ - ١٨٩

أصابتها ؟ فتدرك أنها فقدت حريتها ، ومن ثم فقدت قيمة حياتها ..!!

• الهـــــروب إلى الحــــريّة :-

عندما ينغلق أحد الطرق الموصلة للهدف ، تنفتح طرق أخرى .. وأولوا الألباب هم الذين يجدون عندها ما يمكن عمله .. فماذا يمكننا عمله حتى نخرج مما نحن فيه من استبداد ؟!

إن الخطوة الأولى فى الطريق إلى الحريّة هى : الوعي بـ " كيف " يعمل الاستبداد ؟

إن المستبد لا يعمل منفردا بل تتعاون معه عصابة قليلة العدد تتقاسم معه الأرباح والجريمة ..

والخروج من استبداده فى جملتين اثنتين " الشعور بالحاجة إلى التحرر ، وتصور البديل لحياة الاستعباد " .. ذلك أن الأمة التى لا تشعر بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية ... كما أنه لا يقوم مهندس عاقل بهدم البيوت القديمة ، ليترك أصحابها تحت المطر والريح ، بل هو يهيء البيوت الجديدة ، فإذا انتقل السكان إليها لم يرجعوا إلى القديم قط ..

لقد حاول الكواكبي قبل قرن أن يضع ثلاث معادلات للخلاص من الاستبداد: " أن الأمة التي لا تشعر بالحرية لا تستحقها، وأن التغيير يتم بالتدريج واللين، وأنه ليس المهم استبدال الحاكم .. وإنما تقويض الإستبداد.. تقويض الطغيان ، كل الطـغيـان ، وليس زحـزحـة تاج الطاغية إلى طاغية آخر.. "(١)

(١) طبائع الاستبداد – الكواكبي .

إن الناس حينما تبتلعهم مشاغلهم اليومية.. ويغرقون في مستنقعاتها الآسنة.. لا يشعرون بأدنى حاجة للحريّة ، فضلًا عن أن يبدوا أدنى رغبة فى التضحيّة لأجلها ؟!!

- وقصة أصحاب الأخدود مع الغلام المؤمن خير شاهد ...

لقد كان القوم أهل كفر.. يعبدون غير الله.. ملكًا جبارًا.. زادهم غرقًا وانقيادًا لعالم المادة..

وفي مثل هذه الظروف العصيبة.. وهذا الظلام الدامس.. يأبى الله العزيز الحكيم.. إلاّ أن تبقى قلّة من الناس.. يرفضون الانسياق.. ويتواصون بالحق الذي بين أيديهم..

وكان من عناية الله بالفتى.. أن عثر على أحدهم.. وعنه تعلّم الدين الحق.. وتجنّد لحمل أعباء الإيمان به.. في زاوية متطرّفة.. بعيدًا عن أعين الناس..

والناس.. لا يزالون في غيّهم يعمهون..

حتى جُمعوا في صعيد واحد.. بأمر الملك.. ليشهدوا قتل الغلام !!..

مقيّدًا كان.. والملك يرميه سهمًا.. تلو سهم.. دون أن يصيبه !!..

فقدَ الملك توازنه.. وبدا وكأن الناس لا يقوون على تصديق أن إلههم عاجز عن قتل غلام !..

وفي قمّة انفعال الملك.. واضطرابه.. أدرك الغلام أن الفرصة حانت لجعل المكر يحيق بأهله.. فنادى في الملك على مسامع الجميع.. أنك لن تقتلني إلاّ باسم ربّي..

ولم يتأخّر رأس الكفر.. وأطلق سهمه.. وقتل الغلام.. فاستفاق الناس

على حقيقة كبيرة.. هزتهم من أعماقهم.. "هنالك رب أقوى من الملك".. هذا يعني أنه أولى بالعبادة والرضوخ له.. وأنهم ليسوا مرغمين على بذل الخنوع والذل الذي يقتات عليه ملكهم منذ أن استخف عقولهم.. ومرّغ كرامتهم في التراب..

لماذا كان هذا هو رد فعلهم؟

لأنهم .. لم يتلقّوا الحقيقة في مجالس باردة.. و لم يتلقوا الحقيقة من كلمات وحروف جافة ميتة.. لا حركة معها.. بل تلقوها.. حيّة تنتفض.. مختلطة بدماء أصحابها..

كان أمام الغلام عشرات الخيارات الأخرى الأقل تكلفة.. لكنه اختار أشدّها وقعًا في النفوس !!.. اختار ما تهابه النفوس غالبًا ولا تقوى على بذله!!..

بل حتى وإن كان قد عزم على الموت في سبيل فكرته التي يؤمن بها.. فقد كان بإمكانه أن يطلب الشهادة في عرض البحر.. أو على الجبل حين همّوا برميه..

لكنه ما كان يبحث عن الخلاص لنفسه وحسب.. بل كان يعيش لقومه وأمته.. وكيف يجعلهم يهتزّون بقوة.. لهذا فقد عاد يمشي إلى الملك بنفسه.. ليطلب الموت والشهادة بالكيفية التي سيهب بها الحياة لأطلال الركام التي اجتمعت لتشهد فناءه..

فما أذكى الغلام .. وما أتعسنا..

إن أكثرنا – كآباء ومربين – يقلّب وجهه فى السماء ، ويعمل فكره فى الكون باحثًا عن السبب الذى يجعل تربيتنا لا تصيب هدفها ، وكلماتنا لا تأتي

بتأثيرها التربوي المطلوب ؟

.. ونحن إذا أردنا الحقيقة ، لا تنقصنا الكلمات ، وإنما تنقصنا " روح " الكلمات ..

إننا نمنح أبناءنا ما عندنا من خبرة ووعي في صورة ذهنية باردة !! فلا يشعرون بها نديّة رطبة بعرق جهودنا ..

بينما الواجب أن نجعل هؤلاء الأبناء يدركون أننا بذلنا جهدًا كبيرًا ، وسهرنا الليالي الطوال حتى ننتزع لهم نسخة من أعماق ما نحمله ونؤمن به ..

إن الأفكار التى لم تقطف إلا شوك العبودية ، لا ينتظر منها أبدًا أن تعطينا رحيق التحرر !!

إن هذه الأفكار الميّتة ليس لها مكان أليَق بها إلا مقابر الفكر .. فهذا هو أكرم مكان لجثث الموتى ..

إننا فى أمس الحاجة لأفكار تبث روح الأمل فى أبنائنا ، وتبعث فيهم القيم الحضارية ، وعلى رأسها قيمة العدل والحرّية .. تلك القيمة العظيمة التى لا يستحقها إلا من " يغزوها " ويقتحمها ، ويكافح فى سبيلها كل يوم ..

إننا لا بد أن نربأ بأبنائنا عن هذه الرزيلة التعيسة .. رزيلة " العبودية " لبشر من البشر .. بل عن هذا المسخ من مسوخ الرزيلة التى لا يستحق حتى اسم الجبن ، ولا يوجد فى اللغة كلمة تعبّر عن قبحه تعبيرًا كاملًا .. بل إن اللغة ربما تأبى تسميته!!!

إن الـقـرآن يـعـلـمـنـا أسباب هذا الإستعباد ، ومن الجاني فيه ، ومن الضحية؟ .. وهو يؤكد أن ما يقع لنا إنما هو بما كسبت أيدينا .. ويعلمنا

الطريق إلى الخروج منه .. إن الله لا يغيّر ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم " ..

تفكّروا معي يا أبنائي ، .. هل يمكن لغلام أن يقود جملًا إلا أن يكون الغلام يحمل من الوعي ما يفقده الجمل ؟

.. وبالمثل .. لا يمكن لطاغية أن يقعد على رقبة أمة إلا أن تكون هذه الأمة تملك استعدادًا للعبودية " القابلية للإستعباد " ...

إن الإنسان باختياره وإرادته يتنازل عن حريّته !! .. بل لو أن الظفر بحريّته كان يكلفه شيئًا لم نحثه على السعي إليها .. ولكن نوال الحريّة لا يتطلب من كل إنسان إلا أن يرغب فيه ويريده !!

إن من يستقرىء وقائع التاريخ وسجلات الماضي يتأكد لديه أن من عقدوا العزم على الخروج من عبودية الطغاة ، وبذلوا الجهد فى سبيل ذلك نجحوا فى الوصول إلى أهدافهم ..

كان بلال بن رباح رضي الله عنه عبدًا .. حسب قانون المجتمع الذى يعيش فيه .. ولكنه كان يمارس الحريّة .. حين كان يعلن " أحد .. أحد " ، وهو تحت التعذيب .. كان يمارس الحريّة بشكل قد لا يقدره من يعيشون فى عالم ألغيت فيه العبودية " قانونيًا " ؟!!!

لقد كان " سيد قطب " يمارس الحريّة حين " بذلت السلطات الحاكمة فى مصر محاولات جاهدة يائسة للحصول منه على موقف تراجع ، أو كلمة اعتذار ، أو صيغة تأييد لها فى حكمها . وعرضوا عليه مغريات مادية كثيرة ، وساوموه مساومات عديدة ، منوّه أن يعطوه كل ما يريد من متع دنياهم .. ولكنه استعلى على هذه المغريات بإيمانه ، وثبت على طريقه بتثبيت الله سبحانه

وتعالى . وترك لهم دنياهم ومغرياتها ، وآثر أن يذهب إلى ربه شهيدًا عزيزًا كريمًا. إختار الدار الآخرة الباقية على الدنيا الفانية .

وأطلق عبارات تقطر عزة وكرامة ، وإيمانًا ويقينًا ، وثباتًا واستعلاء . منها قوله : " إن حكمت بحق فأنا أرضى حكم الحق ، وإن حكمت بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل " .. وقوله : " إن إصبع السبابة الذى يدين لله بالوحدانية فى الصلاة ، ليرفض أن يكتب حرفًا يقر به حكم طاغية " .. وقوله : " إن الأعمار بيد الله ، وهم لا يستطيعون التحكم فى حياتي .. " (١)

.. وأسدل الستار على آخر مشهد من حياة الرائد الشهيد فى هذه الدنيا الفانية .. وبدأ عند ربه حياته الحقيقية فى جنات الخلود ، التى طالما تشوقت روحه إليها ..

علو فى الحياة وفى المهات لحق تلك إحدى المكرمات

وكان مما كتب رحمه الله .. " ليس العبيد هم الذين تقهرهم الأوضاع الاجتماعية ، والظروف الاقتصادية ، على أن يكونوا رقيقًا ، يتصرف فيهم السادة كما يتصرفون فى السلع والحيوان ، إنما العبيد الذين تعفيهم الأوضاع الاجتماعية والظروف الاقتصادية من الرق ، ولكنهم يتهافتون عليه طائعين !

... العبيد هم الذين يقفون بباب السادة ، ويتزاحمون وهم يرون بأعينهم كيف يركل السيد عبيده الأذلاء فى الداخل بكعب حذائه ، وكيف يطردهم من خدمته دون إنذار أو إخطار .. كيف يطأطئون هاماتهم له فيصفع أقفيتهم

(١) سيد قطب الشهيد الحي – صلاح عبد الفتاح الخالدي – ص ٢٥ .

باستهانة ، ويأمر بإلقائهم خارج الأعتاب ، ولكنهم بعد هذا كله يظلون يتزاحمون على الأبواب يعرضون خدماتهم بدل الخدم المطرودين ، وكلما أمعن السيد فى احتقارهم زادهم تهافتًا كالذباب !!

العبيد هم الذين يهربون من الحرية ، فإذا طردهم سيّد بحثوا عن سيد آخر ، لأن فى نفوسهم حاجة ملحة إلى العبودية . لأن لهم حاسة سادسة .. أو سابعة ، حاسة الذل .. لا بد لهم من إروائها ، فإذا لم يستعبدهم أحد أحسّت نفوسهم بالظمأ إلى الاستعباد ، وترامو على الأعتاب ، يتمسحون بها ، ولا ينتظرون حتى الإشارة من إصبع للسيد ، ليخروا له ساجدين !!

العبيد هم الذين إذا أعتقوا وأطلقوا حسدوا الأرقاء الباقين فى الحظيرة ، لا الأحرار المطلقى السراح ، لأن الحرية تخيفهم ، والكرامة تثقل كواهلهم ، لأن حزام الخدمة فى أوساطهم هو شارة الفخر التى يعتزون بها ، ولأن القصب الذى يرصع ثياب الخدمة هو أبهى الأزياء التى يتعشقونها !!

العبيد هم الذين يحسون النير لا فى الأعناق ، ولكن فى الأرواح ، الذين لا تلهب جلودهم سياط الجلد ، ولكن تلهب نفوسهم سياط الذل . الذين لا يقودهم النخاس من حلقات آذانهم ، ولكنهم يقادون بلا نخاس ، لأن النخاس كامن فى دمائهم .

العبيد ، هم الذين لا يجدون أنفسهم إلا فى سلاسل الرقيق ، وفى حظائر النخاسين ، فإذا انطلقوا تاهوا فى خضم الحياة وضلوا فى زحمة المجتمع ، وفزعوا من مواجهة النور ، وعادوا طائعين يدقون أبواب الحظيرة ، ويتضرعون للحراس أن يفتحوا لهم الأبواب !! ...

..... " إن بعض النفوس الضعيفة يخيّل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق ، فتختار الذل والمهانة ، هربًا من هذه التكاليف الثقال ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة ، مفزعة قلقة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها ، يحسبون كل صيحة عليهم ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ..

هؤلاء الأذلاء يؤدون أفدح من تكاليف الكرامة ، إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة . يؤدونها من نفوسهم ، ويؤدونها من أقدارهم ، ويؤدونها من سمعتهم ، ويؤدونها من اطمئنانهم ، وكثيرًا ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون..!! " [1].

إن للعبودية ضحاياها ، وهي عبودية .. أفلا يكون للحرية ضحاياها ، وهي الحرية .. هذه حقيقة .. وتلك حقيقة ..

نعم .. قد تدمى قبضة الحرية ، ولكن الضربة القاضية دائمًا تكون لها ، وتلك سنة الله فى الأرض ، لأن الحرية هى الغاية البعيدة فى قمة المستقبل .. والعبودية هى النكسة الشاذة إلى حضيض الماضى ؟

والمستقبل للأحرار ، لا للعبيد ولا للسادة الذين تتمرغ على أقدامهم العبيد .

و آجلًا أو عاجلًا يظهر أفراد يشعرون بوطأة الذل والقيد ، ولا يرضون لأنفسهم الخضوع ، ولا يكتفون بالنظر إلى موطىء أقدامهم .. يتعشقون الحرّية حتى أنها لو انمحت من وجه الأرض لتخيلوها وتذوقوها ؟!!!

حتى تصبح " الحريّة " هي حياتهم .. و تروى ألسنتهم حوار النفس بين اختياري العبودية والحريّة :

---

(١) دراسات إسلامية – سيد قطب – ص ١٢٤ – ١٢٧

..ويدور همس فى الجوانح: ما الذي بالثورة الحمقاء قد أغراني ؟
أو لم يكن خيرًا لنفسي أن أُرى مثل الجموع أسير فى إذعان

*****

هذا حديث النفس حين تشف عن بشريتي وتمور بعد ثوان
وتقول لي : إن الحياة لغاية أسمى من التصفيق للطغيان

*****

..أهوى الحياة كريمة، لا قيد، لا إرهاب ، لا استخفاف بالإنسان
فإذا سقطت، سقطت أحمل عزتي يغلي دم الأحرار فى شرياني (١)

نعم ... إن حرية الإنسان مرتبطة بحياته ، فإذا فقد الإنسان حريته، فقد ذاته ، فلماذا ندهش حين نسمع قصص الشجاعة التى تملأ بها الحريّة قلوب المدافعين عنها ؟

إن الشهام لا يخشون الخطر من أجل الظفر بمطلبهم..

ولا يريد العبودية إلا من استعبدتهم الشهوات ..

والطغيان داء عضال إذا أصاب أمة حوّلها إلى قطيع من البؤساء اليائسين الخائفين المتملقين ..

وأمتنا اليوم تغلي فى قدر العبوديّة .. وتتطلع إلى الحريّة مرددة أنشودة الحريّة ..

---

(١) من ديوان الشاعر / هاشم الرفاعي .

أنشودة الحريّة ..

أخبرنا أستاذي يومًا عن شيء يدعى الحرية
فسألت الأستاذ بلطف أن يتكلم بالعربية
ما هذا اللفظ وما تعنى وأية شيء حرية
هل هي مصطلح يوناني عن بعض الحقب الزمنية
أم أشياء نستوردها أو مصنوعات وطنية
فأجاب معلمنا حزنًا وانساب الدمع بعفوية
قد أنسوكم كل التاريخ وكل القيم العلوية
أسفي أن تخرج أجيال لا تفهم معنى الحرية
لا تملك سيفًا أو قلمًا لا تحمل فكرًا وهوية

*****

وعلمت بموت مدرسنا في الزنزانات الفردية
فنذرت لئن أحياني الله وكانت بالعمر بقية
لأجوب الأرض بأكملها بحثًا عن معنى الحرية

*****

وقصدت نوادي أمتنا أسألهم أين الحرية
فتواروا عن بصري هلعًا وكأن قنابل ذرية

ستفجر فــوق رؤوسهم — وتبيد جميع البشريــة
وأتى رجل يسعى وجلًا — وحكــا همسًا وبسرية
لا تسأل عن هــذا أبــدًا — أحــرف كلماتك شوكيــة
هذا رجس ، هــذا شــرك — في دين دعــاة الوطنيــة
ارحــل فتراب مدينتنــا — يحوى أذانًــا مخفيــة
تسمع مــا لا يحكى أبدًا — وترى قصصًا بوليسيــة
ويكون المجــرم حضرتكم — والخائن حامي الشرعيــة
ويلفــق حولــك تدبير — لإطاحــة نظم ثوريــة
وتســاق إلى ساحات الموت — عميــلًا للصهيونيــة
واختتــم النصح بقولته — وبلهجتــه التحذيريــة
لم أسمــع شيئًا لم أركــم — ما كنــا نذكــر حريــة
هل تفهم؟ عندي أطفــال — كفــراخ الطــير البريــة

*****

وسألت المغتربين وقــد — أفزعني فقــد الحريــة
هل منكم أحد يعرفهــا — أو يعرف وصفًــا ومزيــة
فأجاب القوم بآهــات — أيقظْتَ همومًــا منسيــة
لو ذقناها ما هاجرنـــا — وتركنا الشمــس الشرقية
بل طالعنا معلومــات — في المخطوطــات الأثرية

أن الحـريـة أزهـــــــار ولهـا رائـحــــة عطريـة
كانت تـنـمـو بمدينـتـنـا وتفوح عـلـى الإنسانيـة
ترك الحـــراس رعايتهـا فرعـتـهـا الحمر الوحشـيـة

*****

ووقفت بمحـراب التاريخ لأسألــه مــا الحـريـة
فأجاب بصوت مـهـــدود يشكو أشكال الهمـجـيـة
إن الحريـــة أن تحيـــا عــبـــدًا لله بكـلـيـــة
وفق القرآن ووفق الشـــرع ووفق السنن النـبـويـــة
لا حسب قوانين طـغـــاة أو تشريعات أرضيـــة
وُضِعت كي تحمي ظــلامًا وتعيد القيم الوثـنـيـــة

*****

الحريـــة ليست وثـنـــًا يغسل في الذكرى المئوية
ليست فحشًا ليست فُجْرًا أو أزيـــاء باريـسـيــــة
الحريـــة لا تُستجـدي من سوق النقد الدولـيــة
والحريــة لا تمنحــهـــا هيئــات البر الخـيـريـــة
الحريـــة نـبـت يـنـمـــو بدمــاء حـــرة وزكـيــة
اسمع ما أملي يـــا ولـــدي وارويــه لكـل البشريــة

إن تغفل عن دينك يـومـًـا فلـقـد ودعـت الحـريـة[1]

.. نعم – يا بنيّ – إن تغفل عن دينك يومًا ، فلقد ودعت الحريّة .. وأصبحت عبدًا باختيارك ..!!

يا بني .. نحن الذين نترك القيود تكبلنا .. بل إننا أحيانا نكبّل أنفسنا بأنفسنا..!!

وليس مطلوبًا منا لكي نبقى أحرارً إلا أن نمسك عن مساندة الطغاة .. عندها سنرى عجبًا .. سنراهم مكسورين مهزومين .. لا شبيه لهم إلا فرع من شجرة عدمت جذوره الماء والغذاء فجف وذبل ..

إن الطاغية لا يملك من السلطان إلا ما أعطيناه نحن ؟!! .. ليس له عيون يراقبنا بها إن لم نقرضه نحن هذه العيون ؟! .. ولا يملك الأكف التى يصفعنا بها إن لم يستمدها منا ؟ .. ولا يجد أقدامًا يدوسنا بها إن لم تكن من أقدامنا ؟ ..

إن الطاغية لا يقوى علينا إن لم يقو بنا !!!

فإذا كان الطاغية يستطيل علينا بانهزامنا أمامه ، فلنحاربه بتماسكنا .. وإذا كان يحتاج فى بقائه لمناصرتنا وموالاتنا ، فطريق إسقاطه هو منع النصرة والموالاة عنه..

يا بنيّ الحبيب ..

إننا نقدر على الخلاص من الطغاة إذا حاولنا – لا أقول العمل علي ذلك – بل مجرد الرغبة فيه ..

---

(١) من قصيدة لـ " محمد نموس " بمجلة البيان ، العدد ٢٦

ليس مطلوبًا منا أكثر من " الامتناع " عن مساندة الطاغية ، و عندها يسقط كتمثال سحبت قاعدته فهوى على الأرض بقوة وزنه وحدها فانكسر..!!!

إن الاستعباد شجرة خبيثة .. وهي ليست للبقاء لأنها ضد الحياة .. وهى لا بد ساقطة فى النهاية تحت ثقلها الخاص .. وكلما اشتد الظلام اقترب الفجر ، وكلما ظهر الكمال على الطغيان كان إيذانًا بانبلاج الصبح ...

فلا يفتتنك – يا بني – " قافلة الرقيق وما فيها من عبيد تزين أوساطهم الأحزمة أ ويحلي صدورهم القصب ، ولتتطلع إلى موكب الأحرار ، وما فيها من رؤوس تزين هاماتها مياسم التضحية ، وتحلي صدورها أوسمة الكرامة ، ولتتابع خطوات الموكب الوئيدة فى الدرب المفروش بالشوك ، وكن على يقين من العاقبة ... فالعاقبة للصابرين ... [1].. " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين " ..

- **حتى نصنع الحضارة :**

حين يعيش الناس أجواء الحريّة ، يكون الإعتبار لـ " الجوهر " ، وتصبح مفردات الخطاب " أنا أحب .. أنا أرى» ..

أمّا حين يسيطر الإستبداد ، ويعيش الناس أجواء العبودية ، فإن " المظاهر " هى التى تكتسب السيطرة .. فتصبح مفردات الخطاب .. عندى سيارة ، ولى ثوب ،وعندى بيت عظيم ..

---

(١) دراسات إسلامية – سيد قطب – ص ١٢٧ بتصرف

إن من سمات الإنسان " الجوهر " الاستقلالية والحرية و حضور العقل النقدى . وهى صفات تدل على شىء واحد هو " عظم الذات " وتكاملها وقلة افتقارها الى الاضافات " والرتوش " الخارجية .

أمّا الانسان " المظهر " فهو يفقد غزارة الشخصية . ومن ثم فإن تشابهه مع الآخرين هو الطابع المهيمن عليه .واذا ما تجاوزت الطلاء الخارجى ، وجــدت نفـسـك أمـام إنـســـان بدائى فى فكره ومشاعره وتطلعاته !

وهذا هو درس التاريخ .. فحين شهد الاسلام إقبالًا متميزًا فى زمان عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – كان الرجل من رعيته إذا لقي الرجل يقول له : كم وردك الليلة ، وهل أنت صائم ؟

وحين سيطرت المظاهر فى عهد غيره كان الرجل يسال الرجل : أين خطت هذا الثوب ؟ وماذا أكلت أمس ؟ وما هو عشاؤك اليوم ؟!

و فى ظل سلطان الجوهر ينظر الناس إلى الأشياء من حولهم نظرة حفظ ورعاية ،حيث بذل الواحد منهم الكثير حتى حصل على ما يملك . ومن ثم فانهم يفتخرون بطول استخدامهم للآلة أو الجهاز ، على نحو ما كنا نراه عند الجيل السابق من أبناء المسلمين !!

أمّا حين يكون الاعتبار للمظهر فإن الناس يتسابقون فى استهلاك الأشياء وإتلافها و التخلص منها ، مع أن الواحد منهم قد يكون بذل شيئًا من كرامته فى سبيل الحصول عليها !!

ويصبح الشعار : أنا موجود بقدر ما أملك، وبقدر ما أستهلك ؛ فقد حولت الحضارة الحديثة الإنسان إلى رضيع أبدي لا يكف عن الصياح فى طلب زجاجة الرضاعة أبدًا !! [١]

ومن خلال هذا القانون الثابت .. قانون " الجوهر " .. و " المظهر " .. أو "الحريّة " .. و " العبودية " .. يقوم أعداؤنا باصطناع حاجات وهمية أو اهتمامات جديدة لنا تعتمد الروح الإستهلاكية لمنتجاتهم ..!!

وهكذا .. يدسّون لنا فى " عسل التكنولوجيا " ما يمكن أن نطلق عليه " سم العبث " !! حيث يملأون حياتنا بأدوات لا فائدة منها ، ويمكن الإستغناء عنها ؟!!

فنحن الآن – مثلًا – لدينا أطباق استقبال لأقمار صناعية من دول الشرق والغرب، ودول لا نكاد نعرف مكانها على الخريطة أو لغتها، لكن لها قنواتها، فهل نحتاج بالفعل إلى مشاهدة برامجها ؟!

وتنافست الشركات لطرح الأجهزة المحمولة التي تجدد كل بضعة أسابيع لترسل رسائل إلكترونية وصورًا وأغاني..

ولم يعد هدف الهاتف هو ذات الهدف الذى كان له قبل عشرين عاما .. لقد أصبح إحدى اللعب التكنولوجية الخادعة، اللعبة التي يمارسها الصغار والكبار على حد سواء، ويجدون في هذا " العبث " قمة التكنولوجيا، وهم يعتقدون أنهم يتحكمون في التقنية ويستخدمونها وفقًا لرغباتهم ومصالحهم !!!

---

(١) مستفاد من " انطلاقة حضارية شاملة " – د/ عبد الكريم بكّار – ص ١٠٨ .

إن هذا الأفراط التقني يؤدي إلى الإسراف والتبديد، إننا لا نتحدث عن هوى شخصي، وموقف فردي، قدر حديثنا عن مصير مجتمع تحكمه مثل هذه التصورات.

وإذن .. لم تعد الحاجات الطبيعية هي الهدف " مثل الحاجة إلى الطعام لسد الجوع " ، وإنما نشأت - بفضل التكنولوجيا الخادعة - حاجات جديدة، ويسعى الانفجار التقني إلى خلق هذه الحاجات دون توقف، ليبرر وجوده، ويؤكد حضوره، ويموّل مستقبله.

خذ مثالًا ..

طائرة الكونكورد ـ التي وفرت من ساعات الرحلة عبر الأطلنطي أربع ساعات طيران كاملة ـ ماذا يفعل العبيد بتلك الساعات المتوافرة ؟

هل كانوا يفكرون في تجربة إصلاحية جديدة ؟ هل كانوا يحاولون صنع شيئ مفيد ؟

أم أنهم ـ وهذا أقرب إلى الحقيقة ـ يتمتعون الآن بحرية السير دون أي هدف بفضل هذه الساعات المتوفرة ؟

لقد أصبح الإسراع في حد ذاته هو القيمة الأساسية، ونسي الناس السبب وراء السرعة ..!!

وخذ مثالًا آخر ..

التلفاز .. نحن نتابع على هذه الآلة فيضًا من المعلومات التي تفرزه التكنولوجيا بشكل عبثي يمضي دون هدف، لأن عدم ترابط هذه

البيانات المتدفقة والمصطنعة التي نتلقاها كل يوم يعوزها المنطق، والترابط بشكل كلي. ولا يكسبنا هذا الغزو المعلوماتي سوى العزوف عن المعلومات نفسها.

نتابع معركة هنا، وانقلابًا هناك، ومجاعة في الجنوب وفيضانًا بالشمال وزلزالًا يصيب الشرق وحريقًا يدمر الغرب والمحصلة النهائية أن التفكير في ذلك كله لا يتم بشكل منطقي، فقد محا الحدث الثاني آثار الحدث الأول، وطمست صور الحدث الثالث ما رآه المشاهد قبله، وغطى الحديث المصور عن الحدث الرابع ما جاء في السياق. *وهكذا يسيران – يدًا بيد – فيض من المعلومات مع ثقافة النسيان والغثيان..!!*

ويحدث أنه يثير حماسنا ولمدة أسابيع متواصلة حدث ما وأنباء منطقة بعينها، وتعرض علينا الصور ذاتها مرات ومرات وننفعل بما يحدث لأبنائنا في فلسطين وأشقائنا في الصومال. وإخوتنا في العراق والجزائر، ولكن يختفي ذلك وتسدل عليه ستائر النسيان لتحل صور أخرى وأخبار أخرى، لقد أصبح الأمر مجرد صور !! صور تمحو صورًا، صور للأخيار وصور للأشرار. وعلى التلفاز أن يبدلها حتى لا يصبح مملًا، وتنتهي أهمية القضية حين يتوقف التلفاز عن معالجتها.

وحتى أطفالنا المتابعين للتلفاز ، لا يجدون فيه إلا البرامج " المسلية " المليئة بالعنف والإثارة بكل أشكالها المادية المباشرة والخفية الخبيئة، وينفرون منه إذا ظهر ـ فجأة ـ برنامج به مسحة التعليمية !

ولا توفر هذه المعلومات السخية سوى حياة عمياء وحقائق صماء دون جذور تثبت في الوعي أو الذاكرة.

والواقع ـ إننا حين نصبح مستهلكين للمعلومات ـ وهذا ما يحدث ـ نعجز أن نكون أصحاب رأي أو قرار.

إن التكنولوجيا منحتنا الكثير، لكنها أخذت منا المبادرة في التفكير بحاجاتنا وأولوياتنا، وفقدنا معها الطمأنينة والأمان وربما القناعة .. [١]

ربما قال قائل من القراء ، وما علاقة هذا الكلام بتربية الأبناء ، والتعامل معهم .؟؟

ونحن نقول إن هذا الكلام وطيد الصلة بالتربية ، ذلك أن الدراسات النفسية تقدم لنا حقيقة يجب أن لاننساها في هذا المجال، وهي أن نوعية المعاملة وطبيعة التربية التي عاشها الافراد في طفولتهم لها الأثر الكبير على مواقفهم فى الحياة ، فمثلًا الاغراق في الحبّ والوداعة والدلال والميوعة ينتج في الغالب التفكير المهادن والسلوك الخانع ..!!

إن " العبيد " من الآباء الذين اغتصبت إرادتهم ، وغلّت أيديهم ، لا يملكون أدنى قدرة على توجيه أبنائهم إلى المقصد الحقيقي للحياة ..!!

أليس الاستبداد " يضطرهم " إلى الكذب والنفاق والتذلل ؟!!

أليس الخوف " يدعوهم " إلى تربية أبنائهم ليكونوا أعوانًا ، بل أنعامًا للمستبدين ؟!!

أليس الهوان " يأمرهم " أن يكونوا هم وأبناؤهم طوع أمر المستبد ، وزيادة فى مملكته ؟!!

---

(١) من مقال لـ " سليمان العسكري " - مجلة العربي .

كما أن مرض تحوّل البشر إلى آلهة وعبيد .. يمكن أن يتسرب إلى علاقة الزوج بزوجته ، والأب بأبنائه .. فقد يتعامل الزوج مع زوجته كما يعامل السيد عبده .. وقد يتعامل مع أبنائه كأنهم رقيق .. لا يمكن لواحد منهم أن يعترض عليه ، فكلماته لا معقب لها ، وإذا أراد شيئًا فلا يقدر أحد أن يرجعه عما نوى وأمر !!!

إننا حين نضع بذرة " الحريّة " فى قلوب أبنائنا نكون قد قضينا على أصل الشقاء المتجدد فى حياتنا .. ونكون قد لمسنا جذور الشجرة اللعينة التى لم تزل فى حياتنا تؤتي أكلها المرّ .. قهر الحاكم للمحكوم ، وخوف المحكوم من الحاكم، وغدر بعضنا ببعض وتسلط بعضنا على بعض .. ومن ثم ، تحوّل الحق فى الحياة الكريمة السوية اللائقة بالإنسان إلى لون من ألوان الأحلام مستحيلة التحقيق ..!!

إن أهم ما يجب عمله فى سبيل صناعة الحضارة هو تربية أبناء الأمة على معرفة دورهم تجاه المجتمع والأمة والإنسانية. والسعي فى رفع الإستبداد عن عقولهم ؛ لينطلق سبيلها في النمو فتمزق غيوب الأوهام التي تمطر بالمخاوف، وتبني حضارة الإسلام .

.. وبعـد :

فلست أزعم أنني قلت كل ما ينبغي أن يقال، فنحن في زمان يجعل ما يسكت عنه المرء – فى بعض الأوقات – أهم مما يقوله ..؟!! .. و يشبه الخوض فى بعض قضاياه الدخول إلى " جحور الأفاعي " !!

ولكني أطمع من وراء هذا الفصل من الكتاب أن أكون قد ألقيت حجرًا يحرّك مياه وعينا التربوي ، ليصبح قادرًا على اكتشاف جذور العبودية الغالبة على حاضرنا ، والمعوقة لمسيرة مستقبلنا ..

ومن ثم يتخلص المسلم من أغلاله ، فيعود كالنور دائم الحركة فى الصراع للخروج من العبودية إلى الحرية ، لا يكل ولا يمل ولا يكسل ، ولا يقبل العبودية الذليلة ..

إن تربية الأبناء على تعشق الحرية ، والسعي في رفع الاستبداد عن عقولهم، هو المقدمة الصحيحة لانطلاقهم لتمزيق غيوب الأوهام التى تمطر بالمخاوف .. وهو " بداية البدايات " فى طريق خروجنا من النفق المظلم الذي دخلناه .. نفق الانتحار الحضاري والانقراض المعنوي .. وعندها نصنع الحضارة ...

❀❀❀

الخـــاتمة

قد يكون من السهل تأليف كتاب فى التربية ، وقد يكون من اليسير أن نتخيل كيف يجب أن يكون أبناؤنا .. فخط المعاني على الورق أمره سهل ، وإنما الصعوبة الحقيقية والتحدي الأكبر هو نقش هذه المعانى فى صحف الحياة ومجريات الواقع؟!

إن كل منهج نظري سيظل حبرًا على ورق ما لم يتحوّل إلى واقع حي متحرك تراه العيون وتلمسه الأيدي وتلحظ آثاره العقول .. واقع حي لبشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادىء المنهج ومعانيه .. عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة .. وكما قيل بحق : حياة رجل فى ألف رجل ، خير من نصح ألف رجل لرجل .

لقد عرضت فى صفحات البحث المفاهيم التى تبلورت لديّ فى وسائل التعامل مع الأبناء ،فى محاولة لإصلاح حالنا التربوي الذى يثبت واقعه أن بيننا وبين مستواه المنشود مسافات شاسعة ..!!

وهي محاولة لا تعدو أفكارها أن تكون إجتهادًا يحتمل الخطأ والصواب..

ولا تعدو كلماتها أن تكون نبتة لينة تحمل بين جنباتها شوق الحياة ، والسعي إلى إثبات الذات ..

وأحسب – والله أعلم – أن أكثر القراء قد لاحظوا أن سلوك هذه الطريقة فى التربية والتعامل مع الأبناء يشبه إلى حد كبير النظر للأمام وللخلف فى آن واحد ؟!

فبينما نحاول رفع قدرة أبنائنا على الاعتزاز بأنفسهم عن طريق تشجيعهم والاهتمام بهم " حرّك رغبته **Motivate his desire** ، قدّر مجهوده **Appreciate**

his efforts ، أكرمه **Honour him** " .. لا بد لنا مع ذلك من تأديبهم بأسلوب يحترم مشاعرهم ، و يتفهم تفردهم " احترم مشاعره **Understand his feelings** تفهم تفرده **Understand his uniqueness** " .. ورغم أننا نريد أن نجنبهم العقبات والمزالق والأخطاء عبر " أرشده **Open his eyes** ، مده بالأخبار **News him** " فإن من واجبنا ألا نحرمهم من فرصة تعلم مهارات المحاولة التى تمكنهم من مواجهة التحديات عبر " درّبه **Train him** " ... وأخيرًا فإننا لا نستطيع أن نخرجهم صالحين أسوياء إلا أن نستمع إليهم و نقضي معهم وقتًا أطول ونتصل بهم اتصالًا صحيحًا " إستمع إليه **hear him** ، اتصل به **Contact him** "

... هذه هى الوسائل المقترحة للتعامل مع أبنائنا ، وهي لا تعدو أن تكون مثيرات ومنبهات للذين يقومون بـ " واجب " تربية أبناء هذا الجيل الذى نسأل الله عزوجل أن يكون جيلًا راشدًا ومرشّدًا .. لا أقصد منها زيادة " المعرفة " التى تحسب فى رصيد " الثقافة " ؛ إنما القصد أن تتحول هذه المعرفة إلى قوة تدفع كل أب ومرب إلى سلوك تلك الوسائل فى تربية أبنائه بفهم يدرك أن كفاءة الوسيلة تتوقف على حكمة مستخدمها .. و الأسلوب الذى يستخدمه للإستفادة منها .

ولا يمكن بالطبع وضع دستور مفصل لكل إبن .. إنما هي مبادىء عامة ، نترك بعدها لكل أب ومرب استنباط التطبيق المناسب للحالة التى يواجهها .. ونحن على يقين أنه سيبقى الخلاف قائمًا بين أب وأب ، ومرب وآخر فى " طريقة " التنفيذ .. فالتربية موهبة وعلم وفن ..

موهبة تجعل إنسانًا من الناس أقدر على التربية والتوجيه من غيره ..

وعلم يتلمسه الإنسان من الكتب والتجارب الشخصية أو للغير ..

وفن يجعل المربي قادرًا على تطبيق ما تعلمه بصورة تناسب الحالة التى أمامه .

وعندما تفشل الوسيلة التربوية فى حل مشكلتنا فهذا لا يعني دائمًا أنها وسيلة فاشلة .. بل يبقى احتمال آخر أن نكون قد أخطأنا فى تحديد المشكلة .. فإصلاح السيارة لا يجعلها أحسن إذا كانت المشكلة فى البنزين السيء ، وكون البطانية تشعرنا بالدفء لا يعني أن المدفأة قد تم إصلاحها ..!!

ولكي يحصل القارىء لهذا الكتاب على أقصى فائدة ، لا بد له من شجاعة تحمله على قبول الأفكار الجديدة ، وصبر يحمله على ألا يتعجل قطف الثمرة ، وإيمان جازم بأنه ليس لمشاكل أبنائنا التربوية حلًا سحريًا ، بل لا بد من بذل الجهد ، واكتساب المهارات التربوية بالتعلّم ..

ولا ينبغي لنا بعد أن نكتسب المهارات التربوية ، ونبذل كل جهودنا ، أن نتوقع الحصول على نتائج قريبة وحاسمة ، لأن التربية تتم فى وسط مجموعة من النظم المفتوحة ، ولا ندري على وجه الدقة نتائج تفاعل جهودنا التربوية مع تلك النظم ، ولذا فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام – وهم المؤيدون بالوحي – كانوا يدعون الله تعالى أن يصلح لهم ذرياتهم ؛ فلنكثر من دعاء الله تعالى لأبنائنا بالسداد والفلاح حيث تقصر أسبابنا عن بلوغ ما نريد .

وهذا – فى الحقيقة – ما كان يشجعني على دوام المحاولة مع أبنائي والدعاء لهم .. فقد كانت سلوكياتهم مرضية لي فى بعض الأحيان .. بينما كانت فى أحيان أخرى محبطة أو مشعرة لى بالذنب والتقصير فى تربيتهم ..

نعم.. كل هذا كنت أستشعره .. ولكننى أحاول التسديد ، فإن لم أستطع ، فإني أقارب ، فإذا يسّر الله السداد ، فالحمد لله .. وإن لم أوفق إليه ، فأسأله أن أكون قد أدركت المقاربة .. " سددوا وقاربوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله " «صحيح مسلم».

ولن يستطيع أحدنا أن يتقن التعامل مع أبنائه بنسبة مائة فى المائة ، بل ولا بنسبة قريبة ، فالتربية تعامل مع عالم الإنسان .. هذا العالم الغريب الذى يحوى

الكثير من المتغيرات . فلا يشعرنّ أحدنا بالإحباط لمرات الفشل فى الوصول إلى التربية المثلى ، وانما فقط " يحاول " مقاربتها على قدر الوسع والطاقة .. وليعلم أن التربية تحتاج إلى الرجل المكيث الذي يملك فضيلة الصبر على بذل الجهد المستمر، مع التطلع إلى الفرص المواتية .. وأن هذا الجهد المبذول هو قربة إلى الله ، فمن استطاع أن يتقرّب إلى الله أكثر فليحسن فى تربيته أكثر .

وإذا شعر البعض أنه ليس أهلًا لتلك المحاولة العظيمة ؟!! فليعلم أن هذا إحساس كاذب يجب أن يزيله من حياته تمامًا .. ذلك أن تربية الأبناء لا تحتاج نظريات تربوية بقدر احتياجها " إحساسًا " بالأبناء يهدي إلى الصواب فى التعامل معهم ، ويلهم الله به التوفيق فى تربيتهم .

أيها الأب .. أيتها الأم .. أيها المربون ..

أنتم قادة سيارة التربية ، فهل يذكر كل منكم كيف كانت قيادته لسيارته للمرة الأولى ؟ ألم يكن الواحد منكم يمسك بعجلة القيادة وكأنها لص يكاد أن يفر ولا بد من تسليمه للشرطة ؟ .. ثم من بعد أن تدرب على القيادة ، ألم تصبح تلك القيادة عملية آلية سلسة ؟ ..

هكذا هى عملية التربية ، قد تبدو فى البداية مسألة فى غاية الصعوبة ، ولكنها بعد ممارستها والتدريب عليها عملية فى غاية اليسر والسهولة ..

وأحب أن أقول فى الختام:

إن ما عرضته فى هذا البحث من وسائل لتربية الأبناء فى زماننا الصعب ليست قضايا مسلمة ووسائل مقدسة [١]، وإنما هي مجرد تجارب أب أدعوك من خلالها إلى الاستمتاع التلقائي من خلال صحبتك التربوية لأبنائك .. ذلك أن

---

(١) آمل أن تدفع آصرة التواصل ، ومبدأ المناصحة قارىء البحث للمراسلة تشجيعًا أو استدراكًا وتصحيحًا ومناصحة ..على العنوان التالي : ***humantouch٣ @hotmail.com***

نظريات التربية لا تؤدى أكثر من تعميق المعرفة ، ولكنها ليست كل المعرفة ..

وإنما صاحب المعرفة الكاملة هو قلب المربي أبًا أو أمًا ، و" المحبة " التى يحملها هذا القلب للأبناء ..

وستبقى القاعدة التربوية الثابتة لكل الآباء مع كل الأبناء " خذ قلبي وأرني ابتسامة سعادتك " .." خذ جهدى وامضِ إلى نجاحك " .. " خذ عون يدي واستشعر اللمسة الإنسانية " .

❁❁❁

فهرس المراجع والمصادر
" حسب الحروف الهجائية "

- القرآن الكريم:

١ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي – دار المعرفة

- السنة المطهرة:

٢ - صحيح البخاري ، للإمام / محمد بن إسماعيل البخاري – دار ابن كثير.

٣ - صحيح مسلم ، للإمام / مسلم بن الحجاج - دار إحياء التراث - مصر.

٤ - مسند الإمام أحمد ، للإمام / أحمد بن حنبل - دار إحياء التراث - مصر.

٥ - سنن الترمذي ، تحقيق أحمد شاكر وآخرين - دار إحياء التراث – بيروت .

٦ - سنن إبي داود / سليمان بن داود الأشعث

٧ - سنن النسائي – ترقيم أبي غدة .

٨ - الأحاديث الصحيحة ، الشيخ الألباني .

٩ - صحيح الجامع الصغير ، السيوطي – تحقيق الألباني (محمد ناصر الدين) – المكتب الإسلامي – بيروت

(أ)

١٠ - أب الدقيقة الواحدة – د. سبنسر جونسون –تعريب وإعداد سلوى يوسف – دار المؤيد

١١ - الآباء وتربية الأبناء – محمد عبدالرحيم عدس – دار الفكر – عمان .

١٢ - إبني لا يكفى أن أحبك – سلوى يوسف المؤيد – دار المعارف .

١٣ - إتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية – د. ماجد عرسان الكيلاني

١٤ - إحياء علوم الدين – أبو حامد الغزالي ، دار قتيبة .

١٥ - إخراج الأمة المسلمة – د. ماجد عرسان الكيلاني – كتاب الأمة ٣٠

١٦ - إدارة الأولويات – ستيفين كوفي – مكتبة جرير

١٧ - أدب الدنيا والدين – على بن محمد الماوردى – دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٨ - الأسرار العجيبة للاستماع والانصات – أكرم مصباح عثمان – دار ابن حزم .

١٩ - أسرار التفوق الدراسي – محمد ديماس – دار ابن حزم .

٢٠ - أسطوانة مدمجة – تربية الأبناء – دار التراث

٢١ - الإسلام بين الشرق والغرب – على عزت بيجوفيتش – موسسة بافاريا .

٢٢ - أصحاب الأخدود – رفاعي سرور .

٢٣ - الإعتصام- الإمام الشاطبي – المكتبة التجارية الكبرى

٢٤ - إعلام الموقعين – إبن القيم .

٢٥ - آفاق بلا حدود – محمد التكريتي – دار المنطلق .
٢٦ - أفراح الروح – سيد قطب – دار ابن حزم .
٢٧ - العبودية المختارة – إتيين دى لابواسيه – مكتبة مدبولي .
٢٨ - إليك أختي المربية – خولة درويش .
٢٩ - الأمة الإسلامية من التبعية إلى الريادة – محمد محمد بدري – دار الرسالة / مكة المكرمة .
٣٠ - أمريكا التي رأيت – سيد قطب – دار المدائن .
٣١ - أمسك عليك هذا – د. على الحمادى – دار ابن حزم
٣٢ - الإنصات الإنعكاسي – محمد دياس – دار إبن حزم
٣٣ - الإنفعالات – التشخيص والعلاج – د/ عبد العزيز محمد النغيمش – دار الفضيلة – الرياض .

(ب)

٣٤ - بناء الأجيال – د/ عبد الكريم بكار – المنتدى الإسلامي .
٣٥ - بين الآباء والأبناء ، حلول جديدة لمشاكل قديمة – تعريب صبرى الفضل – تأليف دكتور ج جينوت – مكتبة الدار العربية للكتاب .
٣٦ - بيت الدعوة – رفاعي سرور – دار الفرقان – مصر .
٣٧ - بين الرشاد والتيه – مالك بن نبي – دار الفكر
٣٨ - البداية والنهاية – ابن كثير – بيروت

(ت)

٣٩ - التربية الجادة ضرورة – محمد بن عبدالله الدويش – دار الوطن
٤٠ - التربية بالأمثال القرآنية – د . محمد القزاز – دار فرحة
٤١ - التربية على منهج أهل السنة والجماعة – أحمد فريد – الدار السلفية للنشر والتوزيع .
٤٢ - التغريب – محمد سليم قلاله – ص ١٥٥ – دار الفكر – سورية
٤٣ - التغيير الذكي – على الحمادي – إبن حزم .
٤٤ - التفكك الأسرى – الأسباب والحلول المقترحة –كتاب الأمة ٨٣
٤٥ - التفكك الأسرى – دعوة للمراجعة – كتاب الأمة ٨٥ .
٤٦ - التميز فى فهم النفسيات – أكرم مصباح عثمان – دار إبن حزم .
٤٧ - تربية الأبناء علم له أصول – د . سعيد إسماعيل علي – كتاب اليوم الطبي .
٤٨ - تربية الأبناء فى الزمن الصعب – د. سبوك – الدار العربية للدراسات والنشر .
٤٩ - تربية الأطفال فى رحاب الإسلام – محمد الناصر ، خولة درويش – مكتبة السوادى.
٥٠ - تربية الأولاد فى الإسلام – عبدالله ناصح علوان – دار السلام
٥١ - تطور مفهوم النظرية التربوية – د. ماجد عرسان الكيلاني .
٥٢ - تشاجر الأشقاء – محمد دياس – دار إبن حزم
٥٣ - تفسير القرآن العظيم _ أبو الفدا إسماعيل بن كثير .

٥٤ - تفسير النسفي .
٥٥ - تهذيب مدارج السلكين - عبد المنعم صالح العلي .

(ث)

٥٦ - ثغرة فى الطريق المسدود - د/ سيد دسوقي حسن - دار آفاق الغد - القاهرة
٥٧ - ثقافة الداعية - د . يوسف القرضاوي .
٥٨ - ثلاثون طريقة لتوليد الأفكار الإبداعية - د.علي الحمادي - دار إبن حزم
٥٩ - ثوابت للمسلم لمعاصر - د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي - دار الإسراء

(ج)

٦٠ - الجولة الأخيرة _ أحمد هاني حافظ - مؤسسة الرسالة
٦١ - جامع بيان العلم وفضله - ابن عبد البر
٦٢ - جدد حياتك - محمد الغزالي - دار القلم .
٦٣ - جذور الاستبداد - د/ عبد الغفار مكاوي - سلسلة عالم المعرفة - ١٩٢
٦٤ - جوانب التربية الإسلامية - مقداد ياجن

(ح)

٦٥ - الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية - أحمد الصويان - دار الوطن .
٦٦ - حاول أن تروضني - راى ليفي - مكتبة جرير .
٦٧ - حتى لا تكون كلاً - د.عوض القرني - دار الأندلس الخضراء .
٦٨ - حقيقة الإنتصار - د. ناصر العمر.
٦٩ - حكمة الدعوة - رفاعي سرور - مكتبة وهبه .

(خ)

٧٠ - الخطأ من سنة البشر - د. أحمد محمد العليمي - دار ابن حزم .
٧١ - خصائص التصور الإسلامي - سيد قطب - دار الشروق .
٧٢ - خفايا المراهقة - معروف زريق - دار الفكر - ص ١٢٤ بتصرف
٧٣ - خلق المسلم - محمد الغزالي - دار القلم ، دمشق .
٧٤ - خمس خطوات لتعديل سلوك طفلك - د/ عادل رشاد غنيم - الدار السعودية للنشر والتوزيع .

(د)

٧٥ - دراسات إسلامية - سيد قطب - دار الشروق .
٧٦ - دليل التدريب القيادى - د. هشام الطالب - المعهد العالمي للفكر الإسلامي
٧٧ - دليل التربية الأسرية - أ. د/ عبد الكريم بكار - دار الأعلام ، مكتبة دار البيان الحديثة

(ر)

٧٨ - الرائد - مجلة الطلائع الإسلامية - الدار الإسلامية للإعلام - بون .

٧٩ - الرحيق المختوم – صفي الرحمن المباركفوري – مكتبة المؤيد .
٨٠ - رسائل ابن تيمية – دار الأرقم .
٨١ - رسائل العاملين – د. جاسم مهلهل الياسين – مؤسسة الكلمة .
٨٢ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين – إبن القيم – دار الكتاب العربي – بيروت

(س)

٨٣ - السيرة النبوية – إبن هشام – دار ابن كثير
٨٤ - سياسات تربوية خاطئة – محمد دياس – دار إبن حزم .
٨٥ - سيد قطب الشهيد الحي – د . صلاح الخالدي . مكتبة الأقصى – عمان
٨٦ - سير أعلام النبلاء – دار الفكر .

(ش)

٨٧ - شخصية مصر _ د/ جمال حمدان – ص ٥٢ بتصرف - سلسلة مكتبة االأسرة
٨٨ - شروط النهضة – مالك بن نبي – دار الفكر – سورية .

(ص)

٨٩ - صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم – الشيخ عبد الرحمن الدوسري – مكتبة دار الأرقم
٩٠ - صناعة النجاح – د. طارق السويدان ، أ.فيصل باشراحيل – دار الأندلس الخضراء –ط٣ ١٤٢٢هـ

(ط)

٩١ - الطب النبوي – إبن القيم
٩٢ - الطب النفسي والدعوة إلى الله – د. عبدالله الخاطر – المنتدى الإسلامي .
٩٣ - طبائع الاستبداد – عبد الرحمن الكواكبي
٩٤ - طريق البناء التربوي الإسلامي – د.عجيل جاسم النشمي – دار الدعوة – الكويت .
٩٥ - ٢٠ طريقة للتأثير في نفس الطفل وعقله – محمد دياس – دار ابن حزم
٩٦ - ٢٥ طريقة لتصنع من إبنك رجلاً فذاً – أكرم مصباح عثمان- دار إبن حزم
٩٧ - ٣٠ طريقة لتوليد الأفكار الإبداعية – د.علي الحمادي – دار ابن حزم .

(ع)

٩٨ - العادات السبع للقادة الإداريين – ستيفين كوفي – المؤسسة العربية للنشر .
٩٩ - العوائق – محمد أحمد الراشد – مؤسسة الرسالة .
١٠٠ - عصرنا والعيش في زمانه الصعب – د. عبد الكريم بكار – دار القلم .
١٠١ - علم النفس الدعوى – د.عبد العزيز النغيمشي – دار المسلم – الرياض .
١٠٢ - علو الهمة – محمد أحمد إسماعيل – مكتبة الكوثر – الرياض .
١٠٣ - عندما ترعى الذئاب الغنم / رفاعي سرور / دار الفرقان – مصر
١٠٤ - عوامل النصر والهزيمة عبر التاريخ الإسلامي – شوقي أبو خليل – دار الفكر ، دمشق

(غ)

١٠٥ - الغلام المؤمن - محمد محمد بدري - دار الصحابة - بيروت

(ف)

١٠٦ - الفكر التربوي عند إبن تيمية - د. ماجد عرسان الكيلاني .
١٠٧ - فتح البارى - ابن حجر العسقلاني - دار الفكر
١٠٨ - فنون الحوار والإقناع - محمد دياس - دار إبن حزم
١٠٩ - فن تنشئة الأطفال - عكاشة عبد المنان الطيبي - دار الجيل - بيروت
١١٠ - فى النفس والدعوة - رفاعي سرور - دار هادف
١١١ - فى ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق .

(ق)

١١٢ - القواعد - إبن رجب الحنبلي .
١١٣ - قدرات غير محدودة - أنتونى روبنز - مكتبة جرير .
١١٤ - قضايا الأبناء فى عالم متغير - آمال الشرقاوي - مكتبة الأسرة .
١١٥ - قواعد وفنون التعامل مع الآخرين . د. على الحمادى ، دار ابن حزم

(ك)

١١٦ - الكنز الذى لا يكلف درهماً - د. على الحمادى . دار ابن حزم
١١٧ - كيف تتعاملين مع أبنائك - جمال الكاشف .
١١٨ - كيف تتمتع بالثقة والقوة - لس . جبلين - مكتبة جرير .
١١٩ - كيف تحل مشكلاتك ببساطة - دونالد نوون - دار الكتاب العربي .
١٢٠ - كيف تغيّر سلوك طفلك - محمد دياس - دار إبن حزم
١٢١ - كيف تقولها لأطفالك - بول كولمان - مكتبة جرير - الرياض .
١٢٢ - كيف تكسب الأصدقاء ، ديل كارنيجى - دار مكتبة الهلال .
١٢٣ - كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك - د. سال سيفير - مكتبة جرير
١٢٤ - كيف تنتقد الآخرين ، وتستولي على محبتهم واحترامهم - أكرم عثمان - دار ابن حزم .
١٢٥ - كيف تنشىء طفلاً يتمتع بذكاء عاطفي - لورانس إ . شابيرو - مكتبة جرير .

(ل)

١٢٦ - لا تحزن - د . عائض القرني - مكتبة العبيكان
١٢٧ - لا تكن شبحاً - د. على الحمادى . دار ابن حزم
١٢٨ - لا تكن كصاحب الجباعة - د. على الحمادى . دار ابن حزم
١٢٩ - لا تهتم بصغائر الأمور فى أسرتك - د. ريتشارد كارلسون- مكتبة جرير
١٣٠ - لا تهتم بصغائر الأمور فى العمل - د. ريتشارد كارلسون- مكتبة جرير
١٣١ - لا تهتم بصغائر الأمور فكل الأمور صغائر - د. ريتشارد كارلسون
١٣٢ - لا تهتم بصغائر الأمور مع المراهقين - د . ريتشارد كارلسون- مكتبة جرير

١٣٣ - للنجاح مع الناس – جيمس فان فليت – مكتبة جرير .
١٣٤ - لماذا نرفض العلمانية – محمد محمد بدري – دار إبن الجوزي – الدمام .
١٣٥ - لمسة حنان – جاسم المطوع – مصابيح الهدى .

(م)

١٣٦ - المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة – د . عبد الكريم زيدان .
١٣٧ - المقاصد العامة للشريعة الإسلامية – بن زغيبة عز الدين – دار الصفوة – الغردقة .
١٣٨ - المداراة التربوية – أحمد العليمي – دار إبن حزم (ثلاثة أجزاء)
١٣٩ - المراهقون – عبدالعزيز النغيمشي ، دار المسلم .
١٤٠ - المنطلق – محمد أحمد الراشد – مؤسسة الرسالة
١٤١ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوي – الاتحاد الاسلامي العالمي .
١٤٢ - مختصر دراسة التاريخ . أرنولد توينبي . ترجمة فؤاد محمد شبل ، جامعة الدول العربية
١٤٣ - مجموع فتاوى إبن تيمية – الإمام ابن تيمية
١٤٤ - مجلة البيان – المنتدى الإسلامي – لندن .
١٤٥ - مجلة ولدي
١٤٦ - مدارج السالكين – ابن القيم – دار التراث العربي .
١٤٧ - مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة - عدنان حسن باحارث – رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى –١٤٠٩ هـ
١٤٨ - معالم في الطريق – سيد قطب – دار الشروق
١٤٩ - مفاهيم ينبغي أن تصحح – محمد قطب – دار الشروق
١٥٠ - مقاومة المقاومة – د.علي الحمادي – دار ابن حزم .
١٥١ - مقدمات للنهوض بالعمل الدعوى – د . عبدالكريم بكار – دار القلم
١٥٢ - مقدمة ابن خلدون – ابن خلدون .
١٥٣ - مقدمة في علم التفاوض الاجتماعي والسياسي، د. حسن محمد وجيه – سلسلة عالم المعرفة .
١٥٤ - مقومات التصور الإسلامي – سيد قطب – دار الشروق .
١٥٥ - مقومات الشخصية المسلمة – د/ ماجد عرسان الكيلاني – كتاب الأمة ٢٩
١٥٦ - من أجل إنطلاقة حضارية شاملة – د.عبدالكريم بكار – دار المسلم (جزءان)
١٥٧ - منهج التربية الإسلامية – محمد قطب –دار الشروق
١٥٨ - منهج الفن الإسلامي – محمد قطب – دار الشروق .
١٥٩ - موسوعة الطفل الصحية والنفسية – عكاشة عبد المنان الطيبي – دار الجيل .
١٦٠ - مواقع إنترنت :

موقع المربى	*www. almurabbi.com*
موقع الراشد	*www.alrashed.net*
موقع الأستاذ جاسم المطوع	*www.almutawa.info*
موقع عالم النور	*www.alnoor-world.com*

موقع صيد الفوائد www.saaid.net

(ن)

١٦١ - نحو المعالي - محمد أحمد الراشد - دار المجتمع .

١٦٢ - نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي - د/ عبد الكريم بكار - دار المسلم - الرياض .

(هـ)

١٦٣ - هذا الدين - سيد قطب - دار الشروق

(و)

١٦٤ - وإذا غلا شيء علي تركته - د. علي الحمادي . دار ابن حزم .

١٦٥ - وحي القلم - مصطفى صادق الرافعي - دار بن زيدون - بيروت

١٦٦ - ١٣ وسيلة لتغيير السلوك غير المرغوب فيه - محمد ديماس - دار ابن حزم .

(ى)

١٦٧ - ٢١ يوماً للحصول على القوة والسلطة فى تعاملك مع الآخرين - جيمس ك . فانفليت - مكتبة جرير.

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٧
المقدمة	١٠
تمهيد	١٥
الباب الأول استمع إليه	٤٥
الفصل الأول: المهارة الصامتة	٤٧
الفصل الثاني: السحر الأبيض	٧١
الفصل الثالث: السير فوق الخيط الرفيع	٩٥
الباب الثاني: احترم مشاعره	١١٣
الفصل الأول: أسمع القلب.. تملك العقل	١١٥
الفصل الثاني: حتى لا يتآكل الحب	١٣٠
الفصل الثالث: التوبيخ يهتك حجاب الهيبة	١٤٥
الباب الثالث: حرك رغبته	١٦٣
الفصل الأول: قلب التحفيز النابض	١٦٥
الفصل الثاني: في رحلة الحياة	١٨٩
الباب الرابع: قدر جهوده	٢١٧
الفصل الأول: التقدير المحفز الأقوى	٢١٩
الفصل الثاني: إذا أردت أن تطاع	٢٣٨

الباب الخامس: مده بالأخبار ٢٥٧
الفصل الأول: مدرسة الحياة ٢٥٩
الفصل الثاني: راوي قصص لا مُصْدِر أوامر ٢٨٣
الباب السادس: دربه ٣١٣
الفصل الأول: المسئولية تطور الشخصية ٣١٥
الفصل الثاني: المران يصنع الإتقان ٣٣٦
الفصل الثالث: الاتكالية بحر الحرمان ٣٥١
الباب السابع: أرشده ٣٦٩
الفصل الأول: صناعة الإنسان الصالح ٣٧١
الفصل الثاني: مهارة المواجهة برفق ٤٢٣
الفصل الثالث: التأديب لا يعني العقاب ٤٥٣
الباب الثامن: تفهم تفرده ٤٨٥
الفصل الأول: ابنك ليس أنت؟! ٤٨٧
الفصل الثاني: إنه كائن متفرد ٥١٤
الباب التاسع: اتصل به ٥٣٧
الفصل الأول: التواصل.. السعادة الحقيقية ٥٣٩
الفصل الثاني: المداعبة.. المظلة الواقية ٥٦٠
الفصل الثالث: الجفاء .. الاستقالة التربوية ٥٨٠
الباب العاشر: أكرمه ٥٩٩
الفصل الأول: ولقد كرمنا بني آدم ٦٠١
الفصل الثاني: التربية الاستقلالية ٦٢٩
الفصل الثالث: العبيد لا يصنعون حضارة ٦٥٤
الخاتمة ٧٠٧
فهرس المراجع ٧١٢
فهرس الموضوعات ٧١٩